OCCUPYING IRAQ

إحتلال العراق

مشاهدات مراسل حربي مرافق للجيش البريطاني 1917

تاريخ
HISTORY

إدموند كاندلر

ترجمة:
محمد حسن علاوي
خضر علي سويد



دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع

إدموند كاندلر

EDMUND CANDLER

إحتلال العراق

يتناول هذا الكتاب سير الحملة العسكرية البريطانية بقيادة الجنرال مود في بلاد ما بين النهرين واحتلال بغداد في عام 1917. ويتضمن الكتاب واحداً وعشرين فصلاً تتحدث عن مراحل تقدم القوات البريطانية ابتداءً من مدينة الحي والصناعيات صعودا مع مجرى نهري دجلة والفرات إلى أن وصلت الحملة إلى مدن هيت وخان البغدادي وحديثة غرب الرمادي في أعالي نهر الفرات، ومدن قرة تبة وكفري وطوزخورماتو وجبال حمرين وكركوك والتون كوبري في أعالي نهر دجلة.

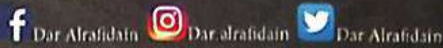
رافق مؤلف الكتاب إدموند كاندلر القوات البريطانية في هذه الحملة وهو بمثابة شاهد عيان رسمي عليها في بلاد ما بين النهرين؛ لذلك كتب عنها باسهاب وبتفاصيل دقيقة، واتبع أسلوباً وصفياً سردياً للأحداث، استعمل فيه الكثير من التعابير المجازية. وشهد جميع المعارك في أثناء سير تقدمها. وعانى ما كان يعاني منه الجنود من صعوبات التنقل في ظل الطقس الرديء من جرَّاء الأمطار والأوحال والفيضانات وعبور الأنهار خلال فصل الشتاء، ومن الحر الشديد والذباب والغبار في فصل الصيف.






ISBN 978-1-7732204-2-0
9 781773 220420

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 1751055 961+ / 1541980 961+
daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com




إحتلال العراق

مشاهدات مراسل حربي
مرافق للجيش البريطاني

إحتلال العراق
مشاهدات مراسل حربي
مرافق للجيش البريطاني

Occupying Iraq
Views of Wars Reporter
Accompanied the British Army.

إدموند كاندلر

ترجمة: محمد حسن علاوي/ خضر علي سويد

التدقيق اللغوي: أ.د.عهود العكيلي

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017

First Edition: Beirut - Lebanon, 2017



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain1
DAR ALRAFIDAIN@maassourati

ISBN: 978 - 1- 77322- 042- 0

ملاحظة: العنوان الأساسي للكتاب هو «The Long Road To Baghdad» وقد تمّ تعديله لأسباب فنية. (الناشر)

إدموند كاندلر

إحتلال العراق

مشاهدات مراسل حربي مرافق للجيش البريطاني

الجزء الأول

ترجمة

محمد حسن علاوي

خضر علي سويد

التدقيق اللغوي

أ. د. عهود العكيلي



www.daralrafidain.com

إحتلال العراق

بقلم إدموند كاندلر

شاهد عيان رسمي أخير في بلاد وادي الرافدين[1]

تسع عشرة خارطة وست عشرة لوحة متدرجة اللون تقع في مجلدين

(1) عمل الكاتب مراسلاً حربياً لصالح صحيفة الغارديان البريطانية خلال الحملة البريطانية لاحتلال العراق. وكان يعبّر عن استيائه فيما يتعلق بطريقة إدارة الحرب في العراق والتعتيم على الخسائر التي يمنى بها الجيش البريطاني نتيجة مقاومة الشعب العراقي والجيش التركي في العراق. (المترجم).

إلى أخي هنري كاندلر

كلمة المترجم

يتناول الصحفي والروائي البريطاني البارز إدموند كاندلر (1874-1926) في كتابه هذا الذي صدر عام 1919 في المجلد الأول المؤلف من أربعة وعشرين فصلاً سير الحملة البريطانية لاحتلال العراق منذ مغادرة قوة الحملة الهند في السادس عشر والثامن عشر من تشرين الأول 1914 وتجمُّعها في البحرين ثم توجهها إلى العراق لاحتلال الفاو والشعيبة والكوت والناصرية ومدن العراق الأخرى في الجنوب والوسط، ثم يستعرض تقهقرها عند أسوار بغداد وهزيمتها في مدينة الكوت وتكبّدها في تلك المعركة خسائر فادحة في أثناء محاصرتها في المدينة واستسلام أكثر من تسعة آلاف مقاتل. وقد واجهت القوات البريطانية فضلاً عن الإصابات من جراء المعارك ظروفاً جوية متطرفة لم تكن متكيفة معها زيادة على الأمراض التي فتكت بها. ويختتم المجلد الأول بفصل يتناول الطقس الحار بعد سقوط الكوت والفترة المأساوية الطويلة التي مرَّت بها القوات البريطانية.

تميز أسلوب الكاتب الذي عمل مراسلاً حربياً لصحيفة الغارديان البريطانية خلال الحملة البريطانية لاحتلال العراق بالسرد القصصي مع إشارات إلى معلومات أدبية وثقافية وتاريخية تتضمن تفاصيل تعبّر عن المعاناة الإنسانية التي واجهها أفراد الجيش البريطاني في المعارك الملحمية التي خاضها مع الجيش العثماني، ومواجهة الطقس الحار والأمراض التي فتكت بالجيش وأرهقته واستنزفت الكثير من قواته. ولغرض توضيح النص توضيحاً جلياً فقد خصصتُ الهوامش في نهاية كل صفحة ذكرتُ فيها المعلومات التاريخية والثقافية والدلائل التي كان الكاتب يقصد بها.

لقد عبَّر الكاتب عن استيائه من إدارة الحرب في العراق والتعتيم الإعلامي الذي تمارسه الإدارة البريطانية عن الخسائر التي منيت بها القوات البريطانية في العراق

وكانت معركة الكوت تمثل وصمة عار في تاريخ الجيش البريطاني. وكيف ضاع الجيش البريطاني في التفاصيل بسبب الحماقة التي ارتكبها رجال الدولة والجنرالات في الصراع مما زاد من درجة التخبُّط وجعلَ من الواضح أن تذهب تضحيات القوات أدراج الرياح، ويعتقد الكاتب أن هناك إنكاراً للجميل حينما تم تجاهل القوة التي حاربت مع الجنرال طاوزند والتي كانت في حالة ضياع كامل ومحنة لما أصابها من نقص في الطعام والتجهيزات فضلاً عن الأمراض التي فتكت بها.

تضمن الكتاب الكثير من الصور والرسوم التوضيحية التي تبيِّن سير المعارك والمناطق التي حدثت بها، وهذا ما يعزز من رصانة الكتاب الذي يعد وثيقة تاريخية تسجل سير أحداث مرَّت بالعراق في ظل احتلالين هما: الاحتلال العثماني والبريطاني يسعى إليها الباحثون والدارسون والمهتمون بتاريخ العراق.

من الملاحظ أن الكاتب في الفصل الثالث أو في مواضع أُخرى من الكتاب قد أورد بعض العبارات المسيئة للقبائل العربية في جنوب العراق في أثناء الحرب العالمية الأولى وبخاصة القبائل التي وقفت بالضد من الاحتلال البريطاني وأنا ملزم بترجمة النص كما ورد عن المؤلف وما ذكره الكاتب لا يمثل وجهة نظر المترجم.

المقدمة

كُتب الجزء الأكبر من هذا الكتاب عن مشهد أحداث موصوفة وعلى مر التاريخ، لم ينشر إلّا النزر اليسير فيما يتعلق بالأعمال التي قام بها جيشنا ومعاناته في بلاد وادي الرافدين وطبيعة علاقاتنا مع الناس فيه، وعلى الرغم من تعييني بصفة «شاهد عيان» رسمي إلّا أني كنتُ مكمّم الفم دائماً بسبب الرقابة المفروضة التي كانت ومنذ البداية مصدر حيرة وإرباك لقواتنا؛ لأنها كانت تثير الحنق والفرح بدرجة متساوية وأصبح الغموض تقليداً متبعاً بعد أنْ أصبحت الرقابة شمّاعة لإخفاء قلقنا من الأتراك بدلاً من كونها واحةً لافتراضات سهلة. ولم يكن الغموض والسرية اللذان يكتنفان الوضع العسكري والسياسي هما السائدان عندما تكون هناك درجة كبيرة من الإخفاء فحسب، بل استمر الوضع حتى عندما كانت الأمور تسير سيراً حسناً. ففي ظل الظروف السائدة وإن كانت استثنائية فقد وجدتَ قناعة محددة لكتابة هذه القصة التي لم يكن فيها شيء يمكن تجاوزه، وعلى الرغم من أني كنت شاهد عيان رسمياً في بلاد وادي الرافدين إلا أنني لستُ ذا صفة رسمية في هذه المجلدات. لقد شاهدتُ الحملة من خلال عيون الجيش وآمل أن أوفق في ذلك.

وبعد إعادة قراءة بعض الفصول الأولى وبعد مرور أشهر عدة على كتابتها اكتشفتُ سبب هذا الهوس الذي تَملّكني بعد الحملة وحالي حال أي إنسان آخر فإذا ما أصابت إنسان نفحة من رائحة اليود المنبعثة من ملابس في المستشفى فإنَّه ينتابه شعور المريض نفسه الذي يواجه الصدمة وإعادة إحياء الذكريات الأليمة. قد يضطر الإنسان أن يسهب في الحديث عن مجد الحرب إلّا أنه قد لا يذرف الدموع على الموتى والجرحى الذين سقطوا في ساحة الوغى، وكانت غريزتي تتجه نحو تصحيح هذه المسارات لإعادة كتابتها بطريقة تقليدية صحيحة، فالسلوى الوحيدة

وكانت معركة الكوت تمثل وصمة عار في تاريخ الجيش البريطاني. وكيف ضاع الجيش البريطاني في التفاصيل بسبب الحماقة التي ارتكبها رجال الدولة والجنرالات في الصراع مما زاد من درجة التخبُّط وجعلَ من الواضح أن تذهب تضحيات القوات أدراج الرياح، ويعتقد الكاتب أن هناك إنكاراً للجميل حينما تم تجاهل القوة التي حاربت مع الجنرال طاوزند والتي كانت في حالة ضياع كامل ومحنة لما أصابها من نقص في الطعام والتجهيزات فضلاً عن الأمراض التي فتكت بها.

تضمن الكتاب الكثير من الصور والرسوم التوضيحية التي تبيِّن سير المعارك والمناطق التي حدثت بها، وهذا ما يعزز من رصانة الكتاب الذي يعد وثيقة تاريخية تسجل سير أحداث مرَّت بالعراق في ظل احتلالين هما: الاحتلال العثماني والبريطاني يسعى إليها الباحثون والدارسون والمهتمون بتاريخ العراق.

من الملاحظ أن الكاتب في الفصل الثالث أو في مواضع أُخرى من الكتاب قد أورد بعض العبارات المسيئة للقبائل العربية في جنوب العراق في أثناء الحرب العالمية الأولى وبخاصة القبائل التي وقفت بالضد من الاحتلال البريطاني وأنا ملزم بترجمة النص كما ورد عن المؤلف وما ذكره الكاتب لا يمثل وجهة نظر المترجم.

المقدمة

كُتب الجزء الأكبر من هذا الكتاب عن مشهد أحداث موصوفة وعلى مر التاريخ، لم ينشر إلّا النزر اليسير فيما يتعلق بالأعمال التي قام بها جيشنا ومعاناته في بلاد وادي الرافدين وطبيعة علاقاتنا مع الناس فيه، وعلى الرغم من تعييني بصفة «شاهد عيان » رسمي إلّا أني كنتُ مكمّم الفم دائماً بسبب الرقابة المفروضة التي كانت ومنذ البداية مصدر حيرة وإرباك لقواتنا؛ لأنها كانت تثير الحنق والفرح بدرجة متساوية وأصبح الغموض تقليداً متبعاً بعد أنْ أصبحت الرقابة شمّاعة لإخفاء قلقنا من الأتراك بدلاً من كونها واحةً لافتراضات سهلة. ولم يكن الغموض والسرية اللذان يكتنفان الوضع العسكري والسياسي هما السائدان عندما تكون هناك درجة كبيرة من الإخفاء فحسب، بل استمر الوضع حتى عندما كانت الأمور تسير سيراً حسناً. ففي ظل الظروف السائدة وإن كانت استثنائية فقد وجدتَ قناعة محددة لكتابة هذه القصة التي لم يكن فيها شيء يمكن تجاوزه، وعلى الرغم من أني كنت شاهد عيان رسمياً في بلاد وادي الرافدين إلا أنني لستُ ذا صفة رسمية في هذه المجلدات. لقد شاهدتُ الحملة من خلال عيون الجيش وآمل أن أوفق في ذلك.

وبعد إعادة قراءة بعض الفصول الأولى وبعد مرور أشهر عدة على كتابتها اكتشفتُ سبب هذا الهوس الذي تَملّكني بعد الحملة وحالي حال أي إنسان آخر فإذا ما أصابت إنسان نفحة من رائحة اليود المنبعثة من ملابس في المستشفى فإنّه ينتابه شعور المريض نفسه الذي يواجه الصدمة وإعادة إحياء الذكريات الأليمة. قد يضطر الإنسان أن يسهب في الحديث عن مجد الحرب إلّا أنه قد لا يذرف الدموع على الموتى والجرحى الذين سقطوا في ساحة الوغى، وكانت غريزتي تتجه نحو تصحيح هذه المسارات لإعادة كتابتها بطريقة تقليدية صحيحة، فالسلوى الوحيدة

لمؤرخ الحرب الذي يعتد بنفسه هي أنه قد يثير عهوداً مرَّت في ميدان لم يقم فيه حساباً للموت. بيد أن القتال الذي خاضته القوات البريطانية في بلاد وادي الرافدين للفترة من كانون الثاني إلى نهاية نيسان 1916 ليس له نظير في أي قتال آخر خاضته تلك القوات. وما رأيته هو ضياع جيش في التفاصيل، فالحماقة التي ارتكبها رجال الدولة والجنرالات في الصراع زاد من درجة التخبُّط وجعل من الواضح أن تذهب تضحيات القوات سدًى وكان هناك إنكار للجميل حينما تم تجاهل القوة التي حاربت مع الجنرال طاوزند والتي كانت في حالة ضياع كامل ومحنة لما أصابها من نقص في الطعام والتجهيزات فضلاً عن الأمراض التي فتكت بها في أحيان كثيرة. وإذا ما ألقيتُ نظرة لما حدث أرى أنه من الطبيعي أن أرثي بصفتي شاهد عيان غير مقاتل ولا أُمجِّد المأساة التي حلَّت بجيشنا والتي ليس لها نظير في تأريخه؛ لذا تركت المسارات الحزينة غير الصحيحة لأرى أكثر من حقيقة تجول في نفوس مقاتلينا.

فيما يتعلق بالخطط الاستراتيجية والتكتيكية لم أبلور رأياً قبل الأخذ برأي الرجال الذين يمتهنون الحرب وفي كل وجهة نظر أستشير المقاتلين الذين أثق بحكمهم بيد أنَّ خوض الحرب يستلزم مني تناول الأمور من زوايا مختلفة أكثر من أي علم آخر. ولم يكن الأمر منوطاً بالاختلاف في الرأي فيما ينبغي خوض حرب محددة فحسب بل هناك اختلاف كامل في كيفية خوضها، ويحدث هذا الاختلاف كذلك بين الضباط الذين يشاركون في المعركة فضلاً عن ضباط الأركان المسؤولين عن العمليات ويتسم عملي بصفتي مؤرخاً في اكتشاف القاسم المشترك الأصغر للحقيقة في هذه الأدلة المتناقضة. وتحمل كل من معارك دُجيلة والصناعيات ومحمد عبد الحسن هذه التناقضات وربما لا يوجد عمل موضح في هذا الكتاب لا يحمل في طياته من تناقض وموضع جدل من شخص إلى آخر ويكون الحكم أحياناً على كتائب تخوض معركة جنباً إلى جنب مختلفة تماماً ولاسيما في حالة الفشل فالذين يشاهدون معركة من وجهة النظر نفسها قد ينقلون قصصاً مختلفةً.

لقد حال تدهور حالتي الصحية دون متابعتي للعمليات التي جرت على نهر دجلة وشط العظيم مباشرة بعد السيطرة على بغداد. وكتبتُ روايتي عن هذا القتال بعد استشارة ضباط أركان كتائب وألوية وفِرَق وفيالق؛ لأن وجهة النظر المحلية للكتيبة

تركّز أكثر على وجهة نظر واحدة بينما يكون منظور هيئة الأركان شاملاً وواسعاً عندما نريد إعطاء صورة مفصّلة. ويكون المنظور الأول مكملاً للآخر إلّا أن إعطاء وصف للمعارك يختلف من شخص إلى آخر وقد يكون فيه الكثير من نقص المعلومات وقد يجد القارئ غير العسكري في سرد هذه العمليات بعض الملل بعد الأحداث المثيرة التي سبقتها.

قد تطول قائمة الضباط الذين أدينُ لهم بالفضل لما قدّموه من تحرٍّ ونقدٍ ومعلومات وقد يكون من المستحيل بمكان ذكر أسمائهم، وفيما يتعلق بالصور، أقدم شكري وامتناني للسيدة كينيون والجنرال بيلز والمقدّم بيريمان والرواد باول وريموند وبستو.

الفصل الأول

التمهيد

تغطي قصتي «الطريق الطويل إلى بغداد» ثلاثة مواضع لحملة بلاد وادي الرافدين. تبدأ بمقدمة قوة التحرير من علي الغربي وهي حجر الزاوية لسقوط الكوت والثانية الاستيلاء على سامراء والثالثة الهدنة واستسلام الجيش التركي عند مدينة شرقاط علي. وكان دخولنا إلى بغداد بالنسبة للجندي أمراً مسلّماً به. فمن المنطقي ومن وجهة النظر العسكرية كان لابدّ من التوسع في ذكر العمليات التي جرت لتأمين دفاعاتنا وتعزيزها من تاريخ بدء الحملة إلى سقوط المدينة، فهزيمة فيلقين للعدوّ والاستيلاء على نهاية خط السكك الحديد في سامراء والقتال الشرس الذي جرى في الحملة كان مقدمة لدخول قواتنا مدينة بغداد في الحادي عشر من آذار. وسيتم سرد قصة تقدمنا تجاه المدينة والعمليات اللاحقة في المجلد الثاني. ويختتم المجلد الأول بفصل يتناول الطقس الحار بعد سقوط الكوت ويغطي الفترة المأساوية وفترة التحضيرات الطويلة قبل أنْ تكون قواتنا في وضع يسمح لها بتحقيق النجاح.

لم تكن سياسة التوغُّل في بلاد وادي الرافدين بعيدة عن شط العرب ونهر الكارون صائبة أو مضمونة النتائج. فحالما استقر الأمر عند القرنة والعمارة كنا في موقف جيد لحماية حقول النفط الأنكلو - فارسية وحماية الخليج إلا أن الدوافع السياسية كانت تضغط باتجاه الاستمرار في المعارك على الرغم من أن الأمر المُسَلَّم به هو أن الأسباب السياسية ينبغي أنْ تكون في خدمة الأسباب الاستراتيجية التي سيتم إقرارها في النهاية، وفي بلاد وادي الرافدين كانت العقوبة الصارمة لمخالفة هذا الأمر أكثر وطأة؛ لأنَّ سياستنا كانت واحدة من السياسات الانتهازية. فقد

أوضح السيد اسكويت في مجلس العموم (في الثاني من تشرين الثاني 1915) بأن الاعتراضات المتواصلة على تقدُّمنا هي «الضمان حيادية العرب» وبوجه عام الحفاظ على نفوذنا في الشرق «ولو كانت لدينا رؤية واضحة منذ البداية فيما يتعلق بما يجب عمله ولو توَّقفنا لَتمكَّنا من تهيئة الوسائل المناسبة وهيأنا أنفسنا لمواجهة وطأة التضحيات بالرجال والمعدات الحربية. وعلى الرغم من أن أهدافنا لم تكن واضحة. فقد اندفعنا بتهوّر من القرنة إلى العمارة ومن العمارة إلى الكوت ومن الكوت إلى المدائن. وكان هناك قصور كامل في الرؤية الخاصة بتنسيق مواردنا لتتلاءم مع أهدافنا فقد كان من المستحيل الدفاع عن بغداد بعد إحكام السيطرة عليها في تشرين الثاني 1915 بدون وجود مواصلات لنقل تعزيزاتنا إلى الجبهة عندما تصل العراق. واستمرت القصة القديمة من سياسة الغموض غير المدروس وتبذير الموارد والتردُّد وعدم حَسم الأشياء الضرورية والثقة العمياء بالوسائل السريعة حتى النهاية.

قال السيد اسكويت في خطابه الذي ألقاه في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني أمام مجلس العموم: «إننا قاب قوسين أو أدنى من بغداد». وفي الوقت نفسه ظهر عدم الارتياح في الصحافة الألمانية التي أثارت شكوكنا، فالألمان هم أكثر منا حرصاً على التقليل من أهمية الهزيمة والتأخير في الإقرار بها إذا ما أُعلنت أمام الجميع. وكان يبكي وهو يدافع عن نهجنا واقترابنا من بغداد وكأن المدينة على وشك السقوط. وفي كل الأحوال ينبغي أنْ يكون لديه أو لدى الأتراك ثقة بأن القوة الصغيرة التي نمتلكها على نهر دجلة وهي فِرَقة واحدة تَبعُد مسافة حوالي خمسمائة ميل عن قاعدتها ولن تحقق أهدافها إذا ما علمت أن تعزيزاتنا لم تغادر فرنسا حتى الآن وأن أي تحدٍّ جدي حتى لو كان واحداً في قتال شرس سيضعف قدرتها على الإمساك بالمدينة حتى بعد السيطرة عليها. وما كان يخاف منه الألمان حقاً هو أننا سنتوقف ونبتعد عن مدخل الفخ عندما نفتح أعيننا في الوقت المناسب فيما يتعلق بمواردنا ذات الصلة إلاَّ أنها كانت تحذو حذونا في الاستمرار. وقد يستقرأ هذا الأمر أي إنسان أو طالب ذكي يدرس التاريخ البريطاني. لم نظهر أي قدر من الإدراك بأنها وسيلة لتحقيق غاية. كنا حقاً في وضع حرج عندما تقدمنا بفِرَقة مستنزفة لمهاجمة العاصمة الثانية في إمبراطورية يمكن أن تستدعي عند تخومها جيشاً مكوناً من سبعمائة ألف مقاتل.

ولكننا أردنا بغداد وهي غنيمة يسيل لها اللعاب أن تكون تعويضاً لمعركة جاليبولي[1] فالسيطرة عليها يمكن أن ينقذ الشرق المضطرب في بلاد فارس وأفغانستان وبالإمكان تحييد رجال القبائل على تخومنا أو إقامة علاقات صداقة معهم يساعد في إزالة تهديد الاضطرابات الداخلية في الهند.

كان طول خط مواصلاتنا يمتد إلى ما يقارب من خمسمائة ميل، وكانت نقلياتنا غير كافية على نحو يُرثى له. كان لدينا بعض الرجال المجهزين بأربعة عشر ألف رشاشة في الأكثر ولكننا كنا نريد بغداد على نحو مُلِّح في مواجهة مفتوحة مع الأتراك. ففي المدائن كنا على بعد ثمانية عشر ميلاً من المدينة وكان الناس في الوطن واثقين من تحقيق النصر (وهم مثل الشخص الذي يبيع سمكاً في النهر). وكانت مفاجأتهم ونقمتهم عظيمة عندما تردَّد الجيش وتخبَّط في التفاصيل نتيجة الخسائر التي مُني بها بعد أن وقع في الشَّرَك.

وقد ألقت لجنة بلاد وادي الرافدين باللائمة على الجميع وإن لم تكن هناك عدالة في ذلك، فعلى المستوى السياسي، كانت الكوت وصمة عار وطنية؛ لأنها كانت عنواناً لمجد لا يمكن تخليده في سفر جيشنا. وألقت لجنة بلاد وادي الرافدين الجزء الأعظم من اللوم على السير جون نيكسون[2] الذي كان المُلهم الرئيس والحافز

(1) معركة جاليبولي (أو معركة مضيق الدردنيل) هي معركة دارت رحاها في شبه الجزيرة التركية عام 1915 عندما حاولت قوات التحالف (بريطانيا وأستراليا ونيوزلندا وفرنسا) احتلال العاصمة العثمانية اسطنبول ومُنيت قوات التحالف بالفشل وقتل فيها أكثر من خمسة وخمسين ألف جندي من التحالف وحوالي تسعين ألف مقاتل عثماني ومئات الآلاف من الجرحى والمعوقين من الطرفين، وكانت المعركة تهدف إلى غزو إسطنبول عاصمة تركيا ومن ثم الدخول إلى الجزء الشمالي الشرقي من تركيا لمساندة روسيا ضد القوات الألمانية حيث طلبت روسيا من فرنسا وبريطانيا مساعدتها ضد القوات الألمانية في الجانب الشرقي بعد أن تكبَّدت القوات الروسية خسائر كبيرة أمام الألمان. وكانت المعركة نقطة سوداء في التاريخ العسكري البريطاني بسبب الهزيمة.(المترجم).

(2) السير جون نيكسون: بعد النجاح غير المتوقَّع للقوات البريطانية في إنزال قواتها في شبه جزيرة الفاو وصدّ الهجمات التي شنت ضد القوات البريطانية فقد أوكلت القيادة البريطانية للسير جون نيكسون مهمة قيادة الحملة فأمر بدوره الجنرال تشارلز طاوزند بالتوغل إلى داخل العراق إذا ما تحقق النجاح في الوصول إلى بغداد واحتلالها. وكان السير نيكسون يطلب بإلحاح من القيادات السياسية والعسكرية العليا في بريطانيا تزويده بالتعزيزات إلاّ أنه لم يحصل عليها مما أثار نقمة الكاتب على القيادات البريطانية مُتهماً إياها بالتقصير وأنها سبب الكارثة التي حلَّت بالقوات البريطانية (المترجم).

المستمر في كل خطوة من خطوات التقدم. لقد نُسيَت الطريقة العظيمة التي تغلَّب فيها جيشنا على الصعوبات وحقق سلسلة من الانتصارات التي نال فيها ثناء الحكومة والملك، ومع ذلك لم يحصل إلاَّ على الفشل ودونت في حكم مُثبط للهمة نتائجُ اللجنة التي تقرُّ بتقصيره لضعف رؤيته وعدم قدرته في رؤية أبعد من الميدان المباشر واندفاعه بتهوُّر وتسلُّحه بروح التفاؤل الأعمى والثقة الزائدة. أُقرت هذه النتائج والمخاطر والهلاك الذي حل بالقوات بمسؤوليته المباشرة في حدوث الكارثة. ومع ذلك حقَّقَ قادة آخرون من الذين ابتسم لهم الحظ السمعة الطيبة بدلاً من العار. وما زال طاقم الجنرال نيكسون يعتقد بأن بغداد كانت في متناول اليد إلاَّ أنهم كانوا ضحية لسوء الحظ ولو بقي يوماً آخر لاستولى عليها وأمسك بها لحين وصول الفرقتين الأخريين من فرنسا. وهم يؤكدون بأن استخباراته كانت جيدة إلاَّ أن طائراته تعطَّلت في اليومين الأخيرين ولم تصل أخبار الفرقة الحديثة التي وصلت بمسيرة قوية قبل ليلة من بدء المعركة وحمت الأتراك من هزيمة نكراء.

ويسهب المدافعون عن الجنرال نيكسون في الحديث عن مثابرته في الطلبات التي لم يتم تلبيتها ولكن هذا الأمر لا يعفيه من المسؤولية. ويمكن أن يكون قاب قوسين أو أدنى من أخذ بغداد ولكن إذا ما أخذها هل يستطيع الاحتفاظ بها ومواجهة التعزيزات القادمة من الموصل وحلب وكما ثبت لم تكن هناك مواصلات كافية في البلد لنقل تعزيزاتنا عندما تصل إلى ميدان المعركة.

وعادة ما يبدي الجيش تعاطفه مع القائد الذي خَاطر وتمسَّك برأيه الخاطئ إلا أنه فشل في عمله ولا يتعاطف مع المسؤولين الذين فرضوا عقوبات اقتصادية وشجَّعوا على المغامرة وأن سبب بخلهم هو العجز. ومع ذلك فإنَّ هذه القصة ستتناول تاريخ الحملة والأخطاء الجسيمة التي ارتكبت في أثناء المعارك. وهي مثال آخر على الطريقة غير الموفقة التي نتخذها نحن الإنكليز في مواجهة الهزات العنيفة ومثلما نعاني من توبيخ الطفل المدلل فإنَّنا نربح التطبيق القاسي للعقوبة ولا يوجد إنسان يجلب لنفسه هذه القسوة والعقوبة، ولسوء الحظ يحصل الجنرال والسياسي على امتيازات الأعمال الفذة التي يقوم بها النقيب والملازم الأول والجندي الذين يخوضونها ببسالة. فيستحق ضابط الكتيبة أن يكون بمنزلة القديس ومع ذلك نفتقر

إلى وجود مثل هذه الرؤية الشاملة أو الإحساس بالاتجاه الصحيح. فنحن نضيع قواتنا وكأننا نضع القس جورج على قمة الشجرة وفي غضون أشهر قليلة نتَّفق جميعاً على أنه ينبغي أن يشنق عليها.

أنتجت بلاد وادي الرافدين جنرالين هما: طاوزند ومود. ضحّى الأول بنظامنا بينما انتهز الآخر الفرص التي سنحت له بعد أن حصلت نقمة من الأمة وبرزت روح التحدي من أجل التعويض وحقَّق عملاً جيداً. وتكرر الوضع التأريخي الذي وجدت فيه بريطانيا نفسها مرة أخرى في مواجهة آثار الصدمة والسعي لاكتشاف الوسائل العظيمة الضرورية لتحقيق النتائج العظيمة. وبعد الصدمة حدثت ردة الفعل نحو الاجتهاد والاستعداد والبذخ في النفقات التي كانت تقريباً متأخرة ومتأخرة جداً في الأحوال كلها في الحفاظ على دمائنا الزكية.

كانت مأساة وادي الرافدين برمَّتها متوقفة على قرار التقدم من كوت العمارة الذي ارتكبت فيه قيادتنا خطأً فادحاً هو الذهاب أبعد من القرنة في ظل الموارد المتيسرة لها ولاسيما بعد أنْ تحقق الهدفان الرئيسان وهما: تأمين مدخل شط العرب وحماية حقول نفط بلاد فارس، ولو خرجنا إلى شيء عظيم وهو أن نحل محل الأتراك في مدينة الخلفاء ورمز الشرق لبدأنا بجيش قوامه أربعون ألف مقاتل في الأقل ولبنينا سكك حديد خلفهم ولضاعفنا مواصلاتنا على النهر إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف ولجهَّزنا جيشاً تجهيزاً مناسباً من العُدة والعَدد والذخائر بعد أنْ عملت حكومة الهند على إهمال الحملة وتجويعها منذ بدايتها، ولو نظرنا إلى النجاح الذي حققه مؤتمر سيملا[1] في تذليل العقبات لوصلنا إلى حل يحفظ ماء الوجه. بيد أن بغداد كانت حتى اللحظة الأخيرة مشكلة مفتوحة وأن الاستيلاء عليها يمثل نصراً سياسياً مدوّياً

---

(1) مؤتمر سيملا هو مؤتمر عقد عام 1914-1913 في مدينة سيملا الهندية بين بريطانيا العظمى والصين والتبت والهند حيث قسم التبت إلى نصفين هما التبت الخارجية والتبت الداخلية والمسمى خط مكماهون الذي اقترحه وزير الخارجية البريطانية (مكماهون) مما دعا ممثل الصين للانسحاب من الاتفاق إلا أن الدبلوماسية حققت النجاح بعد ما ألحق بالاتفاق ملاحظة تنص على منع الصين من الحصول على امتيازات في التبت مما دعا ممثل الصين للعودة والتوقيع على الاتفاق. (المترجم).

وكانت هناك آمالٌ واعدة في ذلك. وعلى الرغم من أن قوة «د» قد حققت الشيء المستحيل في الشعيبة والناصرية وكوت العمارة إلا انها تلقّت معاملة سيئة تنم عن حقارة وبخل شديد[1]. وكان الجهل وراء المصيبة التي حلّت وليس الاختلاف أو القسوة فلا يمكن تطهير النظام في ليلة وضحاها؛ لأنه متعلق بطريقة التفكير التي دائماً ما تثقل الكاهل وتزرع الشك والارتياب وتتجنّب تحمل المسؤولية وتحاول إيجاد تسوية تكون موتاً بطيئاً للقوات. مما حدا بكل جندي في حملة بلاد وادي الرافدين على المستوى الشخصي أن يلعن البيروقراطيين، ومع ذلك فإنّ جام غضب هؤلاء الذين يصدرون الأحكام ينبغي أن يكون غير شخصي؛ لان هذا النظام ارتبط بالفشل، وفي حالة الطوارئ توجه الدعوات إلى الإسراف في النفقات واتخاذ قرارات متسرعة وقصيرة النظر. ومن الغريب في الأمر هو أن الشيء نفسه كان يحدث في ظل القيادة الهندية وعلى مدى العشرين عاماً الماضية والجدل القائل بأن الهند أرهقت بما قدمت لا يمنحنا العذر. ولا يستطيع أحد إنكار المساهمات الرائعة المُقدَّمة على الجبهة الغربية إلا أن التخبط كان السمة البارزة تجاه القوات في بغداد بقيادة طاوزند التي تعاني من نقص في العُدَّة والعَدَد التي اندفعت نحو موتها المحتوم. ولو كانت الفرقة السادسة مجهَّزة تجهيزاً غير كاف لأمكن تصور الخوف الذي يصيب الفِرَق الثلاث الجديدة.

وما جرى في المدائن مثل ما جرى في القرم أيام حروب القرم عندما كان المريض يرعى المريض والمحتضر يعتني بالمحتضر[2]. ومع ذلك عندما وصلت الفِرقة

(1) يشير إلى المعاملة السيئة التي تلقّتها القوات البريطانية بقيادة طاوزند من القيادة البريطانية العليا التي تجاهلت طلبات القائد طاوزند لإرسال المزيد من التعزيزات لأن جيشه كان يعاني من نقص العُدَّة والعدد بسبب المعارك الشرسة في جنوب العراق التي أدت إلى إلحاق خسائر فادحة بالجيش البريطاني ومقتل القائد طاوزند؛ لذا فإنّ الكاتب يلقي باللائمة على القيادة البريطانية. (المترجم).

(2) في أثناء حروب القرم، كانت بريطانيا تقف حائلًا دون تقسيم الدولة العثمانية أو القضاء عليها في ذلك الوقت؛ لأنها ترى أن القضاء على «رجل أوروبا المريض» (المصطلح الذي كان يطلق على الدولة العثمانية آنذاك فيه تهديد لمصالحها وأمن مستعمراتها في الهند ويعني هدم دولة تقف سداً منيعاً أمام الأطماع الروسية والحيلولة دون وصول الروس إلى المياه الدافئة). (المترجم).

السابعة بأفرادها وتجهيزاتها الطبية وخاضت معارك شيخ سعد والوادي والحِنَّة لم تكن هناك إسعافات لنجدة تسعة آلاف إصابة، ولم تكن هناك سفينة في النهر لاتخاذها مستشفى لهم. لقد ضُوعفت القوة مرتين أو ثلاث مرات ولكنها على الورق فقط ولم تكن المتطلبات الحيوية موجودة على أرض الواقع. كما أن هذه الأمور لا يمكن توفيرها بهز الرأس أو جرَّة قلم.

في شباط 1916، تسلَّمت وزارة الحرب المسؤولية بدلاً من الحكومة الهندية ولكن كان هناك عمل بطيء في بناء عناصر القوة. وتبيّن هذه القصة كيف حصل التكفير في النهاية عن التخبط الذي وقعنا فيه بموجب قرار لا يغتفر بعد تدخُّل العناية الإلهية وقصر نظر الأتراك في عدم فهم أجرائنا قبل أشهر من استسلام الكوت، وكان لا بدّ أنْ يكونوا أكثر حذراً في التعامل معنا، ويعلم الألمان بأننا نكون أكثر خطورة عندما نتعرض لضربة موجعة إلا أن رؤوس الأتراك مخدرة بالأنسولين وملوثة بعد أن تم تهيئة قوة مؤلفة من سبعة عشر ألف بندقية عند نهر دجلة مع إمكانية إرسال تعزيزات تقدّر بخمسة آلاف مقاتل عند الضرورة ولو استلهمنا موقفه لمهّد الطريق بفاعلية. وهكذا فإنَّ تخبطنا قبل الكوت ساعدنا على المضي قدماً نحو بغداد. ومن غير الضروري هنا سرد النواقص في تقديم الخدمات الطبية والتجهيزات والنقل والأسلحة أو مناقشة الاختلافات وإلقاء اللوم لوجود تفاصيل وافية في تقرير لجنة بلاد وادي الرافدين التي وجَّهت النقد للإدارة العسكرية، ولكن من الضروري إعطاء خلاصة موجزة لأحداث الحملة لحين التقدم من علي الغربي قبل الشروع بكتابة القصة.[1]

(1) لجنة برلمانية بريطانية حقَّقت في حملة بلاد ما بين النهرين في عام 1917 وبخاصة ما يتعلق بانهيار الدعم الطبي للقوات البريطانية والهندية خلال تراجعها أسفل نهر دجلة بعد معركة المدائن في الثاني والعشرين إلى السادس والعشرين من تشرين الثاني/ 1915. وقالت: إن المراسلات الرسمية بعد المعركة مثل البرقية التي بعث بها قائد القوات البريطانية في بلاد وادي الرافدين، السير جون نيكسون، قد تغاضت عن الظروف المروِّعة التي مر بها بعض الجرحى المصابين بالإسهال والأمراض الأخرى. (المترجم).

الفصل الثاني

من الفاو إلى المدائن

غادرت قوة حملة بلاد وادي الرافدين الهند في السادس عشر والثامن عشر من تشرين الأول 1914 لتتجمع في البحرين. وعُلم بأن تركيا كانت تتحيَّن الفرص لإعلان حالة الحرب. وأول رسالة تحذيرية استلمتها (السفينة اسبيجل الملكية) مكتوبة باللغتين الانكليزية والتركية في شط العرب في تشرين الأول 1914 تنصُّ على الآتي: «يرجى مغادرة شط العرب قبل مضي أربع وعشرين ساعة». وفي غضون ثمانية أيام ستواجه أي محاولة للمرور بشط العرب بقوة السلاح. وعلى الرغم من هذه التحذيرات، فقد بقيت سفينة اسبيجل في نهر الكارون تحمي المصالح والممتلكات البريطانية في المحمرة وأعمال شركة النفط البريطانية - الإيرانية في عبادان. وفي الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول بدأ الأتراك بتحصين مواقعهم وتعزيزها على ضفة النهر. ووضعت الموانع الأرضية ونصبت المدافع على جزيرة دابا. في تشرين الأول غادرت جميع السفن شط العرب وبقيت سفينة اسبيجل فقط وفي منتصف ليلة الحادي والثلاثين من الشهر وصلت الأنباء عبر الأجهزة اللاسلكية بأن الأعمال العدائية قد بدأت.

وفي صباح السادس من تشرين الثاني وصلت طلائع السفن لنقل قوة الحملة وفي ذلك الوقت، عبرت قوة تُقدَّر بلواء واحد برفقة السفينة الملكية أودين المانع واشتبكت مع بطارية مدافع كروب التركية التي تطلق قذائف زنة خمسة عشر رطلاً وأسكتتها ونزلت القوة مع قوات البحرية على الساحل واحتلت حصن ومدينة الفاو بعد أن أخلت قوة المشاة التركية المعسكر في وقت مبكر ولم تفقد رجلاً واحداً. نزلت طلائع القوات بعد ظهر اليوم الثامن من شهر تشرين الثاني في مدينة (سينة)

الواقعة على بعد ميلين من مدينة عبادان. التقت القوات في مدينة عبادان بسفينة اسبيجل التي رَست هناك لحماية أعمال الشركات النفطية التي تعرَّضت إلى إطلاق نار كثيف من الأسلحة الرشاشة إلا أنها لم تصب بأذى وتمت المحافظة على سلامة عمال الشركة. وفي ليلة العاشر على الحادي عشر من الشهر شن الأتراك هجوماً على المعسكر إلا أنهم أجبروا على التقهقر مخلِّفين وراءهم في أرض المعركة ثماني إصابات بين قتيل وجريح. وبعد هذه المعركة اتخذ العدو مواقعه على بعد أربعة أميال في المنطقة المعروفة باسم سيهان وهنا تعرَّضوا إلى هجوم لواء الجنرال ديلمين في الخامس عشر من تشرين الثاني الذي كبَّدهم خسائر جسيمة في الرابع عشر من تشرين الثاني، نزلت قوات اللواء (باريت) في مدينة (سينة). ووصل عدد قواتنا إلى مستوى فِرقة. بدأ التقدم الرئيس عند فجر يوم السابع عشر وفي اليوم نفسه و طُردت قوات العدو من خنادقها الواقعة في منطقة الساحل وأجبرت هذه القوات على اتخاذ قرار بالتخلي عن البصرة. كانت معركة الساحل تحمل في طياتها دلائل بارزة؛ لأنَّ الأتراك كانوا في موقف قوي بعد أن أعدوا قوة كبيرة تقدر بخمسة آلاف رجل واثني عشر مدفعاً لمواجهة قواتنا التي شنَّت هجوماً بلواءين وبطاريتي ميدان وبطاريتين جبليتين وسريتين من سلاح الفرسان وسريتي إزالة الألغام. وأصدر اللواء ديلمين الذي واجه الزخم الرئيس للهجوم أمراً بالتصدي للعدو بينما اشتبك اللواء الثامن عشر (بقيادة الجنرال فري) مع العدو في الجبهة اليمنى والوسطى وتكللت جهود القائد (دورستر) بالنجاح بعد أن استبسلت قواتنا. وأصدر القائد أوامره بإطلاق نار منتظم على طول الجبهة؛ مما أدى إلى تبعثر سريع لقوات العدو بعد ظهر اليوم. بيد أن الصعوبات التي واجهتها قواتنا بسبب وعورة الأرض قد أعاقت مواصلة الهجوم ومع ذلك استولينا على بطاريتين جبليتين. وأصيب العدو بصدمة مروِّعة في هذه المعركة أجبرته على اتخاذ قرار التخلي عن البصرة.

وفي التاسع عشر من تشرين الثاني، استولت قواتنا على المدافع التركية التي كانت تتلقى أوامر بإغراق السفن وقد وضعها الأتراك عبر الضفة اليسرى من النهر في جزيرة دابا، وفي الحادي والعشرين من تشرين الثاني سلكت قواتنا ممراً عبر الحاجز وفي تمام الساعة الخامسة مساءً وصلت مدينة البصرة بعد أن تخلَّى عنها الأتراك

جميعاً. وتعرَّض المكان للنهب والسلب والتهمت النيران دائرة الجمارك والمخازن وكان وصول سفينتي اسبيجل وأودين في الوقت المناسب لتأمين حياة الأوروبيين وممتلكاتهم.

وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني قامت سفينتا أودين واسبيجل باستطلاع مناطق أعالي النهر إلى منطقة القرنة لتدقيق التقارير التي تفيد بأن الأتراك أعادوا تجميع قواتهم هناك. في اليوم الثاني من شهر كانون الأول، أُرسل رتل مكون من كتيبة ويلسي مائة وأربعة لحملة البنادق ومائة وعشرة من ماهرتاس وسريتين من نورفولكس وفصيل من قوة معالجة الألغام وأربعة مدافع ميدان ونصبت اثنين على الركائز الموجودة على النهر للتعامل مع قوة العدو. وشنت كل من سفينة أودين واسبيجل ولورنس هجمات على القوات التركية. وتولى العقيد فريزر القيادة في الثامن من كانون الأول، أزيح الأتراك من قرية العزيزة الواقعة على الضفة اليسرى المقابلة للقرنة إلاَّ أنهم حصلوا على تعزيزات قوية في أثناء الليل وتم إرجاء العمليات حتى السادس من كانون الأول عندما وصل الجنرال فري مع لواء المشاة مائة وعشرين للواء الهندوسي السابع وما تبقّى من سريتي نورفولكس وبطارية جبلية وبطارية ميدان. اقتحمت قواتنا منطقة العزيزة التي انسحبنا منها ليلة الثالث من الشهر مرة أخرى واستولي عليها في السابع من الشهر. تخلّى الأتراك عن جميع المواضع الواقعة على طول الضفة اليسرى من النهر وانسحبوا عبر النهر. وفي صباح اليوم الثامن، نجح فوجان هما مائة وأربعة ومائة وعشرة مع مدفعين جبليين من عبور أعالي النهر[1].

وفي المساء استسلم جنود الحامية الذين لم يتمكّنوا من الهرب عبر النهر. وألقينا القبض على البيك صبحي[2] والي البصرة الأخير فضلًا عن ألف وأربعة وثلاثين أسيراً واستولينا على أربعة مدافع. أعطى سقوط القرنة السيطرة المطلقة للقوات البريطانية على الدلتا والممر إلى نهر الفرات وجعل الممر المائي في الخليج صالحاً للملاحة.

---

(1) أوردت تفاصيل هذه المعركة في الفصل الثاني والعشرين.

(2) البيك هو حاكم مقاطعة ثانوية في الإمبراطورية العثمانية ويسمى البيه أيضاً. (المترجم).

بعد الاستيلاء على القرنة لم تخض قواتنا أي معركة مهمة سوى المعركة التي اندحر فيها الأتراك في منطقة الشعيبة في أيام الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من نيسان. وتمكّنا من طرد قوات العدو من ثلاثة محاور من الجهة اليمنى على نهر الفرات والمركز على نهر دجلة والشمال على نهر الكارون. كانت جبهة دجلة مؤمَّنة تماماً على مدى خمسة أشهر وقامت قواتنا في العشرين من كانون الثاني) باستطلاع مواقع العدو في منطقة (الروتعة) حيث تتواجد قوة مؤلفة من خمسة آلاف تركي وعربي اتخذوا موقعاً على بعد سبعة أميال شمال معسكرنا. وفي بداية شباط وردتنا معلومات تفيد بتقدم مزيد من القوات المختلطة من الأتراك والعرب باتجاه الأحواز في إقليم عربستان الإيرانية ضمن أراضي حليفنا شيخ المحمرة قادمة من العمارة عبر مدينتي (السين) وكيليلة ولو سمحنا للأتراك بالانتشار والسيطرة على هذه المناطق سيعني هذا انشقاق القبائل التي بقي ولاؤها للشيخ. ومن المحتمل جداً شن أعمال عدائية من قبائل البختيارية ونشوب حريق هائل في الجهة الغربية من إيران وخسارة حقول النفط وخط أنبوب عبادان. وهكذا وعلى الرغم من عدم قدرتنا تحمل تشتت قواتنا في ذلك الوقت إلا أنه أصبح من الضرورة السياسية القصوى إرسال قوات إلى الكارون.

غادر اللواء إلى جهة الكارون لاحتواء قوات العدو التي تهدد الأحواز والمؤلفة من ثماني كتائب تركية وثمانية مدافع وما يقارب من عشرة آلاف مقاتل عربي إضافي. وكان احتمال وقوع الهجوم أمراً لا جدال فيه بعد أنْ أخذ الأتراك يتجمَّعون عند نهر الفرات وأصبح واضحاً وجلياً بأنّ هجومهم الرئيس سيقع من هذا الجانب. وفي أشهر شباط وآذار والنصف الأول من نيسان كان موقفنا في بلاد وادي الرافدين غير مؤمن. وكان باستطاعة الأتراك زيادة عدد القوات؛ لأن تعزيزاتهم كانت قريبة وكانوا يتهيؤون لشن هجوم مقرر على أمل استعادة البصرة. ولو وجَّهوا الضربة في وقت مبكر لنجحوا في ذلك. جرت المعركة الحاسمة في منطقة الشعيبة التي تبعد مسافة عشرة أميال جنوب الميناء إلى الغرب من مدينة البصرة التي تفصلها عن المدينة مستنقعات تجبر القوات المهاجمة على الخوض أو المشي البطيء أو استخدام قوارب محلية الصنع. كان الموقف (في الثاني عشر من نيسان) حرجاً عندما شن

الأتراك أربع هجمات منفصلة قوية وتم التصدي لها جميعها. وفي المساء عُززت المحمية باللواء الثلاثين الذي وصل تواً من مصر تحت قيادة الجنرال ميليس. وفي الثالث عشر من نيسان، قام العدو بإحاطة المعسكر من جميع الجهات باستثناء المناطق المغمورة بالمياه. ولتعذر إرسال تعزيزات، قرر الجنرال ميليس شن الهجوم باستخدام قوات المشاة المتقدمة التي تتمتع بحماسة شديدة. وعند حلول المساء طُرِدَ الأتراك من خنادقهم بعد معركة ضارية استخدمت فيها الحراب. وتقهقر العدو في المساء إلى موضع آخر أكثر تحصيناً في منطقة النرجسية. وفي الصباح شن الجنرال ميليس هجوماً آخر بدون أن ينتظر وصول تعزيزات جديدة. ولم تحسم المعركة طول النهار وهدأت في الساعة الثامنة مساءً حدة القتال بعد أن تشبَّث العدو بخنادقه تشبثاً يائساً. وأصدر الجنرال ميليس أمراً بتقدم لواء المشاة مائة وعشرين من نورفولك بإسناد هائل من النيران وباندفاع شديد نحو مواضع العدو خاضت قوات اللواء معركة استخدمت فيها الحراب بينما اندفع اللواء مائة وعشرة من مهراتاس وبنيران شديدة من جهة اليمين وبدعم من بطارية (S) ونيران قوات الخيَّالة المُترجلة. وفي الوقت نفسه تقريباً حققت القوة المكونة من اللواء السادس عشر من (دورست) والفوج الرابع والعشرين من البنجاب وفوج المشاة مائة وتسعة عشر وجزء من قوات اللواء مائة وسبعة عشر من مهراتاس تقدماً شاملاً[1].

في الساعة الخامسة بعد الظهر وقعت مواضع العدو المتقدمة بأيدي قواتنا وقُتل المدافعون جميعاً. وفي جنح الظلام هرب الأتراك عبر الصحراء باتجاه الناصرية وخلفهم حلفاؤهم العرب وعلى الرغم من تكبُّد العدو خسائر مادية فادحة إلا أنه لم يهزم هزيمة نهائية. ولم نفهم السبب الذي يقف وراء الذعر الذي أصابهم وهروبهم الجماعي. قد تكون معركة الشعيبة التي أسميناها بالمعجزة وراء الإحساس الذي تشعر به قوة (D) بأنها قوة لا تقاوم بعد أن تغلبت على صعوبات جمَّة. لم تواجه قواتنا على مدى سبعة أشهر من معركة الشعيبة مشاكل جدية إلى أن واجهت قوات المشاة التعزيزات التركية وتمكَّنت من دحرها في الشعيبة فضلاً عن معالجة مفارز

(1) محاضرة ألقيت في معهد الخدمة المتحد الهندي اللواء الركن مورفي، انظر الفصل الحادي عشر الصفحة 135.

الأتراك أربع هجمات منفصلة قوية وتم التصدي لها جميعها. وفي المساء عُززت المحمية باللواء الثلاثين الذي وصل تواً من مصر تحت قيادة الجنرال ميليس. وفي الثالث عشر من نيسان، قام العدو بإحاطة المعسكر من جميع الجهات باستثناء المناطق المغمورة بالمياه. ولتعذر إرسال تعزيزات، قرر الجنرال ميليس شن الهجوم باستخدام قوات المشاة المتقدمة التي تتمتع بحماسة شديدة. وعند حلول المساء طُرِدَ الأتراك من خنادقهم بعد معركة ضارية استخدمت فيها الحراب. وتقهقر العدو في المساء إلى موضع آخر أكثر تحصيناً في منطقة النرجسية. وفي الصباح شن الجنرال ميليس هجوماً آخر بدون أن ينتظر وصول تعزيزات جديدة. ولم تحسم المعركة طول النهار وهدأت في الساعة الثامنة مساءً حدة القتال بعد أن تشبَّث العدو بخنادقه تشبثاً يائساً. وأصدر الجنرال ميليس أمراً بتقدم لواء المشاة مائة وعشرين من نورفولك بإسناد هائل من النيران وباندفاع شديد نحو مواضع العدو خاضت قوات اللواء معركة استخدمت فيها الحراب بينما اندفع اللواء مائة وعشرة من مهراتاس وبنيران شديدة من جهة اليمين وبدعم من بطارية (S) ونيران قوات الخيَّالة المُترجلة. وفي الوقت نفسه تقريباً حققت القوة المكونة من اللواء السادس عشر من (دورست) والفوج الرابع والعشرين من البنجاب وفوج المشاة مائة وتسعة عشر وجزء من قوات اللواء مائة وسبعة عشر من مهراتاس تقدماً شاملاً[1].

في الساعة الخامسة بعد الظهر وقعت مواضع العدو المتقدمة بأيدي قواتنا وقُتل المدافعون جميعاً. وفي جنح الظلام هرب الأتراك عبر الصحراء باتجاه الناصرية وخلفهم حلفاؤهم العرب وعلى الرغم من تكبُّد العدو خسائر مادية فادحة إلا أنه لم يهزم هزيمة نهائية. ولم نفهم السبب الذي يقف وراء الذعر الذي أصابهم وهروبهم الجماعي. قد تكون معركة الشعيبة التي أسميناها بالمعجزة وراء الإحساس الذي تشعر به قوة (D) بأنها قوة لا تقاوم بعد أن تغلبت على صعوبات جمَّة. لم تواجه قواتنا على مدى سبعة أشهر من معركة الشعيبة مشاكل جدية إلى أن واجهت قوات المشاة التعزيزات التركية وتمكَّنت من دحرها في الشعيبة فضلاً عن معالجة مفارز

(1) محاضرة ألقيت في معهد الخدمة المتحد الهندي اللواء الركن مورفي، انظر الفصل الحادي عشر الصفحة 135.

العدو المنتشرة على طول نهري دجلة والكارون. في التاسع من نيسان وصل الجنرال سير جون نيكسون وتولى القيادة العليا بدلاً من الجنرال سير أرثر باريت. وقد وصل عدد قوات الحملة بعد تعزيز الألوية التي شكلت الفرقة الثانية عشرة بمستوى فيلق.

وفي نهاية شهر نيسان، كانت القوة بقيادة الجنرال كورينج المؤلفة من الفِرقة الثانية عشرة ولواء الخيَّالة تتجمع عند نهر الكارون من أجل تحقيق غايتين هما تأديبية وفي الوقت نفسه إظهار قوة الجنرال طاوزند التي انطلقت من القرنة إلى العمارة عبر نهر دجلة وخاضت معارك تمكَّنت فيها من إخضاع قبيلة بني طُرُف والقبائل الأخرى المعادية والسيطرة على مدينة الخفاجية وطُرد العدو من عربستان الإيرانية برمَّتها. وحوصر رتل تركي على هذا الجانب بالرغم من أنهم لم يعملوا شيئاً إلا أنهم منعوا من الالتحاق بالقوة الرئيسة على نهر دجلة التي كانت تتصدى لتقدم الجنرال طاوزند. وتجدون وصفاً كاملاً لهذه العمليات والتقدم الذي أحرزه اللواء الثاني عشر من الأحواز إلى العمارة وبعض التفاصيل في الفصل الذي تناول نهر الكارون وحقول النفط (ص 243).

وعلى الرغم من تمكننا من طرد القوات التركية المنتشرة على يمين نهر دجلة وشماله إلا أن المركز بقي بحاجة إلى خرق من أجل الوصول إلى العمارة التي كانت الهدف التالي لقواتنا فضلاً عن أنه كان لا بدّ أن نأخذ بالحسبان الترتيبات الدفاعية. كانت مدينة العمارة تتحكم بالطرق المؤدية إلى عربستان الإيرانية وتحميها من الغارات والكمائن التركية وتمنح قاعدة جيدة للسيطرة على رجال القبائل بين نهري دجلة والكارون من أجل تأمين حقول النفط وخط النفط الذي يعتمد اعتماداً كلياً على أمر إخضاعهم بغض النظر عن أهميتها التجارية والإدارية. وقد تكون معركة القرنة الثانية في الحادي والثلاثين من مايس إلى الأول من حزيران أهم معركة برمائية خاضها الجيش الذي كان طافياً فوق سطح الماء مع البحرية بعد أن اتخذ الأتراك موضعاً رئيساً عند التقاء نهرين وخارج مدى مدفعيتنا الثقيلة. وكانت مواضعهم المتقدمة على «تل الشجرة الواحدة (الضفة اليسرى) وتل نورفولك» وتل البرج الواحد وتل المدفع على (الضفة اليمنى). كانت هذه المتموجات جزءاً من مستنقع وكانت معظم الأراضي مغمورة بالمياه بأعماق تتراوح من قدم إلى ثلاثة أقدام باستثناء بعض القنوات

التي تكون بعمق ثمانية أقدام أو أكثر وزرعَ أسفل مجرى نهر دجلة من تل نورفولك بالألغام. تقدمت قواتنا يوم الحادي والثلاثين من مايس عبر القصب باستخدام زوارق محلية تسمى (بلم) ويتكون الأسطول الصغير من خمسمائة أو أكثر من الزوارق التي تحتوي على درع في المركز، بينما حملت بطاريات المدفعية الجبلية على الطوافات الخشبية وحملت المدافع بمختلف أنواعها على الزوارق الكبيرة وتقدمت سفينتا كليو واسبيجل ببطء إلى أعالي النهر تتقدَّمها كاسحتا الألغام سيهتان وسومانا وانتشار قوات محمولة على السفن فوق الضفاف المغمورة والتحقت سفن أودين ولورنس وماير التي تحمل مدفعية تركز نيرانها على جزيرة بعد أخرى بالتعاقب. وفي ظل تغطية هذا القصف اقتحم اللواء الثاني والعشرين من البنجاب «تل الشجرة الواحدة» وخاضت القوات من أكسفورد ويوكس المياه بعمق تصل إلى المتر مقتحمة مواضع العدو المتواجدة على «تل نورفولك» بقتال شرس استخدم فيه السلاح الأبيض وتمكَّنت قواتنا من أخذ موضع بعد موضع بعد أن وجهت مدافعنا نيرانها الساحقة التي تمكَّنت فيها من تدمير المواضع الدفاعية تماماً. وشُوهِد الجنود الأتراك يتدافعون نحو مراكبهم ويلوذون بالفرار للنجاة بحياتهم العزيزة. واستولت على جميع مواضع العدو المتقدمة عند حلول منتصف الظهر.

لم تكن هناك طائرات ترافق القوات؛ نظراً لعدم وجود مناطق يابسة يمكن أن تحط فوقها الطائرات وكان الاستطلاع الجوي يجري من البصرة الواقعة على بعد أربعين ميلاً أسفل النهر في رحلة طيران واحدة بدون توقف. وفي صباح الأول من حزيران بعث أحد طيارينا برسالة تفيد بأن الأتراك يتقهقرون تماماً على نهر دجلة وبعد أن علمت البحرية بذلك استعدت لمطاردتهم[1].

غادروا بهاران في الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم الأول من حزيران وفي الساعة الواحدة والنصف من يوم الثالث من حزيران وبالرغم من الألغام والعوائق واضطرار السفن بالرسو بسبب استحالة الإبحار وحلول الظلام فقد وصلت سفينة كومت إلى العمارة التي تبعد تسعين ميلاً في أعالي النهر واستولت على المحمية

(1) يشار أحياناً إلى المعركة بأنها معركة البرجسية.

في المدينة كاملة على حين غِرّة بعد أن نجح الجنرال طاوزند وكبير ضباط البحرية النقيب نان في خطة المخادعة اللذين كان لديهما طاقم سفينة كومت وخمسة وعشرون رجلاً أبيض وبعض البحارة نظراً؛ لأن الجيش كان على بعد خمسين ميلاً أسفل النهر ولم يتمكّن من الوصول حتى اليوم التالي.

كان في طليعة الأسطول الذي استولى على مدينة العمارة في الثالث من حزيران أربع سفن حربية هي: الكومت وسيهتان وسومانا ولويس بيلي. وفي اليوم الأول وصباح اليوم الثاني من حزيران، كانت القوات المهاجمة تتعاون مع السفن ذات الغطس العميق. وكان من المستحيل طبعاً، للسفن ذات الشراع الواحد اختراق الأماكن الضيقة من النهر ولم تستطع الإبحار أبعد من ثمانية أميال من ضريح العزير وكان عملاً فذاً الوصول إلى هذا البعيد وحتى هذه النقطة كانت البحرية تعمل بروح الفريق الواحد. وانفصلت سفينة واحدة في بعض النقاط للاستيلاء على الصندل (سفينة مسطحة القاع) المهجورة وعلى متنها القوات والمدافع والذخيرة أو لتجمع المفارز على الضفة أو لجمع المواد المتروكة خلف الأتراك بينما تقوم السفن البحرية بدكّ مواضع العدو بالمدفعية البعيدة المدى ملحقة الدمار بها. ولعبت سفينة اسبيجل دوراً في تعطيل الزوارق التركية (مارماريس) وقامت سفينة سيتان بإغراق سفينة بولبول. واستولت على أربعة زوارق نهرية وإحدى عشر بارجة وكانت نتائج معركة القرنة ومواصلة تقدمنا للحصول على سبعة عشر مدفعاً وأسر ألف وسبعمائة وثمانية وسبعين جندياً فضلاً عن الاستيلاء على الرشاشات وسلاح المدفعية وذخائر الأسلحة الصغيرة والمخازن.

كان هدفنا التالي الناصرية الواقعة على نهر الفرات، وتكمن أهمية الناصرية في كونها قاعدة تنطلق منها القوات المعادية التي تهدد البصرة وأنها مركز يتم من خلاله ممارسة التأثير على القبائل العربية وهي القوة الممتدة على طول نهر الفرات؛ لأنها تقع عند نهاية شط الحي فإنَّها تقترب من المواصلات بين دجلة والفرات. وأخيراً كانت مركزاً للإدارة المدنية للجزء الأكبر من ولاية البصرة. كانت الأسباب الرسمية لهذا التقدم الجديد وراء إرسال الجنرال نيلسون (في الأول من كانون الثاني 1916).

تجمعت قوة الناصرية بقيادة الجنرال كورينج في القرنة في السادس والعشرين من كانون الثاني. وشنّ اللواء الثلاثون هجوماً عنيفاً في الخامس من تموز تمكّن فيه من طرد العدوّ الذي أبدى مقاومة عنيفة في قتال ذي طبيعة برمائية. استولت على زوارقنا المزودة بالمدافع قرب سوق الشيوخ في السادس من تموز بعد أن اتخذ الأتراك سلسلة من المواضع بالقرب من النهر على بعد خمسة أميال جنوب الناصرية بجناحي الجيش المقامة عند الأهوار. وفي ليلتي الرابع عشر والخامس عشر من الشهر تقدمنا على بعد حوالي أربعمائة ياردة من مواضع الأتراك. بدأت المعركة الحاسمة عند فجر الرابع والعشرين من تموز بهجوم شنّه اللواء الثاني عشر على الضفة اليسرى واللواء الثلاثون على الضفة اليمنى تمكّنت فيه القوات من الاستيلاء على موضع العدو الرئيس عند الظهر بعد أن خاضت قتالاً ملحمياً استخدمت فيه الحراب. واستمرت القوات في زحفها نحو الموضع القوي الثاني على بعد ميلين وفي هذه المرة كُسرت شوكة مقاومة العدو بعد أن تكبَّد خمسمائة قتيل تُركوا في المواضع وأُسر أكثر من ألف ومائة عسكري فضلاً عن الاستيلاء على جميع المدافع. وتمت السيطرة على الثكنات العسكرية جميعاً ورفع العلم الوطني البريطاني فوقها. وفي العمليات البرمائية التي جرت في الفترة من نيسان إلى تموز كانت قواتنا تخوض قتالاً بدرجة حرارة الظل أحياناً تزيد على مائة وثلاث عشرة درجة فهرنهايت وفي جو من الرطوبة الشديدة والكثيفة.

لم تكن الأسباب الاستراتيجية والسياسية للتقدم نحو العمارة مقنعة مثل تلك الأسباب التي تقف وراء الاستيلاء على الناصرية. حقيقة كان الأتراك يتمركزون بقوات عند مدينة الكوت الواقعة على بعد مائة وثلاثة وأربعين ميلاً شمال موضعنا المتقدم على نهر دجلة إلا أن المدافعين عن البلد الذي يتعرض للغزو دائماً ما يعملون على تركيز قوتهم في موضع متقدم من الجيش الغازي وتكمن الصعوبة عند اختراق أراضي العدو في معرفة أين يكون توقف القوات المهاجمة التي تتعرض إلى إغراء لاحتلال أراضٍ جديدة أبعد من النقطة التي يمكن فيها من تركيز قوة الهجوم وإدامتها. وكان هناك حافز للاستيلاء على الكوت التي تعدُّ مركزاً استراتيجياً أفضل من العمارة لكونها تقع عند التقاء شط الحي مع نهر دجلة. وإذا ما استولينا عليها مع الناصرية فإنّنا سنتمكّن من السيطرة على نهاية الممر المائي الذي يربط دجلة والفرات

وربما بولغ بالقيمة الاستراتيجية لهذا المجرى المائي غير المؤكد. ومن الصعوبة بمكان التعويض إذا ما استمرينا بمائة وخمسين ميلاً أخرى بالضعف الذي حل بنا وصعوبة تهيئة طرق مواصلات مناسبة ولو وضعنا في حساباتنا بغداد فإنَّ الكوت ستكون بالطبع الخطوة القادمة التي لا مناص منها ولا بدّ أن تكون التحضيرات قبل الشروع مختلفة تماماً وإذا كان الأمر متعلقاً بالدلتا فإنَّ ما حققناه من اختراق كان كافياً باحتلال العمارة وإن المثلث الذي استولينا عليه العمارة -الأحواز- الناصرية كان يستلزم مواصلات طويلة صعبة وكانت التزاماتنا في بلاد وادي الرافدين تزداد على نحو لا يتناسب مع مواردنا.

مع ذلك قررنا تشتيت جيش نور الدين من كوت العمارة واحتلال المدينة. وأعد الأتراك موضعهم إعداداً هائلاً لم نواجه مثله من قبل حتى ذلك الحين وذلك بوضع لواء بجانب النهر الذي يبعد سبعة أميال جنوب مدينة الكوت وفِرقة على كل ضفة واحتياطاتها على الضفة اليسرى. واشتبكت قوات الجنرال طاوزند الذي تولى قيادة الفِرقة السادسة وخاضت قتالاً مع العدو في السادس والعشرين من أيلول. واستخدم الجنرال طاوزند تكتيكاً في محاصرة الأتراك عندما زجَّ بقواته الرئيسة على الجبهة اليسرى بعد أن جعل العدو يتوقع أن الهجوم سيشن على الجهة اليمنى. وفي يوم السابع والعشرين حبكت خيوط الخدعة على الضفة اليمنى وعبر لواء من الضفة اليمنى إلى اليسرى وانتشرت قوات المشاة بالجهة المقابلة للجناح الأيسر للعدو وتمت العملية بصمت في أثناء الليل مما قيد من مناورة الأتراك وحركتهم. تضمنت خطة المعركة ليوم الثامن والعشرين أن تتقدم الألوية السادس عشر والسابع عشر والتاسع عشر (تحت قيادة الجنرال ديلمين[1]) برتلين تجاه الجناح الأيسر للعدو حيث اندفع أحد الأرتال نحو تحصينات الجناح بينما هاجم الرتل الآخر بحركة التفاف الجناح الأيسر لقوات العدو من الخلف. وفي غضون ذلك كان اللواء السادس عشر (بقيادة الجنرال فري) يشن هجوماً على الضفة اليسرى من النهر. وقامت قوات الخيَّالة بتأمين الجناح الأيمن لقوات ديلمين.

---

(1) قائد عسكري بريطاني في القرن الثامن عشر.

وبحلول الساعة الثانية بعد الظهر، استولى اللواءان السادس عشر والسابع عشر على كامل الجزء الشمالي من مواضع العدو وكانت فِرَق خبراء معالجة الألغام وزرعها التابعة لألوية دورست ومهاراتاس مائة وسبعة عشر واثنين وعشرين في طليعة القوات التي دخلت خنادق العدو بعد أن خاضت قتالاً استخدمت فيه الحراب. وكان هدف الجنرال ديلمين التالي هو مهاجمة الخطوط الخلفية للقوات التركية التي هاجمها اللواء الثامن عشر من الأمام. ولكن قبل إمكانية تطوير هذه الحركة شوهدت قوات العدو الاحتياط تتقدم من الجنوب الغربي باتجاه الجسر مما حدا بالجنرال ديلمين لتغيير هدفه بسرعة واندفع بلوائه لمواصلة هذا التقدم. ألهمت الفرصة النادرة بشن الهجوم باستخدام الحراب بدون قيود قواته إلا أنها أنهكتها؛ لأنها تعرضت للحرارة والعطش الشديد والمسيرة الطويلة والقتال بدون نوم عندما ألقوا بأنفسهم واندفعوا بحشودهم على الأتراك وهذا ما حسم أمر المعركة وبحلول المساء مُني العدو بهزيمة نكراء وأخلى خنادقه المتبقية في جنح الظلام مخلفاً وراءه أربعة عشر مدفعاً وألفاً ومائة وثلاثة وخمسين أسيراً وما يربو على ألف قتيل.

معركة كوت العمارة ستذكر بأنها واحدة من المعارك اللامعة وربما ألمع معركة خاضها الجيش الهندي سواء بالبراعة العسكرية التي تتجلى عند القائد أو جرأته وإقدامه وتحمّل قواته وحماستها. وذاع صيت القائد طاوزند «مالبورك» الذي كان اسمه طلسماً عند العرب في أرجاء بلاد وادي الرافدين وحتى الأتراك الذين اعتقدوا بأنه شخص لا يمكن مواجهته وكانت الثقة التي يتحلى بها رجاله ليس لها حدود ساعدتهم بإنجاز المستحيل ولم تلحق الهزيمة بالفِرقة السادسة ولم تهاجم هذه الفِرقة موضعاً إلاَّ واستولت عليه إلاَّ أن الإنجاز الأعظم الذي حققته كان في استيعابهم لخطط المعركة ويعتقد طاوزند بأن أفضل إنجاز حققته قواته هو الانسحاب من المدائن إلا أن هذا الحديث كان قبل محاصرة الكوت وبالمقابل فإنَّها كانت أكثر من قيمة النصر الذي يرفع من معنويات الجيش نفسها. وبحلول الخامس من تشرين الأول قاد زخم هجومنا والمطاردة المتواصلة لقوات العدو إلى توجهنا نحو العزيزية وبالرغم من ضحالة المياه وركودها التي أعاقت تقدم أسطولنا إلاَّ أن الأتراك كانت لهم أسبابهم في المواجهة ولاسيما أنهم لم يتكبدوا خسائر

إضافية في أثناء تراجعهم، وعندما وصلت سفننا مدينة العزيزية وجدتهم يتحصَّنون بمواضع دفاعية قوية عند المدائن الواقعة على نهر دجلة وتبعد ثمانية عشر ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بغداد باستثناء الطريق إلى المدينة. كان التحدي كبيراً لتحقيق نصر آخر مثلما جرى في كوت العمارة وكنا بمسيرة يوم واحد من دخول العاصمة. كان الأتراك يفوقوننا عدداً فهم ثلاثة عشر ألف عسكري فضلاً عن قوات الاحتياط وثمانية وثلاثون مدفعاً كانوا يتخندقون بقوة خلف الأسلاك الشائكة. وعلم الجنرال نيكسون بأن التعزيزات في طريقها إليه. كانت خطته تتضمن استخدام قوات قليلة لمهاجمة جيش نور الدين والانتصار عليه قبل أن تصل القوات الجديدة إلى الميدان. وفي الثالث من تشرين الأول أرسل الجنرال نيكسون برقية إلى وزير الخارجية ذكر فيها: «أرى أن القوة المتيسرة لي كافية لفتح الطريق إلى بغداد وتحقيق النصر واقترح أن يكون تجمع القوات في العزيزية» وأوضح حاجته إلى فِرقة إضافية وسرية خيَّالة واحدة ليتمكَّن من احتلال بغداد بصورة دائمة.

وطلب من نيكسون إدامة موضعه الحالي والتهيئة للتقدم حالما تُرسل التعزيزات التي طلبها. وأرسل اللورد هاردينج برقية قال فيها: «أنا سعيد بقرار مجلس الوزراء وبعد التشاور مع السيد بيوجامب دوف أرى أن السيد جون نيكسون في موضع أفضل ليقرر عدد القوات المطلوبة ونحن على استعداد لقبول رأيه وقد نضيف بأن القوات الإضافية ينبغي أن تصل بغداد في فترة لا تزيد عن شهر من الاستيلاء على المدينة وينبغي أن تقضي الفترة التي قدرناها قبل أن يعزز الأتراك قواتهم في محاولة لاستعادة المدينة».

ويوضح التقرير جلياً بأنه منذ البداية لم تكن الحكومة الهندية راضية بإرسال قوات إلى بلاد وادي الرافدين ولكن حالما شُرِعَ بالحملة كانت الهند تتابع كل تقدم جديد وتشرف عليه بينما الوايت هول (مقر الحكومة البريطانية) كان يطلب التوقف لكن بدون إلحاح في الطلب حتى بعد معركة الشعيبة. كانت أهداف الحكومة حتى القرنة محدَّدة وواضحة وبعد القرنة أعطى الرجال في الميدان حرية التصرف وتحررت الحكومة البريطانية (الوايت هول) من أعبائها والاندفاعات المتكررة للتقدم إلى العمارة والناصرية وكوت العمارة وأخيراً الاندفاع نحو بغداد الذي كان

لطلب نيكسون ودعم الهند بتخويل من الوايت هول. وكانت الحكومة الهندية دائماً توافق بعد إبداء التحفظات.

فقد اعترضوا على التقدم أبعد من القرنة واحتجوا على التحرُّكات التي قد تتطلب مزيداً من التعزيزات أو مزيداً من التوغل ومع ذلك فقد رأينا كيف ساعد التقدم نحو الناصرية احتلال العمارة وكيف ساعد النجاح في كوت العمارة في الاستيلاء على الناصرية. وكان لدى الحكومة البريطانية (الوايت هول) الرؤية الواضحة لحجم الخطر والالتزامات المطلوبة. ومع ذلك فإنَّ مسؤولياتهم خطيرة؛ لأنهم سمحوا لأنفسهم بالتدخل. وفي النهاية سيتحمل الجنرال نيكسون مرة أخرى المسؤولية الرئيسة في الكارثة التي حلَّت بهم. وكان ينبغي أن يتقيد ممثل الملك بموافقة القائد العام للقوات المسلحة. ومن الواضح أن اللائمة جلها تقع على عاتق المستشارين العسكريين المسؤولين عن التقدم. وعندما يقرر العسكريون تنفيذ الخطط العسكرية فإنَّ المدنيين ليس لديهم الحق في الاعتراض؛ لأن اعتراضهم سيعني شللاً يصيب آلة الحرب. وكان لا بد من إجراء دراسة جدوى مستفيضة للتقدم إلى بغداد على وفق اعتبارات عسكرية خالصة واعتبارات سياسية. وينبغي ألاَّ يكون السؤال: «هل ينبغي أن نذهب إلى هناك؟» بل هل نستطيع الذهاب إلى هناك وليس بمقدور ممثل الملك أو مجلس الوزراء أن يقول بأن مواردنا العسكرية لم تكن كافية عندما يقر المستشارون العسكريون لممثل الملك ومجلس الوزراء بأن الموارد كانت كافية.

وأحيل قرار التقدم نحو بغداد من الحكومة الهندية إلى الحكومة البريطانية. وقد حث الوزير العسكري للمكتب الهندي سيد أدموند باور بتوخي الحذر على الرغم من أننا قد نتمكَّن من الاستيلاء على بغداد إلا أن القوات التي أصابها الضعف من جراء تعرُّضها لمزيد من الخسائر لن يكون بمقدورها الدفاع عن المدينة وإدامة المواصلات إذا ما حصل هجوم مضاد. وشكَّل رئيس الوزراء لجنة[1] مؤسساتية لدراسة مسألة التقدم وقد اتخذت قراراً يقضي باحتلال بغداد للأسباب السياسية

(1) تظهر القراءة المتأنية لتقرير لجنة وادي الرافدين بأن الهجوم الذي شنه الإعلام على السيد إدموند باور على أنه هو المحرض على الهجوم لا أساس له من الصحة.

والعسكرية إذا ما تم التأكيد على وصول التعزيزات الضرورية في الوقت المناسب؛ ونظراً لفشل وصول التعزيزات لم يحاول الجنرال نيكسون الاعتراض وأقرَّ التقدم إلا أن ظروف التقدم لم تكن مؤاتية.

وفي السابع عشر من تشرين الثاني أي قبل أربعة أيام من سقوط المدائن أخبرت وزارة الحرب الجنرال نيكسون بأن فون دير كولتز غادر بغداد يوم العاشر من تشرين الثاني وأن الأتراك يزحفون نحو بغداد بثلاثين ألف جندي قادمين من الأناضول إلى العراق. وأجاب بأن عملاءه نقلوا له الأخبار نفسها قبل أسبوعين إلا أنه لم يكن مقتنعاً بهذه التقارير وينبغي ألاَّ تختلف روح القتال الرائعة التي يتمتع بها الجنرال نيكسون عن رجاله بالرغم من أنهم أظهروا بسالة في الاندفاع إلا أن العيون العمي «والآذان الصم» والأكف التي صفقت له عند تحقيق النصر تلعنه عند الهزيمة. في التاسع عشر من تشرين الثاني، بعد ستة أسابيع من التحضيرات استأنف التقدم. وفي الحادي والعشرين من تشرين الثاني تجمعت القوات بأكملها عند مدينة اللاج على الضفة اليسرى وفي صباح اليوم التالي بعد مسيرة ليلة، بدأ الهجوم على مركز العدو والجناح الشمال الشرقي. وأجريت الترتيبات لتركيز قوة الضربة كلها في موضع واحد. ولم تكن جميع قواتنا متمركزة على الضفة اليسرى من النهر ومع ذلك فإنَّ نصف موضع العدو على تلك الضفة كان لا بد أن يهاجم بضراوة في المقام الأول. وكانت خطتنا هي مهاجمة الجناح الأيسر للأتراك والحيلولة دون تقهقرهم باتجاه أعالي النهر في مناطق نهر ديالى.

ولا يترك للعدو سوى جسر عائم واحد قد يستخدمه في الهرب وكان من المؤمل أن تقوم المدفعية أو الطائرات بتدميره. بدأت معركة المدائن كما هو الحال في المعارك السابقة بهجوم شنَّته الفِرقة السادسة وخاضت فيه قتالاً شرساً استمر طوال النهار واستولينا على مواضع العدو المتقدمة وأسر أكثر من ألف وثلاثمائة جندي وسقط الخط الثاني واستولي على ثمانية مدافع بعد احتلال الموضع وألحقت هزيمة نكراء بقوات العدو. ومن الناحية العملية أبيدت الفِرقة الخامسة والأربعون التركية إلا أننا لم نحصل على تعزيزات تمكّننا من مواجهة قوات قادمة حديثاً. ونتيجة معارك الكرّ والفرّ ضعفت قدرتنا في الإمساك بالموضع الطويل الذي وقع بأيدينا. وفي يوم

الثالث والعشرين لم نتمكَّن من استئناف الهجوم وفي تلك الليلة وفي وقت مبكر من صباح يوم الرابع والعشرين تصدينا لهجوم مضاد شنَّه العدو. وفي اليومين الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر واجهنا صعوبة في إخلاء جرحانا إلى مدينة لاج. وفي يوم الخامس والعشرين من الشهر وصلت تعزيزات إلى الأتراك وشوهدت أرتال كبيرة بعد الظهر تتقدم جنوب الضفة اليسرى ونحو الداخل كأنهم يسعون للإحاطة بجناحنا الأيمن بينما شكلت الخيَّالة المعادية خطراً على خطوطنا الخلفية. وواجه الجنرال طاوزند الذي كان على بعد تسعة أميال من سفنه ومصدر تجهيزاته في مدينة لاج قوات متفوقة عليه مؤلفة من الجنود الذين وصلوا حديثاً.[1] ولا يوجد خيار سوى الانسحاب وعودة القوة إلى كوت العمارة.

يكون صمود القوات في أثناء التقهقر يفوق الثناء. فقد كان انضباطها وتحملها مشهوداً به والمحافظة على خط الانسحاب قد يكون وراء العدد القليل من الإصابات التي لا تزيد عن أربعمائة إصابة.[2] وفي منطقة أم الطبول وفي صباح نهار يوم الأول من كانون الأول أحاط جيش نور الدين بجيشنا من جميع الجهات تقريباً. فقد تجمَّعوا في الليل وبالرغم من مهاجمتهم لنا وتراجعنا فإنَّه من الواضح أنهم لم يدركوا بأنهم كانوا على تماس مع قواتنا الرئيسة. وأرسل لواء مختلط بقيادة الجنرال ميليس باتجاه الكوت بمسيرة اضطرارية للتعامل مع قوة عربية تعرضت إلى مواصلاتنا على النهر وتعرَّضوا إلى قائد الجيش وجرحانا. واستدعي هذا الرتل في المساء وشارك في القتال في صباح اليوم التالي.

كشف ضوء النهار عن مشهد استثنائي كانت خيم الأتراك من الشمال إلى الغرب تحيط بمعسكرنا من ثلاث جهات تقريباً. وشن العدو هجوماً بكتل بشرية مما جعلها هدفاً رائعاً لسلاح مدفعيتنا ومدافع أسطولنا. كانت سفينة كومت تصب جام حمم مدافعها بأسرع ما يمكن على مدى ألفين وخمسمائة ياردة ألا أنهم شنوا هجوماً بأعداد هائلة وأحاطوا بجناحنا. ولم تكن سوى رباطة جأش القيادة وصمود قواتنا التي حالت دون تطويقنا وعزلنا.

---

(1) إرسال الجنرال نيكسون.

(2) إجمالي الإصابات في المدائن في أثناء الانسحاب قُدّرت بثلث القوات 690 قتيلًا و800، 3 جريح.

وبهجوم مضاد أنقذ طاوزند قواته وتراجع بألوية منسَّقة. وسار لواء ميليس ثمانية أميال في ثلاثة أيام وخاض قتالاً في صباح اليوم بمعنويات رائعة.

وفي أثناء الانسحاب كانت البحرية تحمي الزوارق النهرية من خلال توجيه نيران مدافعها طوال الوقت تجاه المدفعية والقنَّاصة الأتراك على الضفة. وكانوا يعملون ليل نهار لإنقاذ حمولة البوارج وسحب السفن الجانحة التي أصابتها المدفعية التركية وتعمل عموماً بوصفها مواقع خلفية للسفن المنسحبة. وفي أحد الأيام تعرَّضت سفينة سايتن لإصابة أدت إلى غرقها. وأنقذت سفينتا فيرفلاي ويوشوشان مدافعها في ظل إطلاق نار كثيف من على الضفتين. في معركة أم الطبول جلب العدو مدافعه إلى أقرب مدى ووصل المشاة الأتراك إلى مسافة خمسين ياردة من سفينة كومت. وفقدت سفينتا كومت وفيرفلاي بعد أن دمرتها النيران واستولي عليها بعد أن استعدناها في هجومنا على بغداد يوم السادس والعشرين من شباط 1917 بعد أن عملت فترة خمسة عشر شهراً ضمن السفن التركية وفي منطقة لا تبعد كثيراً عن انعطاف النهر في المنطقة التي فقدت فيها. وأزيلت مدافع السفينتين وعُطلت محركاتها ونقل طاقمها إلى سفينة سومانا وهربت هذه السفينة الرائعة بدون إلحاق الضرر الفادح بها على الرغم من تعرُّضها إلى إطلاق نار كثيف من كل الجهات وتحت وابل من النيران اخترقت القذائف بدنها المحمي وزادت الحمولة الزائدة من صعوبة سحبها وعلقت في المناطق الضحلة على بعد أميال خلف خطوط الجيش الخلفية. وكان هناك مزيد من العمل من أجل إنقاذها وإدخالها إلى الخدمة. فقد أزيلت الأطيان المعلقة فيها وسحبت إلى الكوت بحمولة أخف مكونة من الأسلحة الخفيفة وذخائر المدفعية للفِرقة. وغادرت سفينة سومانا الكوت مع قوة طاوزند للعمل بصفة عبَّارة ووقعت بيد الأتراك واستعيدت في الهجوم الواسع الذي شنّ عبر النهر في السادس والعشرين من شباط 1917.

وصلت طلائع الجيش إلى كوت العمارة في اليوم الثاني من كانون الأول وهي مستنزفة بعد أن قطعت مسافة تسعة وأربعين ميلاً منذ صباح اليوم الأول وبدأت الحامية في اليوم التالي بحفر الخنادق لهم وقد أصابهم التعب إلاّ أنهم كانوا يمتلكون الثقة وانقلبت الطاولة الآن عندما بادر الأتراك بالهجوم ولم يستغرق وصول

التعزيزات وقتاً طويلاً. ولم يحدث سابقاً بأنهم يواجهون نوعاً مختلفاً من الأتراك وكانت إحدى الفِرَق التي شهدت اندحار هجومنا في معركة جاليبولي في طريقها إلينا وعندما حفرت حامية الكوت خنادقها عبر العقد كانت فِرَقتان هنديتان تغادران مرسيليا بثقة ومعنويات عالية للتخلص من الرتابة ويأس الحرب التي مرَّت بها على مدى عام. وكان أفرادها يعتقدون أنهم تركوا ميدان المعركة خلفهم ليخوضوا معارك في مواجهة مفتوحة. وكانت هذه الأشياء تحدث بمرور الوقت ولكن قبل حدوثها كان لا بد من إعادة تنظيم الفِرقتين. وكانت القوات في بغداد تبعث على الحزن والأسى ولم تبقَ إلا القلة القليلة من القوات التي انطلقت من مرسيليا في منطقة الرسوم في سامراء.

الفصل الثالث

من مرسيليا

غادرنا مرسيليا في الخامس من كانون الأول 1915 على متن سفينة جورج الملكية على رأس قوة متكوّنة من كتيبة بلاك ووتش وبطارية مدفعية هاوتزر الحادي والستين وبعض المجنَّدين الغرباء من أفواج مختلفة. ولم نكن نعرف وجهة السفينة تحديداً فقد تكون الوجهة نحو الشرق إلى مدينة سالونيكا أو جاليبولي أو مصر أو شرق أفريقيا أو بلاد وادي الرافدين. وقد نتعرَّض لهجوم كبير يشنُّه الأتراك على القناة. وكنا نعلم أن التعزيزات قد تتأخر أيضاً. وكنا نؤمن بأن عملنا هو جزء من التضحية لشرفنا الوطني وصورت وقفتنا بأنها وقفة أخيرة في خليج البلقان المتجمد. كانت معركة جاليبولي أملاً خائباً يتطلَّب تقديم التضحيات على الرغم من الظروف المأساوية وغير الملهمة التي مرَّت بنا، ويبدو أن السياسيين ليست لديهم الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار الانسحاب.

دبَّت إشاعة مقلقة في فرنسا بأن الفِرقة الهندية قد هُزمت في شرق أفريقيا. ولم يحصل تصديق للأخبار بأن الأوامر صدرت للتوجه إلى العراق ومع ذلك كانت الأخبار تخفف من توتر الأعصاب؛ لأنَّ الرجال الذين روَّضوا أنفسهم بتشاؤم على إنهاء بقية حياتهم تحت وابل النيران في الخنادق كانوا يفضِّلون خوض غمار المعارك في بلد مفتوح وبالأسلوب القديم.

كان الهنود يتمتَّعون بمعنويات عالية وقد شدَّت رسالة الملك من عضد عزمهم بعد أن تحمَّلوا الثقل الأعظم من الهجوم الذي شنَّه الألمان على فرنسا وساعدوا على مسك البوابة ضد الألمان. كانت وجهتهم إلى الشرق مرة أخرى بعد أن تذوَّقوا طعم الراحة لشتاء ثان في الغرب كانت كافية لتذكيرهم بالظروف التي تركوها خلفهم.

ويمكن تحمُّل المصاعب التي قد تعترض طريقهم في بلد فيه الكثير من المناظر والروائح المشابهة لبلدهم وفي ظل شمس يمكن أنْ تعوضهم عما مرّوا به كما أن المسلم من البنجاب كان مطّلعاً على قضية بلاد وادي الرافدين ففي العراق كانت الحرب تجري وفقاً للأساليب القديمة بينما في فرنسا كانت المواجهة تجري على الأرض وفي الجو وتحت الأرض وفي البحر أيضاً.

وضعت مواصلاتنا في مدينة مرسيليا على أهبة الاستعداد لنقل قواتنا حيث صعدت الكتيبة الهندية والاسكتلندية وبطريقة هادئة ومتحفظة ومتآخية بعد أن اكتسب المقاتل الهندي برودة الجزيرة في طريقة تبادل المجاملات. وتم تبادل الهدايا التذكارية وكان الرجل من هضاب اسكتلندا يقدم البطاقات البريدية المصوَّرة ويسلِّمها إلى الجنود الهنود. وقد شاهدت الاسكتلندي يعطي السكائر للهندي وبعد أن تفرغ علبة السكائر يذهب ويجلب أخرى ويفرغها أيضاً.

طرق سمعي في مدينة الإسكندرية بأن رحلتنا ستستمر وكنا جميعاً على استعداد للانتقال بوسائل شحن متعددة وعلى الرغم من أن الخطة الأساسية هي إعادة تنظيم الفِرقتين القادمتين من لاهور وميروت في مصر إلا أن محاصرة طاوزند في الكوت قد غيَّرت الموقف برمَّته. وكان لا بدّ من الدفع بالتعزيزات بدون تأخير ولم نكن نعلم بهذا الأمر.وكنا نجهل حجم الخسائر والمعاناة التي ستواجهنا في مواضعنا ولم نكن نعلم بأننا سنترك مواصلاتنا وإسعافاتنا خلفنا.

وصلت الأخبار الجيدة بأننا سنذهب مباشرة؛ لذا ترك الكابتن منصّة ربان السفينة وذهب إلى البهو للتمتع بأسابيع قليلة خارج المنطقة الخطرة وكانت جميع الأخبار تتحدث عن نشاط الغواصات في البحر الأبيض المتوسط وكانت سفينتنا تسير في الماء في ظلام دامس وترسل ومضات ضوئية لتجنُّب الأعماق السيئة؛ لأننا كنا نمر في مياه خطرة لوجود المراكب الغارقة وحطام السفن ونجتاز ممراً معقداً وغريباً.

غادرنا ميناء بورسعيد بأمر غير مأسوف عليه وكانت قواتنا تصلي من أجل أن يلهمها الله الشجاعة والبسالة في المعارك وتساءل ضابط شاب في الجيش البريطاني لغرض المزاح من الذي يستطيع مهاجمتنا في القناة؟ وتبسم الجميع. ومع ذلك

وضعت أكياس الرمل على الجسر في مواجهة المواضع التركية التي تبعد أميالاً قليلة عبر الأفق. في بداية الحرب أصاب لغم دورية ليلية عربية داخل القناة مما أدى إلى جنوحها في البحيرة المالحة وانفجار السفينة الصغيرة وعندما كنا نمر عبر القناة كانت معسكرات قواتنا المقامة على الضفاف وتحيات الأستراليين تضفي اهتماماً محلياً على هذا الممر المبتذل.

ربما كان الجندي الاسكتلندي في كتيبة بلاك ووتش يلوِّح بآخر إشارة للجنود الاسكتلنديين وبينما كان الجنود الأستراليون على ضفاف القناة يلوحون لنا عند مرورنا كان هناك رجل بينهم لا يرغب أو لا يستطيع اختراق الصمت الذي كان يسود في السفينة، واصطفَّ البحَّارة على متن السفينة الفرنسية وهم يلوِّحون لنا. وقد تركت الوقفة الطويلة بعد ذلك أثرها السيئ حتى برز ضابط كان ضمن مجموعة من رفاقه المتجمعين في حلقة ليعبِّر عن مجاملته.

قد يشاهد المرء السفن التي تغادر الأرصفة المزدحمة كل يوم بدون صوت أو تلويح بالأيدي فنحن لسنا بالملوحين بالأعلام في أثناء سباق. وفي الوقت الذي كنا فيه نعبر القناة كان كل أسترالي يحيينا ويوجه أسئلته:

«من أنتم؟». الإجابة هي «بلاك ووتش»

و يوجه أسئلته فيأتي الجواب معها

«من أين أتيتم؟»، «فرنسا»

«أين تذهبون؟»، «لا جواب»

«أين تذهبون؟»، «لا نعرف»

في الواقع تفضل كتيبة بلاك ووتش عدم الحصول على أوسمة وأنواط شجاعة في المعارك التي تخوضها من أن يكون أفرادها متسولين على أرصفة المدينة في ظل رعاية رئيس البلدية. ففي إحدى المرات، خرج العريف A-V-C من الفوج عند محطة على الطريق في بلده عند حلول الغسق متسكعاً مع اثنتين من معشوقاته اللتين هربتا منه إلا أن التعب والإعياء أصاباه فَغُلِبَ على أمره. وفي الصباح أقسم بأن الذي

أصابه ليس من الفتيات الوقحات بل من المناوبتين الثالثة والرابعة لتفقده الواجب مما أثار موجة من التصفيق.

في ميناء عدن تلقَّينا التحية من سفينة نقل هندية كانت مغادرة الميناء. كانت صيحاتهم أكثر الصيحات مواساة في العالم فهي تخلو من الفرح مؤكدة على القضاء والقدر المحتوم اللذين تعبر عنهما الأغنية والموسيقى - التهليل الحزين يختفي في نوع من العويل المثير. ويكون بكاؤهم في المعركة شيئاً آخر. «واه كوروجي كا خالصا!» واه كوروجي كي فاتس يرددها السيخ بينما يردد المسلمون: «الله كا نام، الله كا نام هاي.» وتكون هذه الصيحات الملهم لهم عندما يكون هناك عمل جاد على قدم وساق ولم تكن مجرد طريقة لإلقاء تحية. في ليلة عيد الميلاد يؤتى بالمزامير في هذا الهرج والمرج وفي إحدى المعارك جيء بالمزامير إلى الكتيبة التي كانت تواجه الألمان في أشد المناطق سخونة وفي أثناء القصف الألماني للخنادق أصيب أربعة من مجموع ثمانية عازفين في الفِرَقة وقُتل اثنان منهم. يلامس عزف الفِرقة وتراً عميقاً في الإنسان ليس له اسم مناسب. وتكون عين الزمار التي تخفي سعادته وتنفي كل طرب هي مفتاح مزاج الرجال غير الظاهر الذين يفضلون الموت على رمي حرابهم أو اللواذ بالصراخ. يتفاعل الشاب المراهق بعمر تسعة عشر عاماً، ليس الاسكتلندي بالطبع، مع المزامير المصاحبة للغة عامية بليغة. ويقول الشاب بأنه قد لا يتفاعل أحياناً مثل أي شخص آخر إلا أن المزامير سرعان ما تثيره وقال ماكفارلين الذي كان يرافق السرية وعزف في اليوم الخامس والعشرين: كان شعار الفِرقة هو: «الله هو المنقذ».

كانت القوات تستمتع بهذه الاستراحة وتخضع للتدريب البدني ويتحرر أفرادها من جميع أنواع القيود التي اعتادوا عليها بسبب الانضباط في الوحدات العسكرية حيث يتمتَّعون بنصف نهار جيد إلا أنهم يطوَّقون عند الاسترخاء حيث يخوضون سباقات لا تنتهي منها فيتجَّمعون في حلقات على الرصيف تحت ضوء القمر وعلى أضواء المصابيح الكهربائية. وهو نوع من أنواع المسرح في الهواء الطلق وحولهم رجال يرتدون الخاكي يمشون عند مؤخرة السفينة وينتشرون فوق الصواري والمراكب ومؤخرة السفن مثل الطيور المهاجرة وينظرون نحو الأسفل بصمت

منضبط بينما يوجد اثنان تجرَّدا من ملابسهما حتى الخصر يضرب أحدهما الآخر حتى يصبح وجهاهما كالعجينة. ويوجد فتى أخرق يتلقَّى ضربات على فكه وأذنه ولثلاث جولات دون أن يستطيع رد واحدة منها. وينقطع نَفَسُه نتيجة دمه المسال وتسيل دماء في اليوم كأنها معركة صغيرة، إنها طريقة غريبة في الاستمتاع في فترة الاستراحة إلا أن الصراع كامن في أعماقنا وهي الحقيقة التي يثيرها في نفوسنا القس المرافق مع الجيش مرة في الأسبوع فقد كان يقول: «إن السلام الدائم عندما يسامحك الرب». كانت هناك سخرية مبطَّنة في تلك المباركة في تفكير الرجل.

يدرك المرء عند الخوض في أعماق هؤلاء الرجال صلابة بأسهم وتماسكهم وحسن تربيتهم. ويكتشفان الدخان المنبعث دون شرارة معظمه من فحم الكوك الذي لا ينضب. مر شهر كامل في التنقل من قاعدة إلى أخرى بدون توقف. واستمرت عملية استيعاب الخطط الجديدة لكتيبة بلاك ووتش التي تكبَّدت منذ إبحارها من الهند في بداية الحرب ما يقارب ألفاً وخمسمائة قتيل وجريح. ولم يبق في الكتيبة الأصلية سوى ضابطين من الذين أصيبوا بجراح وأقل من مائتي رجل أدمجوا مع مجندين جدد. تضفي قيافة الرجال الذين يرتدون الستر والتنورة[1] أناقة ووقاراً وقوة لا تتحقق بارتداء الملابس الأخرى مثل البنطلونات والقمصان والقبعات والشعر الأحمر فوقها أثرت فيها العوامل الجوية، فاللون القرمزي الفاتح يعود إلى سكان الاسكتلنديين القدماء فتضفي عليهم أناقة مع الومضة الحمراء من الرباط.

كان الأتراك كذلك أنيقين في ملابسهم وقد لا يتصور إنسان أن يكون تعداد جيشهم على الورق سبعمائة ألف رجل مقاتل ومع ذلك كان بعض القلق ينتاب أوروبا ولو لم يدق الإسفين بيننا وبين الروس وحموا مدينتهم مدينة الخلفاء لكان التقليد هو تضخيم مزاياهم العسكرية.

كانت مسألة النقل تشغل تفكيرنا كثيراً ولو فكَّرنا بإقامة سكك حديد في وقت مبكر من الحرب لتمكَّنا من تنفيذها خلفنا في كل خطوة من خطوات التقدُّم حتى تكون مواصلاتنا قوية بما فيه الكفاية ولتمكَّنا من شن الهجوم على بغداد. على أية

---

(1) تنورة ذات طيات طويلة يرتديها أفراد الفِرقة الاسكتلندية في الجيش البريطاني.

حال، كانت لدينا قوة عسكرية وهي ما تبقّى من فِرقة في الكوت على وشك الإنزال. وقد نكون محظوظين لو تمكّنا من إيصال عشرين ألف مقاتل إلى خط النار مع توفير الطعام لهم ولم تكن هناك وسائل عظيمة لتحقيق هذا الهدف إلا أنها طريقتنا نحن البريطانيين بالتشبث بالأمل بأن الأمور ستكون على ما يرام. ولو تمكّن أي شخص أن يفعلها فستعزز قوة سفينة جورج الملكية.

وخارج حاجز شط العرب تركنا باخرتنا التي تزن خمسة عشر ألف وانتقلنا إلى سفينة أصغر نقلتنا إلى البصرة صباح يوم الحادي والثلاثين من كانون الأول ولم نصل إلى القاعدة بعد حتى طرق سمعنا بأن طاوزند وحاميته قد أحيط بهم في الكوت. ودبَّت إشاعة مقلقة تفيد بأن تجهيزاته وذخيرته قد نفدت مما ساورنا القلق من كوننا متأخرين جداً عن شن الهجوم. وفي الليلة نفسها انتقلنا إلى سفن بخارية أصغر لتأخذنا إلى منطقة علي الغربي في مكان تجمع القوات المتقدمة.

في الصباح، دخلنا أقدم بقعة على الأرض على مر التاريخ في القرنة حيث رست سفننا والمعروفة بأنها موقع جنة عدن وشاهدنا الشجرة المعروفة بشجرة الخير والشر وهنا القناة القديمة التي تربط دجلة والفرات حيث تنتشر بساتين النخيل على مدى أميال باتجاه أعالي النهر وهي آخر موقع خصب تأتي بعده أرض بور خالية من الأشجار ولكن قد تشاهد قطعاناً من الحمير والماشية والخرفان. يركض السكان الساكنون في الأكواخ المصنوعة من القصب والبردي خلف الزوارق يطلبون بصخب بقشيشاً ويتدافعون للحصول على قطع نقدية نحاسية تلقي بها القوات. عند أعالي النهر كان يجري تقليد قديم وفق الكتاب المقدس. في الليلة الثانية رست سفننا عند مرقد العزير وهو ضريح ذو قبة بارزة بين أشجار النخيل في ضوء النجوم الصافية ولا يستطيع المرء إلا أن يستنبط الدرس الأخلاقي في المرحلة الجديدة في التواصل التاريخي عندما أشار أحد سكان اسكتلندا الأصليين إلى المكان وهو يخاطب رفيقه «Yon corner – hoos». وتصبح الملاحة بطيئة وصعبة بعد مرقد العزير حتى العمارة حيث المجرى عريض ويضيق المجرى الذي تتخلله التواءات وانحناءات.

كانت خصائص البلد المادية مألوفة للقوات الهندية؛ لأنّ القرى الواقعة على

النهر تشبه قرى البنجاب أو الحدود الشمالية الغربية ومنطقة قلعة صالح مشابهة لقرية إسماعيل خان لتشابه جدران الطين المائلة المحاطة بالفناء وهم يستخدمون روث البقر المدور المجفف تحت الشمس في الوقود والخشب اليابس والمجوف في سقوف المنازل. وفي الزراعة تنمو أشجار النخيل والتوت والصفصاف التي تسقى بقنوات الري. تكون بعض البيوت القليلة مبنية من الطابوق المجفَّف بالشمس كما في معظم أجزاء صحراء البنجاب ويوجد غياب كامل للتزيين الموجود في البنايات المكونة من طابقين وتحتوي على بلكونة يملكها التجار والمسؤولون وهي مطلة على النهر ويكون عمل الخشب مشبكاً ومغلقاً.

يتمتع العرب المقيمون إلى جانب النهر بالوسامة والاعتداد بالنفس وهم يرتدون فوق رؤوسهم الكوفية والعقال حيث يثبتون الكوفية المصنوعة من غزول القطن وبألوان مختلفة بالعقال المكون من ضفيرتين مصنوعتين من شعر أو وبر الماعز والغالب على ما يرتديه الشيعة اللونان الأزرق والأبيض. تتدلى الكوفية تحت الذقن في أشهر البرد لتغطي الأذن، أما في الطقس الحار فترفع إلى الأعلى وتربط حول قمة الرأس. يكون شعر أطفالهم ذا لون كستنائي أو أسمر أما النساء فيتمتعن بالجمال وهن يكشفن عن وجوههن. سألت أفريدي في الكتيبة القادمة من البنجاب فيما إذا كان هذا طبيعي للمسلمين حيث أجاب بازدراء بأن هذا شأن الشيعة وليس المسلمين الحقيقيين.

يزدري الجندي الهندي كل من في البلد قائلاً: «أنا لا أفهم لماذا السركار (المسؤول الحكومي) له الرغبة بهذه الأرض الملعونة» وقد وافقته الرأي؛ لأنَّ حكمه جاء انطلاقاً من اعتبارات مادية فهو يرى بأن البلد لا يستحق قيمة الذخيرة التي صرفت عليه على الرغم من أن القائم بأمر الأرض قد يجد وسيلة لإعادة استصلاحها وجعلها خصبة مشيراً إلى أن هناك أمثلة على التربة السيئة في البنجاب التي لم تكن مثمرة إلا أنها كانت تساوي الكثير. وأعترف بأن الناس هناك لم يكونوا مزارعين بل إنهم مجرد مقرضي أموال وسألته فيما إذا كان يعرف شيئاً عن لغة السكان فابتسم قائلاً: «أعرف كيف أخبرهم عن جلب الماء والانصراف وهذا كاف لهؤلاء الناس». وأطلق ضحكة تحمل في أثنائها ازدراء. كان الجندي يتمتع بشخصية مهيبة وبتناسق جسمه وقيافته الكاملة وهو يظهر أمام جمهرة من الناس متجمعين عند ضفة النهر.

وعندما سألته عن الطقس، أجاب بأن البنجاب تعد منتجعاً صحياً مقارنة بطقس بلاد ما بين النهرين. ولكن هذا حال الجندي إنه يتشبث بالمكان الذي يقيم فيه ويفضل أراضي بلده حتى لو كانت موقد نار مثل مدينة مولطان.

تعد العمارة التي تبعد واحداً وثلاثين ميلاً شمال قلعة صالح من المدن الكبيرة الواقعة بين البصرة وبغداد. وهي تعج الآن برجال القبائل وحطام السفن الطافية وما تخلّفه المراكب التي تتدفق في أعقاب الحرب. يرفرف العلم البريطاني فوق الثكنات التركية وكل العلامات المواجهة للنهر مكتوبة باللغة الانكليزية «مخازن عامة» و«مستودع للذخائر والمعدات» و«موقف للمهندسين» و«مستشفى» إلى غير ذلك. وفي المستشفى يجلس «تومي» الجندي البريطاني الجريح على مصطبة في جناح المستشفى الأزرق وهو يتطلّع إلى نهر دجلة وكأنه يشاهد مياه أنهار النيل أو السين أو التايمز. السوق في المدينة ذو سقف من الحجارة فسيح على ارتفاع خمسة وثلاثين قدماً كما هو الحال في بغداد والصناع هم محليون كما هو الحال في مدن الشرق جميعاً. وعند منعطف كل شارع رئيس يوجد اسم للشارع موضح باللغة الانكليزية بجانب الحروف العربية.

هناك فرصة لإضفاء لمسة خيالية وقد يجد تسمية بريطانية حقاً. أصبح سوق الجزّارين بالعربية باسم «شارع القصابين» و«سوق الخبازين» و«سوق النقابين». سوق العبارة وسوق الصابون معلنة عن الحاجات الآنية وكأن خطاط هارون الرشيد لم يوجد قطُّ!

ويخترق العمارة طريق عام وهي ملتقى القوافل القادمة من ديزفول في إيران عند نهر دجلة وهي مقر للطائفة الصابئية المندائية. ويوجد فيها مقهى عربي كل خمسين ياردة حيث يتجمع رواد السوق الذين يرتدون الكوفية ويجلسون على مصاطب خشبية مثل المصاطب الخشبية في كنائس قرية وأمامهم طاولة يجلسون حولها ويتبادلون الأحاديث المتعلقة بالأعمال التجارية وآخرون يلعبون الدومينو وآخرون يجلسون ويحملقون في الفراغ. تكون هذه المقاهي المظلمة مزدحمة كما هو الحال في مقاهي بكاديلي بعد حفلة عامة تجري بعد الظهر إلا أنَّ هناك اختلافاً في النوع وهي مكان جيد لمشاهدة الحشد خارج المقهى حيث تمر مجموعة من الأتراك في

الشارع وهم يرتدون قبّعاتهم البصلية وتتدلى خصلات شعرهم وتعقد عند آذانهم مثل الزي الأفغاني ويلتقي اثنان من هؤلاء من سكان المناطق الجبلية فيحتضن أحدهما الآخر ويتبادلان التحية والقُبَل على الخدود وينادي يهودي يضع الطربوش التركي فوق الكوفية رجل شرطة عربي وهو يخدم الآن الحكم البريطاني مدعياً بأن قطعة فضة سرقت منه. ويكرر قصته بإشارات دينية تكون قراءة لكتاب النبي أرميا. ويوجد رجل شاحب الوجه مثقَّف مظهره يبدو من إيران من منطقة ديزفول يروِّج لكومة من غزول الصوف في الكشك المقابل. ويرمق شخص من بختيار المقهى بنظرة حادة ثم يذهب في حال سبيله مُرَدِّداً: «شعب عنيد نصفه شيطان ونصفه ببراءة الأطفال».

يمر شخص أنيق منتصب القامة من الجنود الهنود التابع لبريطانيا ويتمتَّع بالسلطة وله صلاحية للتعامل مع قبائل الصحراء والجبال وهو يرمق الشارع على امتداده. في الوقت الذي نقاتل فيه الأتراك اليوم كان يوجه لنا انتقاداً بارزاً لمدى السلاح البريطاني وقوته وتعقيدات الإدارة التي دخلنا فيها بقلب خالٍ من الهموم. اجتمع هذا النسيج من القبائل والأديان وصراعهم على المصالح والسياسات والجشع الذي كان كافياً لإصدار حكم على الماضي. في غضون ذلك فإنَّ العمارة هي مجرد موجة في المياه المرتدة لبلاد وادي الرافدين وعلى بعد مائة وخمسين ميلا إلى الشمال كان الأتراك يتخذون مواضع لهم.

تكون الأرض شمال العمارة جرداء قاحلة. وتختفي أكواخ البردي لتحل محلها الخيم السوداء المصنوعة من أوبار الماعز. ومن هنا إلى منطقة شيخ سعد نكون في مضارب قبيلة بني لام وهي أشد القبائل قسوة وعدم إكرام للضيف وهذا ما ذكرته كتب الأسفار القديمة. وحذر رجال قبائل أصدقاء من الحويزة لايارد بعدم دخول بلدتهم واصفاً بني لام بأنهم ليسوا عرباً بل أبناء كفرستان (وهي منطقة جبلية في شمال شرق أفغانستان) فهؤلاء الرجال لا يحترمون أصول الضيافة ولا يبدون أي تصرف ينم عن مسلمين صالحين وكانوا خونة كما هم همج وقساة ويقطعون عنق الضيف من أجل حفنة قليلة من المال. ويدَّعون الآن أنهم إلى جانبنا ضد الأتراك. وقال: «يمكن أن ترى العرب في أعالي النهر ذات نزعة معادية أما في أسفل النهر فهم أصدقاء» وهو تعريف جغرافي بسيط مع مضامين أخلاقية في الوقت نفسه.

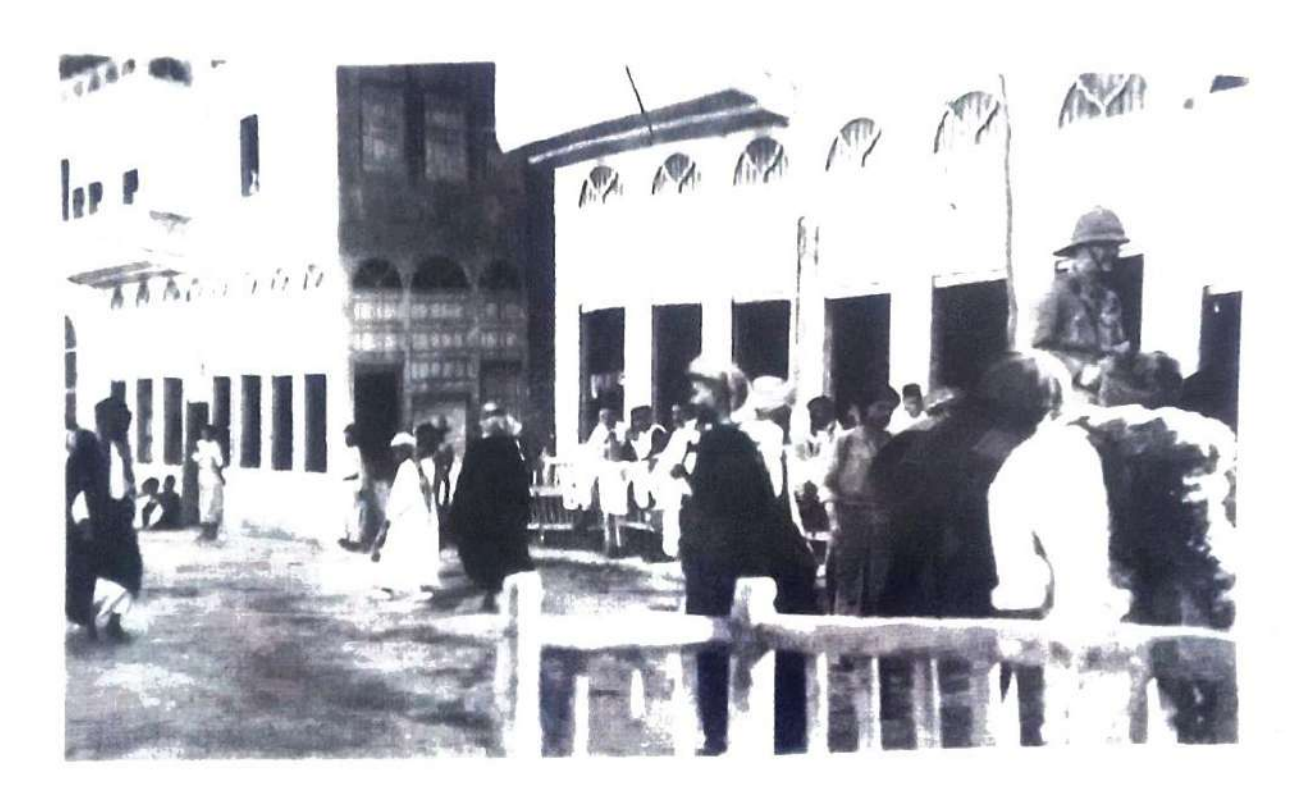
تعد أرض بني لام مجدبة كأنها متوارثة. ومن السهولة بمكان وصف المكان بأنه كتل طينية صلدة على الضفتين. وخلال فصل الشتاء ينمو في هذه الأرض القاحلة نوعان من النباتات هما الخرنوب وهي شجيرة مليئة بالشوك كثيبة وتسمى باسم أفضل «نبات شوكة الجمل» على الرغم من عدم وجود شوكة الجمل في الجبهة الشمالية الغربية. والنبات الآخر هو العاكول وهو نبات ليفي سريع النمو ليس فيه أوراق وتستخدم للوقود وبعد مدينة العمارة نادراً ما توجد أشجار النخيل وإذا ما وجدت فتكون نحيلة صغيرة لا تحمل ثمراً وفي المنطقة الواقعة بين شيخ سعد وكوت العمارة لا توجد حتى شجرة واحدة.

وعند علي الغربي يأخذ النهر بالانحدار نحو الشرق وسمة جديدة هناك تضفي تنوعاً على المشهد في تلال بوشتي كو وهي تلال منخفضة تغطيها الثلوج وتقع على الحدود الإيرانية تتلبد الغيوم فيها طول النهار وتُلقي على الأرض ظلالاً داكنة ذات لون أرجواني أزرق (خبازي) ويقترب النهر بحدود ثلاثين ميلاً من هذه الجبال على الرغم من أن هواء الصحراء الصافي يجعل المسافة تبدو أقل. وتكون الأرض بين النهر والتلال مجدبة على نحو سيّئ ومثير ولا يوجد حتى الخرنوب والعاكول. تكون أرض جرداء بشكلها السيّئ متصدعة كثيرة الأخاديد ولا توجد صخور أو حصى أو رمال تعطي لونا للصحراء وعلى هذه الأرض تسير عربات النقل وهي ترتج عندما تصطدم بالأرض مما يثير الرعب في مساء السابع من كانون الثاني. وتختلط ذكريات معاناة الإنسان بما يحمله من انطباع سيّيء عن الأرض.

ولكن عند مدينة علي الشرقي الواقعة عند نهاية الأرض القاحلة يوجد حزام من أشجار التوت والصفصاف التي تحتضن ضريحاً عربياً ذا قبة زرقاء وعندما شاهدناه أول مرة كانت مزهوة بالذهب. وعندما اجتزنا هذا البستان انتابنا شعور بالحنين إلى الوطن ومع ذلك لم تمضِ سوى أيام قليلة على الابتعاد عنه وفي جعبة معظمنا الكثير من الاهتمام والإثارة كأنما مرت سنة أو سنتان عندما شاهدنا شجرة حقيقية وليست نخلة ليفية ولكن شجرة انكليزية أصيلة تركناها خلفنا.

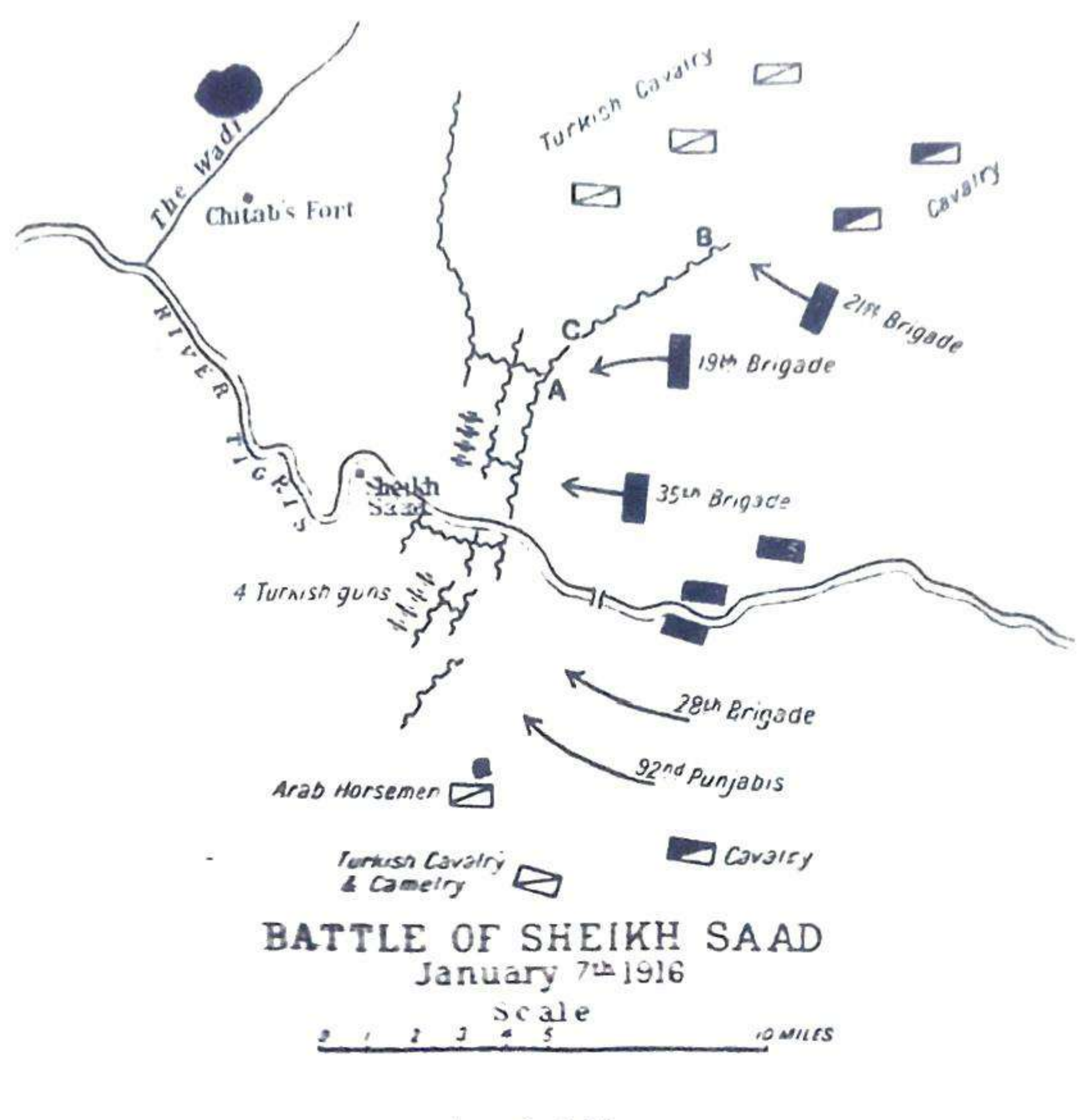
في ظل حرارة الصحراء تتبلور الأفكار حول الأشجار والمياه المتدفّقة وظل

شجرة الزعرور الأخضر الوارف. بعد مضي يومين من المرور بمدينة علي الشرقي استُدرجت القوات. وفي غضون أسبوعين تعرَّض ثلثا الرتل إلى الإصابة أو المرض أو الموت. وانتاب القليل من هؤلاء الذين وصلوا منطقة شيخ سعد شعور بأن أشجار التوت والصفصاف قد تكون آخر أشجار يمكن رؤيتها ولكننا كنا فرحين على ظهر الزورق واندفعنا بقوة والشيء الذي كنا نخاف منه هو عدم وصولنا في الوقت المناسب للتقدم ولَعَنَّا حظنا العاثر في مدينة العمارة عندما كان لا بد أن نأخذ قسطاً من الراحة والنوم.ثم نستيقظ ونجد نصف العبَّارات قد علقت وقمنا بسحبها وفي يقظتنا لَعَنَّا حظنا العاثر مرة أخرى؛ لأنها ستؤخرنا لأفضل جزء من النهار.[1]



سوق العمارة

(1) أودُّ الإشارة إلى أن ما ذكره الكاتب من إساءة إلى القبائل العربية الأصيلة في العراق تمثل وجهة نظر الكاتب والأمانة الترجمية تستلزم ترجمتها وهي لا تمثل وجهة نظر المترجم.



معركة شيخ سعد

الفصل الرابع

منطقة شيخ سعد

لا شيء يعكر الصفو في منطقة علي الغربي حيث أُلحقت الكتائب بألوية جديدة عند مغادرتها النهر وكانت هناك الألوية المكونة من وحدات لم تلتحق باللواء سابقاً وهذا الحال ينطبق على الفِرَق السابقة وفِرَق دجلة حيث لا يعرف أمراء الألوية أمراء الكتائب ولا قائد الفيلق يعرف أمراء الفِرَق أو الألوية إلا أنَّ خبرة السنة في فرنسا مكَّنت الفِرَق الهندية من عملية إعادة التنظيم وتجميع أفراد أقوياء جداً بينما لم تكن هذه العملية ذات قيمة في الأشهر القليلة الأولى التي أمضتها في بلاد وادي الرافدين؛ لأنَّ الاستبدال المتعجِّل في اللحظة الأخيرة يؤدي إلى حدوث كارثة. وبوصول كتيبة بلاك ووتش في الخامس من كانون الثاني 1916، اكتملت الفِرقة السابعة من حيث النقل والفِرَق الطبية ولواء المدفعية[1] وتفاصيل عدد من المعدات. وجهزت فِرقة كاملة في فرنسا.كان السياق المعمول به هو مباشرة الوحدات بنقل خطها الأول ولكن في مدينة مرسيليا كان الهمّ الأول هو نقل القوة إلى البلد بالسرعة الممكنة ولو أُعيد تنظيم الفِرقة في مصر بحسب الخطة الأصلية لكان كل شيء يسير على ما يرام بيد أن الأخبار المتعلقة بحصار الكوت وصلت عندما كانت القوات في أعالي البحر؛ لذا صدرت الأوامر للقوة بالتوجه إلى بلاد وادي الرافدين. كان الإرباك المثار جزءاً من حصاد ما تم زرعه من تهور أعمى في بلاد وادي الرافدين. لقد هُيئت كتائب البغال التي من المقرر أنْ تُنقل على متن السفينة الثالثة مع بطاريات المدفعية والخيول مع ترك لواء مدفعية في الخلف. وملء مكانها ببطارية سوسك الإقليمية وبطارية

(1) قبل الحرب كانت فِرقة الجيش الهندي تدخل الميدان بلواء مدفعية وفي فرنسا نما التأسيس إلى ثلاثة ألوية مدفعية.

المدفعية الثقيلة الثانية والسبعين والثامنة والسبعين من الهند مع مدافع تطلق قذائف عيار خمسة عشر أنجاً ومدافع أخرى. وتركت القنابر ورمانات القنابل وأجهزة الرؤية والمصابيح والرشاشات المزودة بكاشف في فرنسا. كان قسم الإشارة في اللواء يقوم بالواجب المناط به على الرغم من النقص في أسلاك الهاتف ووصل أفراد الفِرقة يوم السابع من كانون الثاني في أثناء معركة شيخ سعد. وفي يوم العشرين من كانون الثاني وصلت الإسعافات الميدانية الأولى نهر دجلة بدون أجهزتها. ولم تكن الزوارق النهرية في البلد كافية لحمل الرجال والذخيرة إلى الجبهة.

ومع ذلك فقد ساد شعور بالتفاؤل والتقليل من قدرات العدو؛ لأنَّ الشعور السائد هو أننا بريطانيون وأن الذي يحاصر قوات طاوزند ويقترب من الكوت مجرد أتراك فإنَّنا لا بد أنْ نمضي قُدُماً ونكتسحهم. وكانت هذه عملية بسيطة للفِرقة السادسة التي لم تهزم حتى مواجهتها لأعداد ساحقة في المدائن التي أجبرتها على التراجع إلى كوت العمارة. وكانت هزيمتنا على نهر دجلة هي امتداد لهزيمة جاليبولي التي أطلقت العنان للجيش التركي لمواجهة تقدُّمنا. في الوقت الذي كنا فيه مترددين في الوطن وتحوم الشكوك في إمكانية الاستيلاء على شبه الجزيرة أو الانسحاب كان الألمان يتهيؤون على الأرض مستندين إلى رؤية واضحة لإدامة الصراع البريطاني التركي. كان كل ميل من تقدُّمنا يضعف مواردنا ويقوِّي مواردهم ويجعلنا نقترب من تعزيزات العدو ويبعدنا من مصدر تجهيزاتنا ونقلنا. ووضع فون دير كولتز[1] استراتيجية الأتراك ذات الدفاعات المحكمة. زودت الاستخبارات الألمانية الجزء الوحيد من الماكنة بالمعلومات المطلوبة. وفي المعركة الدفاعية يمكن لمشاة الأتراك مسك مواضعهم الدفاعية أفضل من أي دولة في أوروبا.

ومع ذلك وفي خضم هذه الترتيبات الهائلة فقد انشغلت قواتنا في التفاصيل عند وصولها أرض المعركة. ويبدو أنه لم تكن هناك خطة سوى اكتشاف العدو وإزاحته من الخنادق بالتفوق المعنوي الواضح. ولم تجرِ أية محاولة لتركيز قواتنا على أية نقطة من مواضع العدو على الرغم من أن الجسر العائم أعطانا مرونة لا يتمتَّع بها

(1) قائد عسكري ألماني في الحرب العالمية الأولى.

العدو والسبب في ذلك كما ظهر من أول وهلة هو غياب استراتيجية المعركة.وفي هذا الأمر لا ينبغي أن يجول في خاطرنا أنَّ قادة الفيالق أُجبروا على تنفيذ الأمر فقط. قيل:إنَّ طاوزند كان على وشك نفاد موارده وإن الكوت ينبغي أن تحرر في غضون ثمانية أيام. وذُكر بأن الأمر يقضي بأن يكون يوم الخامس عشر من كانون الثاني الموعد النهائي للسيطرة على الحامية. تم تبادل هذه المعلومات في المقر العام وكان لا بد من اتخاذ الإجراءات الضرورية بالاندفاع قبل استكمال الترتيبات. وفي اليوم الخامس من الشهر، أصدر أيلر (القائد البريطاني الميداني) أوامره بشن الهجوم. كانت الفِرقة الثالثة جاهزة على النهر وكان من المتوقَّع أنْ تصل منطقة علي الغربي في غضون عشرة أيام لتعزيز قوته الضاربة. ولكن يبدو أن طاوزند لم يضع في الحسبان مسألة تعرُّضه لهزيمة أو لم يتخذ الإجراءات الضرورية لإدامة حصار طويل. وزاد التفاؤل في الكوت على ما هو عليه في منطقة علي الغربي؛ لأنه لم يحدث قطُّ لقوة مرتاحة أن تفشل باختراق حامية.

كان «طاوزند نفسه سيفعلها لقناعته بفِرقته وبمعظم فِرَق نهر دجلة». وهكذا ساهمت الثقة المفرطة وما يحمله من ثقة ونجاح تحقق في الماضي أكثر من أي شيء آخر في القدر المشؤوم الذي حل بحاميته وكما ثبت فإنَّه كان يقتصد بموارده لأقصى حدّ بعد أن بدأت هذه الموارد بالنفاد وقام بنهب المدينة من أجل توفير المؤن. وطلب إرسال إعانات عاجلة دفعت (أيلمر) وأجبرته على شن الهجوم قبل اكتمال تنظيم رتله مما تسبَّب في ارتكاب أخطاء في القيادة تعرَّض فيها إلى النقد وما جرى كان أمراً لا مفر منه بسبب التسرع في خوض المعركة المفروضة التي رافقتها ظروف جوية سيئة ما تزال موضع جدال. يقع اللوم في هذا الأمر على القيادة في الحكم العام بالحسبان جميع ما ذكر. فقدت الكوت في المعارك التي تم خوضها في السابع والثالث عشر والحادي والعشرين بعد أن تدخل المطر والفيضانات وقضت على أية إمكانية لتصحيح الأخطاء التي وقعت في الصفحة الأولى من التقدم.

كان الأتراك حتى السابع والعشرين من كانون الأول يمسكون بمنطقة شيخ سعد بقوات محمولة فقط. ولكن في ذلك اليوم بدؤوا بالتحرك باتجاه مجرى النهر انطلاقاً من معسكرهم في مدينة شومران واستمر التحرك لأيام عدة عندما تركنا علي الغربي

الضفاف قبل الأخرى إلا أن أيادي الجنرال كانت مقيدة. صدرت الأوامر بعدم البدء بالمبادرة وعُلِّقت العمليات الخاصة بالهجوم المركز على ضفتي النهر الذي شن على الجبهة الجنوبية في حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر عندما وصل اللواء الثاني والتسعون من البنجاب الذي استدعي لشن هجوم على الجانب الأيسر بكامل جاهزيته. ومن هذه اللحظة شن الهجوم بضراوة وفي الساعة الرابعة اقتحم اللواء خنادق العدو وقد حافظت قوة القائد لسيستر على السمعة الطيبة التي كان يتمتع بها في فرنسا وهي البسالة وسرعة الانقضاض على العدو. سقط ستة عشر ضابطاً من الكتيبة في الهجوم منهم سبعة قتلى وتسعة جرحى ومائتان وثمانية وتسعون فرداً من المراتب. وكان اللواء الحادي والخمسون من السيخ على الجانب الأيمن من قوة لسيستر وأول من أمن موطئ قدم في خطوط العدو واستطاع الاستيلاء على مدفعين جبليين وثلاثة مدافع أخرى كانت مقابلة لمواضعهم. واندفع اللواء الثالث والخمسون من السيخ واللواء السادس والخمسون حملة البنادق على الجهة اليمنى بعزم لا يلين. شكّلت هذه الكتائب الثلاث وهي جزء من قوة الحدود القديمة من البنجاب مع قوة لسيستر اللواء الثامن والعشرين. لقد حققوا مع اللواء الثاني والتسعين من البنجاب نصراً مؤزراً يوم السابع من كانون الثاني. دُفن أكثر من ثلاثمائة وخمسين تركياً قتلوا في المعركة في صباح اليوم الثاني فضلاً عن الاستيلاء على المدافع والأسلحة وأسر ستمائة جندي تركي إلا أن تكاليف النصر كانت باهظة أيضاً فقد تكبّد اللواء الثامن والعشرون فقط بغض النظر عن الإصابات التي أُلحقت باللواء الثاني والتسعين البالغة عشرة آلاف وستمائة وواحد وثلاثين إصابة.

وقد حصلت قوة كمبول في هجومها على دعم من بطارية ميدان واحدة وبطارية مدفعية جبلية واحدة وهذا ما ميزهم عن اللواءين التاسع عشر والحادي والعشرين المتواجدين على الضفة الأخرى وفي المساء حفروا الخنادق وحضر معهم ضباط الاستطلاع المتقدمون. لا تستطيع بطاريتان عمل الكثير بطريقة تهيئة المدافع على خط خنادق يمتد لمسافة ميلين ومع ذلك حقّقت المدافع طلقات سديدة وإصابات مباشرة في القوات المواجهة لخط الجبهة في المكان الذي أطلقت باتجاهه النار.

ومن الجدير بالذكر أنه في شهر كانون الثاني كان لا بدّ أن تشن قوات مشاتنا

هجوماً تقتحم فيه المواضع بأقل قدر من الدعم الذي تقدّمه عادة المدفعية. وكان عدد المدفعية وعيارها خلفهم أقل من معيار خوض المعارك في أوروبا وربما تقدم عُشر الدعم الذي كانت تقدمه في ظل الظروف السيئة في فرنسا. كذلك فإنّ تحديد المدى وتسجيل الإحداثيات يكون أسهل في الظروف المستقرة على الجبهة الغربية مما زاد من صعوبة إدامة زخم تقدم الرتل تجاه المواقع الجديدة والمخيفة. ويعدُّ الأتراك خبراء في حفر الخنادق العميقة والضيقة علاوة على أن السراب وانبساط الأرض ساعدهم في ذلك. كان أول شيء يراه المرء في موضع العدو هو تلألؤ الحراب على الضفة اليسرى، كان لا بد من قوات مشاتنا أن تشنَّ هجوماً على خنادق بكر لم تطالها قذائف المدفعية. كان القتال على هذا الجانب من النهر معركة متنقلة ولم يكن اللواءان التاسع عشر والحادي والعشرون موجهاً من خنادق أعدت في ليلة وضحاها بمساحة مفتوحة بسبب السراب ولم تحدد مدفعيتنا خنادق العدو.

يقع الموضع التركي الرئيس (ا) على الضفة اليسرى عند الزوايا اليمنى للنهر وبخندق يلتف حول الجناح (ب) باندفاع نحو الجهة اليسرى. وفي صباح يوم السابع من كانون الثاني استطاع اللواء الخامس والثلاثون الذي اقتحم مواضع العدو بشراسة قبل يوم من الاستيلاء على مركز الجبهة اليمنى للعدو بينما اللواء التاسع عشر (المكون من أفراد من مدينة سيفورث الهندسية العسكرية المائة والخامسة والعشرين مع سرية من اللواء الثامن والعشرين من البنجاب) كان يتقدم ويطور حركة دوران والتفاف حول جناح العدو الأيسر (ب). في هذا المحور استدعي اللواء الحادي والعشرون لملء الفراغ (الثاني) الذي خلّفه ابتعاد اللواء عن الجبهة اليمنى.

شنت كتيبة بلاك ووتش الثانية وكتيبة تشاتس السادسة الهجوم بدعم من الكتيبتين بهوبالس التاسعة ودوكراس الحادية والأربعين. ترجلت كتيبة بلاك ووتش التي جاءت مباشرة من مرسيليا إلى علي الغربي يوم الخامس من كانون الثاني وسارت مسافة اثنين وعشرين ميلاً يوم السادس من كانون الثاني وخاضت المعركة صباح اليوم التالي. سنحت فرصتان لكتيبة بلاك ووتش للسير الحر على طول رحلتها الأولى في ميناء بور سعيد والأخرى خلال توقفها في العمارة لفترة قصيرة. إن مسيرتها الطويلة في الشمس المحرقة بعد خمسة أسابيع من التراخي كانت شديدة

الوطأة حتى للقوات المتأقلمة إلا أنهم اجتازوا بجدارة وتقدموا بخطى سريعة غير معتادة ولم تستطع النيران أن توقف زحفهم حتى وصلوا إلى مسافة أربعمائة ياردة من العدو. وقد تعرَّضوا إلى وابل كثيف من نيران المدفعية وهم على مسافة ألف ومائتي ياردة. وكان مدى مدفعية الأتراك دقيقاً جداً. وعلى الفور وفي أثناء تقدمهم زج الجنرال رايس بكتيبتي الاحتياط (بافس) الأولى والخامسة على يمين خط جبهته واللتين شُكلتا قبل ليلة وقد تكوَّنت من كتيبة وكراس السابعة والثلاثين وكتيبة المشاة السابعة والتسعين وكتيبة جيرانديز الذين شكلوا نقطة ارتكاز لشن الهجوم على الجهة اليسرى للواء التاسع عشر. وبتقدم كتيبتي بافس فإنَّ هجوم اللواء الخامس والثلاثين شكل ضغطاً متزايداً وكانت الانعطافة الحاسمة في الهجوم عندما اندفع اللواء التاسع عشر بأوامر صادرة من قيادة الأركان إلى داخل خنادق العدو (ب) بدلاً من الالتفاف حول العدو. لقد لاحظوا أن العدو يطيل بخطه بسرعة من أجل مواجهة هجومهم على الجناح عندما تحركوا مسافة ميلين إلى اليمين. وكان يستلزم إجراء هذا التحول الواسع وأصبح من المستحيل تحقيق أهدافهم والتواصل مع اللواء الخامس والثلاثين في الوقت نفسه وفي هذه الأثناء جاء اللواء الحادي والعشرين لسد الثغرة وبدعم من كتيبة بلاك ووتش وكتيبة تشاتس السادسة (التابعة إلى اللواء بهابس التاسع ودوكراس الحادي والأربعين). وأوقف الأتراك المتواجدون في الخنادق الالتفافية نيرانهم حتى وصول قوات سيفورت وكتيبة رشاشات نابير مائة وخمسة وعشرين والكتيبة الثامنة والعشرين من البنجاب وكتيبة بلاك ووتش وكتيبة حاتس السادسة إلى جهة اليسار وإلى نقطة يمكن توجيه ضربات منتظمة وجبهوية مركزة عليها. وحقَّق الاسكتلنديون والهنود محاولة ناجحة في اختراق خطوط العدو واندفعوا بهجومهم على طول الجبهة على بعد ثلاثمائة ياردة من خنادق الأتراك وسقطت العدد من الخطوط لمسافة مائة ياردة إلا أن الأرض كانت تفتقر إلى التغطية ولا شيء يمكن أن يصمد أمام سيل الضربات. وكان واضحاً للقوات التي مرت بمدينتي (لوس وجيفنجي) بأنها قد تتعرض إلى إطلاق نار مساوية لأي إطلاق نار من جبهة غربية. وتعرض اللواء الخامس والثلاثون على الجهة اليسرى إلى وابل من النيران المميتة. وكان لا بدّ أن تحفر الألوية الثلاثة خنادقها بنفسها.

ولو قمنا بحركة التفاف أوسع وأحطنا بخنادق العدو بدلاً من تجاوزها لتعرَّض الأتراك إلى إطلاق نار على طول الخندق ولأجبروا على ترك مواضعهم. وهذه نقطة مشكوك بها؛ لأنَّ خلف (ب) كان هناك خندق يتخذ شكل نسق على بعد ثلاثة أميال خلف الأتراك وقد قام بتوجيه ضربات بانتظام تجاه حركة التفافنا حتى لو قمنا بحركة التفاف أوسع وهذه هي فائدة الموضع المعد مسبقاً لمواجهة هجوم يشنه العدو في أرض غير مُعَدَّة. وكان الأتراك لديهم خنادق على ضفتي النهر تمتد لأميال من أجنحة جيشهم وهي عميقة وضيقة وتستطيع القوات الحركة بسرعة على امتدادها من نقطة إلى أخرى بدون أن تنكشف ويمسك بعض هذه الخنادق العرب غير النظاميين ورعاة الإبل وبعضها تكون خالية إلا أنها مرتبطة بخنادق اتصال مع مواقع الاحتياط في الخلف. وخلف الخط الأول أُعدَّت خنادق بشكل نسق تمتد لمسافات واسعة لمعالجة حركات الالتفاف اليائسة. وكان الموقع متشابهاً على ضفتي النهر وهذا يفسر لماذا كان لابد أن يشن الهجوم من الأمام. تقدم معركة شيخ سعد توضيحاً تاريخياً للضرر الذي قد يصيب الرتل الذي يشن هجوماً متحركاً داخل أرض العدو وبغض النظر عن التكتيكات التي اتبعها الأتراك فقد قدَّم البلد للمدافعين عنه ميزتين طبيعيتين ضد حركات الالتفاف التي تقوم بها القوة الغازية القادمة عبر النهر هما غياب المياه الداخلية ووجود الأرض السبخة للمياه المالحة مثل ما موجود في هور السويجة الذي يمتد لميل أو ميلين من نهر دجلة.

قبل منطقة شيخ سعد، كانت فرنسا تبدو مسرح الحرب الأكثر دموية وإماتة في رتابتها وأفقها المعقد والتفاوت بين التضحية والتكريم واليأس الذي يدب بين الفينة والفينة بين صفوف القوات. ترك أفراد القوات الهندية زملاءهم في الخنادق المنتشرة على الأراضي الفرنسية بدون ندم وكانت القوات المحمولة على وسائل النقل تنظر إلى بلاد وادي الرافدين بشيء من الارتياح فبعد مضي خمسة عشر شهراً من حرب الحصار فإنَّ آفاق الميدان المفتوح والقتال على أرض منبسطة وفق الأسلوب القديم الجيد والقيام بحركات الالتفاف وإرسال فِرَق الاستطلاع المتقدمة كان يروق لهم كثيراً. هنا، وأخيراً في هذا السهل الممتد كانت الخنادق التي لا بد أن تنتهي في مكان ما تبدو كأنها مهيأة لشن هجمات جبهوية وخَيبت معركة شيخ سعد هذه الآمال

وظهرت حالاً صعوبات البلد وهي الثمن الباهظ لهجوم على أراضٍ مستوية في ظل إطلاق نار كثيف وغياب إعداد المدفعية لدك مواضع العدو. هنا لا توجد حواجز محمية أو قرى أو ضفاف بل أرض منبسطة وكتل طينية لامتناهية. وبدلاً من الاندفاع السريع الذي يقاس بالثواني لمسافة سباق التحشُّد فإنَّ قواتنا للمشاة تعرَّضت إلى وابل من النيران وهي على مبعدة ألفي ياردة وكان خط الجبهة ضعيفاً جداً قبل أن يشاهدوه مثل رأس التركي وفي هذه المعركة المتحركة لا توجد خنادق اتصال توفر التغطية ومع ذلك كان ضباط الأركان وضباط الفيالق الذين خاضوا المراحل الأولى من الحملة يعتقدون بأن الفِرقة السابعة كان بمقدورها طرد الأتراك من خنادقهم لو اقتحموها بالحراب. لم يدركوا نوعية القوات الجديدة التي تواجههم. ويرون بأن فِرقة طاوزند لم تفشل مطلقاً في تحقيق الاختراق وأنها كانت حرب حصار على الجبهة الغربية التي أدمنت القوات على عادة سيئة وهي حفر خنادق لأنفسهم وكان تخبُّطهم المميت هو السماح للحملة بالدخول في حرب الخنادق التي هدَّدت بفقداننا الكوت و«أُسر الكثير من الضباط في بلاد وادي الرافدين». من جانب آخر طرق سمعي هو تبرير الفشل الحالي مع الأخذ بالحسبان النجاح الذي تحقق في الماضي بالقول بأن القوات التي واجهت العدو في مدرسة بلاد وادي الرافدين في عام 1914–1915 كانت مؤلفة من قوات الليفي الجدد «وهم مجرد بوذيين»[1].

في الحقيقة كان هناك عدم إنصاف لكلا الطرفين أي إجحاف كبير في وجهة نظر مدرسة بلاد وادي الرافدين؛ فقد حلَّ الفشل لأنَّ جميع الوحدات لم تتمكَّن من تحقيق الاختراق في مدينة الصناعيات. وبرهنت الحرب الحديثة بأنه من المستحيل التقدم لمسافات طويلة في المناطق المفتوحة واتخاذ مواضع معدة تحت نيران الأسلحة مقابل قوات نظامية أو يمكن أن يحدث هذا في ظل تفوق عددي وتقديم تضحيات محسوبة وهذا الأمر غير مسموح به. لا يوجد من يعرف هذا أفضل من القوات القادمة من فرنسا. ومن الإنصاف القول بأنَّ الانتقادات

(1) عند الحديث مع العرب المحليين كنت أستخدم كلمة البوذيين وهو الاسم الذي كانت تعرفه القوات بالرغم من أن رجال القبائل في هذه المناطق هم نوع مختلف عن البدو الحقيقيين الذين يشكلون جيش حليفنا.

التي وجهت إلى الرجال الرائعين لابدّ أن توجه إلى هيئة الأركان. على أية حال، حادثة واحدة جرت في النهار قد تدعم وجهة النظر التي تفيد بأن الأتراك قد انهزموا عندما قام اللواء التاسع عشر بإجراء التفاف سريع على اليسار وكانت سريتان من سيفورث قد شنت الهجوم بدعم من سريتين أخريين فقد وصلوا إلى مسافة سبعمائة ياردة من العدو عندما قامت الإدارة على جهة اليمين بتحويل ثلاث سرايا من اللواء للالتقاء بها تاركة سرية واحدة فقط لشن الهجوم.اندفعت هذه السرية بقوة وبجرأة عظيمة وبعد أن سحقتها نيران المدفعية والنيران المباشرة وصل منها ثلاثة ضباط وثلاثين جندياً إلى نقطة تبعد مسافة أربعين ياردة من خطوط الأتراك. هناك نظموا صفوفهم في الأرض المفتوحة استعداداً للانقضاض النهائي وعندما التفتوا إلى الوراء علموا أنه لا يوجد دعم لهم.

أما الأتراك في الجهة المقابلة لهم مباشرة فقد قفزوا وتركوا خنادقهم. ولو استخدم القصف أو أي نوع من أنواع الدعم لتمكّنت هذه الثلة الباسلة من الاقتحام ولكن فشل الهجوم بسبب عدم تقديم الدعم لذا جثموا حيث هم كأنهم أموات حتى حلول المساء. وفقدت قوة سيفورث عشرين ضابطاً منهم خمسة قتلى وخمسة عشر مصاباً و ثلاثمائة وثمانين جندياً.

لقد سجلوا في سفر الكتيبة بسالة لا تدانيها بسالة أخرى حيث واصل الجريح قتاله حتى أصيب مرتين أو ثلاث مرات. ومن بين الوحدات الهندية الأخرى كانت كتيبة تشاتس السادسة التي مُنيت بخسائر فادحة لقد دخلوا المعركة بتعداد قوامه أربعمائة وخمسة وثمانين فرداً وخرجوا بمائة وخمسين فرداً فقط. قُتل ضابطان بريطانيان وثلاثة ضباط هنود وجُرح خمسة ضباط بريطانيون وعشرة ضباط هنود.

وكانت الكتيبة من بين طلائع الكتائب الهندية التي شاركت في معارك فرنسا وتكبّدت خسائر فادحة في مدينة فيستبيرت يوم الثالث والعشرين من تشرين الثاني 1914 في الهجوم المضاد الذي شنّته الكتيبة عبر الثلوج. ومنذ ذلك التاريخ برهنوا المرة تلو الأخرى على قدرتهم وبسالتهم في التقدم إلى الخطوط الأمامية وشن الهجوم إلا أن القليل من المجندين الأصليين بقي على قيد الحياة.

وإن البرهان التاريخي على إخلاص الهنود هو ما شهدته الدفعة المتقدمة لقوة سيفورث ما جرى لضابط من لواء البنجاب الثامن والعشرين الذي سقط بالقرب من خنادق الأتراك وشوهد اثنان من الجنود الهنود (سيبوي) من كتيبته يزحفون باتجاهه ويبنون حاجزاً ترابياً حوله وأنقذوا صاحبهم ولكن ضحوا بأنفسهم.

في الساعة الرابعة وفي أثناء تقدمنا واجهنا جزءاً من قوة للعدو شنَّت هجوماً مضاداً حيث شوهدت حشود كبيرة من مشاة العرب والخيَّالة تتحرك عبر السهل إلى الشمال من الجهة اليمنى لقواتنا. وظهرت القوتان الرئيستان من فِرقة الخيَّالة من الأمام والخلف وما بينهما المشاة. كان هدف القوتين الأولى والثانية هو التقدم نحو الخط الثاني وربما ضفة النهر الواقعة إلى الشرق والقوة الثالثة تقدَّمت لشن هجوم ضد الجناح الأيمن للواء التاسع عشر. وأرسل اللواء الحادي والأربعون من دوكراس وفيما بعد لتمديد خطوط اللواء التاسع من بهوبولس إلى الأمام لمواجهة هجوم العدو المضاد الذي وصل إلى مسافة ستمائة ياردة. كان هذا الموقف على الضفة اليسرى عند حلول الظلام وعند منتصف الليل تقريباً فتح العدو نيرانه وشن هجوماً من تلك المسافة واستمر الهجوم بفواصل قليلة في أثناء الليل واليوم التالي ولكنهم بدؤوا بإخلاء مواضعهم وفي الصباح شاهد اللواء التاسع تقهقر القوات المهاجمة على طول خط المواجهة. واندفع اللواء الحادي والأربعون من دوكراس إلى الأمام واقتحم خنادق العدو واستطاع أسر ستين جندياً. وتم التخلي عن الموضع على الضفة الجنوبية في الوقت نفسه وعند الظهر تقدم رتل اللواء التاسع إلى منطقة شيخ سعد.

قد يكون الجوع أحد أسباب التقهقر التركي بعد أن واجهت مواصلاتهم النهرية صعوبة في المواصلة مع القوات بعد أن تقطعت عند الكوت. واشتكى أسرانا بأنهم لم يأكلوا شيئاً على مدى ثلاثة أيام.من جانب آخر أنجزت مؤخرة جيشهم أهدافها بإرجاعنا إلى الخلف وكسب الوقت وتقليل تأثير قواتنا. لقد كسبنا الكثير في تقدمنا وفي الوقت نفسه كنا على مبعدة سبعة أميال من الكوت.

الفصل الخامس

ما بعد شيخ سعد

في معركة شيخ سعد فقدنا أربعة آلاف ومائتين واثنين وستين مقاتلاً من رتل الجنرال (أيلمر) في الهجوم الجبهوي الذي شُنّ على خنادق العدو وهذا العدد يساوي نصف عدد قوة الحامية. وسقط في أرض المعركة مائة وثلاثة وثلاثون ضابطاً بريطانياً ومع ذلك فإنَّ سجل الشرف يضم قائمة طويلة بأسماء شهداء الوطن التي كانت شديدة الوطأة على نفوسنا في ذلك اليوم التعيس. إنها ذكريات مأساوية تجول في خاطر الجرحى ولم يحدث أن وقع مثل هذا العدد من البشر المقعد الذي لا يحصل على العناية اللازمة في معسكر بريطاني منذ معركة البلقان في التجمع على ضفة نهر دجلة ليلة السابع من كانون الثاني. فعلى بعد خمسة عشر شهراً من الحرب لا توجد سفينة أو بارجة تستخدم بصفة مستشفى وكان من المقرر أن يلتحق الأطباء والإسعافات والمعدات الطبية الضرورية لمسرح الأحداث بالقوة فيما بعد قادمة من فرنسا على الرغم من أن إصاباتنا تجاوزت أكثر من أربعة آلاف إصابة وكان هناك مائتان وخمسون سريراً فقط[1]. وكانت وحدات الإسعاف الميدانية الخامسة التابعة للفِرقة السابعة في أعالي البحر.

ولم يكن من المتوقَّع أن يبدي الأتراك هذه المقاومة الشديدة ولم يكن لدينا أدنى فكرة ونحن على متن سفينة مالمير بأن قواتنا كانت تخوض معارك شرسة في ذلك

---

(1) القدرة الاستيعابية للمستشفى عند شيخ سعد مكوَّنة من مستشفى ميداني (وحدة ميدان طبية) رقم (20) (110 أسرّة) ورقم3 (50 سريراً): وأربعة أقسام جمعت على عجل في البصرة والعمارة وعلى الضفة اليمنى مستشفى الخيَّالة الذي تم تحويله إلى مستشفى كامل والمستشفى الميداني رقم 20 وحده يحتوي على (1900) رجل. وتشكو جميع هذه الوحدات من نقص في كادرها.

اليوم. كنا نسمع أصوات المدافع في الليل وفي الصباح بينما كانت سفينتنا تشق طريقها باتجاه أعالي النهر. ومن وقت إلى آخر كنا نتسلَّق كابينة كابتن السفينة ونرى انفلاق القنابر من بعيد. وأزعجت القذيفة الأولى التي سقطت في الصباح سرباً من طيور القطاة التي جاءت تتحرك عبر النهر وفي هذه الربايا التي كنا نشاهد منها الجسر قد نسينا القذائف وأدرنا أنظارنا نحو الطيور وهي تحلّق على امتداد نصف ميل على شكل حلقات في تطور هو الأكثر تعقيداً ولم تلتقِ في حلقة. وتكون سوداء في إحدى المنعطفات وفضية في المنعطف التالي كأنها تلف الشمس تحت جناحيها عبر دخان أسود يحجب الضوء.

جعل السراب مناورات قواتنا المسلحة مبهمة. كنا نرى قوات مشاتنا مثل أشجار تتحرك وكأنها قطار نقل. كانت المدفعية تعبر الجسر من الضفة اليمنى إلى اليسرى على شكل كتل متحركة. لا يتأثر السراب بالقذائف المنفجرة ويمكن أن نشاهد دخان القذائف من مسافة ميلين أو ثلاثة أميال عن الضفة وكنَّا نتساءل فيما إذا كان القصف صادراً من مدفعيتنا أو من المدفعية التركية. اعتقدنا في البدء بأن القصف كان موجهاً نحو «المواقع المتقدمة لقواتنا إلا أننا أدركنا فيما بعد بأن القوة بأكملها كانت في التحام مباشر مع العدو». وأدركنا حجم الخسائر الباهظة التي تكبّدناها في ذلك اليوم عندما التقينا بعدد كبير من الجرحى القادمين من الخنادق.

لقد جاء الجرحى وهم يترنَّحون ووجوههم متصلبة تعلوها الأطيان. جاء أحدهم وهو منتصب القامة قليل الحركة ومهاب مهابة الجندي البريطاني قائلاً: «عفواً سيدي» وهو يقترب «يمكن أن تخبرني عن مكان وحدة الإسعاف الطبية»؟. وقد رفض المساعدة على الرغم من أن الضماد وضع فوق ساقه وأن الألم ينتابه عندما يضع قدمه على الأرض. «أنا على ما يرام سيدي لا يوجد شيء خطير» ورفع قميصه وأشار إلى ألم في معدته. وقال ووجهه ينزف: «لا شيء خطير مجرد قطع جزء من لثتي». لن يهدأ له بال فلا بدّ أن يتحرك باتجاه راية الصليب الأحمر ومداخن السفينة في النهر. هنا في الأقل لا بدّ أن يرتاح ويتناول الشاي ويتناول الحساء الدافئ ويُضمد جراحه. وأضاف بأنه أصيب سابقاً في فرنسا وبدون أدنى شك، كان في تفكيره عربة الإسعاف المتحركة بسلاسة والممرضات من حوله وغلايات الشاي

المصنوعة في فرنسا والنقل السريع إلى المستشفى حيث يجد الأطباء والممرضات مع الأجهزة الطبية المتطورة على أهبة الاستعداد بعد أن يتلقى الإسعافات الأولية في غضون ساعة أو ساعتين أو قد يفكر في مستشفيات هامبشاير بين أشجار الصنوبر والشبابيك المطلة على بساتين التفاح والأبواب المفتوحة نحو الحدائق وتدخل فتيات وهن يحملن الكتب والزهور والفواكه أو تمر أمام عينيه صورة التوهج المبهج في غرفة فيها موقد نار في يوم بارد. ولكن الوضع هنا في فوضى، يوجد ثلاثة أطباء ومساعد طبيب. لقد نُصبت خيمتان في الساعة الخامسة وما زال الجرحى يتدفقون. وصل إلى وحدة الميدان الطبية أكثر من ألف جريح قبل الساعة العاشرة صباحاً فقط. كانوا مضطجعين مثل بالات في الظلمة ولا يوجد من يعتني بهم. يفتح الجندي البريطاني عينيه على واقع جديد بعد أن يدرك أنه حدث خطأ ما ويأتي مجند جديد يترنَّح وهو يسأل أين يجد الطبيب ثم يكتشف بأن هناك مشكلة في إيجاد أي نوع من المساعدة. ويقنع نفسه برباطة جأش مستلقياً على الأرض إلا أن الهنود لم يفهموا ذلك بعد أن كان كل شيء يسير على ما يرام في فرنسا ويعتقدون الآن بأن المناشدات والتوسُّل سيجلب لهم نوعاً من المساعدة ويتشبثون بأقدام الإنسان متوسلين للحصول على خدمات صغيرة من المستحيل تلبيتها؛ لأنهم كانوا بأعداد كبيرة. «ماء، ماء، صاحب»، أنا أشعر بالبرد ألا يمكن أن أحصل على بطانية أو سترة؟ «صاحب إنَّ النزف لا يتوقف سأصاب بالإغماء».

يمكن أن يقدم الإنسان بعض المساعدة ولكن لا توجد أغطية ولا طعام ولا مشروب دافئ ولو كان حسن التدبير لهيأنا للجرحى القادمين من أرض المعركة البطانيات والمؤن.

لقد نفدت النقَّالات وكانت كل نقَّالة مخصصة لخمسين جريحاً بعد أن تم أخذ نقالات الكتيبة ولم يتم إرجاعها. أشلاء متناثرة فوق عربات نقل يجرها حصان ترتج ومات الكثير من الجرحى فوق هذه العربات من الذين كان يمكن إنقاذهم. كان ضابط مصاباً بالعمود الفقري يئن من الألم الذي سببه له ارتطام العربة بالأخاديد المتكسرة والطين المقدد. وآخر جالس فوق صناديق العتاد لا يستطيع الالتصاق بها وينأى بنفسه بعيداً.

في البصرة التقينا برجال قادمين من المدائن وأخبرونا بأن الجريح يحمل لمسافة تسعة أميال من أرض المعركة إلى السفينة بهذه العربات التي تخلو من النوابض ومصنوعة من الخشب وقضبان الحديد ومعززه بشبكة حديد سفلى خصصت لحمل المعدات والتجهيزات. وكل ارتجاج فوق هذه الأرض الوعرة كأنها ضربة موجهة للجريح ويتعرَّض الرجال المصابون بكسر في الذراع أو الساق إلى ألم مبرح؛ لأنه لا توجد حصران فوق العربات.وقد تبدو هذه العربة للرجل الذي يصاب بجرح ومر بهذه الرحلة سابقاً بأنها عربة لنقل السجناء المحكومين بالإعدام المساقين إلى المقصلة (أيام الثورة الفرنسية). كان إرسال جريح أُصيب بنزفٍ دموي أو جرح في البطن أو العمود الفقري بهذه العربة يعني الموت المحتَّم له. ويدرك كل طبيب يرسل مثل هذه الحالة على متن هذه العربات يعلم بمصير الرجل وكأنه يوقّع شهادة موته. ومع ذلك استمر استخدام هذه العربات بوصفها وسيلة نقل إسعاف طبيعية لفترة عامين تقريباً في بلاد وادي الرافدين.

وعلى طوال الليل، يضطجع الجرحى على أرض صلبة حول راية الصليب الأحمر حيث يتم إنزالهم من العربات الهمجية. وفي منتصف الليل وجدت اثنين من الأصدقاء وهما ضابطان في كتيبة بلاك ووتش يرتجفان ويرتديان ملابس الخاكي (العسكرية) الخفيفة. وكان البرد أكثر إيلاماً من حرارة النهار. ومن المفرح أن الجرحى كان باستطاعتهم السير إلى السفينة التي نقلتهم. وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، ما زال الأطباء الثلاثة يعملون. لقد تناسوا النوم والطعام ووصلت الوجبة الأولى من الجرحى في الساعة السادسة وعددهم مائة أو أكثر وأُخلي هؤلاء عندما بدأ سيل الجرحى يتدفق في اليوم السابع وعملوا بدون كلل حتى ظهر اليوم التاسع وهم يضمدون الجرحى. وانتشر الحشد تدريجياً على طول الضفة إلى خطوط النقل التي كانت تبعد مائة وخمسين ياردة وأصبحت مهمة تنظيمهم أو توجيههم مهمة عسيرة.

لم يستطع الأطباء التعامل إلا مع الحالات الحرجة فقط التي تكون حولهم مباشرة وهم يبذلون جل جهدهم في تقديم ما يستطيعون تقديمه إنسانياً وما زال الجرحى يشكون من قلة الغذاء ويتساءل رجل من قوة سيفورث: «عفواً سيدي، هل

يمكن أن ترشدني أين أجد كسرة من الخبز؟» لم يتناول شيئاً من الطعام قبل سبع ساعات من الصباح.

وعندما جلبت الحصة التموينية، لم تكن هناك قدور كافية للطبخ أو أباريق لإعداد الشاي وكان هناك مزيد من التأخير ثم أخذ الضماد بالنفاد أيضاً. ولم يحظَ الكثير من الجرحى بالعلاج الكافي لفترة أيام بعد الضماد الميداني الأول الذي وضعه طبيب الكتيبة التي سقطوا فيها. وفي مساء اليوم الثامن، كانت السماء تمطر وفي صباح اليوم التاسع عندما أخلى الأتراك مواضعهم وجد المزيد من الجرحى الذين جُلبوا. وحدث الشيء نفسه على الضفة اليمنى.

حُوِّل مستشفى ميداني بسعة مائة سرير إلى مستشفى عام بجرة قلم؟ كانت الكتيبة الهندية تطبخ في المستشفى الذي أُعِدَّ على عجل طول الظهر إلا أن الجرحى كانوا يتضوَّرون جوعاً واندفعوا نحو المستشفى فضلاً عن الجوع والضعف والتأخير في المعالجة فإنَّ الكثير من الجرحى أصابهم التعفن وأخذ مرض الكنكرين(مرض يصيب الأطراف مثل السرطان) يدب في أعضائهم. حُمِلت الحالات الأقل خطورة إلى المراكب ووضعت بصفوف فوق ظهر السفينة بدون وجود غطاء يحميهم من المطر لتنقلهم السفن إلى مستشفى مكتظة في العمارة ولم يتوفر أطباء على نحو واف على طول الرحلة والكثير منهم مات بسبب قلة الاهتمام. وفي يوم الثامن عشر من كانون الثاني، بعد مرور أحد عشر يوماً من المعركة كانت مستشفى ثابتة لِفرقة ميروت مع وحدتين طبيتين ميدانيتين تجتازان منطقة شيخ سعد في طريقها إلى الجبهة. ونزل الضابط الطبيب المسؤول ووجد مائة وخمسة وتسعين بريطانياً وثمانين هندياً مريضاً وجريحاً في معسكر غير نظامي مقام على أرض طينية قذرة خلف القرية. كان الملازم الأول وهو الضابط الهندي الوحيد مريضاً ومصاباً بالإرهاق ولا توجد ضمادات والكثير من الجرحى ما زالوا على الضمادات الميدانية الأولى التي وضعت عليهم في أرض المعركة. وكان هناك مائة مريض يعانون من مرض الدزنتري (الإسهال الشديد) لا يوجد كناسون ولا توجد إجراءات صحية مناسبة. كان المرضى ضعفاء لا يستطيعون المشي وكانت حالة المعسكر يُرثى لها وكانت هناك كومة من أكياس القمامة ومخازن الطعام التي طمرت في الطين بين الخيام ونصفها تعفن بسبب

المطر وقيل بأن هذه الحصص التموينية مخصصة للمرضى لفترة عشرة أيام ولكن لا يوجد طعام كاف للمرضى وكان هناك طباخ أو طباخان فقط وأصيب معظم المرضى بالوهن ولا يستطيعون مساعدة أنفسهم. وأرسل الضابط المسؤول برقية إلى المقر يطلب فيها فتح مستشفى جاهز وقد سمح له بذلك. وفي غضون ذلك، نزلت مجموعة من الضباط الأطباء من وحدة الإسعاف من ظهر السفينة وقاموا بتضميد الحالات الحرجة للمرضى. بعد شهر وصلت خيم المستشفى وتجهيزات العمليات إلى منطقة المحلة قادمة من البصرة. ومن المفرح بأنه لم يكن هناك ولا مسؤول واحد قادم من أرض الوطن. وجهت انتقادات لاذعة إلى الكادر الطبي الأعلى في بلاد وادي الرافدين الذي تنقصه الشجاعة والجهوزية والقسوة التي تتمتع بها السلطات العليا إلا أن أصل المشكلة كانت في النظام؛ لأنَّ الجيش الهندي ظل يتضور جوعاً لسنوات.قالت الحكومة الهندية: «إننا لم نرفض مطلقاً في بلاد وادي الرافدين أمراً يتعلق بالجوانب المادية». ويتضمن هذا القول معنى يحمل في طياته إلقاء اللوم على الكادر المسؤول في البصرة الذي لم يصر على مطالباته إلا أن المسؤول المالي عمل على تجويع الجيش إلى درجة أنهم فقدوا عادة قيمة السؤال لعدم وجود شيء جيد بينما يتباكى على نحو غريب المسؤولون في سيمليا.من صعوبة القول أن الفشل كان في السؤال وليس في فشل المسؤولين الذين يستحق معظمهم الشنق؛ لأنهم لم يزودوا الجيش بما يحتاجه. ومع ذلك يقولون: «إنَّ النظام لم يكن مسؤولاً عن حجم الكارثة التي حلت في المدائن قبل ستة أسابيع من معركة شيخ سعد».وتعني ضمناً بأن هيئة الأركان في البصرة كانت الملامة؛ لأنها لم تلح في طلبها. ويشير عضو اللجنة المالية بأن تجويع الجيش كان بسبب فقدانهم طبيعة السؤال المتكرر للحصول على سفينة يمكن استخدامها بصفة مستشفى. ومن الصعوبة بمكان القول إنهم فشلوا في التجهيز وإنهم يستحقون تعليقهم في المشانق. ومع ذلك فإنَّ النظام لم يكن مسؤولاً عن حجم الكارثة التي حلت في المدائن قبل ستة أسابيع من مدينة شيخ سعد. كانت المعاناة والبؤس والإهمال الذي كان يعاني منه الجرحى مثلما حل بهم في حرب القرم بعدما ضُوعفت قوات الحملة بجرة قلم. كان لابد من تهيئة موارد في البلد إلا أنها لم تكن كافية بمجملها لتلبية الطلبات ووحدات الإسعاف الميداني التي

كان ينبغي أن تكون مع الفرقة السابعة عندما وصلت البصرة كانت ما تزال في أعالي البحر؛ لهذا فإنَّ اللائحة تقع على الوضع إلى حدٍّ كبير. كانت الخطة الرئيسة كما ذُكر آنفاً تستلزم إعادة تنظيم القوة في مصر. ولو تم ذلك لما كان هناك إلحاح خاص. ولما كانت الأوامر للانطلاق من مرسيليا ذات عواقب وخيمة ولتمكَّن الضابط من ملاءمة الموارد مع الفرصة المتاحة ولتمكَّنا من إنزال وحدات مختلفة في السفن الملائمة والمتيسرة ولتمكَّنا من مواجهة معضلة قوات طاوزند المحاصرة. يعني هذا أن الحالة الطارئة أدت إلى إرسال سفن النقل إلى مرسيليا. وينطبق هذا الأمر على الشخص الذي يوجه له النقد بعد أن قفز من سطح السفينة لإنقاذ رجل من الغرق وتعرض إلى قشعريرة أو صدمة لأنَّ قلبه ضعيف.

من الأفضل ترك الأمر إلى هذا الحدّ لعدم وجود شخص شرير يستحق أن يكون كبش فداء يوجه له اللوم لضعف التجهيزات الطبية في شيخ سعد.ومع ذلك والسؤال الذي يطرح نفسه في الأشهر الثلاثة التالية: من كان المسؤول عن تكوين الانطباع بأن طاوزند كان في خطر عظيم وفي هذه المحنة القاسية كان لا بدّ أن نكون بحاجة إلى الاندفاع وتجاوز العوائق التي نواجهها بسبب خداع العدو أو تسرُّعنا الأهوج.

بعد ظهيرة اليوم الثامن، حُددت تحديد مقبرة صغيرة للكتيبة في المعسكر الواقع على الضفة اليمنى من النهر. ويمكن مشاهدة البغال والجمال التي تحمل أكداس العتاد وتسير على ضفة نهر دجلة في هذا الفضاء الضيق.وفي المسافة البعيدة ترى صواري الزوارق تتمايل وينبعث الدخان من السفن والبواخر المستخدمة في النقل. وتبدو مدينة بوشتكو الإيرانية التي تغطيها الثلوج كأنها زهرة ذابلة غابت عنها الشمس. لا يزال الموتى مضطجعين وبسلام في قبورهم الضيقة وكل واحد منهم ملفوف ببطانيته السوداء المشدودة حوله بقوة كأنه مومياء ودون اسمه على صفحة من دفتر مذكرات وثبت بدبوس منهم ذلك الرجل القصير (كي) الذي ترك جريدته في شارع فليت قبل ستة أشهر مضت وذلك الطويل (أي) وهو فنان وموسيقي مر بالطبيب قبل موته ووجهه المتأمل ويداه الناعمتان تدفنان هنا ببشاعة. ويأتي القس الملحق بالجيش ليقرأ الصلوات عليهم. في هذه الأرض لا يوجد سوى نباتات العاكول والخرنوب. وشاهد القبر يتكون من خشبة قطعت على شكل صندوق كتب

عليها: العريف من مقاطعة (-) والنقيب من مقاطعة (-) ولد في بلد أرض الحشائش ودفن في الأرض القاحلة في مدينة شيخ سعد.

في الوقت الذي يقوم فيه فريق السخرة[1] بتهيئة الأرض وحفرها لدفن الموتى فإنَّ الجرحى الذين أصيبوا يوم أمس وضُمدت جراحهم يقفون فوق ضفة النهر على بعد أقدام قليلة يدخنون ويتبادلون أطراف الحديث ويشاهدون انفلاق القذائف المنفلقة ذات البرق البنفسجي أمام الشمس في السماء الصافية. إنه جمال أخاذ يرسمه وميض القذائف المنفلقة.في هذه الساعة ينسى الإنسان أنَّ هذه القذائف عندما تسقط تحصد مزيداً من الموتى. قد يستغرق الأمر حوالي يومين حتى يتم الاعتياد على هذه الأشياء وكأن الحشد الواقف على الضفة يشاهد مباراة كرة القدم عبر النهر حيث ترتفع كرة قدم حقيقية وتسقط بضربات متقطعة.لقد حل الظلام الآن تقريباً إلا أن أحد الاسكتلنديين المثقفين والجديين يتكئ على ضفة النهر ويشد عينيه نحو جريدة التايمز وقبل ساعات قليلة مضت كان يشترك في القتال وهذا ما يشهد عليه الضماد الذي يلفه، وفي تلك اللحظة الآن كان يعيش بعيداً في أجواء أخرى حيث يقرأ كتابات كوبت أو روايات هوكر التي صدرت في عام 1083 أو يستمع إلى صوت جورج هربرت الذي يقول له: «إن الإنسان متناسق كامل يكمل بعضه البعض الآخر» وشعرت بأن هناك من يربت على كتفي وإذا بصديق برتبة ملازم أول جاء من الخلف وهو يقفز فوق حواجز طينية بين قبور المقبرة التي أُعدَت على عجل.وصرخ قائلاً: مرحباً، شاهد عيان وألقى التحية وهو يردد حكمة مأثورة: «الحرب هي تسلية مبالغ فيها» إلا أننا لم نبتسم عند ذكره هذه المقولة؛ نظراً لأن عيوننا كانت تتجه صوب الجثث المتحجرة التي تشبه المومياء ونحو خط حاملي النقّالات وهم يقتربون. حل الظلام وما زال الجرحى يتدفقون وكشفت المصابيح عن وجوه متصلّبة شاحبة. ويرى شخص لمحة لوجه إنسان أصيب محجر عينيه والأسنان.في الخارج على أرض الميدان ما زال الموتى صرعى في المكان الذي قتلوا فيه. يوجد قتيل وأعتقد أنه جُلب من المكان الذي سقط فيه وبجنبه رشاشه وفيه الحربة مغروسة باستقامة

---

(1) عمل يدوي غير عسكري يكلف به الجند كشق الطرق أو حفر القبور.

أمامه يساق إلى الأرض بقوة اندفاعه إلى الأمام. للحياة والموت لهما نصيب هنا فالحياة هي الهدية التي تقدم إلى المعطى بدون تفكير أما الموت فهو لم يكن سوى منعطف في زاوية الطريق المظلم الذي مشينا فيه.وهؤلاء الذين يقتربون من المنعطف سواء يقفون عنده أم يمرون به يكونون بحاجة إلى ينابيع من الرثاء.ومع ذلك قد يتساءل الإنسان هل إن القتل والتشويه مشروع في سعي الإنسان وتكون الإجابة عمّا يجري طوال الليل من رمي متقطع رتيب وصرير عربات النقل أو دوس البغال على الطين الصلب.

الفصل السادس

المراسل الحديث

في صباح اليوم العاشر، تناولت وجبة الفطور مع من تبقى من كتيبة بلاك ووتش حيث وجدتهم مهندمين وحالقين ذقونهم والبسمة تعلو محياهم بعد أن أمضوا ليلة في الطين. سمعتُ ضحكة عفوية أطلقها مساعد الكتيبة وردَّدَ صداها رفاق المائدة في التجمع الصغير حول المائدة بعد ان تقلص عدد رفاق المائدة من سبعة وعشرين شخصاً إلى تسعة أشخاص. كان برفقة مساعد قائد الكتيبة الذي كان يعيش في عزلة أربعة ضباط برتبة ملازم أول فضلاً عن القس الملحق بالجيش وطبيب وضابط بحري وضابط نقل. لقد تلقَّيت التحية منهم بانشراح كبير؛ لأنه لا يوجد منهم من لديه روح الدعابة مثلما هو الحال مع «المراسل المعتمد» في منطقة شيخ سعد وكان هناك مزاح تهكمي عند ذكر «شاهد العيان» مثل رجل قد يراقب لكنه لا يتكلم «شاهد ولكن لا تلمسه» كما هو معتاد قوله في مهنة التمريض. بالنسبة للحرب الحديثة يكون المراسل إنساناً مستقلاً ومُنضبطاً ومدللاً ويستغفل ويكَمم فمه. وتكون مقالاته مصدراً لإضفاء المتعة للقوات كافة. «مرحباً شاهد عيان، هل أخبرتهم كيف تَجريَ الأمور؟ هل كتبت عن الترتيبات الطبية؟» و«آمل أنك انتقدت هيئة الأركان بعنف؟» و«ابعث للرأي العام البريطاني واطلب منهم توجيه رسائلهم للجنرال طاوزند، عن طريق قوات الدرك التركية في بغداد». «صيد الأرانب، يا إلهي! (هتاف معبر عن الدهشة أو التوكيد) لا توجد حصص غذائية» ولا نستطيع أن نميز بين لحم البقر ولحم الأرانب المعلب.

هنا كانت أفضل كتيبة في الجيش البريطاني التي أُعيد تنظيمها مرتين منذ بداية الحرب وقد زُجَّت في ميدان غامض لا يوجد فيه مجد للحفاظ على تلك التضحيات

ولم تحظ بالإشادة المطلوبة مثل فلاح أضاع تفقيس البيض بعد أن أتلفها الثعلب في المساء. كان من بينهم شاب بسيط ومتواضع وجديد على الوحدة يتحدَّث عن الموت المقبول للكبار في ضوء المعايير الجديدة للجندية وهي الفضلى قائلاً لي بكل بساطة: «أنا خائف بأنك ستفقد الكثير من الوجوه».

كنا نعتقد أنَّ المسؤولين في لندن عند مشاهدة قائمة الإصابات في صحيفة الصباح قد يصابون بالاكتئاب؛ نظرا لأنَّ المجموعة الناجية كان عددها قليلاً لأنني وجدت أن بهجتهم تزداد وتتقد مثل اتقاد الشمس وكانت الحالة النفسية لهم واضحة لي تماماً. إنها الطريقة الوحيدة من أجل القيام بلعبة أكبر مثل لعبة الكريكت عندما تسقط واحدة من عصا المضرب الثماني ولم يبقَ شيء على اللوحة يستطيع اللاعب حمل عصا مضرب الكريكت الخاص به ويحقق الفوز. ولم تعد الأشياء الأخرى في الخارج التي تملأ الصحف هي أشياء صغيرة والشيء الوحيد المطلوب كتابته هو استمرار الكتيبة في القتال. ففي إحدى الرسائل التي بعثها «شاهد العيان» إلى الصحيفة قام بالتحدث إلى ضابط الكتيبة الذي كان يتذمر ولم يكن هناك مثل هذا المشهد الذي يجعل الضابط البريطاني يتذمر من كل شيء من كل شخص بطريقة نصف ممتعة ونصف ساخرة بسبب المعاناة الطويلة. في بلاد وادي الرافدين كانت الآلهة وهيئة الأركان تقدمان مادة زاخرة يمارس فيها الإنسان ذكاءه في توجيه الانتقادات التي تستمر في كل حالة تسود فيها الفوضى الغامضة التي تحمل في طياتها الكثير من الانتقادات الصريحة حيث يقوم آمر اللواء بتوجيه اللوم إلى الحكومة ويكرر يومياً قوله بأن كل فرد من أفراد الحكومة ينبغي أن يشنق على الشجرة. وتوجه قوة المشاة الشتائم لقوة الخيَّالة واصفة إياها بأنها حيوانات «خارج المرعى» ولن يقروا أبداً أن المشاة اقتحمت خنادق العدو. ويقولون بأنهم «حققوا يوم أمس رميات سديدة فقط عندما نسوا المدى بأنه لا يوجد أي تركي هناك». ويتندر رامي المدفعية بإفراط على رصد رجال البحرية الذين يصدرون ضوضاء غريبة ويرمون بقذائفهم على الرمال وعندما يدافع عن رمية رجال البحرية قد يعترف معبراً عن سماحته «أعتقد أنه يستحق اللعنة الجيدة عندما يتسلق السلم».

وبالطبع تنال هيئة الأركان دائماً نصيبها من التهكُّم». الأتراك يقصفون هيئة أركاننا

وهذا غير ممكن. لهم قصر نظر عن مكان تواجد العدو، إنَّهم يقصفون رامي المدفعية الذي رفع أصبعه ضدهم. ثم ينادي ضابط النقل بأعلى صوته عبر باب السفينة المقابل له طالباً من رجال الهندسة تحميل سفنهم بألواح الخشب للجسر العائم مع الحبوب التي ترسل إلى كتيبة الخيَّالة في الليلة نفسها علاوة على ذلك أصدرت هيئة الأركان أوامرها بتفريغ السفينة في الساعة الرابعة مما أثار حفيظة الرجل (تي) الذي قال متهكماً: «آمل أنهم قرؤوا في الكتاب بأن البارجة يمكن أن تفرغ في غضون ثلاث ساعات» وتعد هذه الكلمات منعشة لشاهد العيان مثل هواء البحر. بعد حديثه المنظم والمنضبط لا يعرف فيما إذا كان اللواء يقصد به السخرية عندما أشاد «بحكمة القيادة العليا» أو كانت وقاحة الملازم الأول.

ومع ذلك فإنَّ أسوأ مؤسسة في بلاد وادي الرافدين كانت هيئة الرقابة التي تجعل الضابط الذي يصل البلد حديثاً ويجد هذه الشبكة من الطرق الشائكة والمتداخلة يشعر بأنه وقع في فخ؛ لأنه لا يستطيع إجراء اتصال حر مع العالم الخارجي بسبب الخوف المستمر من تسريب المعلومات أو أي شيء آخر مما تضعف ثقته بالقيادة العليا.وكانت هذه المؤسسة أكثر المؤسسات التي تمنع النشر. لن يتحقق النصر بحكومة مشغولة بهذه الأشياء. نتحسر على تأثير قوة القائد البريطاني نيلسون عندما نحتاج اليد القوية. وكنت أشعر بأني أختنق عندما حجبت المعلومات التي أرسلتها عن الكوت. وفي غضون ذلك فإنَّ الفعالية الوحيدة التي تسير على ما يرام كانت إعداد السواتر وتدقيقها. وعندما اكتملت السواتر برمشة عين لم تكن الأمور مطمئنة وكأننا مثل النعامة التي تخبئ رأسها وتظهر جسمها.

ولم تشوه برقيات المراسل فحسب بل كانت المقالات المنشوره خالية من المعلومات الأساسية واللغة التي تظهر إلى النور لم تكن لغة المراسل بعد أن طالتها يد الرقيب؛ لأنَّ وجهة نظر الرقيب تنص على عدم إعطاء الفرصة للعدو في الحصول على المعلومات من المقالات المنشورة. ومن الأفضل إفساد مائة مقالة بدلاً من إعطاء معلومة استخباراتية واحدة يمكن أن يستفيد منها الأتراك؛ لأنَّ العدو يكون سعيداً عندما يحصل على أية إشارة عن خسائرنا ومواردنا وتعزيزاتنا والصعوبات التي نواجهها والنقص في تجهيزاتنا أو في وسائل نقلنا أو طريقة عملنا أو أي انشغال

قد يدور في خلدنا. قد يكون اتخذ موضعاً ضمن مواضعنا للحصول على المعلومات كما نفعل ولكن ليس من شأننا أن نسهل عليه الأشياء من خلال تأكيد المعلومات التي لديه. ويعد المراسل مخادعاً إذا لم يأخذ كل ذلك في الحسبان ولكن عندما تستخدم الرقابة ليس كثيراً لإخفاء الحقائق عن العدو ولإعطاء انطباعات محددة للناس في الوطن عندئذ ستأتي اللحظة التي يشعر بخداع محددة تربك عمله.

ولا يقع اللوم على المراقبين؛ لأنهم يلتزمون بالولاء للنظام المفروض. وإذا ما مر أي شيء يسيء إلى مبدأ عصمة المسؤولين فسيتم إزالته بمزيد من التدخلات. تخضع مراسلات التلغرام الصادرة من بلاد وادي الرافدين إلى الرقابة الشديدة في مقر فيالق دجلة في البصرة وتخضع مرة أخرى إلى رقابة المقر العام وترسل إلى كراجي ومن هناك ترسل نسخة منها إلى مقر الجيش في دلهي. وبأوامر من مقر الجيش في دلهي، يحيل مكتب الرقابة في بومباي المراسلات إلى اتحاد الصحفيين في لندن الذي يسلمها إلى مكتب الرقابة النهائية التي يجريها المكتب الصحفي في لندن. ولكن في كل مكتب تمر به يوجد أشخاص عسكريون وسياسيون من الذين يتم استشارتهم ويحملون أفكاراً متنوعة وأحياناً متصارعة في إيجاد الأسباب التي لا بدّ أن يؤخذ بها وهكذا لا يرى النور إلا النزر اليسير من المقالة الأصلية؛ لذا فإنّ الصدق والاقتناع والأهمية في معناها المجرد تكون بعيدة كل البعد عن متناول يد المراسل. وبالطبع يكون من المستحيل للجنرال أن يتقبل انتقاداً يوجهه له شخص قليل الخبرة في معسكره ويناقش فيه سلوكه في الحملة أو يشير اليه في ضوء الأحداث أين يكمن الخطأ. يعدّ الانتقاد أمراً مسلماً به ولكن من الصعوبة بمكان الكتابة عن أي شيء بدون حجب الانتقاد وبطريقة ما ولا يمكن وصف أي شيء بصدق بدون الإشارة إلى شخص ما.

ومع ذلك يسمح بتوجيه الانتقاد اللاذع وقد يكون فيه افتراء على الأتراك أو الألمان وكلما زاد الافتراء كلما زاد من رضا الجميع وهي الحقيقة التي تساعد بتوضيح عدم الإنصاف في ذكر حقائق تخصُّ الجانب الآخر في كل مسارح الحرب. وتكون حتى الإشادة صعبة؛ لأنها تدخل في الاختيار والاختيار يدخل في المقارنة والمقارنة تكون مقرفة أحياناً. وهكذا يصبح كل مقال خاضعاً للتعديلات التي تشوه

الحقائق. ويضع الرقيب العسكري كميناً في كل عبارة ويتمتع الرقيب بغريزة فطرية لإجراء المراقبة الشديدة على المراسل. حيث يقوم بحذف كل تعبير يحمل في طياته انتقاداً بأن العمليات لم تنفذ بالدقة التي وضعت في الخطط أصلاً أو أن تحركات العدو لم تقع ضمن حسابات هيئة الأركان.

إلا أن الإحساس الدقيق لهيئة الأركان الذي يصعب البوح به هو أن المراسل ينبغي أن يكون صامتاً وهذا لم يترك له إلا النزر اليسير ليكتبه. وبطبيعة الحال يوجه النقد المغلَّف بالسخرية بسبب المعاناة الطويلة في الحملة الا أن السخرية دائماً ما تكون معيبة للشخص والتعاسة تؤدي إلى تثبيط الهمم؛ لأنها تضغط على الناس في الوطن وتعطي الرضا للعدو. لذا ينبغي ألا تظهر في الصورة مطلقاً المعاناة والنقد والفشل والعجز ولا حتى سوء الحظ بالرغم من أنه في سياق كل حملة تظهر هذه المفردات اليومية.

ولا يسمح بالكتابة عن حياة الناس في البلد والمناطق الحدودية وعلاقات العرب والفرس والأتراك والعلاقات السياسية عموماً. ولا ينبغي للمرء أن يتحدث مع الحجي(وليم) لكي لا تُؤخذ على محمل الجد. ولا يفترض أن يعلم الهنود بأن الألمان يدعون إلى الجهاد ولا تسمح للأشخاص بأي طبقة من طبقات العرب لئلا تقرأ الفقرة التي فيها إهانة وتُشعِر بالأذى وبعد كل الذي حدث قد يكون هناك أصدقاء من بين هؤلاء الرفاق الشجعان الذين أصابوا جرحانا وحفروا قبورنا. ولن ننثر بذور الفِرقة ولا نسمح بالتفكير المحايد إذا قُلنا إنَّ الناس في بلاد وادي الرافدين لم يرحبوا بنا ولا بدّ من الحذر من استخدام تعبير العرب الأصدقاء؛ لأنَّ هذا يعني ضمناً أن العرب لم يكونوا أصدقاء لنا. وعلى الرغم من أن أصدقاءنا البدو وصفوا رسمياً بأنهم «لصوص في خدمة الأتراك» وهذه التسمية الرسمية تطلق على العرب في بغداد الذين يلجأون إلى العنف. وكانت لدينا ثقة راسخة في أنْ نمضي قُدُماً في إنجاز الشيء الذي كان لا بدّ أن ينجز. وكنا نراوح بهذا الإيمان البسيط في استغلال سذاجة الآخرين وبهذه الرغبة الصريحة للإرضاء الذي لا يوجد شخص في الهند أو أي مكان أخر يؤمن بكلمة واحدة من قول الرقيب أو الذي يشغل بال الرقيب. لا يعني الاعتداد بالنفس أن نتغافل عن ذكر الحقائق أو أن نقول إن كل شيء في الحملة

يدار كما يجب أن يكون وتجري الصلوات كل أحد؛ ولا يوجد أي شخص يشعر بالجوع أو العطش والنقل دائماً ما يكون في الوقت المحدد وصحة الجنود جيدة ومعنوياتهم عالية فهم يضحكون ويتبادلون النكات كل ساعة من ساعات النهار ويتم تقليد المستحق وأحياناً حتى غير المستحق ونتيجة لحكمة وخبرة هيئة الأركان تهتم دائماً بالخبر لما يمتلكه أفرادها من شجاعة وحذر ولم نفقد الأرواح التي كان يمكن المحافظة عليها ولم نخسر المعركة التي كان يمكن أن نكسبها وهذا يفسر لماذا ينتظر جنودنا بعد ثمانية عشر شهراً من الحرب في أهبة الاستعداد لخوض معركة أخرى ويصيبهم التعب فقط من الإجازة ويتعبون من الإجازة إذا ما حصلوا عليها ويتوقون للعودة إلى خطوط القتال مرة أخرى.

وأتذكَّر في التبت عندما وصفت القذارة والإزعاج والبرد في الحصن القديم في مدينة فارلي (الواقعة في مقاطعة يامن دونغ في إقليم التبت). ولإعطاء صورة لمجموعة من الضباط قساة القلب مثل قسوة بيل سايكس[1] وقد غطت لحاهم بالسخام. وقلت في رسالتي: «كانوا جالسين عند موقد نار منعمين باحتساء الروم (شراب مسكر). لقد قام الجنرال بحذف كلمة الروم وأبدلها بكلمة الشاي وقال بأن هذه الكلمة ستعطي للناس في الوطن فكرة خاطئة تماماً من أن جنودنا منغمسون بالملذات وحذف كلمة احتساء؛ لأنها بطبيعة الحال غير مهذبة. فأصبحت العبارة «جلس الضباط عند موقد النار يشربون الشاي». وفي مقالة أخرى نقلت حديثاً لجندي بهتاني (شخص أفغاني يعيش في الهند) عن إمكانية وجود حالة تأهب ولكن في نسخة المراقب تحدث عن عظمة المدينة التي لن يراها وتَحدَّثت عن تهذيب سلوك الجندي الذي سيساهم في تهذيب عشيرته ولا بدّ أن يتخلص من العادات السيئة. إنه جدير بالاحترام على نحو كبير وهنا تكمن الفجوة بين الأسلوب الجديد والقديم. في الأيام الخوالي لم يكن المراسل الحربي دائماً مهذباً ولكنه محترم أما اليوم فإنَّه جدير بالاحترام ولكنه غير مهذب. تعد الحرب من أكثر المواضيع التي تكون بحاجة إلى معاملة حقيقتها المجردة فالبريق الذي يلقي بظلاله عليها يساهم بديمومتها.

---

(1) شخصية روائية في رواية أوليفر تويست للكاتب تشارلس ديكنس وتصور بأنه رجل بربري همجي مرتبط سلوكه بالإجرام. (المترجم)

فالواقعية في عدم الرحمة التي تشبه الواقعية في رواية لادياكيل للكاتبة إميلي زولا[1] لا بدّ أن تتوهج عبرها. إنَّ الصعوبات التي تواجه المراسل الحربي قد وضّحت بطرق عديدة كي تساعد طالب الدراسات التاريخية الحديثة كما ذكرتها الصحف ليتم قراءة ما بين السطور. وفي الحديث الذي جرى على طاولة طعام في كتيبة بلاك ووتش لم يضحك إلا القليل من أفراد كتيبة بلاك ووتش على وصفي لمعركة شيخ سعد عندما وصلت الصحف لنا بعد مرور شهرين من الحادث. لقد هُذبَ وصفي عندما تحدثت عن طيران طيور الوز وصورة الجندي الجريح المتجهة إلى راية الصليب الأحمر البعيدة ومداخن السفن في النهر وتنتهي الفقرة «هنا وأخيراً ينبغي أن تكون نهاية الجريح ليرتاح ويتناول الشاي الدافئ ويخفف عن جراحه».

وذكرت بحذر شديد بأنه لا يستطيع المرء أن يتوقع وجود المصادر الطبية نفسها في بلاد وادي الرافدين مثلما هي متوفرة في فرنسا إلا أن الرقابة حذفتها جميعاً ذاكرة بأن الجندي يستلم وجبات الطعام الثلاث التي يحتاجها.

يا إلهي! لقد تغلب عليك هناك

يا شاهد العيان! كان مخطئاً.

وتفجرت نوبة من الضحك مع تأكيد محدد بالإعجاب بالرقابة التي استطاعت تقديم الفائدة للجرحى في معركة شيخ سعد ولم تكن لدي الرغبة في إقناعهم. كنت مقيداً في التعبير عن الرأي.بالنسبة للأسلوب القديم للمراسل الحربي لم تعد الظروف المرافقة قادرة على إنعاشه على الرغم من أنها تحاول تصويره على أنه نوع من اللص الأنيق والرفيق الحر ويتمتع بالشجاعة وهو ذكي ومصدر معلومات ويجتاز المغامرات المحفوفة بالمخاطر. فيعمل لمصلحته الشخصية ويظهر ويختفي ويظهر مرة أخرى بأسلوب مثير ورمز مميز لشعر الخيَّالة يراسل ويستشيره الجنرالات وهو

---

(1) رواية بقلم إميلي زولا نشرت عام 1892 وهي ضد الخلفية السياسية والعسكرية للأحداث والتي أنهت عهد نابوليون الثالث والإمبراطورية الثانية في المراسل الحديث والمشرق ينبغي أن يقحم فرشاته في الكتابة بالطباشير والماء (أي ينقل الجانب اللامع والمشرق والجيد). وينبغي أن يصف الجندي في المعركة بأنه شخصية يتمتع بقيافة أنيقة مثلما رسمها ديك هيلدار. (المترجم).

مراسل حرّ مرحب به أينما حل وكل العالم ينتظر ضربته الموفقة غير المتوقّعة وهو مستعد للترحيب بها.

أما اليوم فإنَّ الضربة الموفقة تعد جريمة إلا أنها جريمة لا يصدر حكم على أي شخص بالإعدام بسببها. لا يحث المراسل اليوم الخطى ويهدد عملاء العدو بأنه سيرسل في الليل المقال الذي سيوزع في أنحاء أوروبا في صباح اليوم التالي. لا بدّ أن يكتب ما قيل له وأن رسالته شبه منقحة رسمياً موجهة إلى العامة الذين فقدوا الصبر. وما يكتبه ينسجم مع ما يمليه عليه ضميره وبراعته في الكتابة. ولا بدّ من أن يدرك مسبقاً بأن نتاجه لا يتناقض مع البيان الرسمي وربما يعمل على تنميقه.

ومع ذلك فحياة شاهد العيان لها ما يعوِّضها فتكون حركاته حرة طليقة لا أحد يضايقه أينما ذهب ما دام هو في صمت. لقد بدأتُ أدرك هذا الخرق للحرية أي حرية الكلام وكنت حراً مثل أي فرد من أفراد الحملة وأشك أنهم كانوا يسمحون لأي مراسل آخر بمشاهدة ما شاهدته أو القول أكثر ما قلته.

ولسوء الحظ، فإنَّ المشاركة التالية كانت معركة الوادي التي ذكرت بأن القوة وجهت جام غضبها بالسب والشتم والتندر على الآلهة وعلى هيئة الأركان إلا أن في الأسبوعين اللاحقين كانت الآلهة لها مشيئتها في بلاد وادي الرافدين كما في طروادة. إننا في بلد الإسراف حيث تكون عوامل الطبيعة متطرِّفة وهناك دعابة تقول بأن الآلهة في هذه الأرض الموغلة في القدم قد تآمرت على معاقبتنا كان هناك تعمُّد في الأذى من السماء ومن الأرض بسبب الحرارة والجفاف والجوع والعطش والذباب والإعصار والمطر حيث تم نسجها كلها بشبكة من الظروف. وكان الله بالتأكيد مع قيصر ومع الإسلام. وهناك قاعدة عامة تفيد بأن اضطراب عناصر الطبيعة تساعد الجانب الدفاعي وتدعمه.

وخلال الهجوم قد يكون الطين أفضل من فيالق من الجيش في الدفاع عن المواضع. وفي الأسابيع القليلة اللاحقة كانت الأمطار والأطيان متحالفة مع العدو إلا أن عقوبتنا العاجلة كانت إعصاراً جعل الملاحة مستحيلة. وكنتُ مسجوناً في السفينة الراسية في وسط النهر غير قادر على النزول إلى اليابسة أو مواصلة الطريق

وقد فقدت واسطة النقل التابعة لكتيبة بلاك ووتش التي انطلقت قبل يوم من الإعصار أو بالأحرى فقد ضاعت نفسها ولم تلتحق بالكتيبة حتى بعد انتهاء المعركة.

وبعد أيام قلائل حطمت الرياح والفيضانات جسرنا العائم وقيدت حركتنا وأجبرتنا على التصرف بطريقة تخدم العدو الذي شن هجوماً جبهوياً على الضفة اليسرى من النهر. وحدث الإعصار الذي جرف العوامات في السادس عشر من الشهر وفي غضون ذلك كانت لدينا فرصة للالتفاف على الأتراك في معركة الوادي.

الفصل السابع

معركة الوادي

عُلقت آمال عظيمة على المعركة التي جرت في الثالث عشر من كانون الثاني حيث كان الأتـراك يمسكون بالضفاف البعيدة من الـوادي وهي ضفاف شديدة الانحدار عند النهر الذي يتفرَّع من نهر دجلة عند تلال مدينة بشتيكو (الإيرانية) التي تبعد سبعة أميال من منطقة شيخ سعد ويقع خلفها هور سويجة الذي يمتد في أقصى الجنوب على مدى ميل ونصف جنوباً. وكان موضع العدو شديد التمدد وكان لا بد من السيطرة عليه وإذا ما تم ذلك فإنّنا نتمكّن من أن نتوغل خلف العدو ونمسك بالمضيق الواقع خلفه وعندئذ يتم الإحاطة بكامل جيشهم الذي يقدر بخمسة عشر ألف مقاتل. كان هدف العمليات التي جرت في الفترة من الثاني عشر الى الرابع عشر من كانون الثاني هو تسديد هذه الضربة الموجعة.

وذكرتُ ثلاثة أسباب رئيسة ساهمت في فشلها: الأول كان تأخير عبور المدفعية للوادي التي أخرت الرتل لساعات عدة، والثاني هو عدم كفاية القوات المستخدمة لإجراء حركة التفاف، والثالث هو عدم دقة الخرائط وعدم معرفة قواتنا كما أثبتت الأحداث بمواقعها لأن القوات تقترب من أن تدور في حلقة والعائق الرئيس لتحقيق النجاح هو أنهم لا يعرفون أين هم.

أُبلغ اللواء الثامن والعشرون بتفاصيل الهجوم الذي يشنه على الجبهة الأمامية وتقوم الألوية الأخرى الحادي والعشرون والحادي والتسعون والخامس والثلاثون بحركة الالتفاف وقامت القوة بقيادة الجنرال يونكهازباند بالمسير ليلة الثاني كانون الثاني وعندما حل الضباب صباح يوم الثالث عشر اندفع الرتل بنسق حيث يكون اللواء الحادي والعشرون على الجبهة اليسرى واللواء التاسع عشر في المركز واللواء

الخامس والثلاثون على الجبهة اليمنى ولواء الخيَّالة يحمي الجناح الأيمن ويعمل على الجبهة اليمنى. عبرت ألوية المشاة الثلاثة الوادي بدون إعاقة مع تأخير قليل إلا أن ضفاف النهر شديدة الانحدار أعاقت المدفعية والنقل بينما تمكنت طلائع الجيش من العبور. ولم يكن متيسراً سوى مدفع واحد ولم تستطع بعض النقليات من العبور حتى حلول الظلام.

بدأ اللواء الحادي والعشرون الذي كان متجهاً إلى الجنوب الغربي من المضيق بين المستنقع والنهر في منطقة الحنة بالتعرض في الساعة الحادية عشرة صباحاً وتَعرض الحرس المتقدم إلى وابل من إطلاقات الأسلحة الرشاشة والمدفعية الثقيلة واتخذ مواضع تبعد مائتي ياردة عن العدو بعد أن عُزِّز بسريتين من الكتيبة إلى اليسار وشَكَّل جناح حماية بينما انتشر ما تبقّى من اللواء إلى اليمين وعلى يمينهم جلب اللواء التاسع عشر إلى الأمام وانتشر وفقاً لحركة التفاف للإحاطة بالعدو والوصول إلى النهر وبقي اللواء الخامس والثمانون احتياطياً.

في الساعة الثانية عشرة توقف الهجوم بانتظار وصول ما تبقّى من المدافع القادمة من الوادي. في الساعة الواحدة اشتركت جميع المدافع في القتال وفي الساعة الواحدة والنصف تقدم اللواء الحادي والعشرون ليصل على بعد ثلاثمائة ياردة من العدو. وكان بالإمكان مشاهدة مفارز صغيرة من الأتراك تندفع مسرعة من مواقع الاحتياط إلى المواقع القتالية لمواجهة الهجوم الذي كان اللواء التاسع عشر يطوره بعد أن اشتبك مع العدو في الساعة الثانية والنصف صباحاً في الوقت الذي رصد طيراننا أنَّ قوة الأتراك تقدّر بثلاثة آلاف جندي غادرت خنادقها الأمامية وانسحبت على طول ضفة النهر إلى موضع استولت عليه في اليوم التالي.

وَسعَ اللواء الخامس والثلاثون من هجومه في المنطقة الواقعة على الجهة اليمنى من اللواء التاسع عشر إلا أنهم والخيَّالة لم يتمكَّنوا من الوصول إلى النهر لوجود الخنادق التركية. لم يذكر الرصد وجود خط خنادق موازٍ للنهر على طول اثنين أو ثلاثة أميال من النهر ممتد على طول الشمال الأقصى لموقع العدو بجانب الوادي لتعزيز الجناح وتغطيته وانسحابه إلى الثغرة ولم تكن هذه المواضع في حقيقة الأمر

معدة مسبقاً وتم تحويل المياه في يوم القتال وعلى طول هذا الخط أبدى العدو مقاومة مستميتة ومع ذلك لا يوجد أدنى شك بأننا كنا نستطيع الاختراق مثلما كنا نعرف بلدنا.

فالحقيقة هي أن الخريطة كان فيها نقص كبير ففي هذه الأرض المنبسطة الخالية من المعالم لا توجد فيها علامات دالة. وكنا في الظلام الدامس نواجه مواضع العدو عند الوادي وعند نهر دجلة. وكما حدث في معركة شيخ سعد فإنَّ الانعطاف لم يكن واسعاً بما فيه الكفاية فقد انسحبنا كثيراً نحو جهتنا اليسرىٰ ولم نصل قطُّ إلى النقطة التي نستطيع فيها الاستدارة جنوباً باتجاه النهر ووصلنا إليها متأخرين. لم يكن اللواء الثامن والعشرون الذي كان يشن هجوماً من الأمام على اتصال مع الألوية الثلاثة الأخرى التي كانت تقوم بحركة الالتفاف ولم يكن هناك بصيص للنهر طول العمليات التي كانت تجري في النهار. لقد تكبَّد العدو خسائر جسيمة أكثر من تلك التي تكبَّدوها في هجومهم المرتبط على نحو وثيق بالهجوم على الجناح الذي شنته بقية الفِرقة. كان خط الخيَّالة متقدماً باتجاه الحصن وهو ما خالف معلوماتنا الاستخبارية التي كانت تعتقد بأنه سيكون على الضفة اليسرى من النهر.

لم يكن الأتراك في غفلة فقد توقَّعوا التكتيك الواضح الذي فرضته علينا الطبيعة وبالتالي أعدُّوا مقاومتهم وكانوا على ثقة بالاحتفاظ بقوتهم على الأجنحة التي كانت تمسك الأرض على ضفاف الوادي بينما كانت قواتنا تشتبك على بعد أميال عدة عند مؤخرتهم وتهدد بالإحاطة بهم تماماً وكان على وشك أن يحدث ذلك لولا عناية الله وإصرارهم المستميت فقد حل الظلام قبل أن تحقق فِرقة الخيَّالة هدفها وانسحب العدو عبر المساحة الممتدة بين خطوطنا ونهر دجلة. لم يكن ولن يكون من المعلوم إلى أي مدى كانت الخيَّالة تبعد عن النهر عندما أرخى الليل سدوله في هذا اليوم العقيم.

تحركت القوة في صباح اليوم التالي للإمساك بالمضيق إلاّ أنها وجدت الأتراك قد عزّزوا الخنادق هناك وقد خيمنا بانتظار وصول المدافع والتجهيزات وتمسكنا بخط القتال الذي سمح لنا بالتمدد لتقليل المسافة بين جناحنا والهور وقد تحصنا

بخط القتال حتى شن الهجوم التالي في الحادي والعشرين من كانون الثاني. لقد تكبَّد اللواء الثامن والعشرون الذي شن هجوماً جبهوياً على موقع الوادي إصابات فادحة. ولو كان مجرد هجوم متواصل لكان الأمر أسهل إلا أن الأوامر الصادرة كانت تَنصُّ على إخراج الأتراك من خنادقهم التي تسيطر على الضفاف الشديدة الانحدار للمجرى المائي وكان لا بدّ أن يتقدموا بدون توفير غطاء ناري. لقد ذكرت هيئة الأركان بأن الموضع تم السيطرة عليه بسهولة وبدأ الأتراك بعمليات الإخلاء. كان عدد قليل من الشجيرات في المنطقة وكانت هناك مياه ضحلة في النهر تمتد لمسافة خمسين ياردة عن مجرى النهر مما تتيح للعدو رؤية واضحة للمنطقة بينما لم يشاهد اللواء أي شيء. ولم تظهر الخرائط المقدمة لضباط الكتيبة أي شيء عن الوادي. وأوضح الرائد آمر كتيبة الهجوم لضباطه وجنوده الهنود بأنه توجد مياه قليلة بالجوار وأمام خنادق العدو وعندما وصلت الكتيبة إلى قناة الري اعتقدوا بأن هذه المياه التي تم تحذيرهم منها. ولم يكن الوادي نفسه ماثلاً للعيان حتى وصلوا هم إليه. قد تكون الفكرة العامة لطبيعة الهجوم أسست استناداً إلى تجربة خاضتها كتيبة منفردة. وأطلقت رشاشات اللواء السادس والخمسين نيراناً مرعبة من بعد ثمانمائة ياردة. وكانت الرصاصات تطلق جميعاً بمستوى منخفض من قدم إلى ثلاثة أقدام فوق الأرض. وقامت بالحصد كلما تقدموا. واندفع الباثون[1] بصيحاتهم العالية.

وكلما نهضت صفوفهم ينقص عددهم وعندما وصلوا مجرى الماء تعطلت نسبة خمسين بالمائة من المدافع الرشاشة التي بحوزتهم ولو توقفوا في القناة وتمسك الأتراك بخنادقهم في أثناء حركة التطويق لبقية الرتل لما تكبدوا من خسائر جسيمة إلا أنهم تلقوا أوامر بأخذ الموضع. وسقط معظمهم في ذلك التقدم اليائس فوق الأرض الجرداء الواقعة بين مجرى ماء النهر. ففي صباح اليوم التالي تم العثور على واحد وثلاثين قتيلاً من قتلاهم في مكان صغير وعندما لم يعد هناك أي أمل بوصول أي دعم انسحبت الكتيبة إلى القناة وهو يعني أنَّ كل هذا كان استنزافاً آخر باهظ الثمن للفِرَقة التي سعت لإنقاذ الكوت. ووصلت الخسائر في منطقتي شيخ سعد والوادي

(1) الباثون هي مجموعة إثنية في الباكستان وأفغانستان خدمت في صفوف الجيش البريطاني.

وحدهما ما يساوي إجمالاً أكثر من نصف القوة المحاصرة والخسائر الجسيمة كانت ستحصل لو استمر الهجوم ولو تمكّنت هيئة الأركان من مشاهدة الجبهة التركية في الوادي لما أعطت الأمر بشن الهجوم ومع ذلك كانت قوة الالتفاف تعمل للإحاطة بالموضع. في الحقيقة كان تأخير الهجوم كافياً هنا وشكلت الضفاف الشديدة الانحدار مع المجرى عائقاً مميتاً عند نهاية الهجوم عبر سهل كان يحصد بالرصاص الكثير من القوات ولو استطاع أفراد القوات المتبقية من الوصول إلى السواتر أحياء فإنَّهم لم يتمكّنوا من تأسيس موطئ قدم في مواجهة النيران المسيطر عليها. في الزمن الجميل عندما كان الجنرال يتقدم مع قواته تكفي الإشارة إلى اتجاه الهجوم بتلويح من يده ليس أكثر وكان يعمل على وفق الخرائط الموضوعة ويصدر أوامره من الخيمة عبر الأسلاك وكان يمثل العقل وليس النبض للماكنة.

وفي غضون ذلك، قد يرى ضابط الكتيبة ما يراه ولكن ينبغي أن يصغي إلى الصوت البعيد عند نهاية السلك. وكان الستمائة شخص يتحلون بالجرأة غير المترددة والتنافس والتوق إليها في كل يوم من أيام الحرب. وأصبح فعل البطولة التي جعلها تينسون تاريخية ومبجلة لكي تكون معياراً مشرقاً لا يمكن الوصول إليه وهو أمر مسلم به بالنسبة للجنود.

وكان الرائد يصدر أوامره إلى الكتيبة التي ذكرتها وكان يطلق النار من جانب عندما يغادر مجرى الماء وكان يسمع نداء إلى رجاله في اللغة الهندوسية: «تقدموا يا رفاقي الشجعان! إلى الأمام أنا تحت.» أما اليوم فإنَّ الكتيبة ستنال الشرف فلا تجعل أي شخص يتراجع. قُتل الجندي وهو يحاول رفع مدفعه الرشاش بعد أن تعطلت اثنتان منها وقُتل من كان يديرها.

أما الملازم... فقد جرح مرتين في ذراعه ولم يتوقف وجرح مرتين أخريين في الصدر وسقط. ومراسلة الجندي غولاب خان كان يتوسل بصاحبه (هندي) بالسماح له بحمله على ظهره إلا أنه يصر بأن كل رجل ينبغي أن يستمر. وتوفي في صباح اليوم التالي من جراء جراحه وكان الجندي الهندي بوتاستغ يجلب جندياً بعد جندي تحت إطلاق نار كثيف. وبعزيمة لا تلين وبدون خوف أو وجل ذهب خمس مرات

لنقل جنود جرحى على ظهره وفي المرة السادسة أُردي قتيلاً وقام جندي أول بوضع حاجز ترابي حول الضابط البريطاني وبقي معه حتى الغسق عندما حمله على ظهره إلى مكان محمي. مات أكبر خان وهو كبير حملة البوق من الإنهاك ولم تجد أي جرح أو دم على جسده فقد أصابته الحمى لفترة ثلاثة أيام ولم يكن بالمستطاع إرساله إلى الخلف واستمر الآخرون الجرحى حتى لقوا حتفهم.

ستكون قائمة طويلة من الفرسان وهي تمثل عُشر الأعمال البطولية التي نفذتها كتيبة واحدة في معركة جرت في النهار والكثير منهم لم يطلع أحد على أعمالهم أو شاهدهم آخرون من الذين سقطوا في أرض المعركة وما أسجله قد أخبرني به ضابط جريح بعد انتهاء المعركة وأخبرني الكثير من الأشياء الأخرى التي قام بها رجال كتيبته وما ذكرته؛ لأني رويت قصة أخبرني بها عن وصف للهجوم الجبهوي الذي شن في يوم الثالث عشر من كانون الثاني ومن وجهة نظر كتيبة واحدة وقد لا تكون هذه الكتيبة أقل أو أكثر شجاعة من الكتائب الأخرى في اللواء. تكررت هذه الإنجازات على طول الخط وفي القوة التي قامت بتنفيذ حركة الالتفاف والتي واجهت المقاومة المستميتة نفسها.

كانت معركة الوادي واحدة من المعارك الغامضة في بلاد وادي الرافدين التي لم تكلل بالغار للاحتفال بها ومراراً لم يكن الرجال في المعسكر الذي يبعد أميالاً قليلة عن أرض المعركة يعرفون شيئاً عما كان يجري في أرض المعركة ولم يوجهوا أسئلة عندما كانوا يعلمون بمصير أصدقائهم حتى المراسل في المكان ينبغي أن يسكت أو التحدث إلى (ب واس ودي) وكانت مجرد صيغة من الفروسية لم تحدث تأثيراً في القلب. كان العدو يعرف حق المعرفة تصميم خصمه اللدود. وقد يزوده الجواسيس بمعلومات وافية عن قوائم الإصابات والموتى والأسرى والمعلومات الاستخبارية. ومع ذلك يتم التمويه وإخفاء كل الإنجازات التي يفخر بها بلدنا أو جزء منها لكي لا يكتشف العدو ما يعرفه بأن الرجال الذين اقتحموا خنادقه وتركوا موتاهم فيها ينتمون إلى وحدات من أيرشير ليسستر أو ديفون.

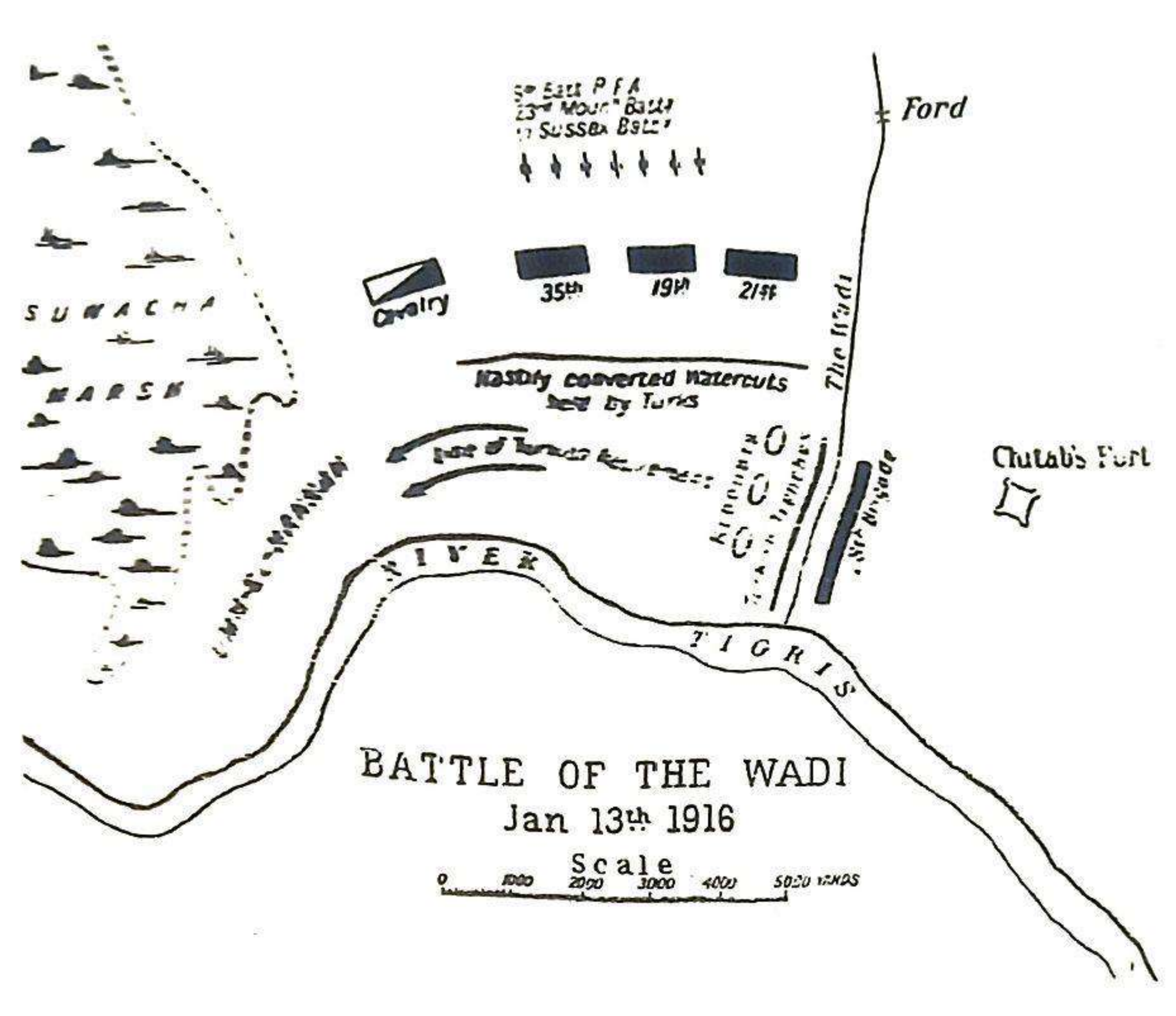
كانت وجهة نظر ضابط هيئة الأركان مفهومة وواضحة جداً وهي أن العدو

قد يكون لديه مصادر عدة للمعلومات ولكن من الصعوبة بمكان بالنسبة لهم التأكيد على تشكيل قواتنا. وتعد أي معلومة استخبارية يقر بها رسمياً أو صادرة من مسؤول تحقق مساعدة عظيمة لهم ومن مسؤوليتنا عدم السماح لهم بالحصول عليها فالصور الجميلة والكتابة الرائعة تكون جيدة جداً في طريقتها إلا أن عملنا الأول هو النيل من الأتراك.

وهذا الدليل ينبغي أن يسكت المراسل في الميدان ويجيب المراسل عن وجهة نظر ضابط هيئة الأركان قائلاً: إن السفسطة (المنطق الباطل أو المقصود به تحويل الحقائق) تشكل خطراً في تشويه أهمية العمل الذي تقوم به ويبدو أن الشيء الضروري هو النيل من الأتراك وأن الرجال الذين يعملون على النيل منهم ينبغي أن تكون لديهم الصورة واضحة في الميدان وإعطائهم حرية التصرف. وقد يزن الشخص في الوطن الذي ليس له شيء يعمله مع الصحف القضية بتجرد ويقرر فيما إذا كانت السرية والغموض تجاه أعمالنا الفذة تعيق العدو أكثر من إيذائنا عندما يعرضون فيلماً يجسد الفروسية.

شخصياً أعتقد بالرغم من أنني قد أكون متحيزاً بأن العريف ماكمن دونالد من كتيبة بلاك ووتش الذي يتمسك بالساتر حتى يخرج آخر رجل في الكتيبة ويستعد عندما يتبعه في منطقة الموت ينبغي أن يعرف به كل فرد من أفراد عائلته ويعرفون بأنه ضحَّى بحياته في تلك الحرب وهذه الأخبار ينبغي ألاَّ تحجب بل تنشر في لحظتها بأحرف من ذهب وتكتب في كل صحيفة تجد طريقها إلى بلد أيرتشير وينبغي مناقشة إنجازات رام داس وأكبر خان بغض النظر عن الإضافات وأن تتداولها الألسن في كل قرية هندية أرسلت رجالها إلى الحرب.

تكون هناك قيمة عظيمة لانكلترا في سرد البطولات وقيمة أقل للعدو الذي نخبره بأن صفوفه أضعفتها الكتائب التي قدَّمت تضحيات جنودنا وبسالتهم.



معركة الوادي

الفصل الثامن

معركة أم الحنة

لقد فقدنا أعزاء في معارك الثالث والخامس عشر من كانون الثاني بسبب المعلومات الاستخبارية الخاطئة ونفاد الصبر والاحتواء غير المبرر لمصادر العدو، فقد استطاع التلاعب بنا في هجومنا الجبهوي ويبدو الآن أن الضرورة تجبرنا على إعادة المناورة وإعادة بناء جسرنا المدمر بعد أنْ تمسَّك الأتراك بثبات بمنطقة المضيق الواقعة بين الهور والنهر، ولا يوجد خيار لنا سوى شن الهجوم واختراق خطوط العدو. لم يكن أحد يصدق بأن طاوزند كان بإمكانه الصمود حتى نهاية شهر آذار حتى لو انخفضت مناسيب النهر أو زادت أو بُني جسر عائم أو دُمر أو جلب الجيش.لقد تم تفادي العمل المأساوي والعقيم الذي جرى في الحادي والعشرين من كانون الأول بعد حفر خنادق الدعم والاتصالات وتهيئة قوات الاحتياط وتم التقدم بمسافة ألفي ياردة على أرض مفتوحة تحت وابل من إطلاق نار كثيف؛ نظراً لأنَّ الهجوم كان من المقرر أن يشن مباشرة أمام جبهة العدو فقد كان لا بدّ من تهيئة دعم المدفعية وإعداد المدافع الرشاشة؛ لذا فقد عبرت بطاريات المدافع إلى الضفة اليمنى لتوجيه ضربات منتظمة لموقع الحنة. فعند بزوغ نهار يوم العشرين من كانون الثاني تعرَّضت خنادق خط الجبهة التركية إلى قصف استمر عشرين دقيقة من جميع مدافعنا وتعرضت الخنادق إلى قصف مماثل صباح الحادي والعشرين من كانون الثاني استعداداً للهجوم.

كان لدينا عدد من مدافع عيار أربعة أنجات وبطاريتين من مدافع عيار خمسة أنجات وواحد من مدافع أربعة إلى خمسة هاوزر (مدفع قذائف) وثلاثة مدافع عيار ثلاثة أرطال وقسمان من بطارية جبلية ومراقبان اثنان وبطارية إقليمية من عيار خمسة

عشر رطلاً على امتداد جبهة طولها ألف وأربعمائة ميل. وبتركيز مكثّف لنيران هذه المدافع كنا نأمل إضعاف الأتراك وتدمير دفاعاتهم إلا أنه لم يكن من السهولة بمكان إزاحتهم.[1] في ليلة العشرين من الشهر كان عدد من مواضعنا ضمن مدى مائتي ياردة من العدو إلا أنه لم تكن هناك خنادق طولية تستخدم في مواصلات في أثناء شن الهجوم. وعند استدعاء قوات الاحتياط كان لابدّ أن تسير في أرض مفتوحة لمسافة ألفي ياردة مما يعرضها لنيران العدو المباشرة. كنا جميعاً نعتقد أن يوم الثاني عشر من الشهر سيكون حاسماً في المعركة إذا ما استطعنا اختراق الخطوط التركية. وكنا نفكر في الاستيلاء على الحامية الصعبة في الكوت التي تنتظرنا وكنا نعتقد بأنها كانت آخر المعاقل وتم إزالة خيمنا وكل شيء كان جاهزاً استعداداً للتقدم الذي بدأ في جنح الظلام وبعد مشي مضطرب ومرتبك في الطين بانتظار إصدار إشارة الضوء من جهة الشرق.لقد نسينا ما سيواجهنا من معارك شرسة على أمل أن تشرق الشمس وتغرب وقد حققنا مجداً راسخاً على أديم هذه الأرض المنبسطة.تزينت السماء بكل آيات الجمال والألوان الزاهية التي ينبغي أن تكون على الأرض بعد أن أضاءت سلسلة من الأضواء البراقة وأعقبتها سلسلة من الغيوم الأرجوانية والسوداء التي غطت الضوء وكان هناك وميض براق خافت يبشر بانبلاج الفجر.

ارتفعت أعمدة بنفسجية خافتة من الدخان من نيران المعسكر وقابلها ارتفاع وانخفاض ثلة من الرجال يبدون مثل العمالقة وفي الضباب اختفى القمر البدر بعد أن تلبّدت السماء بسحابة مطر نيلية اللون.

كنتُ أعتقد بأننا سنشن الهجوم عند الفجر وكان أفضل لو فعلنا ذلك؛ لأنّ آخر

---

(1) من المثير إجراء مقارنة لحجم الرصاص الذي ألقي على خنادق الحنة في يومي العشرين والحادي والعشرين من كانون الثاني مع تلك التي تم تركيزها على الجبهة نفسها في معركة لوس(أكبر معركة خاضها الجيش البريطاني في عام 1915 على الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الأولى) وكانت خسارة الجيش البريطاني ضعفي خسائر الجيش الألماني واستمر القصف ساعتين. كان لدى الجيش البريطاني في ذلك الحين ثلاثة مدافع قذائف هاوزر عيار خمسة عشر وثلاثمائة وخمسين قذيفة أي بي وتسعة مدافع هاوزر عيار تسعمائة واثنان وأربع كتائب من مدافع هاوزر عيار ثمانية أنجات ومدفع هاوزر واحد عيار اثني عشر أنجاً ومدفع بحرية عيار اثني عشر أنجاً ومدفعين عيار سبعمائة واثني أنجاً وعدد من مدافع ستين رطلاً وأربعمائة وسبعة أرطال فضلاً عن أربعمائة إلى خمسمائة مدفع ميدان ومدافع هاوزر.

مرحلة في خنادق الأتراك قد تكون أقل تأثيراً مميتاً عندما يكون الضوء خافتاً ولكن عندما وصلت هيئة أركان الفِرقة أخبروني بأننا كنا ننتظر القصف الذي يبدأ في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة لأن مطلقي المدافع يحتاجون ساعة في ضوء النهار لتدقيق علامات التسجيل. واستمر القصف المركز فترة عشرين دقيقة قبل تمشيط الخنادق واقتحامها. بدأت الرشاشات عند حلول الفجر بإطلاق نيرانها بأقصى مدى وبثبات وعلى نحو متواصل مثل رجلين يتصارعان يمثلان الخير والشر. كان القصف المركَّز ليوم العشرين مناسباً للاقتراب من خنادقنا المتقدمة؛ لذا سرت مسافة ميل إلى الأمام وانتظرت.

في أثناء المسير بدأ القصف وارتفعت أعمدة التراب فوق الخطوط التركية وارتفعت أعمدة الدخان الأخضر والأبيض والرمادي والأصفر وأعمدة المياه عندما تطيش القذيفة التركية وتسقط في نهر دجلة. كنتُ مسروراً بأنه كان لدينا أعداد كبيرة من المدافع بجانبنا.

لا بدّ أن يوفر القصف المدفعي تغطية لتقدُّمنا ويبدو أنَّ الأتراك ليس لديهم الملجأ المطلوب وفي كل الأحوال كان ملجأً يحتمون فيه. كانت الإطلاقات في بادئ الأمر تُحدث ضجة بعيدة لم يكن الصوت يُسمع بشكل أعلى من زقزقة الطير ولكن كان هناك مكان من الأرض يمكن اللجوء إليه وكانت هناك رذاذات غامضة في النهر وأودية مغمورة في المياه.

مررتُ بصديق يعمل طبيباً في الإسعاف المتقدم كان يعد شاياً وقدم لي كوباً منه. وبينما كنا نحتسي الشاي جاء (ب) لتقديم الدعم وشغل الخندق الفارغ الواقع على يسارنا. كان المقاتلون يضحكون ويمزحون ولكنه كان نوع من المزاح الثقيل ولم تكن فيه سعادة؛ لأن الجميع يعلم بأنه سيكون يوماً دموياً في مواقع الجبهة الأمامية على أرض واسعة ووعرة.

وقع أحدهم في شرك سلك الهاتف «لم يجرح حتى الآن» وصديقه يصرخ ويتعثر آخر ويصاب بضربة غير واضحة ولم ينهض ورجل في الأمام كان يردد بعصبية أغنية: «هذه ليست الفتاة التي شاهدتها في بريكهتون».

يجلب حامل النقالة رجلاً جريحاً. تنقلت بين خندق أو خندقين مع (ب) في

الخندق التالي أظهر لي عريف كيف اخترقت في أثناء التقدم رصاصة ذات مقدمة حادة النجاد وهو (حزام عريض للكتف ذي جيوب يوضع فيه الرصاص عادةً) ثلاث سلاسل من مخازن الذخيرة وعلقت في الرابعة.

كان لدينا من الوقت دقيقة أو دقيقتان ندخن فيها السكائر أو نتبادل أطراف الحديث. خلال تلك الأيام كان من السهولة إقامة علاقات صداقة مع الآخرين وأخبرني العريف الذي تحدَّثت معه عن معلومات خاصة به مثل أين عاش وأمور تجارته قبل الحرب وعدد إخوته الذين يعيلهم وأحدهم الذي لقي حتفه والآخر سجين واثنان في الخدمة العسكرية في فرنسا وكيف أصيب ثلاثة من أفراد عائلة زوجته ولم نتطرق إلى بلاد وادي الرافدين؛ لأنه لا يوجد شيء واضح نتحدث عنه.

كانت الخنادق التي أعدها الإنسان ضخمة مفتوحة تخرج الرياح منها وتذكَّرت ما قاله لي أحد الرجال بأن أقدامه تصبح باردة عندما يكون تحت الضغط وفي وضع حرج فيدع الأشياء تمضي ولا يفكر فيها كثيراً. ينتشر الرصاص الذي لا يُعدّ ولا يُحصى في كل مكان في الوقت الذي ينتظر فيه الرجل لفترة طويلة كأنه عند طبيب الأسنان الذي يتحسس بملقطه الموضوع في الجرار وأقسم بأنه استمتع بجحيم النار في فرنسا ويمكن أنْ أتصور نبضات القلب المتسارعة عندما يقترب الإنسان من مسافة مائتي ياردة الأخيرة كأنها نبضات الحياة إلا أنه بالنسبة لمعظم أصدقائي أصبح هذا النوع من الأشياء خبزهم اليومي بعد أن تعوَّدوا عليه. كان معظم الرجال الذين كنت معهم من المجنَّدين الجدد ويمكن أن أدرك بأنهم كانوا متوتِّرين إلا أنهم كانوا شجعاناً جداً. مررتُ الأخبار لإجراء التغطية الآتية. في الخندق التالي كان يوجد اثنان من الجات (سكان شمال غرب الهند والباكستان وهم على خلاف مع المسلمين). كان الأول جريحاً في قدمه والآخر يعتني به ويحفرون الأرض بمعول وبعمق للاحتماء فيها، ومن هنا بدأت أخوض في جدل مع نفسي عن المدى الذي ينبغي أن يطَّلع عليه شاهد العيان فقلت لنفسي: إنَّه لا ينبغي أن يطلع على الكثير لأن عمله التسجيل. كانت هذه فكرة طيبة بنتيجة منطقية وبالتأكيد كان واجب شاهد العيان هو إدامة زخم المعارك. وبعد إفتاء الضمير أقنعت نفسي بأني شاهدت ما فيه الكفاية لذا بقيت في الخندق بينما استمر (ب) في عمله.

بقيت وحيداً مع الجنود الهنود وكنت أحاول استخلاص قيم الشجاعة مع تفكير ممزوج بالفضول والشعور بالخجل؛ لأنّي لم أكن في الخطوط الأمامية من القتال وقد انتابني شعور كبير بالازدراء من كل شخص مدني وكل شيء ولاسيما السياسيين والمراسلين الحربيين الذين يلبسون الخاكي؛ لأني أرى أن خيرة الرجال هم الرجال الذين يمسكون الخنادق أو يموتون من دونها. استمر إطلاق النار من الرشاشات والمدافع على أشُدِّه وكان يتساقط علينا محدثاً صوتاً كأنه سقف من حديد مموج (المستخدم في المباني الرخيصة). كان الجندي (ب) في خضم المعركة. وكنت أنتظر بفارغ الصبر توقف الرمي إلاّ أنّ الرشاشات لا تمل ولا تكل وكنت أعلم أن الأتراك ينبغي إيقافهم. كان زخم الإطلاقات يزداد وتأتي فوقنا صفارة تهكمية شريرة تحدث صوتاً يشبه صوت طائر اللقلق (طائر ذو منقار طويل) وهو يغادر الطين وكان هناك أزيزٌ ودويٌّ للقذائف. يخفي رجال الجات كبرياء سوداوية. تخترق الشظايا سكون الهواء. تسمع دوي قذائف المدفعية وهي تقصف إمدادات الأتراك بمدفعية عيار ثمانية عشر إنجاً التي توجه إطلاقاً حرّاً. يحلق اثنان من طيور الرفراف فوق الخندق بجانب النهر وتقفز طير القُبَّرة في الهواء لمسافة قدم أو قدمين في كل هزة بدون أن تترك هذه الوتيرة انشغالات الطير بهذا الضجيج وهي تذكرني بالرجل الفوضوي الذي عملَ كل هذه الأشياء وشعرت بالغبطة بسلامة الطبيعة التي يشعر بها الإنسان عندما ينظر إلى وجه حصان هادئ. واستمر رجل الجات في حفر الخندق باستخدام معوله في يد واحدة كان يحفر لكهف حصين في الجدار الأمامي لخندق صديقه ويرثي بطريقته الرائعة الحزينة في صوته البعيد بأنّه لم يبتعد عن فرنسا أبداً وهو يردد: «أيها الصاحب صف المبنى هاي! يا صاحب إنه سهل منبسط ولا يوجد غطاء لِمَ إذاً لا نهاجم في المساء؟ في فرنسا، يا صاحب ثم يغني مشيداً بأرض فرنسا الجميلة قائلاً: من أجلها كنا نحارب بطيب خاطر».

بعد مرور فترة من الزمن أصبحت الأشياء رتيبة ومملّة في الخندق. ومع ذلك كان النهار في بدايته. بدأتُ أُفكِّر بطريقة لترتيب هروبي واعتقدتُ بأنّي سمعتُ توقف إطلاق النار كأننا كنا نندفع ثم ازدادت كثافة النيران وكان يقترب ثم أصبح ثقيلاً جداً ومتواصلاً وكنتُ خائفاً من فشل الهجوم وبحثتُ عن أحد قادة الألوية لمعرفة كيف تجري الأمور.

وبعد فترة وجيزة ناداني أحد الجنود قائلاً: إن هناك جندياً أبيض قد أُصيب إصابة بالغة في ساقه. ونظرتُ إلى الساتر حيث كان الجندي (د) يسحب نفسه بألم خارج الخندق وكان معه رفيق منسحب يمشي على ساق واحدة قال بأنه في البداية كنا نقفز في خطواتنا مثل سباق الكيس (سباق بين متبارزين يضع كل منهما رجله في كيس واحدة) ويتكئ على كتفي ثم توقفت رجله عن العمل ودفعتني شهامتي تجاه رفيقي وجاري إلى وضعه على ظهري مع درعه وترسه وغطَّى كل جزء قابل للجرح في جسمي ومشيت بتعرج إلى الإسعاف الميداني.

ووجدتُ مقرَّ اللواء بعد فترة وجيزة وتحدَّثتُ مع الجنرال الذي أخبرني بأننا استولينا على الخنادق التركية ولكن بمرور الوقت ضعف خط الجبهة وكان الدعم متأخراً وكنا نتعرض للقصف وبقيت الأشياء كما كانت ثم انهمر المطر عند الظهر. وظلت السماء تمطر مدراراً طوال النهار والليل مما زادت من اكتئاب الإنسان الذي يفكر بجلب الجريح الذي يرتجف من البرد والطين وهو مرمي بين الخطوط في انتظار المساء ومجيء الموكب البطيء البائس من العربات ذات الشبكة الحديد.

ثم التقيتُ بعدد قليل جداً من الذين كانوا في الخنادق التركية؛ لأنه لم يخرج منهم إلا القليل. كان هناك شاب وهو الضابط الوحيد من كتيبة بلاك ووتش الذي خرج سالماً ولم يجرح وكان يحتفظ بطلقة في جيبه وأخرى في قبعته. كان يعرف القصة كاملة ورواها ببساطة ساذجة وهو منقطع الأنفاس مما أثار دهشتنا؛ لأنه ما زال حياً ولم تكن شدة التعجب مؤثرة جداً؛ لأن الأشياء الكبرى في التاريخ تجعل الحديث على طاولة الفطور في صباح اليوم التالي ليس أكثر من حكاية كبوة حصان وعندما كان الشاب يتحدَّث قاطعناه وسألناه عن المواصلات وهل كان هناك مخزن عتاد ميداني يأتي من علي الغربي؟.

كانت معجزة أن يبقى الإنسان حياً في ظل إطلاق نار كثيف في أثناء الهجوم والانسحاب. ومع ذلك فإنَّ الشاب ورجاله كانوا في الخنادق الأمامية لجبهة القتال مع الأتراك قبل فترة ساعة وربع. وقد شاهدتُ عدداً آخر من قتلى الكتائب التي حققت خرقاً في المواضع الأمامية وهم يحملون عندما عقدت هدنة في اليوم

التالي. شاهدتُ الملازم الشاب في قوة (D) وأربعة رجال يمشون بهدوء فوق الساتر إلا أن الخنادق كانت فارغة من الأفراد في ذلك الحين. كان رجاله في المقدمة في أثناء المعركة وأصيب مساعد الضابط في رأسه عندما نهض ليعطي الأمر للاندفاع الأخير. ثم ركض العريف باتجاهه وسقط بجانبه ولم يشاهد أيّاً منهم يتحرك. قال الشاب: «جميع رجالنا كانوا يتساقطون وشاهدتُ ثمانية رشاشات وحراباً موجهة باتجاهنا وتملّكني الخوف الشديد وكنت أتوقع بأني سأسقط في العشر ياردات اللاحقة وشعرت بالرصاصة وهي تخترق معدتي وأحسست بحرارتها عند أذني. واعتقدتُ بأني انتهيت». «لماذا لم يطلقوا النار، لا أعرف افترضت أنهم كانوا خائفين ووجهت بندقيتي نحوهم وأثارت الكثير من الغبار». «هل كان ذلك عند اختراق طلقة للخوذة؟» «أووه، كلا! كان قبل ذلك» ثم خلع التوبية (قبعة هندية من الفلبين) وأراني كيف جزت شعره.

«عبر جبيك»

«كان ذلك بعد»

«أرى أنك تحتفظ بواحدة في حذائك

(البوت)»

«كان ذلك في اليوم السابع»

كان معظم إطلاق النار الأمامي يأتي من الخط الثاني لأنَّ قصفنا المرَكز على الخنادق القريبة من النهر أضعفَ الخط الأمامي للأتراك.

كان الأتراك على علم باتجاه هجومنا؛ لذا تحرَّكوا على طول الجهة اليسرى وعند الهور حيث كانوا يطلقون النار المنتظم باتجاه تقدُّمنا داخل منطقة القصف ومعظم الإطلاقات النارية الأمامية من الخنادق في الخط الثاني تذهب إلى الأعلى وهذا يفسر عدد الإصابات على المدى الطويل في أثناء توجيه وابل من النيران حيث امتلأت الخنادق بالجرحى ولا يوجد غطاء يمهِّد لجلب إمدادات تعزِّز قواتنا.

يبدو أن قصفنا لمواضع الأتراك لم يكن له تأثير؛ لأنه عندما تعرَّض الشاب إلى

وابل من الأسئلة بشأن شدة القصف أجاب ببساطة بأنَّ الخنادق التي شاهدها لم يلحق بها التدمير الكثير والأسلاك الشائكة كانت سليمة كما كانت. وهذا لم يرضِ هيئة الأركان إلاَّ أنَّ ضابطاً تركياً من جاليبولي الذي تكلَّمنا معه في أثناء الهدنة في اليوم التالي أيَّد كلامنا وابتسم لفكرة بأنه خائف بسبب «الغبار والدخان». وقال بأنه شاهد قصفاً في مضيق الدردنيل وقال: «آه، كلا ليس لدينا مانع لقصفكم فعندما تقصفون خنادق خطنا الأمامي نستلقي على الأرض ونطلق النار من الخط الثاني وعندما تقصفون خطنا الثاني ننهض مرة أخرى ونطلق من الخط الأول».

لقد أُخليَ الشاب من موضع يبعد خمسين ياردة من الخط الأول؛ لأنَّ الأتراك ألقوا بنادقهم وهربوا وحالما دخل الخندق أضاع حساب الوقت. وقال: «قد تكون ساعة ونصف أو ثلاث ساعات ونصف وفي الحقيقة كانت ساعة وربع». كان الخندق فارغاً ومكث به مطمئناً كأنَّه في بيته. لقد وجد مدفعاً رشاشاً ووجه نيرانه إلى الخط الثاني وفوق الساتر للجهة اليسرى من الأتراك. كان المدفع الرشاش من النوع الصعب فقد كان يتعطل كلما تطلق ست أو سبع طلقات. أزال شريط الطلقات وقطع الشريط مرة أخرى وتعامل مع الشيء مثل لعبة إلى أن قصف الأتراك خط الجبهة المباشر لموضعه عندما وضع خمس طلقات داخل الرشاشة ثم استخرجها. لم يعد لدى بلاك ووتش قنابل وأخذوا بالانسحاب التدريجي من موضع إلى آخر باتجاه النهر. ثم جاءت مفرزة قصف أخرى إلى خندق اتصالات عند الزوايا اليمنى. تكَدسَّ أفراد كتيبة بلاك ووتش بكثافة في أثناء هذه الهجمات وتحديداً فوق الساتر وعندما أخلوا الخندق تعرَّضوا لنيران مميتة وفُقِد الكثير منهم في الهجوم. حالف الحظ إحدى السرايا التي أضلت الطريق قبل ليلة من الهجوم بعد أن اقتربت مسافة خمسين ياردة من النيران وقامت بحفر خندق حمى بقية الكتيبة الذين جاؤوا إلى هذا الخندق وتحصَّنوا فيه حتى حلول المساء عندما كان بمقدورهم إخراج الجرحى بعيداً بدون التعرض للخسائر مما حافظوا على أرواحهم وأرواح زملائهم.

أخبرني العقيد قبل أيام عدة عن العريف ماكمن دونالد الذي كان آخر جندي يسقط في كتيبته وبقي في الخندق حتى خروج آخر رجل من كتيبة بلاك ووتش يؤمن التغطية برشاشه قائلاً: «إنَّ هذا الجندي الباسل كان أشجع رجل عرفته بحياتي وقد

أصيب عندما تراجع إلى الخندق». أُصيب صديقي الملازم الشاب المقاتل (ب) في رأسه من الخلف بطلقة وبنفس الطريقة عندما تراجع للتغطية وقد وصف الشاب المشهد بالتفاصيل التي لا أستطيع سردها مرة أخرى. واختتم الشاب قوله بتواضع: «كان هذا أكثر شيء أثَّر فِيَّ وتعرَّضت بسببه إلى انهيار عصبي. لم يتمالك نفسه سوى تعبيره بالابتسامة عند حدوث الانهيار العصبي. وأخبرني ما كان يحلم به المقاتل (ب) قبل ليلة العشرين عندما رأى هالة امرأة حول القمر. في البداية ظن أنها ملائكة ثم كُنَّ ثلة من الفتيات وهن جميعاً يضحكن ويشرن له باتجاه كوت العمارة. كان هذا الحلم الذي راوده في وقت مبكر من الصباح قبل الهجوم فأل خيرٍ.

قبل ليلة من المعركة تنتاب المرء الأحلام المهيبة حيث يرى سماء ونتائج لا تحمد عقباها وتظهر شقوق في دثار من السحاب مزَّقته القذائف.أخبرني صديق بأنه حلم في الليلة التي سبقت معركة شيخ سعد بأمه. وهذه هي المرة الثانية في حياته يحلم بها وبالحلم نفسه الواقعي الحي. ففي المرة الأولى حلم بمرض خطير. وفي هذه المرة نجا بمعجزة قلت للشاب: افترضتُ أنك قائد الكتيبة. كان خريج الدورة العشرين لكن كان هناك ملازم آخر خريج الدورة الحادي والعشرين وعلى الرغم من أنَّه لم يشترك في القتال؛ لأنه ضابط نقل الكتيبة إلا انه كان أعلى رتبة من الشاب وأنيطت به القيادة.

دخلت كتيبة بلاك ووتش بقوة مائة وعشرين رجلاً وخرجت بخمسين رجلاً منهم خمسة وعشرون مصاباً وخمسة وعشرون معافى وأضيف إليهم ستون آخرون من قسم المدافع الرشاشة الذين لم يشتركوا في المعركة وبقوا أحياء. خرج ثلاثة ضباط آخرون فضلاً عن الشاب أحياء وجميعهم أصيبوا إصابات بليغة. في الوقت الحاضر كان هذا اللواء الأفضل في الجيش البريطاني. وقد يسأل سائل عن سبب تقلُّص عدد الكتيبة إلى خُمس قوتها القتالية في غضون ثلاث مواجهات جرت خلال أربعة عشر يوماً ونالت مرتبة الشرف في الهجوم الذي خاضته إلا ان هذا السؤال لم يوجه إليهم.

وصلت الإمدادات متأخرة وكان يعتقد بنظرة متفائلة بأنَّ الخنادق التي استُولي عليها يمكن الاحتفاظ بها إلا أنَّ الموقع قد يسقط بأي هجوم قد يشنه حتى لو كان بقوة لواء

ضعيف أو تعرض إلى التعب الشديد خلال الأسبوعين الماضيين. في المعركة، كانت كتيبة بلاك ووتش (على اليسار) ولواء دوكراس الحادي والأربعون (على اليمين) قد حفرا الخنادق على بعد مائتين وخمسين ياردة من العدو، واللواء السادس من الهنود (الجات) واللواء دوكراس السابع والثلاثون على بعد مائة وخمسين ياردة خلف كتيبة بلاك ووتش، واللواء الحادي والأربعون على التوالي وخلف هؤلاء وعلى بعد ألف ياردة من الأتراك كان لواء المشاة السابع والتسعون (على جهة اليسار) ولواء باف (على اليمين). كان اللواء ومعه فوجا إسناد لديهم ألف رشاشٍ إجمالاً[1] وكان اللواء التاسع مهيئاً لتقديم الإسناد للواء التاسع عشر واللواء الخامس والثلاثين الذي كان على اليمين ينتظر الأوامر للتقدم إذا تطلب الموقف ذلك. جعلت المسافة البعيدة التي كان يجب تقديم الدعم عبرها وتحت وابل من النيران الكثيفة فرص شن هجوم ضئيلة. واستعدت أكثر الكتائب شجاعة مرة أخرى لشن الهجوم.

يبدو أن الكتيبة الرئيسة فقدت الاتجاه بعد أن أصابهم الإرباك نتيجة التواء النهر وفقدوا تقريباً جميع ضباطهم البريطانيين والهنود. وعندما طلب منهم المجيء وجدوا أنفسهم بعيدين جداً إلى أقصى يمين الهور حيث كانت الخنادق التركية محصّنة؛ لذا فشلوا في تقديم أي إسناد للهجوم الذي شنَّته قواتنا على جهة اليسار وكررت الكتائب الأخرى التي لحقت بها الخطأ نفسه. شوهدت قوة صغيرة من مقاطعة هانتس تتقدم مشياً على بعد ألف وثمانمائة ياردة بدون أي غطاء ووصلت على بعد أربعمائة ياردة من العدو. ثم توجه ضابط وجنديان مشياً وبهدوء حتى وصلوا على بعد ثلاثمائة ياردة من الخندق التركي عندها سقط الضابط الذي كان آخر أمل من الآمال اليائسة.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر مجداً من دخول الأرض الحرام؛ لأنها كانت نوعاً من الكفارة بالإنابة. ينبغي أن يتحرَّكوا بشعور غامض بدافع أن يعمل الإنسان بروح من التفاني ويأخذ على عاتقه عواقب العقوبة الكاملة. لقد أخطأوا لكنهم بذلوا قصارى جهدهم. والمغزى من هذه الحادثة هو انعكاس على عمل القيادة. كان ينبغي أن

---

(1) كان الألف رشاش يشمل ما تبقى من كتيبة بلاك ووتش ولواء الجات السادس واللواء الحادي والأربعين من دوكراس التي ألحقت باللواء للمعركة. ولم تشترك كتيبة المدفعية التابعة للواء التاسع عشر بالهجوم.

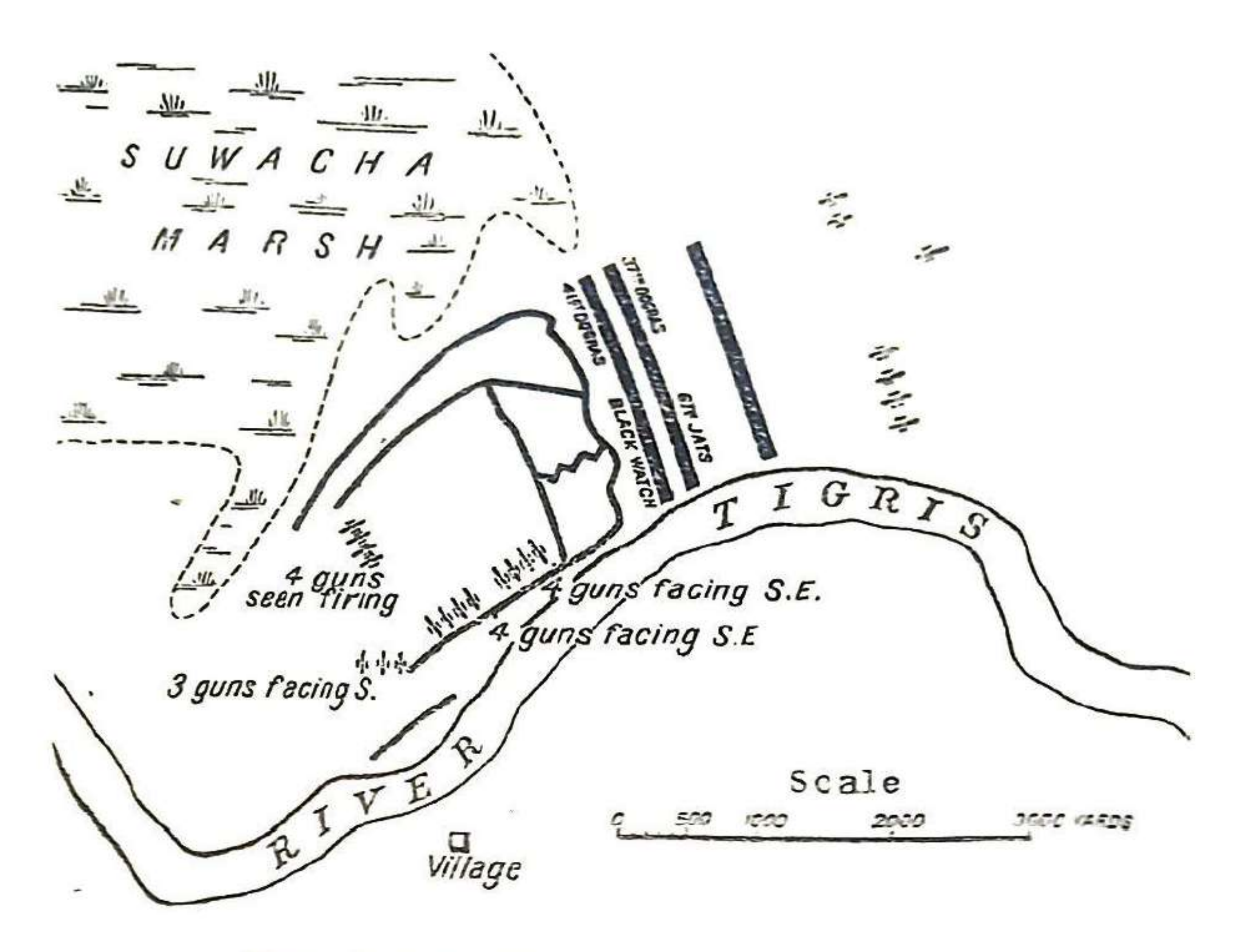
تكون الإمدادات مهيأة للإرسال في لحظة الاستيلاء على الخنادق.وعندما تناولت الغداء اللاحق مع كتيبة بلاك ووتش كان هناك متسع لنا جميعاً في خيمة (ثمانين أي بي). وقد أُلحق مؤقتاً كلٌّ من القس والضابط الشاب والطبيب وضابط المناورة. وقد قتل الطبيب (من دونيت) الذي يعير أهمية للقصف عندما ألحق بكتيبة ليسسترز في أثناء الهجوم على موقع السن يوم الثامن من آذار.

في هذه الأثناء دُمجت كتيبة بلاك ووتش وسي فورتس وشكلا كتيبة على الرغم من أن المجندين كانوا جدداً. وبالطريقة نفسها دُمجت الكتائب المتبقية الأخرى. وصفتُ المعركة في الجزء المتعلق بشنّ هجومنا. ومع كتيبة بلاك ووتش كان هناك ضابط ورجال من الكتيبة السادسة من الجات ولواء المشاة السابع والتسعين واللواء السابع والثلاثين من دوكراس ولواء دوكراس الحادي والأربعين وصفته من الهانتس[1]. لقد شاهدتُ جندياً هندياً من اللواء الثاني والستين من البنجاب يقتحم الخنادق التركية في اليوم الثاني والعشرين.

وبدون أدنى شك اقتحمتُ خنادق الذين لم يسمع لهم صوت. قد تتجلى البسالة الشديدة الوطأة في الهجوم عند الاطلاع على قائمة الإصابات حيث دخل المعركة اللواء الخامس والثلاثون بقوة ألف مقاتل وخرج منها بخمسين مقاتلاً وفقدوا ألفاً وخمسة وأربعين مقاتلاً في معركة شيخ سعد وخمسين مقاتلاً في معركة الوادي ولم يبقَ ولا ضابط ميدان واحد في اللواء وقام اثنان من رتبة ملازم ثان بقيادة كتيبتين من قوة الاحتياط الهندية. وبهذه القوة المنكسرة المتسرّبة التي كانت تتعرض للمطر ويرتجف أفرادها صدرت الأوامر لشنّ الهجوم الثاني على موضع العدو في الساعة الواحدة ومن حسن الحظ لم يتطور الهجوم على نحو خطير.

---

(1) في أدناه نص من تقرير العمليات الذي أصدره الجنرال يونكهازبند الموجه إلى المراتب البريطانية والهندية كافة قائلاً: لا أستطيع إلا أن أشيد بالبسالة الرائعة التي تحلّت بها كتيبة بلاك ووتش وتلقّت الدعم من ضباط اللواء السادس ورجاله من الجات ولواء المشاة السابع والتسعين واللواء الحادي والأربعين من دوكراس في اقتحام خنادق العدو واحتلالها. كان لا بدّ أن يجري تقدمهم عبر منطقة مفتوحة تماماً معرّضة لإطلاق نار كثيف مقابل خنادق غارقة مزودة بفتحات للرمي. إنّ البسالة المثيرة للإعجاب والعظيمة للمراتب كافة ولاسيما الضباط البريطانيين الذين يستحقون الإشادة العالية؛ لأنهم أظهروا أرقى صفات التحمل والشجاعة في ظل ظروف تقدم استثنائية.



THE BATTLE OF UMM-EL-HANNAH
January 21st 1916.

Shewing the position of the Regiments which launched the attack The nearest troops behind our second line were 1000 yards from the Turks

معركة أم الحنة

الفصل التاسع

ليلة الحادي والعشرين

تكررت فضيحة معركتي شيخ سعد والوادي في ليلة الحادي والعشرين بعد أنْ تَفاقمت معاناة الجرحى من جراء المطر والبرد. ولم تصل سوى مفرزتين من مجموع خمس مفارز لإسعافات الفِرقة إلى منطقة العورة ولم يستطع إلا القليل من حاملي النقّالات حمل الرجال المحظوظين الذين سقطوا في وقت مبكر من النهار لإخلائهم من خط النار بوجود الضوء، وقبل منتصف النهار أمطرت السماء مطراً مدراراً وأصبح السهل عبارة عن بركة من الطين حيث وضع الجرحى في برك من الماء بعمق كاحل الرجل، وفي فرنسا كان هناك عدد من حالات الرجال الذين تركوا بين الخنادق لأيام ليموتوا نتيجة الصقيع والمطر. وينبغي الغوص في أعماق العذاب البشري إلا أن العذاب الجماعي ليلة الحادي والعشرين ربما لم يسبق له مثيل في تاريخ المعاناة التي قاساها الجيش البريطاني منذ موقعة في شبه جزيرة القرم.

نصبت الخيام في المعسكر إلا أن الأرض التي يقف عليها الإنسان عبارة عن مستنقع من الوحل يغطي جذاءه العسكري (البوت). وفي هذه البركة من الطين الغروي اللزج كان الرجال يعانون من الإنهاك الشديد بسبب البرد والألم وفقدان الدم بعد حملهم من العربات وإيداعهم في مكان مظلم وبين الفينة والفينة يأتي وميض مصباح مع وعد بتقديم مساعدة ومن ثم تتوقف ويقوم المسعفون في المستشفى بجولات يعملون ما بوسعهم في محاولة للتخفيف من وطأة الرطوبة. كان الأطباء في الجوار لكنهم لا يستطيعون أن يكونوا في كل مكان في وقت واحد ولم يدخروا جهداً في ذلك لكن الخطأ ليس خطأهم؛ لأنَّ تدفق السيل كان يفوق قدراتهم وكانت مفارز السخرة باستخدام الفأس والمعول تحفر الأرض الجافة إلا أن الأرض كانت مسامية

والفرش والبطانيات كانت هزيلة. التقينا بالجرحى الذين جُلبوا على العربات وقدم لهم الشاي والروم من السفن. لزم بعض الجرحى الصمت أو لم يحركوا ساكناً أو من الصعوبة بمكان استطاعتهم التكلم بعد أن تأثروا بالبرد والرطوبة ومن ثم فإن تشبثهم بالحياة قد زعزعه ارتجاج العربات وكان بعضهم يبكي ويبتهل إلى الله أو إلى الرب ولكن معظم البريطانيين كانوا يتحلّون برباطة الجأش. كان هناك رجل ضخم يجهش بالبكاء مثل الطفل ويستنجد: لا أستطيع الحصول عليه سيدي، هل تستطيع وضعه في فمي؟ إنه كونوت رانجر. آه لقد أنقذت حياتي!.

لم يفهم الهنود التغيير الذي طرأ على الظروف بعد فرنسا حيث كان كل شيء جاهزاً بينما هنا لا يبدو أن هناك شيئاً مُعَداً مسبقاً وكان السركار(المسؤول الإداري) قد نسيهم. كان حالهم يرثى له وهم يتوسلون للحصول على فرش أو بطانيات أو طعام ويبكون؛ لأنهم وضعوا في الماء. لقد جاءت الفرش والبطانيات وحتى الطعام إلا أنهم تحملوا معاناة ساعات طوال قبل أن تصل، وبحلول الساعة الثامنة أُرسل نصف ما كان تحمله السفينة من بطانيات ولحف. كانت كل البطانيات عائدة إلى كتيبة بلاك ووتش ولكن القليل من أفراد الكتيبة سينام بها مرة أخرى لأن كل الخيم القادمة من مدينة همشاير كانت في خدمة الجرحى والجميع مد يد العون وعلى طول الليل تدخل العربات.

وفي إحدى الخيم وجدت أحد عشر رجلاً لم يقدم لهم الروم سوى لرجل واحد لأن الآخرين كانوا فاقدي الوعي على نحو يرثى له. طلب مني رجل من مدينة همشاير عند الزاوية مساعدته بخلع حذائه العسكري (البوت) وكان متكئاً ويستطيع شرب الروم وكان رفيقه يعاني من نوبة المرض (اشتداد مفاجئ في أعراض المرض) ويواجه صعوبة في التنفس. وعلى ضوء المصباح كانت صعوبة تمييز الوجوه فيما إذا كان المريض بريطانياً أو هندياً، فالجميع متخشب كالأموات وشاحب الوجه. ورأينا وجوه الموتى في اليوم التالي. عدت إلى السفينة للحصول على مزيد من البطانيات؛ لأن البطانيات كانت مشبعة بالمياه قبل إرسالها إلى الخيم إلا أن ثقلها كان فيه دفءٌ وعندما عدنا استيقظ بعض من هؤلاء الأحد عشر مريضاً لهذا الوجه الجديد الذي يبذل الجهود لإسعافهم. كان عملاً يستحق بذل الجهد من أجله وهو مد ذراع أو

رفع يد ووضع بطانية فوق مريض أو سحبها للذين لا يستطيعون مساعدة أنفسهم. ولكن عندما سكب الروم الذي له رائحة النفط الأبيض إلى حنجرة رجل من همشاير سمعت غرغرة الموت تصدر من رجل ممدد على فراش مقابل له. أصبح العدد في الخيمة الآن عشرة رجال فقط لقد تخلص واحد من رفاقنا من معاناته.

لقد نقلنا الكثير من الحالات من العربات إلى السفينة حيث غُطِّي كل أنج من سطح السفينة ثم بدأنا بفتح الخيم التي نتمكَّن من تحريكها. وظل بعض المرضى يتعرَّض للمطر طوال الليل وهم على العربات التي كانت أفضل من أن يبقوا فوق الطين. لم يكن هناك مكان دافئ إلا المحرِّك أو مكان طبخ البحار الهندي قرب المدفأة والموقد الذي يشبه المجمرة، وهنا أقام الجرحى الذين يستطيعون الوقوف حلقة وكانت أسنانهم تصطك ورؤوسهم ترتج فوق أعناقهم بالقشعريرة ووجوههم متسخة بالدم والطين وهم يتبادلون بعض النكات على الرغم من كل ما يحيط بهم من ظروف وترى وهجاً أحمر في وجوههم وهم يضعُون السكائر بين أسنانهم كأنهم مجموعة من الملعونين يحاولون إيجاد فسحة من الفرح في الجحيم. سمعت ملازماً ثانياً يقول: «يكون البحث عن الراحة أو القاء تحية مناسبة عبثاً في هذا المشهد العجيب المتجهم». ثم يسأل العريف: «افترض أن هذا يقربنا ربما لرؤية جهنم! أليس كذلك عريف أوميلي». والتفت العريف أوميلي بتصنُّع وأجاب بانضباط: «نعم سيدي» كأمر واقع كما لو كان قد سئل عن مقدرته.

يخترق صوت أحد المدافع البعيدة في أثناء الظلام والمطر حالة البؤس على السفينة. تصيبنا الصدمة عند التفكير بأن الفوضى التي عملناها لا يمكن إصلاحها ومقتل الرجال الذين لا يُحصى عددهم لم تكن تضحية من اجل هدف يستحق أن نقاتل من أجله. وبدون التفكير بها كنا نقاتل بشعور غريزي لوضع حدٍّ ونهاية لها وبدون أدنى شك فإن الأتراك كانوا في موقفنا نفسه. ولم يشعر أي منا بالضغينة تجاههم وربما لم يشعروا بالضغينة تجاهنا أيضاً ومع ذلك كانت الروح المعنوية لا تكل ولا تمل ليس من الغضب ولكنْ من الجنون الذي اجتاح البشرية جمعاء. قد نواجه الموت ببسالة كل يوم إلا ان الشيء الأكثر صعوبة في الفهم في هذه اللحظة كيف يستطيع أي إنسان رأى معاناة هذه الليلة أن يستأنف الهجوم بعزم لا يلين. لا

يمكن إحصاء الخسائر البشرية والمادية لهذا الهدر بالأموات لو عاشوا والجرحى الذين ربما فقدوا أطرافهم وكانت الضربة موجعة تطال روح المعيشة لهؤلاء الذين أصبحوا معتادين على هذا النظام من الأشياء.

قد ترهق الرحلة الطويلة باستخدام العربات والغوص حتى الكاحل في الطين حتى الإنسان السليم والقادر جسدياً. وكان المبتذلون الذين يجلبون الجرحى متصلبين مثل المومياء والبُلهاء لا يتكلمون وهم متصلبون بسبب البرد وكانوا يقومون بالرحلة تلو الأخرى بدون توفر طعام أو دفء فهم يتملقون للبغال تارة ويضربونها تارة أخرى لتجاوز محنة الطين. ولا يعيرون أية أهمية للطلقات أو القذائف أو التعب المضني ومع ذلك وصلوا إلى حدود تحمل للمعاناة. ثم سمعت أشياء صعبة يقولها المبتذل في التعبير عن وصفه عندما قال بأنه أصبح يؤدي عمله على نحو آلي بدون وضع حدود لطاقة البشر وعندما يفشل في عمله كان هناك بعض الشفقة على الجندي البريطاني بعد انهياره. وكان يصرخ والصوت المعذب يصدر من العربة قائلاً: «استمر، ابن الخنزير هل تتركني هنا لأموت؟».ثم يقوم المبتذل المريض بإرخاء سير اللجام الذي يمسك بالدابة ويتعثر ساقطاً في الوحل بدون أدنى شك سينجو وسينال العقوبة إلا أنه في هذه اللحظة أعطى كل ما يجب أن يعطيه. تُرك بعض الجرحى خارجاً طوال الليل ولا بد أن الكثير منهم قد لقي حتفه من الذين يمكن أن يعيشوا لو تم إحضارهم ووجد أحد الأستراليين مضطجعاً فوق الساتر وكان لون وجهه مثل لون الطباشير الزرقاء لقد أصيب الأسد بطلقة ونزف حتى الموت.

ومات الآخرون بسبب التعرض للقصف والإجهاد بدون أن يصابوا بجروح وفي إحدى الحالات لم يستسلم الإنسان المجروح المحمول على النقالة فقط بل الذي جلبه أيضاً حيث سمع صوتاً في الظلمة يصرخ: «في سبيل الله ساعدوني أنا أغرق» وعندما خرج الطبيب إلى الموقع وجد جندياً مبتورة رجله وقام بسحبه برفق خارج البركة وكان من السهولة بمكان أن يعرف الإنسان في تلك الليلة إذا فقد الوعي. ففي الصباح وُجد حاملو النقّالات متروكين في الوحل ميتين ممددين فوق نقالاتهم. وجلب النقل الجوي المحدود مزيداً من الناجين يوم الثاني والعشرين وكان المعاون الهندي الذي أصيب بجروح بداية يوم الحادي والعشرين ممدداً في

الطين حتى ظهر يوم الثاني والعشرين بعد أن اخترقت رصاصة رئتيه ولم يضمد كما لم يوضع فوقه غطاء، وكان فاقد الحس تماماً بعد أن فقد رجليه من جرّاء الإصابة، وكان يستجدي لوضعه في مكان دافئ قرب المرجل. وحمل المقدم على اللوح وذراعه مكسورة وهو مصاب بالشلل بسبب البرد وبعد وضعه أمام المدفأة فترة ساعة استطاع أن يمشي. كان كل مركب تقريباً في النهر مكتظاً بالجرحى المحتشدين على دكة المركب الخالية من أي غطاء يقيهم المطر ولأن الإصابات ازدادت بعد مدينة شيخ سعد فإنَّ المعاناة قد تفاقمت بعد أن نفد الضماد الكتاني والشاش والضمادات ومواد التجبير ولم يكن هناك أطباء بما فيه الكفاية ولا أحد يطبخ الطعام أو يوزعه. وازدادت المعاناة نتيجة البرد والجوع والعطش والأوساخ والتعرّض للعوامل الجوية والإهمال. لم أرَ الرعب الذي أصاب هذه السفن بعد تحميلها ولكني استمعت إلى قصص الرجال الذين وصلوا مدينة العمارة والذين تحدثوا عن عدم إعطائهم الغذاء ولم تقدم لهم الخدمة، كانت قرح الفراش بادية على أجسادهم والبعض كان يحتضر والبعض لم يغير ضماد الميدان الذي وضع أولاً قبل ثمانية أيام وكانت يرقات تدب في جروحهم وهم مصابون بالكنكرين (مرض يصيب الأطراف مثل السرطان) ويصعب وصف القذارة والأشياء البغيضة والمقزِّزة.

كنتُ مع صديق لي يعمل في الكتيبة الحدودية الهندية عندما تلقى برقية من مدينة العمارة تخبره بأن اثنين من أقربائه الضباط قد وصلوا المدينة وهم موتى. حينما قال: «يا إلهي كان هؤلاء أصدقائي كنت أتصيَّد معهم وعشتُ في قريتهم أكلت من دجاجهم وشربتُ من حليب أبقارهم. وعندما تمرَّضت بالتهاب الأمعاء كان محمد علي يعتني بي مثل ممرض. ثم سألني: «ألا تستطيع أن تعمل شيئاً لهم؟»

قلت: لقد بعثتُ ببرقية إلى الهند وإلى الوطن ألتمس منهم تقديم المساعدات الطبية والضروريات للقوات ولكن لم يحصل هذا وعلمت فيما بعد أن الرقيب قد حذفها. أصاب الجرحى الذين قاموا برحلة بحرية في المراكب القلق وسمعت أحد الضباط الذي قال عند وصول المستشفى في مدينة العمارة لصديقه المخلص بصيغة أمر محمد خان: في غضون ساعات قليلة سأموت وسيأتي ممرضو المستشفى ليحملوني بعيداً لكن لا تسمح لهم بأخذي. أود أن أموت هنا بسلام لبرهة من

الزمن، أنا تعبان جداً، انظر إن جسدي يرقد هنا طول الليل والنهار» وأغمض عيني في اللحظات الأخيرة التي تترقب الموت (السلام العظيم) مثل الظلام المعتم الذي يسدل الستار عن كل الجهود البائسة ويعلم بأنه لن يحصل على أية مساعدة مرة أخرى. جلس محمد خان مع سيده وهو ينتحب حتى جاء الحمَّالون مع النقَّالات في الصباح. تسبَّبتْ هذه القصة القصيرة بدلاً من الإحصائيات بقلق لا يوصف في الوطن عن تلك الأيام. ومعها سأنهي قصتي مع الجراح والمعاناة، وقبل المعركة التالية وصلت الإسعافات واكتملت المعدات الطبية والجرحى تحملوا هذه المعاناة كأنها أمر لا مفرَّ منه وهو شائع في كل الحروب. ووصف أحدهم معركة الحنة بأنها معركة القرن العشرين بعد أن استخدمت ترتيبات طبية كانت قد استخدمت في القرن الثامن عشر. ينبغي أنْ تروى القصة الكاملة لتلك الليلة المأساوية. إنَّه التاريخ الذي ينبغي ألاَّ يغفل عن أي شيء؛ لأنه يوجد موضوع واحد يحتاج إلى معالجة في حقيقته المجردة هو الحرب. وكلما سلط الضوء على هذه المشاهد كلما قل احتمال تكرارها للذين يخدمون ويعتقدون بأن الحرب تتطلب تضحيات قاسية ونطلب من الرجال مواجهة آلة الدمار الحديثة بدون موارد للتخفيف من وطأتها يمكن أن يقدمها العلم الحديث.



مود

الفصل العاشر

الهدنة

ظلت السماء تمطر مطراً مدراراً طوال الليل. وكأن آلهة السماوات نزلت إلى الأرض وهدَّدت بوضع نهاية للصراع كله مسببة الطوفان العظيم.وأضحى النهر مترعاً وغمرت المياه معسكرنا ولم تكن سوى عقدة السفينة المكان اليابس الوحيد الذي يمكن أنْ يلجأ إليه الإنسان. لابدّ أن يترك العدو خنادقه الواقعة أمام موقع الجنرال طاوزند في الكوت وينسحب مسافة ألف ياردة. ولم يكن المطوَّقون في حال أفضل منا؛ لأن خنادقهم طافت أيضاً وكان رجالنا في خط النار الأول يقفون في الماء إلى مستوى الخصر وبدرجة حرارة الانجماد. وتعرَّض الكثير من المقاتلين إلى حالات لدغ الحشرات والأفاعي كما يحدث عادة في الغابات. وأُصيب بعض الهنود الذين جلبوا في حالة انهيار بسبب البرد وكأننا نقف فوق مشهد من الطوفان العظيم وكان يبدو حقاً كأنها زيارة إلهية كانت تذهب لتعيد نفسها وتغمر الأتراك والكفار على حدٍّ سواء.

في صباح اليوم التالي الثاني والعشرين وهو يوم الهدنة كان المطر ما يزال يهطل إلا أنه بعد الظهر تحول رذاذاً حيث تعصف الريح الباردة بجلد الإنسان. كانت ليلة مرعبة ووجِد الرجال الأقوياء وهم صرعى نتيجة تعرُّضهم للعوامل الجوية بدون أن يصابوا بجرح واحد. بالكاد أطلقت رصاصة واحدة بعد حلول الظلام وعلى الجانبين حُدِّدت الموارد المادية لغرض الصمود بوجه الرطوبة والبرد. يحتاج الإنسان السليم والقادر لساعتين ونصف لقطع مسافة أربعة أميال مشياً على الأقدام من المعسكر إلى منطقة الأرض الحرام حيث تتم مراقبة الهدنة. وينخلع حذاء الإنسان (البوت) في كل خطوة بسبب الطين اللزج. كان السهل يعج بالعجلات ومُخلَّفات الحرب.

كانت الهدنة فرصة لمشاهدة التركي الذي كان طوال هذه الفترة غير مرئي مثل الألماني في فلاندرز وهو ممدد في خندقه الأمامي وكنا نضايقه ببعض الرشقات وقد يمتحن بقذيفة ترسل فوقه لكنه نادراً ما كان يرد على مصدر النيران إلاّ في حالة الهجوم الذي نشنُّه عليه. لقد ترك العدّو موضعه في المساء في منطقتي شيخ سعد والوادي.

يبدو أن الضباط الأتراك قد حصلوا على الدفء والراحة وكما قال صديقي: كانوا مؤدبين يتمتعون بحسن الأخلاق. كما كان أحد الضباط الذي يضع قلنسوة من الاستراخان (صوف الحمل الصغير) ويركب حصاناً عربياً يبدو وكأنه لا يوجد شعر على رأسه. ربما لم يخوضوا قتالاً بل جاؤوا من خيمهم واختيروا بوصفهم مندوبين لإعطائنا شعوراً بأنهم في رفاهية. قلت لأحدهم: «سمعتُ بأنكم في خيم» ابتسم متملقاً. وقال: «كيف يكون لدينا خيم عندما يكون لديكم هذا القصف العظيم». وكان في كلامه سخرية. لقد استأجرنا السماوات مع مدفعيتنا إلا أنه اعتقد بأنها لم تسبب إلا أذى قليلاً. وسألني: «ما طول الفترة التي تستغرقها الحرب بحسب اعتقادنا». أجبت بعدم الاكتراث: «ربما خمسة أعوام». أجاب «خمسة أعوام، لا يهم. تكون بدون عواقب» وابتسم ليوحي بأن الأتراك يأخذون هذه الأشياء بخفة. وسألته فيما إذا كان هذا الشتاء المعتاد في بلاد وادي الرافدين. أجاب: «تشعر بالبرد، آه، كلا، إنها لم تكن باردة، إنه طقس معتدل».

إنه يؤدي دوراً إلا أنني بدأت أتمنى بأن يكون لدينا رجال يتمتعون بالدفء في هذا التفاوض(الخاص بشروط الاستسلام). كان الرجل الذي يقف بجانبي يرتجف من البرد وفي الصباح، كان يتجوَّل بدون سلاح على الأرض بين رايتين بيضاوين. لقد تعرض هذا الرجل إلى هجوم بعنف في وقت سابق وكسرت ذراعه بمعول وأعتقد بأن ضابطاً تركياً تدخل ليساعده في الهرب بملابسه. لقد أضاع ساعته اليدوية والروبيات التي ادخرها ولم يحافظ إلا على نظارته. قال: «ليس جيداً لقد فعلها الأوغاد الشياطين وسيستغرق الأمر ثلاثة أشهر قبل أن أحصل عليها».

شعر ملازم ثان بأنه أُمسك من خاصرته وفُتش وقد أخذت منه محفظته وساعته

ونظارته الميدانية وحتى رسائله الخاصة لقد سرقوا منه كل شيء يمتلكه باستثناء ملابسه التي يرتديها وهو يقف بها وكادوا يجردونه منها لولا مجيء اثنين من الرجال في الوقت المناسب ففر المهاجمون. ومن الإنصاف القول بأن الأتراك أوضحوا أن هذه الأعمال قام بها العرب ولم يكن واضحاً فيما إذا كان العرب العاديون أم هم بدو غير مسؤولين عن أفعالهم، والعرب العاديون في الجيش التركي مثل العرب الذين لا ترجى منهم فائدة وهم منقادون. وبصرف النظر عن السوط فإنَّ الضابط التركي يكون متعطشاً للدماء وفي إحدى المرات ساعد التركي في إنقاذ واحد من جنودنا من موت محقق. وكان هذا كثيراً بالنسبة للعرب الذين حملوه مسافة مائتي ياردة وضربوه على رأسه وجردوه من ملابسه. وقد أخبرني عن هذا الأمر جندي إيرلندي شاهد الحادث. ربما تكون صحيحة ونستطيع مشاهدة بأن الأجسام التي جلبوها كانت عارية وقد رميت الملابس فوقها بدون اكتراث. وكان لدى أحد الاسكتلنديين صدرية وتنورة وأحد السيخ بشعره الطويل المنحل لديه قميص فقط. وكان الثلاثة يرتدي كل واحد منهم قطعة ملابس واحدة. كان هؤلاء الرجال الأقوياء الاعتياديون البطيئو الحركة يحملون الجثث المعلقة فوق أكتافهم مثل أكياس الفحم أو حزم القش ويلقونها على الأرض حيث تتيبس في الوضع الذي رميت فيه فبعضهم في موقف هجوم شجاع وآخرون تكون أذرعهم ملتفة تحتهم، وآخرون مصابون بطلقة في الرأس أو القلب فالرجال الشجعان الآن تحرروا من اللحم البشري المعذب. قبل ساعات قليلة ساقوهم إلى السهل الذي كان يمشط بالرصاص وإلى موت محقق بمسيرة كل رجلين أو ثلاثة رجال.

لقد شعر الأتراك بالخجل لهذا العمل الحقير بغض النظر عمّن هو المسؤول عن ذلك. كانت هناك جثث لم يستطيعوا جَلبها فقد دفنت عند خطوطهم الدفاعية وأقيمت الصلاة عليها هذا ما أخبرني به الضابط التركي موضحاً بأنه كانت مراسم احترام لم يكن فيها طقوس محددة مسيحية أو مسلمة. لم يكن هناك سوى طقس واحد وهو أنهم ذهبوا بكل معنى الكلمة إلى حضن الأرض الأم عراة كما ولدتهم أمهاتهم.

إن العرب الساكنين على ضفاف نهر دجلة هم نوع أدنى من البدو؛ لأنهم لا

يمتلكون قيماً بل ليس لهم بذرة من آداب السلوك لإنباتها. فهم بصراحة ناهبون يقتلون الإنسان من أجل النهب ويقتلون فريستهم قبل تجريدها من الملابس ويكثرون من التردد لأرض المعركة لأيام من أجل السرقة. يتركون الموتى عراة ومع ذلك فعندما ترى سجناءهم يصرخون من أجل الطعام والشراب ويشيرون إلى الجرحى ستعتقد بأنهم قد تدربوا على المجاملة الدولية[1]. وقد سجل بأنهم أحياناً يعتنون بالجرحى لكن في مناسبات محددة عندما يكون فيها بعض الرجال المسؤولين من شيوخ مؤثرين أو ضابط تركي في الجوار.

وفي الوقت الذي كنت فيه أتكلم مع ضابط تركي جاء جندي يخدمه ومسك بيده بترحاب حتى انتهينا من المحادثة. وكنتُ أتساءل فيما إذا كان هؤلاء الرجال الذين نهبوا ضباطنا كانوا عرباً في الجيش الاعتيادي أو رجال قبائل محليين يتسكعون في الضواحي، وبالنسبة لهذه الكتائب ليس لها زي أو علامة مميزة لهم. إن الضبط والاحترام الذي أظهره الجندي جعلني أشعر أكثر تأكيداً بأن طفيليين هم الذين خرقوا الهدنة وليس لديَّ سبب لتكذيب قصة الأتراك المتعلقة بأدائهم لمراسم دفن موتانا. مبدئياً كان العرب يقاتلون من أجل الأتراك لكنهم أكثر الحلفاء غير المريحين ويوجد بعض التعاطف غير العميق؛ لأنهم مسلمون. قد ينقلبون على أصدقائهم ويقومون بقتلهم ونهبهم إذا ما سنحت لهم الفرص.يقوم الأتراك باستخدامهم لكنهم لا يثقون بهم.

إنهم قوم متقلبون فأحد الشيوخ وقبيلته كان سينضم إلى الأتراك وأصبح ساخطاً عليهم في غضون أسبوع لنقص الحصص الغذائية أو لسبب عابر آخر حيث جلب شكواه في المساء وأصبح بعيداً عنهم في الصباح، فالعرب مكرَّسون للنهب وليست لهم قضية.أما الأتراك فلا يكنون لهم الحب بالرغم من أنه من الطبيعي بأن حالة الجشع العام ينبغي أن تأخذ بالحسبان في توقعاتهم المتذبذبة إلا أنه لا توجد قبيلة في بلاد وادي الرافدين لم تتمرد في بعض الأحيان ضد الحكم العثماني. لقد عبَّر الرياضي البارز سيف الله الذي كان آمر لواء في القسطنطينية عن قضيتنا المشتركة ضد

(1) احترام الدول ضمن نطاق أراضيها لمؤسسات الدول الأخرى وقوانينها. (المترجم).

العرب عندما وقع أسيراً بأيدينا في منطقة العمارة حيث قال: «من الأفضل لو تعاونا لوضع نهاية لهؤلاء الحثالة على أن تحسم خلافاتنا فيما بعد».

كان سيف الله يعرف بأساليب البلد وجشع العرب عندما قدم مكافأة خمس ليرات لكل من يجلب أسيراً وارتفع المبلغ لكل من يسرق جثة من المحتمل أن تسلم. وكان الأتراك يعبّرون عن ازدرائهم لنوعية قتال العرب ولاحقاً في شهر مايس، عندما كنا نتفاوض مع خليل بيك، رفض قبول تبادل العرب مع أسرى الحرب البريطانيين والهنود حيث قال: «إنهم جبناء ويهربون، ماذا أفعل بهم؟

سأطلق النار عليهم إذا ما أرجعتموهم. لماذا استسلموا؟

فالجندي التركي لا يستسلم إلا إذا أطلق آخر خرطوشة لديه ولا يستطيع قتل المزيد، بينما هؤلاء العرب يستسلمون بدون أي سبب مبرر إلا لأنهم جبناء ويريدون إنقاذ حياتهم. بالمقابل فقد أثنى على شجاعة الأتـراك، فالشجاعة الشخصية هي السمة البارزة في الجيش التركي ولا يخجلون من التحدث عنها كما نحن والذي تحدث عنها في سياق الكلام فالشجاعة ترتفع معهم وترتقي إلى الأمام. وقال: سأقول لك ما فعله أحد ضباطنا يتحدث وهو متفاخرٌ قد أصيب الضابط بطلق في حنجرته ولم يستطع التحدث وأشار إلى قلم رصاص وورقة بأسلوب ليدلي بشهادته الأخيرة. وكتب: «بالنسبة لي أنا أحتضر ولكنني أعتمد على سريتي الشجاعة في أخذ الثأر لموتي».

بدون الانقياد إلى المديح غير المدروس للأتراك الذين لهم أخطاؤهم مثل أي إنسان آخر، أعتقد من الممكن القول أنهم يتفوقون على الألمان في المجاملة والشهامة فهم لم يطلقوا النار بتعمد على الصليب الأحمر ولا في طبيعتهم إطلاق النار على حاملي الناقلات والجرحى. كانت هناك حوادث معزولة كما هو الحال في كل الحملات، ولكن في معظم الحالات إذا لم يكن العرب أو الألمان مسؤولين عنها فربما تكون عرضية. ويعد الأتراك شعباً مجاملاً في التعامل فعندما سقط اثنان من طيارينا في أيديهم أرسل الجنرال التركي نور الدين أحد العرب إلى معسكرنا بحسب طلبهم إذ طلبا إرسال حاجاتهم الشخصية. وسلم السياسي حاجات الرجال

وبعض الأموال لغرض شراء بعض الحاجيات إلا أن الأسرى ذهبوا شمالاً عندما وصل الرسول حيث أرجع نور الدين الحاجات والأموال مع رسالة اعتذار وأسف بأن الطيارين كانوا ضيوفه ولن يحتاجوا إلى أي شيء.

لقد كنا نُسخّر كل مواردنا لتدمير التركي لكنه لم يتذمر، وفوق كل ذلك أعتقد أنه لا يحمل ضغينة عميقة تجاهنا. وسألت الضابط الذي يرتدي قلنسوة أستراخان لماذا هم ضدنا؟. وكان يبدو أنه لم يكن واضحا تماما عندما قال بأننا لم نساعدهم في حرب البلقان وتمتم بشيء لم أسمعه جيداً عن السياسة.

في الساعة الخامسة والنصف توقّف المطر وانخفضت الشمس لتبيّن نطاق السماء الذي أطر الأفق. وبعد مرور يوم بدون أن نرى وميضا يلون السماء انتشر الضباب الرقيق الأصفر في أرجاء السهل وألقى اللون الذهبي بظلاله على وجوه الموتى مثل رسالة سلام جاعلاً الجناح البعيد من مدينة بوشتي كو كأنه جناح مُذهّب. وبعد ساعة ونصف انتهت الهدنة ولكنها استمرت في روحها ولم تطلق الرشاشات والمدافع نيرانها في تلك الليلة.

زادت انطباعاتنا بعد الظهر من الشعور بأن الحرب هي هدر غير مُجدٍ. كنا نتمنى بأننا كنا نقاتل الألمان الذين يشكلون تهديداً حقيقياً لحضارتنا وليس هؤلاء المغفّلون العرب والأتراك الذين التفوا حولهم التفافاً مزدوجاً من أجل الحماية.

الفصل الحادي عشر

مع سلاح الفرسان- التقدم على الضفة اليمنى

يسود المناخ الرائع خلال الفترة من يوم السابع والعشرين من كانون الثاني وحتى يوم الثامن من شهر شباط بعد التغيير الذي يطرأ على المناخ حيث يكون صافياً وبارداً مع رياح باردة تيبس الطين ويكسو الأرض الصقيع مما أعاق التقدم في المعارك الثلاث التي جرت في اليوم السابع والثالث عشر والحادي والعشرين على الضفة اليسرى. كانت الأمور تتجه نحو حالة حرب الحصار وكنا نقترب تدريجياً إلى الموضع التركي في منطقة الحنة. وتواردت الأخبار بأن طاوزند وجد تجهيزات جديدة في الكوت يستطيع فيها الصمود حتى شهر آذار وأُجلَ التقدم لحين وصول التعزيزات.

كان رجال الخيَّالة والجهد الهندسي على الضفة اليمنى منشغلين بالاستطلاع وتقييم الموقف. ولم يجر شيء على الضفة اليسرى لذا بقيتُ مع الفِرقة الثالثة عبر النهر. لقد شاهدت أعداداً كبيرة من الفرسان خلال هذه الفترة التي ساد فيها الهدوء المؤقت في العمليات. وكان الاستطلاع يتغير دائماً على النقيض مما كنا فيه من حالة رتابة في المعسكر وأحياناً يكون التغيير طفيفاً مما أدى إلى إضعاف الفارس. ويوماً بعد آخر تتكرر المناورة نفسها. وعلى تخوم المعسكر يظهر البدوي العاطل عن العمل ويوجه طلقات طائشة من على بعد ألف ياردة أو أكثر ليس لها أي تأثير. في غضون ذلك تُرسل قوة إلى الجناح تقوم بالترجل وإطلاق النار وإذا لم يُفرِّقوا نقوم بإنزال المدفع الرشاش فيهربون مولين الأدبار في السراب. وفي غضون نصف ساعة يظهرون ثم يبتعدون عن القوات مرة أخرى مثل رقصة المينويت حيث يقتربون ويطلقون النار ويتقهقرون وأحياناً يقومون بالمناورة على الجناحين. وفي المساء

عندما نعود إلى المعسكر يُصِرُّون على الاقتراب متوسعين تماماً عبر الأفق مثل خط من الأخشاب في السراب.

وعندما تكون لدينا مدفعية ثقيلة فإنَّهم لا يتجرؤون على التعرُّض لنا. يلاحظ كشافوهم حالاً سُلَّم الرصد أو كما نسميه (المنبر) معبرين عن ابتسامة سرعان ما تتغير. بالنسبة لرامي المدفع في هذه الربوة العالية يكون متطرفاً إذا لم يكن في اللغة فإنَّه في السلوك ومنه لا يفهم البدو الرُّحَّل إلا هذا السلوك. تنم حركة الفرسان العرب الذين يركبون خيولاً سريعة وهم قساة عليها عن قلة خبرة. عند التقرب إلى موضع تركي للاستطلاع في أثناء المعركة يرى كشَّافونا أحياناً حشداً من العرب تظهر من كتل معتمة وتنتشر بحركة تشبه المروحة حول الأفق برمته. ينقض هؤلاء الجند غير النظاميين في النهاية لسبب غير ظاهر إلا أن يكون تظاهراً بالشجاعة أو إبداء لغريزة الركض بسرعة وخفة بحركات معقدة على شكل مجموعة مؤلفة من ثمانية أشخاص. وعند سقوط قذيفة أمامهم ينحرفون مثل طيران بط الحذق (طائر بحري صغير) ويقومون بدوران واسع وسريع للخيول ويظهرون على الجناح الآخر.

يكون الطقس خدَّاعاً كما أنَّ الضباب الرقيق أو السراب يعيقنا في تمييز العدو إذا كان ماشياً أو مستخدماً الخيول أو تقدير عددهم. ويتم تعظيم كل شيء فتصبح القرية الطينية كأنها حصن ارتفاع جدرانه عشرون قدماً ومجموعة الحمير كأنها بستان من النخيل وتظهر الجمال في الأفق القريب كأنها أطواق مشتتة عظيمة ولا توجد هناك كتيبة فرسان بالقسوة ما لم ترتكب خطأ في بعض الأوقات من أجل المشاة. وكل ما يتحقق باستطلاع الأرض وانبساطها يقلِّل من أهمية الاعتماد على السراب. أحياناً في الاستطلاع يكون العدو على بعد ستمائة ياردة قبل أن يتمكَّن قائد سرية الخيَّالة من تمييزهم فيما إذا كانوا راكبين أو ماشين على الأقدام.

وبغض النظر عن السراب لا يوجد غطاء نباتي أو قليل في البلد ويحافظ على الضفاف الطينية لقناة الري الجافة أحياناً التي تكون عالية وفي المناطق النائية قد تؤخذ لبناء أسوار المدينة. وتبدو قنوات المياه المَتروكةِ كأنها قناة نفذت فوق مستوى الأرض المحيطة. وتكون التلال الرملية المعزولة المنخفضة فخَّاً تجلب نيران المدفعية وتترك الجناح المعرض على أي جانب.

في حالة عدم وجود مسرح للعمليات الحربية فإنَّ سلاح الفرسان يعد مهماً لنا ، أما بالنسبة للعرب فقد شكّلوا نوعاً من الجيش غير النظامي لمساعدة الأتراك. فهم يحومون دائماً حول جناحنا للاستفادة من أي حادثة أو إرباك يحدث مصادفة في صفوفنا. ويتبعون خطوطنا الخلفية مثل ابن آوى. وفي واحدة من الحوادث كان لا بدّ من فك وثاق الفرسين السريعين في عربة النقل جيبور وترك العربة.

تقدمت مجموعة من العرب لا يمكن وصفها نحو العربة قبل أن يتقدم الحرس المتواجد في الخلف مسافة ثمانمائة ياردة من أجل النهب.

تكون وقاحة العرب أحيانا مسلية، ففي علي الغربي شاهدت مزيجاً من الحشد الغوغائي من القرويين ورجال طاعنين في السن وشباباً يحاولون سرقة عربة المدفع عندما كانت تغادر المعسكر وبتحريكها بهدوء باستخدام الرمح فقد تبددوا شذراً مذراً.

بعد يوم من معركة شيخ سعد طلب القس الملحق بالجيش من العقيد آمر الكتيبة الهندية الذي تحدَّث معه مرافقته إلى ميدان المعركة الذي يبعد ثلاثة أميال في الخلف من أجل دفن الموتى.وقال القس معتذراً: ثلاثة تراتيل دينية ستكون كافية سيدي، أنا لا أريد أن أزعجك إلا أنها الأوامر.أرسل الضابط البريطاني الذي أمضى في البلد أربعة عشر شهراً وحدتين عسكريتين ولم تبعد سوى ثلاثة أميال من مقر الجيش ومع ذلك اختفى اثنان من الضباط عندما كانا يتفقَّدان خندقاً مهجوراً.

ويختفي العرب بالطبع عندما يتعامل سلاح الفرسان مع المسألة. لم نتمكَّن من اللحاق بهم؛ لأنهم يتمتعون بالخفة ويحملون عُدَّة قليلة. ويبدو أن لديهم تجهيزات مستقلة. تبدو جيادهم ضعيفة وفقيرة إلا أنها صعبة المراس وتُغذى جيداً وليس لهم مانع من إنهاكها.

أما ما يحمله الجندي البريطاني فهو مثقل بستة أجزاء من الملابس التي تُحمل ولا تلبس والرشاش والسيف والذخيرة وقنينة الماء والعباءة وبطانيتين وحصص غذائية للطوارئ وحبوب للخيل تكفيه ليوم وعموماً تكون أثقل من الرجل. ويمتلك الفارس العربي حقيبة فيها تمور وحصة غذائية صغيرة من الحبوب لحصانه ولا شيء آخر يقي سلاحه وذخيرته.وهذا أنموذج غير تقليدي والرشاش يكون دائماً من نوع مارتيني

هنري أو موسر وخنجراً أو سيفاً أو كلاهما وحزاماً للخصر ونطاقاً للذخيرة وأحياناً لاسيما سكان المنتفك تكون رمحاً وهو رمح طويل رأسه عريض مثل أسجاي (الرمح الذي تستخدمه القبائل الإفريقية).

لقد علمت الحملة التي استمرت عاماً سكان البدو كيفية إبداء التعامل الأمثل فنادراً ما يطلق البدوي النار وهو على السرج وعندما يترجل يطلق النار وهو واقف أو مثنٍ ركبتيه ويحيك بصلية (طلقات سريعة عديدة) من على بعد ثلاثة آلاف ياردة أو أكثر مثلما يفعل الرجل الصيني كما يقال بأنه ينقر جرس التنبيه أو يضرب على صدره من أجل إخافة خصمه أو يتشجَّع ثم يصبح خبيراً في تغطيته حيث يترجَّل ويتمدد على الأرض لإطلاق النار ويعرف كيف يقف أو يتمدد في وادٍ شديد الانحدار وضيق أو خلف رقعة صغيرة من الأرض فيها شجيرات وسواء تعلم هذه التكتيكات منا أم من الأتراك، فإنَّ البدوي لا يلزم نفسه بنظام محدد مع ذلك. وقيل لي بأنهم لم يتبنوا نظاماً لقيادة الجياد ومع ذلك قد لا تكون هذه صفة عامة بأن المهر الذي يركبه البدوي يقف بانتظار من يركب عليه، فالجياد سهلة الانقياد وتأتي إلى خيمة سيدها وأحياناً تسمح له بالوقوف فوق السرج وهي ميزة مرغوب بها للكشافين ودائماً ما تكون تكتيكات البدو هي الإحاطة بقوة صغيرة وإطلاق النار على الجياد والتقرُّب منها أو قيادة فرساننا إلى كمين مشاة فهم يخافون من الكمين وحذرون من تتبعنا. ومن الطبيعي أن يكونوا أكثر حذراً في الانسحاب عندما ينتظرون حتى ركوب فرساننا أو يكونوا ضمن مدى نيرانهم قبل أن يأخذوا موضعاً آخر. ويهاجمون بأعداد قليلة عندما يكون العدد خمسة أو ستة مقابل واحد ينقسمون إلى مفرزة أو مفرزتين ولكنهم لا يكونون بمستوى وحدة عسكرية أو سرية خيَّالة بزيادة أو أقل من كتيبة ولا يتشجعون بتفوقهم العددي الذي تشتته مدفعيتنا. وقد جرت مناوشة عند منطقة أشجار النرجسية قرب الشعيبة في آذار 1915 وهي المناسبة الوحيدة التي هاجموا فيها. لقد اعتقدوا بأنهم نصبوا لنا كميناً في أرض فيها طين عميق لإلحاق الضرر بنا. كان عددنا أربعمائة وخمسين فارساً مع بطاريتي مدفعية تحملها الخيول وبأعداد كبيرة. ولم يكن لدينا متسع من الوقت لننتظم في صفوف ونسحقهم بل اندفعنا نحوهم بأمر صادر واشتبكنا معهم وعندما انسحبوا أصبحوا تحت نيران مشاتنا التي أوقعت بهم خسائر فادحة وكان أفضل قتال خاضوه معنا.

ومع ذلك فإنَّ الاستطلاع اليومي الذي يقومون به يكلفهم ثمناً باهظاً، فالقذيفة التي تطلق نحوهم تحدث حفرة بقدر ما تفعله الرصاصة التي تنطلق من مسافة قريبة وعموماً كانت هناك إصابة أو إصابتان في الرجال أو الجياد. ثم بعد أيام هادئة جرت معركة حامية الوطيس نوعاً ما في واد صغير وضيّق أو بين التلال الرملية عندما أقدم رائد في الفِرقة السابعة من مدينة هاريانا لانسرز بقصم أحد العرب بسيفه وقتل آخر بمسدسه في الدورية نفسها وقام رجاله بقتل ثلاثة آخرين. كان معه خمسة خيَّالة عندما واجه البدو الذين كان عددهم اثني عشر فارساً وأسقط أحد الفرسان الذي تعلق بأحد أجنحة الجياد. وصعد السوار(الجندي الهندي) خلف أحد الفرسان وأصيب حصانهما أيضاً واضطر الرجلان للجري باتجاه سرية الخيَّالة بكل ما يستطيعونه من قوة بعد أن طاردهم العرب. وكانت الحادثة نوعاً من الحالة الطارئة التي يقضي فيها العرب وقتهم.

كان الوادي واسعاً وعميقاً مع انعطاف وكان الرائد مع رجاله الخمسة مترِّجلين تواً من أجل إطلاق النار على المطاردين عندما أعطى الأمر بامتطاء الجياد والمواجهة بعد أن تبيَّن أن عددهم اثني عشر فارساً فقط. شاهده العرب عندما استدار حول المنحنى على بعد مائتي ياردة وحتى ذلك الحين لم يعتقدوا بأنه سيواجههم وعلى بعد مائة ياردة اندفع واستدار لكنه كان متأخراً. وكان رجالنا مستعدين جيداً واندفعوا نحوهم فأسقط الرائد واحداً منهم عندما أطلق عليه خمس طلقات من مسدسه ونغز الراكبون ثلاثة آخرين بحرابهم ثم طاردوا رجلاً وقوراً يرتدي معطفاً أزرق.

وعندما طارده الرائد ترجل العربي من سرجه وأخذ يصوب بندقيته باتجاه الجانب الأيسر من كتف الرائد الذي أمال حصانه بجانب البدوي الذي امتطى السرج مرة أخرى وصوب باتجاه الهدف مباشرة وأوضح الرائد قائلاً: «وأدركت حالاً بأن البندقية غير محشوة؛ لأنه لم يطلق النار فقد تيقَّنت من ذلك». لذا غرس الرمح وصعد فوقه وطعنه من الخلف وكانت نهاية الرجل الوقور الذي يرتدي المعطف الأزرق وأمسك الرائد قبضة السيف بإحكام وأخرج سيفه وقصم العربي ودائماً ما تكون هذه المسألة الصعبة و«أمضى مثل الزبد». وأخبرني ملازم ثانٍ مسؤول عن الجياد واصفاً حادثة مماثلة في بستان النرجسية قائلاً: «لم أعلم بأني

سأتغلب عليه ولكني سحبت جوادي خارجاً. وقال: تتغلب الغريزة الطبيعية أحياناً على التقليد المتبع في الطعن وكيف أبدى الرغبة بعد المطاردة قرب الشعيبة حينما أراد أن يرى تدحرج رأس غريمه من عنقه. حسناً لقد صرعه وأدركت بأنه أصيب بخيبة أمل في تأثير دراماتيكي.وأوضح بأن رأس غريمه كان بصلابة كرة الكروكيت ومنذ ذلك الحين أصبح متمرساً في الطعن.

كان ذلك في آذار 1915 ولم تقترب كتيبة الملازم إلى الأماكن القريبة مرة أخرى حتى الانسحاب من المدائن في تشرين الثاني عندما فاجأت الكتيبة البدو في وادي القصب بالقرب من النهر وقتلوا منهم مائة وعشرين رجلاً عندما كانوا يتنازعون على غنيمة لسفينة جانحة.

لقد تم التوصل إلى استنتاج بأن العربي على نهر دجلة لم يكن رجلاً رياضياً بكل ما في الكلمة من معنى. ويكون مقتنعاً تماماً بشرف القبيلة ورغبته بسفك الدماء. وعندما يقع رجلان أو ثلاثة فإنَّ الآخرين ينفصلون ليقاتلوا مرة أخرى وليس لهم ميل للإبادة مثلما لدينا.

في نهاية شهر شباط، أصبح البدو أقل رغبة في ذلك. ربما كان السبب بأنه ذهب إلى موطنه أو أن خدمته السنوية انتهت ولم يوقع مرة أخرى بسبب خيبة الأمل لعدم حصوله على أموال والأكثر احتمالاً قصف المعسكر التركي أو أن مقتل «الرجل الوقور ذي العباءة الزرقاء» قد أضعف من حماسته لفترة من الزمن. لقد أخرجناه من الأودية الضيقة والأدغال التي كانت مكاناً له معتاداً للانطلاق منها ومهاجمتنا وبعد تلك الأماكن كانت الاستطلاعات تجري فوق سهل طيني منبسط. تكون هذه الأرض جميعها مغرقة خلال أشهر عدة من السنة وبين الفيضانات تكون الأرض طينية متصدعةً ملساء مثل «بقعة جذام في فروة شعر». في مكان الخضرة قد يدوس شخص على حيوان من الرخويات أو حيوان من الهور متيبس لقد التقطت سمكة في الطين ذات محجر عين غائر وكانت تبدو بأنها إنتاج مناسب للتربة.

أمضيت معظم أيامي في شهر شباط على الضفة اليسرى مع فِرقة الخيَّالة أو حفاري الخنادق. وأحياناً مع كليهما ففي هذا البلد البدوي قد يأخذ الضابط المساح

للميدان أفضل ما في اللواء لمرافقته وسرية أو اثنين من الجياد ونادراً ما يرجع من دون حصول اشتباك.

تجري عملية المسح وتحدد معالم الخريطة بأسماء القبائل المحلية عند عدم وجود معالم طبيعية؛ لأنَّ المعالم لم تظهر على الخريطة عندما أقمنا هنا أول مرة فرسمنا سور خط متعرج من الجنوب إلى الشرق وإلى الشمال الغربي بأسماء القبائل المحلية فتقع بنو لام على جانب وقبيلة المكاصيص على الجانب الآخر من النهر.

وقد واجه المسَّاح صعوبة في التسمية في أرض طينية منبسطة. لا يوجد شيء بارز له يمكن تسميته حيث لا توجد أشجار أو تلال أو أبنية تحول دون تدمير أكواخ الطين وأكوام البهوسا والكُوَر (وهي هياكل طينية تشبه الأفران يخزن فيها العربي علفه). لذا أصبحت الخرائط التخطيطية تنقط «أكواخ الطين» و«القرية العربية» و«الأكواخ المهدمة» و«حائطي الطين» إلى أن أصبح التشويش أم الاختراع. وقد ذُكرت هذه التسميات في سفر التكوين أو الأكثر دقة كتاب العهد القديم فلدينا «أسوار أريحا» و«معبر العشية» و«ركن الثعبان وسدوم وعمورة». وكانت أبراج الساعة المقامة في معسكرنا بأسماء مثل «سلم يعقوب» و«برج بابل». وذكرت الكتل الطينية في ستونهج[1] واسم واحد وهو امرأة لوط. كانت الشواخص علامات تُرى على بعد أميال وفي السراب تلوح بالأفق بكبر كاتدرائية بول.

يلعب هذا السراب الراقص مائة لعبة. ففي إحدى المرات وضع صديقي الجندي المتخصص بحفر الخنادق عمود اتجاه لمسح بوصلة موشوري وضع كومة صغيرة فوقها علم وعندما رجع إلى المعسكر قام بإنزال العلم. وترك الكومة على بعد ميل خلفه وعندما التفت إلى الخلف شاهد ما كان يعتقده بأنَّ عربياً كان يطارده فاضطجع وصوب بندقيته وطلب من مراسله (الجندي ملحق بضابط) أن يفعل الشيء نفسه. فقاموا بالتربص وانتظار العربي الذي استمر بالمشي بخطى سريعة وواسعة تعصف الرياح بعباءته. ومرت الدقائق ولم يتوقف عن الحركة ومع ذلك لم يقترب ثم قاموا بالاقتراب فوجدوا كومة تراب صغيرة مرتفعة بمقدار قدم عن الأرض.

(1) نصب تذكاري في انكلترا أنجز حوالي 2950 ق.م وكان يستخدم في الطقوس الدينية. (المترجم).

وقد يواجه المرء تأثيرات جوية في الصحراء في الليل وفي النهار أيضاً. ففي إحدى المرات، كنت خارجاً مع فِرقة الخيَّالة في غارة جرت في إحدى الليالي ضد قرية سيد هاشم. كانت السماء غائمة ومظلمة تماماً والقمر غائباً وبالكاد يستطيع الإنسان رؤية الأشياء على بعد ياردة من أمامه. ومع ذلك كان هناك أفق لرؤية الأشجار والصواري فوقها كما في الميناء وأي تغيير في لون الأرض يشوِّه مظهر كل شيء. يظن الشخص بأن إنساناً يأتي على جبل أو بركة ويبدو اللون الأسمر يرتفع من اللون الرمادي واللون الرمادي يتداخل مع الأسمر لفترة طويلة.وكنت مقتنعاً بأني كنت أركب في ظل سدٍّ عالٍ وفوقه لا أستطيع أن أرى سوى السماء. والتفتُ باتجاه محدد لأتجنب ما كنت اعتقده ماء فوجدت ما بحسبته ضفة على ارتفاع ستة أقدام كان سهلاً مختصراً بيني وبين الأفق. كانت الأرض رخوة بعد المطر ولم تحدث سرية الخيَّالة ضوضاء ولم تسمع لمسافة مائة ياردة ولم تُرَ لمسافة عشرين ياردة. تَوقفنا قبل الفجر وكان الضوء ينبلج ببطء ولم نستطع رؤية أي علامة للقرية التي كانت هدفنا. كانت هذه القرية أو المخيم من أصدقائنا ولم نخض معركة معهم إلا أنه كان لدينا سبب للاشتباه بأن رجال القبائل الأعداء كانوا ينتهكون ضيافة الشيخ لذا خرجت قوة المشاة من المعسكر في الساعة الرابعة وعشر دقائق فجراً وكان ضوء النهار يكشفنا لهم وطوقناهم بطوق فولاذي رهيب.

وعندما لاح المخيم للعيان وجدنا قوات المشاة قد طوَّقتهم عندئذ سارت فِرقة الخيَّالة بخبب وأصبحت زريبة الطين والأجمة بحلقة داخلية تعج بالعرب الذين جلسوا بدون حركة وبسكون يحملقون مندهشين ما الذي اقترفوه وماذا يمكن أن يكون كل هذا التظاهر ومن الواضح أنه قد لا يكون نهاية لهذا العقاب وبدون شك أنهم اعتقدوا أن هذه القوة الكبيرة التي اقتربت منهم في المساء أتت من أجل تمزيقهم إرباً إرباً في الصباح. وربما كان يجول في خاطرهم بأنهم قد ارتكبوا ذنباً يتعلق بالحنث باليمين. ولكن لم يظهروا أي إشارة من الإدراك ولم يعيروا أي اهتمام وكانوا يحملقون في الأفق فقط حيث تظهر رؤوس جنود مشاتنا التي أوقعتهم في هذا الشرك أو كانوا يضحكون علينا بهدوء في داخلهم ولكن لم أعرف السبب. قد يكون الانحلال الذي هم فيه لبذرة نمت بعيداً عن البذرة الحقيقية للبدوي؛ لأنهم تطبعوا

بالخيانة وعدم الاستقرار والنهب. لقد توارث هؤلاء القرويون في الأقل صفة غريزية أرستقراطية عامة للشرق وهي أنهم لم يتخلوا عن عواطفهم.

كان هناك الكثير من العمل لا بد أن ينجز في المعسكر. عند الفطور سأل شخص: «هل سنهاجم الناس أم نعاقبهم فقط؟». حصلت بطارية مدفعية على دعم كتيبتين لقصف موقع بيت عيسى. ثم جاء الجنرال وقرر إرسال فِرقة الخيَّالة لسحب الدوريات التركية من تلال الجُميلات لتقدير حجم قواتهم بدون أن نكشف أنفسنا لسبب غير مبرَّر أو قد نعطيهم طُعماً لإيقاعهم في كمين لقوات مشاتنا في طريق عودتنا إلى المعسكر؛ لذا تناولنا الفطور والشاي وتوقَّعنا أننا سنمضي يوماً هادئاً. قمنا بقصف بيت عيسى على الرغم من أننا لم نكن متيقنين بوجود شخص في الموقع. وانسحبت الدوريات التركية من الجُميلات وتم اكتشاف حقيقة بأن هناك مزيجاً غامضاً يربط الرمل بالإنسان في السراب ففي طريق عودتنا نصب مشاتنا كميناً محكماً حيث وقف كل جندي خلف شجيرة طبيعية صغيرة ولم أكتشف ذلك، إلا أن التركي لم يكن من السهولة استدراجه فالستون رجلاً الذين كانوا يشبهون الأعمدة توقفوا حالاً ورجعوا وعندما عاد المبشرون وجهت المدفعية قذيفة أو قذيفتين سقطت بينهم ثم تلاشوا في الأفق. لم يكن الإجراء فعالاً لكنه واحد من قواعد الحرب التي يجب أن نشغل العدو فيها ونخدعه ونربكه في الخطط التي نضعها، وفي هذا الصدد فقد نجحنا نجاحاً باهراً. كان هناك رضاً ؛لأن لدينا قوة استطلاع وأن الصحراء لم توهن عزيمتنا. كما إنها طريقة ممتعة لانقضاء يوم مع فِرقة الخيَّالة لوجود أفق غير محدود على مدى نظر دوريات العدو طول النهار مع قليل من الطعام والمدافع الرشاشة المضيئة ينسى فيها الإنسان الحرب وأحداثها المأساوية. إنه هواء نقي ودائماً ما يبقي السرابُ العقلَ في حالة تفكير دائم. فعندما شاهدتُ أول صف من البط في منطقة جحيل عندما قمنا في جولة حول بحيرة البراهام بحسبته سرية مشاة. وفي الصباح الباكر يظهر السراب أشياء تبدو بأنها فِرقة من الخيَّالة التركية مثل صف من المساند بأرجل ممدودة. وبعد فترة وجيزة كل شيء يرفع أقدامه وحيث تكون القوات تكون هناك منضدة طافية. وتختفي الأرجل ويكون الجمل قبل ساعة كأنه سفينة معلقة في الهواء. وتشبه الكومة الصغيرة دخان قذيفة منفلقة مع شريط أفق واضح تحتها ومع

ذلك قد تكون هناك أرضٌ منبسطة ليس لها لون ويكون دائماً تغذية للخيال. كانت أياماً ممتعة وحتى ينسى الإنسان آفة الفشل في هذه الحياة المفتوحة والهواء النقي. وكنا دائماً ما نحتفظ ببريق أمل خافت. «وبالطبع» لا بدّ أن نأخذ الكوت وهذا أمر مفروغ منه. وكان أسوأ شيء أن نُقرَّ بأن هناك شكاً في ذلك وقد يكون شعور سيّئ وغير وطني يوهن عزيمة ضابط الكتيبة الذي يعتمد على الثقة التي يمتلكها ومع ذلك كانت الوسائل بعيدة المنال.

على أية حال، في شباط سنحت فرصة لتوجيه ضربة للأتراك قد تغير الموقف برمته. فقد واجهت خنادقنا على الضفة اليسرى للعدو عند منطقة الحنة ولكن لم تكن هناك قوات تركية على الضفة اليمنى ما عدا الدوريات والمفارز بالقرب من منطقة السن، ولا يوجد شيء يمنعنا من الاستيلاء على الموضع الأمامي هنا إذا ما قررنا ذلك ويمكن أن نستولي على اثني عشر ميلاً أمامنا. ولكن بدون السيطرة على النهر فإنَّ هذا التمدد سيشكل عبئاً على النقل البري الذي نستطيع تلبيته. ومن جهة أخرى، كانت هناك شكوك كثيرة تحوم حول وجود ممر بهذا الطريق ولكن كان هناك أمل بأنَّ مجرد وجود رتل يعمل بهذا الاتجاه له تأثير معطل ويشكّل تهديداً وضغطاً على جناح العدو وخلفيته ونزيح الأتراك بدون أن نتعرض إلى خطر عند عبورنا النهر لنهاجم العدو. وهكذا اتخذت نصف الإجراءات ولأنَّ العمليات كانت مؤقتة فقد ضاعت الفرصة لبناء جسر عائم في النقطة التي رغبنا أن تكون منطقة العبور لنا. وفي النهاية وبالرغم من كل هذه التجربة أصرَّت هيئة الأركان على اعتبار التركي شخصاً جباناً وخائفاً ويهرب عند أي استعراض للقوة. كانت المسيرة الليلية ليوم الحادي والعشرين من شباط أكثر عمل فيه إثارة من هجومنا المفاجئ على قرية سيد هاشم لتحقيق هدفنا، فالأرض الضيقة الطويلة الممتدة على طول النهر قد سيطر عليها تجمع معادٍ للعرب. وكانت فرصة لشن هجوم مباغت خلف منطقة الحنة من أجل الإحاطة بالقوات الماسكة التي تقدر بستة آلاف مقاتلٍ بعد أن نقوم بقطع التجهيزات عنهم ونجبرهم على الاستسلام وبالسيطرة على النهر يكون الاندفاع على الضفتين لموضع جديد يهدد منطقة

السن. يعطي انعطاف النهر عند منطقة أبي رمانة وتلال ماسون فرصة سانحة لهذه العمليات فالتلول الرملية عند الشريط الضيق الواقع بين نهر دجلة والهور التي من المتوقَّع أن يعبر منها العدو تشكل تهديداً لخلفياتهم إذا ما حاولوا الانسحاب.

قُدِّمَ هذا المخطط إلى قائد الفيلق ولكنه لم يوص به لغياب الجرأة وحذف الجزء الضروري منه. لقد اتخذ قرار بالمسير ليلاً وأخذ موضعٍ على التلول الرملية في الساعات الأولى من الصباح وقصف معسكر العدو من الخلف. وفي الوقت نفسه اندفع اللواء بإمرة الجنرال نوري عبر الهور الواقع على الضفة الشمالية مقابل الجانب الأيسر للعدو. وكان لا بدّ من الاقتراب من تلك المنطقة والسيطرة عليها عند الفجر وإزاحة تجمع العدو هناك. وفي طرف هذه المنطقة القصيرة وعلى ضفة النهر كانت هناك تلول بارتفاع عشرة أقدام وهي ربوة مرتفعة في هذه الأرض المنبسطة المحيطة بها ومن هذه المنطقة ذات الأفضلية نقوم بقصف معسكر الأتراك من الجانب الآخر للنهر عند انبلاج الضوء.

كانت ليلة قمرية عندما تقدمنا وكان باستطاعتنا رؤية الأشخاص على بعد خمسين أو ستين ياردة وعلى بعد مائة ياردة يندمجون مع الضباب. وكان عملاً مقلقاً للمرشد الذي يقود الرتل.فكان لا بدّ أن يضع أمامه البوصلة على طول الوقت ولا بدّ أن يحسب خطواته ويتذكر بأن خطواته الواسعة تكون أقصر في الظلام ولن يرى أي شيء طوال الليل للدلالة أو إرشاده إلى الطريق الصحيح إذا ما أضل الطريق. ولا بدّ أن يركِّز ذهنه على شيء واحد في المتناول ولا بدّ أن لا يسمع أي حديث أو اقتراح فكل شيء يعتمد على وصوله إلى النقطة المحددة في الوقت المحدد.

كان كل شيء هادئاً إلى أن وصلنا إلى مخيم العرب عندها نبحت جميع الكلاب في المكان. وفجأة وعلى بعد مائة ياردة فُتِحَ وابل من النيران واعتقدتُ بأننا اقتربنا من موضع خنادق قوية. رمينا جميعاً أنفسنا على الأرض المنبسطة وانتظرنا سير الأحداث بعد أن ترجَّلت من الفرس التي كنت أمتطيها وفي تلك اللحظات يسعى الإنسان إلى حماية أحب حيوان له في العالم، لذا حاولت حماية حصاني إلا أنه كانت هناك منغصات في عدم معرفة الاتجاه في الظلام وقد تصبح الكتل البشرية

على اليسار في أي لحظة يتحول فيها خط النار إلى جانبنا لأننا كنا بينهما ومما يفرح أن هذه القوات أوقفت إطلاق النار ولم تطلق النار لشيء لم تشاهده، وتحول وابل من إطلاق النار إلى رمي متقطع ثم تغير اتجاه إطلاق النار ونادراً ما يكون باتجاهنا. واشتبك حرسنا المتقدم مع دورية خيَّالة تركية وعندما أدركوا أن انسحابهم انقطع بواسطة النهر خلفهم قام الأتراك بإجراء الاستحكامات وهاجموا ببسالة خطنا وأطلقوا النيران وهم ممتطون جيادهم، وعلى مسافة عشرين ياردة فتح حرسنا المتقدم النيران باتجاههم مما دعاهم للانحراف مثل رحلة البط البري فاخترقوا رتلنا على يسارهم وترك نصف عددهم في الميدان وأسقط اثنان منهم بواسطة مسدس ضابط عندما قفز في الوادي الضيق من أجل الاحتماء. ترك الضابط التركي خلفه حذاءه ورمحه المطلي من أجل تأمين هروب مناسب له.

حدث هذا كله في نصف ليلة وهكذا اتخذت التلال عند انعطاف النهر مخططاً واضحاً. وكانت مدفعيتنا على وشك دخول المعركة وكنا نسرع هناك لرؤية الفعل القادم في مسرح الأحداث. كان الأتراك ينعمون بالدفء في معسكرهم الواقع على الجانب الآخر من نهر دجلة. قد لا تساورهم الظنون بأننا جئنا مع مدفعيتنا من أجل السيطرة على العمق. ومن الطبيعي أن يطلقوا نيران رشاشاتهم التي كنا نسمعها من جانب على أنها مجرد استئصال بؤر استيطانية.

كان إيقافهم مفاجئاً ودراماتيكياً وعند سقوط أول قذيفة على خيمهم كان هناك فرار جماعي لحيواناتهم المخصصة للنقل. وبدأت الجياد والبغال والإبل والحمير تفرُّ عبر السهل والكثير منها معلق وبدون سرج وبعضها ممتطى عليها وقسم غير ممتطى عليه. ومن فوق تلالنا المشرفة على الصحراء برمتها مثل صالات المدرج الروماني نستطيع أن نراهم يظهرون وينتشرون في خطوط سوداء باتجاه الغرب. عملت الأهوار الواقعة في الشمال على تقييد خط الانسحاب؛ لذا فإنَّ التيار المتزايد مرَّ على بعد ألفي ياردة منا وكان لمدفعيتنا تأثيرها المميت عليهم. كانت القضية من جانب واحد ويشعر الإنسان أنه في مشهد لمسرحية رومانية ممتعة إلا أنَّ المشهد يظهر أن الساحة كانت غارقة بدماء الرجال والحيوانات. وانتاب الجنود من النبال

(كورفاس) الفرح وهم يحفرون بجانبنا. لا يشعرون بوخز الضمير ولكنهم كانوا مستمتعين بهذا الاحتفال للتماشا[1].

شاهدنا ثلاثة مدافع تغادر معسكر العدو وهي تثير الصخب وكما توقعنا فقد فتحت نيرانها مباشرة نحو التلال وكانت رماياتهم مباشرة على التلال ولكننا حفرنا مواضع لنا ولم تزد إصاباتنا على مدى النهار على عشرين إصابة.ولابدّ أن تكون خسائر الأتراك جسيمة عندما كنا نقصف تجمعاتهم. لقد ذكّرتني مطاردتنا لهم عند الفجر وقصف معسكرهم ثم فرارهم الجماعي المذعور في جنح الظلام بالاضطرابات على بحيرة بني جحيل[2] عندما يزحف إنسان على مجموعة من الطيور البرية غير المثيرة للشك. كانت خطوة مفاجئة موفقة وسار كل شيء هو كما مخطط له باستثناء من كانوا مختبئين ولم يتزحزحوا ولم تفر إلا وسائل نقلهم. إلا أن هذه البطاقة كانت في أيدينا ولم نرها ويعني أن العدو كان غير قادر على الوصول إلى مدافعه طول النهار لاتخاذ رد فعل فعّال. وما يؤسف له أننا لم نلعب اللعبة الأكثر جرأة وكان باستطاعتنا إنجاز جسر عائم بيوم واحد مكون من عوامتين أو ثلاث ويمكن أن تصل العبّارات إلينا في مسيرة ليلة. وكان يمكن أن نبدأ العمل في الساعة السادسة صباحاً وكانت الأرض على الضفة المقابلة واضحة ونسيطر عليها من التلال التي بحوزتنا ولم تكن هناك مقاومة. ولو جلب العدو تعزيزات في الأرض المفتوحة لتعرّضت إلى إطلاق نار مباشر لمدفعيتنا بعد أن حُيِّدَ الجسر الذي عبر عليه ستة آلاف تركي في موقع الحنة وبتوقف الإمدادات لهم فهم لا يستطيعون الصمود فترة أسبوع. ولو ظهروا لتعاملنا معهم من جناح الفِرقة السابعة التي كان أفرادها متحصنين ومستعدين لهم لمتابعتهم ومضايقتهم بعد أن ضيعنا الفرصة الذهبية.

وفي غضون ذلك كانت ألوية أخرى تعبر وكان الأمل الوحيد للعدو هو شن هجمة من موقع السن وهذا غاية مرادنا وبدلاً من ذلك تمتّعنا بيوم من التراخي. وفي

---

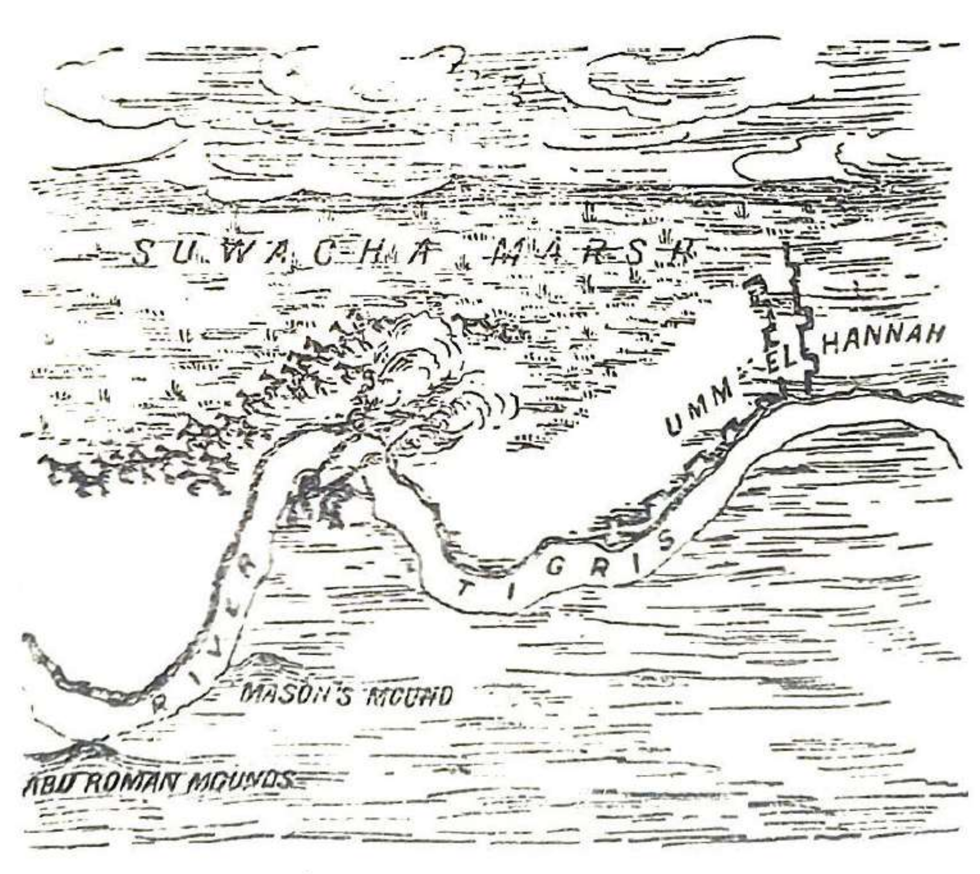
(1) التماشا هو فيلم هندي درامي رومانسي عرض عام 1914 في فرنسا وفي طوكيو وفي المدن الهندية ويتحدث عن شخصية فيد الذي يفقد ثقته بنفسه من خلال العيش وفقاً لاتفاقيات اجتماعية متوقعة منه.(المترجم).

(2) بحيرة في باكستان.

المساء تحصَّن الأتراك على طول النهر. في الصباح قاموا بقنص أفراد مدفعيتنا وهي البطارية التي أطلقت العنان لخيولهم وجعلتهم يختبئون خلف مدافعهم. وقد حال القنص عبر النهر من تزويدنا بالماء.

لم تكن الطوافات الوهمية التي أعلنا عنها لمشروع العبور في تفكيرنا بينما حقَّق العمل السابق لأوانه العبور الحقيقي الذي كان كل شيء فيه حيوياً. لم تكن المسألة خطرة جداً فحسب بل مستحيلة؛ لأنَّ الطوافات الحقيقية قد أرسلت يوم السابع والعشرين عبر منطقة العورة ولكنها كانت متأخرة جداً. لقد استولينا على تلول أم الصون وأبي رمانة ونقلنا مقرّ الفِرقة الثالثة إلى مضيق(تورني). وأمضينا الأسبوع اللاحق نتدَّبر أمر المشكلة المعقَّدة للمعسكر المتقدم الذي لا يحصل على الماء.

لقد قمنا بتقديم خط نيراننا مسافة ثمانية أميال على الضفة اليمنى ولكن لم نتمكَّن من زحزحة الأتراك في منطقة الحنة بالنيران المنتظمة التي توجهها مدفعيتنا أو تمديد مواصلاتنا النهرية وكان موقع السن العدائي أمامنا سليماً ويشكل خطراً علينا.



انعطاف النهر عند الأبنية و متاريس أبي رمانة

الفصل الثاني عشر

النقل

لو جرى تقدم بطيء وواثق ومدروس فإنَّ خط سكك الحديد الذي يتبع نهر الفرات أي خط زبير- خميسية- نجف هو الطريق الأسهل إلى بغداد. كانت مواصلاتنا تمر عبر أراضي وادي الرافدين الغنية. ولو تقدَّمنا ببطء إلى بغداد عبر مناطق النجف وكربلاء الصديقة حيث يُضمر العداء الواضح للأتراك لكان أفضل. وقد رسم الألمان هذا الخط في نزولهم إلى الشرق عبر بغداد. في البداية لم تكن لدينا رؤية واضحة لبغداد بل نتبع العمل المتداخل الذي يتصاعد وفق طموحنا والإنجاز الذي تحققه قواتنا الصغيرة الباسلة. واخترنا نهر دجلة لخط التقدم السريع الممكن والوحيد. وكان لا بد أن نقاتل الأتراك حيثما وجدناهم. ولغرض مقاتلتهم وإلحاق الهزيمة بهم، كان لابدّ من الاستمرار في هجومنا لتكبيدهم خسائر جسيمة وكان لابدّ من تأمين مواصلاتنا. كل شيء في بلاد وادي الرافدين كان يعتمد على النقل. ومن التقدم الأول من القرنة في (مايس 1915) إلى هجومنا الكارثي على بغداد ثم العمل الأكثر مأساوية في محاولة تحرير الكوت كان النقل النهري غير ملائم وأضعف القوة المهاجمة أو شلَّها وحال دون ملاحقة الأتراك بعد معركة كوت العمارة وتدمير جيشهم. ومنحتهم فترة ستة أسابيع للتهيؤ وإعادة التنظيم قبل البدء بتقدمنا من العزيزية فضلاً عن إرسال تعزيزات حاسمة لمواجهتنا في منطقة المدائن التي كانت السبب الرئيس لاستسلام الكوت. لقد كان لدينا عشرة آلاف جندي مشاة واثنا عشر مدفعاً في البصرة عندما كنا نقاتل في منطقة الحنة ولكن لم تكن هناك سفن بخارية متوفرة لنقلهم إلى الجبهة. وكان بالإمكان زج اثني عشر رشاشاً وستة وعشرين مدفعاً في معركة الدجيلة لو كان لدينا نقل لهم.

وضعت الخطط للتقدم واستدعيت التعزيزات إلا أن مسألة نقلهم إلى الجبهة وتسليحهم وإطعامهم هناك لم تؤخذ بالحسبان من قبل سيملا (مقر الحكومة الهندية) التي وضعت الخطط للتقدم ووافق عليها الوايت هول (مقر الحكومة البريطانية). علاوة على ذلك، فعندما يتطور هجومنا لم تكن هناك تدابير موازية للنقل والصيانة والتجهيز وكلما تزداد القوة تصبح تسهيلات التفريغ في الميناء والتحميل في النهر غير مناسبة لتلبية الطلب المتزايد، ويكمن أصل سبب فشلنا في عدم توازن أهدافنا السياسية مع وسائلنا المتاحة. لم يكن تجهيز السفن يتلاءم مع خط طول مواصلاتنا التي تتغير وفق سياستنا المرسومة. وعندما أدركت هيئة الأركان في بلاد وادي الرافدين وسيملا بعد ثمانية أشهر من بدء الحملة العلاقة بين التعزيزات والنقل والمتطلبات العددة للخط المطول قُدمت الطلبات لزيادة قدرة الشحن. إلا أنَّهم أدركوا أن عدد السفن المطلوبة غير موجودة في الهند أو في أي مكان آخر، وكان لا بد من بناء أسطول من السفن التي تبحر في المياه الضحلة والمناسبة للإبحار في نهر دجلة إلا أن الأمر قد يستغرق سنة بعد إصدار الأوامر وفي بعض الحالات قد يستغرق ثمانية عشر شهراً لبناء سفينة جديدة واستخدامها في بلاد وادي الرافدين ومن الصعوبة بمكان فهم فشل هيئة الأركان في السيطرة على وضع النقل الذي أصبح متأخراً جداً لأن أسطول نهر دجلة كان يمكن أن يجري وفق مسألة حسابية.

وبدون سكك الحديد ستكون هناك حاجة إلى الكثير من السفن وسفن القطر والبوارج والزوارق النهرية. أي بمعنى يمكن أن تسلم أطنان من المواد والحصص الغذائية إلى القوات المتمركزة في أماكن بعيدة من القاعدة كل يوم. ويبلغ استهلاك فِرقة في الجيش أطناناً من المواد.

هكذا، عند الأخذ بالحسبان عدد القوات فإنَّ مسألة التجهيز تصبح عملية حسابية سهلة جداً؛ لذا تحتاج الفِرَق الثلاث أطناناً محسوبة وكلما ازدادت المسافة بين القاعدة وأماكن القوات كلما ازدادت الطلبات بين البصرة ومنطقة الفلاحية التي تستغرق فترة عشرين يوماً في أقل تقدير. مع ذلك في حزيران 1916 وعلى الرغم من كل جهودنا لزيادة الأسطول لم يكن النقل المتاح كافياً لتعزيز القوة المستنزفة في الجبهة. لم تجهز القوات بحصص غذائية كاملة مطلقاً وأي مسافة بعيدة ستفرض آلية

تجهيز جديدة إلى النقطة المراد الوصول إليها. وكانت القوة نفسها تعاني على بعد مائة ميل من العوز الذي يحدث في الكوت وفي المدائن حيث كانوا يتضورون جوعاً وكانت بغداد بدون مد شبكة سكك حديد هدفاً مستحيلاً.

كان ترتيب التقدم من منطقة علي الغربي يستلزم نقل القوات أولاً ثم المواد ثم النقل البري وآخرها الإسعافات الطبية وهذا الإجراء على النقيض من أي حرب نهرية أخرى يتم فيها تهيئة المواد ثم النقل ومن ثم القوات. إلا أنه من غير الإنصاف إجراء مقارنة بين تنظيم الحملات في بلاد وادي الرافدين وبلاد وادي النيل فعند تقدمنا للخرطوم لم تكن لدينا شواغل عسكرية بينما الأمر مع الهند والعراق مختلف. وعند الأخذ بالحسبان ما أعطي للقوات في فرنسا ومصر وشرق أفريقيا كان من الصعب لهذه القوات وضع موطئ قدم على الأرض اليابسة في بلاد وادي الرافدين. وعند وضع موطئ القدم كان لا بدّ أن يكون لدى القوات سكك حديد تؤمّن التقدم وتعززه خطوة خطوة إلى الكوت والعمارة ثم إلى بغداد.

وستؤخذ بالحسبان في الصفحة اللاحقة من الحملة العوائق التي كان لا بدّ أن نتجاوزها وكيف تم التعامل معها ولماذا حصل الفشل في هذه المرحلة. وذكر الجنرال لايك في إحدى خطاباته عدد البواخر المتوافرة في كانون الثاني 1916 عندما غادرت القوة منطقة علي الغربي من الناحية العملية العدد نفسه في حزيران 1916 عندما بدأ أول تقدم في نهر دجلة من القرنة. وكان لابدّ من زيادة هذا الأسطول ضعفين أو ثلاثة أضعاف أو أربعة قبل أن تكون بغداد في مرمى البصر. ومع ذلك في البداية عندما كنا قريبين من قاعدتنا فإنّنا أفضل من الأتراك في النقل. وحتى عند منطقة العورة التي تبعد مائتين وستين ميلاً عن النهر لدينا أفضلية عليهم وكما يعرف الجميع أنَّ خط النقل الأول يحمل الذخيرة والمعدات التي تكفي الجيش في الميدان ليوم واحد ويحمل الخط الثاني الحصص الغذائية اليومية والفرش والبطانيات ويكون الخط الثالث للاحتياط العام ومنه تجري القضايا اليومية. لم تكن هناك قاعدة تتعرَّض لنيران العدو وخط مواصلاتها يزيد على ثلاثمائة ميلٍ؛ لأنها ستواجه صعوبة عند عدم الاعتماد على النهر أو سكك الحديد.

في بلاد وادي الرافدين، خدم نهر دجلة بوصفه خطاً ثالثاً كلاً من البريطانيين والأتراك على حدٍّ سواء. وبالرغم من حرية وصولنا إلى البحر لم نتمكّن من زيادة نقلنا النهري واستكماله بينما الأتراك استفادوا من أسطولنا الذي تركناه لهم. كان لديهم خمس بواخر نهرية كبيرة شمال كوت العمارة إلا أن هذه البواخر لا تستطيع الابتعاد عن قاعدتها في منطقة شومران الواقعة على بعد خمسة أميال شمال موضع الجنرال طاوزند الذي سيطر على النهر وقطعت خط مواصلاته في الجنوب. ومن شومران، تُنقل التجهيزات إلى القوات المتمركزة على ضفاف النهر بواسطة الجمال والحمير وفيما يتعلق بالحصص الغذائية كان البلد في حالة اكتفاء ذاتي. كانت القوات والمعدات تُحمل باتجاه الجنوب من الموصل إلى بغداد على الجلج[1]. يتم تفكيك الطوق في بغداد ويتم إعادة الخشب الصلد براً لتكملة نقله النهري كان لدى العدو سكك حديد تمتد إلى مدينة سامراء الواقعة على بعد تسعين كم شمال بغداد وبعدها كانت فجوة على امتداد ثلاثمائة ميلٍ عبر الصحراء إلى وجهتها النهائية عند رأس العين. وعندما اكتمل هذا الخط وشُقت القنوات عبر جبال طوروس وأمانوس ولطول فترة زمنية غير محددة كان من الواضح أنَّ الأرجحية في نقل القوات والمعدات لصالحنا. إنَّ قدرة التحميل لأسطول نهر دجلة في زمن تقدمنا لا يساوي خطاً منفرداً للسكك الحديد بمعدل تجهيز قاطرات السكك الحديد وحافلاتها.

عند توفر سفن كافية وخط مرور منظم فإنَّ النهر له ميزة فضلى على سكك الحديد لقلة عدد النقاط غير المحصنة ويتطلب وجود قوات أقل لواجب الحراسة لكن الصعوبات الجانبية لطريق مستمر ستظهر أكثر في المياه الضحلة والمناطق الضيقة الواقعة بين ضريح العزير وقلعة صالح حيث تواجه السفن صعوبة في المرور وحتى القرنة يكون شط العرب صالحاً لملاحة البواخر بحجم أربعة عشر قدماً التي تشق عباب المحيطات. علاوة على ذلك فإنَّ سفناً ذات غاطس أربعة قدم تتعرقل مرارا باستثناء موسم الفيضان إلا انه ينبغي أن يوقف العمل بها في المساء. لقد ألحق أسطول النقل ومعظمها البواخر المزودة بعجلات تجديف ذات الحمولة

(1) الجلج هو طوق خشب يُشد بعضه إلى بعض ويركب في نهر دجلة وتوضع فوقه الأحمال. (المترجم).

أربعمائة طن الى خمسمائة طن وبغاطس ثلاثة أقدام الى ستة أنجات إلى خمسة قدم في الماء بكل سفينة مركب الصندل (مركب مسطح القاع لتفريغ السفن أو تحميلها) على الجانب الأيمن من السفينة والميناء وترافق الجيش على ضفة النهر وكل لواء كان له سفينة رئيسة تؤخذ منها التجهيزات.وبالمقابل فإن السفينة الرئيسة تجهز من سفن محيلا (سفن كبيرة). تُكون هذه السفن النهرية المحلية أسطولاً رائعاً مع الصواري العالية المائلة للمراكب ودفة السفينة الضخمة والشراع المثلث ومقدمة السفينة البتراء في الواجهة الشائكة التي تم طلاؤها مثل طلاء سفينة تجانك (سفينة شراعية صينية) إلاّ أنه بتصميم وبشخصيات عربية بنجمة وهلال وشخصيات مثل علامات منطقة البروج.عموماً يكون اللون الأبيض على قاع أخضر أو أحمر أو أصفر ويحمل كل زورق فرناً طينياً كبيراً مثل كومة نمل. لقد حُمِّل سطح مؤخرة السفينة بالطاقم. وكانت تشبه سفينة (ذهبية) في نهر النيل لكنها أقرب إلى نموذج سفينة (نكر) في السودان التي تكون ذات مظهر قرصاني جامح بدائي وعندما يبحر بها العرب يسمحون لأنفسهم بترديد حكايات الساغا (وهي حكايات زاخرة بالأعمال البطولية).تحمل سفينة محيلا أي شيء بوزن خمسة عشر إلى سبعين طناً. وتستطيع أن تقطر مسافة عشرة أميال في اليوم ضد التيار وبسرعة خمس إلى ست عقد في البحر مع الريح. كانت الميزة لهذا الأسطول النفيس لصالحنا ولا يوجد سوى جزء بسيط في المنطقة المعادية الواقعة بعد كوت العمارة. ويطلق على الاسم العربي لزورق طويل وضيق الذي يشبه الكنو أو غندول البصرة (الغندول هو زورق في البندقية) البلم ومزود بمجاديف وأعمدة بحسب عمق الماء.ويزداد تأثيره العسكري خلال الصفحات البرمائية للحملة عندما يشار إلى السفينة في المراسلات الرسمية بأبلام الحرب التي يتم جمعها وتسليحها بصفائح حديد وقد استخدمت لنقل المشاة في الهجوم على مواضع العدو.

وعندما يقوم أصحاب الزوارق من العرب بنقل جنودنا وقد تم تعليمهم التجديف باستخدام البنط (قارب طويل ضيق مسطح القعر مربع الطرفين). وفي حالة الفيضان التي حدثت للبلد في أثناء التقدم في نهر دجلة في مايس وحزيران 1919، كان كل شيء يعتمد على الأسطول النهري الصغير المرتجل وكذلك في شهر تموز تقدم رتل اللواء

كورينج على نهر الفرات من القرنة عبر بحيرة الحمَّار إلى سوق الشيوخ والناصرية ولتقوية البواخر ذات المجاديف الممتازة في نهر دجلة تم جمع خليط من الحديد الخُردة ومخلفات حمولات النهر التي كانت تستخدم في الملاحة بين جزيرتي بهام والسند. كيف وجدت هذه السفينة طريقها في المحيط لا يعرفها سوى العناية الإلهية التي تحرسها بدون شك. أقدم زورق في نهر دجلة كان الأريل (الهوائي) المركب للبيت وهو على شكل نصف طائرة.كان بدن السفينة من براهما بوترا وهي مناسبة المسير الهوائي ومحرك نوع شبه ديزل يسير بقوة خمسين حصاناً وتحدث ضوضاء أكثر من المعركة الصغيرة. كانت تجدل مثل زورق شيكار في اسام ولكن مالكه وربانه كان عنده تطلع سعيد وأصبحت هذه المعجزة من الارتجال الخاص (عبَّارة) بصفة مستشفى معترف بها رسمياً تعمل باستمرار بين وحدة الميدان الطبية على ضفاف النهر ومعسكر المستشفى ولأشهر واجهت محنة إطلاق النار عليها والقذائف والألغام ومغامرات الملاحة بين المدائن وشيخ سعد ويمكن كتابة مجلد عنها.

إنَّ الزورق المحلي الآخر في نهر دجلة هو المُرجل وهو بقدم الكُفة وبغداد وربما هو أقدم سفينة في العالم. إنَّ ربط (الكفَّة) مع الأريل تعطي صورة واضحة عن تطور السفينة[1]. ووصف هيرودوتس الكُفَّة على أنها مدورة مثل الترس تسير باتجاه أسفل النهر مع البضائع من نينوى إلى بابل. كل كُفَّة كانت تحمل حماراً ويسيرها رجلان وعند الوصول إلى بابل تُفرِّغ البضائع وتفكك الكفة وتحمل أجزاؤها على ظهور الحمير لإعادتها مرة أخرى. كان أول لقائنا بهذه السفن في مدينة العمارة وكانت قادمة من الشمال من مدينة تكريت. ولم تتمتع مواصلاتنا الأرضية بهذا التنوع والارتجال الذي يحظى به أسطول دجلة. وكان مكملاً لحملة جبهة الهند وكان الخط الأول والثاني يخدمان باستخدام البغال المخصصة للحمل. كانت هناك عربات نقل للجيش الهندي تسحبها البغال والخيول الصغيرة والجمال وقطار يسحبه الثور يستخدم للأسلحة الثقيلة.تحوم شكوك في وجود جيش آخر تقدم له خدمة بكفاءة الجيش الهندي في النقل عندما يجري قتال في بلد لا يرحب بالضيف.

(1) الكُفة هي سلة القصب مع أعمدة خشبية تلصق بالقير الذي يجلب من آبار القير في هيت.

واقترب الرجل الهندي (تي وسي) الذي يتمتع بتجربة واسعة في الحملات التي خاضها في مناخ متنوع في الحر والبرد والرطوبة والجفاف من أراضي الصومال والسودان إلى التبت وريف أبور إلى الكمال في عمله نتيجة للمزايا التي لا تحصى للبغال والسايس. وكانت عربات النقل والحمل في بلاد وادي الرافدين هي الفضلى لكنها لم تكن كافية.

في الأيام الخوالي قبل الحرب كان السايس يستحق الثناء والاحترام. في الطقس الحار كان يرحل بعربة ثيران عبر طرق التلال وفي الطقس البارد كانت هناك مناورات وفي فترة الإجازة لا يمكن الاستغناء عنه. لذا لم يرَ أفراد عائلته الجدد إلا قليلاً فهو يتلقى أكثر الرفسات وأقل الأموال في الجيش من أي شخص آخر. ربما حظه العاثر جعله ينضم في الجيش الآن ومثل الكثير من الصور الغامضة فقد حقق التميز ولم يفكر أي شخص بالسايس عندما لا يكون هناك قتال. قبل آب 1914 كانت هناك حالة واحدة حصل فيها سايس بغل هندي على تكريم بنوط الاستحقاق. في الحرب العظيمة دخل بإرادته في ولايتي ساهيل وشالبا وحدهما تم تكريم ستة أكراد من الفيالق وسام الاستحقاق الهندي في فرنسا حصل السايس عزت على تميز كبير عندما تمكَّن من تهريب البغل عبر خطوط القتال الألمانية في لوز وكان يصيح بأن البهيمة كسرت كعبه مما ستثير من غضب صاحب. وقد بقي السايس في أثناء القصف في مدينة نوف شابيل عندما احتمى كل الرتل. وكان يطوف طوال الليل على غير هدى. لقد تحطَّمت عربته يقول: إنَّ الرامي يتبع الأوامر ولا يستطيع أي إنسان أن يعيش في ظل تلك النيران. في الصباح عاد محمد علي إلى مقره عند الجسر مع الذخيرة موضحاً بأنه أضاع الطريق. وعندما وجه له سؤال عن النيران قال: إنَّ الرياح القادمة من القذائف تشبه الرياح الموسمية في تلال ظارمسالا.

وفي منطقة الحنة كان علي حسين وهو السايس الذي لا بد أن يقول بأنه مريض في اليوم الثالث والعشرين. لقد وجد الطبيب رصاصة في صدره.

وسأله: «متى جرحت؟»

«في المعركة يا صاحب»

ولكن كان ذلك يوم الحادي والعشرين لماذا لم تبلغ؟

قال: «يا صاحب خوفاً من التأنيب، ليس لدي وقت لأنَّ الجرحى كانوا كثيرين». وكان يذهب في رحلته إلى الخنادق في عربته لأكثر مَن عشر أو اثنتي عشرة مرة عبر الظلمة والبرد والطين والمطر.

لا يتملَّك السايس الخوف؛ لأن الشجاعة متأصلة عنده مما أكسبه هذا التقدير العالي إدراكاً عميقاً بضرورة عمله. كانت هناك مسيرات ومعارك في هذه الحملة تظهر قدرة الإنسان في التحمل إلا أن السايس كان دائماً له تأثيره ودوره سواء في فيضان الشعيبة أو في المسيرة المحرقة من الأحواز إلى العمارة في شهر حزيران سواء في جلب الذخيرة إلى خط النار أم في إرجاع الجرحى من أرض الميدان. «قال ضابط في رسالة بعث بها إلى زوجته: كل واحد منهم يستحق الميدالية الذهبية».

وإذا تم تكريم البهائم فإنَّ البغل لابدّ أن يزين صدره بوشاح؛ لأنه لا يعرف معنى الهزيمة والصعاب التي يواجهها يضرب بها المثل. لم تؤثر كل المصائب التي حلَّت في بلاد وادي الرافدين على رباطة جأشه وعادة ما يعمل بغل الحمل في الخط الأول من النار، أما الخط الثاني فيقع الحمل الأكثر على الجياد الصغيرة والبغال من مدن جيبور وبهارا تبور التابعة لفيالق النقل للخدمة الملكية. ويُرَبَّى الحصان القزم غير المخصي في الريف وطوله 13 ثلاثة عشر أنجاً ويشد إلى النير مع قضيب الكركل (عربة ذات عجلتين وجوادين ويقومان بسحب العربة اليدوية القابلة للتغيير وغير القابلة للتدمير فوق الأرض الوعرة). ويحملان عشر موندات (وحدة وزن هندية تساوي 82، 28 باونداً) ويسير عبر الطريق اليابس أو الموحل عندما تغرز عربة الخدمة العامة أو عربة الإسعاف ونادراً ما يرى الإنسان عربة نقل في الجيش الهندي جانحة من بين مخلّفات الحرب. وكانت عربات (أي تي) تكدح في الشعيبة في كانون الثاني 1915 يومياً ذهاباً وإياباً بين المعسكر والبصرة لمسافة خمسة أميال في فيضان بعمق اثنين أو ثلاثة أقدام ويتخللها حفر في المستنقع الذي تغرق فيه الحيوانات والعربات ويتم فك وثائق الجياد وتفرغ العربات يدوياً باستخدام الحبال ثم يتحَمَّل مرة أخرى. ومن الشعيبة تذهب إلى الأحواز ومن ثم تقوم بمسيرة تاريخية عبر الصحراء في حزيران عبر الرمال والمستنقعات لمدينتي يلاه والبسيتين إلى العمارة ومن ثم إلى

علي الغربي وكوت العمارة والمدائن والعودة إلى علي الغربي وتستمر مرة أخرى في تقدُم جديد. ويستمر العمل اليومي على مدى ثلاثة عشر شهراً بدون توقف بالعربات والحيوانات نفسها وبالرجال أنفسهم وبتغطية متواصلة وكانوا يبدون بأنهم قادرون على فعل العمل مرة أخرى. وذكر على نحو شائع في القوة الحقيقية التي لم أتمكّن من البوح بها بأنَّ معركة الشعيبة حسمتها عربة نقل جيبور التي تستخدم الجياد القزم. وتروي القصة بأنه عندما ظهرت مائتا عربة في الأفق بسراب غير واضح كأن الغسق قد حلَّ، قام الجنرال التركي بأخذها إلى بطارية جبلية جديدة وترَجَّل حالاً.

وكان الجمل حتى هذه النقطة مساعداً في الخط الثاني من النقل وكان يتوقع الكثير منه على الرغم من كونه قد أسيء فهمه كثيراً. ومثل الياك (ثور التبت البري) فإنَّه بهيمة قانعة بما يتوفر لها من طعام وله ميزة عليا في العيش على هذه التربة فيكفيه تناول العاكول المليء بالشوك لسد رمق عيشه اليومي وفي المسير تقدم له كرات من الحبوب الرطبة. إنَّ نشأته قرب النهر أو ما يسمى محلياً بجودي قد ميزته عن أخيه البدوي الذي تدرب أن يذهب بدون ماء ولكنه يحمل صفات الجمل الفائز الذي يتمتع بمزاياه الخاصة به.

يعد الجمل من الحيوانات الجميلة على الرغم من أطرافه غير المتناسقة واعتماده على الحمية الخشبية. وساهمت لمحاته المتغطرسة ومشيته المتكلفة عموماً بهذا التكلف وفي الحقيقة فإنَّها تعبير عن كياسة داخلية غير متوقَّعة. ولا يفهم الضابط البريطاني أو الجندي الهندي أن يكون في أرض غريبة. وكانت هناك استثناءات في استخدام الجمال كما حدث في الخرطوم عندما أحبوا الجمل مثل الجواد ولم تعد الاحتجاجات على الغرغرة التي يصدرها الحيوان موجودة في المعسكر. إلا أن جسم الجمل الخشن المندمج مع زهده الغريب يترَك انطباعاً خاطئاً عن قسوته ويضيف شيئاً إلى عبوديته، فالوزن الذي يحمله يجعله يصرخ وغرغرته تُسمع من به صممُ ويتم سوقه بمسيرة صعبة ويقنع بأي نوع من الفراش سواء أكان جافاً أم رطباً ليضطجع عليه. يأتي الرجل (تي وسي) وهو جديد في عمله محدثاً فوضى في المساء ويشتم بحقد الجمال التي توقفت وحجته بأنه ما دام له ساق ورقبة وقلب وأحشاء فهو مطلوب لذلك يفتقر إلى الروح المعنوية للنجاة من المصيبة.

إنه سريع الانفعال وسيكسر ساقه إذا رفس الصخرة وسينفصل ويموت إذا انزلقت سيقانه في الوحل والطين. أما في بلده فإنَّه يموت بسبب الثلج. إنه يتحسس من الرطوبة مثل وسواس المرض ويصاب بنزلة برد قاتلة إذا ما تم الاعتناء به وجهز تجهيزاً كافياً وعومل معاملة حسنة فإنَّه من الحيوانات التي تأتي في المرتبة الثانية بعد البغل في التحمل وأعتقد بأنَّ الجمل يكون مليئاً بالفضول وله روح واحدة ففي إحدى المرات ركبتُ على ظهر حيوان لمسافة أكثر من خمسمائة ميل في الصحراء التي يوجد فيها بركة ماء واحدة.

وعندما وصلنا الماء توقعت منه أن يشرب بشراهة إلا أنه تردد ورطب شفاهه فقط واستمتع بالجلوس تحت الشمس ثم رشف ثانية مثلما رشف دكتور ميدلتون[1] وينبذه وبعد بضع نظرات مبالغ بها بالتأنق شرقاً وغرباً يروي ظمأه.

تكون الحيوانات في بلاد وادي الرافدين سريعة الجري وهي تستحق أن تكون ضمن قواتنا للخيَّالة في مسيرتها من الكوت إلى علي الغربي. إنه من سلالة أخف من الحيوان الهندي إلا أنه أكثر تحملاً ويحمل الوزن نفسه. وتكون خطواته شديدة الحذر في الطين ويحافظ على توازنه، إنه سهل وهو في حالة استفزاز واكتشف أحد ضباط النقل بأن الجمل يستطيع أن يرفس وهو راكع بحركة مفاجئة نصف دائرية لساقه. لذا لا بد أن يكون الإنسان أكثر حذراً من الحيوان الذي يتكيء على ساق واحدة.

لا توجد حلقات في الجمل ففي بلاد وادي الرافدين لا تساق الإبل على شكل رتل واحد وتصبغ من الأنف إلى الذيل كما في الهند ولكن ترعى ضمن قطيع يسير سائس الجمل خلفه فقط في المعسكر وأماكن الحجز يسير أمامه ويصيح «هادو، هادو» عندما يركب فوق الحيوان ويضربه بعصا.

---

(1) دكتور ميدلتون هو طبيب أمريكي من ولاية بنسلفانيا ولد عام 1890 وخدم في قوة الحملة الأمريكية في فرنسا في أثناء الحرب العالمية الأولى للفترة من 1919-1915 وكان متميزاً في عمله وحصل على عدد من الأوسمة والميداليات الملكية وكلف بالاعتناء بكبار الضباط في الجيش الأمريكي والبريطاني. (المترجم).

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا الفصل في خيمتي كانت البغال تُطعم. يكون هناك رضا للسكان وهم يشاهدون الحيوان وهو يأكل ويرى الكاجار (طائفة هندية في ولاية مهاراشترا) بأن الحيوان يتمتع بشهية مفرطة وهو نقيض الجمل وعندما يتم خلط الحبوب في بطانية على الأرض فالجميع يأتي لمشاهدة العملية وباهتمام شديد. ويسمع صوت الضابط الذي قال: «هل الضنا جاهز؟» يجيبه الحملدار وبلغة مفهومة من قبل الفيلق: «مستعدة يا صاحب» وتثقب آذان كل حيوان وتعلق المخلاة (وعاء يضع فيه العلف ويعلق بالدابة) وتنهض الجوقة بأنشودة لا يمكن أن توصف وهم يرددون أغاني وصهيل ومواء وطحن ونادراً ما تصدر مثل هذه التحيات أمام الطعام من قبل مانح هذه التجهيزات.

الفصل الثالث عشر

الهجوم على حصن الدُّجيلة

قد يكون الهجوم الذي شن يوم الثامن من آذار على موقع السن الواقع على الضفة اليمنى أكثر المعارك التي وجهت لها انتقادات في أثناء التقدم. وكان من المقرر الاستيلاء على حصن الدُّجيلة وهو المفتاح للموقع برُمته ومن ثم الالتفاف على مواضع العدو الخلفية وقطع اتصالاته وهكذا يتم إضعاف الضفة اليمنى للعدو. وكان من المؤمل أن تجبر هذه المناورة الأتراك بإخلاء الضفة الشمالية مما يسمح لنا بالسيطرة على النهر وفتح الطريق نحو الكوت.

ووضعنا في الميدان لهذه العمليات الفِرقة الثالثة وثلاثة ألوية هي اللواء الثامن والعشرون والخامس والثلاثون والسادس والثلاثون بعدد إجمالي يقدر بعشرين ألف رجل من ضمنهم الخيَّالة والجهد الهندسي النقابين (المكلفين بحفر الخنادق). وكانت القوات التركية على الضفة اليمنى الواقعة بين شط الحي وموضعنا تقدر بعشرة آلاف مقاتل من غير قوات الاحتياط التي يمكن جلبها من مدينتي شومران أو فريد عبر نهر دجلة عند المكاصيص، وكانت القوة الإجمالية في قيادتهم بين بغداد وخط النار تقدر بخمسة وثلاثين ألف مقاتلٍ.

كان المخطط الجريء على الرغم من كونه أقل طموحاً يهدف إلى المسير مباشرة إلى الكوت وتخليص طاوزند وحاميته من الحصار المفروض عليه بدلاً من الهجوم على موقع السن، وكان باستطاعتهم الانضمام إلى معسكرات أيلمر في نقطة عند التقدم نحو منطقة العورة تاركين للأتراك جائزة الكوت فارغة والسيطرة في هذا الوقت على امتداد النهر. وعلمتنا التجربة بأن كلفة الهجمات الجبهوية حتى وإن حققت النجاح تكون باهظة الثمن ولم نعوض الخسارة التي

حدثت لنا في الأيام السابع والثاني عشر والحادي والعشرين وضيعنا أنفسنا مرة أخرى في منطقة لا يمكن وصول التعزيزات إليها وهي مثل عمل رجل بضلع مكسور قد يستغرق يوماً أو يومين من أجل تجبير العظم. كان الشيء الضروري هو تركيز قواتنا على توجيه ضربة واحدة وليس تبديدها بالتفاصيل في لحظة وصول التعزيزات إلى النهر، وقد وصلت أول كتيبتين من الفِرقة الثالثة عشرة منطقة العورة يوم الثامن من آذار. واكتمل تحشيد الفِرقة في منطقة شيخ سعد يوم الخامس والعشرين وبهذه القوة كان باستطاعتنا احتجاز العدو في حصن الدُّجيلة والمسير مباشرة إلى الكوت. وهذا يعتمد على صمود طاوزند حتى نتمكَّن من توجيه الضربة في اللحظة التي نريدها عندما تكون لدينا قوة كافية لكي نمضي قُدُماً نحو الكوت ونترك قوة خلفنا لحماية جناحنا واحتواء العدو عند حصن الدُّجيلة. ولم يكن هناك بديل سوى الذهاب مباشرة بالقوة التي كنا نمتلكها معتمدين على اتصالات مستقلة وعلى الكوت للحصول على التجهيزات والذخيرة ونقاتل بطريقتنا لدعم طاوزند. وكانت هذه العملية نوعاً من المجازفة التي يدينها الكثير من البارعين في الاستراتيجية العسكرية بأشد أنواع الإدانة. ويقولون: إنها تخالف كل البديهيات إلا أن هذا التحدي للبديهيات كان سيحدث أعظم انقلاب في التاريخ. وصليت في تلك اللحظة لكي يروق هذا المخطط هيئة الأركان. لم يكن طاوزند كما علمنا لاحقاً في حاجة عاجلة على الرغم من أننا نعتقد بأن الحالة كانت ملحة وكان هذا التفسير الحقيقي للهجوم غير المكتمل لموضع العدو الرئيس. ولكن البعبع الذي أخاف هيئة الأركان هو ارتفاع مناسيب النهر وكانت هيئة الأركان خائفة من أن انتظار عمليات الفرقة الثالثة عشرة قد تعيقها الفيضانات. كان يوم الخامس عشر من آذار آخر يوم يدخل في حساباتنا لأن تكون المنطقة خالية من فيضان الماء وإذا كان هذا صحيحاً فكان يبدو سبباً كافياً وصريحاً للاندفاع بهجومنا ولا نحتاج إلى الأخذ بالحسبان الدوافع الثانوية الأخرى. وقد تكون الاعتبارات السياسية قد ألقت بظلالها على القرار فقد كانت تركيا تترنَّح من الضربة التي وجهت لها في أرض روم وبدون أدنى شك كان الأمل معقوداً على أن التأثير المذل وتوجيه ضربة أخرى على جناحها سيدمر معنوياتها، وكان

هناك أيضاً أمل مخفي دائماً وهو ما يقدم في هيئة الأركان الذي يسبب المزيد من العمل المبهم والتجريبي. وإذا ما خاف فإنَّ الأتراك سيذهبون وأول ما تظهر الخوذة البريطانية فوق الأسلاك الشائكة عند حصن الدُجيلة سيولون الدُبر ويتركون منطقتي السن والحنة ويفتحون الطريق إلى الكوت. كان التقييم المتفائل جداً بخصوص عدم الاستقرار التركي مخيباً للآمال مراراً وتكراراً. ولو سلَّمنا جدلاً بأن التقدم العاجل كان ضرورياً سواء بسبب خطر الفيضان أو نقص المواد الغذائية في الكوت وقد نوقشت خطة العمليات في الثامن من آذار بكل تفاصيلها فإنَّ المسيرة الليلية كانت أمراً رائعاً ولحققت الفائدة المرجوة منها لأنَّ الأتراك الذين ليس لهم مواضع متقدمة لم يكونوا مستعدين. كان العائق الذي يقف بوجه تحقيق النجاح هو قلة المرونة في المخطط الذي لم يترك خياراً أمام القادة من الرتب الدنيا للتعامل مع الظروف السائدة التي تدخل في حساباتهم. ولو اتُبعت الخطة بالمد وفقاً لحسابات إقليدس[1] أو القانون الطبيعي الذي يحول دون حدوث أي إعاقة أو سوء حظ لتم أخذ حصن الدجيلة إلا أن المعارك لا تحسم بالوصفة الجاهزة ولم تكن خطة المعركة ليوم الثامن عشر من آذار مرنة من أجل تعديلها لتلبية الحاجات الملحَّة الجديدة عندما تظهر.

وسنرى لاحقاً بأن عدم الدقة والأوامر التفصيلية الصادرة قبل مغيب النهار وبقاء نصف القوة معطلاً بينما النصف الآخر كان متأخراً بسبب الحوادث غير المتوقَّعة لمسيرة ليلية طويلة لم نتمكَّن من الاندفاع وضاعت الفرصة.

كان التجمع عند بحيرات السلوم وهي نقطة تبعد مسافة ميلين جنوب غرب الوادي الضيق المكان الذي اعتدنا أن نسقي جيادنا عنده. غادرنا المعسكر عند الساعة السابعة قبل حلول الظلام بقليل وسرنا ميلاً قبل أن نرى مصابيح مواقع التجمع. وكان من المقرر أن يلتقي عشرون ألف رجل هنا من اتجاهات مختلفة سواء أكانوا يمتطون الجياد أم مشياً على الأقدام أو بصحبة المدافع. ويمضون بثلاثة أرتال

(1) إقليدس بن نوقطرس بن برنيقس الإسكندري ولد 300 قبل الميلاد، عالم رياضيات يوناني، يلقب بأبي الهندسة. مشوار إقليدس العلمي كان في الإسكندرية في أيام حكم بطليموس الأول. (المترجم).

نحو نقطة واقعة عند الجنوب الغربي حيث يفترقون ويأخذون اتجاهات جديدة. يقوم الرتلان(أ وب) (بقيادة الجنرال كامبول) بإضعاف الجبهة جنوب حصن الدجيلة والرتل ج (بقيادة الجنرال كيري) باتجاه النقطة المواجهة للخطوط التركية الواقعة بين الدُجيلة والسن بعد الحصن.

كان العيب في الخطة الذي لا يمكن تفاديه إذا ما تمت المحافظة على السرية وتحقق الهدف قبل طلوع النهار هو عدم توفر وقت كاف لتحشيد القوات. وأُعطيت الوحدات المتجمعة ساعتين لتغطية الأرض بين المخيمات والملتقى التي تعني لبعض ألوية المدفعية ورتل الذخيرة مسيرة سبعة أميال وقد أُعيقت ألوية المشاة السبعة بالنقل وفِرَق الإسعاف والمدافع التي تحرَّكت مع القوة وليس خلفها وهو المكان الطبيعي للمعوقات في المسيرة الليلية التي قد تتطور إلى هجوم ليلي بوجود خنادق العدو التي يتم عبورها والواقعة على بعد ثمانية أميال عن الملتقى.

ولم تكن هذه المخافر الأمامية وكما أثبتت الأحداث مشغولة ولو تم السيطرة عليها فإنَّ صعوبة العمليات ستزداد زيادة كبيرة. كانت المدفعية متأخرة عن مكان اللقاء فترة ساعة ونصف وهو تأخير لا بد منه نتيجة لطبيعة الأشياء، وبالرغم من وجود سماح فترة ساعة إذا ما حصل حادث فإنَّ هذا الوقت لم يكن جيداً ومع ذلك فإنَّ المسيرة الليلية كانت متميزة وربما لا توازيها مسيرة بتأريخنا العسكري. وأتذكر عندما كنا نجلس في ظل الضوء الأحمر، ذكر شخص معلومات عن التل الكبير إلا أن التقدم نحو التل الكبير في المساء لمسافة ستة أميال قد يستغرق ثلاث ساعات وعشرين دقيقة وتتكون القوة من أحد عشر ألف حربة وألفي سيف وستين مدفعاً. كان رتلنا الذي يقارب العشرين ألف مقاتل مع النقل والإسعافات والمدافع يمتد على طول ميلين وجبهة عرضها ستمائة ياردة من الجناح إلى الجناح الآخر. وكانت المسافة التي نغطيها في المساء أعظم من التل الكبير بثلاثة أضعاف وكان طول الرتل مع السلاح وإجمالي القوة أكبر بمرتين[1]. كان تجميع هذه القوة الكبيرة وتوجيهها في

(1) كانت الإصابات في المعركة خمسة أضعاف أي(3، 476) في الدُجيلة و469 في التل الكبير من موقع العدو فإنّنا ستتجاهل أولى بديهيات الحرب وبثقة مقنعة.

بلد لم تطأه سابقاً ولا توجد علامات سوى الوادي والتلال الرملية المبعثرة يتطلب عبقرياً في عمليات الضبط والتنظيم.

كنت مع ضابط الهندسة العسكرية الذي يقود الرتل وأبلغت مفرزتنا الصغيرة المنعزلة ضابط الأركان في ظل الضوء الأحمر للرتل (أ). سألهم: «من أنتم»؟ أجابوا: «كشافة»؛ مما أثار غروري بأننا في تلك اللحظة أداة حيوية في الماكنة وإذا ما حصل أي إخفاق من جانبنا فهو يعني إرباكاً وربما كارثة قد تحل إذا غُيرَ موقعهم في المخطط وإذا ما قمنا بمسيرة التطويق وكنا مجموعة منعزلة وكان هناك موجه للهندسة العسكرية الذي كان يحسب خطواته وينظر إلى البوصلة إذا لم تكن متوجهة نحو النجوم وكان هناك حارس للمرشد لحمايته من المقترحات الفضولية لكبار الضباط إذا ما كانت هناك شكوك تحوم حول صحة خُطاه. لا بد أن يعتمد كل شيء على رأس واحد وأي اعتراض قد يغيّر مساره. وعندما بدأنا سمعت استطراد حديث جرى في ظل المصباح.

«وجهته نحو الخامسة والنصف من نجم الشعرى اليماني (أسطع نجم في السماء).»

«أنا وجهته بفارق أصبعين يسار ذلك»

«آه أنت تسير وفق خارطة الفيلق»

«مائتان وست درجات صحيحة»

«كنت أسير باتجاه الجذب المغناطيسي»

وقد يحدث أمرٌ لا تحمد عقباه إذا ما وجهت المسيرة من أكثر من وجهة ثم كان هناك رجل مع دراجة هوائية. لم يكن لدينا السكلوميتر (أداة لقياس الأقواس الدائرية) إلا أنه كان هناك رجلان يقومان بتدقيق دوران العجلة. وكان هناك آخرون لحساب الخطوات وكنت أنا واحداً منهم لإجراء المقارنة. ويتم شطب المسافة الإجمالية ولم نسر بعيداً حتى شاهدت رجلاً ومعه عصا السرعة الذي يميل بغير اتجاه مثل سرطان البحر المترنح في جهوده لتمييز قدميه من عدم استواء الأرض قبل أن يطأها الرتل.

وكنتُ أراقبه بانبهار فضولي وعندما يغشاني النعاس في هذا الجزء أفقد حساب الخطوات وكأن الذي أمامي هو معوق جاء إلى بلاد وادي الرافدين في هذه الوظيفة الخاصة «لإنجاز عمله». إنَّ حدبته البارزة تحت معطفه المطري عندما يعمل للأمام وهو ينحني بحلقة لا بد أن توحي بالاعتراف التي قبلت بحقيقة حتى سحبت نفسي عند المحطة التالية وسمعت نصفي الآلي يردد: «أربعة آلاف وسبعمائة واحدى وعشرين». انتصب الرجل وهو يئن وكان بائع خضار معوَّقاً عرفته في أيام الصبا كان بالنسبة لي حاجة ماسة وأصبح جندياً بارزاً ومن المتحمِّسين.

فالمشي في الظلام والرياح تعصف بالوجه كأنه مسيرة جنائزية ومن السهولة جداً الخلود إلى النوم. وفي أثناء ركوبي الجمل لساعات طوال في الليل، تغشّتني موجات غير متناهية من النعاس.كانت الاحتمالات أن نشتبك مع مفرزة أو دورية تركية. وإذا ما حصل ذلك فإنِّي أستطيع عمل شيء عندما ألتفتُ يساراً أواجه صعوبة إدراك الحشود خلفي. كانت المسيرة مثل رتل يتبع دخاناً وكان السكون مطبقاً لا يستطيع الإنسان أن يسمع سوى عواء ابن آوى وصياح الوز وهو يتقاتل وصوت عجلات عربة غير مشحمة تحمل الذخيرة أو صوت طقطقة الوتد مع الراكوب (حلقة تعلق في السرج يضع فيها الراكب قدمه لامتطاء الدابة). وصلنا مكان توقف دورية الخيَّالة حيث تسمع صوت احتكاك الغطاء الواقي الموضوع على ساق الفرس كأنه قعقعة الرشاشة وتنتاب الإنسان رغبة في التدخين وهو يتلمس بيده غليون التدخين ولكنه لا يدخن حفاظاً على الجيش الذي قوامه عشرين ألف مقاتلٍ.

بعض الأحيان يشعر الإنسان أنه يدور في حلقة ثم يهتدي إلى ضوء في الأفق فالأيادي تومي إلى ضفة النهر وارتبك الكثير منا لأنَّ الغريزة المستمرة تقودنا إلى اليمين إلا أن توجيه رجال الهندسة العسكرية لا يمكن تخطّيه. فجأة وصلنا إلى الخنادق التركية كانت فارغة ومواضع مهجورة. توقف الرتل عند الموضع وقام بالطوفان حوله وشعرت بأننا نلتف التفافاً غير متناه وهي العقدة التي لم تحل حتى الفجر وكنا نجتاز بعضنا البعض وبطرق مختلفة ولم يعرف بعضنا البعض الآخر ولكن كنا ندور بخط مباشر بدون توقف وكانت معجزة في الضبط والقيادة. لقد شعر عداد الخطوات بالارتياح عندما توقفنا لفترة طويلة. كان الطقس بارداً جداً

ووجدت المراسل وهو (جندي يخدم الضابط) وقد أخذ بطانية الحصان الثانية من تحت السرج ولفها وغط في نوم عميق إلى درجة أن الرتل كاد يمر فوقه عندما بدؤوا بالمسير مرة أخرى.

بعد ساعة من ذلك تكلم ضابط الهندسة العسكرية. لقد انتهى التوتر لقد قصفنا التلال الرملية التي تسبب الإحباط ثم شاهدنا وميض مدفعية طاوزند في الكوت وهو تأكيد مريح لتوجه خطنا. كانت تلك مفاجأة الأتراك الكاملة أظهرتها مخيمات العرب وبينها مررنا بصمت في ضوء خادع. كانت نيران معسكر الأتراك متوهجة على بعد ميل أو ميلين إلى الشمال أو الغرب منها.

أرسل حراس الجناح لقد مروا بين خيم العرب بدون إطلاق طلقة واحدة وحالاً كشف الضوء المتنامي عددنا المرعب وأمامنا كان هناك معسكر آخر في الوادي نفسه. وجاء رجل مسرعاً تجاهنا ورمى بنفسه على ركبتيه رافعاً يديه بعلامات الابتهال الديني ويصيح: «ع -عرب -ع- عرب» بلهجة ربما غير واضحة. وعندما كان يركع كانت زوجته عند الطرف الآخر من المعسكر تدفع بحشود القرية. هنا تذكرت بأني كنت وحيداً مع موجة الرتل في موقعة تكون بمستوى إنقاذ الخرطوم. وسيثور كل رجل أبيض في سريره وهو يرى الصورة التي فيها الكثير من الوجوه الصفراء والسوداء والرمادية. عموماً لا يدرك الإنسان صناعة التأريخ عندما يكون في اللحظة الآنية إلا أنها ولدت فينا الشعور بأن العالم كان مهتماً كثيراً بمصير حامية الكوت الصغيرة. لقد بعث الملك برسالتي أمل وثقة بالقوات. كنت أدرك أن شارع الصحافة طريح الفراش في غفوته الصباحية الأولى لا توقظه إلا فصاحة الأخبار المدوية القادمة من الصحراء وهي أخبار قوة الإنقاذ التي تدخل منطقة الدُّجيلة الكئيبة الواقعة خلف الأتراك. لقد امتزج الحدس بالفشل؛ لأنَّ الرجل الذي ينشر عدوى الشك بين صفوف الرجال المقاتلين سيقدم المساعدة إلى العدو أكثر من عشرات المراسلين الحربيين الذين يخضعون للرقابة. كنت أرغب بألاَّ نشنّ هجوماً على منطقة السن وندخر قواتنا المعززة في هجوم جبهوي أوسع؛ لأن الكوت تقع أمامنا مباشرة أقل من ثلاث ساعات لمسيرة القوة ولم يستولِ طاوزند إلا على خط خنادق رفيع عند النهر ومدفعين يسيطران على الجسر العائم وإذ ما تعرَّضت الخنادق والمدافع إلى

هجوم سنتقدم بهجومنا إلى الأمام أو الأجنحة أو الخلف. لقد كانت هناك كتيبة للعدو يفترض أن تكون على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربي إلاّ أن قواتنا من الخيَّالة يمكن التعامل معها وتمسك بهذه المنطقة وبرأس الجسر.

ولو واصلنا المسير وجاءت قوة منطقة السن وهاجمتنا في منطقة مفتوحة لتحقق المراد إلا أن هذا أملٌ بعيد المنال. وبدون شك سيمسك الأتراك الأرض ويقصف الخنادق في مواقعنا الخلفية من حصن الدُّجيلة إلى شط الحلة. وهذا سيجبرنا على التراجع. ولم تكن لدينا قوة أو وسائل نقل كافية للإمساك بمنطقة الدُّجيلة والتقدم في الوقت نفسه وسنترك قوة الإمساك معلَّقة ويقطع عنها الاتصالات والتجهيزات. ومع ذلك ففي الكوت توجد مؤن كافية لنا جميعاً. فالتجهيزات التي تكفي الحامية لفترة سبعة أسابيع ستطعمها وتطعم قوة الإغاثة لثلاثة أيام. وقد ترجعنا هذه الأيام الثلاثة إلى المعسكر مع طاوزند بأمان ويتحقق الهدف الحيوي والعاجل. كانت فرصة إزاحة الأتراك من مواضعهم على ضفتي النهر في الوقت المناسب بعيدة المنال ومع ذلك فإنَّ السيطرة على نهر دجلة كانت ضروريةً إذا ما بقينا هناك. كانت فرصة واحدة لأخذ الحصن على حين غرة وكان لا بدّ أن نشن الهجوم في ساعات مبكرة قبل أن تتدفق التعزيزات التركية من المواضع الأخرى وننتظر مدفعيتنا للإعلام عن وجودنا عند قصف معسكرهم وحدث الفرار الجماعي نفسه لجياد العرب ومواصلاتهم الذي شاهدناه في أثناء قصفنا لمعسكر الحنة يوم الثاني والعشرين من شباط. كان مما يثير الارتياح رؤية هذا الخط الأسود يتدفق عبر السهل باتجاه رأس الجسر عند شط الحلة إلا أنه كان هناك تيار آخر لا يثير الارتياح كنا نشاهده وهو تيار المشاة الذي جاء من كل المواضع لتعزيز الحصن. لقد جاء ثلاثة آلاف من حصن المكاصيص حيث نصب العدو الجسر العائم بعد خط قناة الناصرية وفي الساعة التاسعة صباحاً بدأت الكتيبة بالوصول إلى الدُّجيلة فقد أُرسلت كتيبتان إلى الخنادق وبقيت كتيبتان احتياطيتان في الخلف بينما جاءت الكتيبة الخامسة لتعزيز الخط بين سن عفتارو حصن الدُّجيلة. وبعد الإنذار الأول، بدأ الأتراك بعبور الفِرقة الثانية والخمسين من الضفة اليسرى في مشاحيفهم الكبيرة والطوافات التي تقطرها الزوارق ذات المحركات. وقدر الطيارون عبور ثلاثة آلاف من الفِرقة الثانية والخمسين خلال

النهار. وتعرَّضت بعض هذه التعزيزات القادمة من المكاصيص إلى نيران مدفعيتنا عندما ساروا بنسق قريب عبر الأرض المفتوحة إلا أن أي لحظة تأخير في هجومنا تضيف قوة لمقاومة العدو وتضعف فائدتنا من الهجوم.

وبحسب الأوامر الصادرة فإنَّ رتل الجنرال كيري شرق الحصن كان لا بد أن ينتظر هجوم رتل الجنرال كامبل في الجنوب قبل الاشتراك بالمعركة إلا أن الجنرال كامبل كان متأخراً بأمر خارج عن إرادته. وكان من المقرر أن ينتشر في الساعة الخامسة والنصف ولكنه لم ينتشر إلا في الساعة السادسة والنصف عندما وصل إلى نقطة في منخفض الدجيلة الذي يبعد ميلاً عن الانحناء الذي كان من المقرر أن يتم الانتشار عنده. كانت قوة المشاة ما تزال مرتبطة مع قوة بغال الحمل وعربات المدفعية والإسعافات وكان لا بدّ أن تنفصل بطاريات المدفعية عن الرتل. وفي الساعة السابعة والربع انتشرت ثلاثة ألوية استعداداً لشن الهجوم. وأُرسل اللواء السادس والثلاثون باتجاه ضريح إمام علي منصور لتطهير بعض الخنادق الواقعة على بعد ثلاثة أميال عن المنحنى وصدرت الأوامر إلى اللواءين التاسع والثامن والعشرين للاقتراب والاستعداد لشن هجوم على حصن الدجيلة. وحدثت المباغتة عندما فتحت مشاة الفيلق مع رتل الجنرال كيري النيران في الساعة السابعة باتجاه الموقع التركي.

في البرقية التي بعثها، ألقى الجنرال لايك باللائمة ضمناً بالتأخير على الجنرال كامبل إلا أن الخطأ الفادح الذي لا يغتفر في الدجيلة يكمن بالتأخير في الاحتفاظ برتل الجنرال كيري الذي كان يمكن أن يستولي على الموقع في وقت مبكر من الصباح. ويتحمل كل من الجنرال أيلمر قائد الفيلق والجنرال كورينج رئيس الأركان مع الجنرال كيري المسؤولية في ذلك. كان مسير الرتل أقصر وأسهل من رتل الجنرال كامبل وقد وصلوا في الوقت المناسب وعند انبلاج النهار بوضوح عُملت فجوة في الساتر التركي انفتحت بوضوح أمام اللواء السابع والثلاثين الذي أعلم بضعف العدو أمامه ولكن لم يسمح لهم باقتحامها فقد التزم بالخطة المعدة مسبقاً مما أدى إلى ضياع الفرصة.

في غضون ذلك، تحرَّك رتل الجنرال كامبل في الجنوب ببطء لمواجهة النيران المميتة التي فتحت من الرشاشات والمدافع الرشاشة في الموقع المخفي إلى اليسار والخنادق المتقدمة للحصن. ووجدت الخنادق المقابلة للواء السادس والثلاثين المتقدم فارغة وحدث هذا الأمر للواءين على اليمين وهما اللواءان والتاسع والثامن والعشرون اللذان تعرضا لنيران مدفعية ثقيلة وبرمي منتظم من الخنادق المتقدمة المنتشرة إلى الجناح الأيمن من موقع السن. وشن اللواء التاسع من جهته اليمنى المواجهة للزاوية الغربية من حصن الدُّجيلة هجومه وقام اللواء السادس والثلاثون بحركة التفاف إلى أقصى اليسار. وشنت سلسلة من الهجمات خلال النهار وسبقها إطلاق نيران المدفعية إلا أنه على الجانب الجنوبي لم نسيطر على الوضع. كانت الألوية الثلاثة تتعرض لقصف كثيف طوال النهار وبالكاد كانوا يرون الأتراك ومن الأمر المشكوك فيه أن يكونوا على بعد ألف ياردة من موقع العدو الرئيس. ولم يحصلوا على إسناد من الرتل (ج) إلى الشرق من الحصن إلى وقت متأخر من بعد الظهر.

ومرة أخرى تظهر الأحداث أن قصف السواتر لفترة نصف ساعة بمدفعية الميدان ذات التفجير الأقل وبدون رصد جوي لا يساهم في مساعدة تقدم المشاة وهو الدرس الذي أظهر ضعف الكتائب مرة بعد أخرى، إنه التقليد الذي تدافع عنه هيئة الأركان باستماتة. يوجد دعم مدفعي وهو الذي يمكن رؤيته في الدخان المتصاعد الذي تثيره عند قصف الأرض القريبة من موقع العدو. كان لا بدّ أن تقتحم قوة المشاة وهذا أمر طبيعي على رأي رامي المدفعية وسمعتُ صياح ملازم ثانٍ شاب بصوت عال عندما تنفجر القذيفة بعيداً عن الحصن «وسقطت هناك قذيفة أخرى في المكان» من ذا الذي لا يكون رامياً في هذه الأيام ويتخلص من الأخطاء؟ بالنسبة لكثير من رجال المشاة يعد أمراً صعباً. كأنه صورة لجندي مهرّج أو قوة تسحب جزءاً من قوتها باتجاه الموضع. كان اليوم حار جداً ورطباً والماء في الزمزمية (قنينة الماء لدى الجندي) على وشك النفاد. ولكن لدى الجندي مؤن تكفيه ليومين إضافيين وأدوات تحصين يستصحبها معه وحالما يرفع رأسه يتلقى وابلاً من الرصاص وما يزال هناك ألف وخمسمائة ياردة إلى الميدان حيث

يقوم بوضع أمتعته ويخفف عن كاهله العبء ولكن لا تزال بعض الأشياء في بيئته يمكن أن ترفع من معنوياته. لا ترتبط التجربة بهذه الهجمات لتحقيق النصر الناجز فالرجل خلف المتاريس مفعم بالنشاط ومتحمس وليس لديهم نقص في العدد وفي قاعدة أي لعبة كل رجل عند فتحة الرمي أفضل من ستة رجال خارجه ومع ذلك عندما نعود إلى المعسكر مع قلة الأخبار الجيدة نسأل «ماذا جرى من خطأ؟» «لماذا لم يسقط الموضع؟ «ألم تقاتل كل الكتائب بشجاعة؟ نعم، قاتلت ببسالة، إذن لماذا لم يسقط الموقع، نحتاج إلى الاستيلاء على موقع للعدو بتفوق كبير إذا لم يكن بالإعداد أو الموقع فبالاستراتيجية أو المعنويات وفيما يتعلق بالإعداد في هذه المناسبة كان هناك ربما هامش محدود جداً من كل جانب في الموقع تكون الأرجحية لهم وبنسبة في الأقل واحد إلى ستة. على المستوى الاستراتيجي مهما يكن الاستحقاق الأولي للخطة فإنَّها لا تنجح إذا لم تدخل في الحساب عنصر المباغتة. على المستوى المعنوي فإنَّ المشاة الأتراك يتمتعون بمعنويات مثل أي جيش في أوروبا. وكان المدافعون عن حصن الدُّجيلة أفضل ما في الجيش العثماني؛ لأنهم مفعمون بحيوية النجاح الذي تحقق في مضيق الدردنيل. كانت القوات حديثة العهد ومتحصنة جيداً في الحصن الواقع على منحدر حاد بارتفاع خمسة وعشرين قدماً فوق السهل. وفي الموقع المعاكس، يتخندق رجالنا خلف الساتر ويتمسكون به حتى الموت إلا أنه في التصنيف العسكري يتفوق الأتراك بنسبة واحد إلى ستة في تلك الظروف مع عدم وجود ميل للتخلي عن الموقع.

لم يحقق الهجوم تقدماً في الساعة الرابعة والنصف واقتربتُ إلى مسافة أربعمائة ميل لمعرفة النجاح الذي حققه رتل الجنرال كيري على الجانب الشرقي من الحصن. كان يوماً مثيراً وساد شعور بالفشل المأساوي وفقد أحد الأصدقاء في هذه التضحية العميقة ولا يوجد لدينا وقت للخوض فيها. وفي أوج تجربتي مع دليل الهندسة العسكرية في المسيرة الليلية وجولتي مع الخيَّالة ومطاردة بعض العرب فترة نصف ساعة ثم كنت مع اللواء السادس والثلاثين بقيادة الجنرال كريستين في الهجوم الذي شنه المشاة عندما وجدنا خنادق الأتراك غير مشغولة ثم تَعرَّضنا إلى وابل كثيف من نيران المدافع الرشاشة من منطقة السن فكل هذه الأحداث جرت قبل الساعة العاشرة

فمن الصعوبة إدراك طول نهار معركة ناجحة بعد المسيرة الليلية. وعلى الرغم من أني كنت راكباً معظم الوقت ولا أحمل شيئاً ثقيلاً سوى مسدس وحقيبة إلا أنني كنت على وشك الهلاك بسبب الحرارة الشديدة. وكنت أفضِّل السير ميلاً آخر بدلاً من تلقي إصابة على بعد مائة وخمسين ياردة ومع ذلك، كانت بعض الألوية تتحرك طول ليلة اليوم السادس على السابع وكذلك في ليلة اليوم السابع على الثامن. لا أستطيع أن أصف قوة الروح المعنوية التي كان رجل المشاة يتمتع بها وهو يحمل أمتعته وبندقيته الثقيلة ويستعد للقيام بمسيرة أخرى ويشن هجمات أخرى إلا أن الأمر بالنسبة لهم مجرد بداية نهار.

مع رتل الجنرال كيري، نُفِّذ هجوم مسائي على الحصن من جهة الشرق واحتُلَّ خندقان للعدو. ومع ذلك فقد علمت فيما بعد أن القوات كانت على وشك فقدان قدرتها على التحمل، وبسبب التوقف قرب الوادي الشائك فإنَّ اللواء الثامن الذي شن الهجوم قد غادر المعسكر قبل ليلة بدون أن يتزود بالماء وكانوا منشغلين بدعم قوة المدفعية ويغطون الجناح الذي يمسكه إلا أن اللواء السابع والثلاثين في اليوم السابع كان يتقدم ويتظاهر ثم ينسحب طول النهار وكانت لديهم ساعات للاستراحة بعد أن يرزمون أمتعتهم قبل الهجوم. في الساعة الرابعة وتسع دقائق بعد الظهر، صدرت الأوامر بشن الهجوم على حصن الدُّجيلة ومواصلة الهجوم مهما كلف الأمر. وتقدم المدفعية الإسناد بقصف الحصن وتتوقف نيران مدافعهم في الساعة الخامسة والربع بعد الظهر. ثم تشن (كتيبتان) من اللواء السابع والثلاثين الهجوم من جهة اليسار في الوقت نفسه. وكانت الكتيبتان الأولى والثانية من اللواء السابع والثلاثين وكتيبة كرخا الثانية والكتيبتان الأولى والرابعة من سومرست مرابطين على مقربة من الحصن طول النهار. وعند الفجر اشتبكوا مع مفرزة صغيرة للعرب التي لا بدّ أنها أعطت الإنذار للأتراك.

وكانت لديهم أوامر بالتوقف على بعد ألف ومائتي ياردة وإذا أمكن التقرب أكثر واقتنعت كلا الكتيبتين بأن يمكن السير مباشرة مما يعزز هذا قصة الطيار الذي ذكر بأنه لا يوجد سوى مفرزة في الحصن. في البداية لم نشاهد أي شخص ولكن بعد انبلاج الصباح تمكنا من رؤية الأتراك يأتون مسرعين من الخلف ثم بلمحة بصر

يدخل كل شخص الخندق ويختفي. في الساعة الثانية، صدرت الأوامر للتعاون مع الجنرال كامبل لشن الهجوم من الجنوب ومتابعته إذا ما تمت السيطرة على الموقع. وتقدموا بمسافة ستمائة ياردة عندما تعرَّضوا لوابل من نيران المدافع الرشاشة من جهة اليسار. ثم في المساء التحقت كتيبتان من لواء من سومرست وكتيبة ونصف من لواء كارخا في الهجوم بمشاركة اللواء الثامن.

يتقدم اللواء المشكَّل من حملة الرشاشات التاسع والخمسين ومانشستر في الخط الأول (كتيبة مانشستر على اليسار) وبدعم من الكتيبة الثانية راجبوتز، ويكون اللواء السابع والأربعون من السيخ في الخط الثالث مستعدين لمواجهة الهجوم المضاد الذي يشنه العدو من جهة اليسار. وصدرت الأوامر للواءين السادس والثلاثين والثامن والعشرين تحت قيادة الجنرال كامبل بإسناد اللواء الثامن من خلال شن الهجوم على الحصن من الجنوب إلا أن الخنادق الأمامية أمام الموقع أعاقت تقدمهم.

لقد وصلتُ إلى رتل الجنرال كيري في وقت شن الهجوم وكان الجنرال أيلمر والجنرال كورينج وبعض أعضاء هيئة أركان الفيلق يقفون على التل الرملي يراقبون الهجوم بواسطة المرقاب ولا يبدو أنه من الممكن الاستيلاء على الموقع بعد صد الهجوم السابق. لم يتغير شيء سوى أن قواتنا أصابها الإرهاق وتم تشجيعها وتعزيزها. تمثل التلال الرملية المقابلة للأفق التي كنا نقف فوقها مع هيئة الأركان لمشاهدة الهجوم في أثناء الغزو وبمرارة في ذاكرة الإنسان. كانت قعقعة البنادق والمدافع الرشاشة الصادرة من الحصن والجدار الصلب عندما تصيبه قذيفة آخر مدفع تقرع ناقوس الخطر لمجد لم يتحقق لهؤلاء الذين يسعون إليه أي المجد الخالد لموجة ضعيفة من قوة الخيَّالة التي تنساب إلى الميدان ولا يعرف لها قرار. من الصعوبة بمكان التحدث بتجرد عن الأمر الصادر لشن الهجوم؛ لأنَّ تكرار ما قيل في لحظة إصدار الحكم يبدو متطرفاً. لم نر أملاً بالنجاح في الهجوم الأخير وكان يبدو أن كل هذه الأرواح التي تزهق الآن على أنها تلطيف لتخبط القيادة[1].

وفي الساعة الرابعة والنصف، تقدم اللواء بخطوة عظيمة وغطت تغطيته مسافة

(1) من مجموع تسعة آلاف رشاش أقل من نصفها استخدم في الهجوم مع لواء الخيَّالة.

ثلاثة آلاف ومائتي ياردة. وكانوا يواصلون السير مثل ماكينة ولم يتوقفوا لنقل جرحاهم أو موتاهم. ولا يستطيع أي شخص أن يتصور الثقة التي يتحلّون بها إلا الذي يراهم. وقد تحلوا بقيم البسالة والانضباط ولكن ليس بقياس القيادة العليا وفي الألف ياردة الأولى تكبدوا إصابات قليلة إلا أنهم حالما عبروا المنخفض المواجه للحصن تعرَّضوا إلى نيران كثيفة من البنادق والمدافع الرشاشة والمدفعية.

ومنذ الحادي والعشرين من كانون الثاني لم تكن التكتيكات التركية للإمساك بالنقطة بقوة تصمد أمام القصف الموجه قبل شن الهجوم. كانت القوات المتقدمة ترمي بانتظام على جهة اليمين واليسار وعلى قواعد العدو في المواقع المتقدمة على الجناحين. وكانت نيران المدافع الرشاشة تأتي معظمها من الخنادق الواقعة في شمال الحصن وجنوبه كانت في مواقع مخفية ومحصَّنة لتستهدفها مدفعيتنا بينما القذائف المنطلقة من المدافع من موقع السن وحصن عفتار شكلت حاجزاً من نيران المدفعية تحول دون التقدم وتمتاز بالدقة في الاتجاه وقوة الانفجار وهي أفضل أنواع المدفعية الألمانية.

في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة، حقَّقت قوات مانشستر وحملة البنادق للواء التاسع والخمسين موطئ قدم في الحصن وتبعتها الكتيبة الثانية من راجبوتز وخط ضيق لكتائب ألوية كورخاس وسومرست من اليسار وقد احتُل خطان من الخنادق. لقد وجدت الخنادق بأنها عميقة مع موقع للنيران بدونساتر وهي غير مرئية تقريباً وقد استفيد من المنحدر المؤدي إليهما ولا تستطيع مدفعيتنا إحداث أي تأثير على هذه الدفاعات. تقدم اللواء على طول الخنادق الواقعة على اليمين والشمال رافقه قصف مدفعي مستعين بضوء شمس الغروب وغبار ودخان نيران القذائف والرشاشات وعندما تتساقط قنابلنا ويتساقط رامي الرمانات اليدوية الواحد بعد الآخر فإنَّ العدو يعد العدة لشن هجوم مقابل، فهم يأتون بحشود على الجناحين تحت غطاء وقصف ذي تأثير مميت علينا. وفي اليوم الحادي والعشرين عُلقنا في مواضعنا.

كان أمر الانسحاب ذا تأثير جيد وقامت القوة المتواجدة على جناح اليسار بتغطية انسحابها. وقام اللواء السابع والأربعون من السيخ بتوفير التغطية للانسحاب

من الجناح الأيمن والذي اتخذ موضعاً إلى الغرب من المنخفض وصدّ محاولتين منفصلتين للعدو لترك مواضعهم وملاحقة اللواء. كان الانضباط متقناً عند الانسحاب عبر الخط الضيق الذي كان يتعرض لنيران الرشاشات والمدافع الرشاشة الكثيف وحواجز نيران المدفعية عند المنخفض. وعندما كان الضباط الانكليز يسقطون يقوم الضباط الهنود بتجميع رجالهم ويستمرون بالانسحاب برباطة جأش جديرة بالثناء. على بعد ثلاثة آلاف ياردة من الحصن توقَّف اللواء لليلة ثم جمع الجرحى وجلبهم ووضع كل الرجال في الخط الأمامي. لقد خاض اللواء الثامن المعركة بقوة تعدادها ألفان وثلاثمائة وواحد مقاتل وخرج من المعركة بقوة قوامها ألف ومائة وسبعة وعشرين مقاتلاً. سقط في الهجوم ثلاثة وثلاثون ضابطاً انكليزياً وثلاثة وعشرون ضابطاً هندياً وفقدت كتيبة راجبوتس جميع ضباطها الانكليز العشرة (قُتل ستة منهم) وضابطهم الطبي واثنا عشر من مجموع ستة عشر ضابطاً هندياً (سبعة منهم قُتلوا) وثلاثمائة واثنان (مائة وعشرة قد قُتلوا) من مجموع (خمسمائة وأربعة وثمانون) من المراتب. وأبيدت سرية ونصف الكتيبة الأولى والثانية من لواء كورخاس الذين التحقوا مع اللواء الثامن وقُتِلَ ثلاثة من كل أربعة ضباط بريطانيين وجرح ضابط من كل أربعة. وقتل أو فقد تسعة وأربعون رجلاً وجرح تسعون رجلاً.

كان عدد الإصابات لكلا الرتلين في المعركة ثلاثة آلاف وأربعمائة وستة وسبعين مقاتلاً منهم مئة وثلاثة وعشرون ضابطاً بريطانياً واثنان وستون ضابطاً هندياً فضلاً عن ثلاثة آلاف ومائتين وواحد وتسعين مقاتلاً من المراتب. لم يكن المقاتل التركي مغامراً بل يلتصق بالساتر الترابي. كنا ننام ونحن مرتدون أحذيتنا في تلك الليلة ومسدساتنا خارج قرابها ولكن لم تكن هناك أية محاولة لاقتحام معسكرنا. في الصباح قام الأتراك بملاحقتنا بعد أن أدركوا بأننا كنا ننسحب وقاموا بقصف جنودنا في المؤخرة ومطاردتنا إلا أننا أدرنا أسلحتنا تجاههم ثم انسحبوا. وتعرض رتل الجنرال كامبل عند منخفض الدجيلة إلى طلقات قنّاصة على نحو متقطع في الظلام. وعندما بدأوا بالانسحاب عند الفجر ظهر البدو الذين كانوا غير فعّالين على نحو غامض مرة أخرى في الأفق وأخذوا يلوّحون في مؤخرة الرتل وظهر رجال بزي بريطاني يلوحون للأتراك ولم يعد هؤلاء الجنود الذين ذهبوا لإنقاذهم. لقد سقط

أحد الضباط الذي أصيب بطلقة في وجهه وأمضى نصف الليل بجانب الحصن. ويتذكر بأنه كان يشعر بكل شيء وكان يعتقد بأنه كان بين يدي طبيب. ونُزِعت كل تجهيزاته وكانوا يقلبونه من أجل إرخاء حزامه عندما استعاد وعيه، كان كل المقاتلين الذين كانوا حوله يوجهون حرابهم نحوه إلا أن كل آهات الجرحى كانت تحذّره أن يظهر علامات بأنه حي. ومن السهولة يمكن اختلاق الموت عندما يكون الإنسان نصف ميت وبركة الدم المضطجع بها قد خدعتهم أولاد ابن آوى الذين اعتقدوا أنه لا يستحق العناء بعد أن أجهزوا عليه وبعد مرور ساعة أو ساعتين جمع قواه ورجع إلى خطوطنا وعُلمنا من الأتراك فيما بعد بأنهم اعتقدوا بأننا أحطنا بهم. وما زال أحدهم يلتقي بضباط بريطانيين اقتنعوا بأنهم تقهقروا إلى الحي. في صباح اليوم التاسع عندما اكتشفوا بأنه كان لهم نصراً وليس هزيمة مثلما حدث للجنرال بوثا في معركة سبيون كوب[1]. ويعتقد الجنرال كامبل بأنهم كانوا يخلون السن واتبعونا عندما علموا من الرصد الجوي بأننا كنّا ننسحب. وذكر بحركة ثابتة باتجاه الحي واختفاء معسكرات العدو جميعاً وعرض التوقف طول النهار بدون إسناد. تكون عقلية التركي أحياناً غامضة ولكنها مثابرة. إنه من الصعوبة تصديق بأنه يمكن أن يصاب بالإحباط والهزيمة التي لم نتأثر بها حتى الآن.

كان الجيش البريطاني يعلم جيداً بأنهم هزموا وبعد يومين أو ثلاثة أيام بَعثت وكالة رويترز خبر الانسحاب نتيجة نقص الماء كان هناك الكثير من السخرية والكفر والتهكم في المعسكر.ومع ذلك، اعترف الأتراك صراحة بأن مسيرتنا الليلية في اليوم الثامن قد هزمتهم وكانوا سيستلمون لو تابعنا المسيرة من غير إبطاء. ودرسوا إمكانية القيام بهجوم مباغت على أجنحتهم إلاّ أنهم أدركوا بأن أي حركة من هذا النوع لا تحتاج احتواء على نحو جِدِّي وكانت مسيرة طويلة مع كشف لمعظم جناحنا. فالاستعدادات بهذا الحجم الكبير كان من الصعوبة إخفاؤها وتكون بحاجة إلى تركيز سريع.

---

(1) وهي معركة قادها الجنرال البريطاني بوثا في جنوب أفريقيا عام 1900 وانتصر بها الجيش البريطاني. ولكن في اليوم التالي انتصر البوربون وتم قتل القائد وجميع الجنود البريطانيين. (المترجم).

علاوة على ذلك لم يظهر أي نشاط في هذا الاتجاه ولم نرسل استطلاعات أو دوريات وهذا مخالف لجميع قواعد اللعبة وعلى النقيض من أساليبنا المترددة والجبانة للقيام بمسيرة ليلية فوق أرض لم نجر استطلاعاً لها سابقاً. لقد توقّفوا عن إرسال مفارز ودوريات في الليل تجاه سلسلة تلال جُميلات أو أصبحت تجري هذه الدوريات بين الفينة والفينة، أو بشكل روتيني. إن هذا الاستعداد الإجمالي وارتباك العرب وتخبطنا تجاه خنادقهم الفارغة أكّدت القول الذي حصلنا عليه أنَّ معظم ضباطهم توقّعوا بأن الهجوم على الجناح الأيمن أمر مسلم به.

يدخل الرتل المرهق وموهن العزيمة بتثاقل إلى المعسكر ليلة التاسع من الشهر وكان الكثير من الجند مرهقين ويمشون باضطراب مثل الرجال السكارى لعدم تحقق شيء يعوض خسارتنا. لقد وضعنا أكبر عقبة أمام تقدمنا القادم حيث قمنا بتشجيع الأتراك وأظهرنا ما في أذهاننا بواسطة تجربة فاترة ومؤقتة من فعل كان لابدّ أن يجري بقوات كاملة عندما تكتمل مواردنا كافة وبينما تزيد من العقبات أمامنا فإنّنا نضعف من قوتنا في التغلب على هذه المصاعب.

فالاستنزاف المادي لقواتنا وإضعاف قدراتنا لشن الضربات من خلال فقدان أعداد تساوي ثلث الحامية التي نريد أن نحررها قد أضرت بنا ما فيه الكفاية إلا أن الخسارة العظمى هي تثبيط همة الناجين. فالأفواج الجيدة لا تفقد المعنويات بل تفقد الثقة بالألفة مع عدم النجاح. لنأخذ مثلاً فوجاً مثل فوج كونوت روجرز. لقد وصلوا لتوّهم في الوقت المناسب لخوض معركة الحنة اليوم الحادي والعشرين من كانون الثاني والآن مرة أخرى كان لا بد أن يتقدموا لمسافات طويلة في مواجهة نيران عدو غير مرئي وكان هناك الكثير للتكفير عنه في الألم. لقد تكبدوا خسائر فادحة بدون أن يروا العدو. وأصبح عدم المساس بالأتراك أمراً خطيراً وبعد يومين سنحت لهم الفرصة للتسلح بالشجاعة التي يحتاجونها بعدم تحرك الجيش بطريق عودتنا من منطقة السن في ليلة اليوم التاسع لم نرجع إلى موقعنا المتقدم عند منطقة أبي رمانة والتلول الرملية كما كُنا سنعمله. كان لا بدّ من احتلال هذه الخنادق وبغض النظر عن استخداماتهم الاستراتيجية في التقدم.لقد أعطونا فسحة في التحرك حول منطقة العورة ومنعنا العدو من جلب المدافع وقصف معسكرنا. على أية حال لم تأخذ

هيئة الأركان بهذه الرؤيا حتى احتل العدو الخنادق التي وجدها فارغة. ثم أُرسلت في صباح اليوم العاشر للإمساك بوادي الشجيرات وتحقيق مزيد من التقدم.في جنح الظلام اجتاز فوج كونوت روجرز المنخفض الواطئ ووجدوا أنفسهم بين الأتراك عند منطقة أبي رمانة. كانت المباغتة للجميع إلا أن الرجال الإيرلنديين كانوا أكثر بهجة. لقد اندفعوا إلى داخل الخنادق المقابلة لهم وهم يرددون أغنية مقدَّسة. وكان التحدي الأكبر لهم هو وابل الرصاص في المنطقة القريبة.والجيد في هذا الأمر أن جنود العدو كانوا خارج خنادقهم يقفون في منطقة مفتوحة. وعندما يطلق التركي جميع طلقاته ويلتفت فيجد ثلاثة جنود محيطين به وموجهين حرابهم عليه. كانت تشبه المطاردة ويسيطرون على ياردة بعد ياردة. كان سباق في الحصول على الموضع أولاً. توقَّف التقدم إجمالاً لمراقبة هذا الحدث الصغير وكانوا منشغلين بسلسلة الأحداث قبل خوض المعركة مرة أخرى. وكان الشيء الوحيد الذي يفسد متعة فوج رانجرز هو رفع العلم الأبيض واستسلام أربعة وخمسين رجلاً إجمالاً.

تمت السيطرة على التلول الرملية بعد قصفها بقوة بالمدفعية وعندما بدأ الضوء يظهر لا يمكن إدامة زخم الهجوم. لقد انسحب الفوج عند وادي الشجيرات الذي طلب منهم الإمساك به والذي اجتازه الفوج في الظلام وهذا الخطأ كلف الأتراك أكثر منا. لقد فقد فوج رانجرز مائة مقاتل ومن فوج البنجاب التاسع والثمانين على جهة اليمين مائتين ونيف. إلا أن هذه المناوشات الملحمية عملت مع التركي الحقيقي مثل رقية لروحه.وتكرر السؤال مرة أخرى ماذا سيحدث لو سرنا مباشرة نحو الكوت في صباح اليوم الثامن؟ كنا سنحيط إحاطة جيدة بجناح العدو وعلى بعد سبعة أميال من طاوزند. كانت ربما ستربك هذه الحركة الجريئة من جانبنا الأتراك. لم يظهر أبداً القائد المثابر العنيد المعروف عنه في هذه الحملة في الأقل للقيام بمغامرة أو مباداة في الهجوم أو انضباط منظم في مناورة لقوة كبيرة على الأرض المفتوحة؛ لأنه سيكون تفوق النيران لصالحنا وأفضلية المدفعية من جانبنا وبالطبع ومن أجل الاستمرار والقيام بمسيرة عبر مواضع العدو فإنَّنا سنواجه الموت.وسيكون على النقيض مما درس في المدارس العسكرية إلا أننا لم نكن نقاتل قوات أوروبية متحركة كما أن اتصالات العدو ستقطع في الوقت نفسه عندما

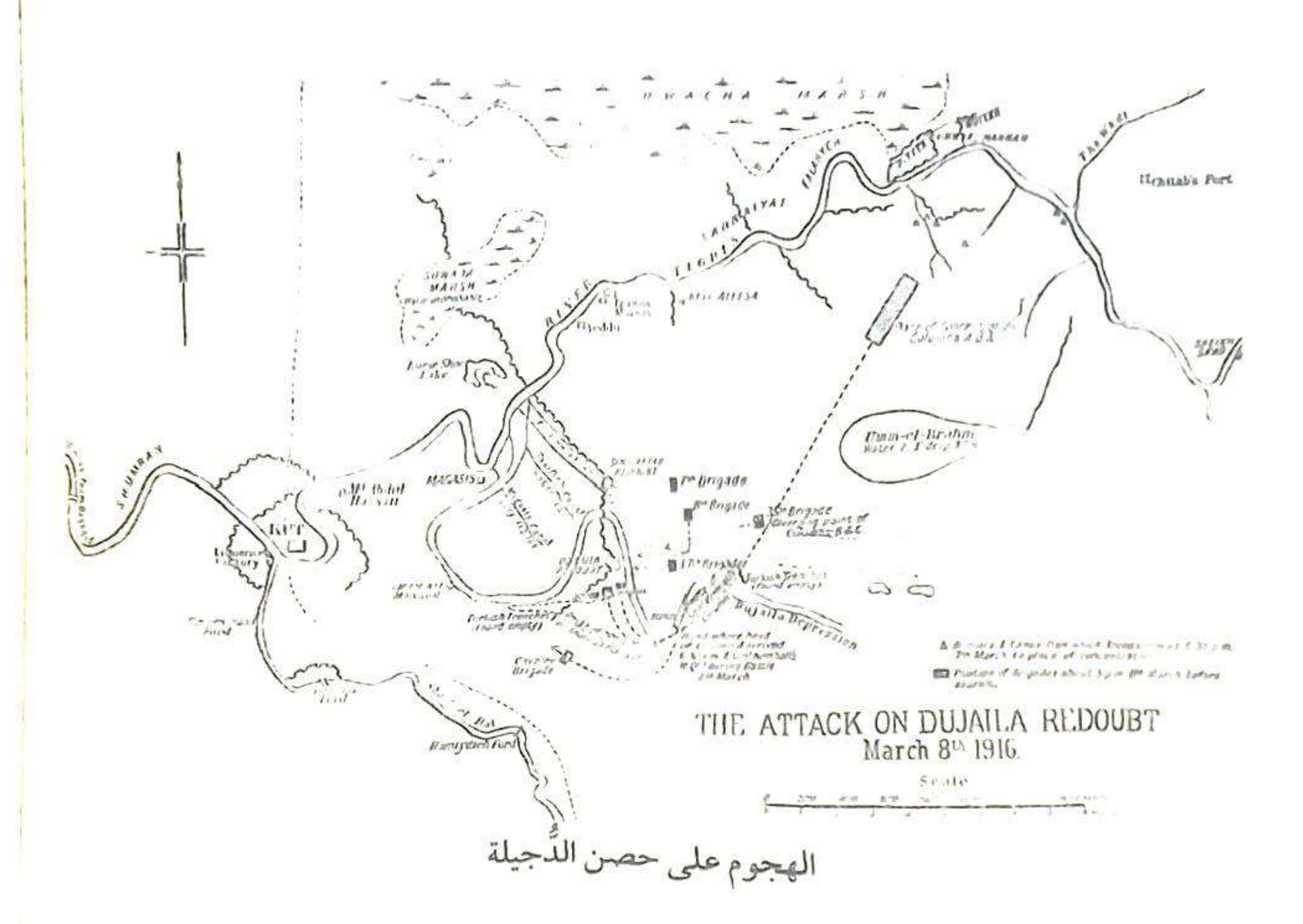
تنقطع اتصالاتنا وقواعدنا في الكوت ومنطقة العورة لم تبعد سوى خمسة وعشرين ميلاً مع تجهيزات في كل تلك المنطقة ووجود قوات مستعدة للذهاب للجحيم من أجل تقديم المساعدات.

ربما تكون مغامرة محفوفة بالمخاطر بحصول كارثة عندما يأخذ المرء بالحسبان الحالة النفسية للأتراك بدلاً من أن تكون محاولة لسباق الوقت واختراق دفاعاتهم الواحد بعد الآخر. لقد كنا باستمرار لعبة بيد الأتراك بهذه الهجمات ولا يمكن جلب قوات عبر النهر في الوقت المناسب يمكنها من تعويض القوات التي يتم خسارتها في كل هجوم. اشترك حتى الآن أربعة عشر ألف مقاتل لنجدة تسعة آلاف ولم نستول على موضع العدو الرئيس. وسنحتاج إلى أربعة عشر ألف مقاتل آخرين في أقل تقدير كلفة محاولة الاختراق والسيطرة على جميع المواضع على ضفة النهر. بينما لو تركناها لتمكّنا من إخراج طاوزند وانسحبنا من وادي العشب أو موضع أبي رمانة «حلقة التقاء بين معسكري الجنرالين» لأن العالم كان ينظر إلى الجنرال البريطاني وحاميته وليس إلى مدينة كوت العمارة القاحلة. وكان بالإمكان الاستيلاء على الكوت فيما بعد عندما يكون لدينا مواصلات ورجال وإذا ما سلمنا أنها تستحق هذه التضحية إلا أنه بوجود حامية محاصرة فإنّنا سنستدرج إلى مضايق مثلما واجهناها في (سيلى وشيربدين) عندما تشبّثنا بهدف كان بمقدور العدو أن يتنبأ به ويتوقعه ويأخذ في حساباته الاعتبارات العسكرية والسياسية بأسلوب كان يجعلنا نواجه الفشل بعد الآخر. وقدّمنا تضحيات كبيرة كانت غير متكافئة مع الهدف في ضوء المقاييس المادية ولو ذهبنا إلى طاوزند وليس إلى الكوت لحافظنا على ماء وجهنا وتقديرنا ولكانت خسائرنا أقل من هجماتنا التي أجهضت عند حصن الدُّجيلة. ولما تضاعفت الضريبة مرتين أو ثلاث مرات خلال الشهر التالي ولما استنزفت خيرة دماء الجيش البريطاني.

كانت المعركة معقّدة بعد مرض طاوزند ولو تمكّنا من حساب كلفة الحصول على الكوت والبقاء هناك التي ستتطلب إزاحة العدو من مناطق الحنة والصناعيات والسن من أجل تمهيد السبيل لنقلنا النهري لكان أفضل. ولو لم نمهّد الطريق قبل أن تنفد موارد طاوزند وتسقط الحامية ولو أرسلنا قوة لمساعدة طاوزند للانسحاب

لتمكّنا من إرجاع بعضهم ولكن من الأمر المشكوك به إرجاعهم جميعاً. في تلك الحالة سيكون من الضروري ترك قوة حراسة صغيرة لحماية المستشفى المحاصرة لئلا تسقط بأيدي العرب قبل وصول طلائع الأتراك.

يتوقف عدم تحقيق النصر الناجز على هذه المغامرة. عندئذ كل شيء سيتعلق بالحالة الملحة لقضية طاوزند وفي حالة الفشل فإنّ الفِرقة الجديدة وهي في طريقها عبر النهر ستتعامل مع الثورات العربية المعادية التي تجري خلفنا.



الهجوم على حصن الدُّجيلة

الفصل الرابع عشر

التوقف عند منطقة العورة

جعل الفشل الذي منيت به قواتنا يوم الثامن من آذار من قضية حامية طاوزند أملاً خائباً بعد أن ضيقت الفيضانات من مسيرتنا وأصبح من المستحيل استخدام المدفعية على هذه الأرض. ومكثنا في معسكر العورة منذ الخامس عشر من كانون الثاني مما سبب لنا الاكتئاب. ولم نتمكّن من إغماض أعيننا عن حقيقة أن قوة تخليص الكوت كانت تعاني من سلسلة من الانتكاسات لا تضاهيها معركة في سفر تاريخنا العسكري.

لم نفقد الروح المعنوية؛ لأنّ السياق العسكري في الجيش البريطاني كان من القوة في مواجهة تلك الظروف. لقد وهب الضباط والمراتب حياتهم سخية وهؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة أخذوا نصيبهم من العقاب بتوجيه الانتقاد والتهكم عليهم ولكن لا توجد ثقة بالقيادة العليا. وأصبحت سمعة القادة في بلاد وادي الرافدين سيئة جداً فقد هبطت سمعة نيكسون وأيلمر وكورينج إلى الحضيض ولم يكن لدينا ثقة إلا بطاوزند. وكان الانطباع العام يؤكد أن السبيل الوحيد لإنقاذ الكوت هو إنقاذ طاوزند بطائرة ووضعه على رأس هرم قيادة قوة الإنقاذ.

وكان ضباط في الفِرقة السادسة يرددون أنه من سوء الطالع ترك المواجهة. قال ضابط صف وهو يصف معركة القرنة: «كان الحظ حليفنا ولم نكن في اللواء إلا أنهم أرادوا فوجاً إضافياً لذا أضافونا». إنه من الطبيعي في العالم في عام 1915 أن يتولد هذا الشعور أو سيكون طبيعياً عندما يحصل إنسان على فرصة للتسلية عقب كل معركة إلا أنه في منطقة العورة يبدو أن الأمر مختلف بعد كل هذه الانتكاسات. كان أمر مواجهة الأتراك في الأرض المفتوحة إنجازاً نصلّي من أجله إلا أننا نسينا طعم

النصر وسيكون هناك تصنع أن تظهر الأفواج بأنها تلعن حظها العاثر عندما لم تخض هذه الهجمات الجبهوية العقيمة.

وبالطبع عندما ترسل كتيبة للمعركة فإنَّ الضباط والجنود سيكونون غير سعداء عندما لم يلتحقوا بها وبالرغم من الخسائر الباهظة في صفوف الضباط فإن تعويضهم يكون أسهل من الجنود والمراتب ومع ذلك حدث في أشهر شباط وآذار ونيسان فائض في الكثير من الأفواج للضباط برتبة نقيب وملازم أول. ووفقاً للحسابات الاقتصادية فإنَّ كل ضابط يذهب إلى المعركة يقابله ستون عسكرياً وكانت تجري قرعة لاختيار الضباط الذين يخوضون المعركة. ومن الطبيعي أن يشعر أولئك الذين لم يشتركوا بالخجل على الرغم من أن هذا الأمر غير منطقي كانوا بصراحة في وضع بائس وأن الوضع النفسي لهؤلاء يحتاج إلى توضيح لفهم أن الكتيبة هي كل شيء في العالم بالنسبة للضابط البريطاني.

وفي الحرب، لا بد أن نتوقَّع موت أعداد كبيرة من الناس ويكون التصرف المناسب هو اعتبارهم مكرَّسين لقبر جندي مات سعيداً. كم هو عذب ومجد أن يموت الإنسان في سبيل وطنه[1] هو الرثاء الوحيد الذي لا يستهان به وليست فيه منفعة ولكن في بلاد وادي الرافدين عندما أصبحت عقماً وضياعاً للحملة أكثر وضوحاً وأصبح هذا الاتجاه الذهني أكثر صعوبة للأشخاص غير المقاتلين لاسيما عندما يصاب الوطن بجرح قرب القلب ويكون بحاجة إلى هذه الجيوش. وفي مكان آخر أجلس في مطعم ضباط إحدى الأفواج بعد المعركة وأتحدث عن الأشخاص الذين قتلوا ولا أفكر بأنه في يوم ما أن هؤلاء الأصدقاء الذين أتركهم كانوا أحياء مستبشرين والآن تحت التراب. وعندما يتم القضاء على الفوج تقريباً تكون غريزة الإنسان بإخبار الباقين الذين حفتهم العناية الإلهية ليبقوا أحياء ولكن حتى هؤلاء كان لا بدّ من استخدامهم وتزويدهم بجند جدد يتم دمجهم مع البقية الأخرى بكتائب يقودها ضباط تسويق. كان يبدو أن تلك الدفعة الصغيرة من الناجين من كتيبة بلاك

---

(1) بيت شعري لقصيدة رثائية للشاعر ويلفرد أوين أنشدها خلال الحرب العالمية الأولى وأخذ عنوانها من قصيدة للشاعر الروماني هوراس. (المترجم).

ووتش وهم القس والطبيب وضابط المناورة وضابط النقل في مأمن إلا أن الطبيب دنكان الذي لم يكن يعير اهتماماً للقصف وأعيد إلى كتيبة يستر يوم الثامن من آذار قد أصيب بطلق في رأسه وتم تسريح ضابط النقل إلى خارج البلد. وتابعت خمسة من أصدقائي القدامى في منخفض الدُّجيلة عندما كنا ننتظر لشن الهجوم. قُتل اثنان منهم وجرح اثنان بعد ساعات قليلة من الهجوم والخامس نجا وسقط عند الصناعيات. في بداية شهر آذار كان لا بدّ من تزويد الألوية بكتائب مدمجة. فقد تم دمج كتائب سي فورتس وبلاك ووتش مع كتيبة هاي لاند وشكل لواء بهوبالس التاسع المعزز ببقايا كتائب راجبوتز وأصبحت ألوية نورفوكس ودورستر تشكل لواء نورستس وألوية هانتس وبوفس تشكل لواء هوفس وأصبح اللواءان السابع والثلاثون والحادي والأربعون من دوكراس يشكلان لواءً واحداً. كان فشلنا في الاختراق في الحنة بداية لحرب الخنادق. وتكررت ظروف فرنسا في بلاد وادي الرافدين مع بعض التعديلات وكان هناك اهتمام بالدوريات ومراصد المراقبة ومفارز في الأرض الحرام.

واستمرت هذه الصفحة على الضفة اليسرى لفترة شهرين ونصف من الحادي والعشرين من كانون الثاني يوم بدء المعركة حتى السيطرة على الموضع في صباح يوم الخامس من نيسان إلا أن المنطقة التي كانت تغطيها خنادقنا كانت أعمق من أي شيء على الخط نفسه من الجبهة في مناطق فلاندرز المنخفضة وهي (منطقة شمال بلجيكا وتتكلم الهولندية) وعندما كان خط نيران قواتنا بمدى سبعين ياردة من أسلاك العدو فإنَّ المتاهات المتشابهة وخنادق المواصلات لجبهة عرضها ألف ومائتي ياردة كانت مكونة من ستة عشر ميلاً من الخنادق والسواتر. في فرنسا كان الرجال سعداء أن يكونوا خارج الخنادق لأمر الإيواء ولكن هنا لا توجد موارد لإرجاعها للمعسكر ولا مآدب غداء في بيتون أو استيرز. سمعت أن كتيبة ذهبت لإنقاذ كتيبة أخرى قد أبدت تذمراً عند حزم أمتعتها والتحرك في الخنادق كان هناك دائماً إثارة خفيفة لبعض القناصة. وحافظنا على تفوق مدفعيتنا ولم يزعجنا الأتراك بقذائفهم وبالطبع عندما أمطرت السماء فرح الإنسان بعودته إلى المعسكر.

لقد مسك أحد الألوية الجانب الأيسر لقواتنا عند النهر واللواء الآخر أمسك الجانب الأيمن عند الهور. عند جانب النهر يشعر الإنسان بضيق في الخنادق

ولكن عند الهور كانت هناك فضاءات وأرض مفتوحة يستطيع الإنسان فيها تنفس الصعداء ويمدد رجليه. في نهاية آذار تجاوزنا البحيرة عند موضع الأتراك بعد أن غمرت الفيضانات مساحة مائتي ياردة أو يزيد من الخنادق وغطت المياه الأسلاك الشائكة. ويمكن أن يجلس المرء على الساتر هنا ويستمتع بمنظر العدو بعد أن يضيف أزيز الرصاص الذي يخترق الطين الصلب الذي يبعد أقداماً قليلة من رأس الإنسان شعور عام من السلام والأمن ولأننا أصبحنا مكشوفين للنيران فإن الأرض على الجانب الأيمن الواقعة بيننا وبين المياه أصبحت خطرة للقناصين. هنا جثة «عبد الله» أو «هربرت» كما يسمى هنا مفترة تحذر من خطورة الأتراك فالهجوم بعيد عنا وحُفر القناصة والألغام قريبة بمسافة عشرين ياردة من أقدامنا تشير إلى نشاطات الأسبوع الماضي.

لا يوجد هناك خوف من أحد الألغام؛ لأنها مجرد شظايا صدئة: محشوة بالمتفجرات موصلة بالأرض ومربوطة بسلك تشغيل وعندما يشاهدها الإنسان في النهار يذهب في المساء ويقطع الأسلاك ويجلبها. وقد جمع الملازم العشرات منها واستخدمها كأوزان لمسك شبكة ذبابة الرمل ونام بسلام بين حدود المتفجرات في محراب أقامه في جدار الخندق لسريره. وأظهر لي كيف تعمل وأوضح لي قائلاً: «لا بد أن ترجها حتى تنفجر». وسحب السلك برفق ليظهر ما نوع الضغط المطلوب. لقد قاومت الدافع لألوذ بالفرار؛ لأنه كان لدي شكوك بأن هذه اللعبة «الجر رجل شاهد العيان». عندما أخلى الأتراك منطقة الحنة تركوا بعض هذه القنابل خلفهم ونشروها في الحشائش بين خنادقهم. ولم يكن هناك شيء يمكن تمييزه سوى السلك الخارج من بدن القذيفة الفارغة التي كانت متناثرة في كل مكان. وسمعت بأربعة ضحايا فقط عندما انفجر على أحد الجياد وإصابته برأسه وكان اثنان من الرجال الجرحى ممددين على عربة بعد أن انفجر أحد الألغام على السايس الذي تمزّق ولم يبقَ شيء منه. وبعد انقضاء أيام الكتل الطينية والغبار والتوهج في معسكر العورة فإنّه من الممتع أن يقضي المرء يوماً أو يومين في الخنادق عند هور السويجة. قد يثير هذا الوصف استهجان الرابضين في الخنادق في الخطوط الأخرى من الجبهة حيث صعوبة الحياة ورتابتها إلا أن الأمر بالنسبة لزائر يشبه زيارة منطقة ريفية حيث يجلس على الضفة

ويشاهد الطيور ويستمع إلى زقزقة طائر القنبر وينظر إلى القمم الثلجية لجبال بشتيكو التي تكون أقرب قمة على بعد مسافة أكثر من ثلاثين ميلاً لكن لا تبدو أنها سبع قمم كما أن الممرات الضيقة العميقة الأرجوانية المفتوحة إلى السهل تسحر الإنسان وعلى الرغم أننا نخوض غمار الحرب إلا أن نداء الجبال يكون أقوى. ففي الحرب يكون من السهولة تحميل بغل وتفجيره بقذيفة مدفع على التلال بينما يتطلع الإنسان أن يكون بين الزهور العالية تحت الثلج. ومع ذلك فقد يحتاج الإنسان نصف كتيبة لغرض مرافقته لتجاوز السهل الصحراوي الذي يبدو هادئاً إلا أن فيه عرباً يقطعون رقاب من يتمكَّنون منه من أجل الحصول على ملابسه وعملوا ذلك بحق المسافرين الذين ليس لهم علاقة بالحرب.

لم نحب العرب القانطين على نهر دجلة الذين ليس لهم أخلاق حتى تلك التي يتحلى بها الإنسان البدائي. وقد ضحكنا على خدعة قام بها أحد الضباط في اللواء السادس والعشرين من البنجاب الذي ذهب للصيد قبل الفطور برفقة خمسة وعشرين رجلاً. وبدأ في الصباح الباكر وترك ستة عشر جندياً هندياً (سيبوي) في الوادي وتسلح برشاش وبرفقة خمسة رجال وأقام كميناً وطاف حول شجيرة من أجل صيد طائر الحجل والأرنب. وفي وقت قصير ظهر في الأفق شخص عربي ولفترة طويلة تردد في الاقتراب ولتشجيع العرب في الظهور أرسل النقيب بتظاهر مرافقيه وعددهم قليل إلى المعسكر وهذا ما شجع بظهور عشرة من الغرباء الذين تشجعوا بالقدوم. ولاذ الضابط البريطاني بالفرار والغرباء يلحقون به، أما الجنود في الوادي فلم يطلقوا النار حتى يقترب البدو إليهم لمسافة قريبة وفي أول صلية تجاه الغرباء قُتِلَ أربعة من العرب مُشِّطت الأرض الواقعة بين الخنادق الواقعة إلى جنوب النهر بالرصاص ولأن الأقدام لم تطأها فقد نمت بعض الخضرة. كان هناك بعض الزهور غير المزعجة والمألوفة وهي زهرة الراعي والخباز والشعير البري والبرسيم الصفراء. يعطي العشب المقصوص في منطقة المعسكر الصغير رائحة زكية. ومن برج الرصد في المعسكر يستطيع الإنسان رؤية سلسلتين صفراوين مثل أوشحة زاهية تمتد عبر الطين وهو اللون الوحيد على مدى أميال، إنها زهرة الخردل البري الممتدة بين خنادقنا والأرض الحرام حيث نقوم بجمعها وأكلها. إنها مُرّة ولاذعة إلا أنها

الخضرة الوحيدة التي قد نتذوقها على طول الشهر.أما على الضفة اليمنى من النهر فقد كانت المناظر الطبيعية الصالحة للرعي منتشرة بكثرة. ففي المناطق المجاورة للوادي المعشب كانت الشجيرات الشوكية بداية لإنتاج خضار أكثر زهواً. لم تكن الحياة النباتية لبلاد وادي الرافدين غنية أو زاهية لكن لا توجد مجاعة للطيور حيث تكثر الطيور البرية. وقد يتسبب الإنسان بإزعاج أسراب لا تحصى من الطيور مثل البط البري الحذق (بط نهري صغير) والبوشار (بط غواص ضخم الرأس) والإوز الذي يُحلِّق فوق الأهوار الممتدة بالقرب من نهر دجلة من جنوب شط العرب حتى الفاو. وتطير أعداد لا تحصى من الأسراب المُحَلِّقة مثل أعمدة من الدخان بعد أول رشقة إطلاقات من المدفعية في الصباح. ويقوم رجال الخيَّالة أحياناً بإسقاط بعض الطيور بمدفعيتهم الرشاشة من أجل تناوله بدلاً من لحم الأرنب ولحم البقر المعلب. وقد يتناول الإنسان طير الحجل الأسود والأرنب وأحياناً الحبار (دجاج بري).وفي وادي الإدخال قد يجد الإنسان أحياناً خنزيراً. ويتم صيد الحيوانات بالرماح اليدوية ويقضي رجال الخيَّالة في جيشنا عمل نهار بأكمله لصنع الرمح ولكن لا يشجعون على طعن الخنازير. وكان هناك دائماً رمح فيه دماء. وفي القرنة والشعيبة في عام 1915 كانت هناك رياضة ملاحقة الخنازير ولكن كانت هذه في أيام الرخاء البعيدة واعتقد أحد رماة المدفعية عندما وصل القرنة في الربيع وشاهد ما يجري في معسكر القرنة بأنه وصل إلى ميدان سيرك وهو نوع من مركز أولمبيا المعارض[1].

كان الخيَّالة يخوضون معارك مع البدو على الجانب الأيسر وكانت بطارية مدفعية الميدان تقصف الموضع التركي على جهة اليمين وبينهما كان الرماة يطعنون الخنازير بالحراب. وكانت واحدة من قواعد اللعبة بألاَّ يسمح للخنزير أن يتجه نحو الخطوط التركية. كانت هذه أيام جميلة تختلف تماماً عن حياة المعسكر في خنادق العمارة.

كانت هذه الأرض التي كنا نخوض عليها معركة يوم الحادي والعشرين من كانون الثاني يحفر فيها رجال الهندسة العسكرية كأنهم يحفرون بذكريات مريرة ومؤلمة.

---

(1) أولمبيا هو مركز المعارض في غرب لندن افتتح في عام 1886 وهو أكبر مبنى في المملكة المتحدة مكون من الحديد والزجاج (المترجم).

وقد يكون هذا الجانب المكتئب لحياة الخنادق نصاً جيداً لإحدى مسرحيات شكسبير من أجل استخلاص درس أخلاقي بأن الطين البشري الكريم والأنيس والودود لا بد أن يكون عدوانياً عند الموت مثل أي حمار أو بغل آخر.

كانت هناك برك في الأهوار المقابلة للخنادق حيث اعتاد أحد الجنود أن يسبح فيها ويمسك السلحفاة. لا يوجد شيء يعمله العسكري في ساعات الاستراحة عندما لم يقم بواجب الحفر أو تعزيز فتحات الرمي وفي الخدمة الفعلية يسلي الجندي البريطاني نفسه بالاعتناء بالحيوانات الأليفة الغريبة. ويقوم بمسك كل ما يقع في يده وتدريب الحيوانات من الديسم (ولد الدب) إلى الجُعل الديكي(خنفساء تتلف النباتات) ولا يبحث عن التاريخ الطبيعي للحيوان. كانت السلحفاة عند هور السويجة رفيقته في المنفى فعندما يمسك بالحيوان يربطه بخيط في رجله ويضعه فوق الساتر لغرض الرعي وعندما مات أحد الحيوانات بسبب نظام الحمية قام المقاتل من كتيبة سكوت بدفنه بانفراد مع قرص تعريفي له.

لم يكن هناك عبث في تسمية الخنادق باسم الكتائب والألوية وعندما تقترب من الخطوط التركية تنتهي التسمية بقمة الوطنية باسم «شارع الملك» و«شارع الملكة» و«شارع الأمير» و«شارع الإمبراطور». وكان التنازل الرسمي الوحيد للشعور أو الدعابة تسمية «قلعة بولمورال» قرب «آخر المرتفعات» وأقترح تسمية «قصور الحنة» ولكن تم التخلي عنها. ومع ذلك فإنَّ روح الجندي البريطاني وجدت تغييراً في منطقة الأهوار.

وعند الزاوية، كانت هناك علامة دلالة إلى «الكوت» وأخرى «عشرة أميال الى مندوندي».[1] ويسمى النفق إلى الإسعاف «شارع هارلي». ووجدت علبة بسكويت معفنة مثبتة إلى الساتر وتحت اسم «أعطينا هذا اليوم رغيفنا اليومي».

إلا أن الشيء الذي يلامس الخيال في الخنادق هو الخطوات القصيرة أمام خط

---

(1) مندوندي- مدينة اسكتلندية تقع في القسم الشمالي الشرقي من المملكة المتحدة وتشتهر بأنها مدينة علم يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء العالم للدراسة في جامعتها وتشتهر بأبنيتها القديمة التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر. (المترجم).

النار الذي يناديه تومي أج بي- تشير إلى «قفزة الساتر» وفي الأيام الهادئة يكون الهواء غير صحي على الجانب الآخر من فتحة الرمي.ويكون صوت الرصاص الاعتيادي كافياً لإعاقة أسلوب المشي الاعتيادي وفي أثناء الهجوم تكون هذه الرسل سميكة وحارة مثل الإعصار ويصبح اللهيب خلف الرشاشات قطعة من اللهب المستمر تحتاج الماكنة الداخلية للإنسان إلى فلترة قبل أن يقوم بعمل حاسم واعتدنا أن نتساءل ما سنعطي للأفواج من شرف إذا ما قمنا بالقفزة الأولى فوق الساتر.

في نهاية آذار أصبح معروفاً على نطاق واسع بأن رجال قوة كيتشز يتهيؤون لشن هجوم وكنت أقيم إقامة مؤقتة في الخنادق عندما وصلت فرقة جديدة وأول من وصل المكان هو طلائع قوة وولش وسمعتهم يتحدثون بلهجات ويلز أعلى من صوت المعاول وبمزيج غريب مع رجال المهارتا حيث كان الهنود يحفرون الخنادق وقبل يوم أو يومين من الهجوم نزلت مجموعة من الضباط الشباب لإلقاء نظرة مثل الشخص الذي يريد أن يأخذ بيتاً ويلقي نظرة قبل أخذه. كانوا مزودين بالثقة التامة ولا يوجد أحد متأثراً بالتشعبات أمام الخط التركي.

كان الهواء محفوفاً بالتغيير وكان من الصعوبة بمكان تصديق أن هناك سبيلاً آخر غير المأزق، لقد تحمَّلنا لفترة أشهر وفي غضون يوم أو يومين يمكن أن نتحول مرة أخرى إلى قوة متحركة. ومع ذلك فإنَّ كل هذه الشبكة من الشوارع والتجمُّعات السكنية ستصبح قريباً فارغة وصحراء مثل مدينتي بومبي[1] وبابل[2]. فالرجال الذين بنوا هاتين المدينتين كانوا يحفرون قصوراً أخرى تحت الأرض وظلت الكتابات التي خطت على جدرانها لا يقرؤها سوى العرب الذين لا يفهمون معناها.

---

(1) بومبي هي مدينة تقع غرب إيطاليا دفنها بركان جبل في سنة 79 قبل الميلاد وبدأ التنقيب في موقعها في عام 1748. (المترجم).

(2) بابل مدينة عريقة أنشئت قبل ستة آلاف سنة قبل الميلاد واندثرت أيضاً وتوجد أطلالها في مدينة بابل العراقية الواقعة (90 كم) جنوب بغداد.(المترجم).

الفصل الخامس عشر

الاختراق (خطوط العدوّ)

في الساعة الرابعة وخمس وخمسين دقيقة صباح يوم الخامس من نيسان حُددت ساعة الصفر لاختراق حصن الحنة. وأكملت الاستعدادات وحُفرت الخنادق الأمامية المؤدية إلى مسافة مائة ياردة من خنادق العدو ومسافة سبعين ياردة من شبكة الأسلاك الشائكة. ودُمرت شبكة الأسلاك الشائكة بنيران مدفعيتنا بعد أن تمكّنت مدفعيتنا من تسجيل إصابات دقيقة لأهداف العدو بعد مرور شهرين ونصف من حرب الحصار. وضُوعف حجم القذائف التي انهمرت على مواقع العدو ضعفين منذ هجومنا الأول الذي شن في اليوم الحادي والعشرين كانون الثاني وكان بمقدور مدافعنا المنتشرة على ضفتي النهر تحويل الموقع إلى جهنم حقيقية وفي الهجوم الفعَّال لا يترك أي شيء للصدفة. لقد دُربت الفِرقة الثالثة عشرة على العمليات وفق خطة أعدت لذلك وعرفت كل وحدة مكانها ومهمتها. كانت خطتنا تقضي بالسيطرة على الخط الأول بهجوم مباغت بدون إسناد من المدفعية ثم الزحف خلسة مع مفارز الرمي بينما سيكون الأتراك ينتظرون القصف الاعتيادي وعندما يتم الاستيلاء على الخط الأول يقوم الخط الثاني عبرهم للاستيلاء على الخط الثاني من الدفاعات ويتبعها الخط الثالث ويستولي على الخط الثالث من الدفاعات. وتفتح المدفعية نيرانها على الخط الأول وتم تنفيذ الخطة بنجاح باستثناء نقصها لعنصر المباغتة. كنتُ في خط النيران فترة نصف ساعة قبل الفجر. كان توقعنا خوض نزال دموي إلا أن معظم الأتراك أخلوا موضعهم في الليل. لقد تركوا مائة رشاش ومدفع رشاش واحد لمسك الموضع وهناك ملاحظة ساخرة «وداعاً للمعركة القادمة» قالها أحدهم عندما وقف على الساتر عند منتصف الليل وصاح بلسان غريب. وتساءلنا ماذا يعني بذلك هل يدرك بأننا على وشك شن الهجوم؟ ويبدو أنه واجه أزمة وكانت نبرة صوته فيها تحدٍّ وفسرناها بأنها دعوة «للمجيء».

في الساعة الرابعة وخمس وخمسين دقيقة زحف خطنا الأول مع مفارز القصف على الساتر وفي غضون ثوان سمعت صيحة الابتهاج ونيران الرشاشات الكثيف تخبرنا بأنهم سيطروا على الخندق. وحالاً كانت مدافعنا توجه نيرانها نحو الخط الدفاعي. لقد سبب خلو الموضع خيبة أمل كبيرة؛ لأنَّ رجال المشاة كانوا يتحركون برتل إلى الخندق وأرادوا خوض القتال وذهب بحثهم من أجل قتل شخص ما أدراج الرياح. على جانب الهور حيث كنتُ هناك كان الأتراك الأضعف، اندفع الرجال من مدينة ورك البريطانية يساراً باتجاه المدفع الرشاش وفُجّر بقنابل يدوية وقُتِل جميع أفراد المفرزة. وفي الجانب الآخر من الخط أُسِرتْ مجاميع من الجنود ووجد الخطان الثاني والثالث فارغين واندفعنا في الهجوم تحت غطاء نيران المدفعية التي تقصف الخندق بعد الآخر إلى أن اكتسحا الموضع التركي إلى الخط الأخير وبعمق ميل.كان أمراً جيداً أن يتم الخرق ويتم تفحص مواضع معادية عن قرب قد يحتاج الإنسان تلسكوباً عبر سُلم يعقوب أو برج بابل.

لقد عُمِلت فتحات في رابية الرصد التركي عبر القذائف مثل وجه إنسان انتشر فيه مرض الجدري. لقد عَمِلت الحُفَر العميقة الصفراء المملوءة بالمتفجرات خندقاً مائياً حولها. وكان الإنسان يتمنى أن يكون الأتراك هناك حتى يتلقوا التحية. وليس ببعيد كانت هناك قبور مغطاة بخشب توحي بالأمان من أصحاب النشور العرب.

في تلك الأرض التي تم الحصول عليها حديثاً، كنت مع فِرقة لا تعرفني ومن حُسن الحظ كان لدي بعد نظر عندما حصلت على الموافقة بالمرور من أمر اللواء وهو أول أمر مكتوب من نوعه طلبته للسماح لشاهد العيان بالتواجد مع قوة (أي أي أف) والمرور عبر خنادق النار لمشاهدة الهجوم «و عندما سقط الخط الأول قفزتُ من الساتر». وعند التلويح بالراية الحمراء فوق الخط الثاني ذهبتُ إلى الخندق الثاني. وكان رجال كيجنر يعتريهم الغضب من أجل القتال وأصيبوا بخيبة أمل لأن المواضع فارغة إلا أنَّ الشرف الحقيقي هو المشي فوقها. لقد قام ضابط شاب متحمس باعتقالي عندما كنتُ أشاكس في يوم هادئ؛ لأنه لم يرَ أي تركي في الموضع وعندما رأى شخصاً ملتحياً غامضاً يرتدي الخاكي مع حزام ومسدس ولا يحمل بطاقة تعريفية فوق قميصه ويطوف في الظلمة بين الخطين الأول والثاني للخنادق

التركية أثار شكوكه. كانت نوعاً من الخدعة الألمانية التي قد تلعبها فِرقة جديدة لمعرفة جاهزية أفرادها. كان الضابط الشاب قاسياً معي وأدار ظهره عن مجاملتي له وعندما أخذت بطاقتي التعريفية من جيبي قلت شيئاً مفرحاً وتمنيت أن يميز من الموقف المحرج إلا أنه ليس من الذين يقتنعون بالملاحظة. فقد استولى على مسدسي ووضع عريفاً حرساً فوقي حتى مجيء آمر اللواء الذي أمر بتحرير ضحيته. لم يكن الضابط راغباً في ذلك وشعر بخيبة أمل ربما أعيدت طمأنته. كانت الحنة مخبأ فارغاً من المرجح أن تبقى لفترة طويلة هكذا. كانت له الرغبة الجامحة بالقتال قبل نهاية النهار.

سمعتُ أنَّ ضباطاً آخرين في الفِرقة عبّروا عن مللهم وخيبة أملهم؛ لأنَّ العدو لم يكن مهيئاً. اعتقدوا بأنَّ الأتراك هربوا إلا أننا في بلاد وادي الرافدين نعرف أفضل. لقد تعلَّمنا من التجارب بأنه متمكّن من فن الانسحاب. كان كل انسحاب منفصل يمثل نصراً وكانوا يراهنون على كامل الوقت لتجويع الكوت وإضعافنا بالتقدم. كانت الأميال القليلة القاحلة بين شيخ سعد والصناعيات ثمناً صغيراً تدفعه أفضل فِرقتين بريطانيتين. على مدى شهرين ونصف كنا نحفر خنادق ضيقة حتى الموضع التركي. لقد حفرنا متاهة من الخنادق بطول ستة عشر ميلاً من الخندق. وأخيراً كنا على مسافة مائة ياردة من الخط الأول التركي ومستعدون للوثوب عند الأماكن القريبة مع كل أسلحتنا التي تدربنا عليها عندما ينسل خلسة قبل ليلة من الهجوم ويختبيء لنا مرة أخرى في السهل القاحل مثل منطقة شيخ سعد. نعلم أنه في مكان ما ليس ببعيد فالأرض التي تبدو بلا ملامح الواقعة بين الهور والنهر كان الأتراك يختبئون فيها هناك.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن نعرف مكان نيرانهم. تمتد خنادق اتصالات الأتراك على بعد ثلاثة أميال خلف موضع الحنة وبخط دفاعي مواز للنهر مع خنادق ممتدة من الشمال إلى الجنوب وتعرف بموقع الفلاحية، وهنا تحصن العدو لمواجهتنا وعندما تعرض اللواء الأربعون لنيران كثيفة من الرشاشات والمدافع الرشاشة على بعد ألف ياردة قاموا بعمل حكيم حيث حفروا خندقاً لهم وانتظروا حتى حلول الظلام. ثم شنُّوا هجوماً ليلياً واقتحموا الموضع. وذكرت طائرة الاستطلاع بأن

الأتراك كانوا يعزّزون خنادقهم في الفلاحيات والصناعيات الواقعتين على بعد ستة آلاف واثني عشر ألف ياردة من الخنادق الأمامية للحنة.

كنا في حالة من الاسترخاء ونحن نشن الهجوم إلا أننا نتعرض إلى رصاصات طائشة. وبعد انتهاء الرمي من المدفع الرشاش سمعنا صوت اللواء الواثق من نفسه عبر الهاتف يقول: «كلا - اتبعوهم إنها أرض منبسطة مثل منضدة البليارد- الأفضل استدعاء اللواءين الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين -أدخل- الليلة وطهرها رجالنا سيتعبون - بحاجة إلى راحة يمكن أن تأتي الفِرقة السابعة وتواصل».

لقد ذهبوا بالتأكيد وأزاحوهم وأُنجز الواجب بدون شك أو تردد وبعزم لا يلين مثل صوت الجنرال عبر الهاتف الذي أمر بشن العمليات. بدأ هجوم اللواءين الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين في الساعة السابعة وأربعين دقيقة بعد قصف كثيف بدأ في الساعة السابعة وعند مشاهدة الموضع في صباح اليوم التالي يمكن للإنسان أن يرى بأنَّ نيران مدفعيتنا كانت نوعاً ما مقصرة وانتظرالأتراك قليلاً من أجل المواجهة بالحراب وأخذ رجال دورسيسترز مدفعاً رشاشاً أبقاها الضابط إلى الجندي الأخير. تمتد سلسلة طويلة أمامنا من رجالنا الذين سقطوا صرعى في القتال. وقد نخرت الرصاصات أجساد الرجال الأقرب إلينا إلا أن موجات الرجال لم تتوقف فقد اندفعنا إلى الأمام وعزَّزنا خطنا بمسافة ثمانمائة ياردة أمام الخط الذي كان يمسكه الأتراك. وكان مجمل إصابات الفِرقة خلال النهار من ضمنها الخسائر الطفيفة في الحنة ألفاً وتسعمائة واثنتي عشرة إصابة.

كانت ساحة المعركة في منطقة الفلاحية في صباح اليوم التالي أكثر ميدان خيم عليه الحزن رأيته في حياتي. كان هؤلاء الرجال في العام المنصرم يدفعون العربات ويطلون الأبواب ويغنُّون مجتمعين ويجلبون الحليب من المناطق المجاورة، أما اليوم فإنَّهم يضطجعون في ساحة مخصصة للموتى في هذا الوحل الغريب الملعون. لم أرَ رجلاً نائماً في ميدان مرة أخرى بدون أن أفكر بهؤلاء. أحتفظ برسالة في جيبي من زوجة الجندي جون الذي فُقد تقول فيها: «آمل سيدي، أنا لم أسأل الشيء الكثير إلا أنني قلقة جداً بشأن زوجي. لدي ولدان صغيران وأحدهما لم يره أبداً وتنتهي الرسالة بعبارة المخلصة لك في الشدة، السيدة أج كوتيج».

ولدي رسالة أخرى من أم لا تصدق أن ابنها قد وافته المنية حيث كانت مستمرة بمتابعته في الأسماء المنشورة في الجريدة وأرسلت لي صورته وطلبت مني إيجاده والتوسل اليه بالكتابة لها. وتقريباً في كل بريد تأتي هذه الرسائل الحزينة من الأمهات الثكلى في الوطن وأحياناً يطلبن بعث صور للقبور، وبدون أدنى شك لدي رسالة من زوجة أحد هؤلاء الرجال موجهة إلى كل شخص قاس هنا وفكرت به زوجته. فرسالة السيدة كوتيج ترتفع في مخيلتي ووجه مهموم لامرأة ما تزال تنتظر أخبار الجندي جون. أج المفقود منذ معركة شيخ سعد.

لقد أضاف تجرد المشهد رثاء له فننظر إلى خيمنا في الصباح على أنها مشهد مقزز لا يلهم الإنسان على الرغم من أنّ الصحراء خالية من الأوساخ، فمفهوم الموت على الأراضي الفرنسية أسهل فهماً للإنسان الفرنسي؛ لأنه يموت فوق أديم أرضه وإذا ما تعرض أي أنج من الأراضي البريطانية للاجتياح فلا يوجد أي شيء مقدس للانكليزي من التضحية بحياته من أجل استرجاعه إلا أن المسألة هنا ليست بهذه السهولة من الفهم فكل الأشياء التي يحارب من أجلها الإنسان هنا تكون بعيدة كل البعد عمّا يدور في خلد الإنسان. فالحشود التي تهتف عند محطات سكك الحديد وأكاليل الغار في فرنسا والقبعات والرايات والإعجاب والتعاطف في نظرات النساء والبيوت والمزارع التي يدافع عنها مثل تلك التي تعود له وأطواق الحنة وحدائق الورود وزرائب الخنازير والبساتين ومحلات الخبازين هي في فرنسا وهذه أشياء الأمس واليوم وربما غداً إلاّ أنها تبدو مقطوعة هنا للأبد فالأشهر الطويلة طوتها السنون والوطن بعيد عن التفكير به. يرى الإنسان أصدقاءه يدفنون ويحفرون ويدفنون مرة أخرى في هذه الأرض القاحلة التي نرويها بدمائنا وهي الأرض التي لا توفر سكناً لائقاً لمكان الإقامة الدائمة إذا ما فكر الإنسان في حالة الضعف بخصوص هذه الأشياء. وأعتقد أنه من الشائع في الوطن التفكير بشجاعة قواتنا الذي يديمه دائماً نوع التشجيع الذي يصدح به الجمهور عندما يردد أغنية: «لا يوجد سوى انكلترا». يكون الجو العام أو لا بدّ أن يكون أينما تكون المعركة مكرساً للمعاناة وهذا ما ستخبرنا به الكتب، فالصيحات التعيسة والتطلعات والحماسة لها مفرداتها مثل أي شيء آخر يتم ترديده مثل صباحات كئيبة ورصاصات تخترق الطين وعبارة

الضباط الذين أصابتهم الغيرة من شرف الفِرقة قائلين: «لقد فقدنا معظم القوة وكل هؤلاء مجندون جدد ولم يتدَّربوا بعد». ولكن كان لديهم الإصرار والعزيمة والذكاء والانضباط في منطقة الفلاحية وعبر عريف في كتيبة بلاك ووتش عن شكوكه فيما يتعلَّق بالأسلوب الجديد قائلاً: «إنهم يقاتلون قتالاً جيداً إلا أن الجيش يحصل الآن على ديمقراطية زائدة» في طريق عودتي إلى المعسكر قمت بزيارة قصيرة إلى كتيبة أي أس وتذكرت انتقادات العريف مكناب وابتسمت حيث خرج صديقي من الخيمة ونادى واحداً من جنوده الذي كان مشغولاً بتنظيف رشاشه، قائلاً: عريف سميث «ممكن تربط حصان الضابط» ما يزال العريف سميث على الأرض يمسك بإحدى يديه رشاشه ويمسك بالأخرى اللجام ويسأل وعيناه تدور: «هل الحصان يعض سيدي»؟ ويقول له: لا مانع من مساعدتك ما دمت متأكداً أن الحيوان غير شرير. وسلك رجال آخرون تصرفات أخرى سيئة وربما تجاوزوا فيها معايير ماكناب ولكنهم بالتأكيد رجال صالحون. وبعد ليلتين شاهدت رتل الفِرقة يمر في الظلام على دُفعات كل أربعة اشخاص وإسعافات خلفهم لا يوجد صوت سوى وقع أقدامهم في الطين. وكان هناك شبه تأكيد بأنه سيموت واحد من كل أربعة جرحى أو واحد من كل اثنين.فلا بدّ من الحفاظ على مدينة الكوت التي أصبحت مثل مولوخ[1] العظيم الذي تكرس من أجله كل الكتائب وتقدم قرابين من أجل مبادئ عمياء سرت في الماضي.

ونسير الآن نحو الكارثة التي تترتب على ذلك، فالسياسة والمشاعر تتغلب على الاعتبارات العسكرية ولا يمكن تحقيق شيء آخر فلا صوت يعلو على صوت «لا بد من إطعام مولوخ».

(1) مولوخ هو إله سام قديم وهو إله الفينيقيين انتسب تاريخياً إلى ثقافات عدة في أنحاء الشرق الأوسط كافة منهاً ثقافة العمونيين والثقافة العبرية والكنعانية والفينيقية وأيضاً ثقافات بلاد الشام وشمال أفريقيا. مولوخ كان إلهاً ذا نزعة شريرة كان لا يرضيه شيء إلاّ قرابين الأطفال التي يقدمها الفينيقيون القدماء له لإرضائه فيتم حرق الأطفال بالقرب من مذبحة وتقديمهم له قرابين. وفي الاستعمال الحديث باللغة الانكليزية يمكن أن يدل اسم مولوخ على أي شخص أو شيء يتطلب تضحيات غالية. (المترجم).

وبعد أن أصابنا التعب بعد أن أمضينا يوماً وليلة في العراء عدنا إلى خيمنا وبقينا مستيقظين على نحو بائس بانتظار الأصوات التي تخبرنا أن الفِرقة الثامنة عشرة كانت في قبضة الأتراك مرة أخرى.

للعودة إلى الليلة الخامسة، لقد تقرر الاندفاع مباشرة وعدم السماح للأتراك بأخذ قسط من الراحة. كانوا يعدون وقفتهم التالية عند منطقة الصناعيات وكان يعتقد بأنَّ لديهم قوة أعظم من القوة التي كانت في منطقة الفلاحية.هنا يمسكون بثلاثة خطوط من الخنادق وجميعها كما هو الحال في الحنة تكون أجنحتها على النهر والهور ويمتد خندق الاتصالات من الحنة مباشرة إلى الموضع إلا أنه كان يبنى للدفاع وتكون مباشرة وتمشط بنيران مدفع رشاش وكانت أخطر خط عند الاقتراب منه. وما كنا نعتقده في وقته بأنه سيكون العقبة الحقيقية وهو جوهر كل شيء ومفتاح الكوت ويقع على بعد ستة أميال خلف دفاعات موقع السن الذي أمضى فيه الأتراك أشهراً من أجل بنائه. ومن أجل انتزاع هذا الموقع فقد احتفظَ بالفِرقة الثالثة عشرة التي كانت أقل إرهاقاً في الحرب من الفِرَق الأخرى؛ لأنها لم تشترك في الحرب منذ معركة جاليبولي حتى معركة الحنة.

وهكذا فإنَّ الفِرَقة السابعة ناقصة اللواء الحادي والعشرين قد هُيئت لمعركة الصناعيات وكنا نعتقد بأن هذه المهمة كانت الأخف وطأة وتم التعامل مع الأتراك بقسوة في الليل وكان من المستحيل أنْ يقفوا وقفة أخرى جدية قبل منطقة السن.

وجاءت الفِرقة السابعة الباسلة ذات الحظ العاثر من أجل إراحة الفِرقة الثالثة عشرة وفي المساء، تقدَّموا في جنح الظلام بتشكيل تحضيري إلا أن رجال كيسنجر أُخذوا على حين غرة فقد عاد بعضهم في الألوية وآخرون أصابهم التعب واستلقوا في المواضع التي أخذوها كأنهم أموات وكان لا بدّ أن يعيدوا تشكيل رتل مرة أخرى وينتشروا في غضون ساعة إلا أنهم فقدوا المسار ووجدوا أنفسهم عالقين في شبكة من الخنادق مما جعلهم يتراجعون؛ لأنهم لم يتمكّنوا من جلب المدافع الرشاشة في الظلام وكان لابدّ أن يتركوها خلفهم حتى الساعة الرابعة والنصف وهي ساعة الصفر لبدء الهجوم وكانوا لا يزالون بعيدين كل البعد عن موضع العدو. في الساعة

الخامسة والنصف عندما اقتربوا لمسافة ثمانمائة ياردة من الخط التركي الدفاعي طلع الضوء وكان بمقدور الأتراك رؤيتهم بوضوح وهم مختبئون في خنادقهم ولم يطلقوا نيران أسلحتهم حتى اقترب اللواء لمسافة سبعمائة ياردة ثم صبوا حممهم. تقدمنا في هذه الحال لمسافة مائتي ياردة ثم تراجعنا وحفرنا لأنفسنا خنادق. لقد أصيبت الكتائب الباسلة للفِرقة السابعة بالإرهاق وتقطّعت أوصالها مما تطلّب استدعاء ما تبقى من القوات على الفور بعد معركة شيخ سعد والوادي والحنة لعمل المستحيل وهو التقدم في وضح النهار لمواجهة خندق متحصن بدون إعداد الأسلحة في سهل مفتوح تماماً بل كانت تنقصهم حتى المدافع الرشاشة. ويحدونا الأمل بأنّ خطوطهم الضعيفة لن تضعف مرة أخرى إلا أنّ حامية منطقة السن بدت للعيان وأُمسك بمنطقة الصناعيات بقوة وارتفعت مياه الهور مما أعطاهم موقفاً طبيعياً أقوى من ذلك الذي تم تهيئته خلفهم. وكان من الأجدر لو أُجِّل شن الهجوم إلى أن يحل الظلام أو إيقافه حتى جلب المدافع إلا أن القيادة العامة أصدرت أوامرها للواء بالتقدم مهما كلف الأمر. ولا بدّ أن يكون الأتراك مطاردين في هذه الحالة سيكون من الأجدر عدم الحفاظ على مصلحة الوطن. وسقط ألف ومائة مقاتل في اللواء الثامن والعشرين فقط في الدقائق القليلة الأولى من الهجوم وسبعمائة مقاتل من اللواء التاسع عشر على الجهة اليسرى؛ لأن جزءاً من الخط لم ينتشر عندما تعرَّضوا إلى نيران العدو. وفقدت قوة أوكسفورد ثلاثة عشر ضابطاً وقوة ليسستر أحد عشر ضابطاً واللواء الحادي والخمسون من السيخ (ثمانية ضباط) وكتيبة هاي لاند (من بلاك ووتش وسي فورتس) (أحد عشر) ضابطاً. كان سيل من الأموات وكان اللواء الحادي والخمسين من السيخ ولواء المشاة من أكسفورد وبوكس في المقدمة وقوة ليسستر في الخط الثاني واللواء الثالث والخمسون من السيخ واللواء السادس والخمسون من حملة البنادق خلفهم. وسلمني أحد ضباط الأركان المنظار وسألني: «هل ترى ذلك الخط من الذين يرتدون الخاكي الذين هم على مسافة خمسمائة ياردة من العدو»؟. وأجبته: نعم لماذا لم يحفروا خنادق لهم؟.

كان الموتى سعداء إلا أن التفكير بالجرحى الذين يجلبون قد أثار حزني ويصاب الكثير منهم مرة أخرى ويقتل الكثير قبل حلول المساء وقد يتم جلبهم وتلك أيام

المعركة التي تبدأ بمسيرة ليلية مرهقة لهم وساعات طويلة سقيمة حتى للإنسان السليم. وعلى جانب الهور جلبت العاصفة الهوجاء فيضاناً اكتسح الميدان الذي يتواجد فوقه الجرحى وفي اليوم التالي السابع من نيسان تكبَّدت الفِرقة مرة أخرى خسائر جسيمة. وأدركوا بأنهم لن يعملوا شيئاً حتى حلول الظلام إلا أنه في الصباح جُلبَ اللواء الحادي والعشرون المتبقي لغرض الإسناد ومد الخط إلى النهر وكانت الأوامر الصادرة تقضي «بالتقدم إلى أقصى مسافة ممكنة وحفر خنادق لهم بدون أن يورطوا أنفسهم». لقد تقدم اللواء طول النهار وبإسناد من قصف متقطع وحفروا خنادق لهم على مبعدة سبعمائة ياردة من العدو ومُشطت المنطقة كلها بوابل من الرصاص. كانت أكثر الإصابات وطأة في صفوف فوج نابير لحملة البنادق وفقد الفوج نسبة واحد وستون بالمائة من قوته القتالية وسقط آمر الفوج في البداية وأصيب الضابط الأقدم قبل أن تصل الرسالة له ويطلب منه تولي زمام القيادة والرجل الثالث الذي أوكلت له مهمة القيادة سقط قبل أن يصدر أي أمر. كان المشي غير ممكن بأي مكان بمسافة ألفي ياردة من خنادق العدو. وقد أوضح لي (أر أي.أم. سي) بهدوء أصبحت إسعافاته غير فعالة نظراً؛ لأنهم أمضوا نهارهم بطوله يجلب بعضهم بعضاً وقال: مضحك «سيدي» هذا الحلاق الأنيس من بيكادلي يقول: «أينما تحرَّكنا لا بد أن أتوقف وأجلب واحداً وكنت الوحيد الذي لم أسقط».

وكان الجزء المأساوي في القضية هو أن التقدم قد يباشر به عند المساء بخُمس الخسائر كما حصل أننا اندفعنا بمسافة مائتي ياردة بعد حلول الظلام مع تكبدنا مزيداً من الخسائر ووصف ضابط الأركان العمل النهاري بأنه استعراض القوة العسكرية والذي كان أسوأ كلمة في القاموس من وجهة نظر ضابط الصف و«تعني عموماً» بأنَّ اللواء قد يعاقب بقسوة بدون أن يحصل على شيء بالمقابل، وبالتأكيد لابد أنه كان هناك تعويض للخسائر ووجود غرض مخفي لكل هذه الخسارة البشرية لكن لم يتجرأ أحد على توجيه سؤال إلى القائد الأعلى ما هذا الغرض واستنتجنا أن استعراض القوة العسكري كان مرتبطاً بعمليات مخطط لها تجري على الضفة الأخرى من النهر.

لقد أُبيدَ ألفان وستمائة وخمسون رجلاً يومي السادس والسابع في الهجوم الذي

شن في وضح النهار بينما كان يجب أن يتحصنوا أمام خط العدو. ولو جلبنا هذه الألوية في المساء وأشركناهم مع الفِرَقة الثالثة عشرة في هذا الهجوم يوم التاسع لربما تمكّنت الفِرقتان في اقتحام الموضع. وفي الساعة التاسعة من مساء اليوم السابع من نيسان قمنا بدك خنادق العدو. وفتح الأتراك نيراناً سريعة وأطلقوا مشاعل التنوير على طول الخط وبدلاً من أن نهاجم قمنا بالانبطاح ثم بعد لحظة فتحت مدافعنا نيرانها عليهم مرة أخرى عندما كانوا يهيئون سواترهم بانتظار مجيء مشاتنا. لا بد أن تكون هذه مفاجأة غير سارة وفي غضون ذلك كشفوا ترتيباتهم. واكتنف خطة العمليات الغموض التام ولكن كان يبدو لنا في ذلك الوقت طريقة واحدة لتوضيح هذه التكتيكات وكان الهدف هو إبقاء العدو على الضفة اليسرى بينما عبرت الفِرقة الثالثة عشرة واندفعت بهجومها على اليمين. وتم البدء على نحو سريع بمد جسر عبور النهر ولكن في صباح اليوم الثامن لم ينتهِ من بناء الجسر وأصبحت الأرض على الجانب الآخر عبارة عن مستنقع. وكان من المستحيل الحفاظ على عنصر المباغتة؛ لأنَّ الأتراك لا بد أنهم أدركوا بأننا كنا نخدعهم ونتظاهر بقواتنا بالتقدم في أرض مفتوحة بدون قصف يتبعه التقدم والشيء الظاهر هنا خدعة من الطراز الأول أو خدعة من الدرجة الثانية لإظهار نية الهجوم المباغت بصورة هجوم حقيقي في الوقت الذي كنا نقنعهم بأنه هجوم مباغت وإذا كنا ننوي ذلك فإنَّ المهارة كانت تنقصنا.

في صباح يوم التاسع من نيسان، شنت الفِرقة الثالثة عشرة هجومها الثاني على موقع الصناعيات. لا يوجد شيء في المعركة بحاجة إلى توضيح فقد أُعيدت الحكاية القديمة باستثناء أننا قرَّبنا مزيداً من قوة الضربة إلى خنادق العدو وكانت هناك لحظة عندما برز المد. كانت مسيرة ليلية جيدة وانتشرت الألوية الثلاثة بصمت ووصلت إلى مواضعها بنظام تام. وفي الساعة الرابعة والنصف تقدموا بمسيرة بطيئة لشن الهجوم وأوقف العدو نيرانه حتى الساعة الرابعة وتسع وعشرين دقيقة عندما أرسل مشاعل تنوير وكان الأتراك أمامنا بهذه المشاعل التي أنارت المكان برمته كأنه نهار وهذه هي لحظة الهجوم. ووصل بعض من قوات ويلتشيرز فوسيليرز وكينك أون ونورث لانكشاير إلاَّ أنَّ عدداً قليلاً منهم فقط تمكنوا من العودة.

كان هناك ثلاثة خطوط قوية من الخنادق في منطقة الصناعيات ويعد الخط الثاني

عن الأول مسافة خمس وسبعين ياردة والخط الثالث مسافة مائة وخمس وعشرين ياردة خلفهم. وكان من المقرر أن يقوم خطنا الأول والثاني بالاستيلاء على خطهم الأول وخطنا الثالث والرابع يندفعان للاستيلاء على الخط الثاني وخطنا الخامس والسادس باتجاه الثالث إلا أن صور طائراتنا كشفت وجود خط آخر وكانت متاهة المخابئ تبدو مثل الزواحف مع مجساتها ممتدة في خندق النيران وكنا نطلق عليها حفر الأفعى، صممت هذه الحفر ببراعة لمواجهة القصف ويندفع الأتراك بداخلها وعندما اندفعنا في الخندق صب علينا وابل من القنابل اليدوية من مواضع مخفية لم نستطع تحديد مواقعها. في غضون ذلك تراجع الخط الثاني بعد أن تعرَّضوا لعقاب مروع لم يحققوا تقدماً وتحدث هذه الصدمات الارتدادية الجماعية التي تعمل أحياناً ولاسيما في الهجوم الليلي إلى شلِّ أفضل الجيوش في العالم. لا يستطيع الرجال الذين لم يختبروا بالطريقة نفسها إدانة هذا الفشل وكل ما يستطيعون عمله هو أداء دون التحية العسكرية بتواضع للأرواح التي ترتفع في هذه المحنة.

قُدرت خسائرنا ما بين ألف وستمائة الى ألف وسبعمائة بإجمالي ثلاثة آلاف وستمائة إصابة من الفرقة الثالثة عشرة في معركتي الفلاحية والصناعيات من ضمنها الخسائر الطفيفة في معركة الحنة أو نسبة ستة وأربعون بالمائة من حجم القوات المشتركة فعلياً. ففي البداية تكبَّدت ألوية المشاة الثلاثة ما بين ثمانية آلاف إلى تسعة آلاف إصابة فضلاً عن هذه الألوية كانت هناك كتيبة وولش بونيرز. كما كنا في عمليات شهر كانون الثاني والآن في نيسان فإنَّ عناصر الطبيعة تبقي على قواتها حتى اللحظة الحاسمة ثم تطلقها بعنف مدمر. في أيام الأرمادا[1] القديمة الجميلة كان إله العواصف إلى جانبنا. أما الآن فإنَّه إلى جانب الأتراك. لقد واجهنا مثل تلك الأيام في قتالنا على نهر دجلة والهور فضلاً عن الأتراك. واستنزفت قواتنا في بناء السدود لدرء الفيضان ويرتفع نهر دجلة أو ينخفض عند ذوبان الثلوج في الشمال، أما الهور فيقترب وينحسر وفق تغييرات الرياح. ففي اليوم السادس أعاق فيضان

---

(1) الأرمادا التي لا تقهر هو أسطول حربي وجهته إسبانيا عام 1588 لمقاتلة الانكليز فدمرت العواصف فضلاً عن الأسطول الانكليزي معظم أسطول الأرمادا المكون من السفن العملاقة. (المترجم).

الهور العمليات التي كانت تجري على الضفة اليسرى، أما على الضفة اليمنى فقد أخلى الأتراك الخنادق عند منطقة (أبي رمانة) لارتفاع مناسيب النهر وقطع خط نيراننا من قاعدتنا. وفي ليلة الحادي عشر مرت بنا عاصفة رعدية هوجاء.وبعد الظهر من اليوم الثاني عشر واجهنا مطراً غزيراً مفاجئاً وعاصفة برد وإعصاراً استوائياً. وكان الرذاذ يقفز بارتفاع أربعة أقدام في نهر دجلة على الجانب الأيسر من النهر، أما على الجانب الأيمن فإنَّ هور السويجة هدد بالدخول والارتباط بنهر دجلة والفيضان دخل معسكرنا.كنا نشاهد أمواجاً صفراء ترتفع فوق مستوى الخيام وإن السد الذي بناه الأتراك وعززه رجال الهندسة العسكرية لقواتنا لم يدرأ الخطر عنا ؛لأنَّ الرياح لم تتغير على نحو مفاجئ وعند الغروب اقتحمت المياه خنادقنا الأمامية وأصبحنا في مواجهة مع الموضع التركي وكانت موّجة المياه القادمة من فوق السد كالطود الشامخ غمرت المعّدات الشخصية والخصص الغذائية وأدوات حفر الخنادق. وكان بعض أفراد اللواء على الجانب الأيمن مضطرين لخوض المياه سباحة. لقد واجه الأتراك المحنة نفسها التي مرَّت بنا ويدل وابل النيران العنيف والمفاجئ أو القصف المدفعي بأننا أو العدو أو كلانا قد غمرت خنادقه المياه وجعلته هدفاً مؤقتاً.

وفي اليوم الثاني عشر جلبت قوة (سي فورتس) مدافعها الرشاشة باتجاه الأتراك وحصدت مائتي تركي. وأخيراً شُجعوا الخروج في الأرض المفتوحة في وضح النهار. ثم قبل حلول الظلام هدأت الرياح وانحسر الهور وأصبح كل شيء هادئاً. وتمدد مرة أخرى خطنا والخط التركي الذي تقلّص لفترة قصيرة. كانت الاضطرابات العنيفة طبيعية. إنه الإفراط ونادراً ما يكون الطقس معتدلاً.فقد تأتي عاصفة بعد نهار حار استوائي لذا يكون هناك اختلاف في درجات الحرارة بين الليل والنهار بمعدل أربعين درجة.

في الوقت الحاضر أصبحت جبهتنا المغمورة بالمياه الضيقة عند منطقة الصناعيات عائقاً معترفاً به وتحول اندفاعنا إلى الضفة الجنوبية.



نهر دجلة ومنطقة الحنة في ليلة الخامس من نيسان بعد سقوط الكوت: الجنرال طاوزند

الفصل السادس عشر

بيت عيسى

غادرت الفرقة السابعة بعد أن أخفقت في هجومين عند منطقة الصناعيات لمسك الخط بين النهر والهور، وكان الاندفاع التالي على الضفة اليمنى من هنا. كانت هناك شبكة من الخنادق ومفارز طوارئ لحماية الجيش فضلاً عن خطين معقَّدين عند بيت عيسى والشهيلة قبل أن نتمكَّن من التقدم على الموقع الرئيس في منطقة السن. لقد واجهت العمليات إعاقة تمثلت بالمستنقعات والأتراك الذين كانوا يسيطرون على النهر ويمكن أن يسيطروا على عملية إغراق المناطق وأصبحت مياه الفيضان خلف جيشهم الأكثر تأثيراً وكان هناك دائماً خطر أن يتسلَّلوا خلفنا عبر نهر دجلة ويقطعون طرق مواصلاتنا ويتركوننا عالقين. وهذا كان سبب ثباتنا على نهر دجلة ولم نتمكَّن من شن ضربة مباشرة لمنطقة سن عفتار أو حصن دُجيلة. وفي وقت واحد قُطع خط نيراننا بعد منطقة أبي رمانة من الاتصال بالخلفيات والتجهيزات التي كان يستلزم جلبها عبر النهر في زوارق (مهيلة) في المساء بينما يقوم أفراد الهندسة العسكرية ببناء السد وشق الطرق.

بدأ التقدم على هذه الضفة بعد توقف طويل عند منطقة العورة واحتلال منطقة أبي رمانة التي تزامنت مع الاستيلاء على موقعي الحنة والفلاحية وظلت خنادق العدو ومواضعه متصلة هنا ويفصلها عائقين على الجناح. وفي ليلة الخامس من نيسان عندما اقتحمنا منطقة الحنة قاموا بإخلاء مواضعهم. وكان تقدمنا بعد ذلك تدريجياً أعاقته العواصف والفيضانات ونُفذ بسلسلة من المعارك الصغيرة التي أجبرت الأتراك على التراجع إلى موقع مهيأ مسبقاً في منطقة بيت عيسى؛ ونظراً لطبيعة الأرض ذات المستنقعات فإنَّ الرصد كان صعباً وكانت حركة المجاميع الكبيرة من

القوات مستحيلة وكانت هناك أعمال قليلة مشرقة أنجزتها المراصد في بداية الحملة وقد خطت بأحرف من نور ولأنها كانت أعمالاً روتينية فلم تسجل. وأخذت زمام المبادرة والإقدام الفردية مداها الكامل ولم يختبر التحمُّل إلا في حدوده الإنسانية. وليس من السهولة بمكان إدراك الصعوبات التي واجهتنا في هذه الأسابيع عندما كنا نقاتل أحياناً في الماء ولا توجد أرض يابسة لإقامة المخيم. وفي تلك الأسابيع كان رجال الهندسة العسكرية يكافحون ليل نهار وبدون كلل ولا ملل لمواجهة الفيضان. لقد حصلنا على أول موطئ قدم في منطقة بيت عيسى في الخامس عشر من نيسان عندما استولينا على الحصون الأمامية عند الفجر بعد أن تقدَّمنا بهجوم عنيف عبر المستنقع.وفي يوم السابع عشر استولينا على الموقع حيث كنت مع اللواء الثامن في الصباح. وقد روى تفاصيل الهجوم قائدا اللواءين السابع والتاسع وكان لا بد أن نأتي قبل الفجر ونسيطر على خنادق (اكس- واي) عندما اندفعنا إلى الأمام. ومرشدنا الوحيد الذي أضاع نفسه في المسيرة الليلية وأمضينا ساعات تعيسة في القيام بالتفافات بطيئة في المستنقع أو كنا نبقى واقفين لعدم وجود مكان للجلوس مما استغرقنا الكثير من التفكير في العناد. وعندما وصلتنا مفرزة رهودز ارتفعت الشمس ويعني هذا أن أمامنا ألف وخمسمائة ياردة للتقدم في وضح النهار من أجل الوصول إلى خنادقنا. وانتظرنا القصف وتحقيق الاختراق بأقل الإصابات. وعندما تقدمنا لم ندرك بأن الهجوم كان يسير على ما يرام واقتحم اللواء التاسع خنادق العدو قبل أن يتوقف القصف ثم جاء بعدهم على الجبهة اليمنى اللواء السابع. وظل الأتراك مختبئين ويبدو أنهم أخذوا على حين غِرَّة. لقد وصلنا في المساء وبهدوء ولم يكونوا مهيئين للتصدي لهجوم تشنه ثلاثة ألوية وهي اللواء التاسع بقيادة آمر الفوج الأول والتاسع الكوركا (جنود من النيبال) وبدعم من اللواء الثالث والتسعين من بورما ولواء (اي أل اج) الاحتياط. وقد أدرك الكوركيون بأن الأتراك أصابتهم الصدمة أو «أخذوا على حين غِرة» بعد أن سمعوا عبارات إنكليزية-هندية وكان الكوركيون أمام خيارين إما الاقتحام بينما يكون جنود العدو جاثمين يرتعدون وليس أمامهم فرصة أو الانتظار لحين توقف القصف عندها وبدون أدنى شك فإنَّ الأتراك ستنزل عليهم النعمة الإلهية ليكونوا مستعدين لفتح وابل نيران أسلحتهم. وبغريزة شخصية

صحيحة اقتحموا الخندق وقتلوا كل من فيه بعد أن قطعوا وجرحوا بوحشية وطعنوا بحرابهم أو أطلقوا نيران أسلحتهم لإنهاء العمل وأخذوا ثلاثة مدافع رشاشة ومشّطوا الخط الثاني وارتكبوا مجزرة مشابهة لما جرى. ثم نهض الخط التركي الثالث وولوا الأدبار تلاحقهم نيران مدافعنا التي توقفت على بعد خمسمائة ياردة في الساعة السابعة والنصف. هنا ولتتويج عملهم قاموا بالاستيلاء على مدفعي ميدان تركيين. وفي غضون ذلك قامت مفرزة القصف المدفعي للواء التاسع بتمشيط خمسمائة متر من خندق المواصلات الرئيس الذي يؤدي إلى موقع شهيلة وأمسكته بينما قامت مفرزة الهندسة العسكرية بإقامة عائق آخر[1].

وفي غضون ذلك، اقتحم اللواء السابع المؤلف من قوة كونوت رانجرز واللواء التاسع والثمانون من البنجاب خط أ1 أ3 واندفعوا على طول ضفة النهر وسيطروا على القنوات الأمامية للنهر أ51 أ16 لإمساك حدود هدف قواتنا. قام الأتراك في خنادقهم وسلموا أنفسهم بمجاميع وتم أسر أكثر من ثلثمائة تركي خلال النهار ومائة أخرى في المساء.

كانت معركة بيت عيسى بالتـأكيد يوم تصفية حساب وهذا ما قرأته في وجوه رجالنا. لقد أصابتني الدهشة لرؤية رجال الكوركا الصغار وقد لطّخت الدماء حرابهم وملابسهم وهم يتنقلون بين الخنادق ويجلبون الذخيرة ويحملون صناديق القنابل وهم فرحون ومتحمسون ومنشغلون مثل ابن مقرض[2] ولم أشاهدهم من قبل في الوطن.

كان الأتراك على مبعدة مائتي ياردة من رجال الهندسة الذين يقيمون حاجزاً مزدوجاً وإزالة القنوات وترك مسافة خمسين ياردة ليتم تغطيتها بنيران أسلحتنا. في هذه المنطقة وأبعد منها كان دم الشاب النيبالي يسحب بإفراط ولكن بقيد ملتزم. ولا يوجد في سلوك الكورك شيء اسمه الحذر وسمعتُ ضابطاً في سرية السيخ يقول: «إنّ هؤلاء الصغار ينطلقون بسرعة ولأميال أمامنا وإذا لم تنتبه لهم فإنهم سيقومون

---

(1) 6أ في الخريطة.

(2) ابن مقرض هو حيوان يشبه ابن عرس يزعج الحيوانات ويجبرها على الخروج من جحورها. (المترجم).

بقفزة كبيرة وإنهم يقضمون أكثر مما يمضغون» وفي غضون ساعات طبقت الكلمات بمعناها الحرفي ولم يكن سوى الصغار مستعدين لهم ولم يكن خطؤهم أن يكون لديهم هذه النقطة في الخط من أجل السيطرة عليها.

لم أرَ سابقاً هذا العدد الكبير من القتلى الأتراك لقد ضاقت بهم الخنادق ورُفعَت مجاميع منهم وطُمرت على الحشائش لجانب واحد من أجل إفساح المجال. وكانت أجسادهم معرَّضة للطعن بالحراب أو ضربت بالهراوات أو وجود فجوات بها. وكان هناك جريح ممدد فوق كومة من القتلى وقد شقت جمجمته بحربة كادت أن ترديه قتيلاً. وكان ذا ملامح لشخص عربي من الموصل وعبر لي بابتسامة متملقة مقززة مع حركة لشفتيه وبياض عينيه مشيراً بضعف إلى فمه طالباً جرعة ماء وأصابتني الدهشة؛ لأنَّي لم أشفق عليه. وبدلاً من أن تُثار شفقتي عليه استعرت نار غضبي[1] ولو كنتُ مكانه لأفسدني. ولأشهر قام الرجال ذوو الوجوه ذات السمات المشابهة المتوحشة بقتل أصدقائي الذين كانوا أشد الرجال بياضاً على الأرض. ويوجد تفاوت مقزز بين ما تحدثه طلقاتنا وطلقاتهم من تدمير. وعندما نظرت إلى الرجل أدركت حجم بشاعة الحربة. في أثناء الصباح تجمع الاتراك وشنُّوا هجومين مضادين وتم التصدي لهما بسهولة.

كنت في منطقة مجاورة لـ(أ12) في ذلك الوقت الا أنني لم أشاهد أي شيء وكنت أسمع شائعات غامضة إلى أن رجعت إلى مقر اللواء الثامن عند مفرزة رهويدز حيث كانت هيئة الأركان تراقب سير المعارك من المواقع المتقدمة. وأخبروني كيف كان الضباط الأتراك يظهرون بسالتهم ويحثون رجالهم في القتال إلاّ أن قلب فرقتهم الخامسة والثلاثين وظهرها قد كسر. لا يرى الإنسان إلاّ أقل القليل من سير المعركة في المناطق القريبة ما لم يكن قد خاض الهجوم الفعلي. ومن الصعوبة بمكان الحصول على المعلومات على ما كان يجري ؛لأنَّ جغرافية منطقة بيت عيسى كانت محيرة إلى درجة أن الأتراك كانوا في الخندق نفسه الذي يتواجد فيه الكوركا (الجنود الهنود) الذين كنت أتكلم معهم قبل لحظات ولم يتمكَّنوا من

(1) أتكلم عن العرب على نهر دجلة وليس الأتراك.

رفع رؤوسهم فوق الساتر المزدوج. وشاهدتُ مجموعات من رجالنا يركضون إلى الأمام ويحتمون حيث لا أشك بوجود أي من جنود العدو أو يقفون أمام الأفق حيث يتوقع الإنسان الموت في أية لحظة. ثم تبدأ القذائف تتساقط لتمشيط الميدان حيث يوجد شخص في البرسيم وكان رامي المدفعية التركي يستهدف هذه الزاوية لتمشيط المنطقة وسقطت القذيفة إلى أقرب منطقة حتى يشعر الإنسان أن القذيفة التالية ستسقط على حفرته وانتظرنا لكن لم تأتِ قذائف أخرى ولمدة نصف ساعة ساد السلام وهو السلام الذي كان فيه الوجود المستمر نعمة شخصية ويستطيع الإنسان أن يمضي وقتاً في مشاهدة مستمرة للون جناح اليعسوب. وعندما نظرت إلى الأعلى شاهدت رشاشة معززة بحربة قد غرزت في الأرض وهي إشارة إلى جريح. واقتربت منها فوجدت رجلاً قد فارق الحياة. وقد أدت القذيفة نفسها إلى مقتل رسول ضابط الهندسة الذي كان مضطجعاً على ظهره ويحضن كتلة من رسائل الميدان وإلى الخلف كان القتلى أكثر؛ مما يثير الدهشة بأن هناك فجوة كبيرة أحدثتها صواريخ العدو التي تسبب بهذه الشبكة الواسعة ويأخذ جسد الإنسان حيزاً صغيراً جداً من المشهد. وتعد هذه من حرب المفاجآت القليلة في عدم اتخاذ زمام المبادرة. وفي كل تجربة جديدة تقريباً يوجد هناك بعض العناصر غير المتوقعة. ويختلف الواقع عن الصورة إلا أن انطباعي للمعركة الحديثة الأولى فكل شيء كان يجري كما توقعته تماماً. وتبدو المناظر والأصوات والمؤثرات مؤلفة بالرغم من كونها جديدة. ولا شيء يثير الضجر والسأم أكثر من وصف معركة فيها جرأة في الهجوم واستماتة في الدفاع. انهمار الرصاص وريح القذائف وأربطة الموتى حكاية تتكرر بينما يوجد تنوع في اهتمامات القصة المروية بشأن مباراة الكريكت التي تجري في القرية أو السعي وراء كلاب الصيد. إلا أن الرتابة في هذا الصراع في بلاد وادي الرافدين كسرته بعنف الهجوم المضاد الذي شنَّه الأتراك وقد كان مفاجئاً لنا؛ لأنه لم يدرس في أدبياتهم العسكرية ولم تكن هناك أي مبادرة في الهجوم منذ انسحابنا من المدائن. وأوضح الأسرى بأن الأتراك فقدوا المفتاح الرئيس لهذا الموقع وأصبح من الضروري إخراجنا من الباب وسمعنا أيضاً إشاعة في المعسكر التركي بأن الكوت أمامها أيام قليلة في الصمود وهم يحثون على اتخاذ موطئ قدم في منطقة السن وإلا

فستكون ضربتنا تمضي أدراج الرياح ومن الأفضل كسر رأس الكبش قبل أن ينطح. وربما كان التغيير في تكتيكهم من أجل مسك ضفة النهر للسيطرة على الفيضانات. وكانت لعبتهم بدفع الفيضان خلفنا إذا ما تحرَّكنا جنوباً نحو منطقة سن عفتار أو حصن الدُّجيلة. وفي كل الأحوال لم يكن الأتراك حمقى في عدم اختيار اللحظة المناسبة لشن الهجوم. وبوجود الهور خلفنا والمضايق التي يوجد فوقها جسر واحد لعبور القنوات في حالة انسحابنا لا بدّ أن تكون في مكان ضيق إذا ما اقتحموا على طول خطوطنا ووصلوا إلى مدافعنا. لم يعتمد الأتراك على عنصر المباغتة. كانت خطتهم بالهجوم بكتل من القوات والسيطرة على الموقع باندفاع أعداد كبيرة. لقد شارك اثنا عشر فوجاً في الهجوم مع الجزء الأفضل من فرقة احتياط. جُلِبت وتم جلب نصف حامية السن وَشُنَّ الهجوم من أشهر فرقتين في اسطنبول اللتين شاركتا في حرب البلقان وواجهتنا في مدينة جاليبولي وعموماً يعرف أفرادهما بنخبة الجيش التركي. بدأ الهجوم بقصف مدفعي إلا أن الإشارة الأولى عنهم جاءت من اللواء التاسع والخمسين (وأي) لحملة البنادق الذي ذكر بأن قوة معادية كبيرة تتحرك شمال الشرق باتجاه حصن سن عفتار. وقد أكدت التقارير من قبل موقع الرصد المدفعي ثم ذكر اللواء التاسع من الكوركا إلى اللواء السابع والأربعين من السيخ بأنهم يمكن أن يروا الأتراك ينفتحون لشن هجوم ويبدو بأن الهجوم سيشن على الخندق (أكس وواي) حيث يمسك به اللواءان التاسع والخمسون حملة البنادق والسابع والأربعون من السيخ. على أية حال شَن الأتراك الهجوم الأول جنوب موقع (دي) حيث يمسك الكوركا النتوء المقابل لمدافع الميدان اللذين استولينا عليهما عليها. وتشبه المعركة قتل النمر عندما ينسحب من لعبة المطاردة.

لقد أحضر الكوركا حبال السحب من أجل سحب المدافع بعد حلول الظلام وتجسير الخندق عندما يُشن الهجوم. لقد دفع الأتراك بمفرزة ثم شن الهجوم بأعداد كبيرة مع استخدام القنابل. لقد صمد الكوركا مدة عشرين دقيقة إلا أنهم لم يتمكَّنوا من توفير العتاد الكافي ثم اقتحم الأتراك الموضع وكانوا بين قواتنا عندما حل الظلام وأعطى الخط الأول للعدو الإشارة لقصف لخنادق الرئيسة في موقع (أي) والخنادق الموازية باتجاه اللواء السابع بينما كانت كتل منهم تعبر المنطقة

المفتوحة باتجاه موقع (البثور التوأم) وكان الجميع خلف الخط مشوشين. قال أحدهم بأن هذا الموقف يذكّره بالتجمُّع الذي يحدث بعد مباراة كرة القدم لملعب توجد فيه بوابتان أو ثلاث بوابات. كانت معركة شائكة وجرى القتال بالحراب وأعقاب البنادق والمُسدسات. لقد نفدت قنابل الأتراك وكان هذا ليس من صالحهم ولكن من الصعوبة معرفة من هم. ولم يتجرأ أحد على إطلاق النار وكان آمر السرية الثالثة والتسعين البورمي يمسك التركي من حنجرته ويطرحه أرضاً ويقف على رقبته ويطلق النار على رأسه من مسدسه. لقد اختلط الحابل بالنابل بغياب العمامة أو الخوذة، ففي إحدى المرات كان ملازم يمشي بجانب رجل اعتقده من السيبوي (جندي هندي) عندما لاحظ بأنه كان يلبس قلنسوة. كان رفيقه بدون أدنى شك قد ارتكب خطأً فادحاً في الاختلاط بالحشد الخطأ وعندما رأى الحراب ضده كان ينتظر الفرصة أو إجراء تغيير غير واضح للبيئة عندها سحب مسدسه بهدوء وأطلق النار على الشخص الذي كان يسير بجانبه بدون تغيير في خطواته وكان الشيء الاستثنائي أننا لم نتكبَّد إلا إصابات قليلة. وقام الجنرال كامبل آمر اللواء التاسع بجمع كل رشاشة يعثر عليها واندفع العميد وضابط الأركان وبعض الضباط إلى الموقع بهجوم مباغت للوصول إلى موقع البثور التوأم حيث تجمع الخط الذي حصل فيه خرق. كانت هناك لحظة نفسية محددة تدخل فيها ثلاثة عناصر لتحقيق عنصر المباغتة ضد الأتراك. الأول إطلاق نار كثيف مستمر (صلي) من الرشاشات القليلة التي جمعناها هناك وتم إطلاق صيحة مدوية من الخلف في الظلام منضبطة وليست عفوية، وثالثاً: انفجار قذيفتين فوق الرؤوس. لقد اختار بعض من مطلقي المدفعية الملهمين هذه اللحظة لإطلاق النيران باتجاه الهور وتحقيق هذه الرميات السديدة التي مهَّدت الطريق أمامنا. وقد عصفت ريح القذيفة الأولى بخوذة ضابط الأركان من فوق رأسه. وكان أمراً ملحاً للأتراك الذين بدؤوا بالتجمع والانسحاب. لقد كانوا يتقدَّمون وهم مترددون ويضربون بالهراوات ويطعنون بالحراب كل شخص يقابلهم ولكن لا يطلقون الرصاص إلا ما ندر. وبدون شك وقبل الركض عكس خطنا المرتجل كانوا يشعرون بالكآبة والفشل عندما يشقون طريقهم باتجاه بلدهم مبينين العبث في الهجوم الليلي الذي لم يحقق الهدف المرجو. لم تحقق قوة الهجوم خلف خطوط

العدو أهدافها حتى لو كان هناك تفوق في عددهم ما لم تثر الهلع في صفوف العدو وهذا ما فشل في تحقيقه الأتراك. وفي غضون ذلك حصلنا على تعزيزات من الفرقة الثالثة عشرة. وقبل الساعة العاشرة أُرسل فوجان من اللواء الثامن والثلاثين للالتحاق باللواء التاسع. لقد جاؤوا عبر الهور ووصلوا قبل ساعتين من الهجوم. وقام نصف فوج من لواء لانكشاير الجنوبي باقتحام الخندق (أكس) على يمين اللواء السابع والأربعين من السيخ والتحقوا بالخط. واقتحم النصف الآخر الخندق الذي يربط (أكس واي) وقاموا ببناء حاجز وقتلوا ثمانين مقاتلاً من العدو ومنهم ضابط ألماني. وفي غضون ساعات قليلة استعيد خطنا الدفاعي الأصلي. كانت الإصابات التي وقعت بين صفوفنا ومن ضمنها الهجوم الذي شن في الصباح عندما استولينا على الموقع ضئيلة مقارنة بإصابات العدو. فقد خسر اللواء التاسع خمسمائة وخمسين إصابة واللواء السابع ستمائة إصابة واللواء الثامن الذي لا بد أنه قتل في الأقل ألف وخمسمائة تركي قد خسر مائة وعشرين قتيلاً وجريحاً.

وبعودة اللواء الثامن الذي أمسك الخط الدفاعي على جناحنا الأيسر، فقد شن الهجوم بعد الآخر عليهم وشنت ثلاثة هجمات بأعداد كبيرة قبل الساعة الثالثة فضلاً عن هجمات مباغتة متقطِّعة. إلاّ أنهم لم يتزحزحوا قيد أنملة على طول الليل. لقد أرسل ضابط الأركان بعد ورود أول إشارة للهجوم الكثير من الذخيرة وجاءت هذه التجهيزات الجديدة في اللحظة الحرجة الحاسمة. وأُرسل كل رجل قادر على حمل رشاش من الجنود ورجال الدين والمراسلون والذين يبعثون برسائل إلى خط النار لمسك الساتر من أجل إجهاض الهجوم. وحتى حملة الذخائر وجهت الأوامر لهم للبقاء في الخندق لإكمال الخط الدفاعي المتباعد. لقد كان لدى اللواءين التاسع والخمسين لحملة البنادق والسابع والأربعين من السيخ الذين يمسكون الخط الدفاعي ثمانمائة رشاش. وقد أُضيف هذان اللواءان في المساء لردم الفجوة في الخط الدفاعي ولتمديده إلى اليسار وتم إبقاء الفوجين من اللواء الأربعين الذي جاء لتعزيز اللواء التاسع والفوج الثاني من راجبوتز لحملة الرشاشات في الاحتياط وسرية من مانجستر. وكان اللواء السابع والأربعون من السيخ وفوج مانجستر الذين صدوا الهجوم ومسكوا الطرف الشمالي من الخندق (أكس) وحافظوا على الجانب

الأيمن للواء الذي كان في وقت مضى في خطر محدق. وكان العدو يأتي بكثافة إلى هنا وإذا ما حصل خرق فإنَّنا سنفقد المواصلات والمدفعية ومقر اللواء.

ركز الهجوم الرئيس جنوب الخندق (أكس) على الخندق الذي كان تحت سيطرة اللواءين السابع والأربعين من السيخ والتاسع والخمسين حملة البنادق. وصدت الهجمات الست التي شنت بأعداد كبيرة. كانت القذائف التركية تسقط على بعد عشرين ياردة من الخندق. ويجثم خلفهم حملة البنادق من القناصين الذين استمروا بإطلاق نيران مستمرة طوال الليل. وقد يستطيع الأتراك الرؤية على ضوء القمر بمدى خمسمائة ياردة وفتحنا النيران عليهم لمدى بعيد لأنَّ هذه الكتائب الرائعة قد فقدت معظم أفرادها القدامى وعوِّضوا بمجندين شباب شجعان ومندفعين. وعندما يوقفون نيرانهم سيكون الاداء أعظم لأنَّ صرف الذخيرة يكون أقل. كان مقر اللواء على اتصال مع البطارية الثالثة والعشرين الجبلية التي كانت على بعد ثلاثة آلاف ياردة وكان اللواء السابع والأربعون من السيخ قادراً على تحديد الموقع لرامي المدفعية بالدقة المطلوبة وسقطت القذائف الأولى قُصِّر المدى عندها وجدت القذيفة طريقها إليهم. وكشف وميض الانفجار بأن الأتراك كانوا ممددين على الأرض مما فتحنا وابلاً من نيراننا على مستوى الأرض. ثم بعثت رسالة إلى بطارية المدفعية لتمشيط المنطقة وتم عد ألف وخمسمائة قتيل في الصباح في المنطقة المقابلة للواء واحد فقط. وكشف ضوء النهار جثث الأتراك في الخلف على جناح الموقع وكان ذلك ضياعاً وفقدوا خط انسحابهم وقد زاد من إرباكهم عندما أمسك اللواءان السابع والأربعون والتاسع والخمسون الخط الدفاعي حيث قُتِلَ الجميع أو أُسِروا. كان الأتراك في حالة انسحاب وأخذوا مدفعي رشاش لهم كانا يغطيان انسحابهم مع ضابط ومفرزة من اللواء السابع والأربعين.

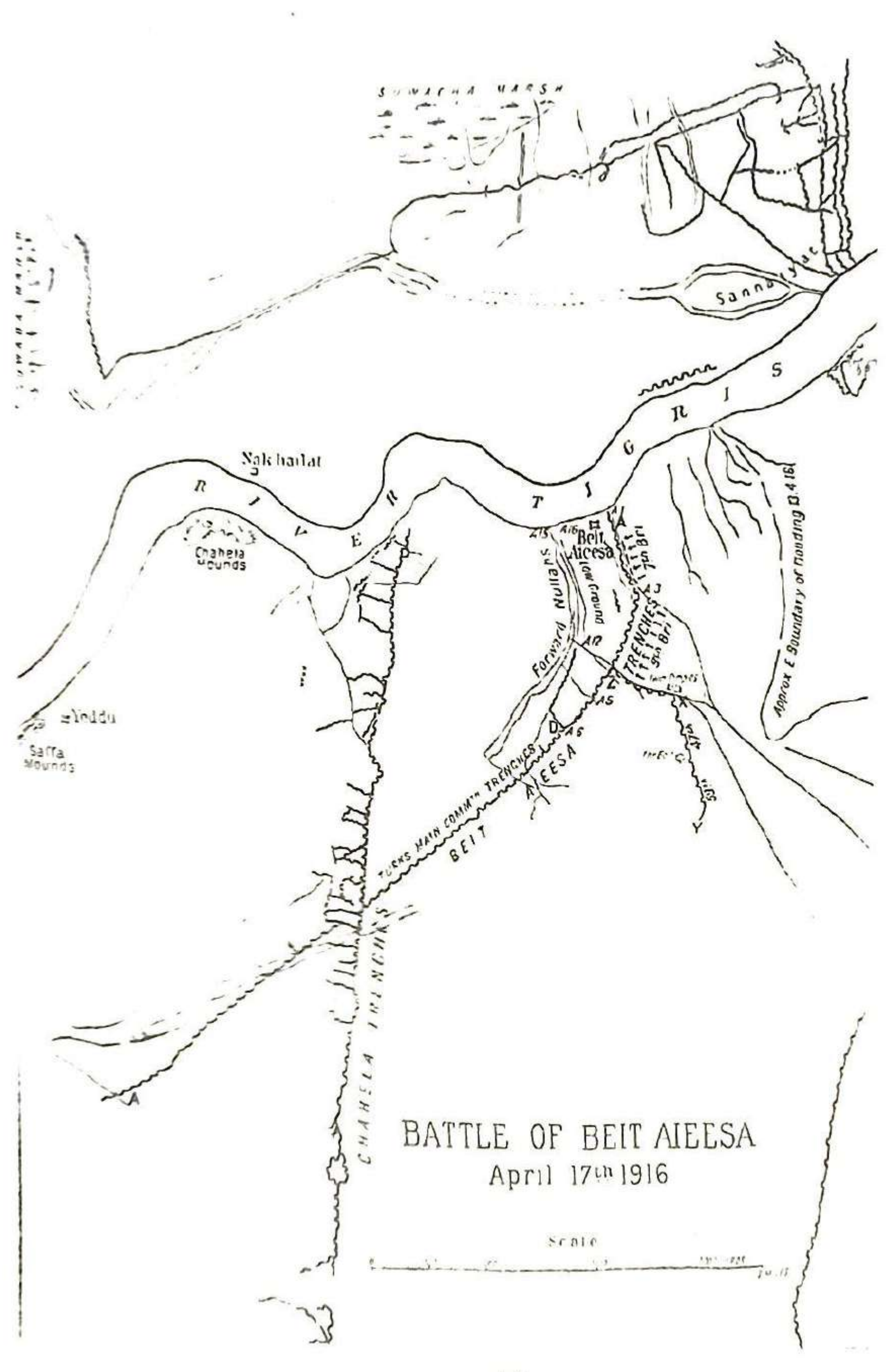
وفي غضون ذلك واصل اللواء السابع التقدم على الجناح الأيمن بالرغم من اقتحام الموجة التركية التي جعلتهم معلقين تماماً ويحيط بهم العدو من الأجنحة والمقدمة والمؤخرة. وجاءت مفرزة تركية واقتحمت مقدمة الموقع الدفاعي وقصفت الخندق (أ5 وأ3) الواقع على يمين مقر اللواء. وفي هذه النقطة التقوا وتراجعوا مسافة مائة وخمسين ياردة متجاوزين بعناد كل ساتر. وفي غضون ذلك

فإنَّ الجثث الأخرى للعدو كانت تعيق التقدم عبر الأودية باتجاه موقع كونوت روجرز الذي يمسك ضفة النهر حيث التقت قوة رانجرز بهم ودفعتهم إلى الخلف بمسافة مائة ياردة وبينما حُجزوا هنا جاء آخرون من خلفهم وآخرون من الأمام وأحاطوا بهم. وقامت قوات رانجرز مع اللواء السابع والعشرين من البنجاب واللواء مائة وثمانية وعشرين بتحصين ضفتي الوادي وجلب مدفع رشاش للخندق وسُحق الأتراك عندما وصلوا. وأصبح هذا الجناح الممتد بمسافة خمس وعشرين ياردة من جبهتهم حيث ركز العدو نيرانه. لقد فقدوا هنا ستة ضباط إلا أنهم أمسكوا بالخط الدفاعي. وفي الأرض المنخفضة خلفهم بين الوادي والخندق الرئيس (أ3وأ1) حيث يكون مقر اللواء وكان القنص ونيران المدافع الرشاشة مربكاً. وظهرت مجاميع واختفت على ضوء القمر وجاء وابل كثيف من الطلقات من هذا الاتجاه. ولكن كان من الصعوبة بمكان تمييز الصديق من العدو. وسادت الضبابية في الموقف التركي بعد أن ظهرت العمائم وأطلقنا سراح الرجل الأسمر الذي صاح: «بالله عليكم لا تطلقوا النار إنهم من السيخ».

لقد أمسكوا بالوادي الشمالي حتى الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة. وكان بمقدورهم الإمساك به حتى نفاد الذخيرة إلا أن ضوء النهار يكشف موقعهم المحفوف بالمخاطر وتحصل الكارثة. لقد تركوا القنَّاصة لإعاقة الحركة في الوادي والانسحاب ثم سحبوا جرحاهم باتجاه النهر وعلى طول الضفة أمام الخندق (أ3وأ1) وتحصَّنوا حتى تأخذ الفرقة قسطاً من الراحة. وعرف اللواء السابع على نطاق واسع برباطة الجأش التي قد تحول الهزيمة نصراً مؤزراً. في الصباح كنا نمسك الخنادق التي أخذها العدو قبل يوم. وكانت الأرض الوحيدة التي فقدت هي الأودية المتقدمة. وقدرت الخسائر التركية في الليل والنهار بثلاثة آلاف وخمسمائة قتيلٍ وما يوازيها من الجرحى وحوالي أربعمائة أسير.

وقد عبر الصبهدار (الضابط الوطني الأول لسرية وطنية في الجيش الهندي البريطاني) الذي تفحَّص الموتى من خندقه في صباح اليوم التالي ما كان يجول في تفكيرنا قائلاً: «صاحب، سمعت أن العدو كان بأعداد كبيرة جداً». ربما أرشدهم الله لشن الهجوم بهذا الأسلوب وهكذا أصبحوا بأعداد قليلة جداً.

لقد قتلنا من الأتراك في منطقة بيت عيسى أكثر مما قُتل في مناطق شيخ سعد والوادي والعورة والفلاحية إجمالاً. وكان صد الهجوم المضاد في الليل ضربة موجعة أفضل من أخذ الموقع في الصباح بعد أن زج الأتراك في المعركة بأفضل فرقتين لهم.



معركة بيت عيسى

الفصل السابع عشر

الهجوم الثالث على منطقة الصناعيات

لم أشهد المعركة الثالثة التي جرت في منطقة الصناعيات في الثاني والعشرين من نيسان لأني كنتُ مع الفرقة الثالثة في ذلك الحين وفي موقع متقدم من الضفة اليمنى للنهر قرب برج بابل. وفي ليلة العشرين من الشهر، كنت أعد معداتي الشخصية لعبور النهر عندما اقترح صديق لي بوجود طريقة أخرى لمشاهدة المعركة.

قال بدلاً من النهوض في الساعة الثالثة صباحاً والذهاب مسافة عشرة أميال حول الجسر الذي سيكون مغلقاً بالتأكيد ومخصصاً للجياد الصغيرة فقط لماذا لا تشاهد المعركة من بطارية المدفع الرشاش على هذا الجانب؟ وقلت له بأن نيران المدفع الرشاش غير مباشرة ولن أرى أي شيء. أجاب: لكنك ستحصل على مشهد جيد من التلول الرملية ولا توجد أرض مرتفعة على الضفة الأخرى. وكان محقاً في ذلك؛ لأنَّ التلول الرملية تبعد أقل من ميل عن الخيمة وهو المرتفع الطبيعي الوحيد في المنطقة. كما علمنا أن خنادق العدو في منطقة الصناعيات قد غمرتها المياه ومن المشكوك فيه أن يقيم الأتراك أي مقاومة جدية فيها. لذا نمتُ في تلك الليلة نوماً هادئاً في خيمتي وذهبت إلى التلول الرملية في الساعة السادسة والنصف صباحاً وكانت الوقفة الكبيرة القادمة عند منطقة السن.

في البداية، لف الغموض كل شيء بسبب القصف ونتيجة وجود الغبار والدخان والوهج لم نتمكّن من رؤية إلا النزر القليل. وكان أفراد غامضون يتحركون حركة واضحة لا نستطيع قراءة حركتهم. وكان موقع الرصد أفضل نقطة على الضفة اليمنى إلا أنه كان مُكتظاً بالرجال الضروريين.

ولو ذهبتُ إلى مقر اللواء التاسع عشر على الضفة الأخرى لتمكّنت من رؤية

القتال في المناطق القريبة إلا أن الرجال الذين كانوا هناك أخبروني عمّا جرى في المكان الذي لم أذهب إليه. وما شاهدوه قد رسَّخ في أذهانهم ومن المحتمل أن يتم استذكار ساعات المشي والنوم والساعات غير الملائمة كافة. كان صباح يوم الثاني والعشرين أكثر الصباحات مأساوية وأملاً خائباً في الحملة وكاد أن يكون سيئاً لعدم وجود شيء يمكن مشاهدته.

لقد ألقيت المسؤولية في الفشل في تحرير الكوت على الفيضانات. وكانت الشكوك تحوم حول ما إذا كان باستطاعتنا خرق الطوق التركي على الأرض اليابسة وكانت الفيضانات بالتأكيد قد قدَّمت فائدة طبيعية عظيمة لدفاعات العدو. وكانت نزوات الهور متواصلة فهي تأتي وتنحسر اعتماداً على الريح. ففي العشرين من نيسان كان الماء رقراقاً عبر جبهتنا وبعمق ستة أنجات للطين وفي يوم الحادي والعشرين كان الماء مستقراً وفي يوم الثاني والعشرين كانت الأرض المغطاة بمياه الفيضان موحلة إلا أنها سالكة. وكان لا بد أن يشن اللواء الحادي والعشرون على اليمين هجوماً مع اللواء التاسع عشر في صباح يوم الثاني والعشرين ولكن في الساعة السادسة صباحاً ذُكر بأن الأرض التي أمامهم كانت غير سالكة. وهكذا فإنَّ وطأة الهجوم وقعت على فوج هايلاند (من سي فورتس وبلاك ووتش) واللواء الثاني والتسعين من البنجاب واللواء مائة وخمسة وعشرين من حملة البنادق وبإسناد من اللواء الثامن والعشرين من البنجاب.

أرسلنا مفارز التنصّت وعلمنا بأن الخطين التركيين الأول والثاني كانا ضيقين جداً وقد غمرتهما المياه وهذا ما أكدته طائرات الاستطلاع. ومع ذلك قمنا بقصف الخطين الأول والثاني على طول الجبهة. بدأت مدافعنا بالتسجيل وبدأ القصف في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة وشُنَّ الهجوم في الساعة السابعة عندما انتقل القصف المدفعي إلى الخط الدفاعي الثالث للأتراك. وكان الاندفاع سريعاً مما طالته نيران مدافعنا وقد شوهد رجال الهايلاند (الاسكتلنديون) يلوحون براياتهم الحمر ويعبرون عن غضبهم وكما توقَّعنا فقد اجتازت الفيضانات الخط الأول ولم يكن فيه أتراك ولم نواجه صعوبة في اجتيازه. وكان الخط الثاني غارقاً في المياه أيضاً وخلفه كانت هناك شبكة من المخابئ والحفر التي كنا نتخبط فيها.

وبعد هذه المنطقة بين الخطين التركيين الثاني والثالث كانت الأوحال تصل حدّ الركبة. تعرَّض الجنود الاسكتلنديون واللواء الثاني والتسعون وهم يخوضون قتالاً شديداً إلى نيران كثيفة مرعبة. لقد تحدت الأقدار وبازدراء بسالتهم الرائعة مما قد ينظر الإنسان بعين الريبة بمشيئة الرب في الحرب لقد تعطَّلت بنادقهم بسبب الأطيان. كانت قوة سي فورتس تذرف الدمع عليهم مع اصطكاك الأسنان وتقطع التنفس والنشيج وانحبست الدموع في عيونهما لأنه لم يكن باستطاعتهم العودة إلى نيران العدو وكانوا في قبضة الأتراك تقريباً. ووفقاً لكل قانون عدالة في مكافأة الجهد والتضحية تحصل على المجد وكانوا قد حصلوا عليه إذا لم يكن في الميدان المفتوح لتحقيق هدفهم في الأقل كان في السيطرة على مسلك ضيق تمر عبره الفروسية إلاّ أنهم واجهوا جداراً ليس فيه نوافذ (مطبق) لا يمكن اختراقه. لا يوجد شيء أكثر مأساوية في الحياة من مشاهدة روح الإنسان تصطدم بعائق مادي مثل هذا وهو العائق الرافض لكل المُثُل ويلقي بظلاله على العناية الإلهية التي لا تعرف الصفح وقسوة الإله على المسائل التي تسمو بها الروح.

شَنّ الأتراك هجوماً مضاداً قادمين من الجهة اليمنى للنهر داخل الساتر في الخندق الثالث حيث لم تغمر مياه الفيضان الأرض وباتجاه الأسهم في الخارطة. هنا كانوا على أرض صلبة ويطلقون نيرانهم على رجالنا الذين لا يستطيعون الاشتباك معهم لأنهم كانوا يخوضون صراعاً غير مسلح في الماء والطين.

تعرَّضت سرايا الدعم والقوة الاحتياطية للواء التاسع عشر إلى نيران المدافع الرشاشة الكثيفة وبالتالي فإنَّ خطنا الأمامي لم يحصل على الدعم. لقد وصلت قوة نورفوركس ودورستس (نورستس) (اللواء الحادي والعشرون) الذين توجهوا إلى خنادق الخط الأمامي التركي الذي غمرته الفيضانات وتكبَّدوا أيضاً خسائر فادحة. وجاءت جميع نيران المدافع الرشاشة من بطارية على الضفة اليمنى للنهر كانت محمية من بطاريتنا الواقعة على الجانب الآخر من النهر.

ولفهم ما جرى لا بدّ من الاطلاع على الخارطة. لقد أقام الأتراك سداً عند نقطة (دي) على النهر بجانب خنادقهم اليابسة باتجاه الهور المغمور بالفيضان. ولم تتمكّن

استطلاعاتنا من الاقتراب من خطوط العدو بجانب النهر، لقد سيطر الأتراك على تلك المنطقة بقوة. وفي المساء فتحوا وابلاً من النيران على دورياتنا التي لم تستطع الاقتراب بدون رشاشات وانحرفت إلى اليمين نحو أرض المستنقع.

وفي صباح يوم الثاني والعشرين انحرف هجومنا خمس عشرة درجة إلى الشمال وجاء إلى النقطة الخطأ الواقعة على يمين السد التركي حيث كانت الخنادق قد غمرتها الفيضانات بسبب الأرض الوعرة الواقعة على يسارهم ولأنها لم تحصل على إسناد من جهة اليمين. كان الأتراك الذين شنوا هجوماً مضاداً مختبئين يترصدون قواتنا على الضفة نفسها عبر خنادق السواتر الأول والثاني وعندما وصلوا وتسلَّقوا السد بعثوا بإشارة. ولكن هناك شخصية بارزة على خط الأفق إنه ضابط كان على الساتر وبهدوء يلوح بعصاه يدعو الرجال بالتقدم. ومن موقع الرصد على الضفة اليمنى كان الهجوم المضاد واضحاً. لم يكن هناك خط مستمر بل كان متقطعاً وكانت مفارز من خمسين مقاتلاً تقفز من خندق المواصلات وتندفع في العراء. كان واضحاً أنهم منفصلون بعضهم عن البعض الآخر ومن المشكوك فيه أنهم يدركون طبيعة الأرض التي كان لا بد أن يمروا عبرها؛ لأنَّ خطَّهم ضعف بسرعة وسقط ما يقارب الثلاثين مقاتلاً من كل مجموعة مؤلفة من خمسين مقاتلاً قبل أن يصلوا إلى السد.

لا يمكن رؤية الخراب المرعب الذي سببته بطاريات المدفع الرشاش والمدفعية في صفوف العدو إلا من الضفة اليمنى. كان هناك خمسة وثلاثون مدفعاً رشاشاً تفصل بينهما مسافة سبعة ياردات مع بطارية منفردة ذات غطاء محكم لحماية الرأس خلف موقع رصد كروفتون. وفي الأيام القليلة الماضية كان اثنان من المدافع الرشاشة يطلقان نيرانهما باستمرار لذا كان بالإمكان تسجيل أربعة مدافع في وقت واحد بدون التقليل من قوة البطارية. وكانت جميع النيران غير مباشرة ويتم السيطرة عليها من موقع رصد مركزي عبر الهاتف أو إشارة بصرية أو جندي ملحق بالضابط (الساعي). وكانت مائة وخمسة وستون ألف طلقة تطلق في الفترة من السادسة وثمان وخمسين دقيقة صباحاً وساعة الهدنة وكانت هناك أهداف في هذه الفترة. ظهرت ملامح الإبادة للواء التاسع عشر على الضفة اليسرى ليس لأنهم فقدوا العزم والشجاعة وتعطلت رشاشاتهم وكان الأتراك على بعد (أربعين) ياردة لكن ما زال

لديهم قنابل وحراب وهم متيقنون أن الإسناد قادم إليهم. لم ينسحب الكثير منهم عندما صدر أمر الانسحاب.

كان ضابط اسكتلندي بارز يذكر رجاله بأن لديهم الحراب وبقي الكثير منهم معه. وقد شوهد وهو يسحب مسدسه ويصيب جندياً تركياً على بعد خمس عشرة ياردة ثم يسقط. وهاجم آخرين كانوا قد اجتازوا عائقاً لم تسمع بعده المناشدات وأصبحوا وجهاً لوجه مع تحدٍّ قاس ووقح يسحق بمنطق «إن تجرأت ستموت» ولن تكسر معنوياتهم المرتفعة. هؤلاء هم الرجال حقاً الذين لا تغيرهم الظروف حتى بعد استفزاز رفاقهم تجعلهم من المستحيل أن يولوا الأدبار. لقد تم الانسحاب بهدوء تام وكانت الخنادق التي هجرها الأتراك متعذراً احتلالها بسبب المياه كما أن مدفعيتنا جعلتها أثراً بعد عين لذا رجعنا إلى خطنا الدفاعي الأول.

في الساعة العاشرة صباحاً تقدم الأتراك مع رايات الهلال الأحمر فوق الأرض التي شنوا فوقها الهجوم المضاد وقد أرسلنا ضابط هيئة أركان مع راية الصليب الأحمر للالتقاء بهم وعُقدت هدنة غير رسمية. وجُلب جميع جرحانا من هذا الجانب من الخط لقد قام الأتراك بنزع ملابس موتانا القريبين من خنادقهم وخلاف ذلك فقد تصرفوا تصرفاً لائقاً. أما الأعمال البربرية التي حدثت في منطقة الصناعيات فقد ارتكبها الألمان. وأسرد في أدناه تفاصيل نقلاً عن ضابط في ذلك الوقت حيث قال: «قام ضابط ألماني بإطلاق النار على الجرحى وأخبر الأتراك بقتلهم». لقد ذهب إلى الجحيم بانفجار إحدى قنابلنا. بعد ذلك قدم ضابط تركي اعتذاره عمَّا بدر منه إلى رجال(آر أي أم ي سي). ووجد أحد الفرسان الجرحى الذي كان يرتدي حذاءه العسكري (البوت) رجلاً تركياً يحاول نزع حذائه مما حدا بالفارس إعطاء التركي ما يستحقه من عقاب. وكان اثنان من الأتراك ينهبان موتانا عندما وجدا قنبلة عبثا بها. لقد شاهدت مفرزة من حاملي النقالات وهم يرمون نقالاتهم الفارغة ويلوذون بالفرار من الموقع كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً بعد أن قام أحد الأتراك بنزع مسمار الأمان لإحدى القنابل ليتفحصها من جانب الفضول حيث انفجرت عليه. وفي شدة الانفجار شاهدت ساقين مع الأحذية قد تطايرت. عموماً تصرف الأتراك بكياسة ولم يفعلوا شيئاً نعترض عليه. واقتبس القول التالي من رسالة بعثها لي أحد ضباط

الأركان: «كان الفرسان عظماء كما هم دائماً» كما أن الهنود كانوا عظماء كذلك مما يعكس الروح المعنوية العالية التي تتمتع بها القوات. لقد أصيب أحد الجنود (أن، سي، أو) من لواء حملة الرشاشات مائة وخمساً وعشرين إصابة في فكيه ثم تلقى رصاصتين في ذراعه.ثم طلقة في رئته ثم جرحاً خامساً في ساقه منعته من قيادة رجاله والعودة إلى موقع الإسعافات الأولية. لا توجد معركة في الحملة برمتها فيها اختلاف في الرأي مثل هذه المعركة. لقد حصلتُ على روايات من ضباط في اللواءين التاسع عشر والحادي والعشرين مختلفة تماماً. يرى المراقب على الضفة اليسرى وهو يشاهد الاسكتلنديين من اللواء الثاني والتسعين وهم يغوصون في الوحل مشبعين في المياه وتُقتل أعداد كبيرة منهم بدون رحمة على أرض مخضبة بدماء القتلى وهم غير قادرين على العودة بسبب نيران العدو. كان الأمر يبدو طريقاً مسدوداً لا أمل فيه ولا يوجد منفذ للخلاص. وكان مشهد الصراع يبدو نوعاً ما مثل موقعة (ناثان وأبيرام) التي ابتلعت الألوية جميعاً عندما غرقت بالتفاصيل. واعتبر عدم إرسال مزيد من القوات إلى ذلك الموقع أملاً خائباً. ويرى الرجال في الخنادق بأن حادثة الراية البيضاء التركية كانت غير مبررة إلا أن المراقبين على الجانب الآخر من النهر الذين كانوا يشاهدون الهلاك الذي حل في صفوف الأتراك كان يبدو لهم انسحابنا غير مبرر. كان يبدو مثل نصر تم التخلي عنه بلا مبالاة ويقسمون بأن الأتراك قد هزموا وأن مدافعنا الرشاشة قد مزقتهم ولو أرسلنا تعزيزات لتمكّنا من السيطرة على الموقع. وعندما رفعت راية الهدنة كانت مدافعنا لا تزال توجه نيرانها باتجاههم وقمم السواتر تتطاير في الغبار. كان التركي يدخل نار جهنم عندما يعرض نفسه إلى خندق الخط الدفاعي الثالث أو خندق المواصلات الطويل الذي يمتد على نحو ملتوٍ بين مواضعهم أو يتداخل معها. ومن الوهلة الأولى كان سيل الجرحى الأتراك المتزايد تدريجياً يشاهد وهم ينسحبون. ازداد هذا السيل كثافة حتى اعتقد ضابط الرصد في ذلك الوقت بأن العدو كان ينهار انهياراً تاماً. كانت رغبة الأتراك بعقد هدنة تحمل في طياتها الذكاء. ففي الهدنة وبعدها وعلى طول فترة ما بعد الظهر حتى حلول الظلام شوهدت مفارز كبيرة تجمع جرحاها. وطرح رأيان متناقضان بشأن معركة الصناعيات. إلا أن الانطباع العام السائد بأنه كان هناك عائق مأساوي وأمور عرضية

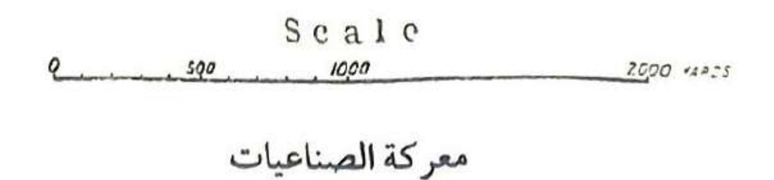
مادية ومنها الفيضانات التي وقفت بوجه مشروعنا ويبدو هذا طبيعياً. ويرى آخرون بأن لواء الإسناد قد اندفع واقتحم الخطين الدفاعيين الأول والثاني بينما كان اللواء التاسع عشر يسيطر عليهما وربما اقتحم الخط الدفاعي التركي الثالث بالحراب. وتدعم حادثة راية المستشفى وجهة النظر القائلة بأن مقاومة العدو في الخلف قد تحطَّمت. واعتقد الكثير من الاسكتلنديين بأنه باستطاعتهم عمل ذلك. لقد حطَّمت قوة من اللواء الثامن والعشرين الذي تمكَّن من التسلل خلف أفواج الإسناد للواء التاسع عشر وبقية اللواء الحادي والعشرين ومنهم اللواء الثامن من الكوركا وكتيبة جديدة. وخلف هؤلاء كان اللواءان الخامس والثلاثون والسادس والثلاثون بانتظار أن يتم استدعاؤه ولو تم الالتزام بالخطة الأصلية لتحقق النجاح وهو شن هجوم من لواءين في وقت واحد. وسيفهم القارئ العسكري بأنه حدث تغيير شامل لخطة الهجوم في غضون أربعين دقيقة بعد أن طرأ تعديل على قوات الإسناد والتأخير الذي حدث قد قلل من زخم الهجوم وجعلنا نتبع شيئاً فشيئاً الأسلوب نفسه في الهجوم الذي كلفنا تضحيات عزيزة في الماضي وبزج خمسة ألوية في ترتيباتنا فقد غادر أكثر من ألف وثمانمائة مقاتل من حملة البنادق الخنادق في اتجاهات مختلفة من أجل شن الهجوم، وبالتأكيد إذا كان أي أمل معقود بأخذ الموقع فإنَّنا لا بد أن نهاجم بجميع قواتنا ومن ناحية أخرى وإذا ما أصبحت الأرض المغطاة بالفيضان عائقاً لا بد من وقف الهجوم. وكانت الجبهة ضيقة لا تسمح للواءين بشن الهجوم كما أن الهجوم بلواء واحد على أرض ضيقة سيمكن الاتراك من الالتفاف على قواتنا بدون الدخول بعمق إلى الأرض التي نصبت فوقها مدافعنا الرشاشة. وفي هجوم عبر الفيضانات لجبهة لواءين كانت العوائق ضدنا وفي جبهة لواء واحد قد لا تقهر أبداً. لقد دُوِّنت وجهتا نظر متناقضتان وكلاهما عُبِّر عنهما باقتناع إيجابي راسخ ومن الأمر المشكوك فيه أن يتم النطق بالحكم. وقيل: إن مصير الكوت كان معلقاً بمنطقة الصناعيات. وكان الفشل الأكيد هناك يعني أن حامية طاوزند لا بد أن تسقط إلا أن النجاح يعني تحريرها بالتأكيد. ولو تحقق الخرق لَتمكَّنا من جلب كتيبتنا للمدافع الرشاشة إلى الضفة اليسرى وقصفنا موضع العدو في الشهيلة كما وجهنا رميات منتظمة من الضفة اليمنى عند منطقة الصناعيات ولكن كانت هناك

دفاعات في السن لا بّد من تدميرها. وبُذلت جهود أخرى لإطالة أمد الصراع ويعد هذا أملاً يائساً وجهت له انتقادات شديدة إلا أنها مغامرة جريئة جرت بأفضل أسلوب كما كان يتبعه أسلافنا. في ليلة الرابع والعشرين من نيسان، حاولت باخرة جولنار المحملة بإمدادات تكفي لإطعام الحامية لثلاثة أسابيع أن تكسر الحصار المفروض. وكان هناك الكثير من المتطوعين للمهمة. وقد أنيطت القيادة بالملازم فيرمان (أر أن) والرائد البحري كولي(ار. ني. في.ار.) مرشداً للسفينة. ظل كولي في الخدمة في شركة الملاحة لنهري دجلة والفرات لسنوات عديدة وكان يعرف النهر وقيادة السفينة معرفة حسنة. بدأت باخرة جولنار رحلتها في اليوم التاسع في ليلة قمرية. وبطبيعة الحال كان عنصر المباغتة مفقوداً تماماً؛ لأنَّ صوتها وصوت محركاتها قد أيقظ المعسكر برمَّته ولم يمضِ وقت طويل حتى رأينا وابلاً من النيران وجهه الأتراك عليها. لقد سارت بتحد مروع من نيران الرشاشات والمدافع الرشاشة المنصوبة على ضفتي النهر وهي تعبر موضع العدو في منطقة السن إلا أنها كانت مصفحة جيداً ومحصنة بأكياس الرمل وتبحر بسرعة ووصلت بالقرب من منطقة المكاصيص على بعد أربعة أميال من الكوت عندما اصطدمت بأسلاك حديدية نصبها الأتراك على نحو مائل عبر الجدول. ووقعت دفة السفينة في الشرك. لا بدّ أن يكون العدو قد علم بمجيء باخرة جولنار نظراً لأنَّ السرية مستحيلة. لقد حُملت وجُهزت في العمارة وهي حاضنة الجواسيس حيث يتجمع حشد من الفضوليين حول السفينة كل صباح حتى منطقة الفلاحية، ناقش ضباط صغار المغامرة والكثير من الجنود والمراتب. وبحساب جيد وضع الأتراك شركهم بتقييم النقطة على النهر التي ستكون خارج مدى المدافع لحامية الكوت والقوة المحررة ولقد شاهد أحد طيارينا في صباح اليوم التالي أن السفينة كانت ترسو على الضفة عند حصن المكاصيص سليمة وهي طافية في نهر دجلة. لقد قام الأتراك بتفريغ موادها الغذائية في اليوم نفسه وسُمِّيت «بالهدية». لقد كلَّف تفاني الرائد كولي الذي تطوع لتسيير السفينة حياته. لقد توفي بأيام بعد إصابته. وأشعر بأن السلك الذي عطل الباخرة جولنار قد قدم خدمة لنا على حدٍّ سواء. لقد حفظنا من تقديم مزيد من التضحيات بالأرواح وما يوازيها من خسائر في الروح المعنوية إذا ما حصل تثبيط للهمم في حالة الفشل؛ لأنَّني لا

أصدق بأننا نتمكَّن من جمع قوة كافية لاقتحام موقع السن قبل حزيران وإذا ما أخذنا بالحسبان الجبهة الضيقة ومدافع الأتراك الذين أحبطوا كل تفوق فإنَّ مسألة إنقاذ المدينة المحاصرة تكون مجرد أرقام؛ لأنَّ الجزء الأكبر منها لا بدّ أن يتهيأ للتضحية بهجمات تشن بكتل بشرية كبيرة على وفق أسلوب الألمان. ولم يكن لدينا نقل على النهر لجلب هذه القوة وإطعامها عند منطقة الفلاحية. وستتكبَّد قوة إنقاذ الكوت التي يمكن أن تصمد لثلاثة أسابيع أخرى خسائر جسيمة. لقد أصبح اسم كوت العمارة كابوساً يقض مضاجع جميع المسؤولين والقادة. وأصبحت الكوت استنزافاً لدمائنا الزكية. ودائماً ما أصور الهزيمة بالكهنة الذين فقدوا الإيمان الذي يوقرونه بتقديم التضحيات وهو نوع من استرضاء الطقوس التي تُقدم فيها التضحيات وكلما تكرر الطلب لا بدّ من تقديم المزيد من التضحيات التي لا طائل منها. ففي يوم الخامس والعشرين من نيسان، طرق سمعنا بأنه لم تكن هناك هجمات جبهوية بعد أن لجأنا إلى الحكمة والجرأة المعنوية في اتخاذ القرار. وفي يوم الثامن والعشرين نيسان سقطت الكوت. لقد فقدنا ما يقارب من اثنين وعشرين ألف مقاتل في محاولة الحفاظ على الحامية.

BATTLE OF SANNAIYAT
April 22nd 1916

Scale



معركة الصناعيات

الفصل الثامن عشر

سقوط الكوت

وصل آخر اتصال لاسلكي من طاوزند صباح يوم التاسع والعشرين من نيسان قال فيه: «دمرتُ مدفعيتي وأقوم الآن بتدمير معظم ذخيرتي وأرسلتُ ضباطاً إلى خليل ليخبروه بأني مستعد للاستسلام وخليل في مدينة مادوك. لم أعد قادراً على الصمود لا بدّ أن أحصل على بعض الغذاء هنا وأخبرت خليل اليوم وأرسلتُ زورقاً بخارياً مع تفويض لجلب طعام من الباخرة جولنار». وأخبرنا في الرسالة التالية بأن كتيبة تركية كانت تقترب من الحصن لتولي الحراسة في الكوت «لقد رفعتُ الراية البيضاء فوق المدينة والحصن. وبدأت القوات بالدخول إلى المعسكر الواقع قرب شومران في الساعة الثانية بعد الظهر. وسأقوم بعد قليل بتدمير جهاز اللاسلكي. وفي الساعة الواحدة بعد الظهر وصلت رسالة لاسلكية معدة مسبقاً أشارت إلى أن رسالة طاوزند الأخيرة تم تمريرها». تم تدمير جهاز اللاسلكي والمدافع والمسدسات والرشاشات والطائرة والعتاد وأجهزة البوصلة والمرقاب وكل شيء قد يستخدمه العدو ونحن على وشك أن نرى الانفجار. ولم يكن هناك حنق أو عمل مشين في المشهد الأخير. لقد تركنا للأتراك أجهزة المايكروفون والمسجلات وكل شيء يمكن أن يساهم في الاستخدام المدني في الحياة. وغير ذلك فإنَّ هذه الجماجم العظيمة الواقفة تحتاج الكثير من التسهيلات التي تقدم لها، ومنذ الخامس عشر من نيسان كانوا يعيشون على وجبة طعام واحدة في اليوم مكونة من أربع أونصات من الطحين وشريحة من لحم البغل أو الحصان.

لقد استسلم في الكوت تسعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف بريطاني وستة آلاف هندي باستثناء أتباعهم. ولا يجدي نفعاً محاولة التستر على العار الذي لحق ليس

بجنودنا فحسب ولكن بسياسيينا المسؤولين عن الكارثة ولم يكن هناك استسلام يضاهي هذا الاستسلام في تاريخ الجيش البريطاني. وأقرب استسلام جرى للقائد كورنواليز عندما استسلم معه سبعة آلاف وثلاثة وسبعون ضابطاً ومقاتلاً في حرب الاستقلال الأمريكية إلا أن في بلاد وادي الرافدين فقدت قوة الإغاثة ضعفي عدد الحامية في محاولة إنقاذهم[1] بصرف النظر عن الخسارة في الجانب الاعتباري في أحد مسارح الحرب حيث يمكن أن نتحمل وزر القياسات المتذبذبة.

كان العرب يعتقدون أن طاوزند لا يقهر حتى الانسحاب من المدائن حيث لم تهاجم الفرقة السادسة إطلاقاً موقعاً استولي عليه. كان مجرد تحقيق إنجاز لهم ذا قيمة في أهمية فرقة جديدة في استتباب الامن على نهر دجلة. لم تتعرض الراية البريطانية إلى هزيمة مطلقاً إلا أن هزيمة واحدة أظهرت للعرب بأننا معرضون للخطأ وغير معصومين مثل الآخرين. وعند سقوط الكوت استعادت العملة التركية (المجيدية) والعملة الورقية قيمتها القديمة في السوق إلا أن احترام طاوزند لم يفقد وهم يعترفون بأنه لولا المجاعة لما انهزم.

لقد فرض طاوزند شخصيته بعمق في نفوس الأتراك. وسُمح له بالاحتفاظ بسيفه وكان التقدم إلى البوسفور نصراً وعندما وصل إلى جزيرته أصبح أسد المكان. تحدث القائد التركي خليل بيك عنه باحترام كبير عندما استقبل برلمانيين عشية الاستسلام. وقال: «سنعطيه الوقت مثلما أعطاه الروس إلى عثمان. وكان قلقاً بوضوح بأنه لا بد أن يحصل على الراحة والاهتمام بعد الحرمان الذي قاساه ببسالة. وعبر عن أسفه بأن التجهيزات كانت زهيدة ورحب باقتراحنا لإرسال تجهيزات إلى الحامية. وفي غضون يوم ونصف غادرت باخرتان محملتان بالمواد الغذائية معسكرنا في صباح اليوم التالي وتلتها سفينة مستشفى مع باخرة محملة بالمواد الغذائية وعادت السفينة إلى المستشفى محملة بالدفعة الأولى من المرضى والجرحى الذين تم مبادلتهم مع السجناء الأتراك. لقد حصلت حامية الكوت في وقت الاستسلام على

---

(1) بلغ عدد الإصابات الإجمالي في التقديم من علي الغربي للفترة من السادس من كانون الثاني وحتى الثاني والعشرين من نيسان (21، 973) إصابة.

معاملة حسنة من قبل العدو. فقد أعطى الضباط الأتراك كل جندي بريطاني حفنة من السكائر في أثناء مغادرتهم المعسكر وقد أظهر البريطانيون والعثمانيون نوعاً من التآخي مع التفاتات ودية ذات معنى. وكانت الإجراءات الطبية البدائية والنظام الصحي البائس أمراً لا مفر منه في ظل الظروف السائدة في بغداد. وقد تم تقاسم تلك المصاعب مع القوات التركية بالعودة إلى يوميات الحصار. وفي الشهر الأول كانت الحامية تكافح للحفاظ على أرواحهم وكانوا خائفين من نفاد الذخيرة قبل أن يتمكّن رتل قوة الإنقاذ من الوصول إليهم. وكانوا يعتقدون جازمين بأن التعزيزات التي تتجمع في البصرة ستتمكّن من مد يد العون والمساعدة إلى طاوزند وإزاحة الأتراك. وطوال هذا الوقت كانت القوات في الكوت تستلم حصصاً غذائية كاملة ويبدو أن مسألة التجهيزات لم تكن تثير القلق. وفي غضون ذلك فإنَّ قوة الإغاثة المتقدمة من منطقة علي الغربي في الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني كانت تعتقد بأن طاوزند كان على وشك نفاد مواده. لم تكن قوة أيلمر منظمة تنظيماً كاملاً وكانت هناك فرقة جديدة كاملة في طريقها اليه والتي ستضاعف قوتنا من أجل شَنّ الهجوم. إلا أنه وكما رأينا فإنَّ كل ساعة تأخير تكون حاسمة وستضيع قوتنا من خلال إشغال قواتنا بالتفاصيل عندما تجمعت عند النهر.

وعند تقدمنا من منطقة علي الغربي خفف العدو من قبضته على طاوزند. لم يعد هناك أي خطر من نفاد الذخيرة إلا أن العائق عند منطقة العورة أثار مسألة التجهيزات على نحو جدي. لقد بقي السكان المدنيون في الكوت وعند وصول طاوزند كان أمامهم خياران إما البقاء أو المغادرة وكان أمامهم أربع وعشرون ساعة للمغادرة إلا أنهم آثروا البقاء. لم نتوقع ولا هم يتوقعون حدوث أيام حالكة. لقد أمسك العدو بالأعداد القليلة التي تركت المدينة في الأيام الأولى من أيام الحصار وتم إطلاق النار عليهم. وأظهر الأتراك جلياً بأنهم سيعدمون أي شخص يحاول الهرب. ومن أجل طردهم فإنَّ هذا العمل يعني الآن القيام بقتل جميع السكان العرب في المدينة. ومع ذلك فإنَّ الحامية لا بدّ أن تطعم ستة آلاف فم إضافي ولكن في الرابع والعشرين من كانون الثاني بعد هجومنا على الحنة وبعد اكتشاف مخازن حبوب كبيرة مخبأة في البيوت معظمها تحت الأرض فتحت صفحة جديدة من الحصار. لقد تم الاستيلاء

على هذه المخازن ودفع لهم. لقد زودت الحامية بتجهيزات تكفي لمدة ثلاثة أشهر بميزان تناقصي تدريجي وأصبح العرب الذين كانوا في حالة اكتفاء ذاتي الآن يستلمون الحصص التموينية التي تقدم إلى الجنود البريطانيين والهنود. وهكذا فإنَّ قصة الكوت مرت بصفحتين مميزتين، الأولى الحصار المقرر ثم الحصار الطويل وفي كلا الحصارين سواء في بسالة الدفاع أم تحمل الحرمان وسواء في مقاتلة الأتراك أم الجوع فقد أثبتت الحامية بأنها تتبع تقاليد مجيدة تستحق أن يحذو حذوها الجيش البريطاني. ففي اليوم الثالث من كانون الأول عند وصول طاوزند إلى الكوت كانت القوة التي واجهته مكونة من أربعة فرق مشاة بعدد إجمالي يبلغ خمسة عشر ألف مقاتلٍ من حملة الرشاشات وألف مقاتلٍ من الهجانة وأربعمائة فارس وواحد وثلاثين مدفعاً متحركاً وسبعة مدافع ثقيلة وآلاف من رجال القبائل العربية. وفي اليوم الرابع من الشهر فرض الحصار عليه حيث يبعد الموقع المتقدم للعدو عشرة أميال وخلفه بمسافة خمسة أميال المقر الرئيس. واتخذ طاوزند موقعاً لشبه جزيرة مكونة عند منحنى نهر دجلة بعرض ألف وسبعمائة ياردة وطول ثلاثة آلاف ومائتي ياردة من الشمال إلى الجنوب وعلى الضفة اليمنى سيطر على معمل عرك السوس وقرية حصنها بفوجين.

لقد كان محاصراً من جميع الجهات باستثناء الجهة الغربية وكانت قواته منهكة نتيجة مسيرة القتال الطويل ابتدأها من المدائن الا أنهم بدأوا حالاً بإقامة معسكر محصن بقوة. وإذا كان هناك شخص يستطيع حماية الكوت فهو طاوزند لأنه كان يتمتع بالدهاء وسحر الشخصية التي تكون ضرورية للقائد في حامية محاصرة وكانت هناك الروابط الأقوى التي تجمعه مع فرقته. لم يهزم إلا أن الانسحاب من المدائن كان يتطلب وكما ظهر جلياً وجود صفات متميزة للقائد ورجاله أكثر مما ينبغي توفرها في أثناء التقدم المؤزر نحو بغداد. كما أن طاوزند كانت لديه خبرة في التعامل مع الحصار ومنذ البداية تهيأ للدفاع عن الكوت بنفس العزيمة والموارد التي كانت مهيأة في الدفاع عن مدينة (سيترال) في عام 1895 بل وأكثر ثقة في القضية.

في يومي الرابع والخامس من كانون الأول، قام بإرسال البواخر والبوارج ومعظم زوارق (محيلة) جنوباً واحتفظ بباخرة واحدة فقط وهي (سومانا) لاستخدامها بصفة

عبارة. وفي اليوم السادس أرسل لواء الخيالة إلى منطقة علي الغربي لمواجهة إحدى سرايا الخيالة وخاض اللواء معركة دفاعية بكل الطرق وكانت الإصابات ضئيلة. حُرر الأسرى الاتراك الذين أُسروا في منطقة المدائن وعددهم ألف وأربعمائة أسير في الوقت المناسب. وفي اليوم السابع من كانون الأول تحركت إحدى الفِرق التركية حول جناحه على بعد أربعة أميال إلى الجنوب من الضفة المقابلة واتخذت فرقتان أُخريان موضعاً على الضفة اليسرى غرب مدينة الكوت. وفي اليوم التاسع أرسل نور الدين رسالة طلب من الحامية الاستسلام. وبعد رفضنا تعرَّضنا لقصف مكثف من الجانب الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي. هُوجم المعسكر من كل الجهات وتعرَّض المعسكر لقصف طوال النهار. وأُرسلت كتيبة لنصب جسر وفي المساء قام أحد رجال الهندسة العسكرية الملازم ماثيو بالسباحة عبر النهر وفجر الجسر من الجانب التركي بالقرب من العدو. وفي اليوم العاشر والحادي عشر شُنت هجمات عديدة طوال النهار. وتكبَّدنا في اليوم العاشر مائة وتسعاً وعشرين إصابة وفي اليوم الحادي عشر مائتين واثنتي إصابة وحفر العدو مواضعه على بعد ستمائة ياردة وكان يعزِّز أعماله بأكياس الرمل والأخشاب. كان تكتيك طاوزند هو الإبقاء على الكتلة المركزية تحت اليد وبقوة صغيرة لمراقبة كل ممر يمكن أن يتقرب منه العدو. لقد تعرَّضت الحامية للقصف المدفعي الذي سبب بعض الخسائرمن جراء تركيز النيران المعادية ومن كل الاتجاهات بينما كانت نيران مدفعية المحاصرين المواجهة من المركز إلى المحيط عشوائية وغير مؤثرة. كانت المدفعية التركية من عيار خمسة سنتيمترات سريعة ودقيقة من مسافة سبعة آلاف وخمسمائة ياردة بينما كانت مدفعيتنا من عيار خمسة أنجات قديمة ولا يتم استخدامها من مسافة أبعد من ستة آلاف ياردة بسبب الأخطاء. في الرابع عشر من كانون الأول انخفضت إصاباتنا إلى سبع وثمانين إصابة وفي يوم الخامس عشر إلى أربع وستين إصابة بعد أن أصاب الأتراك التعب من هذه الهجمات العقيمة وفي اليوم السادس عشر ساد شعور عام بعدم المبالاة دبّ في صفوف العدو. لقد خسر العدو على الأقل ألف رجل بين قتيل وجريح في هجماتهم التي شنُّوها يومي الحادي عشر والثاني عشر. وفي أثناء كل هذا الوقت، كانت الحامية تتصدى للهجمات بكل بسالة. وفي يوم الرابع عشر، قامت قوة صغيرة متمركزة في

معمل عرك السوس بإزاحة العدو من خنادقه ولمسافة مائتين وخمسين ياردة. وفي اليوم السابع عشر في هجمات صغيرة طُعِن ثلاثون تركياً بالحراب أما خسائرنا فكانت جرح رجل واحد جرحاً خفيفاً.

وقدر طاوزند بأن حاميته كانت تواجه عشرة آلاف رجل لكن في اليوم الرابع والعشرين زاد زخم الهجوم الذي يشير إلى أن العدو تلقى تعزيزات جديدة. لقد وصلت الفرقة الثانية والخمسون المشهورة قادمة من جبهة القوقاز وقُصِفت الحامية قصفاً شديداً مما ألحق خرقاً واسعاً في الجدار. دُفع حماة الحصن من الخط الدفاعي الأول إلى الخط الدفاعي الثاني إلا أن هذه الموجة أوقفت بعد أن شنّت قوة المشاة من أكسفورد بوكنك هامشير هجوماً مضاداً طُرد فيه الأتراك. وفي هجوم شديد شُن عند منتصف الليل، طُرِد العدو من الجهة الشمالية الشرقية من الحصن وبالرغم من طردهم فقد اقتربوا إلى الخروقات في الجدار وقاموا بقصفنا من مسافات قريبة. وانسحبوا في النهار من الحصن إلى خنادقهم التي تبعد مسافة خمسمائة ياردة عن الحصن وتكبّدوا خسائر يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين تقدر بثلاثمائة وخمس عشرة أصابة. وقال الأسرى بأن العدو اعتقد أن ذخيرة طاوزند كانت تنفد ولا بدّ من إدامة زخم الهجوم وهكذا ازدادت حدة الهجوم. لقد وصف الأتراك حصننا بمقبرة للموتى وقيل بأن الفرقة الثانية والخمسين قد أُبيدت. وفي اليوم التاسع والعشرين طلب العدو هدنة لدفن موتاه وسحب جرحاه الممددين بأعداد خارج الحصن. بلغت إصابتنا خلال الشهر الأول من الحصار ألف وثمانمائة وأربعين قتيلاً وجريحاً ولا بدّ أن العدو قد تكبّد أربعة آلاف إصابة.

مَثَّل الفشل الذي مُنيت به الهجمات التركية يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين فقد فتح العدو صفحة جديدة بعد أن حوله الى حصار مستمر ولم يعد يشن هجمات بالمشاة فحسب بل بالقصف والغارات الجوية اليومية. استمرت نيران المدفعية حتى اليوم الثاني والعشرين من آذار عندما أطلق الأتراك نيرانهم بألف طلقة وبسلسلة سريعة وبعد ذلك ادخروا ذخيرتهم إلى القصف المسائي الذي يستمر عموماً للفترة من الرابعة والثامنة مساءً وطال القصف المدينة والحصن حيث يوجد العلم البريطاني وموقع الرصد باستخدام مدفعية نوع خمسة أنجات الموجهة إلى

المقر القريب وهي أهداف جيدة. كان الأتراك لديهم بعض المدفعية البحرية إلا أن أغلب المدافع كانت مدفعية قذائف أربعين رطلاً. وعلى الضفة اليمنى كان لديهم أصناف من مدافع الخنادق تسمى باسم جنودنا «بيتو لانت فانّي». كانت تطلق قذائف عيار خمسة عشر أنجاً دائماً ما تصيب المكان نفسه تحديداً.

وفي اليوم الثاني من كانون الثاني شُوهدت أول طائرة معادية خلال الفترة من الثالث عشر من شباط إلى الثاني والعشرين من آذار، فقد سببت القنابل التي تطلق من الجو أضراراً أكثر من نيران القذائف الأرضية. وفي الثامن عشر من آذار، قتلت إحدى القنابل التي سقطت على المستشفى ستة جنود بريطانيين وجرحت ثمانية وعشرين جندياً، أربعة عشر منهم كانت إصاباتهم بليغة ومات اثنا عشر خلال أيام قليلة. وفي يوم الحادي والعشرين من آذار، سقطت أربع قنابل بالقرب من المقر قتلت الكثير من الأطفال والنساء العرب وأغرق الطيارون مركباً يحمل حصاناً في النهر والذي كان يحمل مدفعاً عيار (4، 7) أنجاً. وبعد مرور هذا الحادث ضعف القصف الجوي ربما بسبب نقص الذخيرة وكانت القنبلة التي سقطت على المستشفى وسببت هذا الدمار بدون أدنى شك كانت تستهدف مقر طاوزند وهو الهدف المفضل لاهتمامات العدو. لقد عبَّر الطيار التركي الذي أسقط القنبلة عن أسفه العميق لكنه لم يقر بالذنب لنيته إلا أن خوف العثماني هو الجواب على ذلك ومع ذلك فإنَّ إغراق السفن المستخدمة بصفة مستشفيات وإطلاق النيران على الصليب الأحمر لم يكن جزءاً من مجموعة القوانين والقواعد الأخلاقية.

لقد أضعف تقدم رتلنا للإنقاذ في الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني الجزء الأكبر من الجيش التركي تاركاً قوة صغيرة لإدامة الحصار. ومنذ ذلك الحين، انصب الاهتمام في أيام الحصار أكثر على مواجهة الجوع وتأجيل المواعيد التي كانت تعطى من وقت إلى آخر على أنه اليوم الأخير الذي يكون بمقدور الحامية الصمود مشيراً إلى تناقص الحصص التموينية في بادئ الأمر. كان لحم الجياد متوفراً بكثرة ولكن القليل جداً من الجنود الهنود كان لديهم الرغبة لأكله ليس بسبب الجانب المادي لاشمئزازهم منه ولكن لمراعاة الجانب الروحي أكثر. بعد أن اتصل طاوزند عبر اللاسلكي مع زعماء المجتمعات الدينية الرئيسة في الهند وحصل منهم على حكم أن

هذا اللحم في الحصار كان شرعياً. ومع ذلك، كان هناك نفور من الجنود الهنود وكان طاوزند متردداً في إجبارهم وبدلاً من لحم الخيول قدم لهم حصصاً من الطحين أكثر من الجنود البريطانيين.

كانت الأيام التي أعقبت الإعاقة في منطقة الحنة نذيرة شؤم لأيام الحصار السيئة التي تنتظرهم. وبالنقص المتزايد في الحصص الغذائية أصبحت القوة معتادة على الجوع. وأضحى التعليق المستمر أمراً لا يحتمل إلا أن في هذا الوقت وفي الشهرين اللاحقين لتلك المسألة لم يعد هناك سؤال يجول في خاطرهم يتعلق بالقضية الجوهرية. وكان محور السؤال: «إلى أي مدى تطول المسألة»؟ وكان طاوزند المصدر الرئيس في التفاؤل. كان دائماً في جولاته وزياراته للمرضى يتحدث إلى الرجال ويلهمهم الثقة والأمل في كل مكان. كان قائداً بالفطرة في الحصار لتمتعه بالقدرة في الدفاع وتجنُّب الكارثة أو في هجومه الدفاعي. ويمكن قراءة شخصية الرجل في التصريح الرسمي الذي أصدره في السادس والعشرين من كانون الثاني أصدر خطاباً إلى الحامية تحدث اليهم بثقة موضحاً كيف تسير الأمور وتحديداً الدور الذي يقومون به قائلاً: لم تنجح قوة الإغاثة بقيادة الجنرال أيلمر في جهودها لإزاحة الأتراك وتحصَّنت على الضفة اليسرى من النهر على بعد أربعة عشر ميلاً عن موقع السن حيث دحرناهم في شهر أيلول الماضي. تكبَّدت قوتنا للإغاثة خسائر جسيمة وهي تواجه الطقس السيّئ. لقد تحصَّنت القوة بالقرب من الموقع التركي ويوجد مزيد من التعزيزات في طريقها عبر النهر وأتوقع بثقة أن يتم فك الحصار عنا في أيام خلال النصف الأول من شهر شباط. وأود أن يعلم جميع الصفوف والمراتب سبب قراري الصمود في الكوت في أثناء انسحابنا من المدائن وهو ما دام أننا نمسك بالكوت فإنَّ الأتراك لم يتمكَّنوا من تمرير سفنهم ومراكبهم ومخازنهم وذخيرتهم إلى هذا المكان ولم يتمكَّنوا من المضي قدماً في مهاجمة العمارة وهكذا فإنَّنا نوقف الآن التقدم التركي. كما أننا نعطي الوقت لمجيء تعزيزاتنا عبر النهر من البصرة ونعيد تحقيق النجاح لقواتنا.

سنعطي الوقت لحلفائنا الروس للتحرك باتجاه بغداد التي تهيّىء الآن قوة كبيرة. وتلقيت رسالة شخصية من الجنرال بارانوف قائد قوة الحملة الروسية في

بلاد فارس عبَّر فيها عن إعجابه بما فعله رجالنا في الفرقة السادسة وقوتنا الملحقة بها في الاشهر القليلة الماضية وأخبرني عن التقدم الذي يحرزه على الطريق من كرمنشاه باتجاه بغداد. فالصمود في الكوت يجعلني أحافظ على الأراضي التي استولينا عليها في السنة الماضية وفقدنا فيها دماء زكية بدءاً من نصركم المؤزر في الشعيبة وهكذا حافظنا على الحملة المجيدة بدلاً من أن نسمح بالكارثة أن تطال العمارة أو ربما أبعد من ذلك. لدينا طعام وافر يكفي لأربعة وثمانين يوماً باستثناء ثلاثة آلاف رأس حيوان يمكن أن نأكله وعندما دافعت عن حصن سيترال قبل عشرين عاماً عشنا على (العطا) الطحين الهندي ولحم الخيول إلا أنني أكرر بأنني على ثقة بأن الإغاثة ستجري في النصف الأول من شهر شباط ومن واجبنا الصمود بكل وضوح وبساطة. إنه واجبنا أمام إمبراطوريتنا وبلدنا وملكنا المحبوب بالوقوف هنا والصمود أمام التقدم التركي كما نفعله الآن وبمساعدة الجميع ووقفتهم قلباً وقالباً سنجعل هذا الدفاع يذكره التأريخ بأحرف من نور. ينظر إلينا الآن كل شخص في الهند وبريطانيا وهم فخورون بشجاعتكم الرائعة التي أظهرتموها وأقول لكم: ليتذكر الجميع الدفاع المجيد في حصار البلقان[1] وهذا ما يجول في تفكيري. «إنني واثق كل الثقة ومطمئن للنتيجة» فالأتراك بالرغم من أنهم جيدون خلف الخندق فليس لهم قيمة في الهجوم. لقد حاولوا مرة وكانت خسائرهم في ليلة واحدة في محاولتهم على الحصن ألفي إصابة لقد تكبَّدوا خسائر جسيمة من مدفعية الرمي المنتظم للجنرال أيلمر وليس لي شك أنهم تكبَّدوا خسائر جسيمة. لقد أديت واجبي وأنتم تعرفون النتيجة وسواء أكنتُ على صواب أم على خطأ فإنَّ اسمكم سيسجله التاريخ كأبطال في المدائن وأبطال

---

(1) حصل حصار البلقان في المعركة الرئيسة في الحرب التركية الروسية التي جرت عام (1878-77) بعد أن تحالف الجيش الروسي والروماني ضد جيش الإمبراطورية العثمانية. إن الاشتباكات القليلة التي جرت في البلقان قد غيرت مجرى التأريخ. وقد واجهت الإمبراطورية العثمانية صعوبة في البقاء في أوروبا وقد وصل الجيش الروسي إلى القسطنطينية وكانت الإمبراطورية العثمانية على وشك الانهيار في آسيا أيضاً إلا أن البلقان أعطتها دفعة جديدة للبقاء مدة أربعين سنة أخرى بعد أن صمد الجيش العثماني في وادي البلقان الصخري وسيطر على الطرق الاستراتيجية الرئيسة المؤدية إلى جبال البلقان. (المترجم).

في ساحات الوغى. ربما من الصواب عدم إخباركم بما ذكرته آنفاً ولكني أشعر بأني مدين لكم للتحدث إليكم مباشرة وبصراحة وأضعكم بثقتي بعد مشيئة الرب وشعرتُ بالخسائر الجسيمة ومعاناة جرحانا وسأتذكرها ما دمتُ حياً وأستطيع القول بأني لا أعرف جنرالاً مرَّ على الفرقة السادسة أُطيع مثلي. وأتخوف بأن هذه الكلمات طويلة ولكني تكلمتُ من صميم قلبي وسترون بأني سأضع جميع العمل الروتيني جانباً. سننجح وتذكروا كلماتي ولكن ادخروا ذخيرتكم مثلما تدخرون الذهب.قُدمت هذه الكلمات التشجيعية في مواجهة الروتين الممل القاتل ولرفع الروح المعنوية في الهجوم.

لم تكن هناك ظلامية أو سرية فيما يتعلق الأمر بطاوزند وقد فهم الآن الذين تخاذلوا بأن الحامية كانت فعالة وغير سلبية ولم تعانِ من احتواء الأتراك ولم تفد نفسها وكانت قمة في الحافز المادي. لم يُنتفع من مخازن الحبوب الكبيرة التي اكتشفت يوم الرابع والعشرين من كانون الثاني في الحال إلا أن الآن هناك صعوبة طحنها لهذه الحامية الكبيرة إلا أنه أُسقطت رحى في المعسكر بواسطة الطائرات وزودت المحركات بالنفط المخزن في البواخر. في الوقت الذي أصبحت فيه الرائحة النتنة لا تطاق وساد الخوف من انتشار الأوبئة.

وقبل السادس من شباط انتشر مرض الأسقربوط مما دفع طاوزند لزراعة بذور الخضراوات يوم السادس والعشرين من كانون الثاني وقد حان قطف هذه الخضراوات قبل استسلام الحامية. بدأ العوز الحقيقي للحامية في منتصف شباط ولاسيما في المستشفى عندما نفد الحليب (يوم السابع عشر من شباط) وعلى أثرها حُدد نظام الحمية للمريض بطحين الذرة أو ماء الرز يعطى للمرضى أما الحصص الغذائية الاعتيادية فتقدم للجرحى. وبدأ التماثل للشفاء من أمراض الدزنتري أو الأمراض المعوية. وفي يوم الخامس من شباط كان الجنود البريطانيون يستلمون اثنتي عشرة أونصة وهي ثلاثمائة وسبعة وعشرون وخمسة وأربعون غراماً وهو رغيف من الشعير المخلوط والعطا (الطحين الهندي) وطحين الحنطة، وليبرة وهي ثلاثمائة وسبعة وعشرون وخمسة وأربعون غراماً من لحم الخيول وقليل من البقوليات وكمية قليلة من التمور. أما الحصص الغذائية المقدمة للهنود فتشمل ليبرة

واحدة من الطحين ونصف حصة من الشاي والكركم والفلفل الحار والزنجبيل وكمية صغيرة من التمر. واستمرت المواد البقولية بهذه الكمية الصغيرة حتى الخامس من آذار. وفي الأسبوع الأول من شباط نفد الرز والسكر والدهن والكور (السكر الهندي) والخضراوات من الحامية. وكان الحليب في المستشفى يكفي لمدة عشرة أيام فقط. وكانت الحيوانات تحصل على ثلث المواد الغذائية ولكن بدون علف وكانت الحبوب تكفي لإدامة التجهيز إلى الحامية مع اللحم لمدة أربعين يوماً.

بنهاية شهر كانون الثاني، خُصِّصت حصص من لحم الخيول وكانت في البداية بديلاً عن لحم العجول المقدمة عند استهلاك الخيول أو البغال المخصصة للخيالة أو المدفعية أو النقل. وعندما تنقضي خيول المدفعية يتم تشكيل وحدة جديدة من سايس الحيوانات باسم «قدم الكوت». لقد شارك آخر بغل لابدّ من ذبحه في ثلاث حملات عسكرية وعلقت أشرطة المشاركة فوق عنقه. لقد رفض قصاب التجهيز والنقل ذبحه وأرجعه لمرتين ولكن في النهاية كان لا بد أن يرسله مع بغال كتيبة المدفع الرشاش. عموماً كان لحم البغال مفضلاً على لحم الجياد كما أن سمن البغل مجهز جيد للتقطير وكذلك يستخدم بديلاً عن زيت المصباح. واستمر وقود النفط الخام المستخدم في الطبخ يقدم طوال فترة الحصار. وكان هذا الوقود يخلف الدخان وأصبح من السهولة بمكان تمييز طباخ الكتيبة لأنه أسود مثل منظف المداخن بسبب الدخان والسخام الناتج من النفط. وحصل نقص كبير في التبغ الا أن الحامية لم تجد أن الامتناع الإجباري كان انعطافاً لرغبة شديدة. فقد جُربت كل الأنواع البديلة من السكائر المحلية والأصناف المشابهة للأصناف التي كانت تدخن في النارجيلة الهندية والتي استنفدت في بداية شهر نيسان بعد ذلك دُخنت أوراق الليم المخلوطة مع أوراق الزنجبيل أو بقايا الشاي المستخدم. في كانون الثاني جلب (العليق) الباكي الإنكليزي بسعر ثمان وأربعين روبية لنصف رطل. علبة الجروت الهندي سعرها (2-8) روبيات جلبت بسعر مائتين وأربع وثلاثين روبية وعلبة السكائر المصرية بسعر مائة روبية وعلبة الحليب المكثف بأربع وثلاثين روبية. في المدينة تستطيع شراء السيكار المحلي بسعر ثماني عانات (وحدة نقد هندية 16-1 روبية) ورغيف السكر بخمسين روبية. وحقق تجار الكوت ثروة

صغيرة من هذه المبيعات وكانت هناك تجارة محددة في السوق حتى في الأسبوع الأخير من الحصار. وكان يعتقد بأن سباحين عرب أقوياء استخدموا في حمل التجهيزات للنزول باتجاه أسفل النهر في جنح الليل وعلى ضوء الجسارةِ والوسيلة والتحمل الذي أظهره البدو في النهب المربح في الليل فإنَّ القصة فيها مصداقية. حصلت بعض الوحدات في الوقت المناسب على مخزن قبل الحصار بفترة قصيرة. وكان لدى إحدى الكتائب عشرين ألف سيكارة وأخرى كان لديها مشروبات احتفظت بها حتى النهاية ولكن أصبحت الأشياء في ظل هذه المحنة صعبة التوفير والقيام بواجب الضيافة أصبح أمراً غير لائق. وتم تجنب الكثير من الإرباك بكياسة وكان الكثير من الأثرياء يرغبون بتقديم المعونات ولكن من الصعوبة بمكان إيصالها. ومن حسن الحظ كانت الحامية مكتفية بالملابس إذ قبل دخول الكوت بقليل وصلت إرسالية من الملابس هدية من جمعية الصليب الأحمر البريطانية ولا بد أن تكون هذه الإرسالية قد حافظت على الكثير من الأرواح لأنَّ القوات كانت لديها من الحاجيات الشخصية الصيفية فقط لغرض استعمالها.

ولم تقدم الوحدات المختلفة إلا الشيء القليل لمساندة بعضها البعض الآخر خلال فترة الحصار، ففي البداية كانت نيران الرشاشات والمدافع الرشاشة غير المباشرة فضلاً عن القذائف لتمشيط المنطقة بأكملها ليل نهار. ولم تغادر القوات مواضعها إلا للقيام بأعمال الدفاع المهمة. وفي أثناء الصفحة اللاحقة عندما ضعفت النيران لم يكن لدى الجنود والضباط القدرة على خرق رتابة الحصار عبر القيام بالألعاب أو التمارين أو التسلية إلا أن على الضفة اليمنى حيث يتواجد فوجان في معمل عرق السوس هما فوج مائة وعشرة من المهراتا وفوج المشاة مائة وواحد وعشرون كان الوضع أفضل حيث كانت هناك بعض الأرض القاحلة وتحدد منها مساحة بخمسين ياردة مضروباً بعشرين ياردة لغرض استخدامها في لعبتي الهوكي والكريكت بمقابض مستدقة الرأس وكرة من خرقة من ملابس بالية. ويقومون أيضاً بصيد السمك ويحققون نجاحاً يكون مكملاً للحصص الغذائية في الوقت نفسه. والتحقت سريتان من قوة نورفوك بهم وعبروا باستخدام العبَّارة في الليل وقد ثمنوا الإغاثة المقدّمة لهم.

في الثاني من آذار وبسبب نقص الوقود المخصص للطاحونة فإنَّ حصة وجبة الشعير قد انخفضت من رطل إلى ثلاثة أرباع الرطل والمقدمة إلى القوات الهندية ولكن أعطيت ست أونصات لغرض التجفيف. لقد ازداد معدل الوفيات وانخفضت حيوية القوات وانخفضت قدرة المرضى على استعادة عافيتهم وتلك المعاناة من الأمراض الخطيرة تفقد الأمل بالبقاء وقبل النهاية فإنَّ الأمراض التافهة كانت أحياناً فتاكة ولن تندمل الجروح وفقد الجلد واللحم البشري القدرة على التجدد ولم يتمكَّن الجراحون من عمل شيء عندما لا تلعب الطبيعة دورها. لقد تفاقم مرض الأسقربوط بين صفوف الجنود الهنود ودخلت أكثر من ألف وخمسين حالة إلى المستشفى خلال فترة الحصار فضلاً عن الحالات التي عُولجت داخل الأفواج. وقد كلف الرعب الذي انتاب الجنود الهنود من أكل لحم الخيول حياتهم عندما أصابته المجاعة لعدم أكلها وأصبح الجندي ضعيفاً لا تعمل عملية الهضم والتمثيل الغذائي عملها. أما الذين أكلوا الخيول في البداية مع الخوف فكانت حالتهم أفضل أما الكوركا (الجنود الهنود) الذين لم يتملكهم التردد في أكله فكانوا هم الأفضل.

في التاسع من آذار بعد الهجوم الفاشل الذي شُن على حصن الدُّجيلة قل رغيف الحصة الغذائية المقدمة للبريطانيين من اثنتي عشرة إلى عشر أونصات. كان الفشل في الدُّجيلة خيبة أمل أكثر من النكسات التي حلت في شهر كانون الثاني حيث كانت الحامية تنتظر وبلهفة فك الحصار. وفهم بأن جهداً عظيماً آخر كان يبذله رتل أيلمر الذي يَشنّ الهجوم في الصباح وكانوا يشنون الهجوم بكل ما أوتوا من قوة. وفي الساعة الرابعة والنصف صباحاً كان الرجال المحاصرون في الكوت على أهبة الاستعداد وكانت أصوات المدافع تقترب. وطول النهار كانت العيون شاخصة باتجاه الضفة الأخرى إلا أن قوة أيلمر لم تظهر. ومرة أخرى أنعشت آمالهم بوجود بصيص أمل ظهر واختفى وترك التأجيل والإنهاك المحاصرين يموجون في القلق مع الاستنزاف الذي أصاب أبدانهم وتفكيرهم.

وأصدر طاوزند تصريحاً آخر يوم العاشر قال فيه: «كما قلت في مناسبة سابقة فإنَّ لدي وطيد الثقة بكل القوات وبجميع الصفوف نقف الآن وقد مضت ثلاثة أشهر على الحصار بثبات وبأسلوب أثنى عليه ملكنا المحبوب ورجالنا في انكلترا

واسكتلندا وإيرلندا والهند وجرى هذا بعد المعارك المجيدة التي جرت في كوت العمارة والمدائن وانسحابهم إلى الكوت ويُشْهد الآن على الأعمال البطولية. ومنذ الخامس من كانون الأول 1915 فقد مضت ثلاثة أشهر من الريبة القاسية والشك اللذين لا يتحملهما جميع الرجال والناس. وأقول لكم في خضم تلك الأحداث بأنه حدث فشل آخر لإغاثتنا وأطلب منكم أن تمنحوني قليلاً من التعاطف معي حيث أقودكم في هذه المعارك وأود أن أشير إلى أني جئتكم بصفة غريب والآن تحبون قيادتي بشعور عميق لم أعرفه من قبل. وعندما أذكر نفسي أود أن أذكر أسماء الجنرالات الذين عملوا تحت إمرتي وهم متميزون في قيادة الرجال. أتحدث إليكم الآن كما كنت سابقاً من صميم قلبي وأطلب تعاطفكم وأعدكم بأنه سيتم إغاثتكم في أوقات محددة وبوعد قطعه هؤلاء الذين يسعون لإغاثتنا. وبدون شك ليس خطؤهم والاعتقاد بأني ألقي اللوم عليهم. لقد ضحُّوا بحياتهم رخيصة ويستحقون منا كل آيات الشكر والتقدير إلا أني أريد منكم مساعدتي مرة أخرى كما في السابق لقد طلبت من الجنرال أيلمر القيام بمحاولة أخرى لجلب مثل هذه الأعداد وسيكسرون المقاومة وعدم إثارة الشكوك بالقضية، لهذا ومن أجل الصمود فقد قمت بذبح عدد كبير من الخيول من أجل تقليل كمية الحبوب التي تأكلها كل يوم ولا بدّ من تخفيض الحصة الغذائية المقدمة لكم. كان من الضروري عمل ذلك من أجل إبقاء رايتكم ترفرف خفَّاقة. لقد قررتُ الصمود وأعلم بأنكم معي قلباً وقالباً.

في الحادي والثلاثين من آذار خُفضت الحصص الغذائية مرة أخرى. وفي اليوم الثامن من نيسان توقف العمل بالطاحونة للنقص في الوقود وكان الطحين يكفي حتى الخامس عشر من نيسان وفي يوم السادس عشر من نيسان خُفضت حصة الطحين إلى أربع أونصات والمقدمة إلى البريطانيين والهنود. ووزِعت حبات الأفيون في صفوف الجنود الهنود (السيبوي) من قبل الكادر الطبي للتغلب على آلام الجوع. وفي هذا الوقت كان جميع الهنود يأكلون لحم الخيول وفي الحادي والعشرين من نيسان نفدت حصة الطحين التي مقدارها أربع أونصات. وخلال الفترة من الثاني والعشرين الى الخامس والعشرين من نيسان أُطعمت الحامية بالحصص الغذائية المدخرة قبل يومين والتي خُصصت في كانون الثاني. وبعد صد هجومنا الثالث

على منطقة الصناعيات في الثاني والعشرين من نيسان كانت الإغاثة العاجلة أملاً خائباً. وتكمن الفرصة الوحيدة للحامية في سفينة جولنار التي حاولت ليلة الرابع والعشرين كسر الحصار ولكنها فشلت. وفي غضون ذلك كانت الطائرات تنزل المواد الغذائية إلى الكوت. لقد أعطت هذه الخدمة الجوية أربعة أيام أخرى إلا أن تفريغ هذا الوزن الثقيل كان حملاً ثقيلاً على المكائن. في السابق أُنزلت مواد خفيفة الوزن إلى المعسكر مثل منظف الرشاشات وقطع غيار للأجهزة اللاسلكية والأدوية والضمادات الطبية والسكرين وشبكات الصيد الكبيرة لصيد الأسماك والسكائر والتبغ. ولأنه كان من المستحيل تجهيز الجميع طلب طاوزند التخلي عن وسائل الترف هذه وقدمها على أنها شكل من أشكال الامتياز وحرم نفسه منها أسوة بقواته. بعد العشرين من نيسان بذل الكثير من العرب في المدينة والذين شعروا بألم الجوع المحاولات من أجل الهرب عبر النهر. وكان هؤلاء العرب سباحين ماهرين وتمكّن اثنان منهم من الدخول إلى معسكرنا بمساعدة تيار الماء القوي حيث تمكّن أحدهم بمساعدة كيس هواء من إتمام الرحلة في غضون ثماني ساعات والآخر أخفى نفسه في النهار ووصل في الليلة الثانية والثالثة وهو الناجي الوحيد من مجموعة ثمانية عشر شخصاً فوق طوافة من خشب وقد أصابته طلقة في ساقه. لقد أطلق الأتراك النيران عليهم من الضفة وقتل أربعة منهم وجُرح آخرون كثيرون وغطسوا إلى النهر ومن المشكوك في الأمر أنهم استطاعوا الهرب. كان هؤلاء العرب يتحدثون بانشراح في الحامية وقيل بأنهم يبدون ضعفاء لكنهم صُلبٌ وأقوياء. وكان سكان الكوت على ثقة بأن المكان سيتم إغاثته واستندت هذه الثقة إلى شخصية طاوزند وإنجازات قواته تحت قيادته التي بلغت من هذا القبيل إلى حد الاسطورة. لقد تخلوا عن المدينة بسبب الجوع العظيم وقبل النهاية كانت الحامية على حافة المجاعة. في أثناء الأسبوع الأخير من الحصار كان معدل الموتى يتراوح بين ثمانية بريطانيين وواحد وعشرين هندياً. كانت القوات منهكة إلى حد أن الافواج التي تمسك خط الجبهة بقيت هناك خمسة عشر يوماً بدون إغاثتهم. وكانوا من الضعف بعدم قدرتهم من حفر الخنادق وينزل الرجال الخفر في مواضعهم. وسجل العقيد هيهر كبير ضباط الطب حالاتُ الهنود العائدين من الخنادق في المساء ولا يشكون من شيء والذين

يسقطون وتجدونهم موتى في الصباح لقد ماتوا بسبب الإنهاك، وببساطة لم يكن باستطاعتهم تحمل أعباء الحياة. ويشك أن يكون بمقدور أقوى رجل في الحامية المشي مسافة خمسة أميال وهو يحمل معداته ومع ذلك لم يفقد الأمل. فقد كانت رشاشاتنا ومدافعنا الرشاشة تُسمع في منطقة بيت عيسى ويتم رؤية وميض مدافعنا في المساء. وفي العشرين من نيسان أرسل الجنرال أيلمر برقية قال فيها: «تمسَّكوا جيداً سيتم إغاثتكم في أيام قليلة» لقد صمدوا واستمروا بقوة. في يوم الاستسلام لم يتمكن الرجال في الخنادق من حمل معداتهم الشخصية بسبب الضعف والوهن الذي أصابهم.إنَّ مرارة النهاية قد خففت من وطأتها معرفة أنهم عملوا كل شيء يمكن أن يعملوه. لا بدّ أن يكون لديهم شعور داخلي بإخلاصهم الطويل في ظل المحنة. لا يمكن أن تكون غير ذلك لأنَّ الرسائل وصلت قبل تدمير جهاز اللاسلكي الذي يحمل أفراداً من مواطنيهم بعبارات ليس فيها لبس إلا إن كانت هناك خيبة أمل ساحقة في الذاكرة. وحمل تصريح طاوزند الأخير الذي أصدره في الثامن والعشرين من نيسان أملاً بإطلاق سراحهم وقال: «إنَّ هذه الاعتبارات وحدها وبالتحديد هي أن أتمكَّن من مساعدة رفاقي من جميع الرتب حتى النهاية جعلتني أقرر التغلب على المرض الذي يعاني منه جسدي والكرب الذي يعتلي عقلي الآن. لقد قابلتُ قائد الأركان التركي يوم أمس الذي عبر عن إعجابه التام بدفاعكم البطولي الذي استمر خمسة أشهر لا تزال المفاوضات جارية على قدم وساق وآمل أن أتمكَّن من إعلان موعد مغادرتكم إلى الهند وأن الإخراج المشروط لن يكون ضد الأتراك؛ لأنَّ القائد التركي يقول بأنه يعتقد أنه ممكن ذلك وأنه أرسل برقية إلى اسطنبول لطلب ذلك منهم وقد يُسمح لسفينة جولنار بالمجيء إلينا وهي محملة بالمواد الغذائية المخصصة لنا وقد وصلت منطقة المكاصيص ومهما حدث أيها الرفاق لا بد أن تفتخروا بأنفسكم. لقد أدينا واجبنا تجاه ملكنا وإمبراطوريتنا ويعرف العالم أجمع بأننا أدينا واجبنا. أطلب منكم الوقوف إلى جانبي بالثبات والانضباط الرائع الذي أبديتموه دائماً وللأيام القليلة القادمة للحملة وأطالبكم جميعاً. وبدلاً من إطلاق سراحهم المشروط فقد كان الأسر ينتظرهم بكل ما فيه من مصاعب وإذلال. لقد طويت الأشهر والسنون الطوال وأكثر من نصف الجنود والمراتب قد واجهوا ظروف

المنفى الصعبة وعندما أبرمت الهدنة وجد أن من مجموع ألفين وستمائة وثمانين ضابطاً وجندياً بريطانياً أُخذوا الى الكوت منهم ألف وثلاثمائة وستة بريطانيين قد فارقوا الحياة وأربعمائة وتسعة وأربعون لا يعرف مصيرهم وهذه نسبة 65 % قد أُبيدوا ومن مجموع عشرة آلاف وأربعمائة وستة وثمانون هندياً مقاتلاً وأتباعهم فقد مات ألف ومائتان وتسعون مقاتلاً وفقد أكثر من ألف وسبعمائة وثلاثة وسبعين منهم. إنَّ هذه الأرقام في التقرير تعطي المعنى الحقيقي للأسر في تركيا. لقد مات معظم الأسرى الذين وقعوا في الكوت عند العبور المرعب بين سامراء وحلب في شهر حزيران. لقد تم فصلهم عن ضباطهم وترك الذين لا يستطيعون المسير يموتون على قارعة الطريق بعد أن قام العرب بتجريدهم من ملابسهم وقد فتك بهم مرض الدزنتري والجوع وعدم توفر العناية الطبية. إنه تاريخ القسوة والوحشية والإهمال الذي عرفناه على مرِّ التاريخ الذي لا يترك وهماً عن طبيعة الأتراك. لقد حصل تبادل مئات قليلة من البريطانيين والهنود الذين أسعفتهم الظروف مقابل أسرى أتراك أصحاب من بينهم أربعة ضباط بريطانيين. كنتُ مريضاً راقداً في المستشفى في البصرة يوم السادس من مايس عندما جلب شخص نحيل ووضع في السرير المقابل لي. لقد كان واحداً من أسرى الكوت الأربعة الذين تمت مبادلتهم. لقد ترك مرض الإسهال الدزنتري مع النظام الغذائي تحت الحصار والمكون من طحين العطا ولحم الخيول الجلد فوق العظام فقط إلا أن لديه إشعاعاً من المتعة بمرح لمباهج الحياة التي تميزه مثل شمعة في غياهب الجوب. لقد أخبرني الكثير عن الكوت إلا أنه أخبر أكثر عما سيفعله في الأشهر القليلة القادمة. في المساء كان يترنح عند الشرفة ويتكيء على الحاجز وينظر عبر النهر. وقال: يا للروعة أن يقف الإنسان هنا مثل طفل يرى الناس يمضون ويراقب البواخر ولا يوجد خطر يتعرض له من جراء الإصابة بالطلقات النارية.



بعد سقوط الكوت: تاونسند العام، مع خليل باشا

الفصل التاسع عشر

الانتظار للتحرُّك نحو الشمال

يصاب الإنسان بصدمة سارة عندما يدخل البصرة الفيحاء وقد أمضى رحلة مضنية عبر النهر قادماً من الأرض الجرداء المحرقة حيث كنا نقاتل وتصيبه نفحة من شجرة الميموزا (نبات من السنطيات) والسيريز التي تضرب أقواسها باخرته. فقد تنقله عملية التبخير السهل المنبعث مدة أربعة أيام من أجواء الصحراء العنيدة إلى خضرة النبات الاستوائي. تبدأ مناطق النخيل الحقيقة بأميال قليلة من القرنة إلى مصب شط العرب إلاّ أنها تظل على مقربة من النهر. وعندما تخترقها من أي مكان شمال المدينة أو جنوبها وبمسافة نصف ميل أو نحو ذلك ستمر بمسحة من الرمال القاحلة. ابتسمنا ونحن نردد أسطورة جنة عدن إلا أن من الأشياء الطبيعية جداً أن يتخذ البابليون والكلدان الظل الأخضر الأول من الصحراء بأنه مكان جنة النعيم.

يخبرنا علماء الجغرافية المسلمون في القرن الثاني عشر بأن العرب اتخذوا من حدائق قناة القبلة في البصرة على أنها واحدة من الجنات الأربع على الأرض. إنها الفردوس المنفصل برفق عن جهنم وكما يقول العرب بأن النخلة تكون جذورها في الماء ورأسها في الجحيم. ومع ذلك توجد هناك الحيوية والجمال التجريدي الأخاذ. ارتبطت الجذوع مع الأعراش لتكوين الظل الذي تنمو تحته أشجار التين والرمان والأزهار القرمزية. وعبر بساتين النخيل هذه مرَّ تومي (الجندي البريطاني) واتخذ المنطقة الواقعة بين أرصفة المرفأ الرملية والمخازن ومواضع بناء السفن مكاناً لعمله إلا أنه لم يجد شيئاً في المشهد يوحي بروح جنة عدن لعدم وجود انتعاش في البصرة إلا ما تراه العين. لم تكن بشرته ذات مسحة سمراء كبقية رفاقه من أعالي النهر إلا أن البقع البيضاء والصفراء أو الوردية انتشرت في بشرته بعد أن ترك البعوض

وذباب الرمل آثاره عليها وساعد في التصميم تنوع حرارة الوخز. ويكشف قميصه المفتوح من الجبهة لوحة فسيفسائية بعد أن ارتبط القميص والشورت بكتلة من الأشواك ربطت بالياقة عند العنق وهي منقوعة بالعرق. ويبدو الهواء مشبعاً بالعرق وعند إيقاد عود ثقاب فإنها ستحترق احتراقاً متقطعاً كأن الشعلة اختنقت. تصبح أذرع الكرسي المصنوعة من الخيزران دبقة كأنك تلمس أصابع طفل غير مغسولة. بيد أن مقياس الترمومتر يسجل ارتفاعاً إلى مئة وعشر درجات أو مائة واثنتي عشرة درجة فهرنهايت في الظل على الرغم من رطوبة الهواء. في تموز 1917 ارتفعت درجة الحرارة إلى مئة واثنتين وعشرين درجة إلا إن كانت هناك فترة راحة وكنا ننتظر في الأسبوع الثالث من حزيران للتوجه إلى الشمال ذي الريح المنعشة التي تهب من الشمال بحسب ما تذكره الكتب وتنعش الهواء مدة أربعين يوماً.

لم يطلق العنان للسلوك الذهني الفلسفي المنفصل والمستغرق بالأحلام إلا شجرة النخيل وهي مسألة طبيعية في هذا الجو الرطب. كانت البصرة تعج بالحركة مثلما هو حال مراكز الحرب الأخرى. وكان شط العرب مفعماً بالضجيج مثل نهر كلايد في اسكتلندا. مرت ساعات طوال كانت فيها الحياة مفعمة بالنشاط وتعرَّق جبيني في الساعة الخامسة والنصف صباحاً وكان حشداً من العمال يمرون من تحت شرفة مسكني عبر الشارع. دوَّت أول صرخة بشعة لصفارات الإنذار وأشعة الشمس تلفح قفا عنقي وبلمسة مدسوسة ومؤقتة تثير إحساساً غير مرغوب فيه في النهار لا توجد هنا عذوبة في الفجر. تمتد البصرة أو العشار وهو الاسم الحقيقي لمدينة البصرة القديمة مسافة ثلاثة أميال من أعالي الجدول التي كانت دائماً موطناً للعالم إلا أن حشود العمال والميكانيكيين والعمال غير الماهرين والتجار والكتبة الذين يتجمَّعون في الشوارع في وقت مبكر من الصباح وعلى الأرجح تكون لهجاتهم متنوعة مثل أي تجمع جرى منذ الانقسام الأصلي في صفوف البشرية في بابل. ولا بدّ أن تكون ثيابهم أكثر تنوعاً في الشكل واللون من الثياب التي يرتديها سكان سهول شنعار[1].

---

(1) شنعار هي منطقة معينة ذكرت في التوراة غير معروفة الحدود في بلاد وادي الرافدين. ذكرت كلمة شنعار ثماني مرات في التوراة العبرية وكانت تشير إلى مدينة بابل في العراق حالياً وموقع شنعار هو وصف عن مدينة بابل وأوروك التي تقع جنوب بلاد بابل في سفر التكوين. (المترجم).

يرتدي الشرقيون قبعات وعمائم من كل الأطياف ويرتدي الغربيون أحياناً الملابس الفاخرة حيث يتدافع الناس بالمناكب في موكب لا ينتهي عندما يرتدون الطربوش والقبعة الهندية المصنوعة من الفلين والعمائم وقبعات من القش والقلنسوة الضيقة والعقال العربي والكوفية واللباد لسكان مدينة لور في إيران أو الكرد وقبعة الرأس من بختياري والاستراخان (صوف الحمل الصغير) من الشمال. ورأيتُ حمالاً حافي القدمين من بوشهر ورجلاً يرتدي معطفاً انكليزياً طويلاً يمتد إلى عقبي السيد (شخص يرجع نسله إلى الإمام علي) ويضع عمامة خضراء حول الطربوش ويتبعه بنغالي يرتدي الدوطي (مئزر طويل يرتديه الرجال في الهند) وخادم من مدراس يضع حلقات في أذنيه مثل قصة «حامل هنري الصغير» ورجل من الصين يرتدي نظارات وقبعة من القش يحمل منشاره الا أن يبدو مثل أستاذ في التعليم.

وترى البارس (الإيراني) والزنزباري والسواحيلي واليوناني واليهودي القادمين من البلدان كافة ولاسيما القادمين من بغداد من المسيحيين الذين لا يُحصى عددهم والكلدان والأرمن والصابئة والآشوريين النسطريين واليعقوبيين والعرب ذوي البشرة السوداء (الزنوج) المستخدمين في تجارة الرقيق والفرس المتأنقين وهم يرتدون عباءة سوداء أو رمادية تتدلى من أكتافهم مثل عباءة التخرج من الجامعة والبحارة من كل سواحل المحيط الهندي وخليج البنغال وكل سلالة هندية يمكن تصوّرها من كونكان مهاراتا إلى كوردنك في النيبال ومن أوسفزاي إلى سودهان الصغيرة في تلال بونج.

أما المراكب فإنها تتنوع كأنها متوالدة مثل طعام السفن والقمامة المنتشرة في الشوارع وهي مربوطة بمراكب قديمة.ومن المحتمل جداً أنها ترجع إلى نسل سفينة نوح وبالقرب منها زوارق حربية أو زوارق مراقبة مصنوعة وفق أحدث التصاميم. وعندما تسير بجانب هذه السفن ترى سفينة فلاي كاتشر النظيفة وسفينة تورني كروفت التي بدأت حياتها بالبحرية التركية وأغرقتها قواتنا وتبدو الأنظف بعمقها التي تستخدم في القتال في مياه بعمق ثلاثة أقدام لكن النعمة لم تكن بالأسطول والقوة. شاهدتُ الخطوط الجميلة لزوارق المحيلة وسفينة ساكا التي رسمت منحنيات جريئة وشاملة ومقدمة المركب الشائكة أو السفينة العربية ذات الطابق الواحد وفيها سقف

في المؤخرة ومنحوتة بشكل معقد وعبر نوافذها ترى رأس السندباد أو أزهار الكويت ومؤخرتها الحادة وأنفها مثل سمك أبي سياف. ولكن على النقيض من هذه السفن توجد زوارق بخارية بشعة مثل «الخنفساء» أو الزورق البخاري السريع أو البطيء. وفي وسط هذه السفن تقدم الخدمة للتجار والبحارة والبحرية الهندية الملكية أو زورق نهري متواضع. وتوجد هناك سفينة صغيرة ينزع تومي دائماً قبعته احتراماً حيث كانت تستخدم بإحكام مقابل سلم تحت جسر لندن يدفع الإنسان سنتاً واحداً لتأخذه إلى وستمنيستر أو القلعة والآن مثل الآخرين تؤدي دوراً ثانوياً ووجدت طريقها إلى شط العرب في رحلتها.

كنتُ أتكئ على حاجز يخت قائد السفن في إحدى المساءات من شهر حزيران عندما أطلق صديق بحار بجانبي صيحة فرح «يا إلهي» الله يلعني إذا لم تكن تلك سفينة بتركاب! لقد أخذتُ زوجتي من مدينة كينكستون إلى مدينة هينلي في تلك السفينة في شهر حزيران 1914. أتساءل إذا ما طُليت مؤخرتها. وقامت انستي بحرق الخزنة ومحتوياتها تقريباً. وأتذكر أننا جلسنا تحت بعض أشجار الصفصاف لإعداد شاي.

وسلمني قدحه لذا تمكّنت من فك لغز اسم بتركاب وهو قارب لامع مثل الزهرة ذي محرك أصفر يرسو بهدوء في ظل قيادة آمر الجيش.

وقال: أعتقد أننا أقسمنا تحت أشجار صفاف مدينة هنلي والضوء المتلألىء في المساء على نهر التايمز بأنه بعد انتهاء الحرب فإنّنا لن نغادر أرض الحدائق والأكواخ الرمادية والمروج الذهبية ولن نتخبط في ظل شمس الشرق مرة أخرى.

في مايس وحزيران والنصف الأول من تموز تعرضت إلى مختلف أنواع الحرارة والعذاب الذي يقاسيه أفراد القوات ولفترة طويلة والتي يرمز لها بقوة (د) بسبب الرطوبة والحرارة الاستوائية على نهر الفرات وشط العرب وجفاف الصحراء وحرارتها عند نهري دجلة والكارون والطقس المرهق لمدينة بوشهر. ولكل طقس فيه تنوع للحشرات التي تنقل وباءً محدداً مثل إسهال الدزنتري والحمى ومرض الجلد واليرقان والبثور والطفح الجلدي بكل أنواعه. على نهر الكارون قد تلسعك

ما يعرف عامة بذباب «تفسُّخ الكلب» وهي امتداد لبعض الذباب السام ويسبب ماء دجلة مغصاً معوياً. ومن الأمراض الأخرى التي تضرب أطنابها في البلد هي حبة بغداد وتمرة حلب التي تركت انطباعاً مستمراً لبلاد وادي الرافدين ويحرقك في ندب يستمر تأثيره طوال حياتك.

يصاب الإنسان الذي يتعرض إلى حرارة الصحراء في الخيم والخنادق بالدوار ويشعر كأنه كان يقف على حافة نيران عظيمة في مهب ريح عاتية تعصف بها ريح شعلة النار ولهب الهواء الحار الذي يعصف بالشخص. تكون الحرارة أشد وطأة من المضايقة والكآبة ولا يتمتع الشخص بالراحة الخادعة للنسيج والروح. ثم تهب عواصف ترابية يومية تقريباً وتحدث الظلمة على حين غِرة وتصدر حفيفاً أو ظلاً أو تحدث عموداً لولبياً ترابياً مع حركة دائرية على قاعدته يندفع في الصحراء ثم يتوقف ولكن للحظة فقط وتكون هذه الحيوية المنتشرة على مساحة واسعة ناقلة للعدوى. تجري العواصف الترابية الأخرى ملتفة كالدوامة في وقت قصير ويصبح الهواء في حالة حركة مستمرة ويسود الظلام وتعم الحرارة الشديدة الوطأة. ولم يعد الإنسان يواجه الانفجارات بل يواجه موتاً منتظماً مرهقاً بدون إسناد ويشعر الإنسان إزاءه بأنه يستطيع اتخاذ موضع دفاعي أفضل إذا ما كان مستلقياً على ظهره في المكتب أو الخيمة أو المخبأ ولمواجهة الرياح يضع فوق رأسه منشفة مبللة ويستمر في عمله.

في الأسبوع الأخير من مايس، أمضيتُ أسبوعاً في مكان يسمى راهدا في حقول النفط الإيرانية بين تل الخياط وسلسلة جبال الإمام الرضا. ففي الخيمة هنا في شهر آب لم تنخفض درجة الحرارة عن مائة وعشرين درجة ولثلاثة أيام وليال ووصلت إلى مائة وعشرين درجة في الحد الأقصى. تُعرف ناحية الكارون بأنها أشد الأماكن سخونة في آسيا. ففي تلك المنطقة مات بعض الرجال من اللواء الرابع والأربعين من مرو بسبب العطش الذي أصابهم بعد مسيرة ساعات قليلة بدون ماء ومن الأحواز، بدأ اللواء الثاني عشر مسيرته عبر الصحراء إلى العمارة في شهر حزيران عام 1915. لم نسمع بحدوث مثل هذا العمل البطولي إلا أنَّ عدد المسيرات التقليدية العظيمة في التاريخ قليلة.

كانت جميع قوتنا الصغيرة المرابطة على نهر الكارون في عام 1916 تقريباً تحت السقوف أو الحصران. لا يتذمر الإنسان عندما يكون فوق رأسه سقف وإذا ما مر بالطقس الحار وهو تحت الخيمة فإنَّ الحرارة تحت الخيمة أو في الخنادق لا تُطاق.

ومع ذلك، لا يوجد ملجأ يمكن من خلاله التخلص من الذباب.ولا توجد فترة استراحة أو هدنة في الكوارث التي تحل ببلاد وادي الرافدين بل الشيء الطبيعي الوحيد في البلد الذي يستطيع الإنسان حسابه هو أن دورة الكوارث لم تنقطع ومستمرة في الحدوث. فالكوارث التي تحل في شهر مايس هي الغبار والحرارة والذباب وأشدها وطأة هو الذباب. في نهاية شهر شباط يتمتع الإنسان فيها لمدة ستة أسابيع بطقس معتدل الحرارة ويكون الهواء نقياً والنهار تكثر فيه الغيوم والليالي منعشة وكنا في أفضل حال من رفاقنا في فرنسا وقال أحد القادة الذي خدم في فرنسا وفي بلاد وادي الرافدين لكبح تفاؤله: «دقوا الخشب» لقد شاهدتُ ذبابة الليلة.

كان الذباب منتشراً في كل مكان على نحو لا يصدق ولا يمكن وصفه في الخيم والمخابئ والخنادق. لا نستطيع الأكل ما لم نلتهم الذباب.نقوم بالتلويح بملعقة الطعام لطردها من الثريد ونضع البسكويت ولحم العجل في الجيب وننقلها خفية بقبضة مغلقة إلى الفم ومع ذلك نبتلع أحياناً بعض الذباب على حدٍّ سواء حيث يستقر الذباب على شكل غيمة سوداء فوق كل شيء وعندما أكتب لا أستطيع رؤية نهاية قلمي. ثم التحقت بسرية خيَّالة وفي هذه المرة عشت حالة شبه سبات تلفعني الحرارة. وفي أثناء مسيرتي معهم اعتقدتُ بأنهم يرتدون سلسلة من الدروع وعندما جعلت حصاني يمشي بجانبهم لدقائق معدودة اكتشفتُ أن الذي كان يبدو درعاً كان شبكة من الذباب المعدني الفولاذي الأزرق. وفي بداية فصل الذباب، شاهدتُ سرية من الخيالة تلوح عن بعد بمناديلهم على نحو متوازن في الهواء كأنهم يعبرون عن الابتهاج. من الصعوبة تصديق أن ما ظهر من فارس متحِّفظ وفهمتها بأنها خدعة في السراب الى أن اكتشفت بأنهم كانوا يطردون الذباب. لا يمكن مقارنة أنواع الذباب في بلاد وادي الرافدين بذباب الخيول الإنكليزية لأنَّ الكثير منها ربما نسبة واحد إلى عشرين يعض. لا تختلف هذه عن الأنواع المختلفة سوى أنها أكثر تعمداً بالأذى. في المساء يختفي الذباب ويعوض عن أذاها البعوض والذباب الرملي بدورة أذى كاملة.

في كثير من الأماكن يمكن أن نتخلص منها جميعاً لكن هناك محلات سخرت الآلهة الذباب للإضرار بنا ليكون البلاء الرئيس لنا. في معسكر واحد أحصيت أماكن يلسع فيها الذباب عبر رباط الركوب. وكانت عادة هذه الحشرات في المعسكر السبب في حصول «الحبات المزدوجة» والبثور.

وكان هناك تضخيم في التسمية التي استخدمناها في بلاد وادي الرافدين قريبة إلى اليونانية[1].ويكون الناجون منا عرضة للاتهام إذا ما انتشرت الحبات أو البثور لكن معظم التي تصيبنا تكون غير مقصودة.

على سبيل المثال لا شيء يكون أكثر مناسبة من تسمية جيشنا بقوة (د) التي تجمعت من أجل شَن هجوم على موقع يسمى السن.

وتعد الذبابة الرملية بلاءً مؤذياً أكثر مكراً وتكون شبكة اصطياده كافية لاستبعاده إلا أنها تكون خانقة. ويبقى الشخص مستيقظاً طوال الليل بسبب حدة القرصة على وجهه. كما أنه ينقل الميكروب أيضاً والذي يجعلك طريح الفراش مدة ثلاثة أيام نتيجة الحمى المُعدية. لقد تابع الخبراء الواحد بعد الآخر على طول النهر في الطقس الحار فرادى ومجاميع وهم علماء الحشرات وعلماء البكتيريا وخبراء علم الحيوان وتعلم الرجال من آرائهم المعترف بها في مجال الصحة العامة وعلم الصحة. وكانت الفكرة السائدة أنهم جاؤوا لوصف وسائل التدمير أو منع حياة الحشرة في بلاد وادي الرافدين إلا أن ذبابة الرمل تحدَّتهم جميعاً؛ لأنها تتكاثر في الشقوق والحفر في الصحراء.

ففي الأسبوع الأول من شهر مايس قدم قائد الحملة تعازيه لنا بالإشارة إلى أن الذباب سيموت عاجلاً. وأوضح أن «الحرارة تقتل جميع الذباب مثل الصوف في شعلة النار». بطريقة المواساة عندما وصلت درجة الحرارة إلى مائة وثماني درجات في الظل أعاد سرد القصة بأن الجدول الرائع وكما أوضحه الزنجي خال من التماسيح

(1) نسبة إلى الكاتب بول بونيان الذي كتب عن شخصية الحطاب في القصص الطويلة في الفولكلور الأمريكي وهي من القصص المحكية في المناطق الشمالية للولايات المتحدة الأمريكية ويعتقد عادة بأنه عملاق يتمتع بقدرات خاصة بجانب أنه حطاب. (المترجم).

الاستوائية؛ لأنَّ التماسيح الاستوائية تخاف كثيراً من سمك القرش ومع ذلك فقد تطلعنا إلى الحرارة التي تقتل الذباب وقال قائد الحملة سترون: إن الذباب سيموت عندما ترتفع درجة الحرارة وهو يبتسم بدون أن يتعاطف عندما أطلقنا هواء الارتياح سألته: «أي درجة حرارة تعدها حارة؟».

آه، حوالي مائة واثنتي عشرة درجة في الخيمة بالتحديد تصل إلى مئة وثلاثين درجة أو أكثر. عندئذ لن يضايقك. لقد فكرتُ بالأسبوع الذي أمضيته في البنجاب الذي كان في نهاية الطقس الحار عندما مات البعوض وفتحت الغربان فاهها وتوقف الطير المصاب بالحمى بالدماغ من الغناء. إلا أن الحرارة في الهند يتم التخفيف عنها في البيوت حيث يقوم الإنسان باستخدام المروحة السقفية (البنكة) والحمامات الباردة والسقوف والجدران والأبواب والنوافذ السميكة التي تغلق داخلياً ويوضع الثلج والمشروبات الباردة فيها. وتنتشر الأشجار المزروعة على جانب الطريق ولكن في بلاد وادي الرافدين أينما نقاتل لا يوجد ظل سوى ظل شجرة نخيل التمر النحيفة.

من الطبيعي أنْ ترجع أفكار الضباط إلى الفترات التي قضوها في فرنسا وإلى فترات الغداء أيام الأحد في مدينة بيثون والفواكه والأزهار والقهوة واللفات أو معجنات مدام سلستي والملابس البيضاء المنتشرة تحت شجرة الزيزفون ذات الرائحة الزكية. لقد أمضينا سنة أو أكثر في هذا البلد حيث لا توجد إجازة أو مكان للإيواء أو تغيير نتطلع اليه ونشعر بأنها فترة طويلة أمضيناها في الخدمة لكن وبدون أدنى شك كان طعم الحضارة أطيب هناك.

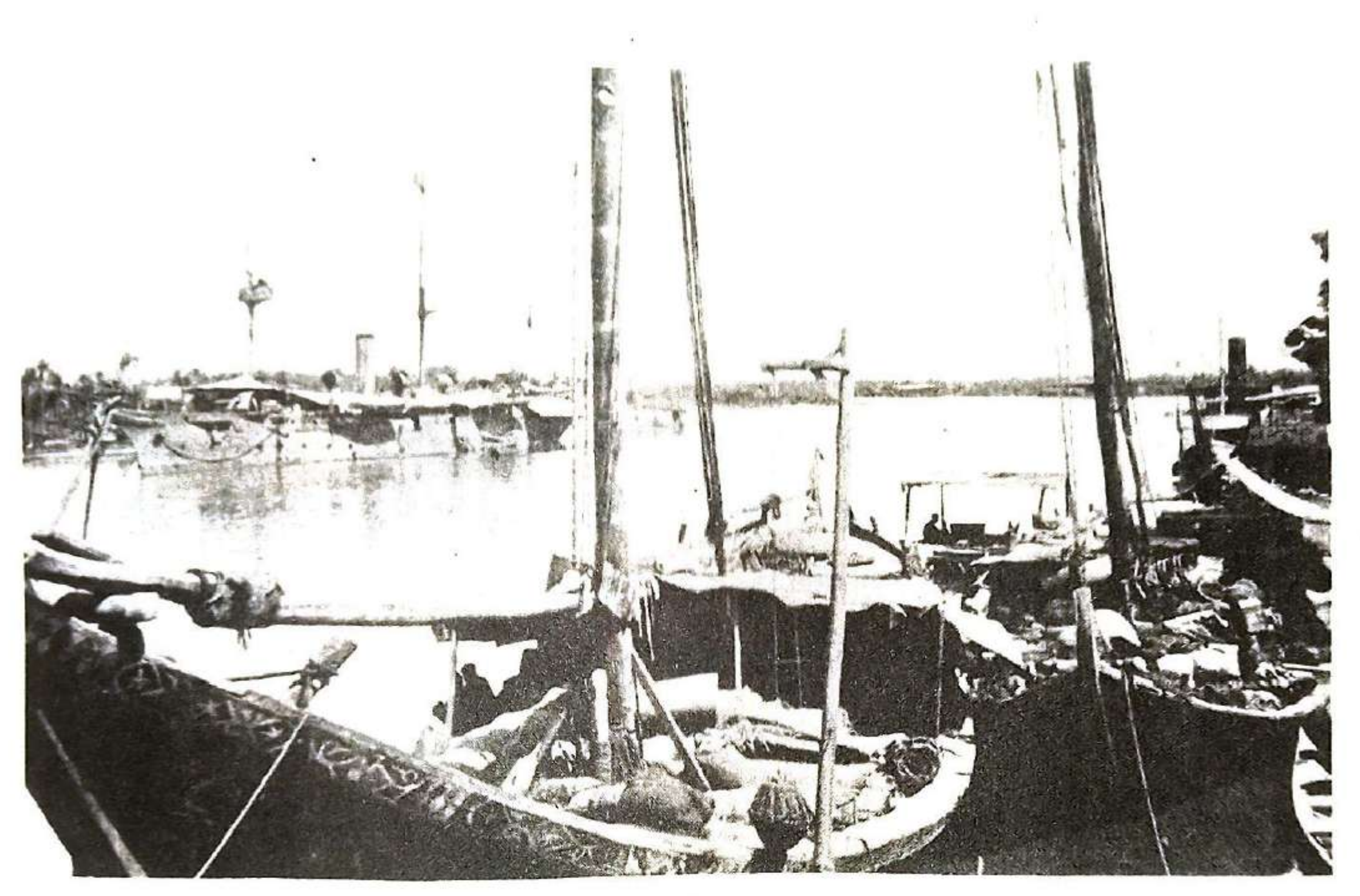
بعد إنجاز العمل الصباحي نتمدد في خيمتنا ذات الباب الأرضي المفتوح وترفع من جانب واحد لمنع الذباب ونلهث طول النهار بانتظار غروب الشمس ولا توجد سوى المظلة الشمسية فوقنا أو منشفة مبللة نضعها فوق رؤوسنا إلا أن ملابسنا قد كساها الغبار والعرق في حرارة يسجل فيها الترمومتر ارتفاعاً إلى مائة وثلاثين درجة في الخيمة حيث تكون درجة الحرارة أعلى بالطبع من النشرة التي تعلنها الحكومة لأنها تسجل تحت اللوح أو القش في الخارج. عاشت قوة (د) حياة بسيطة وواجهت الاحتياجات الأولية.

تنزع شمس بلاد وادي الرافدين كبرياء كل إنسان. لقد حطمت الشمس الغرور إلى درجة أن ضابط الأركان يخرج أحياناً وأكمام قميصه خالية من علامات الأركان التي توضع على كتفه. ومع ذلك يرتدي الإنسان القبعة الواقية من الشمس فوق الخوذة ووسادة القش لأنه قد يصاب بضربة شمس إذا ما تعرض جزء من ظهره إلى أشعة الشمس.

تكون الرياح الحارة المستمرة أفضل من حالة الركود بالرغم من أنها تعصف بالأرض وتثير الرمل والغبار بوجهنا مما يجعلنا نأكل أو نتنفس أو نتام على الرمل حيث يدخل الرمل في عيوننا وآذاننا وملابسنا. يطير ذباب الرمل في المساء والذباب في النهار حتى يصيبنا الإنهاك أو نتغطى بالرمل أو نختنق بتعاقب الليل والنهار.

كتبت إحدى صحفنا في بداية الحرب مقالاً تحت عنوان: «رحلتنا في بلاد وادي الرافدين» لم تلقَ صدى لدى قواتنا ولكن ما أثارهم قول الصحيفة بأن الرجال في جبهات القتال يحصلون على الثلج وماء الصودا والمراوح الكهربائية وكل شيء يمكن أن يخفف من وطأة الحر. لقد استطاع الجندي البريطاني نتيجة إدراكه وتقديره للأمور ونشاطه الفطري من التغلب على مصاعب المناخ هذه وتماسك إلى النهاية بالرغم من الويلات التي ألمت به.

عندما يكون الطقس حاراً فهذا يعني أنَّ درجة الحرارة حقاً مرتفعة وعندما يكون الطقس بارداً فإنَّ درجة الحرارة تكون حقاً منخفضة. لا توجد حالة وسط بينهما. وعندما نوجه سؤالاً إلى الجندي البريطاني لإعطاء عنوان لهذا التصنيف في أول فراغين من الاستمارات أو صورة واحدة في الفراغ الثالث يكون لدينا تعريف بليغ لظروف الأرصاد الجوية لبلاد وادي الرافدين من وجهة نظر شائعة.



مركب نهر العرب في البصرة

الفصل العشرون

نهر الكارون وحقول النفط

شكّلت قواتنا على نهر الكارون الجناح الأيمن لجيشنا في بلاد وادي الرافدين وقواتنا على نهر دجلة المركز وقواتنا على نهر الفرات الجناح الأيسر. إذا كان هدفنا الأول في الذهاب إلى بلاد وادي الرافدين هو تأمين قيادة قواتنا في الخليج وأمن خط مواصلاتنا من الشرق عبر البحر فإنَّ حماية حقول النفط في السهل النفطي كان هدفنا الثاني وهذا وحده يكون ضرورياً من أجل تجهيز حملة عسكرية.

يقع السهل النفطي (ميدون –أي نفتون) في منطقة التلال على بعد سبعين ميلاً شمال شرق الأحواز في إقليم بختياري. وتعد قبائل الخان من المساهمين بحقول النفط فضلاً عن مساهمتهم فإنهم يحصلون على إعانة مالية لقيامهم بتوفير الحماية لأعمال الشركة. يُضخ النفط عبر الأنابيب الممتدة بطول مائة واثنين وأربعين ميلاً إلى المصافي الواقعة في مدينة عبادان على شط العرب. ومن نقطة بعد التلال، يمر خط الأنبوب عبر الأراضي الخاضعة لنفوذ شيخ المحمرة الذي لديه مصالح مثلما الحال مع الخان وهو ملتزم مع تلك الشركات ويؤجر لهم قطعة أرض على جزيرة عبادان ويتحمل مسؤولية حماية خط الأنبوب وعمال الشركة بحدودها الجغرافية.

إلا أن الأمن في بلاد فارس سواء في زمن السلم أو الحرب لم يكن نعمة معطاة أو مستقراً. فقد كانت الفترة من شباط إلى مايس 1915 فترة مضطربة في الطرف الغربي من بلاد فارس بأكمله بعد أن تم شراءهم بالذهب الألماني باستثناء شيخ المحمرة محسن المخلص وأتباعه من قبيلة الخان ووالي بوشتيكو. قادت قبيلة الباوي وبتحريض من الأتراك عصياناً دعت فيه إلى الجهاد، ونزل بنو كعب إلى أرض الميدان مع الملالي وشكّلوا تهديداً للأحواز. وفي السابع والعشرين من

كانون الثاني، غادر الأوروبيون المدينة إلى المحمرة، وفي الثاني من شباط أُطلق النار في الشارع على ضابط بحري من ضباط زورق بحري جاء إلى النهر لمرافقة السفن. وقامت عشيرة الباوي والعنافجة وآخرون من قبائل الشيخ في المناطق التي يمر عبرها الخط بخرق الأنابيب وإضرام النار في النفط، وكان شيخ المحمرة نفسه مخلصاً لنا دائماً. وارتبطت عائلته مع الحكومة البريطانية بمصالح مشتركة ومشاعر احترام صادقة طويلة الأمد. وارتبطت مصالحه مع مصالحنا بعد أن أخذ بالحسبان ولاءه في هذا السياق. وعمل على حسم المشاكل بقوة في مدينة ماريد من أجل حماية المصفى المقام في عبادان. وأرسل قواته أيضاً إلى الأحواز لمواجهة الأعمال العدائية لقبيلة كعب وميرس أوف جارا وهينديجان. ولولا تأثيره لَعمَّت الفوضى، ففي بداية شباط تقدم رتل بريطاني صغير بقيادة الجنرال روبنسون باتجاه نهر الكارون إلى الأحواز وخيَّم على الضفة اليمنى مقابل الناصرية. وبالرغم من صعوبة تجهيز القوات في الوقت المناسب فإنَّ هذا الرتل على نهر الكارون كان ضرورياً؛ لأنَّ قوة تركية مؤلفة من ثمانية أفواج مع المدفعية والعرب غير النظاميين كانت تتقدم على النهر من العمارة عبر مدينتي البسيتين وعيلام وتهدد خط الأنبوب والقبائل التي حافظت على ولائها للشيخ. وفي اليوم الثالث من آذار اشتبك الجنرال روبنسون مع العدو على بعد سبعة أميال من المعسكر حيث واجه الأتراك السرية مع آلاف من رجال القبائل العربية الذين تحشَّدوا لمساندتهم. وعمل عملاً حسناً عندما انسحب من دون حصول كارثة وقامت مفرزة صغيرة من لواء دورست الذين يحملون ثلاثين بندقية وقوة من لواء الخيالة الثالث والثلاثين الذين خاضوا المعركة في الخلف كانوا يتصدون للهجمات التي يشنها العرب بين الفينة والفينة في محاولة للإحاطة بنا وقطع طريق انسحابنا إلى المعسكر. لقد تلقَّوا درساً قاسياً من قوة دورست واعترف بعضهم بذلك وأوقعت مدفعيتنا على النهر الرعب في نفوسهم جعلتهم يبتعدون مسافة عنا في الشهر التالي. لقد فاقونا بالعدد بنسبة خمسة إلى واحد في الأقل إلا أنهم كانوا جبناء إلى حدّ أنهم لم يستخدموا تفوقهم ولم يتجرؤوا على مهاجمة معسكرنا. وبقوة صغيرة كنا قادرين على كبح جماحهم ما دامت القضية الحاسمة كانت تجري على جانب نهر الفرات. وفيما يتعلق برجال القبائل فإنهم كانوا ينتظرون لمعرفة كيف

تجري الأمور وقد تكبدوا إصابات مباشرة لأنهم لا يتجرؤون على فعل شيء إلاَّ في المطاردة فقط. وعندما دُحر الأتراك في منطقة الشعيبة في الرابع عشر من نيسان ظهر الأسد البريطاني في حاضرته القديمة وظهر في الأفق وانتهت لعبتهم. تحشدت الفرقة الثانية عشرة بقيادة الجنرال كورينج عند نهر الكارون، وفي هذا الوقت تخلصوا من المشاكل التي كانت تعصف بعربستان التركية. واستسلمت قبيلة الباوي إلى شيخ وقبيلة كعب ونتيجة الحملة العقابية التي قام بها شيخ جاسب لمنطقة الفلاحية وضع حداً لها. وفي الحادي والعشرين من مايس استؤنف ضخ النفط من حقول النفط في السهل النفطي.

ولكن كان هناك ثمن لابدّ أن يدفع، ففي السابع من مايس وصلت الفرقة الثانية عشرة ولواء الخيالة إلى منطقة عيلام عند نهر الكرخة مما دعا محمد باشا الداخستاني مع جنده النظاميين المجندين من القبائل إلى التراجع عند سماعهم خبر هزيمة الأتراك في الشعيبة. لم ينسحب العدو فوراً لأنهم كانوا يأملون بأن يكون النهر عائقاً أمام تقدمنا؛ نظراً لأنَّ المجرى كان سريعاً وعميقاً وبعرض مائتين وخمسين ياردة وليس لدينا عوامات. على أية حال لم يهزمنا نهر الكرخة، فقد استطاع رجال الهندسة العسكرية وبمساعدة الزوارق الشراعية البديلة المثبتة عليها إطارات هيكلية فوقها أقمشة مشمعة وحبال وأدوات أخرى من العبور. وفي وقت قصير اندفعنا إلى الضفة اليمنى ولاذ الداغستاني بالفرار باتجاه العمارة. عندئذ وجه الجنرال كورينج اهتمامه نحو قرية الخفاجية وهي معقل قبيلة بني طُرفَ العربية وهي من القبائل القاسية التي كانت تعمل لصالح الأتراك حول الأحواز الذين قاموا بالتمثيل بالجرحى والموتى من قواتنا. مرة أخرى كان لا بدّ من عبور نهر الكرخة ولم يكن الأمر هيناً. وقام الرائد الهندي[1] وعشرون رجلًا من اللواء السادس والسبعين من البنجاب بالسباحة في النهر تحت نيران شديدة وأرجعوا أحد القوارب الذي استخدمته القوات في العبور حتى تم التجمع لشنّ هجوم على حصن طيني تمت السيطرة عليه بقوة بعد أن سوِّي المكان بالأرض إلا أنَّ بيوت التجار الإيرانيين لم تمس وما تزال بيوتهم شاخصة.

(1) الرائد الهندي أجاب خان.

كانت الحملة من الأحواز تسعى إلى تحقيق هدفين. إنها عقابية وفي الوقت نفسه استعراض قوة عسكرية لها علاقة بتقدم طاوزند على نهر دجلة من القرنة إلى العمارة. وتحقق النجاح التام لكلا الهدفين بعد أن أُخضع العرب من بني طُرفَ والقبائل المعادية الأخرى وطُرد العدو من عربستان الفارسية برمتها. وكان الرتل التركي على هذا الجانب بالرغم من أنهم لم يبدو معارضة ومنشغلون تماماً إلى حدّ أنهم لم يقدموا إسناداً إلى القوات التي كانت تواجه تقدم قوات طاوزند على نهر دجلة. وعندما وصلت قوة الداغستاني مدينة العمارة فاجأتهم قوة الجنرال طاوزند التي احتلت المدينة. وأسر جزء من حرسه المتقدم وتشتت الآخرون بعد أن خسروا مدفعين. باختصار إن هذه العمليات ساهمت باستتباب السلام على نهر الكارون وتحقيق الأمن لحقول النفط. كانت المسيرة المحرقة لرتل المقدم دونلوب عبر الصحراء من الخفاجية إلى العمارة في حزيران إنجازاً تاريخياً ؛لأنَّ البلد كان مجهولاً لهم ولم تتوفر لهم التجهيزات وأخذت عربات النقل كمخازن إلى المواقع الأمامية ووضعت نقاط صغيرة على الطريق وإلاَّ لما تمكَّنا من المرور. خُفضت حاجيات الضابط الشخصية إلى عشر ليبرات وكان الرتل يسير من الساعة الرابعة إلى الثامنة صباحاً ومن الساعة السادسة إلى التاسعة مساءً. وكان الترموميتر يسجل مئة وعشرين درجة في الظل. لقد زودني ضابط في لواء وست كنتس بتفاصيل رائعة عن الرحلة الجماعية.

وقال بأنه من الساعة الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساءً تكون درجة الحرارة مرتفعة جداً (جهنم) ومن الساعة السادسة صباحاً حتى السابعة في المساء يمكنك أن تنزع القبعة الهندية. تتمدد وحيداً عارياً وتقوم بوضع منديلك في الماء وتضعه فوق رأسك لكنه يجف خلال خمس دقائق.

كلما شربت مزيداً من الماء كلما أردت أن تشرب المزيد ونحن على حافة الهور الممتد على طول الطريق واعتدنا أن نخوضَ في الماء الذي كان بدرجة حرارة الحساء واللون نفسه. كانت المياه مالحة وتزداد ملوحة كل يوم وأصبح جسد الإنسان منقعاً بالملح وتستطيع إزاحتها من ذراعك وكان العرق الجاف فوق قميصك ببياض الثلج وكان أسوأ شيء يواجهنا هو التمدد لفترة طويلة في المياه الضحلة على حافة المياه

ولا تستطيع أن تخرج يدك في هذه الفترة الطويلة. وترتفع درجة الحرارة في الساعة السادسة مساءً إلى درجة أن جياد النقل والفرسان لا تستطيع أن تشرب حتى الساعة العاشرة. وكانت المياه العميقة أكثر راحة عند النزول إليها. وعبرنا الهور في منطقة قريبة من العمارة بعد أن قمنا بجمع الكثير من المشاحيف (زوارق محلية) من عرب الأهوار وإلحاقها بعوامات استخدمت لنقل المدافع. ونُقلت رشاشاتنا وحاجاتنا الشخصية ومعداتنا عبر البلم (زورق محلي). كان عمق الهور في البداية يصل إلى الركبة ثم إلى الخصر. وفي مكان واحد لمسافة ياردات قليلة كان عمقه كبيراً وجُلبَ البلم هنا لمساعدة الرجال الذين لا يستطيعون السباحة وكان لا بدّ أن يتعلقوا به. أما الآخرون والجياد فقد تمكّنوا من السباحة. لقد واجهنا صعوبة في السير عبر الهور بسبب قاعها الطيني إلاّ أنها منعشة أفضل من الرمال. فعندما يصيبك التعب تستطيع السباحة. وقد غرق خمسة أشخاص في قنوات التصريف السريعة التي تتصل بالهور.

كانت نتائج الهور متناسبة مع حجم المصاعب. عندما وصلتُ الأحواز بعد مرور سنة في نهاية مايس 1916، كانت الحامية تتمتع بوقت راحة. واشتكى أحد الضباط بأن البلد مستقر أكثر من المعتاد لم يكن هناك شجار لإرضائهم. علاوة على ذلك فإنّ الوجود هناك كان مقبولاً جداً وعاش الإنسان في الظروف نفسها في موضع الحدود الهندية. سكن الضباط في البيوت والرجال في أكواخ ثابتة من القصب. وكان هناك مصنع لمياه الصودا ولا يوجد نقص في النقل النهري والمخازن وتوجد ألعاب البولو (لعبة بالمضرب والكرة تمارس على متون الخيل) والهوكي وكرة القدم والتنس في المساء.وبقينا في هذا المكان الجيد لمدة ثمانية أشهر في السنة. كانت الحياة في الأحواز تشبه حياتنا في وطننا تماماً بعد أن أخذنا نصيبنا على نهر دجلة. وكانت هناك حتى المعصاب (سيدة بيضاء وبخاصة زوجة موظف بريطاني في الهند) يُقدمن الشاي في غرف الاستقبال التي تجعل الإنسان يشعر كأنه على أعتاب سلام دائم. كان المعسكر على الضفة اليمنى من نهر الكارون بينما المدينة على الضفة اليسرى. إنها تذكرني بمدينة في وادي أندوس باختلاف أن الأسواق مسقفة ويعيش الأوروبيون داخل المدينة. لقد التقيتُ القنصل وزوجته في السرداب (قبو تحت الأرض مزود بجذوع يمر من خلالها الهواء الحار إلى الأعلى). لا يتعرّض

الإنسان هناك إلى أشعة الشمس المحرقة. ويسجل الترموميتر الحرارة بخمس عشرة درجة أقل من الخارج. وكنتُ ممتناً لهذا الملجأ من هذه الشمس في مدينة النفط وشوستر حيث يشعر الإنسان أن فوق رأسه مقلاة. في هذا الطقس ينسى الإنسان أسماء أصدقائه وأقربائه وكيف يتهجأ الكلمات الشائعة بعد أن تم إرجاء ربط الأفكار لكن بعد أن ينزل الشخص إلى السرداب يستعيد كل شيء تدريجياً. كانت حاميتنا على نهر الكارون تتألف من السرية الثالثة والعشرين للخيالة وفوجي مشاة من اللواء الرابع والأربعين من مدينة مرو إلا أنها كانت قوة صغيرة كافية لردع رجال القبائل. ومن النادر جداً أن تمر سرية الخيالة بحالة الرتابة بسبب طبيعة القبائل. على أية حال، تواردت الأخبار في الأسبوع الثاني من شهر نيسان إلى الأحواز بأن ستمائة فارس غير نظامي فار بقيادة بختياري خان الذي كان يقاتل الروس أو بالأحرى كان معلقاً بأجنحتهم عائدين إلى بلدهم قادمين من طهران إلى قصر شيرين بعدما عانوا من الحنين للوطن وأصابهم التعب بسبب الانسحاب المستمر. يمتد طريق عودتهم على طول مندلي بدرة ودهلران ولا بد أن يعبروا نهر الدز في نقطة تبعد أميالاً قليلة عن الشوش حيث كانت سرية خيالة تابعة إلى اللواء الثالث والعشرين على بعد سبعين ميلاً من قاعدتهم في الأحواز. ويبدو أنه كان قتالاً سيئاً هنا إلا أن الحرب في بلاد فارس تصنف في ميدان التسلية الهزلية أكثر من مصدر الوحي البطولي فضلاً عن سريتنا للخيالة في الشوش والسرية الثانية التي التحقت بهم القادمة من الأحواز، فقد كانت لدينا قوة من أصدقائنا العرب الذين تولَّوا قطع خط انسحاب بختياري عندما هاجمناه. ونأت سرية الخيالة الخاصة بنا عن عبث هؤلاء الرجال. قبل البدء رقصوا على التلال الرملية لإعطاء دفعة لأنفسهم ثم ترجلوا وعدوا بسرعة في حلقات صغيرة مردِّدين كلمة الله ومطلقين نيرانهم في الهواء. وفي أول طلقة انسلّوا هرباً لم يتركوا مسرح القتال تماماً وبعد القتال وجدناهم في معسكر مهجور لبختياري يتنازعون على الغنيمة. وجاء الساكواند وهي عشيرة تقرب لهم باندفاع وانضموا إلى قوة بختياري وقدَّموا لهم المساعدة في المخاضة (موضع من النهر ضحل يسهل الخوض فيه) ولكن عندما شاهدوا هزيمة أصدقائهم ودخل العدو قريتهم تخلوا عنهم. وقدَّموا لنا المساعدة الفعالة للإحاطة بهم وتعرَّض قسم من قوة بختياري الذين لم يتمكَّنوا

من العبور إلى تجريدهم من ملابسهم من قبل حلفائهم على الجانب الآخر من النهر بدون أن يتركوا قميصاً على ظهورهم.

ولم يظهر بختياري نفسه أي همة وسمعنا عنه الكثير بوصفه رجل حرب وأنه رجل جبلي فارسي صارم حافظ على قوته واستقلاله وسط إنهيار شامل. إلا أنه لم يكن مندفعاً لقد ضُخمت مميزاته العسكرية كثيراً، إلى درجة أن سرية خيَّالة في منطقة الشوش بدون الحصول على أي مساعدة على بعد سبعين ميلاً كانت كافية في التعامل مع أي مشكلة محلية. لقد استسلم مائتا رجل ونُزعت أسلحتهم واحتفظ باثنين من الخان (قبائل في أواسط آسيا) وأفراد الدرك وأطلق سراح الآخرين.

لا بد أن يكون الساكواند قد عملوا عملاً جيداً؛ لأنَّ أحزمة الأسرى كانت مرصعة بالذهب. وكان لدى أحد أفراد الخان سلاري مسعود ألفا ليرة ذهب محملة على جواده وبغله. يبدو أنَّ الألمان أدركوا أن البختيارية لم يكونوا حلفاء جيدين في الميدان؛ لأنَّ القائد سلاري مسعود كان يتذمر باستمرار فعندما طلب أحد الضباط الألمان منه التحرك ومسك رأس الجسر وكانت الجياد في حالة تعب رفض الانصياع له. كان رد الضابط الألماني قاسياً؛ لذا طرده مع كل رجاله والأكثر من هذا مع ذهب الهون. كانت العملة المتداولة في بلاد فارس في ذلك الوقت ولاسيما مناطق أصفهان الجنيه الإنكليزي لعام 1872 وهي طبعة سُكت من أجل فرنسا لمساعدتها في دفع التعويضات للألمان. كانت هذه العملات المُعدنية برَّاقة وجديدة؛ لأنها وضعت لإيرادات الحرب في مدينة سبانداو لما يقارب أربعة وأربعين عاماً. كانت الحرب بالنسبة للفرس شيئاً عظيماً حيث أعطته الذهب والأهمية بدون أن يتحمل المسؤولية فضلاً عن أنها مادة للضحك على مغالطات الحضارة الغربية.

يبدو أن البختيارية كانوا متأثرين وقد تفاجؤوا عندما خضنا الحرب ضدهم؛ لأنهم لم يدخلوا في نزاع مع البريطانيين وأوضحوا بأنهم التحقوا بالأتراك لمحاربة عدوّهم التقليدي. لا يستطيع الفارسي التخلص من مفهوم بأن مصالح روسيا وبريطانيا العظمى متضاربة كانت ولا تزال سياستهم التقليدية لإثارة أحدهم على الآخر وكان من الصعوبة بمكان إقناعهم بقضية مشتركة.

يعد البختياري سياسياً متذبذباً وعند التعامل معه لا يمكن السيطرة عليه مركزياً فبعضهم يوالون الألمان؛ لأنهم ضد الروس وآخرون مؤيدون للبريطانيين لأنهم ضد الأتراك إلا أنَّ الذهب بالطبع كان الحافز الرئيس ولكن مهما يكن الصراع فإنَّ رجال القبائل يتوزع ولاؤهم بين الأطراف. وسواء كان الشاه أو الدستور أو البريطانيين أو الألمان أو الدب (الروسي) أو الأسد (البريطاني) فإنهم يدافعون عن أنفسهم ليكونوا في وضع من أجل كسب القضية. ومهما يحدث فإنه سيبرز طرف على حساب الطرف الآخر وكلاهما سيكون في حالة أقوى إذا لم تحدد مصادر الحرب. ومن الطبيعي سواء على شكل أسلحة أو ذهب فإنَّ الولاء المتذبذب للبختيارية يعتمد على الحدس الذي يميل على نحو عاجل إلى القوة. لقد وجهتُ سؤالاً إلى سلاري مسعود لماذا يقدم دعمه إلى قيصر حيث أوضح بأنه زار برلين وباريس ولندن وفيينا وفتحت عينيه فقط على الحرب وقد عاد بانطباع بأن الألمان أكثر الأمم حباً للحرب. وأضاف، في برلين كل شخص تقابله فإنه محارب بينما في لندن فإنَّك من النادر أن تشاهد زياً عسكرياً في الشارع. وأوضح كيف شاهد عسكريين في قيافتهما الكاملة يحرسان جزءاً مزدحماً من المدينة. صحيح أنهما شخصان جيدان ومستعدان إلا أنه لم يرَ سوى هذين الرجلين ولاحظ بأنهما محاطان بحشد من المهتمين واستنتج بأن الشعب الذي يثير فضوله الجنود لا يستطيع أن يكون ذا سلالة عسكرية. وقد أثيرت شكوك بأن هذا الرجل من الخان كانت لديه أسباب مادية لترديد الدعاية الألمانية.

ومن الأمر المشكوك فيه أن يتعاطف البختيارية مع الألمان لكن من حسن الطالع أن مصالحهم ارتبطت بمصالحنا لأنَّ هناك جدلاً كبيراً في حصص الأرباح ولدى الخان حصص في شركتين عاملتين في شركة النفط الأنكلو فارسية. ومدخلهم من بئر واحد فقط، ربما يزيد على كل عائدات الدولة مجتمعة وهي في زيادة سنوية. وانخفض التأييد للألمان عندما رأوا أعمدة النيران والدخان تتصاعد من الأنابيب التي كانت تغذي المصافي في عبادان. وطالت فترة الاضطرابات لأشهر أخرى لأنّ الألمان كانوا يرسلون المجاهدين لشن الحرب المقدسة التي تطال بلاد فارس كلها. وكانت قبيلة الخان تتقرب. وتوجه لهم الأسئلة «لماذا تقتنعون بالحصص، تعالوا معنا وستكون الثروة لكم جميعاً». وطالب رجال القبائل بأن آبار

النفط لا فائدة منها بدون وجود شركة ومهندسين واقترح الذي يحاول إغراءهم «سنعمل معهم من أجلكم إلا أن الخان لم يكونوا واثقين من أنفسهم». وقال أحد الدبلوماسيين القدامى بأن الألمان ليس لديهم سفن وبدون وجود أسطول من السفن فإنَّ النفط ليس له قيمة لأنه لا يمكن بيعه وكان المعروف في الخليج بأننا اكتسحنا الألمان في البحر؛ ولأنَّ رايتهم نُكست فلم يكن بمقدور بعثاتهم السياسية توضيح ذلك. وعلى مدى فترة الاضطرابات، بقي البختيارية محافظين على عقدهم مع شركة النفط الأنكلو فارسية. في الجنوب وانقطع العاملون في الحقل تماماً لوجود سلسلتين من التلال ومنطقة خاران والأراضي التي تقطعها الأودية التي يتم قطعها سيراً على الأقدام والتي تمتد إلى مسافة ثلاثين ميلاً تفصلهم عن قبيلة الباوي المعادية التي تمسك الطريق المؤدي إلى الأحواز. كان الباويون وبغريزة مشتركة لسكان السهل من العرب خائفين من خوض نزاع مع البختيارية. وعندما اقترح الباويون شن غارة على أنابيب النفط في خاران وهدد البختيارية بالانقلاب عليهم مما دعاهم للامتناع. وبقي أحد شباب الخان في الحقول على طول حدوث المشكلة مع مجموعة من خمسين فرداً من الجنود الهنود (السوارز) فضلاً عن حرس القبيلة الدائمين وكانت هذه للمتطلبات المحلية ويمكن تعزيزها في حالة الهجوم. بالنسبة للشمال كانت القبيلة على أتم الاستعداد والقوة في خوض أي معركة على أراضيهم وكانت السرية في حالة اتصال مع أصفهان.

كانت القرية تتمتع بالاكتفاء الذاتي في التجهيزات لامتلاكها مخازن جيدة تزودها بحالات الطوارئ إلا أن الأموال نفدت بسرعة ومن أجل الابتعاد عن شبح السياسة التي تلفها الشكوك كان من الضروري الدفع لهؤلاء الرجال. وكان العرب والفرس بشكل خاص تراودهم الشكوك العميقة بخصوص أي عرقلة مالية لاسيما في هذا الوقت وهنا أعطى البختيارية إشارة اطمئنان لقدرتهم واستعدادهم لتقديم المساعدة. وأخذ على عاتقهم تسيير ثلاث سيارات محملة بالنقد تقدَّر بملايين الكران (عملة قادمة من أصفهان برحلة تمتد خمسين يوماً فوق التلال. لم يكن الطريق سالكاً حتى في أكثر الأوقات استقراراً للشخص الذي ينقل الكنز إلاَّ أن البختيارية كانوا يستخدمون البغال في نقل الصناديق لمكتبهم في مدينة النفط كأنهم يحملون أكياس

فحم لكن لقاء ثمن بقيمة خمسمائة تومان للصندوق وثلاثة آلاف تومان على متن بغل واحد وينزلون بها على جانب الطريق عندما يتوقفون مرتين في اليوم لمدة ليلة ومع ذلك فإنَّ الصناديق لم تُصب بأي ضرر.

مهما يكن تعاطفهم السياسي فإنَّ البختيارية ساعدونا خلال الاضطرابات التي اندلعت في بداية الربيع عام 1915 إلاَّ أنَّ الأزمة ازدادت سوءاً حيث انتشر جهاد الألمان في الجنوب وكان الشاه على وشك مغادرة طهران. لقد تم التغلب على ممثل البختيارية في أصفهان وكانت البعثات الألمانية المستمرة مع الخان في مناطقهم الصيفية في جيكاتور تضغط عليهم لاتخاذ قرار وكانوا يسايرون الظروف إلى آخر لحظة وهم مترددون في ذلك وكما كانوا يقولون بأنهم يسعون لحيادية بلاد فارس. «ولا يوجد إنسان أكثر من البختيارية في الالتزام بالدستور عندما تخدمه الظروف. وكانت حجتهم بأنَّ أيَّ خرق لحريتنا من جانب البريطانيين سنكون تحت خدمتكم تماماً».

وبدون أدنى شك لو حدث انقلاب ألماني في طهران في تشرين الثاني لانقلبوا ضدنا وقد يعني هذا التخلي عن حقول النفط ؛لأنَّ قواتنا كانت بحاجة إلى آخر رجل لغرض التعزيز.ثم كما أثبتت الأحداث أن ما جرى هو محاولة لإغاثة طاوزند على نهر دجلة. قد يستخدم الألمان مدينة النفط كقاعدة لدعايتهم في الجنوب في ورش عمل أو بيوت الطاقة أو المصنع الهندسي وكل شيء في الموقع. وربما تقيم ترسانة وتؤسس محطة لاسلكي ولكن من المشكوك فيه أنهم يستطيعون البقاء هناك. إنَّ دخول بلاد فارس يعني أنَّ الصراع الرئيس في مسرح الحرب هذا لا بد أن يتحول للشرق ومن الممكن أن يتحول إلى مصلحة الحلفاء بعد أن يتم سحب الجيوش التركية بعيداً عن قاعدتهم مما يسهل سحقهم في بلاد فارس المعادية لهم على نحو علني وأي خسارة في مكانتنا على الأرض قد تسبب خللاً بالتوازن في سلطتنا المباشرة إلى الحدود الهندية.

إن الدبلوماسية السرية وإبراز القوة قد آتت أُكُلها عندما تمكَّن الألمان من إقناع الفرس بأنهم ملتزمون بكسب الحرب وأنهم أقوى من الروس والبريطانيين الذين

لديهم حشود في الميدان إلا أن الحملة كانت سهلة لهم بسبب الحقد الإيراني على الروس وبدرجة أقل تجاه بريطانيا العظمى. ويعتقد رجال القبائل بأن الألمان إذا لم يكونوا مسلمين فإنهم مناصرون حقاً للإسلام. واستخدم الألمان كل هذه الأوراق ومنها بذخ الذهب الذي لم نكن نتوقعه. وفي غضون يومين أو ربما يوم واحد تحصَّنت بلاد فارس ولو لم تصل القوات الروسية إلى قزوين وهي على بعد مسيرة يوم واحد إلى العاصمة لَمَا تغيرت الموازين. وكان الشاه الشاب عند نقطة الالتحاق بالكونفدراليات المعادية في أصفهان عندما أقنعه البريطانيون والروس بالبقاء والحفاظ على بلده.

وهكذا مرت الأزمة الثانية. لقد قابلتُ رجال الخان الغامضين بعد مرور ستة أشهر في المدينة النفطية وجلسنا وتحدَّثنا عن آفاق حلفنا. لا بد أن يعتزَّ البختيارية بحقول النفط. كان لدينا هدف الحصول على المعدات وأجهزة رفع الأثقال وأعمدة التدفق والمداخن وورش العمل ومحطة توليد الطاقة والمخازن والأماكن والنادي وقليلٍ من مدينة ستافوردشاير.

كان كل شيء بعيد تعود ملكيته للبختيارية بما في ذلك نتاج الأرض وكل صخرة وحجر ينتجه السهل المترامي الأطراف والطاقة المنتجة من الآبار وملأ البكي قدحه وأبدى تشاؤمه من الوضع السياسي وتلألأ الحب في عينيه قائلاً: «فردان لها ثمنها»[1] «يسيطر الأتراك على أرض روم». ويعني هذا أنه يعبر عن ازدرائه ولكن قد يرى الإنسان أن تشاؤمه كان منسجماً تماماً معه. وبدون شك فإنَّ المنشور في اللغة الفارسية في جيبه كان يحتوي على أخبار ذات طابع حساس كيف استولى المسلمون على القاهرة؛ لأنَّ هذا يسبب تمرد الإيرلنديين وقد يتحولون عن الإنكليز الذين يقاتلون من أجل ملك بالرغم من أن عددهم كان اثني عشر ألف مقاتل إيرلندي إلا أن البكي كان داهية ورجلاً يجوب البلدان ويعلم كل شيء، الذي أفرغ ثلاثة أقداح في قدحه وشربها بجرعة واحدة كان يتلاعب بالكلمات بفلسفة تهكمية قائلاً بأن

---

(1) فردان هي معركة جرت ما بين الحادي والعشرين من شباط الى الثامن عشر من كانون الثاني 1916 وهي أكبر معركة جرت في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الغربية بين الجيشين الفرنسي والألماني. (المترجم).

الآلهة أيضاً أصابها التعب من الحرب إلا أن الفرس كانوا يمتعون أنفسهم. من الرائع أن يوقد إنسان شعلة يستطيع فيها تدفئة يده ثم يكتشف أرباحاً في الجمرات عندما أطفأها والأرباح في الإحراق العمد والاسترداد في الوقت نفسه.

الفصل الحادي والعشرون

الألمان في بلاد فارس

كانت قواتنا المنشغلة كثيراً على نهر دجلة تعطي اهتماماً أكثر للوضع في بلاد فارس لكي لا تصاب بالإحباط عندما تدرك قرب اندلاع حريق هائل وشامل يمتد من الحدود التركية إلى المناطق النائية في الهند إلا أن سياسيينا أبقوا خططهم في طي الكتمان وعملوا عملاً جيداً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه على الرغم من أنهم لم يكونوا مسؤولين عن الحطام الذي قد يعمّ. كانت أيديهم مقيدة عند التعامل مع الشأن الداخلي لبلاد فارس إلا أن في الخليج لم يخذلوا بريطانيا العظمى فقد كانت لهم فسحة من الحرية. على مدى سنين، كانت مجسات الأخطبوط الألماني تندسُّ فيما بينهم ولكن بمخلب بعد مخلب من أجل النيل من ثباتهم وعزيمتهم. وإذا ما فشلنا في أي وقت فذلك بسبب السياسة الداخلية التي أثقلتها سياسات الانتداب التي تضطلع بها وزارة الخارجية. موقفنا مثل شخص يلقي أشياء من المركب إلى البحر من أجل استمالة أصدقائه وهذا موقفنا مع الأتراك والألمان إلا أن الحرب حظيت بالاهتمام بحسب وجهة النظر الإمبريالية والمحلية. وأبدت بعض مناطق الخليج الموافقة الإيجابية.

كان التهديد الذي تتعرَّض له آبار النفط التي نحميها هي الأقرب إلى بلاد وادي الرافدين بعد أن تفاعلت الحركات الإسلامية جميعاً مع الوضع. وكان عملاء الألمان يحققون خرقاً بعد آخر من كل الأطراف المحيطة ببلاد فارس ومنهم الأمير الروسي هنري مع مدافعه الرشاشة فوق الحدود الغربية من قصر شيرين ووكلاء شركة ونخوس في الجنوب والأسرى النمساويون الهاربون من أستراباد في الشمال والبعثات السياسية الهندية وفي بعض الحالات الثوار الهنود المحترفون المتنكرون

بصفة مجاهدين قادمين من الشرق. كانت هذه النشاطات في بلاد فارس جزءاً من دعاية واسعة الانتشار تسعى لاحتضان أبناء أفغانستان وقبائل التركمان والبلوش والباتان على الحدود الهندية لغرض إثارة العصيان في الهند نفسها.

ليس من السهولة بمكان لرجل راشد عندما يستلم رسالة إنذار شديدة اللهجة من علماء كربلاء أو أصفهان تشجبه بوصفه تابعاً للكفار وأنه يعيش في ظل الحماية البريطانية ويدعوه إلى ارتداء ثوب العز تجاهها أن يبقى محايداً. وكتب سيد عيسى مثير الفتن في رام هرمز الذي أثار بني كعب ضدنا وأنار مشعل العصيان في بيبهان إلى حيدر خان التنجيستاني قال فيها: «أكتب إليكم عملاً بما أمر الله القدير العزيز المنتقم. لا تسمح لتاريخ عائلتك المجيد أن يلطخ ببصمة العار وأن يراق دم إخوانك المسلمين من أجل تحقيق أهداف الكفار».

«من القدير إلى صاحب الفخامة والمندوب الألماني!»

بهذا الخلط غير المترابط دعا المجاهد أتباع النبي للوقوف بوجه الكفار. من الممكن أن سيد عيسى قد صدق أسطورة حجي ويليم أو من المشكوك فيه أن الكثير من العامة فعلوا ذلك. على أية حال كانت صيغة ملائمة وقد يبدد الضوء الودي الجديد الظل السرمدي فوق روسيا والأسد الشمسي وبريطانيا العظمى ولكن بدرجة أقل لكنه الآن ظل مصاحب.

انتفض العالم والمسلمون ضد معارضي الحرية لإيران وانهار الذهب وكانت مكافأة للمؤمنين والوطنيين وعندما جاء النداء من مصدر ملهم للنهوض بالواجب وتحقيق المصلحة والدين كانت تصب المسار نفسه ولا يستطيع إلا القليل من الوقوف ضد المناشدة. فقد جاءت رؤية كبير ملالي كربلاء في المساء يظهر فيها الحسين الشهيد ويتحدث: «لقد استشهدتُ من أجل قضية مقدسة. الآن لا بدّ أن يشن المسلمون حرباً ضد الكفار الذين جاؤوا إلى الأرض المقدسة لذا لابدّ من أخذ سيف من حرمي وراية من حرم حامل الراية أخي أبي الفضل العباس وإرسالهما إلى والي بغداد».

و تم إعداد منشور باسم «صدى الإسلام» في بغداد لينشر في إيران يخبر الفرس

كيفية رفع السيف والراية علناً وإرسالهما بمراسم وموكب عظيم وكيف يلتقون على بعد ميلين خارج بغداد ويسيرون بموكب يحضره جميع وجهاء المدينة. يناشد المنشور الفرس قائلاً: «أيها الفرس! هل نفترض أن صلواتكم ولطم الصدور وكل شعائركم الدينية تذهب سدى؟ بينما يتعرض الإسلام أجمعه الآن إلى تهديد الكفار بعد أن يتم تكذيب هذه الشعائر الدينية ولا يقام لها حساب. آن الأوان لتنذروا أنفسكم من أجل القضية المقدسة وإذا تقاعستم عن التضحية ماذا يكون جوابكم للنبي وسيد الشهداء يوم القيامة؟».

يتمتع التوجه الديني ودعاية الإسلام بالقوة في هذه البلاد ولكن تم تزوير الكثير من رسائل العلماء. وكتب الثوريون الهنود والمحترفون بعض البيانات المسمومة. وكانت البيانات الجهادية المزورة كأنها أصلية. وأصبحت كربلاء في وقت قصير من أشد المتعصبين ضد الأتراك عندما تم ترديد صوت الحسين الشهيد الذي وصل صداه حدود إيران. في مايس 1916 كانت هناك انتفاضة في المدينة وأريقت الكثير من دماء المدنيين بعد أن صوبت المدافع التركية قذائفها تجاه المنارات والعتبات المقدسة مما دفع بحماة العتبات المقدسة إلى الترحيب بالزوارق الحربية البريطانية للقدوم عبر النهر. في حزيران تولّى شريف مكة زمام الأمر للوقوف بوجه الخليفة المرتد وكانت هناك حاجة إلى خدعة ذكية من جانب الألمان من أجل المحافظة على علاقتها مع السُّنَّة والشِّيعة في الوقت نفسه.

كان القسم الذي يسعى إلى إغواء السيبوي الهندي أكثر الفروع التي منيت بالفشل في الدعاية الألمانية باستثناء قبيلة الباتان التي كانت تعيش عبر الحدود ولا تخضع لسلطة الملك وجهوده التبشيرية حيث حصلت على استجابة محدودة. سافر واسموس السيّئ السمعة مُحمَّلاً برزم من المنشورات المُحرِّضة مكتوبة بخمس لغات ناشد فيها الجيش الهندي للانتفاضة وقتل ضباطهم البريطانيين. كان لدى الألمان قبل اندلاع الحرب بفترة طويلة وكلاء هنود في بوشهر حيث نزلوا عندهم عندما جاؤوا إلى الخليج وغرزوا فيهم «الأفكار السياسية الحقة».

تحتاج خدعة شركة ونخوس في الخليج الفارسي في أثناء العشرين سنة

الماضية إلى التكرار. وصل الجنرال ديلمين البحرين في تشرين الأول 1914 واكتشف أوراقاً مع الوكيل هارلينك فيها تفاصيل دقيقة عن تشكيل القوة. أعد التقرير وأرسل عبر المركب الشراعي المسمى (الدهو) عبر شواطئ الجزيرة العربية إلى القنصل الألماني في بوشهر والبصرة بعد أربع ساعات من وصولنا إلى الجزيرة. لقد كانت منظومة الاستخبارات الألمانية منظمة تنظيماً جيداً وماكنتها الدعائية تسير سيراً حسناً منذ البداية. تردَّدت كلمات الفرس والحياة والانتقام في مدينة شيراز وكان منشور صدى الإسلام يطبع باللغة الفارسية في بغداد ويوزع في عموم بلاد فارس وهو يعبر عن وجهة النظر الألمانية والتركية. كان واسموس المريب وليسترمان المحرضين في الجنوب ثم حرض واسموس بعد ذلك التانجيستانيين لمهاجمة بوشهر وطرد المقيمين الإنكليز من مدينة شيراز. حاول ليسترمان التحريض على ارتكاب مجزرة بشعة ضد البريطانيين في مدينة بوشهر. لم يكن هناك وقت لإعطاء أنصاف الحلول عندما يتعلق الأمر بقتل المدنيين وهم في منامهم. ففي بداية شهر آذار 1915 غادر الألمان كلهم مدينة بوشهر متوجهين إلى الهند. وقد حان الوقت لأخذ الميناء وإدارته[1]. وفي وقت قصير أُزيل كل أثر للألمان من الساحل وهي الأسماء والسفن الألمانية والمواطنون الألمان إلا أن الوضع الداخلي كان يعاني من آثار مشاكل الألمان.

لقد أعطى احتلال مدينة بوشهر واسموس بطاقة لزيادة زخم دعايته بعد أن تمكَّن من إثارة الفرس وكان في متناول يده مادة قابلة لإثارة رجال القبائل في المناطق البعيدة عن الساحل إلا أنه كان بحاجة إلى دليل يبرهن فيه مقاصدنا الخبيثة في البلد غير السعيد. وفي هذا البلد، يتميز الرجال باستخدام السيف في الدفاع عنه منذ عهد موغل بالقدم. ظل التانجستانيون يشكلون مصدر بلاء لبلاد فارس الجنوبية ويقومون بالأعمال الإرهابية ضد القوافل المسالمة وكان بلدهم غير المضياف مضيافاً لواسموس وذهبه فقط حيث تقع منطقتهم بين بوشهر والمستعمرة البريطانية في شيراز.

---

(1) تم استعادة بوشهر من الحكومة الإيرانية في 16 تشرين الأول وقبلت بلاد فارس بشروط الحكومة البريطانية.

رفض الألماني التعامل بلباقة فقط ولكن بدون أدنى شك كان بمقدوره ممارسة فنون التوافق لأدنى أشكالها ومع ذلك قد يكون شرساً عندما يظهر في قمم جبال بلاد فارس حيث لا يستطيع الإنسان إلا أن يُعجب بالخفة التي يؤدي عبرها أدواراً متناقضة من الهارب إلى الحامي. وذاع صيت واسموس بأسلوبه المقنع في البيانات التي كان يوجهها إلى الزعماء التانجستانيين وذكر فيها أن هؤلاء قُطَّاع الطرق غير المتجددين زعموا بأنهم أصيبوا بالصدمة لخرق حيادية الفرس وطلبوا رد اعتبار لضيوفهم الأبرياء وهم الألمان والنمساويون الذين جلبوا مدافعهم الرشاشة فوق الحدود التركية وقد أُغرقَ البلد بالمنشورات التحريضية والمضادة لأوامر الحكومة الإيرانية ونُصِب جهاز لاسلكي خاص بهم في أصفهان. وتحالف الأتراك مع الداعيين إلى ضرورة التزام إيران بالحيادية الذين احتلوا كرمنشاه واستولوا على مقاطعة آذربيجان وتبريز وعاملوا الناس في هذه المدن بالحديد والنار حتى تمكَّن الروس من طردهم.

وعلى مدى أشهر كان واسموس وطاقمه يُسيِّر الأمور في مدينة تانجستان بطريقتهم. وفي الثاني عشر من تموز 1915 شنَّت مفرزة من رجال القبائل الذين كان الألمان يعيشون معهم هجوماً على مدينة بوشهر ونصبوا كميناً لإحدى دورياتنا لفرقة الخيالة. لقد قُتلَ الرائد أوليفانت والنقيب راولينك وجُرحَ اثنان من الثوار وقبل المساء التحمت القوة الرئيسة للكتيبة مع رجال القبائل الذين انسحبوا قبل الفجر بعد أن استمروا بإطلاق نار عشوائي طوال الليل. وحدث الهجوم التالي في التاسع من كانون الأول عندما دخل التانجستانيون إلى خطوطنا الأمامية وأطلقوا النار على المقر ومعسكر الاحتياط وقتلوا واحداً من الفيلدار[1].

وسوار[2] الدفاع عن نفسها إلا أن المستعمرة البريطانية في مدينة شيراز قد أُحيط بها وعُزلت ولم تتمكَّن قواتنا من الدفاع عنها.

وشَنّوا هجوماً مرة أخرى في الثلاثين من الشهر إلاَّ أنهم صُدوا بعد أن تكبَّدوا العديد من الخسائر بين جريح وقتيل ولم تكن هناك إصابات في صفوفنا. وتمكَّنت

---

(1) القائد العسكري للقلعة عند المغول.

(2) أحد أفراد فوج الفرسان الهندي.

حاميتنا في مدينة بوشهر في العاشر من تشرين الأول من إلقاء القبض على القنصل البريطاني والعقيد أكونور وكل الرعايا البريطانيين من قبل الجندرمة (الذين أوضحوا بأنهم يتصرفون بموجب أوامر صادرة وأن الحرب على وشك أن تعلنها إيران) ونُقلوا إلى مدينة أحرام في مقاطعة تانجستان. واشترط إطلاق سراحهم عودة جميع الألمان والأسرى الإيرانيين الذين أُسروا على الأراضي الإيرانية رداً على أفعالهم والمطالبة بإخلاء مدينة بوشهر من القوات البريطانية. على طول فترة الصيف كان أكونور ومفرزته محتجزين في قلعة زاير خضر خان في مدينة أحرام الواقعة على بعد عشرين ميلاً من قلعتنا في مدينة بوشهر. كانت الحكومة الهندية تعارض شن حملة عقابية ضد التانجستانيين وكان لها أسبابها وعلى الرغم من أننا نمتلك القوة الكافية لمهاجمة التانجستانيين وتشتيتهم لو كان لديهم أي أمل في الصمود إلا أنهم قد ينسحبون إلى التلال في أول إنذار وقد يستخدمون العنف ضد الأسرى ومع ذلك عندما كان عدد أنصار القضية الألمانية ينخفض في مكان آخر في بلاد فارس كان واسموس ورفاقه مستمرين بأعداد كبيرة مع القبائل المتمردة في المناطق البعيدة عن ساحل بوشهر إلا أن المتآمر الخبيث كان قريباً من نهاية مكره. ونظراً لعدم توفر الذهب فإنَّ تأثيره أخذ ينحسر وبدأ زعماء القبائل الذين بدؤوا يظهرون علامات الندم بعد أن اتهمتهم الحكومة الإيرانية بأنهم خارجون عن القانون وكلما يقترب طريق القوافل التجارية إلى الساحل كلما بدؤوا يشعرون بقلة عددهم بعد أن جفَّت مصادر التجهيزات عبر الصحراء. في آب 1916 بعد أحد عشر شهراً من الأسر تقريباً أُطلقَ سراح أكونور ومفرزته بعملية تبادل مع الذين يعكرون صفو السلام الذين رُحلوا في وقت مبكر من السنة. وقد مرَّت الأزمة الحقيقية قبل عشرة أشهر أي في تشرين الثاني 1915 عندما أدخل الانقلاب العسكري بلاد فارس في الحرب ولكن تركيا قامت بإجهاضه. وأرسلت روسيا جيشها عبر قزوين وقد وصل على مشارف العاصمة بمسيرة يوم واحد من أجل إفهامها أنَّ التحالفات العدائية يمكن أن تحل بالحوار.

وفي الخامس عشر من تشرين الثاني طرد شاه إيران الشاب الألمان خارج البلد وحفظت بلاد فارس. طهُر شمال بلاد فارس وغربها واجتاح الروس الجنوب ودُحر المتمردون في قم في الخامس عشر من كانون الأول وهمدان في الحادي والعشرين

من كانون الأول ودُفع الأتراك إلى الخلف إلى حدودهم من مدينة كرمنشاه. وشهد شهر نيسان بداية انهيار المقاطعات الشرقية. قام محافظ كرمان نتيجة بعض الأعمال بطرد الألمان من المدينة ونزع سلاح الجندرمة وإرسالهم تحت حراسة إلى شيراز إلا أن الألمان والنمساويين الذين طردوا من كرمان قد هاجمتهم قوة من القبائل في مدينة أرزنجار وقبض عليهم وأرسلوا إلى طهران.

وُمني الألمان في الوقت نفسه تقريباً بهزيمة في مواجهة أُخرى في مدينة سيرجان حيث قُتل أربعة نمساويين وألماني وأُسر عشرون نمساوياً. لقد هاجم رجال البختيارية مفرزة زوكماير قرب مدينة بافت وأُسر دكتور بياج وأرسل إلى بندر عباس وهو الآن في سجن في الهند. وطُهِرت مدينة شيراز ووضع جميع الجندرمة تحت الإقامة الجبرية. واعتقل محررو المنشورات المحرضة «الحياة» و«تعازينا» و«الانتقام». وفي شهر مايس استسلم سيد عيسى مثير الفتن المشهور في مدينة رام هرمز إلى البختيارية. وأُعيد تنصيب السيد كراهام قائداً للمستعمرة البريطانية في أصفهان. بينما نُفي نيدرمير وعصابته فقط إلى كابول إلا أن الأمير عرف كيف يتعامل مع هذه الأحداث وبدخول الجنرال سيكس والجندرمة معه إلى كرمان أُزيل آخر مركز للدعاية.

وهكذا حققت مجموعة صغيرة من الألمان إنجازاً عندما أشعلت فتيل حرب وقامت بأعمال قطع طرق ونهب وقتل في بلدان قليلة كانت تنعم بالسلام. ومن المفرح أنهم اكتشفوا بأن الكذب والاغتيال بالرغم من أنه مفيد في الإخلال بتوازن الدول المحايدة إلا أنه لا يمكن أن يكون أساساً دائماً في بسط السلطة. الا أن الأساليب الألمانية في بلاد فارس لها أهدافها الخاصة لأنها تسعى إلى أن تقدم أنموذجاً مصغَّراً لماكنتها السياسية ككل. ولا يوجد مكان تخفي فيه خدعها ولا يوجد مكان فيه تحفيز أو مصدر أو أسلوب أو تأثير يتمتع بالشفافية لدعايتها حيث يكون الخاص فيه دائماً أكثر إضاءة من العام. ولمتابعة مكائد شركة ونخوس قبل الحرب أو مجيء عملاء واسموس ونيدرمير وذهابهم خلال الثمانية عشر شهراً الأولى منها نقرأ تاريخ أمة في شخص. وتكمن قوة الألمان بأن كل وحدة ألمانية تنسجم مع مشروعها العام سواء بالامتزاج أم بالتدريب مثل التحام خلية في

الكائن الحي الطبيعي. يرى الفرس الألمان على أنهم المدافعون عن الديمقراطية والحفاظ على وحدة الأمم الصغيرة. وأصبحت كلمت الألمان والديمقراطيين من الكلمات المتداولة في الجنوب وربط الفرس الكلمات بمنتهى البراءة، لذا يجب أن يعني الديمقراطي هو الشخص المستخدم لتنفيذ الاغتيالات ويكون مهيئاً لدفع أجرة أعلى. وكانت الديمقراطية مقياساً غريباً يتناوله الألمان ولكنه قابل للتكيف على الرغم من أنَّ حكم الفرد لم يكن منتشراً. وكان الإسلام الراية التي ترفرف باستمرار أمام أعين الساذج. لبس واسموس الطربوش في بغداد وفي بلاد فارس ومدينة أصفهان وجلس على الطريقة الشرقية (القرفصاء) وصام رمضان وتبنَّى المعتقد السني أو الشيعي بحسب البلد الذي يتبنّاه. ففي البلاد الإسلامية تكون دعايته صريحة ضد المسيحية وتمكَّن من اختراق ايران من شمالها إلى جنوبها برفقة مجموعة من المجاهدين الذين يبشرون بالحرب المقدسة ابتداء من مدينة مشهد إلى مدينة كرمنشاه وينادون بقدوم «جيش الخلاص».

خصَّصتُ فصلاً واحداً في هذا الكتاب عن نشاطات الألمان في بلاد فارس أما القصة الكاملة فتحتاج مجلدات للكتابة عنها. إلا أنني جمعتُ صوراً قليلة تستحق الاحتفاظ بها من أجل توضيح الصورة الأوسع في مدينة بوشهر والأحواز وشوستر.

كانت أصفهان ولفترة طويلة مركز التآمر. ووصل دكتور بوكين في الرابع من شباط 1915 على متن سفينة شبه ملكية ترفع الرايات التركية والألمانية. وقبل حلول المساء مُزقت الراية الألمانية طولياً ولكنها رفرفت بعد فترة قصيرة. في مايس نُصب جهاز اللاسلكي وجاءت أخبار الاحتجاجات والأوامر من طهران إلا أن المحافظ العام كان بطيئاً في وضعها موضع التنفيذ ومن الرثاء إزالة هذه اللعبة. كان صوت أمير الحرب يسمع يومياً في أصفهان وهو يتحدث مع الناخبين يسرد لهم الكوارث الهائلة التي حلَّت بالبحرية البريطانية وفشل المصرف البريطاني وانقراض فرنسا. في أقصى الجنوب كان واسموس يبث عبر جهازه اللاسلكي المخفي. تحدث مع الرُّتَب العليا في معسكر مدينة تانجستان البسيط حيث يرسل ومضات جذب في الليل ومررت عبره رسائل غامضة. كان لدى حامي الإسلام عين ترى بقدرة إلهية أفراد الخان ويجلس متكئاً على يده اليمنى وتتردد أسماؤهم على شفتيه ويسرد غزوات شيخ حسين وزاير

خضير المزعومة على الحملة الصليبية وما زال التأمل الهزلي يسود في مدينة أصفهان في العشرين من مايس عندما توافدت حشود كبيرة إلى مقبرة تخت أي رشاد لرؤية وصول السفينة الألمانية زبلن المحملة بحمولة سكر رمزية قادمة من الشمال إلا أن الناس الذين كانوا يتطلّعون عبر الأفق برقاب متوترة حتى حلول الظلام ولم تصل السفينة عادوا أدراجهم خائبين مما أنقص الكثير من هيبة الألماني.

إلا أن الأشياء تسير بسرعة في المدينة وكانت التأملات التراجيدية تأخذ دورها في المشهد فعندما جاء سيلر انهار بوجين المشاكس ؛لأنه لم تكن مشاكساته كافية. سُئل ما الذي فعلته لنا؟ أجاب: «لا شيء على الإطلاق» ووقف الرجل معتداً بنفسه وهو نحيل الجسم وكان مدبراً للفوضى والاغتيالات بكل معنى الكلمة. من الواضح أنه كانت هناك حاجة إلى مزيد من الموارد والدعاية وفي الثامن عشر من مايس اغتيل فون هاير مدير مصرف روسيا عندما كان متوجهاً بسيارته إلى بيته من القنصلية الروسية بعد أن تناول العشاء. واستدعي موظف عربي يعمل بالقنصلية الألمانية من قبل السلطات المحلية لاستجوابه لعلاقته بالاغتيال إلا أن الرجل هرب فجأة إلى طهران عبر سيلر. وبعد فترة وجيزة استهدف السيد كراهام نائب القنصل البريطاني الذي أُصيب بجروح عندما كان يسوق سيارته عبر الشوارع وقُتل مرافقه الهندي.

في غضون ذلك، وصلت راية التحرير إلى مدينة كرمان وتوافدت جموع الناس للقاء زكماير وكريسنجر الألمانيين وقُدمت لهما الأضحية من الأغنام والأبقار تكريماً لهما. وبالرغم من اعتراض المحافظ العام فقد نصبت الأعلام التركية والألمانية فوق منزل خارج المدينة. فيما بعد قام زكماير الذي لا يمل ولا يتعب من تحريض الناس للتجمع في المسجد وإعلان الجهاد وقتل كل إنكليزي وروسي. اغتيل المواطن البريطاني فارو في مدينة شاه ولجأ القاتل وهو من مدينة أصفهان إلى الألمان. وكان الفرس يصنعون حبالاً مثل تلك الحبال التي صنعت في العصور الوسطى لتنفيذ الاغتيالات الهمجية في عصر النهضة.

وكتب زكماير إلى أحد الزعماء قائلاً: «لا بدّ أن تأتي إلى دهانة باكهي لوجود مفرزة صغيرة من الإنكليز. سيكون من السهولة سحقهم تحرك حالاً اقتلهم واستولِ

على ممتلكاتهم وأسلحتهم وذخيرتهم وأرسل لي رشاشاً واحداً من كل نوع لديهم كنموذج». إنَّ هذا الطلب المباشر فيه شبه بالعمليات التي كانت تجري في العصور الوسطى وأصبح القتل عملاً روتينياً وليس الحرب.

عند متابعة العميل (أكس) وهو تاجر جدير بالاحترام هرب من البصرة عندما هاجمت قواتنا الفاو. ثم تواجد لاحقاً في مدينة لينكه حيث المنشور المزعوم على أنه جاء من عالم في كربلاء وقُرِئ في مقهى في السوق. كُتبت الدعوة إلى الجهاد في فترة تواجد العميل (أكس) في المدينة. غادر مدينة لينكه سراً إلى ناحية باستاك ومن هناك تمت ملاحقة المفرزة التي شنَّت هجوماً قُتل فيه أربعة أوروبيين في مدينة كيشم عندما كانوا جالسين في خيمة وزحف عليهم المهاجمون وأطلقوا النار عليهم عن قرب. وكان بمقدور الإنكليز العاملين في شركة النفط الأنكلو- فارسية رد المهاجمين ولكن سيكون الدافع هنا القتل مرة أخرى.

وكان هناك ثمن لابدّ أن يدفعه الإنكليز إلا أن هناك ظلماً آخر ارتكبه الألمان. فقد جرت حادثة صغيرة أخرى في مدينة كرمان تغنَّى بها طلاب المدارس في المدينة ونُشرت في الصحف المحلية بعد طرد الإنكليز. ومع ذلك عندما ينظر المرء إلى الأمر سيلعن الألمان أكثر من أن يلعن عملية القتل أو الاغتصاب؛ لأنها مثل بذرة الفاكهة المرة التي انتشرت وأساءت إلى العلاقات ولاسيما أنَّ العلاقات كانت طبيعية بين البريطانيين وسكان مدينة كرمان الى أن جاء الألمان. كانوا يحبوننا ويثقون بنا فقد أنجزت البعثات التبشيرية مشروعها الخيري في الحياة وجنت ثماره محبة الناس ثم جاء الألمان وأصبح الأطفال يرددون:

نقدم شكرنا لحماسة أبطالنا الوطنيين ... أصبحت أرض وطننا نظيفة بهم

الخزي والعار والشنار لضيوفنا الذين ... جلبوا البؤس للجميع

جاء أحدهم وبيده الكتاب المقدس ... قائلاً «الله له ابن»

والآخر كان طبيباً ماهراً ... وضع الأسر في صفوف

وقال «محبتي للمرضى» ... هذا واجبي

قد يكون عقرب دبّ في أرضنا ... وآخر افتتح مدرسة

يتـم فيـهـا تــدريــب الجهلة　　لم تنطلِ أساليبهم على رجالنا

وكـان تصميم رجـال بلدنا　　والآخر جلب حفنات من الذهب والفضة

قـائـلاً: «لــدي الكثير من هذا»　　أعــطــنــي ذهــبــاً خــالــصــاً

وسأعطيك قصاصات جميلة من الورق　　يمكنك أن تبيعها في سوق بلدك

والآخــر عمل قنصلاً　　وضع جهازاً أصفر وأزرق (أسد ووحيد القرن)

فــــــــــــوق داره　　وتفوه بكلمات شديدة وقاسية

مــــثــــل الــــعــــدو　　رحَّــبـنــا بـمـغــادرتــهــم

لم تبقَ لهم علامات تذكرنا بهم　　ظل طريقهم مظلماً ويلفه الغموض

تـبـقـى بــلاد فــارس للفرس　　تـبـقـى بــلاد فــارس للفرس

نبقــى مخلصيــن للإســلام والديــن المحمــدي

لم تنل الدعاية الألمانية في الشرق الاهتمام الذي سعت إلى تحقيقه لأنَّ الناس كانوا يهزون أكتافهم استهجاناً ويترددون في تصديق ظلم مدينة لوفان أو جيربيفلر ولم يكن هناك دليل معزز يساعد في فهم عقلية الألماني. وإن الاختلاف الوحيد هو أن حالات القتل في بلاد فارس نفَّذها عملاء بدم بارد ولم تكن بالاستفزاز نفسه لتتخذ ذريعة لشن حرب هوجاء. وتكررت الحوادث التي جرت في مدينتي أصفهان وكرمان في مدينتي يزد وشيراز وفي الجزء الأكبر من بلاد فارس. وتكرَّرت قصص الرشوة والاغتيال والتصريحات المزوَّرة والجهاد الزائف. ووظف كل من الدين الإسلامي والمسيحي لغايات سياسية. وفقد المسلم احترامه لدى الرجال الإنكليز بعد أن دُنس الإسلام بهؤلاء المومياءات مثل واسموس ونيدرمير اللذين يدعوان إلى الجهل والتعصب وإثارة المشاعر الشريرة لغايات أنانية، لقد استند النفاق الألماني إلى انتهازية بائسة وانفجرت فقاعتهم الإسلامية عاجلاً. وكلما طال أمد الحرب شهراً آخر كلما بان زيف القناع الألماني. وإذا ما أرادت ألمانيا أن تبني إمبراطوريتها في آسيا فعليها تصحيح أساليبها لأنَّ أي حكومة تثير طائفة ضد طائفة أخرى على مدى جيل واحد في الشرق لن تستمر طويلاً.

الفصل الثاني والعشرون

جنة عدن

عُرف بأنه أقدم بلد في العالم ولكنك لن تجد شيئاً فيه القدم على بعد ثلاثمائة وخمسين ميلاً عن البحر. على جانب الفرات تركت مدينة أور الكلدانية بعض التموجات على الطين. وعلى مقربة من نهر دجلة لا يوجد سوى طاق كسرى فهو النصب التذكاري الوحيد الشاخص. كما أن قبر عزرا ليس القبر الحقيقي وأسطورة جنة عدن إذا ما وجدت لها أية صحة فمن الصعب التعرف عليها. لم نتعرف نحن الخمسة القس والطبيب وضابط الكتيبة ومسؤول النقل وأنا على مكان جنة عدن بعد أن علقنا عند شجرة تعرف بشجرة الخير والشر على مدى الأسبوع الماضي من شهر حزيران. كنا جميعاً ننوي التوجُّه إلى الناصرية عبر نهر الفرات وكما توقعنا أول مرة لا يمكن تصديق الفكرة السائدة بوجودها.

من أجل قضاء أطول يوم في السنة في المكان الأفضل في العالم ينبغي أن تكون فيه لذة مثالية ومنافع اقتصادية ومع ذلك كنا هنا في الحادي والعشرين من حزيران في مقر جنة النعيم في حالة نُرثي فيها أنفسنا قبل أنْ نُرثي أسلافنا الأوائل الذين قذفتهم الملائكة بألسنة من نار.

تقع القرنة أو الكرنة كما تسمى وهي جنة السومريين المعروفة عند التقاء نهري دجلة والقناة القديمة لنهر الفرات. وتتدفق القناة الجديدة إلى شط العرب عند مدينة كرمة علي الواقعة على بعد أميال قليلة شمال البصرة إلاّ أنها القناة القديمة التي تخدم خط اتصالاتنا مع قوة نهر الفرات. كان النهر صافياً وبطيئاً مثل نهر نورفولك. يبدو أنه لا يوجد تيار تماماً فالتيار الطيني القادم من نهر دجلة لا يتطهّر منه ولكنه يرجعه بالارتطامات تاركاً فاصلاً واضحاً وبالكاد يختلط التياران.

لم نجد من الفردوس سوى أشجار النخيل والتين. حتى الأفعى لم تكن ظاهرة بالرغم من أن أعمالها ما تزال قائمة وأعمال الشر تزدهر باطِّراد. وما زال الإنسان يتعاقب على هذه البقع. لابدّ أن نقدم الشكر لأنَّ أطول نهار أعقبه أقصر ليل. بدأت بيجاماتنا تتعرق قبل أن نرتديها وكانت مبللة ليس بالندى ولكن بالتعرق في الليل بعملية نضح بساتين النخيل. لم نكن نائمين ولا مستيقظين تماماً. فتحنا ستارة البعوض واستخدمنا معاطف البيجاما نلوح بها في الهواء؛ لأنها ثقيلة يمكن أن تستخدم لطرد الحشرات إلا أن ساعة قدوم الذباب الرملي مؤجلة. لقد جاءت في منتصف الليل وهلك بعرقنا مثل موت ذباب في عصير البرتقال.

لقد أنزلنا شبكاتنا وصلينا من أجل نسمة هواء تهب علينا كانت السماء تتزين بكل آيات الجمال والراحة الإلهية التي لا تعرف الصفح كما قدمت في صفات جين تيرثا نكاراس[1]. بزغ القمر وتضاءلت الظلمة في فضاءات رمادية بين النجوم. وامتد درب التبانة في الأفقين وكان يتغذى برافدين من الرصاص المصهور. والخيال غير مكتمل لنصف النوم هذا الذي يجري في جنة عدن، أصبحت شبكة من البعوض الأبيض بلسعات مثل الشرر تنزل على ستائرنا لتعزيزات من الغضب الإلهي عبر سلم من العذاب ينزل من جهنم.

في الساعة الخامسة تلفع الشمس مرة أخرى الأفق لإعادة شحن الغلاف الجوي الذي لم يفقد شيئاً من حرارته المحتفظ بها خلال الليل. لقد جاءت الرسالة في وقت مبكر من الصباح بأن الجنرال لم يترك علي الغربي ولم نتمكَّن من البدء في التحرك في تلك الليلة ومن غير المحتمل جداً أن ننطلق في اليوم التالي. يثار جدل واسع بخصوص العناية الإلهية وأنه لا يزال دائماً فصل للشياطين غير المستفزة وعند إزالة يد الوعيد نتذكر بأنها إرادة الله التي تجعلنا نكون مطاردين ولم ندمر نهائياً. في الساعة العاشرة هب النسيم وانتعشت اهتماماتنا بالأشياء ونزل ثلاثة من السيخ أسفل الجانب

---

(1) جين تيرثانكاراس: دين غير توحيدي وجد في الهند في القرن السادس قبل الميلاد من قبل جين فاردامانا مهافيرا كرد فعل ضد تعاليم البراهماتية الأرثوذكسية التي لا تزال تمارس. ودين جين يعلم الخلاص والكمال من خلال حياة متعاقبة ويلاحظ الزاهدون له (مسار الصالحين) عرض مسار قابل للعبور عبر البحر في دورة الموت والبعث وفق الديانة السنسكريتية.

المحترق من السفينة على مصدَّات الحبل وتعلَّقوا هناك وتَدلَّت رؤوسهم قرب الماء لساعات مثل السُّراق أو الزواحف ويطوف شعرهم الطويل في التيار. ذهبتُ إلى الشاطئ مع الرجل (أس) و(تي) وضابط الكتيبة. كان الطبيب والقس منشغلين بحرق أو استعادة الضحايا الذين وقعوا في الليل. كان يجري حفر قبرين في المقبرة البريطانية عبر نهر الفرات. من فوق سطح السفينة، رأينا نقالات تمر تحت النخيل وفي حرارة الليل كنا نشفق على الرجال الذين كانوا يحملون أثقالاً لا يتحملها إلا الرجال الأقوياء. سمعتُ صوت رجل في زورق حربي يصدر خواء مثل بقرة صغيرة وكان فاقد الوعي وكان يلف بالثلج. وكان زورق دراي فلاي الصغير الذي جاء تواً من البصرة الوحيد الذي يحمل على متنه ثلجاً ولم يكن هناك شيء على الشاطئ، وقد قدم لنا شراب الشمبانيا المثلج. وأخبرني القس أنه أصابه التبخر ثلاث مرات في الليل إلا أنه عند الفجر جمعت الذرات الرطبة نفسها بجذب إعجازي. وهكذا نجا ليسعف العقل والجسد لمواجهة أكبر خطر للتحلل.

تعدُّ أي حركة للهواء عاملاً مساعداً على إعادة الوعي أو الصحة والآن هبَّت نسمة هواء ولم تكن حارة جداً كي تطعن بهوية الشجرة المذكورة في الكتاب المقدس. وقال أس وتي بأن المكان هو جذع شجرة رست عنده سفينتنا ذات المجاديف وكان هذا الرأي العام. ولكن كانت هذه شجرة السيريس تحمل ثمرة الفصيلة القرنية الصفراء وأدغال شوكية وشائكة وانحنت شجيرة شوكية أسفل النهر وهي نوع من شجرة الخوخ الشائك وضعت داخلها سارية تلغراف. قلت: إنَّ هذه الشجرة تحمل نوعاً من الفاكهة البعيدة عن الإغواء وإنها حقيقية لكن ربما قد تدهورت ومن الواضح أن عدناً لم تكن كما كانت. واستفسرنا من الناس ولكن وجدنا المعلومات المحلية مشوشة ومختلفة. بحثنا في الشوارع حتى الطريق الرئيس وممشى حواء يؤدي إلى تقاطع تشيرنغ كروس[1]. وجادة الأفعى تؤدي إلى ساحة الإغراء وحشرة صغيرة في البيوت عند الرصيف حيث توجد نصف دزينة من المقاعد المحمية من الشمس

(1) تشيرنغ كروس هي نقطة تقاطع شوارع ستراند والوايتهول (مقر الحكومة البريطانية) وشارع صغير يسمى كوكسبر جنوب ميدان ترافالفار وسط مدينة لندن واستخدمها الجيش البريطاني في مواقعه التي احتلها في العراق. (المترجم).

بوضع حصيرة من القصب. يأخذ إغواء العرب أشكالاً مختلفة منها الأناناس المعلب وسكائر عدن وسمك السلمون المعلب وما شابه ذلك التي تعيد العملية المعقَّدة غير الصحيحة التي كانت مدمرة لآبائنا الأوائل. وهُجر السوق الصغير وبالكاد يوجد ظل يخيم على الأرض البيضاء.أما في المقهى فإنَّ الناس أصابهم السأم. ويأتي فصل يكون حاراً جداً حتى بالنسبة للعرب الذين يجلسون القرفصاء ويلتصق أحدهم بالآخر وعندما يجلس يرفع قدميه متدلية في الهواء.

تحمل بعض البيوت الواقعة على جانب النهر آثار طلقات نارية وقذائف مدفعية بعد أن سيطر الأتراك عليها ثم استولينا على المكان في كانون الأول 1914. كان القناصون يتمركزون في كل نافذة وكانت قواتنا تتعرض لسيل كثيف من النيران عند تقدمها تحت غطاء من أشجار النخيل من الجانب الآخر للنهر. قمنا بتطهير قرية معزيرة في السابع من كانون الأول واقتحمنا حدود العدو على طول الضفة اليسرى حيث هيأ العدو زوارقه ولاذ بالفرار ووجدت الكتيبة مائة وأربعة زورقين محليين في المكان الذي كان فيه الأسطول التركي وعبروا بهذين الزورقين.

وفي غضون ذلك أقام الجنود الهنود جسراً عائماً على بعد ثلاثة أميال جنوباً استخدمته الكتيبة مائة وعشرة في العبور وتمسك هاتان الكتيبتان بالقرنة الآن. وكان لا بد أن يقاتل الأتراك (معظمهم من الأناضول وهم من نسل طيب) أو أن يستسلموا. لقد كانت كتائب الأتراك على الضفة اليسرى بين الشيطان والبحر العميق في مواجهة مع العرب والبريطانيين مما اضطروا إلى الفرار بسفنهم مع رجال القبائل من حلفائهم عند معامل الطابوق قبل يوم من المعركة وفي جنح الظلام. جرت مفاوضات بين المعسكرين وكان اهتمام الأتراك منصباً أكثر على كيفية الحصول على نص اتفاقية لاهاي باللغتين الإنكليزية والفرنسية.

ووجدت في صباح اليوم التالي التاسع من كانون الأول على طاولة المحافظ صفحة مفتوحة «استسلام المدن». اندفعت الكتيبتان مائة وأربعة ومائة وعشرة واستولت على مخازن أسلحة الحامية وألقينا القبض على صبحي بيك والي البصرة السابق وأسرنا ألفاً وأربعة وثلاثين أسير حرب وأربعة مدافع. جرت المعارك التي

أدت إلى الاستيلاء على جنة عدن بجو بارد صاف ومنعش من صباحات شهر كانون الأول ألّا أن القضية الثانية في القرنة هي عندما أزحنا الأتراك من الجزر التي احتلوها في المنطقة التي يغمرها الماء شمال المدينة فقد حدثت العوامل الجوية نفسها من حرارة وتعرق التي جرت علينا في أثناء أطول نهار في السنة. في الحادي والثلاثين من مايس 1915 خضنا معركة برمائية ربما لا يوجد لها نظير في السجل العسكري قمنا بجمع جميع الزوارق في البصرة وهي خمسمائة زورق أو ما يزيد وخصصناها لجسر واحد. وباستخدام هذه المراكب الصغيرة العجيبة المدرعة بصفائح الحديد في المركز تقدمنا مثل القرصان الاسكندينافيين القدامى الذين خاضوا المعارك ضد جزر العدو المحصَّنة. وفي الأول من حزيران انسحب الأتراك تماماً إلى النهر. كانت معركة الهور الصغيرة البارزة أول معركة يخوضها طاوزند في بلاد وادي الرافدين وهي بداية سلسلة من الانتصارات نفذتها قوة بريطانية صغيرة إلى أن وصلت طاق كسرى في المدائن على بعد ثمانية عشر ميلاً من بغداد.

لقد تكبَّدنا إصابات من جراء ضربة الشمس في أثناء سير المعركة أكثر من الطلقات والقذائف التي كنا نتعَّرض لها. ومع ذلك، كان الشيء الأكثر تميزاً هو قدرة التحمل لقواتنا. تكون الرحلة مهلكة عندما ندفع فيها مركباً بعمود طول الصباح عبر أعشاب كثيفة والخوض في المياه والطين إلى ارتفاع يصل إلى الخصر لأنها ليست رحلة قصيرة للمتعة. وكان الجو فيه ما يعكر صفو نظام الإنسان ويملأ المقابر بالموتى ويبقي الأطباء والقساوسة منشغلين دائماً إلا أن نشوة المعركة هي خير شاف لهذه المأساة وفي الانتصار تسمو الروح فوق اللحم البشري فخوض قتال في مناخ مثل هذا يكون أفضل من التفكير أو التعبير عن خواطر الإنسان في المسائل الأخلاقية. لدى الرجال الذين طردوا الأتراك من جنة السومريين ذكريات أسعد من الجند القادمين من الوطن بعد أن مروا بأطول يوم في السنة وتركوا رسوماً خلفهم. قال جندي مخدَّر: «لن تجبرني السيوف البراقة على مغادرة هذه الأرض».

من مجموع ثمانين جندياً من فرقة الخيالة البريطانية الذين جاؤوا معنا من البصرة سقط منهم عشرون جندياً في الليلة الأولى. كانوا مستعدين للتحرك في صباح اليوم التالي عبر الطريق ولكن غادرنا القرنة وهم ما زالوا هناك. كان المناخ الملعون يفرض

سطوته خلال الأشهر الطويلة عندما لم يكن هناك قتال واستمر نزيف دم شبابنا. كانت ضريبة احتلالنا باهظة في أشهر كانون الثاني ونيسان أو آذار. تعد أرض بلاد وادي الرافدين وبائية وشريرة ليس فقط إنها التهمت إمبراطوريات وممالك ولدت على أرضها من أور الكلدانية ونينوى الآشورية وثلاث سلالات من بابل ومدائن كسرى بل لأنها كانت آفة أصابت معظم إمبراطوريات الغرب. كانت المستنقعات الموبوءة بالملاريا عند نهر الفرات سبباً لإصابة ألكسندر بالحمى وقصَّرت حياته. وعند المدائن فقد جوليان وجيوشه الرومانية إمبراطورية الشرق.

الفصل الثالث والعشرون

الناصرية

تعد الأرض التي تبدو منخفضة من نهر الفرات في منخفض بحيرة الحمَّار والناصرية التي تسر الناظرين الأغنى في بلاد وادي الرافدين حيث تغمر المياه هذه الأرض في شهري أيار وحزيران وأعلى منطقة في القرية لا تزيد على قدم فوق مستوى الفيضان ومعظم السكان أخذوا زوارقهم وتركوا أكواخهم المصنوعة من القصب شاخصة في المياه. تشير فسحة هذه المساكن التي طولها ستون قدماً ومبنية من ثلاث طبقات سميكة من القصب ذات قوس منحنٍ إلى ازدهار عرب الأهوار. فنصف دزينة منها تكفي لسكن قبيلة وإنها على غرار نطاق المدائن وفي معظم معسكراتنا الواقعة على نهر الفرات اعتمدنا الطراز المعماري للبلد وتعلم جنودنا من الهنود والتجار العرب بناء مساكن خاصة بهم. تعد الجزر العائمة العالية المكدَّسة من القصب والبردي التي توفر مواد لصنع الحصيرة هي سمة المنظر الطبيعي للمنطقة. وتمتد النباتات الحية لأميال على إحدى الضفتين إنها أرض خضراء تجعل الأشياء تبدو أكثر شبهاً بالوطن فأشجار الصفصاف تزداد حتى تصبح وفيرة مثل النخيل. عبرنا بحيرة الحمَّار إلى قناة حكيكة الملتوية السريعة التي ترتبط بالمجرى الرئيس لنهر الفرات. هنا دخلنا أرض الخضرة والزراعة حيث يقوم القرويون بزراعة الرز ويصبح الحصن واضحاً للعيان على نطاق واسع والأبراج القوية التي تمتد مثل كنائس ساكسون[1] شاخصة تحت كتل أشجار النخيل والمشاحيف أو الزورق الشعبي

(1) بُنيت مجموعة كنائس عديدة في الفترة الأنكلو ساكسونية مثل الأبراج. وكان الطابق الأرضي يستخدم كصحنٍ للكنيسة حيث يجلس المصلون باتجاه الأفق. عموماً يوجد سرير مع ستارة البعوض على السطح ولا يوجد جلد مهما كان سمكه لعرب الأهوار يكون صامداً أمام ذبابة بلاد وادي الرافدين. كلما انتمى العربي أكثر إلى المستنقع كلما انحط.

مصطلح للازدراء أو التشويه ويتردد على شفاه البدو المتفاخرين ويعد راكبو الجمال والحمير من القبائل البرمائية عند بحيرة الحمّار بأنهم أدنى مرتبة. وكل جزيرة في هذا الفيضان هي مشهد للصراع الدائم وتعد الفوضى أمراً طبيعياً على أديم هذه الأرض ولا توجد قرية ليس فيها صراع، فالشيخ يخوض صراعاً ضد جاره والأخ ضد أخيه ولا يوجد ولاء داخل المجتمع. وإذا نشب خلاف بين اثنين في قبيلة فإنَّ أحدهما سيدعو القبائل الأخرى ضد غريمه؛ ولأنَّ النهب هو مصدر رزقهم فإنه من الطبيعي أن يكونوا في حالة عداء دائم مع السلطة.

لقد أطلقوا النار على الأتراك انطلاقاً من مبدأ من أجل الأجيال القادمة ويجد المسؤول العثماني السفر عبر نهر الفرات أكثر أمناً عندما يخفي شارة المكتب. ولفترة طويلة قاموا بقطع أسلاك التلغراف وهاجموا قوافلنا وبعد عقوبات كثيرة فرضت عليهم تعلَّموا الحكمة. لم يكن عرب الأهوار طائشين أو يسعون وراء حب المغامرة مثل الباثان إلاّ أنهم يحبون إحداث الفوضى من أجل استخداماتها التجارية. يحكم الإدراك العام أكثر من العاطفة على تصرُّفاتهم وهذا السبب الذي يدعو السياسيين الذين يعرفونهم يدركون أن تصحيح الفوضى السياسية يأتي من خلال افتتاح مشاريع جديدة للزراعة واستصلاح الأرض. يعتقدون بأنه من المحتمل أن يقبل ابن القرية الظروف التي تجلب له الثروة من خلال تحسين الأرض والري والاتصالات. ولكن أولاً لا بد أن يتم إقناعه بهذا الأمر وأوضح إداري شاب خدم في الحدود الشمالية الغربية أمامي مثل هذا القول. على سبيل المثال إعطاء عشرين روبية في الشهر يكفي لدخل العربي الذي يعمل في أرضه مع توفير الأمن فإنه سيقنع بشرط عدم التدخل بعائلته. أما البشتون فإعطاء خمسين روبية في الشهر وتوفير الأمن المفروض له بوجود قاضٍ وشرطي في الجوار ومع ذلك فإنه يعبر عن ازدرائه. كان التدخل في شؤون الناس هو سمة سياسة الأتراك لأنهم كانوا يخافون من تعاظم قوة الشيوخ حيث يقومون بإثارة بعضهم ضد البعض الآخر وعندما تتعاظم قوته يتم إثارة الثالث على الأول. كانت سياستهم المتبعة هي سياسة فرِّق تَسُدْ وحاولوا تمزيق النظام القبلي أما سياستنا فهي الحفاظ عليه. نفضِّل تركيز السلطة بيد شخص نستطيع التعامل معه، فالعملية الإدارية هي نفسها ولكن القيم العليا مختلفة. احتفظ كيم ماكام مسؤولنا السياسي بالعنوان القديم وهو يتعامل

مع القبائل نفسها كما كان سلفهم الأتراك يفعلون ذلك. جمعنا الواردات وبخاصة الواردات الزراعية وفق القاعدة القديمة عبر الشيوخ يكون النظام الأساسي. وما لم نجمع الضرائب ليس لهم مكانة لعمل ذلك. وإذا ما فقدوا هذه السيطرة على قومهم فإنَّ سلطتهم ونظام القبيلة برمته سينهار معاً.

تصب قناة حكيكة في التيار الرئيس لنهر الفرات على بعد خمسة وعشرين ميلاً جنوب الناصرية هنا نحن في مركز قضاء المنتفك الذي يشكل أقوى تحالف وأكبره في العراق. تعد الناصرية مدينة حديثة بقيت لتحسن سوق الشيوخ الذي بناه ناصر باشا قبل خمسة وأربعين عاماً ويعد ناصر باشا أبرز زعماء المنتفك الذي يمسك بزمام تحالف سبعين قبيلة مختلفة مما تشير إلى عظمته وهي مختلفة عن أي مدينة أخرى في بلاد وادي الرافدين حيث توجد فيها شوارع متوازية عريضة تمر بها المركبات وهي مواكبة للعصر. استولينا على المدينة في السادس والعشرين من تموز 1915 وشكّلت محميتنا هنا الجناح الأيسر لجيشنا في بلاد وادي الرافدين. تعد الناصرية نقطة استراتيجية؛ لأنها تتحكم بالطريق إلى البصرة بجانب نهر الفرات وإنها واحدة من بوابات آسيا الوسطى إلى العراق والاستيلاء عليها مهم من أجل السيطرة على واردات الأسلحة والتجهيزات إلى الداخل. إنها قاعدة لحملات موجهة ضد القبائل المتمردة وتقترب من شط الحي لمواجهة جناح الهجوم عبر نهر دجلة. ويوجد هناك عشرون إلى ثلاثين ألف مقاتل موزعين على طول ضفاف شط الحي. ويمسكون بنهاية النهر ويسود الهدوء هناك. ومن أجل كسب ولاء هذه القبائل لا بد من السيطرة على القناة فضلاً عن الحماية ضد الهجمات المباغتة عبر نهر الفرات من كوت العمارة. يكون النهر صالحاً للملاحة مدة أربعة أو خمسة أشهر من السنة باستخدام الزوارق (البلم) وإلى نقطة قرب الشطرة هنا تصرف قناة البدعة الواقعة على الضفة اليسرى ثلثي المياه من الحي إلى بحيرة الحمّار.

إلا أن السماوة وليست الناصرية هي الموقع الأمامي الطبيعي على نهر الفرات لقوة اجتياح بلاد وادي الرافدين من الجنوب وإذا ما أصبحت خارج سيطرتنا فإنَّ المكان يصبح مركزاً للتآمر التركي. ولا توجد أي مدينة أخرى تتمتع بالأهمية على أي من ضفتي الفرات حتى الديوانية على شط الحلة أو النجف قرب شط الهندية.

مع القبائل نفسها كما كان سلفهم الأتراك يفعلون ذلك. جمعنا الواردات وبخاصة الواردات الزراعية وفق القاعدة القديمة عبر الشيوخ يكون النظام الأساسي. وما لم نجمع الضرائب ليس لهم مكانة لعمل ذلك. وإذا ما فقدوا هذه السيطرة على قومهم فإنَّ سلطتهم ونظام القبيلة برمته سينهار معاً.

تصب قناة حكيكة في التيار الرئيس لنهر الفرات على بعد خمسة وعشرين ميلاً جنوب الناصرية هنا نحن في مركز قضاء المنتفك الذي يشكل أقوى تحالف وأكبره في العراق. تعد الناصرية مدينة حديثة بقيت لتحسن سوق الشيوخ الذي بناه ناصر باشا قبل خمسة وأربعين عاماً ويعد ناصر باشا أبرز زعماء المنتفك الذي يمسك بزمام تحالف سبعين قبيلة مختلفة مما تشير إلى عظمته وهي مختلفة عن أي مدينة أخرى في بلاد وادي الرافدين حيث توجد فيها شوارع متوازية عريضة تمر بها المركبات وهي مواكبة للعصر. استولينا على المدينة في السادس والعشرين من تموز 1915 وشكّلت محميتنا هنا الجناح الأيسر لجيشنا في بلاد وادي الرافدين. تعد الناصرية نقطة استراتيجية؛ لأنها تتحكم بالطريق إلى البصرة بجانب نهر الفرات وإنها واحدة من بوابات آسيا الوسطى إلى العراق والاستيلاء عليها مهم من أجل السيطرة على واردات الأسلحة والتجهيزات إلى الداخل. إنها قاعدة لحملات موجهة ضد القبائل المتمردة وتقترب من شط الحي لمواجهة جناح الهجوم عبر نهر دجلة. ويوجد هناك عشرون إلى ثلاثين ألف مقاتل موزعين على طول ضفاف شط الحي. ويمسكون بنهاية النهر ويسود الهدوء هناك. ومن أجل كسب ولاء هذه القبائل لا بد من السيطرة على القناة فضلاً عن الحماية ضد الهجمات المباغتة عبر نهر الفرات من كوت العمارة. يكون النهر صالحاً للملاحة مدة أربعة أو خمسة أشهر من السنة باستخدام الزوارق (البلم) وإلى نقطة قرب الشطرة هنا تصرف قناة البدعة الواقعة على الضفة اليسرى ثلثي المياه من الحي إلى بحيرة الحمّار.

إلا أن السماوة وليست الناصرية هي الموقع الأمامي الطبيعي على نهر الفرات لقوة اجتياح بلاد وادي الرافدين من الجنوب وإذا ما أصبحت خارج سيطرتنا فإنَّ المكان يصبح مركزاً للتآمر التركي. ولا توجد أي مدينة أخرى تتمتع بالأهمية على أي من ضفتي الفرات حتى الديوانية على شط الحلة أو النجف قرب شط الهندية.

كما أن السماوة هي أكبر مركز تجاري للشعير والغزل والصوف وكانت بوابة لطريق القوافل التجارية القادمة من نجد إلى العراق.

بُسِّطت مسألة تقدمنا إلى بغداد عبر الفرات في عام 1916 بالحقيقة الراسخة بأن الخطوة القادمة للأمام ستقودنا إلى معقل الشيعة في كربلاء والنجف حيث يتنامى الشعور المعادي للأتراك. في شهر مايس كانت هناك انتفاضة في كربلاء وفي الرابع عشر من الشهر وجه الأتراك أسلحتهم باتجاه الأضرحة المقدسة والمنارات وقتلوا مائة وثلاثين شخصاً في المدينة منهم نساء وأطفال وتسعة هنود بريطانيين. وتحدث أحد العلماء في النجف قائلاً: «إن ارتكابهم لهذه الأعمال الوحشية قد وفر الأتراك للإنكليز ما يكلف بريطانيا مليون دولار لإنجازه. زادت الضائقة المالية والتجنيد الإجباري للخدمة العسكرية من النقمة على الأتراك. كان هناك سبعون ألف إنسان في المدينتين المقدستين وكلهم على رأي واحد وعلى استعداد لمساعدة البريطانيين ضد الأتراك للسيطرة على بغداد. وفي نهاية شهر مايس أصبح الشعور بقوة إلى درجة أنه كانت هناك مناشدة للبريطانيين لإرسال أربع أو خمس سفن حربية مع مائة رجل في كل سفينة عند مدينة البطحاء حيث توجد قوة بإمرة أحد الشيوخ الأصدقاء حيث تلتقي بالزوارق وترافقها إلى النجف الا أن الوقت لم يحن. خلال الأسبوع الأول من تموز عندما زرتُ المدينة كانت الناصرية ما تزال جزيرة وكان من المتعذر الوصول إلى مدينة أور الكلدانية التي تبعد عشرة أميال إلى الغرب من المدينة مشياً على الأقدام. وبحسب قول العرب فإنَّ عام 1915 كان عام الفيضان الاستثنائي. في عام 1916 كنا نأمل أن تكون الظروف طبيعية ولكن الفيضانات كانت مرة أخرى استثنائية إلا أن الجهود التي بذلتها قواتنا وبمساعدة سكان المدينة أمَّنت المكان.

وخلال الفترة الحرجة وبينما كانت عملية بناء السدود تجري صدرت الأوامر بأن كل رجل من سكان الناصرية يجب أن يعمل بالسد من الساعة السادسة صباحاً حتى العاشرة وبين الثالثة والسابعة بعد الظهر ويجب أن تغلق جميع المحلات التجارية في السوق خلال تلك الساعات وأي شخص في الشارع أو البيت خلال ساعات العمل سيسجن حتى يستقر وضع الفيضانات. كانت العقلانيّة في هذا الأمر قد فهمت جيداً أنه يتفق مع التقليد الشرقي بوجود حكومة قوية وعادلة.

والشيء الوحيد الذي أربك العرب كان الفقرة الأخيرة من البيان: «كل رجل وامرأة يعمل سيتسلم ثماني عانات (وحدة نقد أقل من الفلس)». لم يدفع الضباط الأتراك أي مبلغ مقابل العمل بل قاموا بمصادرة المواد في السوق عندما كانوا بموقف قوي للتنمر على أصحاب المحلات التجارية.

وكانت السمة المثيرة لاحتلالنا تسجيل الكشافة العرب في الناصرية. ومُثّلت جميع القبائل المحلية في كشافة عرب الناصرية (ان، أي، أس) وبنجاح قبيلة السعدون العائلة الحاكمة في المنتفك. وبرهن الكشافة على فائدتهم الكبيرة في عمل الدورية والاستخبارات العسكرية. كانت الناصرية عندما استولينا عليها أول مرة خلال موسم الفيضان أكثر من جزيرة مادية كانت جزيرة بمعنى الكلمة وكياناً صغيراً معزولاً عن الفوضى إلا أن الكيان الذي يمدد حدوده دائماً. وخارج أسوار المدينة تعم الفوضى بينما يعم السلام والاطمئنان في الداخل. ربما لم نكن مكروهين بما فيه الكفاية ومع ذلك فإننا لا نعرف شيئاً عن فنون الخوف ولم نكن خائفين بما فيه الكفاية. فعندما اندفع الشوشان (سكان مدينة الشوش في إيران) إلى الناصرية على رأس القوة يوم الرابع والعشرين من تموز 1915 كانت الضفاف مصطفة مع العرب صامدة بأيديهم في إشارة إلى إخضاعها. وعندما اكتشفوا أن الشوشان كانوا وحدهم قد التقطوا أسلحتهم وفتحوا النيران وبإطلاق قذيفتين إحداهما على الثكنات فأسكتتهم. أطلقت على أحد الجنود الهنود من (الكورخاس) الذي كان يحرس في الشوارع في أثناء الليل. ولم يتم التعرف على أي أحد لأنه في هذا اليوم من الناحية العملية لم تكن هناك جريمة قد ارتكبت.

لقد عبَّر التجار والمالكون وأصحاب المحلات التجارية والحرفيون عن تثمينهم لحكومة مستقرة والعربي كقاعدة عامة بكل ما يمتلك من قصور فإنَّ لديه الحس السليم نحو النفعية كما أصبح واضحاً. ولم أستطع أن أعمل بصفتي باحثاً بالأساليب البريطانية أفضل من أن أمضي يوماً في مدينة مثل الناصرية بعد عام من الاحتلال. كنتُ أقضي الصباح في محكمة الحاكم العسكري في موقع السلطة التي يترأسها ضابط شاب كان قبل الحرب يقضي إجازته في بلاد فارس من أجل دراسة اللغة العربية أو الهيملايا وتصوير الوحوش الغريبة وتعلم اللهجات الغريبة ودراسة

الطرق التي يسلكها الناس الغرباء. وهنا لدينا إمبراطورية مصغَّرة فالشاب عموماً ملازم أول يعمل بموقع نقيب أو نقيب بموقع رائد وهو أمر لا بد منه في فترة ولادة أي إمبراطورية جديدة.

وأصبح أمر إصدار القرار طبيعياً لأنهم تعوَّدوا على دراسة القضايا بإمعان ومعرفة الدوافع الغامضة وتكون قراراتهم سريعة وحاسمة وخالية من الحذلقة ونادراً ما تعرقلها الشكوك والتردد ودليل هذا النظام هو شعبيته. في الصباح يقترب جمع من الناس من محكمة الحاكم العسكري؛ والتقيتُ في الطريق العرب المتغطرسين والصابئة الخانعين واليهود ذوي النظرة المختلفة ونساء غامضات تلفها الملابس السوداء من الرأس إلى القدم. هذه بعض المشاكل التي قُدمت للحصول على قرار بشأنها ويدخل محمد علي الذي فقد خاتمه ويصدر القرار بأن «ينادي في السوق مع ضرب الدفوف».

يدخل شافراز حسين يدَّعي ملكيته لحصان أخذه شوكت وهو الآن في السجن. القرار أنهما لصان يتشاجران وترفض المحكمة النظر بالقضية.

يدخل القس والمختار الصابئي صبحي ويقدم شكوى بأن جميع الفتيات من الصابئة يتزوجن المسلمين مما يعرض الطائفة إلى الانقراض. العريضة المقدمة قد تؤدي الى استدعاء الحاكم جميع السيدات من الصابئيات في الناصرية ويتحدث معهن عن هذه المسألة. وبدون أدنى شك سيقنعهن بتغيير طريقتهن أو إذا استمر الخطأ سيصدر قانوناً يحرم هذه التحالفات غير المرغوب فيها. القرار: أخبر القس والمختار صبحي بأن الصابئة لا بدّ أن يحسموا شؤونهم.

يدخل مشحوفجي! العريضة: إجازة لتصدير خمس جثث (لدفنها في الأماكن المقدسة) وست مومسات إلى النجف. القرار: منح الإجازة

تدخل(أ) فاطمة مرتدية النقاب ومتوشحة بالسواد (ب) زوج فاطمة. الشكوى: قام زوج فاطمة بمصادرة بيتها وحليتها والبقرة وضربها وطردها من البيت. وسردت رواية جديرة بالشفقة إلا أن الصوت المنبعث من حزمة سوداء يحمل في طياته المكر. ونشبت مشاجرة كلامية بينها وبين زوجها الأسمر. وكانت هناك أخطاء من

الجانبين وكانت المرأة الكاذبة أكثر ثرثرة في الحديث وبدأت تصرخ وتومىء في أثناء حديثها لذا تم زجرها وسجنت لمدة أسبوع.

ومضى معظم الصباح في خلافات عائلية منها إعطاء مخصصات وطلاق وغير ذلك وقدمت امرأة يهودية شكوى ضد زوجها الذي هجرها مع أولادها. القرار: يعيش الزوج مع زوجته أو يدفع نفقة ثماني عانات باليوم وتبلغ المرأة المحكمة بعد ثمانية أيام.

مقدم الطلب أم الفتاة التي ترغب بالزواج مرة أخرى لأنَّ زوجها متوفى أو أسير حرب في الهند. القرار: الاستفسار من معسكر الاحتجاز وإذا لم يوجد أثر للزوج يسمح للمرأة بالزواج.

تتهم زوجة زوجها مراراً وتكراراً. يوافق الزوج على إعطاء زوجته .قرطين بقيمة ثلاث مجيديات (عملة نقدية) وعدم ضربها مرة أخرى ويغادر الزوجان متصالحين.

وفي إحدى القضايا يأتي زوج وزوجته إلى المحكمة مع روايات بخلافات عائلية ويشير القاضي إلى اسم الطرف الثالث في شكواهم. وأخيراً يكشف الزوج أصل المشكلة قائلاً: «لا أريد أن أطلق زوجتي ولكني لا أطيق عيش والدة زوجتي في بيتنا». ينصح الحاكم «بإخراج الأم من البيت». سلم القرار وعمل بموجبه ولا يوجد رفض من الطرفين وحسمت القضية سلمياً.

إنه يبشر بحسن علاقات مستقبلية لأنَّ العوائل مستعدة لأن تفضي بمشاكلها إلى قاضٍ ليس شاباً فحسب بل إنه غريب بالنسبة لهم بالنطق والشكل والتفكير. وكانت معظم القضايا المطروحة أمام المخكمة عائلية ونادراً ما تذكر الجريمة. وتتكرر المطالبات بالتعويض من جراء الأضرار التي تصيب المحاصيل الزراعية وأشجار النخيل أو سلف يتم استرجاعها. ويتم الاعتراف أو إنكار الديون والفقر وعادة ما يقتنع الطرف الآخر بالحلف بالقرآن أمام القاضي ولكن في القضايا المهمة يجب أن يذهب الإنسان ويحلف عند مقام الخضر. ثم تقدم عرائض للصدقة وتقاعد بسبب الشيخوخة وهبات للمطلقات والعميان إعالة لزوجات أسرى الحرب.

وقيل وقد يكون صحيحاً بأن المحاكم لم تكن مزدحمة لأنَّ العرب يعدُّون عدالتنا سريعة وعاجلة وفي الوقت نفسه نهائية قد تحتمل الخطأ ولكن لا يوجد فساد. كان النظام التركي بطيئاً جداً وكان من الصعوبة الحصول على قرار منفذ ما لم تدفع لهم الأموال. يبدو أن الانطباع العام بأن الضابط البريطاني عند مقعد الحكم قد لا يكون سليمان ولكنه أقرب لإصدار الحكم الصحيح منه للخطأ؛ لأنه لا يجعلك تنتظر كثيراً ولا يكلفك شيئاً عند الالتجاء اليه. وقد تكون الميزة الأخيرة ما تخص المحاكم لأنه لا يوجد شخص مختلف فيما يتعلق بالامتياز الذي يحصل عليه مقابل الشيء الذي كان سيدفع له مبلغاً كبيراً.

كان الخطأ الذي ارتكبه الأتراك في بلاد وادي الرافدين هو محاولتهم فرض سياسة التتريك في البلد. وهذه السياسة المتعمدة التي انتهجتها لجنة الاتحاد والتقدم. فرض الأتراك اللغة الرسمية التركية بين السكان الذين يتكلمون العربية وهي لغة النبي المقدسة. وقد فرضنا اللغة الإنكليزية كذلك في محكمة البصرة وفهمت كذلك المستوى بنفسه وفرضت سياسة القمع على المسائل الدينية. ولم يعترف بشريعة الشيعة حيث فرض عليهم شريعة السنة. الآن المسائل الخاصة بالشريعة الإسلامية على خلاف فيما يتعلق الأمر بالزواج والطلاق وإثبات صحة الوصية والإدارة وغير ذلك أُحيلت إلى قاضٍ مسلم. لقد نال هذا النظام استحسان الملالي الذين يحصلون على أجور كبيرة منفصلة عن القضية فضلاً عن المتقاضي. وهكذا طوَّرنا مؤسسات البلد وفق قوانينهم الأصلية وعدلنا قوانيننا لتتلاءم مع الظروف المحلية.

قد يقوم شخص بدراسة المبدأ المجرد لبناية الإمبراطورية في مكاتب الإدارة في البصرة لكن من أجل ملموس فإنَّ نبض الماكنة الحقيقي هو في الناصرية والقرنة وقلعة صالح أو العمارة. وسواء أكان القانون مجرداً أم ملموساً فإنَّ القانون يكون غريزياً في الشخصية الوطنية وليس محسوباً. وصورة أخرى تكون في طريقتها الرمزية ففي محكمة المقاطعة قدمت امرأة مسنة ليست من الناصرية عريضة بخصوص مسألة قريبة إلى قلبها. إنه خطأ قديم ولكن بحكم جديد واعتقدت قد يكون أمراً باهتاً في تحقيق الإنصاف والعدل بعد سنتين من الاضطهاد قد تظهر ناصعة

مجردة مما يلفها من حيف وفساد. وهذا ما حصل تماماً عندما نسيت المرأة العجوز رباطة جأشها وانحنت بسرعة وهمَّت بتقبيل رأس مساعد الحاكم العسكري. من المفرح ولكرامة هذا الضابط الشاب إنه لاحظها قادمة وتلقَّى تحية على قفا رقبته.

وبدون أدنى شك سيمر جيل قبل أن تسير الماكنة سيراً حسناً وسلساً ولكن قد يقرأ المرء هذا المشهد بأنه إشارة لإعطاء ادِّعاء مريح محدد. إلا أن ذكريات في الناصرية لم تكن مفرحة. ففي الأيام الخمسة الأولى التي قضيتها هناك كانت الحرارة مهلكة في الحامية التي عانت الكثير منذ احتلال المدينة. وسجل التيرموميتر ارتفاعاً بدرجة الحرارة إلى مائة وثماني عشرة درجة في الظل بحسب قراءة الحكومة تحت السقف على الرغم من أن الهواء كان رطباً بنضوحات المستنقع الجاف وقد وصلت في أثناء مأتم جنائزي. وكان أول الأصوات التي سمعتها الإرسال الأخير من مراسم إطلاق العيارات النارية على قبر ضابط: لقد اغتسلنا في المساء إلا أن الماء كان أكثر حرارة من الهواء. وكان هناك أموات كل يوم وفي السابع والعشرين من حزيران أمضيتُ الصباح في محكمة الحاكم العسكري وكنتُ معه في المساء مرة أخرى وكان بمعنويات عالية عندما حان وقت إجازته بعد أن أمضى ثمانية عشر شهراً في البلد وكان يأمل أن ينزل في المركب نفسه معي يوم التاسع والعشرين وكان ينتظر برقية من المقر قبل إبلاغ زوجته وفي الصباح التالي توفي.

وأخذني ضابط شرطة شاب وحسن المظهر إلى زيارة الصابئة عند بساتينهم بجانب النهر. لقد أصابتني الحمى وأصابني الوهن إلى درجة أنني لم أتمكَّن من السير أكثر من مائة ياردة قبل أن أجلس ووقف الشاب منتصب القامة بما يمتلكه من قوة أحسده عليها. وبعد أن وصلت البصرة بفترة قصيرة علمتُ بأنه توفي. وانتشرت الكوليرا وكانت واحدة من الآفات التي فتكت بالمكان.

لقد مررنا بمنطقة خميسية في طريق رجوعنا وأخذنا ثمانية مرضى من هذا الموقع الصغير على متن المركب وكان معظمهم رجالاً من مدينة وست كنتس. وكان معظمهم لا يستطيع المشي للضعف الذي أصابه وقد حمله رفاقه. لقد أصابهم الوهن بسبب الحرارة والإسهال الدزنتري والأسقربوط واليرقان والأمراض الأخرى.

وعندما تنخفض مناسيب نهر الفرات فإنَّ الماء العذب لا يصل إليهم عبر القناة المألوفة ويقل ماء البئر المالح قليلاً في الصحراء. لقد أضافت معداتهم الملوثة إلى مظهرهم المهتك من جراء بياض القميص والتعرق الملحي والخوذ والحقيبة على الظهر والواقية من الشمس التي التهمت نصفها الجراد وقشرة اللب والقطن الملتصق بملابسهم وجلودهم. كان الجراد وباء آخر يفتك بالبلد سواء أكان محلياً أم ماراً بالبلد الذي سمعتُ عنه أول مرة في ذلك الوقت.

ولم تستثنِ الشمس المرضى في الليلة الثانية ورسونا مرة أخرى في القرنة وتوفي أربعة قبل الصباح.

الفصل الرابع والعشرون

الطقس الحار

في التاسع عشر من مايس، أخلى الأتراك موقع السن الواقع على الضفة اليمنى واحتلتْ خطوطهم المتروكة من حصن المكاصيص باتجاه منطقة إمام علي منصور وحصن الدُّجيلة. نشر العدو من خلال تقليص الجبهة قوات لمواجهة تقدم قوة باراتوف الذي كان على رأس قوة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل من الفرسان وأربعة آلاف مقاتل من المشاة سائرين باتجاه خانقين. ولم يكن هناك قلقٌ واضحٌ في بغداد بخصوص سلامة المدينة إلا أن القلق الذي تبدد كان بخصوص سقوط الكوت. وعزَّز استسلام الحامية في الكوت قوات العدو في خانقين عندما زُج بالفرقة الثانية التي انسحبت من السن والفرقة السادسة التي كانت في طريقها للالتحاق بجيش البيك على نهر دجلة، وكان من المتوقع وصولها مدينة شومران في منتصف مايس. قام باراتوف بشن هجماته على الأتراك وكبَّدهم خسائر جسيمة بالرغم من أنها فرق جديدة زاد عددها على ثلاثة وعشرين ألف رجل. ثم انسحب باتجاه الجبهة الإيرانية واشتبك مع العدو بمعركة استمرت ثمانية أيام في مدينة تاكي كارا باص عندئذ تقهقر إلى مدن كرند وكرمنشاه وهمدان. كان انسحاباً منظماً ومدروساً لأنَّ الأتراك عانوا الكثير على يد كوساك الذي هاجمهم بشدة وحقق باراتوف هدفه في احتواء قوة لا بأس بها كانت ستعمل ضد الجيش الروسي إلى شمال الموصل أو ضد قواتنا على نهر دجلة. وفي أثناء انسحابه أدى الدور المفيد نفسه وسحب قوات العدو من أكثر مسارح الحرب أهمية بالرغم من فقدانه بعضاً من التضحية بالمكانة السياسية. في تموز اتخذ الروس موقفاً بوجه سلطان بولاخ مانعين مزيداً من التقدم للأتراك باتجاه العاصمة ومهددين جناح أي قوة تسير نحو أصفهان.

وفي نهاية آب، تلقى باراتوف تعزيزات لقواته. وفي الوقت نفسه اندفعت قوة روسية بقيادة تشيرنوبازوف من أرمينيا وألحقت هزيمة بالأتراك في مدينة لالكان في الثالث والعشرين من آب عندما استولى على الفرقة الحادية عشرة التركية برمتها فضلاً عن فوجين من اللواء العاشر. وانسحب الأتراك الذين تعرَّضوا لتهديد من الخلف ممَّا خفَّف من الضغط الذي كان يمارس ضد باراتوف وفي أيلول وصل الروس مرة أخرى على مدى عشرين ميلاً من مدينة همدان.

عندما سقطت الكوت وانسحبت الفرقة التركية الثانية فإنَّ عديد قواتهم على نهر دجلة قد انخفض إلى ثلاث فرق هي الخامسة والأربعون والحادية والخمسون والثانية والخمسون. ولا يزيد مجمل قواتهم على ستة عشر ألف مقاتلٍ خلال الصيف كله إلا أن الحرارة المفرطة جعلت من العمليات العسكرية مستحيلة بعد أن تعرَّضت قواتنا إلى الإنهاك نتيجة الأمراض منها الحمى والدزنتري والبثور والكوليرا والأسقربوط واليرقان فضلاً عن نقص المواد الغذائية أحياناً لعدم وجود خضروات. لم يكن خطأ الحملة في تعفن البطاطا قبل وصولها البصرة أو أن النباتات المحلية لا تصلح لنظام الحمية الفقير الذي سبَّب هلاك القوات. وكان هناك نوع من العشب معروف في هذه الصحراء الخالية الذي إذا ما أضفت له الملح وسلقته جيداً يعمل عمل الخضروات ويطلق عليه المتشائمون اسم «نبوخذ نصَّر» والمتفائلون بالسبانخ إلا أنه لا يقي جنودنا الهنود من مرض الاسقربوط. وتوجد مادتان في نظام الحمية لا يستطيع الهندي التخلي عنهما أو الامتناع عنهما وهي الحليب والسكر إلا أنه ولمدة أسابيع أجبر الجندي الهندي في تلك الفترة في أثناء الطقس الحار من عام 1916 على العيش بدونهما. كان لدى الجندي البريطاني نظام حمية مؤلف من صحن من لحم البقر عندما يكون هناك جفاف أو نبات ليفي من فصيلة الخضروات يكون شهياً ومستساغاً عندما يضرب الجوع أطنابه وبالتأكيد يكون لحم البقر محرماً لدى الهندوس الذين يفضِّلون الموت روحياً وجسدياً على أكلها. ويرى المسلمون أن اللحم خارج العلبة يكون غير نظيف؛ لأنه لا يوجد دليل بأن الحيوان حلال[1] أو ذبح

(1) يذبح بضربة عند العنق.

وفقاً للطريقة الإسلامية التي أوصى بها النبي ﷺ. وكان نظام الحمية الغذائي للجندي الهندي في تلك الأيام مكوناً من الطحين (العطا) الذي ليس له مذاق بأي طعام حلو. ومن النادر تناول اللحم وبالنتيجة انتشر الأسقربوط حيث عانى خمسون بالمئة[1] من الجنود الهنود منه من وقت إلى آخر.

كان عدد قوة الفرقة بين شهري مايس وحزيران خمسة آلاف وكل أسبوع يتم إخلاء ألفين وخمسمائة مريض إلى مستشفى الشفاء في منطقة شيخ سعد. وفي غضون شهر واحد غادر خمسة عشر ألف مريض من البصرة إلى الهند بغض النظر عن آلاف المرضى الذين احتشدوا في كل مستشفى في البلد.

لم يتمكن جسد الإنسان وروحه من الصمود ومواجهة أذى أيام القيظ والرطوبة من جراء النكسات والتضحيات العقيمة بالأرواح والإيذاء الذي سببَّه الطقس على مدى أربعة أشهر والفشل في إنقاذ الكوت ولم يجد الإنسان ما يحميه من لهيب الشمس عندما تشتد وطأتها وأضحت الشمس العدو اللدود للإنسان بدون هوادة بعد أن ظهر أذاها الجسدي والعقلي على الجلد والدم واللسان والحنجرة والمعدة والحواس الخمس. وخلال دقائق قليلة أقل من خمس دقائق يكون الإنسان طريح الفراش وخلال أربع عشرة ساعة يوظف ماكنته وحقده حتى يقتنع بإصابة جميع أعضاء جسمه. وفي أحد أيام شهر مايس كما قال دوني: «كان موتاً طويلاً بدون احتضار» وخيال الإنسان مضغوط بدورتها. يوجد ثلاثون يوماً في الشهر خمس مرات في الثلاثين يوماً ينبغي أن يتكبَّد الإنسان وطأة الشمس قبل أن تتمكَّن القوات من البحث عن إنعاش معقول وهذا الوجه الثاني لحكم الحياة.

كانت درجة الحرارة في الظل تحت المظلة والقش تسجل مائة وخمساً وعشرين درجة إلا أن ذلك يعني مائة وثلاثين درجة في الخيمة. وفي مثل هذه الحرارة، لا يوجد شيء يعمله الإنسان سوى الاضطجاع واللهث وسكب الماء فوق رأسه.

---

(1) لم ألتق ضابط الكتيبة أو المسؤول الطبي الذي قدر حالات الأسقربوط بين صفوف الجنود الهنود أقل من 50 % وفي بعض الحالات تصل التقديرات إلى 80 % كحدٍّ أعلى والقليل جداً منهم يكون للواجب مرة أخرى خلال ستة أشهر من دخوله المستشفى.

وبالطبع تكون الخوذة الواقية من الشمس ضرورية تحت القماش وكانت أحياناً مادة الملابس الوحيدة التي يحتفظ بها الإنسان. وصل عدد من الكتاب إلى البلد ومعهم خيم ذات جرس الذباب المنفرد وعوِّضت تدريجياً بأنموذج انكليزي ثمانية عشر قدماً اللتين نالتا الاستحسان إلا أن محدودية النقل جعل الكثير من الوحدات تنتظر حتى نهاية الطقس الحار. أما في المعسكرات الثابتة فقد حفرت مقرات الفيالق والفرق والألوية مواضع لها بعمق ستة أقدام مع مسالك للهواء ووضع فوقها القصب للالتجاء إليها من الحر. يعمل حصير القصب في البلد على انحراف عمود أشعة الشمس مما يقلل من درجة الحرارة في الخيمة إلى درجات الحرارة الاعتيادية إلا أنه ليس من السهولة جلب القصب إلى الجبهة بسبب المواصلات. بالطبع، لا تطاق الخنادق ولا أحد يفكر أن يمشي عبر خنادق الاتصالات في درجة حرارة النهار المرتفعة. إذا مشى الإنسان خارج المواضع فإنه سيصاب بضربة الشمس. تعرَّضنا إلى ضربة الشمس عندما تقدَّمنا في العشرين من مايس لاحتلال موقع السن المهجور ولم يكن هناك بديل سوى تمضية الوقت حتى حلول الطقس البارد. بدأ الرتل بالمسير في الساعة الرابعة صباحاً ووصل حصن الدُّجيلة في الساعة العاشرة ومنطقة إمام علي منصور في الساعة الثانية بعد الظهر. واستمرت الرحلة ستة عشر ميلاً. ونفد الماء من القناني ولا يوجد ماء كاف في السيارات الحوضية.

بعد الساعة العاشرة، كان الرجال يتساقطون في كل ياردة، إنهم ببساطة يجثمون حيثما كانوا. كنت أحتفظ بصورة لطبيب وقس كانا يجلسان بجانب رجل مجنون سقطت عنه الخوذة وكان يعاني من اضطرابات جسدية ونفسية. توفي سبعة أشخاص في كتيبة واحدة بسبب ضربة الشمس ومات بعضهم في عربات النقل عندما أسعفوا وبعضهم مات في الطريق وآخرون أصابهم الإعياء عندما أخرجوا من المواضع. وعملت حرارة الشمس على إفساد لوح خشب في غضون نصف ساعة. تعرض أحد رجال الهندسة العسكرية الذي كان يضع خوذة فوق رأسه لحمايته من الشمس إلاَّ أنَّ ظلها لم يصل إلى حاجبه؛ مما أدى إلى انتفاخ جبهة رأسه وتورمت مثل فقاعة. كان الهواء حاراً إلى درجة أن جثة التركي التي ما تزال ممددة في منطقة بيت عيسى تنفجر إذا ما وضعت عود ثقاب فوقها. بعد يومين جاء مجند في الثمانين من العمر من قرية

عربية حيث أُخرجَ نصف المرضى من المستشفى وكان الآخرون مجندين جداً وصلوا مباشرة من أوطانهم. توقفوا في منطقة أبي رمانة وبدأوا مرة أخرى بالتحرك عند منتصف الليل بقافلة ولكن لم يصل أي إنسان بعربات نقل إلى منطقة الدُّجيلة في صباح اليوم التالي. سقط الرجال الواحد تلو الآخر في الظلام وتبعثروا في الصحراء. كان الحافز الوحيد لرفع المعنويات وتنشيط همة الإنسان هو سوقه باتجاه الماء. وشكَّل الذين يستطيعون المشي خط نحل باتجاه نهر دجلة. يتعرَّض الرجال الذين يعانون من العطش الشديد إلى الموت المفاجئ وهو الشر الأصغر وكانت العربات تفرغ حمولتها وتعود لهم في الصباح كوسيلة إسعاف في أرض المعركة. ويعطي هؤلاء الذين يستطيعون مساعدة أنفسهم إجازة والآخرون يريحون أنفسهم من معداتهم الشخصية ويتمسَّكون بالعربات التي تجرها الخيول أو الحمير وكان واجب السايس حمله فالحاجة لا تحتمل التأخير. تقوم العربات برحلة العودة إلى منطقة أبي رمانة في المساء إلا أن بعضها يقع بأيدي البدو ويصل واحد من خمسة سائقين سالماً مع اثنين من الجرحى حيث يقوم السايس بسقي البغال ثم غسل رأسه بسعادة غامرة ويخوض في النهر.

استمر البلد الملعون باستقبال واستهلاك وإضعاف ورفض مجند بعد آخر وسالت دماؤنا الزكية. كان لا بدّ من إطعام الرجال هناك ولم تدخر الحكومة أي جهد من أجل تعزيز القوة وتحسين الوضع الصحي لرجالنا لأنه من الخطأ الفادح في عام 1916 أن تبخل الحكومة على جيشنا وأُعيدَ النظر بالجانب الاقتصادي سواء في الأموال أو الرجال لكنه كان متأخراً. وفي مايس أدركوا بأنه من المستحيل من الجانب الإنساني تأمين نقل نهري كاف قبل حلول الطقس البارد القادم. ومع ذلك ولأسباب سياسية كان لا بدّ أن نمسك بالأرض القاحلة التي استولينا عليها من أجل إدامة خط مواصلاتنا الذي يمتد بمسافة ثلاثمائة ميلٍ من قاعدتنا. ويستطيع الإنسان أن يكتب فصولاً من الإحصاءات التي تبين الخسارة التي نتكبَّدها من جراء ذلك فكل شخص لديه دليل أولي يستطيع من خلاله مضاعفة الطلبات وتستطيع كل كتيبة أو وحدة إضافة فقرة إلى القائمة عما تتعرض له من مأساة. ويفقد الجند الجدد الذين يأتون عبر النهر نصف فعاليتهم قبل وصولهم إلى الثغرة التي لا بد أن تُسد ونجح جنود آخرون في عملهم بينما مات آخرون قبل وصولهم.

فقرة: وصل مائة وتسعة وثلاثون مجنداً من قوة مشاة هاي لاند إلى البصرة منهم ثمانية وعشرون مجنداً وصلوا إلى الجبهة والقليل منهم لم يزر جنوب كرومارني قبل إدراجهم بالقائمة والبعض الآخر لم يرَ قطاراً في حياته.

الفقرة: ذهبت ثلاثة أفواج هندية من اللواء التاسع عشر إلى الخنادق في تموز ولم يكن معهم سوى خمسة ضباط هنود.

فقرة: بطارية مدفعية مع سبعة أشخاص أي رجل لكل ستة مدافع. والقوة الاعتيادية هي ستون شخصاً وغادر مائة إلى خطوط العربات.

فقرة: تعطل جهاز المراقبة في العمارة بسبب الشمس. وأصيب جميع الطاقم بضربة الشمس.

فقرة: نُقل ضابط القيادة والملازم الأول إلى المستشفى مع ألف مريض. وسمعتُ عن عشرات الحالات التي لا أستطيع التحقق منها ولكن ربما حصلت المبالغة فيها. في حزيران وتموز كانت الفائدة متساوية أمام المقاتلين الأقوياء ولم تحدث إصابة بالمرض في الرحلة إلى أعالي النهر وكانت نسبة الإصابة بالمرض اثنين إلى واحد مقابل المجند الذي ليس له خبرة.

غادر الكثير من الضباط والرجال المستشفى إلا أنهم أصيبوا بالمرض وهم في الطريق إلى المكان المقصود. ففي بعض المراكب كان سكن الضباط في فضاء صغير على ظهر السفينة حيث كانوا يتناولون طعامهم وينامون في هذه الأماكن الضيقة وأحياناً تحت مظلة منفردة ويتعرّضون إلى وهج أشعة الشمس طوال النهار. بالطبع، لم تكن جوانب المظلات عملية لأنها تحجب الرؤية عن الجسر. وكان الهروب الوحيد هو الاستلقاء في الماء والإمساك بحبل بين السفينة والمراكب أو نجلس فوق المقعد ونلف أنفسنا في قماش رطب.

وأخذ الضباط والجنود البريطانيون والهنود دورهم لأنَّ الشمس تخترق جمجمة الهندي الصلبة وأنه أقل مقاومة لضربة الشمس من الأبيض البريطاني [1] وكانت القوات

(1) كتب لي أحد الأصدقاء من المستشفى بعد القيام برحلة إلى أعالي النهر في حزيران. أصيب

منتشرة فوق البوارج أو على ظهر السفينة خلف الجسر وهم مكتظون بشدة إلى درجة أنه لا يستطيع أحدهم التحرُّك بدون أن يدوس فوق بعضهم. كانت المراكب مكتظة دائماً عندما تتوجه إلى أعالي النهر وتعج بالمرضى عند نزولها. وأخبرني مسؤول طبي في العمارة بأنه في أسوأ الحالات كانوا يستلمون ثماني جثث في اليوم من المراكب المتوقفة في القاعدة. وكان بعض المرضى في حالة حرجة وبالرغم من كل الجهود المبذولة لزيادة الكادر الطبي في بلاد وادي الرافدين إلا أنه كان من المستحيل تأمين العدد الكافي من الأطباء والمساعدين لمواجهة تدفق المرضى أو تلبية حاجة المستشفيات والزوارق النهرية في الوقت نفسه. وعُزز الكادر تدريجياً إلا أنه أخذ وقتاً طويلاً كما أن عملية نقل المرضى والجرحى لم تكن تسير سيراً حسناً. وربما المسألة التي تثير السخرية هي إرسال دفعة من تسعين طبيباً نزلوا البصرة في الخامس عشر من مايس وفي غضون ثلاثة أشهر توفي عشرة وتمرَّض أربعون منهم ونقلوا خارج البلد. وصف أحد حَملة النقالات «الذي لم يكن يستطيع الحركة» وهو يتذكر ما جرى في منطقة الصناعيات من تراكم للنفايات قائلاً بأنهم حالما يقتربون من الرجل الجريح يصاب آخر لذلك أمضوا النهار كله بجلب الجرحى الواحد بعد الآخر. حدثت ثلاثة أشياء مهمة على نهر دجلة في أثناء الطقس الحار وهي احتلال موقع السن علىَ الضفة اليمنى ووصول سرية خيَّالة كوساك عبر منطقة علي الغربي وتدمير ثلاث بوارج للذخيرة بواسطة نيران مدفعية العدو في منطقة الفلاحية. أبرم اتفاق سياسي مهم في العاصمة بعد توجه كوساك إلى مدينة علي الغربي وظن بعض الناس في البلد بأن الجناحين الروسي والبريطاني انضما أخيراً ويقومان بتطويق الأتراك. لم تحقق المغامرة نتائج مادية إلاّ أنها كانت مهمة لإظهار الشجاعة وذات قيمة لإعطاء انطباع للحياديين من أن اسم كوساك قد تردَّد بين صفوف العرب والأتراك مما أثار بهجة جنودنا عند نهر دجلة وكان إثباتاً للجنود الهنود بأن تحالفنا على الجانب الآخر من التلال لم يكن ظلاً ولكنه كان حقيقة مادية.

مهندس السفينة وأحد الضباط الأطباء ومترجم مصري بضربة شمس وكان لا بدّ أن ننزل بمحطة متوسطة. أثرت ضربة الشمس التي أصابت المترجم به وأصيب بدوار البحر وأضاف إلى مسراتنا باستبدال خوذته بحوض تقليدي.وسقط ضابط آخر فيما بعد في الرحلة البحرية ونزف بغزارة من أنفه واستمر جنود كتيبته بمسح الدم وهو يتحرك بفراشه من أحد جوانب ظهر السفينة إلى آخر لتفادي الشمس.

غادر كوساك على رأس سرية مؤلفة من مائة وخمسة وعشرين فارساً مع عشرة حيوانات محملة بالمواد مدينة مهادشت الواقعة على بعد عشرين ميلاً غرب مدينة كرمنشاه من مساء يوم الثامن من مايس وقطعوا مسافة مائة وثمانين ميلاً باتجاه علي الغربي بمعدل أربعة وعشرين ميلاً في اليوم. وتوقفوا يومين ونصف عند والي بوشتيكو. لقد التزم هذا الزعيم بالحيادية ولكن قوات العدو كان من المحتمل أن تواجهه في أي لحظة لأنَّ البلد كان يتعرَّض لأعمال عدائية من رجال القبائل. كان مرشد القوة غير موثوق به وعندما أثار شكوكهم بعد محاولات عدة لتضليلهم كان لا بد من تهديده بالإشارة إلى طريقة لف الحبل حول عنقه. ففي إحدى المناسبات دخلت السرية قرية لمدة نصف ساعة بعد أن غادرتها القوة التي تتحكم بزمام الأمور من رجال القبائل الجبلية التي يتحكم بها الألمان.

كانت المسيرة اختباراً جيداً لمصادر حليفنا وحركته وقوة تحمله. لقد عبروا ممرات على ارتفاع أكثر من ثمانية آلاف قدم. كان المسلك جبلياً ووعراً وصعب السير فيه حتى للبغال مما أدى إلى فقدان حصانين سقطا من حافة الجبل الحادة. كانت مسيرة قوة كوساك تجري في النهار ولغرض النقل اصطحبوا معهم حيوان حمل لكل عشرة رجال حيث تحمل هذه الحيوانات الذخيرة وأواني الطبخ وخيمة صغيرة للضباط كما أن الرجال لا يحملون أي مواد أخرى بغض النظر عن الضروريات البسيطة القليلة.

اعتمدوا في معيشتهم على موارد البلد عندما نفدت حصصهم الغذائية المخصصة لثلاثة أيام. وفي حالة الطوارئ كان معهم مساعد جراح يزودهم بالمستلزمات الطبية إلاّ أنهم كانوا محظوظين لأنه لم يتمرَّض أحد منهم. ولقد قطعوا مسافة ثلاثين ميلاً حتى وصلوا مدينة علي الغربي ونفقت خمسة خيول من جراء العطش الشديد والإنهاك بعد أن قطعوا تلك المسافة الطويلة عبر الصحراء الجرداء بين التلال ونهر دجلة. لقد حل الظلام عندما وصلوا المعسكر ومع ذلك وبعد وجبة العشاء التي قدمت تكريماً لهم استمروا بالغناء والرقص طوال الليل ولم يتوقَّفوا حتى الساعة الواحدة صباحاً.

لقد أثار وصول قوة كوساك[1] البهجة وتخلصنا من السأم الذي كنا نعيشه نتيجة الطقس الحار. كانت القوة القادمة مؤلفة من خيرة الفرسان الذين قدَّموا بعض الملاحظات عن فن ركوب الخيل. ووجهت الدعوة لضباط السرية لزيارة البصرة واستضافهم القائد العسكري وكُرِّموا بالأوسمة العسكرية. غادروا مدينة علي الغربي للالتحاق مرة أخرى بقوة باراتوف يوم الرابع من حزيران. وكانت عودتهم محفوفة بالمخاطر بعد أن عرف الجميع بتواجدهم ومع ذلك تمكَّنوا من التخلص من الكمائن واجتازوا المنطقة بدون حدوث أية إصابة. وجاءت سرية خيالة أخرى مكوَّنة من مائة حصان للبحث عنهم وتعرَّضت إلى إطلاق نار منتظم عند مرورها بضواحي أراضي الوالي حيث فقدوا ستين قتيلاً وستة أسرى وبسبب نقص ذخيرة المدفعية التركية فإنهم نادراً ما كانوا يقومون بالقصف مثلما نفعل إلاَّ أنَّهم عندما يكتشفون هدفاً يستحق صرف الذخيرة عليه تكون ضرباتهم سديدة وفي اليوم العاشر من حزيران فتح العدو الذي جلب مدفعيته الثقيلة إلى موقع متقدم من منطقة الصناعيات نيرانه في الساعة السادسة صباحاً باتجاه بوارجنا التي كانت تحمل ذخيرة ومتمركزة عند انعطاف النهر في منطقة الفلاحية. كانت طائرة صغيرة توجه النيران بإسقاط قنابل دخان واستُخدم المدفع الرشاش لحماية جناحنا وربما استخدموا الإشارة اللاسلكية وكان الاستمكان جيداً على نحو مشهود به.عموماً، كانت الاستخبارات التركية تعمل بفعَّالية.

وفي هذه المسألة، كان يعتقد بأن الموقع قد تم التخلي عنه عند عملية تبادل الأسرى الذين احتجزوا على بعد مئات قليلة من الأمتار عن مخزن الذخيرة في

---

(1) لقد نام كوساك في المكان الذي يستطيع النوم فيه بدون خيمة. كان يحمل رشاشاً وسيفاً وقنينة ماء وجراباً للمؤونة يحمله الجندي على كتفيه وستين طلقة من الذخيرة ومعطفاً ثقيلاً وقماشاً مانعاً للماء وبطانية حصان ملفوفة خلف السرج وغذاء للحصان وضع في زوج من الحقائب التي تحمل خمسة عشر رطلاً من الحبوب. وقد زود مرافقه بمئتي طلقة من الذخيرة وخبزاً يكفيه يوماً واحداً وقميصاً وملابس داخلية ومشطاً لشعر الفرس وفرشاة وضعت في حقيبتي السرج ملحقة خلف الجلد المزود بحلقة لركوب الخيول. ويركب على الحصان بساق مباشرة على سرج ضيق أخف من السرج الخاص بنا. وتكون كمية الكوساك من المواد التي توضع على حصان الجندي البريطاني الذي يحمل أحياناً ثمانية عشر حجراً حجر «وحدة وزن بريطانية تساوي أربعة عشر باونداً».

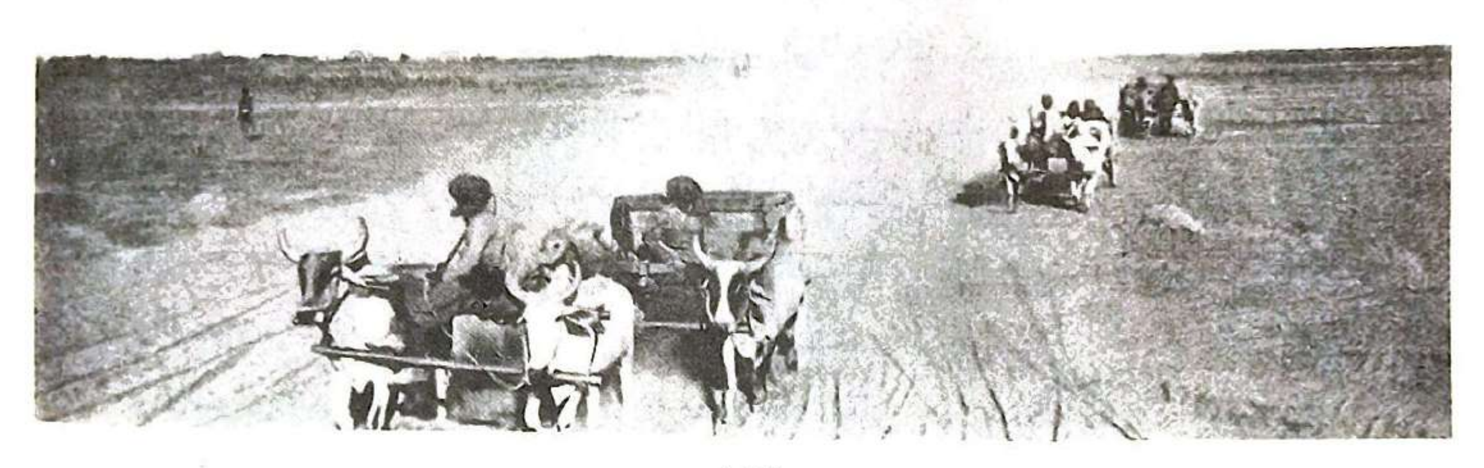
طريقهم نحو أعالي النهر. قامت بطاريات العدو الأخرى بتشتيت الانتباه عن القضية الرئيسة بقصف الخنادق ومقرّات الفيالق ومعسكرات اللواء في الوقت نفسه.وبسبب قوة التيار فقد ثُبّتت البوارج بإحكام في الأرض وفي الماء. ولم يكن من السهولة بمكان تحريرها. وبذل النقيب ماكوين عضو هيئة الأركان محاولة رائعة عندما اندفع من المقر واقتحم البارجة وطلب مساعدة سيمان كونر بارنسلي الذي جلب زورق السحب بجانب البارجة وعندما قام ماكوين بقطع الحبال وربط البارجة بزورق القطر طلب من بارنسلي سحبها إلى الأمام إلا أنه كان من المستحيل زحزحتها؛ لأنَّ المرساة كانت مثبتة بإحكام بحبال من سلسلة فولاذية مثبتة بالبارجة ولا توجد أسلاك سائبة. وصل النقيب مارتن آمر البارجة الذي كان يعمل على بعد ميل في أعالي النهر في الوقت المناسب ليرى الضربة الأولى التي أصابت البارجة الأخيرة واندلعت فيها النيران. أصيبت البوارج بأضرار ودُمر بعضها. واندفع ماكوين إلى الوادي حيث ترك حصانه وجثم تحت بطن الحيوان ونجا بأعجوبة.

كانت هناك فترة توقف قصيرة بين كل قذيفة. سقطت الطلقة الأولى في الماء على بعد ياردات قليلة من مقدمة البارجة وأغمر الطاقم الذين كانوا يغسلون الملابس على الضفة بالماء. وسقطت الثانية على بعد عشرين ياردة من الأرض. وسقطت القذيفتان الثالثة والرابعة في الخلف. وبدون أدنى شك اعتقد رامي المدفعية التركي أن البارجة ستتحرك. وسقطت القذيفتان السادسة والسابعة قريبة وأصابت الثامنة البارجة الأخيرة إصابة مباشرة واشتعلت النيران فيها. انطلقت القذيفة الشديدة الانفجار التي تزن (5، 9) أرطال على بعد سبعة آلاف ياردة. واندلعت النيران بالجزء الطافي واندلعت النيران بالبارجة وكان هناك وادٍ قريب اتخذ المشاهدون على الضفة ملجأ لهم. وفي غضون دقائق قليلة انفجرت البارجة وأضرمت النيران بالبارجتين الأخريين وتشتت السفينة والقذيفة في قطر نصف ميل. دُمرت ثمانمائة طن من الذخيرة وبعض الذخيرة انفجرت في الهواء وبعضها فوق الأرض وواحد أصابت جهاز المراقبة واخترقت ظهر السفينة وسقطت في المخازن إلاّ أنها لم تنفجر. وقذفت المرحاة (أداة رفع المرساة) بمسافة أربعمائة ياردة من البارجة واندفنت في الأرض. وطوال الليل وصباح اليوم التالي كانت القذائف تنفجر على الأرض وينتشر الحطام

المشتعل. وأخبرني ملازم أول في الفرقة الثالثة عشرة بأنه «كان عرضاً نارياً رائعاً لم أر في حياتي مثله». ووصل المشهد حتى منطقة شيخ سعد لقد دُمرت أعتدة الفرقتين الثالثة والثالثة عشرة. والتهمت النيران مستودع التجهيز إلا أن النيران أُخمدت في خطوط النقل المشتتة. وكان لا بدّ من إطلاق سراج البغال المربوطة. كانت البارجة (بوسا) والعربات تحترق الى أن تنطفئ ذاتياً. وكانت الأغطية والحصران المنتشرة على الأرض فتيلاً لإضرام النار بالذخيرة غير المنفلقة. تمكّن طاقم البارجة في صباح اليوم التالي وبجهود مضنية من ترتيب الأوضاع. كان عملاً مخيفاً في جمع القذائف غير المنفلقة من رماد نصف مشتعل إلا أن مجمل الإصابات من الطلقة الأولى إلى الطلقة الأخيرة كانت اثنين من البغال ورجلاً واحداً.

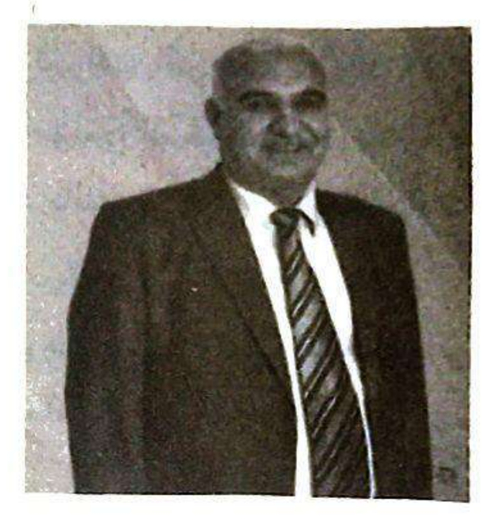
كانت هناك أهمية في الإحساس الذي سببه انفجار البوارج. لا بد أن تكون تلك الحادثة قد نُسيت بعد أسبوع ؛لأنَّ مسرح الأحداث في بلاد وادي الرافدين خلال تلك الأيام حافل بالأحداث ومنها حوادث الموت والمرض التي استحوذت على عقول القوات في أثناء الطقس الحار وكانت الرتابة قاتلة. كان قدر الجندي البريطاني صعباً عندما لم يكن لديه شيء يرجع إليه. ففي فرنسا أو اليونان حيث كان دائماً نوع من الغذاء للعقل والروح وكان من السهولة له استقبال المرح والسهر مع أغنية. قد لا يدرك الجندي العادي قيمة وجود المحال التجارية والمزارع والمحاصيل والماشية والسفن والبيوت والأزهار والأشجار والنساء والوجوه في الشارع والمقاهي والأسواق التي تنعش الفكر ولكن إجمالاً قد تخلق جواً من الكآبة غير الضرورية. في بلاد وادي الرافدين لا يوجد شيء في المنظر اليومي أو في الناس في البلد يمكن أن يثير التخيل. ولا توجد حتى شجرة أو حجر والعربي ليس الشخص الذي نفقده لأنّنا لا نراه في المعسكر. تتجسد الرتابة بالضفاف الطينية لنهر دجلة ومع ذلك فإنَّ معنويات الجندي أو كبرياءه أو حسّه للدعابة اكتشفت نوعاً من المسكّن الذي كان قادراً على البقاء.





الغبار

السيرة الذاتية لمترجم الجزء الأول



الاسم: محمد حسن علاوي

- مكان وتاريخ الولادة: بغداد 1962.
- التحصيل الدراسي: بكالوريوس لغة إنكليزية.
- العنوان الوظيفي: رئيس مترجمين أقدم.
- الحالة الاجتماعية: متزوج ولديه ستة أولاد.
- العنوان: بغداد.
- ايميل: mhassan626@hotmail.com.

النشاط الترجمي

1. ترجمة كتاب «أحداث بغداد في 12 قرناً» الى اللغة الانكليزية، نشر عام 2013.
2. ترجمة كتاب «المدرسة البغدادية في الخط العربي» إلى اللغة الانكليزية، نشر عام 2013.

3. ترجمة كتاب «المسرح العالمي» إلى اللغة العربية في مرحلة النشر.
4. ترجمة رواية «كبرت مع الأشباح» إلى اللغة العربية في مرحلة النشر.
5. إعداد كراسة عن الترجمة التحريرية ونُشرت عام 2013.
6. تدقيق كتاب «الإرهاب والتطرف والغلو» في مرحلة النشر.
7. ترجمة فورية في ثمانية مؤتمرات عالمية وهي مؤتمرا نقابة الصحفيين في 2009 و2012 ومؤتمر وزارة البيئة 2011 ومؤتمرات الترجمة الأول 2011 والثاني 2012 و2013 والثالث لدار المأمون/ مؤتمر الملكية الفكرية 2013 ومؤتمر فن العمارة الذي أقامته جامعة بغداد بالتنسيق مع دائرة العلاقات الثقافية والسفارة الفرنسية.
8. ترجمة تعاقبية للسيد وزير الثقافة السابق وعدد من المسؤولين بالإضافة إلى ترجمة تعاقبية الى مئات الصحفيين الأجانب العاملين في بغداد.
9. إلقاء محاضرات عن الترجمة التحريرية لمترجمي عدد من وزارات الدولة.
10. إعداد وإلقاء ثلاثة بحوث في مؤتمرات الترجمة الأربعة التي أقامتها وزارة الثقافة.

قائمة الألواح في الجزء الأول

1 - الجنرال طاوزند

2 - سوق العمارة

3 - مود

4 - نهر دجلة ومنطقة الحنة في ليلة الخامس من نيسان بعد سقوط الكوت: الجنرال طاوزند

5 - بعد سقوط الكوت: تاونسند العام، مع خليل باشا

6 - مركب نهر العرب في البصرة

7- الغبار

قائمة بالخرائط والخطط في الجزء الأول:

1- خريطة مطوية لبلاد وادي الرافدين الأدنى

2 - معركة شيخ سعد

3 - معركة الوادي

4 - معركة أم الحنة

5- انعطاف النهر عند الأبنية و متاريس أبي رمانة

6 - الهجوم على حصن الدُّجيلة

7 - معركة بيت عيسى

8- معركة الصناعيات

إدموند كاندلر

إحتلال العراق

مشاهدات مراسل حربي مرافق للجيش البريطاني

الجزء الثاني

ترجمة

محمد حسن علاوي

خضر علي سويد

التدقيق اللغوي

أ. د. عهود العكيلي



www.daralrafidain.com

إحتلال العراق

بقلم إدموند كاندلر

شاهد عيان رسمي أخير في بلاد وادي الرافدين

مع تسع عشرة خارطة وست عشرة صورة متدرجة اللون في مجلّدين

مُقدِّمة المترجم

يتناول هذا الكتاب «مذكرات ضابط بريطاني» المجلد الثاني لمؤلفه إدموند كاندلر سير الحملة العسكرية البريطانية بقيادة الجنرال مود في بلاد ما بين النهرين واحتلال بغداد في عام 1917. ويتضمن الكتاب واحداً وعشرين فصلاً تتحدَّث عن مراحل تقدُّم القوات البريطانية ابتداءً من مدينة الحي والصناعيات صعوداً مع مجرى نهري دجلة والفرات إلى أنْ وصلت الحملة إلى مدن هيت وخان البغدادي وحديثة غرب الرمادي في أعالي نهر الفرات، ومدن قره تبه وكفري وطوزخورماتو وجبال حمرين وكركوك وألتون كوبري في أعالي نهر دجلة.

رافق مؤلف الكتاب إدموند كاندلر القوات البريطانية في هذه الحملة وهو بمثابة شاهد عيان رسمي عليها في بلاد ما بين النهرين؛ لذلك كتب عنها بإسهاب وبتفاصيل دقيقة، واتبع أسلوباً وصفياً سردياً للأحداث، استعمل فيه الكثير من التعابير المجازية. وشهد جميع المعارك في أثناء سير تقدمها. وعانى ما كان يعاني منه الجنود من صعوبات التنقل في ظل الطقس الرديء من جرَّاء الأمطار والأوحال والفيضانات وعبور الأنهار خلال فصل الشتاء، ومن الحر الشديد والذباب والغبار في فصل الصيف.

تناول الخطط العسكرية والاستعدادات التي جرت لاحتلال المدن الرئيسة مثل الكوت والنجف وبغداد والرمادي وسامراء وتكريت وكركوك وغيرها من المدن الرئيسة، وعن كيفية إلحاق الهزيمة بالقوات العثمانية الماسكة للأرض. وعندما دخلت القوات البريطانية مدينة بغداد، وجَّه الجنرال مود رسالة إلى الشعب في المدينة جاء فيها: «إنَّ جيوشنا لم تأتِ إلى مدنكم وأراضيكم بوصفها غزاة أو أعداء ولكن جاءت بوصفها محررة»!

وتناول أيضاً أعمال النهب والتخريب التي جرت قبيل دخول القوات البريطانية إلى بغداد وانسحاب القوات العثمانية وتدهور قيمة العملة آنذاك.

تلقّى إدموند كاندلر (1874 - 1926) تعليمه في مدرسة ريبتون، وتخرَّج في كلية إيمانويل في كامبردج عام 1895. وهو صحفي وروائي وتربوي بريطاني بارز. سافر إلى الهند وبدأ العمل في إحدى المدارس في سفوح جبال الهيملايا بهدف تمويل طموحاته الأدبية عن طريق التعليم. وعمل أيضاً مراسلاً لصحيفة «الديلي ميل». كما عمل مراساً حربياً خلال الأعوام من 1914 - 1918، وبعث تقريراً عن عملية احتلال القوات البريطانية لبغداد إلى صحيفة الغارديان عام 1917.

وجدتُ من الضروري ترجمة هذا الكتاب ونقل تفاصيل المعارك التي جرت على أرض بلاد ما بين النهرين لأضَعَهُ بين يدي القارئ العراقي والعربي لأهميته وعدِّه جزءاً من تاريخ هذا البلد العريق.

وختاماً أرجو أن يكون هذا الكتاب ذا فائدة بوصفه مصدراً للباحثين ولكل من له اهتمام بتاريخ العراق من الدارسين وغيرهم.

الفصل الخامس والعشرون

التقدم

لم يكن هناك شيءٌ جديرٌ بالذكر في الأيام الأولى من التقدم بل إن ما يبعث الراحة في النفوس هو اقتحام أرض جديدة. كانت هناك بهجة في الانتقال إلى مكان آخر. يبدو أننا أمضينا أعواماً طوالاً محبوسين في قرى العورة والفلاحات وقرى عربية أخرى. يكرر ذلك كل من كانوا في هذه المخيمات بعضهم للبعض الآخر بالتحديد بحيث إنَّ الوقت جاء ليُحسَب حسابه، ليس منَ جانب الموقع بقدر ما هو على مراحل من العواطف، أو غياب العواطف ـ من جرَّاء الأشهر الطويلة من القلق والاكتئاب قبل سقوط الكوت والحلول الرتيب والقاتل للطقس الحار بعد ذلك إذ تسهم الشمس والذباب بالعنصر المادي لجحيم عقولنا، ومن ثم التخفيف من هدوئنا وراحتنا مرة أخرى، واحتمال أن تصبح شيئاً أو تعمل شيئاً ما، والتوقف ليكون جيشاً مهجوراً تماماً.

هل ستكون بغداد أم الكوت؟ لا أحد يعرف، اعتقد أغلبنا أنها ستكون الكوت على الرغم من أنَّ نهر دجلة كان واسعاً جداً، وأن الدفاعات في منطقة الصناعيات تكررت في الجزء الخلفي من الموقع، ولم يكن بمقدورنا تحويل المكان بالعبور ضد التيار فإنَّ عملية الاقتحام ستكلفنا أكثر مما تستحق العملية. وبعد ذلك، كانت قيمة الكوت الآن أكثر عاطفية من أنَّها استراتيجية، وأيّاً كان شكل السياسة أو الاستراتيجية التي اتخذناها، فإنَّ الهدف المباشر والنهائي كان هو تسليط الضوء وقتل أكبر عدد ممكن من الأتراك أو في المجاز الحالي «تجريد نفوذنا».

كنَّا ندرك خلال عملية التهيؤ قبل التقدُّم أنَّ فَيلقين من الجيش على نهر دجلة مع مجرد 18000 بندقية تركية في مقاومتهم لم تكن لِتجرد نفوذنا. كان الجو البارد

يتقدم، وكذلك فصل المطر، الذي كان قاسياً، قد يؤدي في الغالب إلى الشلل في التحرك. هناك إشارات لنفاد الصبر في الوطن وعدم الارتياح في الهند، وفي نظر الجمهور أصبحت بلاد ما بين النهرين بالوعة راكدة، وفقدت قطعاتنا معنوياتها، كنا سنضيع الوقت وإلى الأبد، ولكن هذا دليل على وجود قائد قوي وعدم الاندفاع وراء نفاد الصبر أو عدم الثقة التي تزايدت من جرَّاء البطالة الطويلة. وقد فقد العديد من الحملات من جراء الانصياع إلى روح عدم الارتياح إلا أنَّ مود اختار وقته الخاص كما لو أنَّه لم يبلغ به. إذا لم تسحب القوة (دي) نفوذها فإنه كان بسبب أنها لا تزال في مرحلة التدريب. يجري تطوير القوة. كان ينبغي علينا إنشاء القوة الباقية التي من شأنها أنْ تديرنا بعد المرحلة أو المرحلتين الأوليين من التقدم. ويكون هذا على شكل مواد أو تجهيزات؛ لأنَّ القائد العسكري قرَّر أنه ينبغي عدم إجراء أي تحرك حتى نجمع احتياطياً لسبعة أيام في مدينة السن.

في الوقت الحالي، هناك حاجة إلى منظم أكثر منه إلى استراتيجي أو تكتيكي، وكان مود يمثل الثلاثة. وفي هذا الصدد، استشهد بضابط أركان تحمل أفكاره ثقلاً في كل مكان في الجيش، وقال: إنَّ هناك ثلاثة أشياء تكون ضرورية في مواصلة الحملة. نريد رجل القتال الذي تكون عبقريته استراتيجية وتكتيكية، ونريد الرجل الذي يتفهَّم كل شيء عن عمل هيئة الأركان، إلا أن هذا قد يتم تبريره بدون العقل المنظم والاقتصاد الداخلي للجيش. لم أكن أعتقد أنني أصبت في أي وقت مضى رجلاً يجمع بين اثنتين من هذه الصفات، بالتأكيد ليست ثلاث صفات حتى التقيت بمود.

إنَّ الانطباع الأول للمرء عن قائد الجيش كان هو التواضع والراحة والثقة والقوة. فيدرك تدريجياً دقة أُفق الرجل وسعته بعد الرؤية والتطبيق الدقيق للتفاصيل. وكان يضع نصب عينيه طوال الوقت الهدف النهائي وعلى كل شيء يتعلق بالوسائل المباشرة لها، من تجهيز ونقل وعمليات واستخبارات وعوامل نفسية.

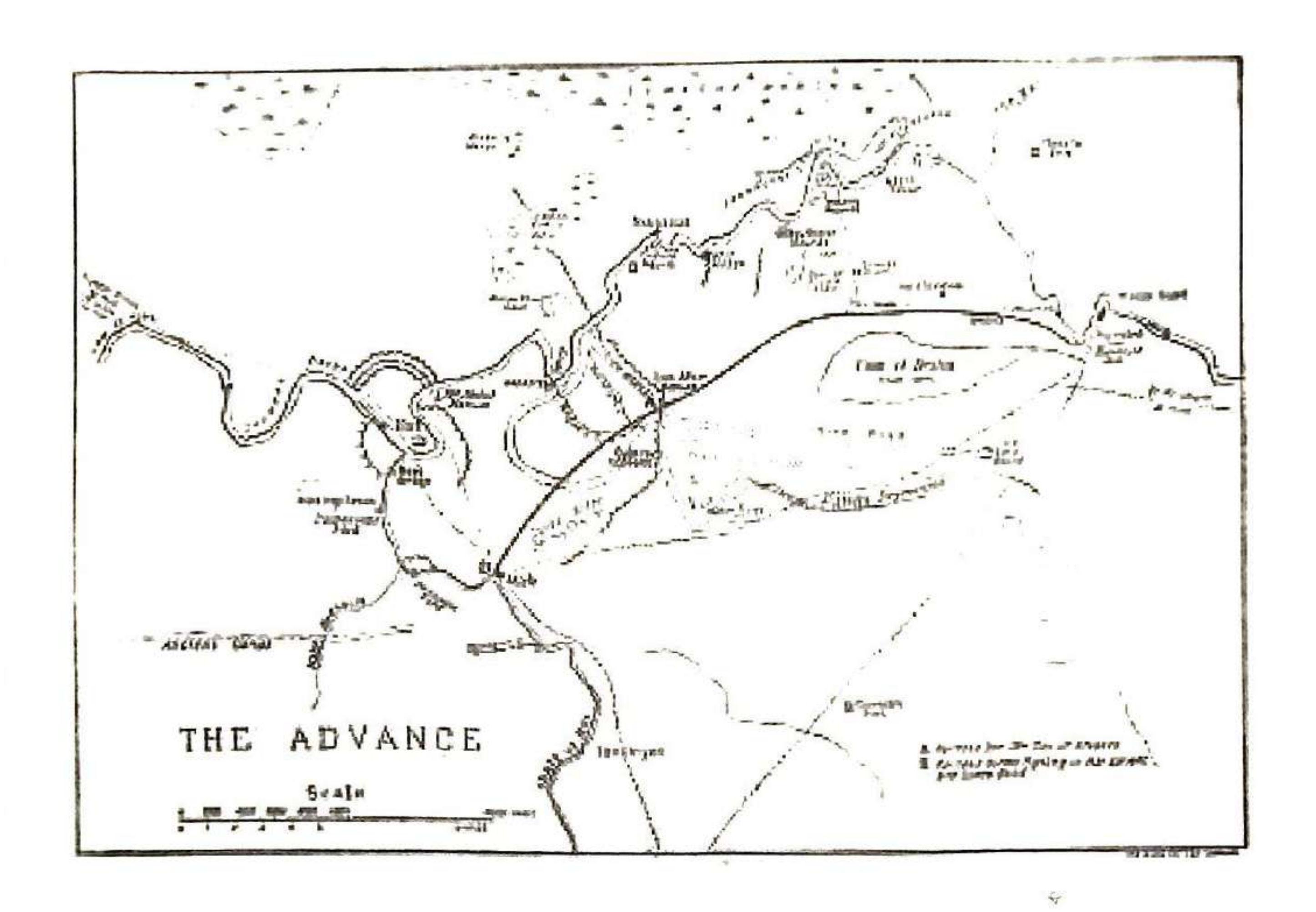
كان هو الملهم والمدبر في كل فرع من فروع عمل هيئة الأركان. إنَّ إعادة بناء آلة الحرب وكسر قوة الأتراك على نهر دجلة، يدعو إلى الصفات التي لا بد من توافرها

في قدر ممزوج مع العبقرية. وفي الأيام العصيبة، دَعَونْا إلى رجل عظيم، وكان هو في موقع المسؤولية.

ربما يكون الجنرال مود قد ولد للقيام بهذه المهمة. وكانت حياته كلها استعداداً لها. وكانت سعة الرؤية موهبة والانضباط والطريقة وسعة الأفق حصيلة التدريب التي فرضت شخصيته وسمعت أنه تمت مقارنة قوته الهادئة بالطوفان، إلا أنَّه طوفانٌ جعل منه قناة وكان يمتلك التركيز الذي هو الأساس لأول للعظْمة. ولا يمكن تحويله بسبب القضايا الجانبية. كان تفكيره الوحيد هو سحق الأتراك.

عندما احتلت قواتنا السن في العشرين من شهر أيار، بعد انسحاب الأتراك منها، كانت مواقعنا المتقدمة في مكاصيص والخميسية وإمام علي منصور على الضفة اليمنى، على بعد أحد عشر ميلاً من موقع الصناعيات على الضفة اليسرى حيث إنَّ الخطوط التركية تعترض الملاحة على النهر؛ ولذلك، ومن أجل تجهيز قطاعاتنا في منطقة السن، تم بناء خط ضيق للسكك الحديد بعرض (قدمين وست بوصات)[1] من القاعدة الأمامية في الشيخ

(1) كان هذا قد تحول إلى النظام المتري في خريف عام 1916.



خارطة تبيِّن تقدم القوات البريطانية

سعد إلى نقطة في موقع السن الواقعة بين دُجيلة والخطوط الدفاعية في السن. وتم إيصال هذا الخط فيما بعد إلى إمام علي منصور على الرغم من أنّه لم يفتح للمرور إلى أن أقمنا بشكل آمن في الحي. وتم دفعها إلى عتاب. إن إلقاء نظرة سريعة على الخارطة سيوحي إلى ما قد يتم اكتسابه في التنقل وتوفير وسائل النقل إذ كنا قد أقمنا اتصالات نهرية تصل إلى مكاصيص.

كانت محطة سكك حديد السن على بعد ثلاثة أميال ونصف فقط من النهر، بينما كانت محطة مكاصيص فورت على ضفة النهر، ومع ذلك يتم تفريغ الشحن المرسل في شيخ سعد على بعد عشرين ميلاً من السكة الحديدية. وسيؤدي هذا إلى المحافظة على آلاف الخيول والبغال والعربات وشاحنات الفورد. وضاعف ذلك من نقلنا البري في بلد حيث لا يوجد فيه رعي ولا شراء محلي للاعتماد عليه ولا وقود، وحيث إنَّ كل شيء حتى الماء للحصون على خط الاتصالات ينبغي حملها من منطقة الشيخ سعد. ولهذا فإنَّ خطاً واحداً مؤقتاً لا يكفي لإطعام القطعات في السن، وهو أقل بكثير من تسليم تجهيزات الأيام السبعة التي ينبغي أنْ تكدَّس هناك قبل أنْ يتمكن الجيش من التقدم بأي قدر من التيقن من إطعامهم.

ومن الأشهر الصعبة كانت بين شهر كانون الأول 1915 وشهر كانون الأول 1916. كان الصعود والهبوط لقوة بلاد ما بين النهرين يعتمد إلى حد كبير جداً على تنظيم النقل، وقد يكون كذلك قبل الدخول إلى سرد عملية التقدم لإعطاء بعض الاعتبار للتحضيرات التي أصبحت شيئاً ممكناً عندما غادرت قوة الإغاثة منطقة علي الغربي، كان من الناحية العملية هو نفسه كما كان في شهر حزيران 1915 عندما تم التقدم الأول إلى نهر دجلة من القرنة. ومع ذلك، ففي شهر كانون الأول 1915 تمت مضاعفة القوة بضربة دبوس قبل التقدم من السن.وقد تمت تقريباً مضاعفة القوة / دي / مرة أخرى، إلا أنَّ هذا الضرب على الورق ليس من السهل ترجمته إلى حقيقة. إنَّهُ شيء واحد لاستقدام جيش، والشيء الآخر هو لتحريكه وإطعامه وتجهيزه. وقبل كل شيء يمكن عمله، فإنَّه من الضروري إنشاء نقل نهري في حالة الطوارئ الناجمة عن الاستثمار في الكوت، وتم تجميع كل أنواع المراكب النهرية في الهند وبورما ومصر وفي أماكن أُخرى، وأرسلت بالسحب أو بقوة السفن التجارية إلى البصرة.

وقد غرق العديد منها في الطريق. ومن بين شحنة من إحدى وعشرين سفينة ذات مقود معظمها من أراوادي وبراهمابوترا، وصلت أربع منها فقط إلى الميناء-لم يكن بعض من هذه السفن التي قامت بالرحلة بأمان مناسبة للنهر. وفي هذه الأثناء، تم بناء الشحن الذي صُمِّم بشكل خاص للملاحة في نهر دجلة في الداخل وقد ارتكبت بعض الأخطاء، ومن الصعب إيجاد سفينة يمكن تكييفها للملاحة في نهر دجلة. كان هناك فيضان منذ نهاية شهر آذار إلى بداية شهر تموز. وكان ينبغي على السفينة التجارية أنْ تتقدم ضد التيار لخمس عقد ثم إنَّ القناة كانت في أواخر تموز والخريف بعمق خمس أقدام فقط وإن سحب أي شيء أقل من أربع أقدام وستة أنجات غير جيد وكانت القناة في حالة تغير متواصل، كما أنَّ الانعطافات الحادة والانحرافات تعقد الملاحة، وكقاعدة كان يتم تعطيل العمل في السفن في الليل.كانت أنواع مختلفة من المراكب مفيدة للخدمة في مختلف الفصول وفي أجزاء مختلفة من النهر. وكانت القوارب المربَّعة أو المقوّسَة معرَّضة للخطر في المضايق؛ لكونها مراكب بطول 175 قدماً، تقيم جسراً فوق القناة. وأصبحت السفن القصيرة التي يمكن أن تتقدم ببطء إلى الضفة وتنزلق وتدور في الانحناءات الحادة الأنماط تعمل هنا. وكان لكل سفينة تجارية مركبان يسيران معها جنباً إلى جنب وكانت هذه المراكب ضرورية حتى وإن لم تكن تحمل بضائع أو قطعات لحماية عجلات التجديف، التي ستجرد من العوامات بطريقة أُخرى من جرّاء الاصطدام بالضفاف. وبالنسبة للرحلة فإن النوع الأول من السفن التجارية ذات المجاديف التي صُمِّمت من قبل شركة السيد لينج، التي تحمل بضاعة زنة أربعمئة طن وغاطس يبلغ أربعة أقدام، من غير المحتمل تطويرها. وقد تم تقديم تعديلات لهذا، تم تضمينها الصنف بي-50- ثم بناء هذه السفن في غلاسيكو وخرجت بقوة بخارها الخاص ومن ثم كانت هناك الحبال والمراكب. وتم إرسال أسطول كامل منها وتجميعها سوية في عبادان في شط العرب. وبمرور الوقت وصلت بغداد وكانت لدينا حوالي ستمئة سفينة نقل وسفينة بخارية وحبال ومراكب في النهر. لم يتم تقديم أي تضحية اقتصادية، وتكلف السفينة الواحدة من صنف بي50- نحو 75000 ألف باوند استرليني.

أوضحت في فصل سابق كيف كان مجال نهر دجلة كخط للمواصلات محدوداً

لعدد من السفن التي يمكنها أن تتنقل في وقت واحد إلى أعلى مجرى النهر وأسفله خلال المضايق. وكان هذا الامتداد الذي يبلغ أحد عشر ميلاً بين ضريح العزير والعمارة على عمق خمسة أقدام فقط لدى انخفاض مستوى المياه، وكان لا بد من تمويل السفن المتجهة إلى الأعلى. إلا أن الازدحام هنا قد أزيل بواسطة السكك الحديد[1] ونهايتها في القرنة. حيث يمكن دفع الشحن من القرنة والعمارة ويحمل مرة أخرى في السفن التجارية والمراكب إلى البحر. كانت العارضة في مدخل القناة القديمة لنهر الفرات مجروفة، ويمكن ربط السفن القادمة من بومباي ذات غاطس 14 قدماً في شجرة معرفة الخير والشر. وفي الوقت نفسه تمت مضاعفة سعة الإرسال إلى المضايق. وتم تنصيب إضاءة كهربائية ونظام جديد للسيطرة بواسطة التلفون بين ضريح العزير وقناة المجر. ولذلك كان بإمكان السفن العمل إلى أعلى مجرى النهر ليلاً، وكان بالإمكان مرور ست عشرة إلى عشرين سفينة إلى الأعلى وإلى الأسفل في غضون أربع وعشرين ساعة. وكان في البصرة أنموذجٌ يشبه لعبة حربية يكشف موقع كل سفينة في النهر مع علمها الخاص، وهو المسيطر على الملاحة في نهاية السكك مع هذه الخارطة الإيضاحية أمامه تنظم حركة الأسطول. وكانت العين متلهّفة لمشاهدة مراكب الوقود والفحم وعليها الأعلام الحمراء والصفراء؛ لأنها كانت جوهر كل شيء. فإذا فشلوا فإنَّ الأسطول برمَّته سيفشل. وإنه على الرغم من كل البنود لم يشعر المرء بتاتاً أنَّه متأكدٌ من المضايق، وأنَّ إخفاق مركب أو قارب كبير في مكان رديء يمكن أنْ يعرقل حركة النقل النهري لأيام عدّة.

كان فصل انخفاض منسوب المياه وقتاً مثيراً للقلق، وقد يعجب المرء بالإبداع الذي من جرّائه يتمكن النقل النهري المائي الداخلي من الحصول على أعلى حمولة من بين جميع المراكب النهرية. وبحدود منتصف شهر حزيران كان القطر البحري للغاطس أكثر من خمسة أقدام يتراجع إلى الجنوب من ضريح العزير. وينشط المجدفون في التيار الأعمق بين العمارة والكوت، بينما تكون سفن التيار الضحل بين الكوت وبغداد أو أعلى من بغداد أو في المضايق، بينما تقوم القوارب صنف بي

(1) تحول هذا الخط إلى المقياس المتري في خريف عام 1916.

/ 50 / وزوارق إخوة لينج بالرحلة طوال العام. وكان الرقم القياسي لتكاليف نقل الطن / الميل الواحد قد بلغ ستة ملايين وربع باوند. وأتوقّع هنا، أنَّ مجمل قضية النقل النهري مرتبطة بالتقدم، وكان من الأفضل التعامل معه نهائياً وعلى نحو حاسم عند نقطة في روايتنا حيث إنَّ استخداماته كانت أكثر وضوحاً. ولأنه بدون ال/ أي دبليو تي/ لم يكن بمقدورنا الوصول إلى بغداد.

ويجب أن يتم فهم كيفية ربط طرق التجهيز بشكل طبيعي مع تطور البصرة أيضاً. وبالنسبة للمتطلبات، فإن ال/ أي دبليو.تي / لم تكن لتقتنع حتى يتم تحويل مدخل النهر، جوهرياً بالإضافة إلى الاسم، إلى ميناء. وبحلول شهر تموز 1916، وصل ثلثا الاستيرادات العسكرية إلى شط العرب من متوسط الحمولة التي رست في كراتشي ورانغون، وكان هذا من دون وسائل صعود أو موظفي ميناء متدربين وهي ضرورية للعمل التقني من هذا النوع. وبالنسبة للأيام الأولى فإننا لا ننظر إلى الأمام، لكننا نتقدم من يوم إلى آخر، غير متأكدين من المدى الذي تحملنا فيه سياستنا. وكانت بلاد ما بين النهرين مجرد عرض جانبي، ولم يكن هنالك أحدٌ معين بشكل مباشر على استعداد لصرف ستة آلاف باوند على رصيف أو لاستيراد 10.000 آلاف رجل لهيئة العمل من أجل أعمال البناء فقط. وكانت الأحواض الجافة والجرافات وورش عمل التصليح هي أشياء رفاهية مرتفعة التكاليف ولم تتم مناقشتها في الميزانية. لم تكن هنالك أرصفة أو بواخر تذهب إلى المحيط ولا قوارب كانت قد ربطت في وسط المجرى لمدة أسابيع، وهي تكلف 250 باونداً غرامة عن كل يوم تأخير، وتم تفريغها من قبل شركة «ماهيلاس» والتي يمكن أن تدخل إلى الشاطئ عند المد الكامل. وعندما كانت الحاجات الأساسية للإمبراطورية تطلب بإلحاح الحمولة، كان هناك أسطول عظيم من السفن التجارية راسياً بدون عمل في المرسى في شط العرب. ويمكن رؤية بحدود أربعين سفينة تنتظر التفريغ ممتدة باستقامة بطول ثمانية أميال طولاً إلى أعلى مجرى النهر وأسفله. وفي شهر تموز 1916، كان متوسط الفترة الزمنية التي تقضيها السفينة التي جلبت تجهيزات في الميناء نحو تسعة وثلاثين يوماً. ومع ذلك كان من الواضح أنَّ الأموال التي تدخل ميناء البصرة لم تكن مجرد نفقات حرب، إلا أنها كانت استثماراً دائماً. إن ازدحام جبهة النهر مع استصلاح الأراضي

تضمَّن بناء أرصفة الميناء وإنزال القوارب وقواعد لهبوط الطوافات وإخلاء السفن الذاهبة إلى المحيط وتحميل الطوافات النهرية من عمالة غير مناسبة وغير مدربة، ومؤسسة هيئة الحمالين، كل هذا يدعو إلى توفير ماكنة متطورة مطلوبة في النقل النهري. وفي النهاية، تم دفع الثمن من غير تذمر، وتم إيجاد الماكنة، وإن الوكلاء المؤهلين هم من وفرها. إلا أنه كان عملاً تجارياً بطيئاً، وكان الرجل الاعتيادي يضرب سيقانه بأعقابه واحدة بالأخرى، ويلاحظ العيوب ويحلف بامتهان عندما يمكنه من وضع إصبعه على المكان، حيث لا يمكن للكون أن يخرج من الفوضى بالسهولة التلقائية نفسها كما في الفصل الأول من سفر التكوين.

وهكذا عندما تقدَّمنا في شهر كانون الأول، كانت القوة من الناحية الطبيعية سالمة وكاملة، وقد تم اتخاذ التدابير الاحتياطية لمواصلة تغذيتها وتجهيزها ولم يتم نسيان أية حاجة مادية، وإن أولئك الذين تحدَّثوا عن معنوياتها المنكسرة، عليهم أنْ يسحبوا كلامهم ويعتذروا. كان لدينا في هجومنا الجديد فيلقان عسكريان وأربع فرق متكاملة لزجِّها في الميدان جميعاً مرة واحدة، إذا كانت هناك مناسبة، في عمل جماعي منسَّق وليس بالتفصيل مثلما تقدَّمنا لإسعاف «طاوزند» فرقة تلو الأخرى إلى أعلى مجرى النهر على شكل مراحل لتعويض الخسارة؛ لأنَّه تم تدمير القوات في خط النار تدريجياً. حتى إن الحماقات والعجز وسوء حظ تلك الأيام الأولى ساعدتنا؛ لأنَّ التركي قد تشبَّع بمثل هكذا ازدراء لأسلحتنا بحيث إنه ترك في الغالب 18.000 ألف بندقية لمواجهة البريطانيين على نهر دجلة ولحماية عاصمة إمبراطوريته الشرقية. وقد تشتَّت ما تبقَّى من جيشه أيضاً بالنسبة لأية تعزيزات كبيرة قد تستدعى مع مرور الوقت في حالة الهزيمة. وفي الرابع من كانون الثاني 1917، وبعد مرور ثلاثة أسابيع من التقدم وقبل أن نوقع أية خسائر كبيرة بالأتراك، كانت قوتهم الإجمالية على جبهة نهر دجلة تقدر بثلاثين كتيبة أو 20.500 بندقية.

وبالنسبة لنا، كانت قواتنا كاملة وقد فهمنا بأننا لن نتلقَّى تعزيزات وأنَّه ينبغي أنْ ننجز هجومنا بالقوات التي كانت لدينا في البلد. أمسكت الفرقة السابعة خلال فصل الصيف بموقع «الصناعية» على الضفة اليسرى بينما أمسكت الفرقتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة بالضفة اليمنى وأقامت حامية لها في مواقع الفلاحات ومنطقة الوديان

والقناتين التوأم والسن وخط التحصينات على طول السكك الحديدية من شيخ سعد إلى السن. وقد وضعت الفرقة الثالثة عشرة تحت التدريب في بعض الأشهر الشاقة في العمارة. وفي الأسبوع الأول من شهر كانون الأول كانوا في مسيرة إلى الجبهة، وقد علمنا أنَّ الساعة المتوقعة التي انتظرناها طويلاً قد حانت. إلا أنَّه يبدو أن العناصر كانت تكتم حقدها لنا منذ هجومنا الأخير. وفي السادس من شهر كانون الأول سقطت أول قطرة مطر منذ استلام الكوت، وفي الثامن من الشهر ذاته كان هطول المطر طوال النهار، وأجرينا مسحاً على قوافلنا من السكة الحديد في القناتين التوأم المحاصرة في الطين وسيارات الإسعاف وراقبنا حركة الجرارات المجنزرة البطيئة وهي تتأرجح في الطين بأسلحتها الثقيلة. إلا أن ذلك كان مجرد تهديد. ففي صباح اليوم التالي كانت السماء صافية وجففت الرياح الطين. وقدم لنا يوم المطر خدمة في إخماد التراب الذي كان يغطي الخيول والأقدام والعجلات عند المسير.

افتتح الهجوم في الليلة الثالثة عشرة من كانون الأول في موكب مذهل في شط الحي من فرقة الخيَّالة والفيلق الثالث (الفرقتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة).

كانت مدفعيتنا فعّالة جداً، وأجبر القصف الشديد العدو على البقاء في خنادقهم وسحب تعزيزاته لمواجهة الهجوم. وفي أثناء التقدم إلى الحي التحقت أنا باللواء الأربعين، وبقيت معه لمدة ثلاثة أشهر ودخلت المستشفى مرة واحدة أو مرتين وحصلت على بعض الإيجازات في فترات عندما تركوا في الخلف بالاحتياط. كانت لدى اللواء القدرة على القتال، وإن المرء ما كان بالقوة الفضلى إذا أراد أن يرى كيف ينبغي قيادة القوة الجديدة وكيفية دخولها الهجوم. ولم يفشل في هجوم على موقع واحد خلال التقدم بشكل كامل.

لم تكن ليلة المسيرة إلى الحي من الحوادث المثيرة في الحملة، على الرغم من أنَّ نجاحها كان يعني الكثير بالنسبة لنا. وكنت مرة أخرى جزءاً من موجة الرجال الطويلة والبطيئة والناعسة والمتناغمة تزحف على الأرض مثل الطوفان الأسود الذي وجد ثغرة في حاجز. لم نتوجه إلى أي من المخافر الأمامية في الظلام، ولكني تذكرت الدُّجيلة وتساءلت ما الذي سيحمله لنا الصباح. كانت مسيرة الليل عبر بلد

مستو تماماً وبدون معالم قد تمت بسهولة وبدون أية عقبات. وصلت قوات المشاة والخيالة إلى أهدافها في الوقت المحدد. وعبرت قوات الخيَّالة من البصروجية، بينما عبر الفيلق الثالث من ثلاثة معابر بمسافة أبعد في أعلى مجرى النهر في حي عتَّاب. وكانت قوات حرس الحدود القادمة من ساوث ويلز أول من عبر ضمن طابورنا، وتلتها قوات جيشايرز. وبنى رواد ويلز خلال ساعة واحدة طريقاً منحدراً، ونُصِبَ جسران عائمان على النهر، وتلاشت مخافر العدو بشكل غامض في الصحراء المفتوحة. وكان الحي، الذي هو نهر فرعي وليس رافداً من نهر دجلة، نهراً مخفياً محاطاً بالشجيرات. لم يكن هناك شيء في المنظر الطبيعي ليكشف المجرى الملتوي. كان النهر راكداً تقريباً في شهر كانون الأول، وكانت هناك أماكن يابسة. كانت المعابر عديدة لكنها غادرة. وقد ابتلعت الرمال المتحركة عربة نقل أو عربتين، وقد كدت أن أفقد حصاني عندما أخذه الجندي الذي معي إلى النهر لسقايته في صباح اليوم التالي. كان المجرى على عمق ستة إنجات فقط لدى عبورنا ولكن قبل أنْ ننقل مخيمنا إلى مسافة أميال عدة كان النهر يجري بمستوى الضفاف، إذ كان الفيضان كالدّوامة.

وبعد العبور، انتقل سلاح الفرسان في الضفة الغربية من منطقة الحي التي كانت خالية من العدو إلى موقع كالة حجي فيحان الذي يبعد نحو ميلين من نهر دجلة. واحتفظ الأتراك بهذا الموقع إلى أن وصل الفرسان على بعد مئتي ياردة، ولكنهم طردوا من خنادقهم- وهكذا تمت حماية اللواء الثامن والثلاثين في الضفة الشرقية من النيران التي كانت تطلق من على طول الخنادق، وقاموا بالتقدم وتعزيز الأراضي التي حصلوا عليها. بعد ذلك، اندفع الجزء الرئيس من سلاح الفرسان إلى جسر شمران على نهر الفرات الذي يبعد ستة أميال إلى الأعلى من مجرى النهر من الكوت – ووصلت المفرزة المتقدمة إلى أقل من 300 ياردة من الجسر- كنا نراقبهم وهم يعودون في جنح الظلام مقابل أرضية ملتهبة. حيث إن الأتراك أضرموا النار في شريط طويل من الأدغال؛ مما يجعل من الممكن رؤية خيولنا من المخيم التركي وهي تتقدم نحو الحي – وهي وسيلة ذكية للرؤية في أثناء الليل.

وفي الوقت ذاته، كانت طائراتنا فعَّالة، ففي ليلة الرابع عشر من شهر كانون الأول

حلَّق أحد طيارينا فوق مدينة الكوت على ضوء القمر وألقى القنابل على زورق حربي تركي كان يسحب جسراً عائماً في أعلى مجرى النهر من منطقة شمران وقام بقصف المركب من على ارتفاع 100 قدم مما تسبب في جنوحه وخلع عملية السحب. وعاد إلى المطار للتزود بمزيد من القنابل وقذفها على الضفة. وكرر تلك العملية للمرة الثالثة، أبقته الرحلات الثلاث في الجو منذ منتصف الليل إلى الساعة 6 صباحاً. وقد تبعثرت العوامات وتباعدت نتيجة لذلك، وخلال اليوم التالي لم يكن بمقدور الأتراك نقل قواتهم عبر النهر إلا بواسطة العبَّارة.

وفي الخامس عشر من شهر كانون الأول، اندفع اللواءان الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون إلى نحو ستمئة ياردة من موقع العدو على رأس جسر الحي، وحفروا الخنادق هناك. ثم ربطوا دفاعاتنا القديمة في الخطوط الأمامية من الموقع الجديد - وكان من الضروري الآن نشر المخافر غربي مدينة الحي - ويعدُّ هذا وقاية من عمليات القنص، ولمنع العدو من جلب مدافعه إلى مكان قريب، كما تساعد في أن تكون محوراً لشن هجمات أخرى، ومن هذا المكان كانت مسيرتنا العسكرية على الضفة الشرقية من النهر في السادس عشر من الشهر ذاته. وتم توجيه كل المدافع الموجودة نحو الأتراك في خنادقهم مقابل الكوت وتحطيم أسلاكهم الشائكة كما لو أننا نستعد للقيام بهجوم. وفي هذه الأثناء اندفع اللواءان الخامس والثلاثون والأربعون إلى نحو ميلين غرب الحي. واختار العرب ذلك اليوم للقيام بتظاهرة. وجاء موكب طويل لهم يشق طريقه من مدينة الحي باتجاه منطقة شمران تمتد عبر الأفق البعيد. قمنا بتوجيه مدافعنا نحوهم إلا أنهم كانوا خارج المدى.



FLOODS

الفيضانات

ومر أحد الأشخاص، بعيداً من بيسوية حيث كنا نقوم بالمراقبة قريباً من المخافر الأمامية المخفية لحرس حدود «ساوث ويلز» الذي نشر خمسين عنصراً من عناصره على بعد تسعمئة ياردة مع بنادقهم نوع لويس. ودخل أحد الرجال من كبار السن وهو يحمل راية حمراء مع حمالة للسيوف إلى منطقة القتل سالماً ولم يصب بأذى. وكان هؤلاء البدو مفيدين بالنسبة للأتراك في احتواء قواتنا، ولا يمكننا أن نتجاهلهم. وفي مثل هذا اليوم بشكل خاص سيشكلون هدفاً رائعاً لأسلحتنا. ولسوء الحظ لم يكن بإمكاننا تحرير بطارية مدفعية واحدة من جراء القصف من الخنادق التركية على الحي. وكشفت لنا الأيام الأولى من التقدم الثبات بحزم في موقعنا خارج مدينة الحي على بعد سبعة أميال خلف أبعد مخفر لنا في منطقة إمام علي منصور، وبالمصادفة حرم هذا الانقلاب الأتراك من المؤونة من مدينة الحي، ومنحنا السيطرة على الممر المائي الوحيد بين نهري دجلة والفرات والذي يمكن من خلاله التقدم إلى الناصرية. إلا أن هذه كانت قضية جانبية. إذ كان هدفنا الأول هو احتلال منطقة خلف شط الحي. وحالما نثبت وجودنا هنا، سنكون بموقف يمكّننا من التعامل مع المفارز التركية على الضفة اليمنى عند عقدة محمد عبد الحسن وفي رأس جسر الحي، والعمل ضد المواصلات التركية على النهر إلى أعلى مجرى النهر في الكوت، وحصلنا على هدفنا من غير عناء بعد أن تكبدنا 500 إصابة. وفي العشرين من شهر كانون الأول أجرى اللواء أربعون وسلاح الفرسان استطلاعاً لمناطق أعلى مجرى النهر على أمل أن يكونوا قادرين على تحقيق عبور مفاجئ إلى المنحنى بالقرب من معامل الطابوق التي تبعد أربعة أميال إلى الغرب من شمران.

أُنشئ جسر للقطار بشكل سريع، وكان على سلاح الفرسان أن يستولي على معامل الطابوق والجانبين من شبه الجزيرة بينما يعبر المشاة في عوامات إلى الأعلى. كانت هذه الحركة تجريبية تماماً فإذا تمت مباغتة الأتراك فإنه ينبغي تحقيقها، وإذا كانوا متهيئين فسيتم تأجيلها. كانت الأوامر أنه مهما كان السبب ينبغي على القوات عدم المخاطرة في التعرض إلى خسائر من جراء محاولة العبور العسيرة. ومنذ البداية قدمت المغامرة أملاً ضعيفاً. وجرت المحاولة في وضح النهار، وكان القناصون يمسكون بالضفة المقابلة لنقطة العبور، كما أن مدفعيتنا فشلت في إخماد النيران.

وتم تعطيل طاقم أول زورق اندفع للعبور مباشرة، وقُتِلَ شخصان وأُصِيبَ ثلاثة آخرون بجروح من قوات حدود ساوث ويلز لدى مغادرتهم الضفة. كانت المقاومة على الأجنحة أو عنق الزجاجة أكثر خطورة. وتم مسك معامل الطابوق من قبل قوة من العدو تقدر بحوالي 150 بندقية بإسناد مدفعين من الضفة الأخرى؛ ولأنَّ عنصر المباغتة قد انتهى لم تتم محاولة العبور.

ربما كان هطول الأمطار بغزارة خلال الأيام القليلة التالية أيضاً سبباً في عدم تحقيق العبور، كان الأتـراك سيضعوننا في موقع ضعيف. أصبح البلد بأجمعه كمستنقع وبذلك لا يمكننا مواصلة اتصالاتنا من نهاية السكة الحديد. وتصل القطارات الآن فقط إلى الأمام، إذ لم يتم إيصال خط السكك الحديد إلى عتَّاب.

كنا نواجه صعوبة كبيرة جداً في إيصال المواد الغذائية إلى قواتنا في الحي، ولغرض تخفيف الازدحام ينبغي إعادة سلاح الفرسان إلى قرية عربية. إلا أن كل هذا كان جزءاً من العمل اليومي في بلاد ما بين النهرين حيث قد يكون الجيش قد أصيب بالشلل في موسم ممطر من جرَّاء الأوحال، في الربيع لانغمار الأراضي بالمياه، وفي الصيف من جرَّاء الحرارة، وفي بداية الخريف بسبب المرض والإنهاك نتيجة الحرارة. وربما باستثناء شهري تشرين الأول وتشرين الثاني لم يكن هناك شهر قد يتحرك فيه الشخص متأكداً من استمرار العمليات فيه بدون عقبات.

أعاق الطين العربات وحيوانات الحمل للأيام العشرة التالية، ولم يكن الطريق آمناً بالنسبة للجمال للبدء في رحلة نهارية خشية أن تصاب بالوهن وتموت، ويغرق الطريق بالوحل وتتوقف العجلات عن المسير. كان يتوجَّب على سرية المشاة لعبور الخط أن تستمر بسرعة مع الطين الممزوج بالزيت الذي علق بأحذيتهم الطويلة. كانت العربات تحمل أقل من حمولتها، وكذلك القطارات عندما كانت تسير، وبعد ذلك، كانت بنصف حمولتها، وتستغرق ضعف الوقت بين المحطات، وتقوم الحيوانات برحلات أقل، وكذلك الجمال والشاحنات ووكلاء التجهيز الذين أصيبوا جميعاً بالشلل على حد سواء، وتعطلت السكة الحديد لمدة 36 ساعة. ومع ذلك ازداد النقل، الذي فرض ضريبة بحدودها القصوى لمواجهة الطلبات الجديدة

– وبتخفيف الحمولات وتسيير القوافل، واستدعي نوع من قابلية الحركة في ظروف تعاونت فيها العناصر لعرقلة الحركة برمتها. كان هناك شخص واحد مخول ولديه حاسة سمع قوية يجلس بجانب تلفونات سلكية ويحتال على سرايا التموين والنقل في اللواء وتجهيزات الفرق وأمتعتها بحيث ساهمت كل وحدة عسكرية بحصتها من الحركة لإيصال التموين – وتم دحض استخدام الحس العام للفرد لضرورات الساعة. وخلال الأسبوعين التاليين، وبسبب الطين والمطر، لم تحملنا العمليات إلى أبعد من ذلك. إلا أنه تم بناء الطرق والجسور ومد خط السكك الحديد إلى عتَّاب في الحي. أنهكت الغارات الجوية وعمليات الاستطلاع المتواصلة خطوط مواصلات العدو على الضفة اليمنى من النهر وإلى منطقة البغيلة. وعلى الضفة اليسرى، جرت محاولة لتحريك فرقة الخيالة إلى الشمال من هور السويجة للعمل ضد مواصلات العدو، إلا أن ذلك فشل أيضاً بسبب الفيضان. ومع ذلك، وعلى الرغم من انقطاع الطرق المؤقت، كان الجميع يتمتع بمعنويات جيدة بحيث كنا نقوم بشيء بسيط بعد توقف طويل في الصيف والخريف. وكان مجرد تغيير المشهد يبعث إلى الراحة. كنا قادرين على مراقبة الكوت الآن من الغرب ومراقبة الناس وهم يحدقون إلينا من السطوح. كان للمدينة التي يمكن رؤيتها من معسكرنا عبر الحي، مظهرٌ مجسمٌ ومحكمٌ يشبه منحدراً صخرياً في البحر. وتشبه الدور البيضاء مقابل الخلفية الداكنة لأشجار النخيل الجرف الطباشيري، وتكمل المنارة الشاهقة التي تقف مثل الفنار ذلك الوهم. كان بإمكاننا تحويل المكان كومةً من الطين والطابوق في أي يوم نرغب فيه. وفي نهاية الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني، كان الموقف في الصناعيات، حيث كنا نواجه الأتراك على الضفة اليسرى من النهر على ما هو عليه بدون تغيير. وبالنسبة إلى باقي المناطق، كانت الترتيبات أننا نمسك بالضفة اليمنى بينما يمسك الأتراك بالضفة اليسرى – مع استثناءين هما موقعا محمد عبد الحسن والتحصينات في الحي. وطالما كان العدو يسيطر على هذه المواقع التي تشكل تهديداً للقيام بهجوم مضاد ضد قطعاتنا، وإن أي حركة إلى الأمام على جانبنا كانت مستحيلة، وبالنسبة للأسابيع الستة التالية، تشبَّث العدو بموطئ قدم على الضفة اليمنى أكثر إصراراً وتصميماً. ولكن العناد الذي يواصل التمسك به أثبت سبب خرابه. ومكّننا

ذلك من تفوُّقنا المدفعي الكبير شيئاً فشيئاً لاستنزاف قوته، وبمرور الوقت لطرده من الضفة اليمنى وأصبح ضعيفاً جداً بحيث لا يمكنه مقاومة ضرباتنا عبر نهر دجلة. ولو أنه سحب قواته من منطقة محمد عبد الحسن والمواقع المتقدمة في الحي في مرحلة مبكرة وانتظرنا للهجوم بعبور النهر بالقوة، لكنا واجهنا مسألة صعبة أكثر بكثير.

الفصل السادس والعشرون

محمد عبد الحسن

في بداية عمليات شهر كانون الأول، تمسَّك العدو بنظامي خنادق رئيسين على الضفة اليمنى. كان الخندق الأول هو عقدة محمد عبد الحسن أو منحنى الخضيري مقابل حصن الخضيري، حيث يأخذ نهر دجلة انحناءة باتجاه شمال الكوت تقريباً، أما الخندق الثاني فهو المثلث الوعر جنوب وجنوب غرب شبه جزيرة الكوت مع قمته التي تبعد نحو ميلين إلى الجنوب من الموضع عند ضفة نهر دجلة، ونهايات مواضعه التي تمتد إلى أعلى مجرى النهر وإلى الأسفل منه في مدينة الكوت. وكانت عقدة محمد عبد الحسن، هي الموضع الأول من التحصينات في دفاعات الحي. ولطالما كان الأتراك يمسكون به، فإننا حرمنا من المواضع التي منها قد تقوم مدفعيتنا بقصف التحصينات المتقدمة، كما أنها تؤمن دفاعات العدو في شبه جزيرة الكوت التي تدعم نظام المواضع في الحي. وبناءً على ذلك تعاملنا مع موضع محمد عبد الحسن أولاً.

وعلى الرغم من عدم وجود قتال فعلي في موقع محمد عبد الحسن خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من التقدم، فإنَّ تاريخ الصراع من أجل السيطرة على المنحنى قد يعود إلى الثامن عشر من شهر كانون الأول عندما بدأنا بإنشاء شبكة من الخنادق لنا حول الأتراك على جبهة واسعة، وكانت الضربة الأولى قد نفذت في ليلة الثاني والعشرين من شهر كانون الأول عندما احتلت قوات لانكشاير الشمالية و/ أج. ال. أي/ موضعاً لها على نهر دجلة مقابل النهاية الجنوبية الشرقية لشبه جزيرة الكوت، لتدق إسفيناً بين موضعي العدو على الضفة اليمنى. لقد قمنا بتمديد موضعنا هنا في الثالث والعشرين من الشهر ذاته وقدمنا خطوطنا تدريجياً إلى تلال الكوت الشرقية،

الموضع الشمالي الذي كان تحت سيطرة العدو. وهكذا كانت مواضعنا قريبة من المواضع التركية وأمسكنا بمواضع بديلة على ضفة النهر نفسها. وكان لا بد لأحدنا أن يطرد الآخر. ولا يتمتع الأتراك بأرجحية التفوق علينا نظراً لكون مدفعيتهم ومواصلاتهم غير مستقرة.

شنَّت قواتنا المشاة التي اندفعت في هذا الوقت إلى الأمام بحدود ثلاثمئة ياردة من العدو هجومها في صباح يوم التاسع من شهر كانون الثاني 1917 الذي كان ملبداً بالضباب. جرت استعدادات عسكرية على جميع الجبهات في ليلتي الثامن والتاسع لمنع الأتراك من تعزيز مواقعهم العسكرية في موقع محمد عبد الحسن. وقُصِفَ موضع العدو في الحي بكثافة، وتقدمت قوات المشاة للهجوم على منطقة البغيلة، بينما دخلت أربع بطاريات في منطقة الصناعيات لمهاجمة المواضع التركية. لم تنفعنا استعداداتنا في البغيلة بشيء؛ لأنَّ قوات المشاة ضلَّت طريقها بسبب الضباب، إلا أن المعركة في الصناعيات كانت حامية الوطيس. وتم سحب ثلاث من القوات المهاجمة من اللواء الثامن والعشرين واللستريين والسيخ الثالث والخمسين وحملة البنادق، وتزويد كل كتيبة بضابطين وثلاثين جندياً. بينما عُزِّزَت القوة الرابعة المؤلفة من الخبراء العسكريين بضابط واحد وعشرة جنود. وقد قتل جميع الضباط أو فقدوا أو ضلُّوا طريقهم إضافة إلى أن نسبة كبيرة من الجند والأرتال لاقوا المصير ذاته. لم أتمكَّن من إصدار حكم قاطع فيما إذا كان الفقدان في الهجوم له نتائج جيدة أم لا. إلا أن التضحية المطلوبة من المهاجمين كانت من ذلك النوع المخلص الذي يضحِّي فيه الرجال بأرواحهم ولم ينالوا شيئاً من الثواب الذي تُجْنى ثماره في أماكن أخرى.

يمتد الخط الدفاعي الأمامي التركي في موقع محمد عبد الحسن عبر المنحنى بحوالي 2400 ياردة، ويستند كلا الجناحين إلى النهر. هاجمنا جبهة بطول ستمئة ياردة، تاركين حوالي1800 ياردة من الموضع المعادي على جناحنا الأيمن. بينما يستند جناحنا الأيسر إلى ضفة النهر وهو محمي. وفي الضفة اليسرى، توغَّل اللواء التاسع وحرَّر تلول الكوت الشرقية ونحو ستمئة ياردة من جبهة النهر. وجرت هنا بعض الاشتباكات الملحمية المستميتة بالحراب والقنابل. ونقلت قوات الكوركا الحاجز الدفاعي إلى التلول، ودفعوها على طول التلال الرملية وقصفوا ضفة النهر

إلى الوادي الرابع، واستشاطت الكوركا غضباً وقامت بترجمة رؤيتهم إلى فعل، وتم العثور على مئتي جثة تعود للأتراك ضمن منطقة بمساحة ثمانمئة ياردة في صباح اليوم التالي. واستولى لواء مشاة المهراجا الراجل على مئتي ياردة من المواضع التركية وقصف الأودية الأربعة إلى الموقع الذي يمتد على طول ضفة النهر الذي استولت عليه الكوركا، ثم اندفع إلى الضفة اليمنى وتخندَقَ في الوادي الرابع، وانطلق لواء المشاة البورمي الثالث والتسعون إلى الشمال وحرَّر منطقة بمساحة مئة وخمسين ياردة أخرى من الخط التركي.

حدث هناك بعض الإربـاك في أثناء الضباب، إلا أنه تم إنجاز المهمة على أحسن ما يرام، وإن كلاً من الكتائب الثلاث تحملت جزءاً منها. ولإكمال أهدافنا على الجناح الأيسر بقي على كتيبة المشاة الجبلية الانطلاق بسرعة فقط، وتحقيق التماس مع كتيبة المانشسترز التي على وفق الخطة سيكون عملها من الجزء الذي تم الاستيلاء عليه من الخط الدفاعي التركي إلى مسافة 400 ياردة على الضفة اليمنى. وتم إنجاز ذلك، واشتركت الكتيبتان البريطانيتان في السيطرة عليها مباشرة بعد الهجوم.

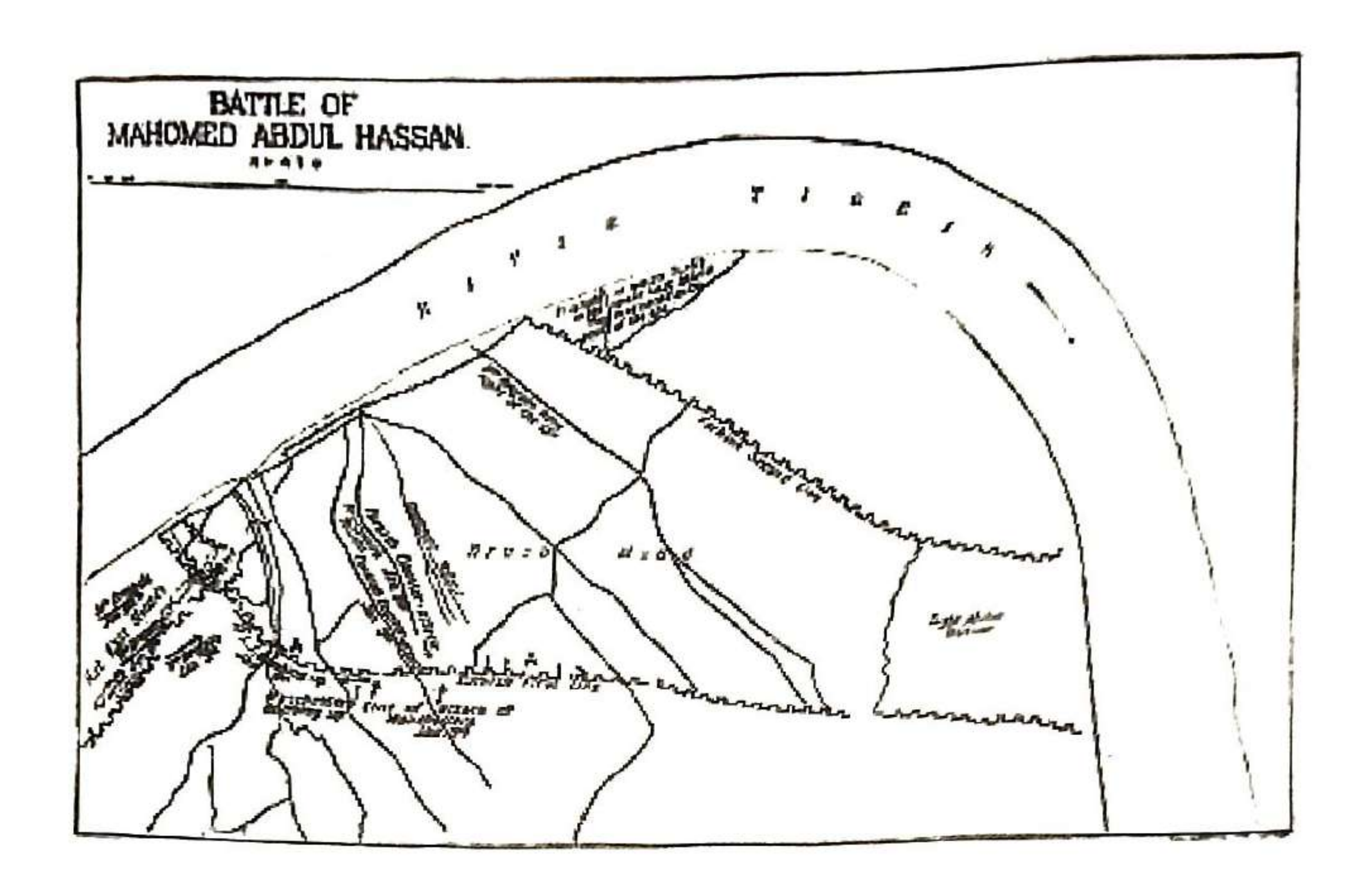
هاجمت قوات المانشسترز على جبهة مساحتها مئتي ياردة وسيطرت عليها بخسائر قليلة، وتراصفت مع حاجزنا قبل أن يظهر العدو للعيان خلف الساتر. تعرضت المواضع التركية إلى قصف مكثف أكثر من مرة خلال الأيام الماضية وهوجمت بعنف على نحو متكرر. وتم الاستيلاء عليها بسهولة، وكما أعتقد أنَّ قواتهم لم يكونوا من الصفوة. هذا وسنلتقي لاحقاً في المعركة. وتم تدمير الحاميات في الخط الأول بأطنان من القذائف قبل الهجوم. واستسلم أغلب تلك القوات.

وذات مرة في الخطوط الأمامية للعدو، عملت الأطراف التي تقوم بالقصف من قوات المانشسترز على طول الموضع وعلى الجناحين، على الجناح الأيسر للالتحاق بقوات ال / أج-أل-أي/ التي كانت تقوم بعملية القصف إلى الأعلى من النهر وعلى اليمين لتوسيع الموضع الذي تم الاستيلاء عليه إلى ثلاثمئة ياردة إضافية ولتشكيل ساتر، بينما عملت الأطراف الأخرى على مواضع في الوديان التي تكثر

فيها الأدغال بين الخطين التركيين الأول والثاني، والتي سيتم تحويلها إلى خنادق مواصلات من قبل خبراء الهندسة العسكرية. قام العدو بهجوم مضاد بقوة ساحقة إلى الأسفل من هذه الوديان، وشمل إحدى مفارز قوات المانشسترز. وكان هناك ضباب كثيف وهو ما كان مفضلاً لتحقيق المباغتة، وكان الأتراك الذين يترصدون في أرض تكثر فيها شجيرات خفيفة قد ظهروا للعيان وسط الضباب مثل حشد كرة قدم. وعَلِقت قوات المانشستر في أحد الخنادق، حيث كان من الصعب بالنسبة لهم استخدام بنادقهم وقد تعطَّل مدفع لويس من جراء الوحل، إلا أن المفرزة الصغيرة والمقطوعة من جميع أنواع الدعم استمرت بقوة ورفضت التخلي وقاتلت إلى النهاية بالقنابل والحراب إلى أن تمت إبادتهم عملياً، وتم العثور على القتلى الأتراك في المكان في صباح اليوم التالي وكانت تفوق عدد قتلانا. واكتسحت الموجة وأمسكت بمفرزة أخرى من الكتيبة نفسها على الجناح وأجبرتهم على التراجع إلى الخندق الذي استولينا عليه، حيث تم إيقافها. وفي هذه الأثناء كان الأتراك يضغطون على موضعنا أسفل الخندق. كانت مجموعة صغيرة من الرواد تعمل هنا، مجرد فصيل بإمرة الملازم أول الشاب غوردون، التابع إلى كتيبة الرواد السيخ الرابعة والثلاثين، وجدوا أنفسهم مع مجموعة من المانشسترز في زخم المعركة. وواصلوا الخرق وأقاموا ساتراً وقصفوا الأتراك بقوة لساعات عدة. والتحقت مجموعة أخرى من المانشسترز معهم. وقُتِل النقيب كلوز بروكس عندما وقف على الساتر ليقوم بتوجيه عملية القصف. وتسلم القيادة منه الملازم الثاني بيمبروك وأصيب هو الآخر بجروح خطيرة وخلفه الملازم ياتس الذي قتل في الخندق. وتولّى القيادة بعد ذلك كل من الملازم هاردمان والملازم ووكر وقُتِل كلاهما. ونجا هندرسون. وقد اتصل مع كتيبة / دي- أس – أو/ وحقق فوزاً في الدجيلة حيث كان واحداً من اثنين من الضباط الذين خرجوا من الساتر الدفاعي من غير أن يصابوا بجروح. وعاد هنا أيضاً مع ضابط آخر من المانشسترز وهو الرائد براون بدون جروح. وفي فرنسا عاد هندرسون الذي حمل الحياة الفاتنة نفسها، ورأيته مرتين فيما بعد في لحظة حاسمة في الحرب على جبل حمرين، والمرة الأخرى في تكريت لدى الاستيلاء على الخندق الأمامي مع مجموعة من رجاله وجناحه الأيمن في العراء.

وفي المساء، كنا لا نزال نمسك بهذه الأرض، وأخرجنا الأتراك من جزء من الخندق الذي كانوا قد استعادوه. ومنحنا العمل النهاري السيطرة على تلال الكوت الشرقية بأكملها وجزء من الجانب الأيسر من عقدة محمد عبد الحسن، وامتد نفوذنا بحدود ستمئة ياردة وهي الفجوة التي استولينا عليها بين الموقعين التركيين على الضفة اليمنى من النهر وإلى ألف ياردة من خندق الخط الأول (أ) الذي يقع على مفرق المنحنى. وألقينا القبض على سبعة ضباط ومئة وخمسة وخمسين جندياً آخرين ومدفع رشاش واحد، ودفن خندق مليء بالقتلى الأتراك. وكان اليوم العاشر من شهر كانون الثاني يوماً هادئاً نسبياً. قمنا بتقديم خطنا القتالي إلى الأمام مع القليل من المقاومة، ويبدو أنَّ مؤخرة المقاومة التركية كانت قد أنهكت. وقبل المساء قمنا بمحاصرتهم في مثلث ضيق على ضفة النهر، واعتقد معظمنا أن المعركة قد انتهت برُمَّتها. وتمت استعادة الفوجين من اللواء أربعين اللذين قُدِّما كقوة احتياطية إلى الحي. إلا أنَّ الأتراك كانوا بعيدين عن الهزيمة. وتم سحب الفلول الباسلة من الكتائب التي قاتلت في التاسع من الشهر ذاته، ونقلت قوات جديدة في الليل لتأخذ مكانها. ولكن نظراً للأدغال والوديان ذات الأحراش والنهر الشديد الانحدار كان من الصعب تقدير القوة التي كانت قد أمسكت بالموقع، كما أن الضباب في الصباح جعل عملية الاستطلاع بالطائرات مستحيلاً. وفي الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم الحادي عشر كنا نستعد للمشهد النهائي عندما قام الأتراك بهجوم مضاد على الجناحين واخترق خطنا القتالي. وتم حصرهم إلى جانبنا الأيمن جراء النيران الكثيفة من قبل كتيبة السيخ السابعة والأربعين، وسرية المدافع الرشاشة الثانية والثلاثين بعد المئة، وتلاشت على يسارنا الموجه ذاتها وعادوا أدراجهم؛ ولأنَّهم هُزِموا أصبحوا هدفاً لمدفعيتنا. لقد خسروا المعركة بشكل ساحق، وكانت واحدة من أكثر الطلعات بسالة على الإطلاق.

بعد ذلك، كان هناك قتالٌ أكثر عنفاً. ويقول السجناء الأتراك والعرب: إنَّ الإنكليز لم يكونوا شجعاناً بقدر الأتراك، إنهم يتقدمون فقط تحت غطاء ألف بندقية. وبهذا الشعور تشجعوا، ومن آخر موقع للصولة لهم قاموا بأكثر الهجمات يأساً.



معركة محمد عبد الحسن

إني أتذكر مدافعاً يهودياً نحيفاً من القسطنطينية أخرج من حالة البؤس في موقع محمد عبد الحسن بعد عملية القصف الثالثة، وتم وعظه بعدم المساواة بين الأشياء بفصاحته الباريسية. وقد ساقه الحظ بطريقة أو بأخرى مع كتيبة صعبة من الفلاحين من الأناضول، كانوا صعبين وبسطاء في رغباتهم كقطيع الماشية، كقطعة صينية وسط آنية من الخزف البدائي. وقد اشتكى بمرارة لكونه «ألقي في هذه الصحراء بين رجال متوحِّشين في معاملة الأطفال».

وبينما كان يتحدَّث، توقفت عربة ذخيرة وتم تفريغ كدس من النحاس للرجال في الخنادق. وقال: إنَّ «لديكم كل شيء، البنادق والذخيرة ووسائل الراحة والطعام».

كان متحمساً لملاحظة رتل من مئتي سيارة فورد تزحف ببطء في الأفق من خلال الطين، على الطريق بين عتاب والقرية العربية. وكانت كل سيارة تحمل ثلاث رُزَم من القش المفروم للخيالة، وتستهلك أربعة غالونات من البنزين في اليوم، وتشارك في خدمات قدرات الرجل البدنية التي قد تكون في خط النار طوال الوقت. كان حقاً لدينا كل شيء يمكن أن يبتكره العلم وأقل ما يمكن من المُؤَن- ففي الثامن من شهر كانون الثاني تم تسليم ثمانية آلاف باوند من اللحوم الطازجة من الأرجنتين في السن. فكرت بالبسكويت المدور الجاف في أرزاقهم والذي كان بصلابة الطابوق، تم نقله بالزوارق إلى خنادقهم ليلاً. وكانت لدينا وسائل النقل والبنادق والقذائف. وينبغي علينا أن نصرف مئة باوند من المعدن في هذه الأيام مقارنة مع باوند واحد مما كان لديهم، وكان علينا أن ننفق خمسين باوند من الأموال الإنكليزية حيث كانوا ينفقون ليرة واحدة. ومع ذلك لا يمكن للقطعات خوض معارك أكثر ضراوة.

ولا يغيب عني أنَّنا بلا شك كنا في سباق يتجسد بإفراط، لم يكن اعتمادنا على تطوراتنا العلمية والتجارية واضحاً بقدر ما هو عليه في هذه الأشهر. وتبدو إحدى الطلعات الجوية التركية من موقعها الذي قصف بعنف في عقدة محمد عبد الحسن مع النهر في المواقع الخلفية لقواتهم ستقذف هذا بقوة في وجوهنا. وازداد ازدراء العرب لنا. وكلما تزداد المنطقة الأمامية ازدحاماً بقواتنا تزداد عمليات الدهم والنهب ليلاً منهم، ويقومون بقطع الأسلاك بين الساتر والمنازل، ويتجنبون قنابلنا

المفخخة ويفرون من غير مساس ببنادقنا وخيولنا وذخيرتنا. كان الجندي البريطاني شجاعاً كالأسد عندما يتعرَّض للتحدي، ومخلصاً كإخلاص الساموراي (وهم طبقة محاربين أرستقراطية يابانية). ولكن عندما لا تكون هناك دعوة روحية واضحة ولا طرف ملموس ليتم قطعه أمام قوى الشر، فإنَّ العيش بالقرب من الطبيعة له فوائده، وغالباً ما يبدو أن الأقرب هو العرب، وأن أفضل شخص هو المسلح. كانت لدينا فرقة خيَّالة كاملة، وهو شيء نادر ما يمكن مشاهدته، وهي تجوب أرض العدو في الحرب. وعندما انتقلت إلى الأمام، تقهقر العرب في السراب، وعندما انسحبت قاموا بالتحرش بأجنحتها ومؤخرتها. وفي الحادي عشر من شهر كانون الثاني شنَّت الخيالة هجوماً على مدينة الحي- وأقاموا في المنطقة ثلاثة أيام، ويبدو أن موقف الناس كان وديّاً. وقد جُلِبَت التجهيزات بِحُرِّية. وتعاطى الضباط مع الحمامات التركية وقضوا ساعات يفتشون عن التحف في السوق. وأُفرِغَت المحال التجارية من السجاد والسماورات والأسلحة الآثارية القديمة وكل شيء له ثمن بالعملة المعدنية الجيدة ويباع بمزاج جيد. وفي صباح يوم الرابع عشر، وعندما كانت فرقة الخيالية تقوم بإخلاء المعسكر قبل الرحيل، تَجمَّع الحشد الاعتيادي من الناس ووقفوا في عباءاتهم الطويلة، بحثاً في الأرض عن العلب الفارغة والقمامة. وكان لدى هؤلاء الزبّالين أسلحة مخفية تحت ملابسهم، وحالما اختفت مؤخرة الجيش وراء الرصيف الطويل على بعد ميل خارج مدينة الحي، تابعوهم وفتحوا النار عليهم. وفي الوقت نفسه ظهرت مجاميع الخيول والمشاة من الوديان والقرى على كلا الجناحين. واتبع البدو طوال اليوم وسائلهم الصحراوية المألوفة وهم ينتظروننا ويطلقون النار علينا إلى أبعد مدى، بينما خاضت فرقة الخيَّالة معركة دفاعية منذ الساعة الثامنة صباحاً وحتى الرابعة بعد الظهر. إلا أن الأرض بين السن والحي كانت مدمرة، وكان هناك قتالٌ منفصلٌ. وقتل العرب ضابطاً بريطانياً وعرّوهُ من ملابسه وتركوا جثته على الأرض لنستردها، وكانت هناك مناوشات حيث تمت مهاجمة قوات الخيَّالة التابعة لنا بالرماح. وكانوا يتميزون غيظاً للمهاجمة، إلا أن الأوامر لم تصدر مطلقاً. كان ينبغي علينا سحب جميع الفرقة واكتساح الصحراء بكبار السن هؤلاء من غير استثناء، ومن ثم العودة إلى الحي. وأعلن بيان نُشِر على جدران المدينة انتصار العرب،

ويروي كيف تم قتل البريطانيين وتفريق قوات الخيَّالة وهروبها. وكان الدليل الأكيد قد جاء على شكل أسلحة وغنائم. كما أننا لم نعد بقوتنا وندمر المنطقة كما ينبغي أن نفعل إذا لم نكن خائفين - أو هكذا يبدو لسكان الحي. وبدلاً من ذلك أرسلنا الطائرات لتلقي عليهم القنابل وتضفي ذريعة إلى تبجح العربي بأنه هو والرجل التركي أفضل الرجال في استخدام السلاح من الإنكليز وأنَّهم (أي الإنكليز) شجعان فقط تحت غطاء ماكنتهم ومعداتهم الحربية.

على أية حال، بقيت كلية الأركان وكتب التدريب العسكري هي السائدة في النهاية وأعادتنا إلى مواقف واجه فيها الأتراك رهاناتهم على رؤوس الحراب. لم يقف العرب، بالطبع، ضد الغرباء حيث إنَّ النهب كان صعباً. وكانت الصعوبة الكبرى في شبه جزيرة محمد بن عبد الحسن هي تلك التي تمتد بين عقدة ضيقة من النهر، وكانت تتعرَّض للقصف من مدفعية العدو ورشاشاته عبر نهر دجلة من كلا الجناحين. ولهذا السبب كانت معارضتنا للأعداد الضخمة من القوات والاندفاع إلى الموضع. وقد يمنع الأتراك، كون النهر خلفهم، إذا رأوا الجزء الأفضل من الفرقة يهبط عليهم بأمواج لا يمكن مقاومتها، إلا أنهم استولوا على الأرض بكتيبة على كل جناح. وعندما تقدمت كتيبة /أج-أل-أي/ لمهاجمة الموقع في الحادي عشر من الشهر، تم رشقهم برشقات النيران هذه بحيث إنَّهم كانوا ضعيفين جداً لمقاومة الهجوم المضاد. وكان الأتراك متحمسين للحياة لهذه الفائدة، وأخذوها بالحسبان. وأدركوا أنَّ الاستيلاء على العقدة ستمكِّن مدفعيتنا من قصف شبه جزيرة الكوت بالطريقة نفسها، بالإضافة إلى ضفتي الحي والسيطرة على الفيضان. وهكذا كانت الأهمية الاستراتيجية لمنحنى محمد عبد الحسن. وصدرت الأوامر إلى القوات العثمانية بالتوقُّف، وقد توقَّفوا واضعين ظهورهم إلى الجدار بطريقة فرضت احترامنا. كان موقعهم يائساً وقد حصرناهم. وكانت النهاية مجرد مسألة صبر وسلاح. فالحرب ليست لعبة، ولا تساوي شيئاً إذا كانت مضيعة للقوات في الهجمات الأمامية. وبدلاً من أن ندفع الموقع قمنا بإنشاء خنادقنا في الأمام تدريجياً إلى أن أصبحت المنطقة التي يمسكون بها ضيقة بحيث إنَّ نيران مدفعيتنا المركزة جعلتها يتعذر الدفاع عنها أو الاحتفاظ بها. ومع ذلك، كانت هناك طلعات جوية

وهجمات مضادة، وكان على قوات مشاتنا الدخول مع حرابهم مرة أخرى قبل أن يستسلم الأتراك.

تسلَّلت بقية القوة في زوارقها ومراكبها في ليلة الثامن عشر والتاسع عشر من الشهر. وواصلت الحفر حتى الساعات الأُوَل من الصباح. اعتقدنا أنهم كانوا يحفرون الخنادق لأنفسهم بشكل أعمق ضد نيران مدفعيتنا. بل في الواقع، كانوا يدفنون موتاهم، وبعملهم هذا أكملوا خنادقهم، ويحضرون مقبرتهم وخطاً استراتيجياً للانسحاب في الوقت ذاته؛ لذلك كان ينبغي على مشاتنا التقدم في الصباح بدون غطاء والتعرض إلى نيرانهم في الضفة الأخرى من النهر.

لقد حُدِّد موعد للقصف المكثف في الساعة السادسة والنصف إلَّا أنَّ مفرزة البنادق 59 العاملة في أعلى ضفة النهر اكتشفت أن الموقع كان فارغاً وحصلت على الرسالة في الوقت المناسب لتجنب قصف المثلث الفارغ وإنفاق / 21/ ألف قذيفة مدفعية لحفظ كرامة هيئة الأركان ورجال المدفعية؛ ولأنه لم يكن هناك شيء يتمتع به الأتراك أفضل من الاضطجاع مرتاحين في زوارقهم عبر نهر دجلة يراقبوننا ونحن نقصف خنادقهم المهجورة.

أبدى الأتراك في موقع محمد عبد الحسن قليلاً من الروح المعنوية القديمة والتمسُّك بالأرض بإصرار واضعين نهر دجلة الممتلئ من جراء الفيضان خلف ظهورهم وبدون جسور، وكان هناك عدد قليل من الزوارق والطوافات فقط للاعتماد عليها في مواصلاتهم، وقد أُجبِروا بالتدريج على التراجع إلى منطقة ضيقة بحيث إن نيران مدفعيتنا أصبحت أكثر تركيزاً، وضربت مدفعيتنا خنادقهم بعنف وأحالتها إلى مجزرة، عند ذاك ظهروا وقاموا بهجوم مضاد بأقصى قوة. ولم يستسلموا إلى أن أجبرناهم على التراجع إلى آخر خندق دفاعي لهم.

يمكننا أن نقدم شهادة عن ثبات عدوّنا، وسيكون تقديراً سيئاً لرجالنا المقاتلين إذا لم نفعل ذلك. كانت تلك أفضل قوات عثمانية، وكان الإصرار العنيد للأتراك خلف الساتر يضرب به المثل. وكما طرحها ويلتشايرز بشكل خاص، ولحين أن يحصلوا على لكمة قوية على رؤوسهم لم يعلم الأتراك متى يضربون. وأرسل

القائد التركي إلى / أو- سي/ في موقع محمد عبد الحسن يهنئ فيها القوات على صمودها في مسك أرضهم على الرغم من الخسائر الفادحة خلال القصف ذلك اليوم في أثناء الضباب. وتم العثور على الوثيقة فوق أحد القتلى من قواتهم. يقبّل قائد الفيلق عيون جميع المراتب ويشكرهم. كانت عبارة شرقية معبرة. وأنا أيضاً أقبّل جميع عيونهم وأشكرهم.

وجّهنا بعض الضربات القوية للأتراك في موقع محمد عبد الحسن، ولكن الرجال الذين كانوا بصلابة الإسمنت تلقوا بعض الطعنات. فلحد الآن اندفعنا إلى أحد الحصون الأمامية من دفاعات العدو في الضفة اليمنى فقط. كانت خسائرنا تقريباً متساوية. وكانت قضية المطرقة والسندان مجرد عملية استنزاف، ولا يبدو أن هناك توقعات كبيرة في إضعافهم قبل وصول التعزيزات. أو هكذا تبدو بالنسبة للرجل الاعتيادي- ولكن الجنرال مود كان على ثقة من المسألة طوال الوقت عندما تصبح أسلحة الهجوم بيده. ورأى التقدم بتوقعاته الحقيقية، وأدرك كيف أن الزخم الذي كان يطبقه يجب أن يجمع القوة. كانت مسألة حسابية بحدود قدرة التحمُّل البشري من القائد الذي حوَّل سايكولوجياً الحرب إلى علم. وكانت مئة ياردة من الخندق تم الاستيلاء عليها جزءاً متكاملًا في ذروة الانتصار. وإن نقل الفصيل / كي 21 أي/ إلى الفصيل / كي 21 بي/ على جبهة بطول يبلغ ثلاثمئة ياردة وعمق مئة وخمسين ياردة كانت تساوي عشرين ميلاً على الطريق إلى بغداد. وإن الفدّان الواحد أو الفدانين من الأرض بالكاد يمكن تقديرها على خارطة ذات مقياس كبير، مسجِّلة درجة واحدة أقل في درجة الانحدار التي اندفع فيها الأتراك بشكل محتوم نحو الانهيار.

الفصل السابع والعشرون

ربية الحي ومنحنى الظهراء

كان القتال على نهر دجلة في الغالب متواصلاً منذ اليوم الذي بدأنا فيه هجومنا في الثالث عشر من شهر كانون الأول عام 1916، إلى أن تم الاستيلاء على سامراء في الثالث والعشرين من شهر نيسان عام 1917. كان منحنى محمد عبد الحسن حصن العدو الأول الذي يسقط بأيدينا. وكان الحصن الثاني وهو نظام الخنادق المُعَقَّد الذي يتضمن موقع الحي المتقدم، قد سقط مع الاستيلاء على معمل عرق السوس في العاشر من شهر شباط. والحصن الثالث، وهو استمرارٌ لهذا النظام ويمتد من الشرق إلى الغرب عبر منحنى الظهراء، كان قد تحرَّر في الهجوم في الخامس عشر من شهر شباط وحصلنا في هذا القتال على 18 ميلاً من ضفة نهر دجلة، خلف منحنى النهر. وفي المنظور القديم تعادل كل سلسلة من العمليات، كل واحدة على حدة، حملة كبيرة. كانت الخسائر كبيرة في الأرواح والذخيرة، ولكن إذا أنفقنا أعتدة أكثر من الأتراك، فإنهم سيدفعون المزيد من الدماء العزيزة.

كان تقدمنا على الضفة اليمنى من النهر بطيئاً، إلا أن كل خطوة كانت أكيدة ومدروسة، وبسبب تفوُّقنا المدفعي فإنَّه كان أمراً محتوماً. لم يكن بإمكان الأتراك القدوم لمسك خطهم الدفاعي الأول بقوة تحت وابل من نيران مدفعيتنا ونحصل في كل مرة على أراضٍ جديدة، ولغرض استعادتها فقد كان مرغماً على القيام بهجوم مقابل وهكذا، طالما كنا راضين بالاستنزاف الجاري في دفاعاتهم ولم نتخطَّ هدفنا، فإنَّ الثمن الباهظ للهجوم يدفعه هم (أي الأتراك). أقمنا شبكة من الخنادق حولهم في منحنى من نهر دجلة واحداً تلو الآخر، حيث كان العدو مع كون النهر خلفه في موقف لم يعترف فيه بالانسحاب إلى أجل غير مسمى. وقد واجه حتمية إرغامه على

التراجع إلى منطقة متناقصة تدريجياً إذ أصبحت نيران مدفعيتنا أكثر تركيزاً. وقمنا خلال شهرين بتقديم خطنا القتالي خطوة بخطوة، وأقمنا لأنفسنا داخل مسافة سهلة الانطلاق وهاجمنا خنادق العدو ودخلنا فيها وقمنا بتطهيرها باستخدام الحراب، وقضينا على هجماته المضادة بنيران البنادق والمدفعية لكنه كان أبعد ما يكون من أن يهزم بسهولة من قبل مشاتنا. وقد حملت على تقديم الشهادة عن نوعية القتال الرفيع الذي قام به العدو في موقع محمد عبد الحسن. إذ شيَّد هنا دفاعاً منيعاً ضد الغرباء. وفي منطقة الحي، فإنَّه تخلَّى عن الأرض بالعناد نفسه. وكانت معنوياته ومقاومته قد انهارت خلال الأيام الأخيرة فقط من الصراع من أجل منحنى الظهراء.

كان رجالنا الخاصون يشيدون بالأتراك في قصيدة رثاء. إذ تطلَّبت الحرب في بلاد وادي الرافدين قوة كبيرة جداً، وكان الأتراك يقاومون عملية اجتياح أراضيهم الخاصة، بينما كان الهدف الوحيد الواضح لرجالنا في الخنادق خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة هو قَتل أكبر عدد ممكن من العدو.

أنجزت القوات البريطانية ذلك بسرور في مراحل عدة من خلال حملة استمرت على مدى عامين. كان لدى المقاتلين حافز ضعيف. وكان الأتراك عدوّاً، قليلٌ منا كان يشعر بمرارة الروح المعنوية تجاهه، وكمشاركة من قبل الألمان، ومجرد حادث في النظام، أقسمنا على تدميره- وكانت الهكتارات القاحلة أمامنا التي تنتشر فيها في أغلب الأحيان المزيد من حطام الذخيرة أكثر من العشب، متعبة بالنسبة لنا عندما استولينا عليها. كان من الصعب تصوُّر مدى الإجهاد من هذا النوع من القتال والرتابة القاتلة لبلاد وادي الرافدين كميدان للحرب. لم يعد هناك حافز للحامية في الكوت. وكان هناك في هذا العام مجرد سلسلة من المواضع الدفاعية في أرض طينية، وشقوق مغطاة بالطين لا حدود لها لا تؤدي إلى مكان محدد بقدر ما يمكن للرجل أن يراه من الخندق؛ لأنَّنا فقدنا الأمل في بغداد. وفي كل يوم نهاجم موضعاً دفاعياً جديداً ويصبح كل موضع قبراً لورثة الحقول الخضراء، الإنكليز- يدفنون في هذه التربة القلوية القاحلة. لا يستطيع أحد أن يكتم الكآبة أحياناً عندما تخبو بهجة الحرب. ويعلم المرء مدى التعب الذي يعاني منه جميع الجنود. إنها البلاد الملعونة أكثر من أي شيء آخر وهي تهبّط من معنوية الفرد. ومع ذلك، كان الفرد يقرأ دائماً عن حرص

قواتنا، كما لو أنهم كانوا يتميزون غيظاً ليرتقوا أو يصبحوا بمستوى الأتراك مرة أخرى، ولو أن الفرد كان يقاتل في بلده لكان من السهل الاحتفاظ بشعلة التضحية والمثالية وبتوهج التحفيز العالي باستمرار. إن قتال الجنود الألمان في حقول الذرة في إنكلترا القديمة الغالية قد يجعل المرء يستشيط غضباً حتى ينهار، وإن البلهاء سيجتازون الحواجز وهم يرددون ترنيمة مقدسة. إلا أن الجندي يصاب بنوع من التعب من جراء ذلك في بلاد وادي الرافدين. ومن هناك وبالمشقة والوسخ والموت والجروح التي ترافق المرء يومياً، ومع الفترات النادرة من الانتعاش، ينبغي على الفرد أن يستمد معلوماته من مصادر الإلهام بشكل أعمق وأكثر صرامة.

ولأنَّ الحشد القديم أُصيب بالإنهاك، سيخلفهم مجنَّدون جدد، وثم سحب الجيل الأصغر. يقف المحاربون المتعبون عند خط النار بعد ثلاث سنوات تقريباً من المشاركة المملة مع الموت على أهبة الاستعداد لشن هجوم آخر. وفي غضون ساعة أو ساعتين ستشارك الكتيبة مرة أخرى. وإن أولئك الذين سيتمكّنون من العبور سيمسكون بـ/ 300/ ياردة من الجبهة التركية، امتداداً لجلجثة، وربما لـ/ أر 19 أي/ إلى / أر 19 بي/ أو هكذا الرمز السري على الخارطة. وسيحل المجندون الجدد مكان الرجال الذين سقطوا بدماء شابة في الكتيبة والذين سيكون كل شيء عليهم مغامرة عليا، اختبار الرجولة أو في الأقل التكريس الذي يضعهم في مصاف الرجال ويتمنون أن يكونوا لهم زملاء مخلصين. لكني اعتقدت أنه كان من الرجال المتعبين، ويواصل تقاليده ولياقته بالتقدم ببطء بالرغم من التعب.

كانت هذه ردود أفعال واضحة، لم يتكلم عنها الجنود، ومع ذلك فإنها طبيعية لدى المدني الذي راقب وأُعجب بقدرة التحمل لدى الرجل المقاتل.

بدت هناك بوادر من التعب، ليست تعباً جماعياً، بين القوات التي قاتلت في موقع الحي وبدأنا هجومنا هنا على كلا الضفتين في الخامس والعشرين من كانون الثاني. وكان اللواء الأربعون يقوم بالهجوم على الضفة الشرقية من النهر. قمت بزيارة إلى الخنادق برفقة العميد لوين مساء اليوم الذي سبق الهجوم. إذ كان يرغب بالتأكد من أن رجاله يعرفون بالضبط ماذا سيفعلون. لقد عانينا في موقع محمد عبد الحسن من

الوحدات العسكرية التي انتقلت إلى ما وراء الهدف في زهوة النصر، إلّا أنَّ الأوامر لشن الهجوم المقبل كانت واضحة. يجب أخذ أربعمئة ياردة من خنادق العدو أمام خط النار التابع لنا والاستيلاء عليها وتعزيزها، ولا يمكن لأحد ما عدا مفارز القصف الذهاب ولو خطوة واحدة وراء ذلك. إلا أن زيارة اللواء إلى الخنادق سبقت مسألة أوامر الكتيبة. ووقف عند كل خليج جديد يسأل الرجال كم من البعد حيث كانوا ذاهبين، وماذا سيفعلون. لا أحد منهم يعلم ولكن لم يضل أحد جانب الحذر. فقد أوضح اللواء بشكل مقتضب ما هو متوقع منهم مهدداً بإنزال العقوبة بالمهملين وخشية إبادتهم بأسلحتنا الخاصة، وأكدها بالطريقة الإيرلندية المسلية بأنهم سيرتكبون خطأ ذلك. وعندما شرعنا بالتقدم صدرت الأوامر الحازمة إلى كتيبتين. هل إننا جئنا في الأقل إلى رجل إيرلندي صغير ذي عينين واضحتين ومستقرتين وابتسامة إيرلندية حقيقية؟ حسناً، إلى أي مدى ستتقدمون غداً؟ سأله اللواء فأجاب، إنني سأذهب إلى أبعد ما يمكنني. ثمانية أو تسعة أميال إذا سمحوا لي. قال اللواء بشكل هادئ أو صارم: إنك ستصبح ضمن مدى نيران العدو. إلا أنَّ الرجل الإيرلندي عدَّ ذلك اتهاماً لمعنوياته. واعترض قائلًا: لست أنا سيدي. إني ذاهب إلى الكوت، وكرر اللواء الأمر. ولكن عندما تكلم الإيرلندي بهذه الشجاعة، معترضاً بأنَّ الخندق الواحد لم يكن كافياً، وأنَّه لن يدعهم يقولون إنه كان خائفاً. أعلم أنه يعني ما يقول بأنه إذا فشل ضابط سريته مصادفة بتبليغه، فإنه سيذهب مباشرة إلى ما وراء خندق العدو المستولى عليه، بشكل فردي أو جماعي دون النظر إلى ما حوله إلى أن يسقط.

على أية حال، لم يترك شيء للمصادفة. رأيته في صباح اليوم التالي أنه اقتطع بقناعه موطئ قدم في الخط القتالي الأول للعدو، وحوّل الموضع ساتراً وهو ينتظر الأتراك للهجوم.

كنت مع قوات ويلتشايرز في الخندق عندما اجتازوا. ويبدو أنهم حذرون ومتوترون قليلاً، إلا أنهم ليسوا متعبين. وعندما رُفِعَت الأعلام الصفراء ليعلنوا أنهم دخلوا، عبرتُ ووجدتُ أنَّ خنادق نار العدو كانت قد دمِّرَت بواسطة مدفعيتنا وقد ملئت بالقتلى واكتست السواتر بحطام البنادق والذخيرة وفضلات من كل الأنواع وألقينا القبض على ضابطين ومئة وستة وثلاثين جندياً من مختلف الرتب وأشخاص

آخرين وأخذناهم أسرى واستولينا على ثلاثة مدافع هاون ورشاشاً. وقام الأتراك خلال النهار بمحاولات متكررة لقصف موقعنا خارج الأراضي التي حصلنا عليها على كلا الجناحين. وبهجمات موجَّهة أسفل خنادق مواصلاتنا إلى مركزنا. واحتلت قوات ويلتشايرز والجنود الويلزيون الملكيون أرضهم وأخرجوهم بالقصف في كل مرة. وفي الصباح قمنا بمهاجمة جبهة على طول ستمئة ياردة، وقبل الفجر قصفنا كلا الجناحين واستولينا على مسافة ألف ومئتي ياردة من الخط القتالي الأول للعدو وعلى موقع قوي في الخط الثاني. وفي الصباح، شَنَّ الأتراك هجوماً مقابلاً آخر على كلا الموقعين وتم صدّهم وإيقاع الخسائر بين صفوفهم. وهكذا فإنَّ دفاعاتهم كانت أكثر كلفة من هجومنا. حَسَبنا 400 فردٍ من قتلاهم في الموقع، ناهيك عن الحاجز من الجثث الذي وضعوه في خندق المواصلات لتقوم مقام الساتر. وهكذا زحف اللواء الأربعون شيئاً فشيئاً إلى الأمام على الضفة الشرقية من الحي تحت غطاء وابل من نيران مدفعيتنا، وعزَّزنا الأراضي التي استولينا عليها، وحتى العاشر من شباط أجبرنا العدو على التراجع عبر النهر. وقد تقدمت موجات المشاة الأربعين خمسين ياردة خلف الساتر من نيران المدفعية واستولت على خط القتال الأول للعدو في كل مرة وقتلت أو استولت على الحامية.

كان لا بد لنا أن ننتبه إلى الهجمات المضادة. إذ تم تدمير الحاجز بسرعة وأحدثت النيران صدعاً في جدار الخندق، وتم جلب بنادق لويس إلى المكان وإقامة حاجزين في ظل غطاء قصف القوات على المواضع، حيث إن الخندق المستولى عليه يمتد إلى موقع العدو. ومن ثم عندما قام الأتراك بهجوم مضاد على أرض مفتوحة قال إنه تم تسليمها بأيدينا. وحولت الأراضي التي استولينا عليها فيما بعد من رماتنا على كلا الجناحين وبشكل عام إلى مواضع قوية أمام خطنا القتالي. وحفرنا خنادق مواصلات إلى الخلف من موضعنا القديم وقمنا خلال الليل بمد الأسلاك عبر جبهتنا الجديدة.

كانت المقاومة التركية على الضفة الغربية من الحي شديدة، وكانت شبكتهم من الخنادق أكثر إتقاناً، وقد مسكت بقوة أكبر. وفي صباح اليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني هاجم اللواء التاسع والثلاثون الضفة الغربية بالتزامن مع هجوم اللواء الأربعين على الضفة الشرقية. وسار كل شيء بشكل جيد في

البداية. اندفعت الكتيبة التاسعة للورسيسترز وكتيبة فورت ستافوردز السابعة إلى الخندق مباشرة بعد توقف الحاجز الناري للمدفعية، وبدأ رماة القنابل اليدوية من كتيبة فورت ستافوردز بتطهير خندق المواصلات على الجانب الأيسر. وهذه هي النقطة الخطرة إذ سقط الضباط الثلاثة الذين يقودون مفارز القصف خلال عملية التقدم، وتكبَّد الرماة أنفسهم خسائر جسيمة. وبعد ساعة من الهجوم كان رماة القنابل اليدوية الأتراك يحتشدون ويضغطون على أسفل الخندق. بعد ذلك دخلت مدافع الهاون الثقيلة المعركة من موقع مخفي على جهة اليسار وأطلقت القنابل بدقة متناهية على مؤخرة كتيبة الستافوردز والذين يتعرضون للهجوم في هذه الأثناء من ثلاثة محاور. وتم قتل أو إصابة جميع رماة القنابل اليدوية للكتيبة تحت غطاء نيران هاونات الخنادق والنيران الكثيفة للرماة الأتراك الذين لا يحملون سلاحاً أو معدات ما عدا القنابل اليدوية، واندفعوا بكثرة في الأرض المفتوحة وقصفوا رجالنا في الخندق. وقتل أو أصيب جميع رماة القنابل اليدوية للكتيبة. ويتم التحقق من التقدم التركي عدة مرات بواسطة النيران الدقيقة لمدفعيتنا وبطارية هاونات ستوكس جي، وفي كل مرة يقدم رماة البنادق في كتيبة ستافوردز موقفاً بطولياً في القتال مع القنابل. إلا أن نيران هاونات العدو كانت ساحقة. وكان بالإمكان رؤية أربع أو خمس قذائف في الهواء في وقت واحد.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف فرض رماة القنابل للعدو هيمنتهم وقاموا بالتقرب من أحد أجنحة الخندق الذي استولينا عليه. واستسلم الجزء الأكبر من الخط القتالي الآن نتيجة الهجوم المضاد للأتراك عبر الأرض المفتوحة تحت غطاء حاجز ناري للمدفعية والرشاشات من جهة الغرب. كان الموقف برُمَّته تحت خطر القصف المدفعي إلا أن مفارز صغيرة من كتيبتي ورسيسترز وستافوردز لا تزال تمسك بالموضع. وبعد ذلك صدر الأمر إلى كتيبة ورديكس للقيام بالهجوم. وجاءت القوات على العلن على شكل موجة بقيادة الضابط العقيد هندرسون (قُتِلَ). وأجبر الأتراك على التراجع خارج الخندق. وفي الساعة الثالثة قام الأتراك بهجوم مضاد مرة أخرى. وتكرر الصراع الدموي وتم تدمير مفرزة القصف من كتيبة ورديكس بواسطة هاونات الخنادق من الجهة اليسرى، حيث كانت قوات ستافوردز موجودة، واقتحم

العدو خطنا القتالي. واستخدم الأتراك الذين استولوا في البداية على أعلام الدلالة التابعة لنا والحواجز التي تستخدم لتحديد تقدمنا من أجل التشويش على مراقبينا. وتم تأجيل عملية القصف المكثّف لخط هجوم العدو أسفل خندق المواصلات من الجهة الشمالية الغربية. وغادرت قوات المشاة التابعة لنا الخندق اعتقاداً منهم أنهم يقصفون من قبل رماتنا. ولم تتم إعادة السيطرة على الخط القتالي في تلك الليلة.

وهكذا انتهى الهجوم الأول غرب الحي بالفشل، إلا أن اللواء أبدى الكثير من البسالة. لأنه كان يوماً من القتال الصعب، من وجهة نظر تكاليفه. إذ فقد اللواء 35 ضابطاً و900 جندي من مختلف الرتب وحفظ في الملف: سقوط جميع الضباط القياديين الثلاثة وقد خرجت سبعة مدافع من مجموع ثمانية من بطارية الهاونات ستوكس من المعركة. وتم تدمير ثلاثة رشاشات من مجموع أربعة رشاشات في الخندق من جراء نيران العدو. أما الرشاش الخامس فلم يصل إلى الخط القتالي لكنه دخل العمل على بعد 30 ياردة إلى الخلف لمشاغلة رماة العدو على الجهة اليسرى، وقد قاتل ببسالة إلى أن قتل الملازم غرين وفريقه الذي غالباً ما يمثله رجل. أما عريف مفرزة الرشاش الذي أنقذ الرشاش (العريف كارترايت، من كتيبة ورسيستر الثانية المتأخرة) فقد توفي لإصابته بنوبة قلبية عندما كان يقوم بنقلها إلى خطوطنا القتالية. وكقاعدة، يستدعي الفشل الصفات العليا والأجمل أكثر من النجاح. وإن رماة الرشاشة ورماة كتيبة ستافوردز هؤلاء الذين سقطوا من أجل رجل، والويرويكس الذين دمروا الهجوم المضاد واحتشدوا في خطنا القتالي المترنّح وقوات كتيبتي ستافوردز وورسيسترز التي بقيت في الخندق جنباً إلى جنب مع الأتراك لم يتم نسيانهم بسرعة.

وتم خلال الليل إسعاف الفرقتين الرابعة عشرة والثامنة عشرة على الضفة اليمنى، وفي صباح يوم السادس والعشرين من شهر كانون الثاني شنّت قوات البنجاب في الكتيبة 82 والكتيبة 26 هجوماً وسيطرت على الخط القتالي الأول. وأخرج رماة الكتيبة 82 المدفع الهاون المدمر من المعركة. وابتعدت إحدى سرايا الكتيبة السادسة والعشرين كثيراً إلى اليسار في أثناء التقدم، وأخطأت هدفها ومرت مرة أخرى على إحدى النقاط في خندق مواصلات العدو. وتحول الخطأ حساباً رائعاً وربما حسم المعركة. إذ اكتسحت هذه السرية في طريقها مفرزة رشاشة ترمي بانتظام وأقامت

مباشرة في موقعهم المحفوف بالمخاطر وغير المرخص به، وبقيت فيه طوال النهار مقطوعة من الاتصالات تماماً، وأدخلت أسلحتها من بنادق لويس إلى الموضع، وجعلت رؤوس الأتراك إلى أسفل الخنادق التي من خلالها يشنون هجماتهم المضادة. لقد أنقذ الموقع المتقدم الذي استولوا عليه على أحد أجنحة العدو باقي الكتيبة والكتيبة 82 في الخندق الذي استولوا عليه من الضغط الذي ربما يكون ساحقاً. وتكبدت الكتيبتان خسائر فادحة إذ قُتِل من الكتيبة الثانية والثمانين ضابطان بريطانيان وأُصيب ثلاثة آخرون بجروح من مجموع ثمانية من الذين تمكّنوا من اجتياز حاجز نيران المدفعية و240 جندياً من مجموع 500 جندي. بينما فقدت الكتيبة السادسة والعشرين قائدها العقيد تومبسون- إذ وجدت جثته في خندق المواصلات- وفقدت نصف قوتها. وفي ظل هذه العقوبة تم الاستغناء عن جزء من الخط القتالي، إلا أن الخندق لم يترك إطلاقاً. ففي الساعة الثالثة بعد الظهر قامت سرية من الهانتس بتعزيز الحامية. وبعد حلول الظلام استولت الكتيبة بأكملها على الخط القتالي واستبدِلَت الكتيبتان البنجابيتان.

وفي هذه الأثناء، أوقف اللواء الأربعون الأتراك على الضفة الشرقية، وقام بمد جبهته وتعزيزها طوال الليل والنهار، وهم يزحفون إلى خط المقاومة الجديد للعدو استعداداً للهجوم المكثَّف المقبل على كلا الضفتين من النهر اللتين كان من المقرر تسليمهما في الأول من شهر شباط. وعلى الضفة اليمنى كانت قوات اللواء الثامن والثلاثين تتقدم واضعين جناحهم إلى نهر دجلة، وفي صباح يوم الثامن والعشرين من كانون الثاني احتلوا خنادق الأتراك القديمة، وتعاون اللواءان وأكملوا الشبكة خلف العدو من نهر دجلة إلى الحي.

وفي الأول من شهر شباط، هاجم اللواء السابع والثلاثون على الضفة الشرقية واللواء الأربعون على الضفة الشرقية من الحي. وفي الضفة الشرقية كانت قوات الجيشايرز في خط النار. واندفع الهجوم نحو مرتفع في وسط خط العدو. ومثلما جرى في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني، إذ قُتِل أو أُسِر جميع أفراد الحامية، وأخذ 135 أسيراً، ثم أجبر الأتراك على التراجع إلى أقصى خندق لهم. وقام رماة القنابل اليدوية في كتيبة الجيشايرز برمي القنابل على كلا الجناحين التي كانت

آمنة إلى أن تمكنا من الاستيلاء على جميع الخط القتالي من نهر دجلة إلى الحي. وعملت مفرزة ثالثة على طول خندق مواصلات العدو واستولت على نقطة قوية منذ البداية. وتم تحقيق الهدف بشكل نظيف، كما حدث في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني. وتقول يوميات الحرب اليومية للواء إنها تشبه عملية تكرار الأوامر، مع تغيير وحيد وهو تغيير التوتر.

ولسوء الحظ، فإنَّ ما حدث في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني تكرر في الضفة الغربية من الحي بالإضافة إلى الضفة الشرقية. وفشلنا مرة أخرى هنا، بينما تم تحقيق هدفنا على الضفة الشرقية بدون عراقيل. وقاتلت الكتيبتان المشاركتان في المعركة قتالًا أكثر بأساً، إلا أن الأتراك ركّزوا قتالهم على هذا المرتفع الذي كان النقطة الأكثر حيوية في نظام دفاعه، وتم صد الهجوم الأولي الذي قام به اللواء السابع والثلاثون مثل هجوم اللواء التاسع والثلاثون في الخامس والعشرين من كانون الثاني.

كان الهجوم الذي شنته كتيبة السيخ السادسة والثلاثون على الضفة اليسرى وكتيبة السيخ الخامسة والأربعون على الضفة اليمنى، ذهبت كلتا الكتيبتين بكامل قوتها وقد أبيدتا من الناحية العملية. عاد أحد الضباط البريطانيين فقط بدون أن يصاب بجروح. وفقدت كتيبة السيخ 36 خمسة ضباط بريطانيين قتلوا، وفقد ضابط آخر وأصيب ثلاثة آخرون بجروح، بينما فقدت كتيبة السيخ الخامسة والأربعون ضابطين قُتِلا وفُقِد أربعة آخرون وأصيب آخر بجروح. ومن كلتا الكتيبتين خرج 190 منتسباً من الهجوم، وليس من المرجَّح إعلان طبيعة التصرفات بالضبط التي أدت إلى هزيمتنا؛ لأنَّ الضباط الذين ربما سيلقون الضوء عليها قد قُتلوا أو أُسروا لدى الأتراك، إلا أنَّ الأسباب الرئيسة لصد الهجوم هي هذه في المقام الأول، إذ كان يُعتَقد أنَّ خندق المواصلات (ك-1 ك3) مفتوحٌ إلا أنَّ الأتراك شغلوا الجزء الأكبر منه ليلاً، تاركين الحامية المكرَّسة لرماة القنابل في الخندق (ك2) في الهواء مع جميع طرق التراجع. وتمت إعاقة رماة القنابل التابعين لنا والذين ينبغي أن يعملوا على طول الخندق إلى الموقع التركي من قبل هؤلاء وأنه من الطبيعي قد انتهت باحتلال الخندق بأكمله.

جلب الاتراك رشاشاتهم إلى مدى قريب، واكتسحوا أرض هجومنا فوق الخندق (ك-1 ك3) مباشرة التي كانوا يتحشدون فيها. وفي لحظة ظهور كتيبة السيخ السادسة والثلاثين من الخندق، وقعوا ضمن مدى النيران المنتظمة من بطارية الرشاشات هذه على جانبهم الأيسر ومن برج الأكياس الرملية على يمينهم. وكان قصفنا المدفعي ونيران أسلحتنا المخفية على جناحهم الأيسر واسعاً، كانت أهدافنا واضحة وضمن مدى قريب.

تعرَّضت بعض قوات الكتيبة السادسة إلى القصف قبل مغادرتنا الساتر، ومع ذلك فقد اجتازوا بشجاعة تاركين وراءهم خطّاً من القتلى إلى أن وجدوا أنفسهم في خندق فارغ (X) اتخذوه ليكون الخط القتالي التركي الأول. كان خندقاً جديداً وواطئاً تمّ حفره من قبل العدو أثناء في الليل. وكان الفخ الثاني الذي نصبه الأتراك عبارة عن خدعة حربية كارثية كالفخ الأول. ومن هذا الموقع فتح السيخ النار على ما كانوا يعتقدون أنه الخط التركي الثاني، وقد قتلوا جميعاً من قبل رشاش نصب على الجانب الأيسر ودمر الخندق بشكل حتمي كالريح العاصفة. فدمِّرت الكتيبة، وعاد منها 92 فرداً فقط. كان أحد أفراد الكتيبة شجاعاً، إذ وجد غطاء من بين الأنقاض، فواصل الرمي ببندقيته نوع لويس إلى أن تعطلت. وعاد وحده بعد أربعين دقيقة من صد الهجوم، مع إصابته بأربعة جروح، إلا أن بندقيته كانت سليمة.

استولت كتيبة السيخ الخامسة والأربعون على الجانب الأيمن من الخط الدفاعي الأول والثاني للعدو، فتغلغلت إلى الخط الثالث، إلا أنّهم حال فشل هجوم الكتيبة السادسة والثلاثين تُرِكوا في العراء. وفتحت الرشاشات التي كانت في أبراج من أكياس الرمل النار عليهم، وطور الأتراك هجوماً مضاداً قوياً على جناحهم الأيسر. وقد شوهد أحد الضباط الإنكليز وهو يجمع رجاله وأطبق عليهم بالعراء، وكان هو وفرقته الشجاعة قد طُوِّقوا وسُحِقوا. وفي صباح اليوم الثالث من شباط شن اللواء السابع والثلاثون هجوماً، وكانت كتيبة الديفونز الرابعة على اليمين والكوركا 9/1 على اليسار وكتيبة البنجابيين الثانية والستون (اللواء السادس والثلاثون) في تعاون وثيق. وفي هذه الأثناء، كان حاجز مدفعيتنا على الجناح قد انسحب إلى مسافة أقرب، وكانت نار رشاش العدو أقل رعباً، إلّا أنَّ الرصاص المتطاير كان على وشك

أن يجعل العبور صعباً. شاهدت قوات الديفونز والكوركا انقراض السيخ قبل ثمانٍ وأربعين ساعة، وكان القتلى قد تكدَّسوا على الأرض وكانت القوات تتقدم فوقها. وقد زحفوا إلى مسافة خمس وعشرين ياردة من خندق النار التركي قبل رفع عملية القصف. وظهر الأتراك الذين كانوا يحتمون بشبكة من الخنادق حفرت إلى الخلف، في الوقت المناسب ليتلقّوا الضربة القاضية. وأجبرت القوة على التراجع إلى الخط الثاني وحملت الرغبة الجامحة لقنص الكوركا معصوبي الأعين بشكل لا يقاوم. وكانت قوات الدايفوس التي كانت على يسارهم مليئة بقصص عن اندفاعهم وحماستهم. ولمتابعة الحاجز الناري وإنهاء عمل المدفعية كان يعود إلى (الكوركا) وهو نوع من القنص التام. ويبدو أنهم بالكاد كانوا يدركون أنهم يسقطون بسرعة. وفي الخندق الثالث كانوا يضربون الأتراك وكانوا يطاردونهم. هنا، هنا، صاحب! صاح أحدهم، وأشار إلى خليج صغير حيث إنَّ العدو لا يزال يرتعد من الخوف ويلقي بقنابله على رؤوس الأتراك مع ابتسامة عريضة بالبهجة وإلقاء نظرة على الضابط الأبوي للموافقة. وكان أحد الأفراد متحمِّساً جداً بحيث إنه تبع رمانته اليدوية إلى الخندق قبل أن تنفجر، وانفجرت عليه هو وجندي تركي آخر سوية.

شاهدت جثث قتلاهم في ميدان المعركة في اليوم التالي ملقاة في وضع الهجوم ومتصلِّبة وهو الوضع الذي قتلوا فيه. إلّا أنّني لم أرَ الهجوم في الثالث من شهر شباط. إذ إن اللواء أربعين الذي أقمت معه، استُبدِلَ باللواء الثامن في الضفة الشرقية من الحي، بعد معركة الأول من شباط، وفي ليلة اليوم الثاني صدرت الأوامر له للخروج بحركة على أحد الأجنحة إلى أقصى اليسار من موقعنا. ووعد هذا بأن تكون هناك أثارة، لذلك تمسَّكت باللواء، ولكن وكما أثبتت الأحداث، قدَّمت المسألة القليل لتعوِّضه؛ لأنّنا ولليوم الثاني كنا بدون نوم. يجب أن يكون التحويل له تأثير مزعج على الأتراك - وينبغي أن يمنح ظهور أربع كتائب جديدة تحفر الخنادق على يمينه، بينما عمل الخيَّالة دائرة أوسع، ينبغي أنها منحتهم بعض اللحظات من عدم الارتياح وتخفيف الضغط الذي بإمكانه أن يمارسه ضد أهدافنا الحقيقية. وقد قُصِفنا بوحشية عند الفجر، وهاجمت قوات ويلز فوسيلرز الملكية بعض مواقع العدو القوية، وفقدت الضابط الذي يقودها العقيد هاي، وقُتِلَ ضابط آخر، والعشرات من

الرجال. لكنه كان شيئاً مريباً إذ ساعد في حركة التطويق كثيراً. يتم تقديم التعزيزات طوال اليوم لتلبية متطلبات هجومنا العسكري، وشن الهجمات المضادة واحداً تلو الآخر لكن تم صدها جميعاً. وبعد ساعة ونصف من استيلائنا على خطهم القتالي الثالث، جاؤوا على شكل حشود من موقعهم الأيسر في الحي، لكننا أوقفناها بنيران بنادقنا ورشاشاتنا ومدفعيتنا. وفي الساعة الواحدة وخمسين دقيقة رُصِدَ هجوم مضاد ثانٍ قبل أن يتطور. وفي الساعة الثانية وخمسين دقيقة كان هناك حشد كبير آخر يستعد للتقرُّب وفرقناه بواسطة مدفعيتنا. وفي الساعة الرابعة والنصف دكت مدفعيتنا ورشاشاتنا المنطقة التي يتم فيها تقديم التعزيزات التركية لمساعدة قواتها، وربما تسببت في إلحاق أفدح الخسائر في ذلك اليوم. وفي الوقت نفسه حاول العدو شن هجوم بالقنابل وتم رصده وإجباره على التراجع إلى الجناح. وفي الساعة السادسة قاموا بآخِر هجوم يائس لهم، وقاموا بالتقرب على كلا الجناحين، ولكن هذا الهجوم تم تفريقه أيضاً وتكبيدهم خسائر فادحة.

كان يوم الثالث من شباط أكبر يوم في الربية، وكان حاسماً. وتكبَّد الأتراك قتلى تفوق خسائرهم البشرية في أية معركة منذ معركة (بيت عيسى). وحُطِّم قرارهم في الدفاع. وفي الأسبوعين التاليين من القتال انهارت قواتهم من المشاة أمام نيران بنادقنا. كان تأثير المعركة مباشراً على الضفة الشرقية من الحي. ولم يعد أي هجوم هنا، وكانت ثلاث هجمات بالمدفعية والمعركة الخاسرة عبر القناة دفعت العدو إلى اتخاذ قرار بالتراجع. وقد وجدت قواتنا المشاة الموقع قد أخلي بعد الفجر. ودُمِّرت الطوافات في مدخل الحي بواسطة أسلحتنا، وأصبحت الضفة اليمنى من النهر بأكملها إلى الشرق من هذا الموقع خالية من العدو.

إنَّ وصفاً تفصيلياً للعمليات على أرض الحي للفترة من الثالث والعشرين من كانون الثاني إلى الخامس عشر من شباط سوف يستنفد صبر القارئ. وبعد الثالث من شهر شباط ظهر يومان متميزان وبارزان. كانت هناك لباقي المعارك العشرات من الأمور الصغيرة للمواقع والدوريات والخفراء والمناوشات والأعمال الفردية من البسالة والتحمل لا حصر لها ومرت بدون ذكر. إنَّ مجرد الصمود أمام موضع العدو، وتجهيز خطنا القتالي بالأسلاك والتعزيزات يعني حصيلة معينة من القتلى.

حتى خلال أكثر الفترات هدوءاً، كانت في مراكز الإسعاف المتقدمة العشرات من الحالات أو أكثر تستدعي إرسال سيارات الإسعاف في صباح كل يوم. وكان على القس القيام بخدمات الدفن والقراءة على الموتى. وخلال الفترة من الثاني عشر من كانون الثاني إلى الحادي والثلاثين منه، حفر اللواء الأربعون خنادق للنار والمواصلات بطول سبعة أميال من الخط القتالي للعدو والتي تم الاستيلاء عليها. وقد أنجِز ذلك كله في العراء وبشكل عام أثناء الليل تحت غطاء ناري. ولم يكن هناك وقت لأعمال حفر الخنادق للاقتراب من العدو. ولكن كل رجل يسقط وهو يحفر ينقذ العديد من الآخرين، وإن كل ياردة تقترب فيها من العدو تمنح قواتنا من المشاة أرضاً مفتوحة أقل للتغطية في الهجوم.

بعد ذلك، كان هناك تمدُّد لخطنا القتالي عن طريق قصف الخنادق بعد الهجوم، وتم الاستيلاء على ألف ياردة من الأراضي هنا بدون إطلاق ولو طلقة واحدة، والاستيلاء على خمسين ياردة مقابل العديد من الأرواح. تم ذلك كله من خلال التعاون الكامل مع المدفعية. وقد وجدت إحدى مفارز القصف نفسها في زاوية ساخنة اجتاحتها النيران من إحدى النقاط القوية. ونصح ضابط الرصد المتقدم بالتوقف، وقال الملازم في القيادة إذا تراجع رجالكم خمسين ياردة إلى الخلف، فإني سأفتح نيران المدفعية وسأتصل ببطاريته. وخلال ثوانٍ سقطت قذائف شديدة الانفجار على الحاجز الدفاعي مع انفجار مدمر. وبعد ذلك رفع العلم الأبيض.

تزايد هذا العمل من القصف بشكل سهل حيث أصبحت معنويات الأتراك ضعيفة. وتمت تغطية الأرض بشكل سريع، وفي الفترة بين التاسع من شباط إلى الثالث عشر منه حررت قوات ساوث لانكشاير نحو خمسة آلاف وخمسمئة ياردة من خندق مواصلات العدو وثلاث نقاط قوية. وكان بإمكان العديد من الكتائب تحقيق سجل مماثل. إلا أنَّ جميع صفحات الإحصائيات ستكون مملّة. وكانت قصة المعارك الأصغر للألوية الستة مليئة بالعديد من الفقرات.

وفي التاسع من شباط قمنا بهجوم آخر على خط العدو الرئيس. وتقدَّمت كتيبة /كنغ أون/ هذه المرة بعد القصف الاعتيادي بينما قامت كتيبة غلوسترز بمهاجمة

إحدى النقاط القوية في أقصى اليسار. وقمت أنا بمراقبة الهجوم من نقطة رصد رامي المدفعية التي تبعد نحو ألف ياردة خلف خط القتال وأصبحت لدينا هنا رؤية واضحة عن الأمن. لم يكن لدى الأتراك المزيد من الذخيرة لتوفيرها في هذه الفترة وكانوا مهتمين جداً بالهجوم ومواجهة أسلحتنا؛ لتجنب الكثير من شظايا الأعصاب. لم تسقط قذيفة واحدة ضمن خمسين ياردة من المرصد.

لقد تعلّمت الكثير من خلال الاستماع إلى الملازم الأول في المرصد وبدأت أفهم الربط الوثيق والأساسي لكل مدفع مع مرحلته الخاصة بالهجوم. «لماذا لا يرمي المدفع رقم 4؟ صرخ من خلال حاكية الهاتف. ماذا حدث للرقم 4؟ أخبِر الرقم 4 بمواصلة القصف». مرت دقيقة كاملة والعديد من التعنيفات أمام الرامي في المكالمة الهاتفية.

«الرقم 4 قد خرج عن العمل، سيدي. الحالة كانت ساخنة». ومرت دقيقة أخرى وصدرت الأوامر إلى المدفعية رقم 1 و2 و3 بالمباشرة بالرمي. وسمعت بعد ذلك «أن المدفع رقم 4 عاد إلى العمل، سيدي. وأطلق النار» وتم استدعاء الملازم الأول في المرصد بالنزول. هذا جيد. وكرّرها. أخبرهم أنّهم يقتلون الأتراك. ثم انقل الرمي إلى منطقة أخرى.

استنتجت أن المدفع رقم 4 كان مسجلاً على خندق المواصلات وكان يلعب لعبة البولنغ مع تعزيزات العدو لدى تقدمها. إنه كان خط صوت حفيف قذائف بعض هذه المدافع التي تمر من فوق رؤوسنا وتجتاح الشقوق المتعرجة في الطين على بعد ألفي ياردة من جبهتنا. وخرجت المدفعية رقم 1و3 حالاً عن العمل للسبب ذاته، وهو تعطيل مؤقت بسبب الاستخدام المفرط.

كان القتال ساخناً، وليس هناك حركة بالمشي. وبعد ساعة أو ساعتين كان رشق الرصاص في خط النار مثل البَرَد. إلا أنَّ الأتراك لم يقوموا بهجوم مضاد حتى حلول الظلام. بعد ذلك بدؤوا بالقصف أربع مرات على مركزنا ويجبرون على التراجع في كل مرة. وبعد صدِّهم في المرة الأخيرة تراجعوا وقاموا بمعركة دفاعية طوال الليل، ويتراجعون باتجاه النهر. وقمنا بزج قطعات جديدة لمتابعتهم. وكنتيجة للقتال خلال النهار تقدمنا على جبهة تبلغ أربعمئة ياردة وبعمق نحو ميل.

قد تكون المعركة في التاسع من الشهر تعدُّ نهاية السلسلة الطويلة من الاشتباكات التي من خلالها طردنا الأتراك من ربية الحي. وفي صباح اليوم التالي، العاشر من شهر شباط دخلت سريتان من كتيبة البنجابيين الثانية والستين إلى معمل الكوت لعرق السوس، كانت القرية مسوَّرة على الضفة اليمنى التي تسيطر عليها حامية طاوزند خلال عملية الحصار. وكان الموقع قد أُخلي خلال الليل، وكانت الكتيبة الثانية والستون التي تواجه نيران القنَّاصة فقط عبرت نهر دجلة، ومنحتنا السيطرة على معمل عرق السوس التحكم بمدخل الحي من كلا الضفتين. إلا أن نهاية أحد الأهداف كانت بداية للهدف المقبل. ونقل نظام الخنادق المفصَّل للعدو بعيداً إلى الغرب. وجلب تعزيزات من الضفة الشمالية. وتم التعامل معه بضربة تلو الأخرى وليس هناك فرصة أو فترة استراحة في هذه العمليات للرجل المقاتل.

كانت عقدة نهر دجلة شمال غرب مدينة الكوت التي تعرف بمنحنى الظهراء، قد حُرِّرت. وفي صباح اليوم العاشر من شباط تسلَّم اللواء الخامس والثلاثون المهام من اللواء السادس والثلاثون، وقدم خطنا القتالي على يمين ضفة النهر. واندفع اللواء السادس والثلاثون إلى الأمام واشتبك معهم. ونشر اللواء التاسع والثلاثون خطّاً من مفارز الطوارئ خلف اللواء الثامن والثلاثين كجناح دفاعي باتجاه الجنوب الغربي. وقد تكبَّدت كتيبة الغلوسيسترز خسائر فادحة خلال هذا التقدم، إلا أنها طردت المخافر الأمامية للعدو. وعندما استولت كتيبة نورث لانكشايرز على إحدى النقاط على ضفة النهر في صباح اليوم الحادي عشر من الشهر، أقمنا خندقاً متواصلاً وخطّاً من مفارز الطوارئ بطول ثمانية آلاف ياردة من معمل عرق السوس إلى العقدة التي كان العدو يتحصَّن فيها بقوة. وطوَّرنا في هذه الجبهة دفاعاً كبيراً، وأجبرنا الأتراك على التراجع على نهر دجلة إلى موقع محمد عبد الحسن وربيَّة الحي. كان اللواء التاسع والثلاثون، الذي يعمل أسفل مجرى النهر أيضاً أقرب إلى عنق العقدة، ويقوم بتمديد خطنا القتالي غرباً. إلّا أنَّ هناك مواقع قوية ينبغي اقتحامها قبل أن نكون جاهزين للقيام بهجوم عام آخر. وفي الحادي عشر من الشهر، هاجمت قوات كتيبة غريناديرز / 102/ إحدى مفارز طوارئ العدو القوية. وكان تقدمهم عبر الأرض المفتوحة قد تعرَّض إلى رشقة من نيران الرشاشة، قتل خلالها ثلاثة ضباط بريطانيين

وجرح ثلاثة آخرون من مجموع ثمانية الذين غـادروا الخندق، فضلاً عن 250 عنصراً من الجنود. لكنهم سيطروا على الموقع وتبعتهم سرية من كتيبة دوغراس 37 لمساندتهم في تعزيز الحامية وقد أصيب جميع ضباط السرية، وهم ضباط بريطانيون وهنود، كما أُصيب ستة وستون جندياً آخرين وهذه هي المعركة الأولى التي تشترك فيها الكتيبة 102 منذ بدء القتال في شهر كانون الثاني عام 1916، وعندما انخفض عدد الكتيبة بسبب الخسائر إلى مجرد مئة جندي صالح للخدمة، تم تكليفها بحماية خطوط المواصلات تخفيفاً لها.

في الخامس عشر من كانون الثاني، كنا في موقع للقيام بهجوم عسكري، إلّا أنَّ هناك نقطة قوية على يسارنا تدعى «المدمرون» على ضفة النهر، والتي كان من الضروري الاستيلاء عليها أولاً، لأنها تفتح نيرانها على قواتنا المتقدمة، وهاجمت كتيبة لوبال نورث لانكشاير المكان مباشرة بعد الفجر وأخرجت الأتراك منها. وبعد ساعة، بدأ الهجوم الرئيس، وتعرَّض الهجوم إلى ضربات ساحقة ومؤثرة. وانهار شيء ما في الروح المعنوية للأتراك. وانهارت مقاومتهم، وأجبر العدو على التراجع إلى نهر دجلة واستسلم بشكل جماعي. لم نحرر المنحنى بدون قتال، إذ فقد اللواء الأربعون نحو ثلاثمئة وثلاثين عنصراً في ذلك اليوم. إلّا أن الأسرى الذين استسلموا لهم وللواء الخامس والثلاثين الذي قام بالهجوم بعد الظهر بلغ نحو ثمن جيش خليل باشا بأكمله.

تحرَّكت كتيبة ساوث ويلزبوردرز التي تقوم بالهجوم على الجانب الأيسر، وكتيبة رويال ويلز فوسليرز على اليمين، على شكل موجة. وكان عليها ستمئة وخمسون ياردة من الأرض المفتوحة ينبغي حمايتها. وبمجرد وصولها إلى خندق العدو خرجت مجموعة من الجنود من وسط الموقع واستسلمت. كان هذا الاستسلام الأول قد سبب عدوى، إذ تكرر على طول الخط القتالي. وتقدم الأسرى بأعداد كبيرة وهم يلوحون بالأعلام البيضاء، واستمر الموكب نحو ساعة، وأدار الأتراك قذائفهم عليهم (أي على الأسرى الأتراك)؛ مما سرع من مجاميع الأسرى. وأوضح أحد الأسرى بقوله: «إنهم لا يريدون القيام بهجوم مضاد، وإن بإمكان الفرد أن يفهم هذا النفور بعد الاقتراب من الحاجز الناري لمدفعيتنا. وما إذا كانت هذه الكتائب تابعة

للقوات التي كنا نقاتل ضدها في موقعي محمد عبد الحسن والحي، وما إذا وصلت حدود التحمل لدى نفس الرجال الشجعان إلى ما لا يطاق، ليس من السهل الحكم. إلا أننا قدمنا تفوقنا إلى وطننا.

وبعد الظهر، شن اللواء الخامس والثلاثون وكتيبة دوغراس السابعة والثلاثون على يساره وكتيبة الهانش على اليمين هجوماً آخر على الجناح الأيمن من الموقع الذي استولينا عليه. وشهدت الحامية هنا عملية استسلام في الصباح، وتكرر المشهد ذاته. وفي أثناء تقدم مشاتنا ببطء كان الأتراك يرمون بنادقهم ويهربون من الخنادق بحشود غير مسلحة. وكانت مجاميع الأسرى التي خرجت لمواجهة الكتائب المهاجمة تفوقهم في العدد. وسارت قواتنا من خلالهم عندما تضاعف عددهم وهم يسرعون لاجتياز محنة مدفعيتهم. كان الحشد ذا مظهر سلمي وقد اجتاز خنادقنا بدون مصاحبة تماماً. وواصلوا رفع أعلامهم البيضاء حتى تواروا عن الأنظار وأبدى البعض منهم فرحهم لأسرهم سالمين وبتلميحات وإشارات بهجة مشرعين بنوع من الحركات المتعثرة تشبه الرقص.

وبعد الاستيلاء على هذه الخنادق، اندفع اللواءان الخامس والثلاثون والأربعون إلى ضفة النهر. وعُزِل أقصى الجناح الأيسر للأتراك وترك في العراء بهذه الحركة، واستسلم هو أيضاً. وفي الساعة السادسة مساءً كان العدو يمسك بأحد الخنادق على ضفة النهر. وبعد حلول الظلام تمت مهاجمة موطئ القدم هذا من قبل كتيبة الكوركا الرابعة، وأُسِر جميع الذين بقوا في الموقع. لم تكن زوارقهم كافية لنقل القطعات والمواد عبر النهر، وقد اكتسحت نقاط العبور من قبل قذائفنا ليل نهار.

يبدو أن الأتراك أدركوا خلال الأسبوع الماضي خسارتهم لمعركة الضفة اليمنى من نهر دجلة غرب الكوت. وفي العاشر من شهر شباط، أغرقوا الأرض إلى الغرب من وادي المساج لإعاقة تقدمنا. وفي الثاني عشر من الشهر ذاته قاموا بسحب جسرهم من منطقة شمران.

وظهر أن الاستسلام العام في الخامس عشر من الشهر كان تقريباً متعمَّداً، ولكن مهما قررت القوات، إلا أن أركان الحرب كانوا يقصدون الاستيلاء على المنحنى.

وأُسِر ضابطان برتبة عميد، وهرب قائد الفرقة في زورق في الوقت المناسب، وأُسِر 2200 جندي وضمنهم ضباط، والاستيلاء على ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف بندقية وخمسة رشاشات وكميات كبيرة من الذخيرة والرُّمَّانات اليدوية والتجهيزات الطبية وأسلاك الهاتف وتجهيزات أخرى.

وفي الليل، تغيَّر الجو الصافي وسقط المطر بغزارة وغرقت الخنادق. وخدم طقس بلاد وادي الرافدين المحتلين لآخر شهر، وكانت العناصر المتقلِّبة بجانبنا. وأعطانا أحد الضباط الأسرى وجهة نظر الأتراك.

«وقال: إنَّنا كنا ندعو إلى سقوط هذا المطر طوال شهرين من أجل إعاقة تقدمكم، والآن جاء المطر متأخراً جداً».

الفصل الثامن والعشرون

العبور

قد يكون الأتراك لا يعلمون ما ستؤول إليه حركتنا المقبلة عندما حرَّرنا منحنى الظهراء. استولت قواتنا على الضفة اليمنى من نهر دجلة، بينما كانوا هم على الضفة اليسرى على طول ثلاثين ميلاً من الصناعيات إلى شمران، وكان موقعهم في الصناعيات مع جناحه الأيسر على الهور قد أغلق النهر بوجه ملاحة قواتنا. ولو أن طالباً في كلية عسكرية قد وضع مثل هذا المقترح التكتيكي قبل عام أو عامين، لَوبِّخ لجهله بالمبادئ الأساسية للحرب. ويمكن الحكم بالصحف الناقدة أن تقليد كلية الأركان القديم ما زال سارياً. ويطرح السؤال، إذا كنا في موقع يمكننا رمي الصناعيات، هل سنسمح للأتراك بالانتظار؟ ولكن الأتراك كانوا أيضاً في موقع يمكنهم الرمي علينا، وإن من بين الأشياء التي تعلَّمناها نحن الطرفين في هذه الحرب هو أن الخنادق المحمية والمعزَّزة التي لا يمكن اختراقها برشقات نيران المدفعية الخفيفة ما لم يتم جلب مدفعية ثقيلة للتأثير عليها. وإذا كان لدى طرف مدفعية ثقيلة فليس هناك حاجة للرمي الخفيف.

لا أحد منا يمتلك مدافع ذات عيار كافٍ لهذا النوع من العمل، وهناك طرق أفضل للاستيلاء على الصناعيات من الهجمات الجبهوية المكلفة. فإذا عبرنا النهر إلى مسافة وقطعنا خط المواصلات فإنَّ الحامية ستبقى في الهواء بدون مؤونة. وبالاندفاع إلى الأمام مع هجومنا على الضفة اليمنى مددنا خطنا القتالي، وفي الوقت نفسه بالنسبة للأتراك، إلّا أنه بإمكاننا إيقاف هذا التمدد بشكل أفضل منهم. كان لديهم خندقٌ وخط لمفارز الطوارئ على طول ضفة النهر، لا يستطيعون المخاطرة بالتواجد في أي مكان. كان الأمر مفتوحاً بالنسبة لنا للتحشد والعبور

من أية نقطة شرط أن يكون الأتراك غير مستعدين، والاستيلاء على موطئ قدم يكون منطلقاً للتقدم، وينبغي أن يكون العبور في أثناء الليل. وإذا عبرنا إلى الضفة الشمالية قبل ضوء النهار لم يكن لدى الأتراك وقت لجلب تعزيزاتهم في العراء تحت نيران رشاشاتنا ومدفعيتنا.

كان عنصر المباغتة ضرورياً فكل شيء يعتمد على إرباك الأتـراك ومن ثَمَّ وضعهم بالمصيدة على طول الضفة. كانت هناك غارة ليلية عبر النهر هنا، وانخفض رمي القوارب، وارتفع صرير العربات، وكانت إشارات الحركة في كل مكان. وفي المكاصيص، التي تبعد أربعة أميال إلى الجنوب من الكوت، نزلت مفرزة من كتيبة البنجابيين السابعة والعشرين، ودفعت إحدى مفارز الطوارئ التي عادت مع استيلائها على مدفع هاون خنادق. ونزل أربعون عنصراً منهم وباشروا بقصف كلا الطريقين على طول الضفة. وحملوا معهم الرمانات اليدوية والبنادق مع تثبيت الحراب إلا أنهم كانوا بدون ذخيرة. كانت حركة جريئة، وفي الصباح ذكرت إحدى الطلعات الجوية وجود فصيل ورشاشين في إحدى النقاط في شبه الجزيرة وكتيبة في الداخل، وقد تم إزالة الرشاشات. يبلغ عرض النهر هنا ثمانمئة ياردة، وكان الفيضان إلى النصف. استغرق العبور عشرين دقيقة، إلا أن رشقات الماء المدوية تطغى على رشقات المجاديف وضوضاء الصعود على متن المراكب والمسافة البعيدة للعبور جعلت الأتراك غير مرتابين وغير مستعدين. وبينما كانت المفرزة تقوم بالانسحاب عبر نهر دجلة أنير الظلام بمشعلي تنوير، وهي إشارة العدو بأننا عبرنا. وهي إشارة أيضا بأن الضربة قد انكشفت. ليس هناك شك من وجود إرباك في المعسكر التركي، السرعة في الذهاب والمجيء، وحشود الرجال المسلحين لمقاومة الجوع والأشباح.

كما اكتشف العدو نشاطاً سرياً للغاية في مدخل الحي. إذ لاحظ أحد مراصد العدو الذي يتجنب حارسنا الجوي أن خفراءنا يقومون بعملية انسحاب من شمران، ويتم سحب عدد من الطوافات إلى أعلى مجرى النهر تحت غطاء الضفة باتجاه معمل عرق السوس. ويتم إنزال الكثير من الأخشاب ليلاً في هذا المكان. كانت جميع الأصوات التي لا مفر منها للاستعداد مبالغ فيها، وتمت ملاحظة جميع الاحتياطات الطبيعية السرية من الناحية الدينية. لم تكشف الأضواء ولم تسمع

أصوات بشرية، ما عدا قعقعة الألواح والكابلات، بينما أصبح على مستوى أعلى، حيث ينبغي أن يكون العبور، حدوث أصوات الدواليب غير المزيتة ليلاً شيئاً مألوفاً. وعندما استيقظ الأتراك في صباح اليوم الثالث والعشرين شاهدوا غابة من أبراج المراقبة التي تم نصبها في أثناء الليل، جميعها في مواجهة الكوت. وأصبحت شكوكه أكيدة، وهنا كثّف احتياطيه لمقاومة إنزالنا. وتحركت في مساء اليوم الثاني والعشرين ثلاث كتائب من الكوت لتعزيز موقع الصناعيات، وفي صباح اليوم الرابع والعشرين تراجعوا باتجاه منطقة شمران، وهكذا خسروا كلا المعركتين.

تقرر العبور من ثلاث نقاط مختلفة في منطقة منحنى شمران، ونصب الجسر عبر قمة شبه الجزيرة. وقمت بزيارة المعبر رقم (1)، وهو أعلى نقطة للعبور، قبل يومين من الحدث، ويبدو أنه عمل ميئوس منه. كان هناك تيار أصغر من الفيضانات بعرض أربعمئة ياردة وتيار بسرعة خمس عقد، وإذا رفعت رأسك بارتفاع أنج واحد فوق الشجيرات تتلقى رصاصة قناص. وكانت قوات كتيبة نورفولكس ستعبر من هنا، وكان عليها أن تحصل على عدد كافٍ من الرجال على متن عشر طوافات من أجل مسك الضفة الأخرى وإعادة تعبير الزوارق والعبور مرة أخرى بعد إشارة الإنذار والاستمرار في العبور حتى الانتهاء من نقل كامل الكتيبة والهجوم على الخنادق وعرقلة الرماة وخرق الرشاشات، ومن ثم نشر خطهم الدفاعي عبر المنحنى، في الوقت الذي يجري فيه بناء الجسر، قبل أن يتمكّن الأتراك من جلب احتياطاته.

ومع ذلك، وبطريقة أو بأُخرى يبدو في الصباح أنَّ هناك المزيد من الاحتمالات، والتي جرت في أحد الأودية القريبة وزحفت قبل انكشاف ضوء النهار. فقد وصلت كتيبة النورفولكس بهدوء في الظلام بحشد ذي رباطة جأش وثقة بالنفس. وكانتِ كتيبة البيونيرز تقوم بتهيئة الأرض للنزول. وفي الساعة العاشرة وعشر دقائق رُفِعَت الطوافات من فوق الساتر ووضِعَت في الماء بهدوء، ويتألف كل طاقم من أربعة رجال مع زورقهم الخاص. وعند إنزال آخر طوافة كان هناك من الضوء ما يكفي لرؤية الضفة الأخرى. ولكن ليس الأشخاص، إذا كانوا متواجدين هناك بالإنذار وينتظرون قدومنا. وفي الساعة الخامسة وثلاث دقائق صدر أمر بالانطلاق. وقد أُنجِز كل ذلك بقليل من الضوضاء بحيث إن الخفراء على الجانب الآخر لم يكتشفوا ما

يجري إلى أنْ وصل أول زورق إلى مسافة خمسين ياردة من ضفة النهر. بعد ذلك أطلقت إحدى البنادق النار خارج المدى ثم تلتها صليات نارية شاركت فيها إحدى الرشاشات من أعلى مجرى النهر. لا يمكن للفرد أن يرى تماماً ما يجري عبر النهر، إلّا أن أول طوافة عائدة لاحت في الأفق على بعد ثلاثمئة ياردة أسفل مجرى النهر. وتم سحبها بسرعة إلى العبَّارة وتزويدها بالرجال مرة أخرى وإسعاف المجدفين الجرحى وحملهم من كتيبة النورفولكس إلى زوارق الإسعاف أسفل الساتر. وأمطر سطح تيار الماء بوابل من الرصاص وبعدها بدؤوا بقصفنا إلا أنَّ الطوافات شقَّت طريقها بحذر مثل النافورة وبحصانة مدهشة. كانت هناك إصابات عدة من جراء الرصاص، لكن قذيفة واحدة كانت إصابتها مباشرة، وغرقت الطوافة إلا أن طاقمها نجا. واندفعت قوات النورفولكس على طول الساتر وفرقت مفارز العدو وشاهدنا أول مجموعة من الأتـراك ظهرت من مخابئها واستسلمت. وفي غضون ساعة أُخمِدَت أكثر نيران البنادق وأُسكتت الرشاشات، وكان هناك فقط قصف مدفعي الآن وعدد قليل من نيران القناصة. كانت رشاشاتنا تمشط الأرض على كلا الجناحين، ويقوم أحد مدافع الهاون بقصف خنادق العدو على بعد ستمئة ياردة في أعلى مجرى النهر، وأبلت نيران مدفعيتنا بلاءً حسناً بحيث لا أحد من الأتراك يتجرأ أن يرفع رأسه فوق أرض المعركة. وفي هذه الأثناء اندفع فوجان من كتيبة الكوركا التاسعة إلى مسافة ألف ياردة في أسفل مجرى النهر، واندفع فوج من الكتيبة الثانية إلى مسافة خمسمئة ياردة إلى الأسفل منهم. وتخبرنا أصوات الأسلحة الخفيفة البعيدة من بين انفجارات القذائف أنه لم يكن لديهم وقت سهل. وفي كلتا الحالتين اكتسح النهر بنيران الأسلحة الرشاشة، وواجهت كلتا الكتيبتين مقاومة قوية، إذ اصطف الأتراك على الضفتين يرمون الرمانات اليدوية على أطقم الزوارق لدى رسوِّها، وتطور القتال إلى تبادل القصف بين الزوارق وضفة النهر. وفي المعبر رقم (2) دخلت ثلاثة زوارق سوية على شكل نسق وكان الرائد ويلر[1] أول من ينزل على الأرض وقفز في الطين والماء، يتبعه مئة جندي وهاجم العدو عبر الشاطئ على الساتر. واندفع أحد الأتراك، الذي ظهر رأسه فوق الساتر لدى وصول ويلر إلى الأسفل منه، بقوة حاملاً بندقية

(1) مُنح الرائد ويلر صليب فيكتوريا لشجاعته في هذه المعركة.

وطعنه بالحربة واقتلع الجزء العلوي من فروة رأسه. إلا أنه قام حالاً على قدميه مرة أخرى وفرّق هو وضابط آخر مع أربعة من رجالهم مفرزة القصف من أربعين جندياً والذين هددوا باكتساح فرقة صغيرة من الكوركا التي تزود الساتر بالجند. بعد ذلك هاجم مجموعة من الأتراك التي كانت تقترب من الملازم روسيل الذي كان إلى الأسفل منه وقتل الرجل الذي كان في النقطة وطعنه بالحربة. وعندما استولوا على الساتر ودفعوا الأتراك خارج الخندق إلى الأسفل منه، تابعت كتيبة الكوركا أحد خنادق المواصلات على بعد مئتي ياردة في داخله. كان هذا الهاما سعيداً حيث إنَّ العدو عندما أداروا مدافعهم نحوه، قاموا بقصف الساتر طوال الصباح.

واجه الفوج الأول من كتيبة الكوركا الثانية في المعبر رقم (3) عبوراً أكثر سخونة. وفي هذه النقطة تم استهداف قمة الساتر من قبل إحدى الرشاشات من أحد المنازل على الجهة اليمنى وكان لدى العدو غطاءٌ أفضل. ولنشر طبيعة الهجوم، كان على الفرد أن يفكر بالساتر بوصفه حاجزاً لخندق العدو، وفيه فتحات للرمي وغطاء للرأس. كان على الكوركا النزول ضمن حدود تتراوح ما بين خمس عشرة ياردة إلى خمسين ياردة منه ومهاجمته، وكان ينبغي على المجدفين البواسل وأغلبهم من رجال الهانتس مع قسم من المهندسين العسكريين البورميين إنزال أثقالهم والانسحاب. وتركت الزوارق على الشاطئ على بعد مسافات مختلفة. لم يكن هناك اندفاع سريع كتفاً إلى كتف لتحفيز المهمة. وكانت كل عملية الإنزال هي نموذج فردي من المبادرة والبطولة والبسالة بدم بارد. وإن الحكم عليه من أي معيار آخر بدلاً من كونه مجرد ضخم، كان شيئاً عظيماً كما هو الإنزال في هيلز، كما أنه سيكون تاريخياً.

يمكن للمرء أن يقرأ القصة فيما بعد في الوحل. وأينما وجدت عارضة شهد الشاطئ التركي وجود العشرات من قتلى الكوركا ومجدفي الهانتس الذين تم إنزالهم من الزوارق، ولا يزال العديد من الطوافات جانحة في الطين. وأصيب أحدها بثقب في أحد جوانبه نتيجة إصابته بقذيفة مدفع وقتل على إثرها تسعة جنود بداخلها. وكانت جثث قتلى الكوركا ملقاة على الساتر، وانحدر البعض الآخر منها إلى الأمام من جرَّاء قوة الاندفاع. وكانت جثث الأتراك خلف الساتر من الذين قاوموا الهجوم من الداخل. استطاعت الكتيبتان بوجه كل تلك المقاومة من إقامة موطئ قدم لهما

شمال الضفة. ولكن نتيجة قتل المجدفين أو إصابتهم واحداً تلو الآخر وجنوح الزوارق أو انجرافها إلى أسفل التيار، كان ينبغي ترك المعبرين 2 و 3. وقبل الساعة 7 قبل الظهر، أصيب نحو مئة وعشرة أفراد من مجموع 230 فرداً من مجدفي الهانتس وبقيت هناك أربع طوافات فقط موجودة في الضفة اليمنى من النهر.

عبرت سرية ونصف من الكتيبتين النهر واستمروا بقوة على الرغم من نيران البنادق والرشاشات والمدفعية العنيفة بينما تحرك الآخرون الذين كانوا ينتظرون للعبور إلى أعلى مجرى النهر، عندما فقدت القوارب المعبر رقم (1) وعزّزتهم من النقطة التي عبرت منها قوات النورفولكس، وشكلوا فيما بعد جزءاً من الخط القتالي الذي اكتسح الأتراك في المنحنى.

وللعودة إلى المعبر رقم (1)، ففي الساعة الثامنة جلبت ستة بغال العربة الأولى من قطار التجسير. وطُرِحَت الطوافات والحبال والمراسي والأسلاك على الأرض، واندفعت مفرزة من المهندسين العسكريين ودقّت ركائز أول محطة برية. ثم جاءت الطوافات الواحدة تلو الأخرى على عربات، تتأرجح على بعد أميال. وجلس أغلب السائقين غير مبالين على مرتفع. ويستخدم سائق منهم أو سائقان طوافاتهم كزوارق مطأطئين رؤوسهم وهم يختلسون النظر إلى الأعلى. وأصيب اثنان أو ثلاثة منهم وقتل أحد الضباط لإصابته بإطلاق نار في رأسه. وسقط أحد البغال بشكل هزيل في الآثار وهو يحرِّك قدميه في الهواء. مضت ساعة ولم يكتشف رجال المدفعية الأتراك رأس الجسر. كانوا منتظمين على شكل نسق على رأس الوادي على بعد مئة وخمسين ياردة أسفل مجرى النهر، حيث عبرت كتيبة النورفولكس وواصلوا قصفهم حتى المساء. وكما يبدو لم يكن لديهم ضابط رصد متقدم ولا سلك تلفون. وفي الساعة العاشرة كان بإمكان المرء الوقوف على الطوافة الخامسة عشرة وهي تتقدم في مجرى النهر أكثر أماناً كما لو كان على حافة معركة صغيرة. هناك حامل بندقية وحيد مختبئ في إحدى الحفر التي تحدثها قذائف المدفعية الذي واصل قنصنا لفترة طويلة بعد أن خبت جميع نيران البنادق الأخرى، وحيث إنه لا أحد كان يعلم إلا أنَّ الرجل يستحق الوسام. قليل من هذا النوع سيعيقون إقامة التحصينات الأمامية لساعات عدة. وقد تتصور إعصاراً من

القذائف وتتخيل إحدى مفارز خبراء المتفجرات تقوم بإسعافات أخرى لدى إصابتها، واعتقدت أنه يجب دفع العديد من الطوافات مقابل الكثير من الدماء. وأبدى كل فرد، كما كان الدافع من ورائه إلى المكان، قدراً من الجيش التركي. ومع ذلك نفذ هذا العبور، الذي يعدُّ الشيء الأكثر أهمية في الحملة العسكرية بسهولة كما لو كان في مناورات. وبعد ذلك مشطت مدفعيتهم الضفة ومجرى النهر بحثاً عن الجسر. إلا أن الأمر كان متأخراً، وبدؤوا بالتفكير بإنقاذ مدفعيتهم الخاصة. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر، أي بعد ثماني ساعات من دق ركائز أول محطة برية، أُكمِلَ الجسر وكانت قواتنا ووسائل النقل التابعة لنا تتدفق من فوقه. إنَّه عمل بطولي عظيم، إذ إنَّ مجرى النهر هنا أضيق نقطة في الساتر بعرض 295 ياردة مع تيار يجري بسرعة خمس عقد. وفي هذه الأثناء تقدَّمت قوات المشاة إلى حافة التلال المجاورة للمنحنى. وهي تكتسح العدو من أمامهم، وأُخِذَ ستمئة أسير منهم وقطع الشريان الرئيس لنظامهم. وتابعت قواتنا في الصناعيات، التي استحوذت على الخطوط الثلاثة الأولى من الخنادق، التقدم بدون مقاومة. وأصبحت الكوت التي بقيت لأشهر عدة منار الجنود البريطانيين والهنود، مجرد حدث عرضي في عملية التقدم.

الفصل التاسع والعشرون

قوة الصناعيات

أصبحت الصناعيات أو الفلاحيات، كما كان يطلق على الموقع في بغداد، اسماً مألوفاً في جميع أنحاء العالم على مدى أكثر من عام. ليس هناك قرية ولا حتى كوخ طين، إلا أن العرب كانوا يعلقون أسماء الأماكن على المسافات التي ليس لها معالم في البلد وكانوا يقومون برعي قطعانهم بجانب ضفة النهر. ويعبر المسافرون المنطقة في رحلاتهم إلى أعلى مجرى نهر دجلة وأسفله على مدى أجيال دون أن يلاحظوا إمكانياتها الدفاعية. كانت الخرائط غامضة وغير مفصَّلة، وقد لا تعني البحيرات والأهوار شيئاً على الإطلاق، ولم يفهم أنه في هذا السهل المفتوح الواضح أن هناك نقطة واحدة تمتلك الفوائد الطبيعية للثرموبيل (وهو جهاز قياس التغييرات في الحرارة). وقد أهمل الأتراك الإمساك بها خلال عملية تقدم قوات طاوزند، وتخندقوا على بعد أميال عدة إلى الوراء في موقع أقل شأناً وأكثر اتساعاً في السن. ولكن في المسافة بين المدائن وعند تقدمنا من علي الغربي في شهر كانون الثاني عام 1916، أدرك أحد الأشخاص وربما هو العجوز فون ديرغولتز أن منطقة الصناعيات هي الموقع القوي الوحيد بين البصرة وبغداد. وليس بإمكانه أن يقدم الدعم في أي مكان آخر إلى قوة إسعاف الكوت. كان المكان يشبه البوابة إلى قلعة مع خندق مائي على كل جانب. وقد استولى عليها الأتراك ضد الإنكليز أكثر من عام، وكان من الممكن أن يمسك بها حتى نهاية الحرب لو أننا لم نتسلق السور خلفها والتهديد بتحويل المفتاح من الداخل.

استولت القوات التي قامت بالهجوم الأساسي في السادس من شهر نيسان عام 1916، على الخطين القتاليين الأوليين من الموقع للأشهر العشرة التالية ولم تحرك

خنادقها في تلك الأثناء. واحتلت الفرقة السابعة الموقع طوال فصل الجو الحار وفصل الشتاء وواصلت ضغطها خلال القتال في الضفة اليمنى الذي بلغ ذروته في نقطة العبور في شمران، على الأتراك في المنطقة الضيقة بين الهور والنهر وأوقفتهم على أرضهم. كانت الكتيبتان، السيفورتس والبنجابيون الثانية والتسعون اللتان اكتسحتا الأتراك من خنادقهم في الثاني والعشرين من شهر شباط، هما نفسيهما اللتين قادتا الهجوم الباسل، لكنه كان منحوساً في الثاني والعشرين من شهر نيسان عام 1916، إلا أن بداية الحصار كان لفترة ثلاثة أشهر تسبق الهجوم. ويرجع تأريخه من يوم أول هجوم على منطقة الحنة –في 21 كانون الثاني –1916 ويعتقد الجميع في بلاد ما بين النهرين أن هذه الأرض تعدُّ مقدسة بالنسبة للفرقة التي نزفت الدماء والعرق هنا طوال ثلاثة عشر شهراً، وعانت في القتال خلال الفترة بين السابع من كانون الثاني والثاني والعشرين من نيسان، من شيء يشبه التجديد الكامل، وفقدان ما يزيد على 12000عنصرٍ من رجالها. أما بالنسبة لمنطقتي الحنة والصناعيات، فعلى الرغم من بعدها خمسة أميال، كانت هناك خطوط قتالية متتالية للدفاع عن القلعة نفسها وعنق الزجاجة بين هور السويجة ونهر دجلة. وكان تقريباً موقفٌ واحدٌ نسخة طبق الأصل من الموقف الآخر، وكان انسحاب الأتراك في ليلة الرابع من نيسان 1916 من خطه الدفاعي الأول إلى خطه الدفاعي الثاني مناورة بارعة.

بعد وصول أخبار الاستيلاء على منطقة الصناعيات مباشرة إلى بغداد بدأت العوائل الألمانية برزم حقائبها. وخاطر خليل باشا بكل شيء على الموقف وأنه لا يعتقد أنه يمكن أن يتغير. وأن القول إنَّ العبور من منطقة شمران قد منحنا مفتاح القلعة هو ليس إلا جزءاً من الحقيقة. وتكون الاستعارة مضللة إذا كانت توحي بصورة قوات تقوم بدخول باب فتح من الخلف. لا شيء يمكن أن يكون أبعد من الحقائق. إن العبور من منطقة شمران وقوة الصناعيات كان بعد معارك مكثفة، وإن نجاح أحدهما يعتمد على الثاني. وإن بيت القصيد لدينا هو رسم الخطط الحربية، إذ كانت القوات التركية بعيدة عن منطقة شمران، حيث كان من المقرر أن يجري العبور، من خلال حثِّها على إجراء تعزيزات كبيرة على الحامية المهمة في ذلك الحين في منطقة الصناعيات. ليس هناك خدعة هنا تفي بالغرض ولا يمكن التحايل على

الأتراك. لا شيء سوى هجوم حقيقي محكم وبشكل جدي سيثبته في الموقع بينما كان جناحه في خطر تحويله إلى أعلى مجرى النهر. وإن الاستيلاء على هذه الخنادق كان ببسالة عبور النهر، وأكثر كلفة في الخسائر البشرية ولكنه كان الشيء الوحيد لضرباتنا المتكررة على جبهات العدو، ولا يمتلك عناصر الدراما والمغامرة نفسها التي يسمع المرء عنها القليل.

كان الخطان القتاليان التركيان الأول والثاني في منطقة الصناعيات منعزلين وبطول أربعين ياردة، بينما يبلغ طول الخط الثالث نحو مئتي ياردة خلف الخط الثاني. وكانت هذه الخنادق ممسوكة بشكل خفيف جداً في يوم الهجوم، إلا أن العدو يحتل سلسلة من الخطوط إلى الخلف مع ميدان رمي واضح حيث يمكنهم تمشيط الأراضي التي نتقدم عليها. أما نحن فقد اتخذنا منطقة الصناعيات من خلال سلسلة من الهجمات الجبهوية المباشرة بدون مساعدة عبور النهر التي من خلالها قطعنا خط إمداد الأتراك من قاعدته من المستلزمات، ولكن كان يمكن أن تكون ذات تكلفة باهظة. وتقع خلف منطقة الصناعيات مواقع النخيلات والسويداء التي ينبغي اقتحامها قبل أن نتمكن من دخول الكوت.

عانى الأتراك على مدى أسابيع قبل الهجوم من العديد من عمليات القصف التي لم يتم متابعتها بهجوم. وإن هذا القصف الصيني، كما كانوا يطلقون عليه، كان مزعجاً بالنسبة لهم بشكل خاص. في حين أرغم الهجوم العنيف العدو على خفض رؤوسهم إلى الأسفل والالتزام بالبقاء في خنادقهم، ولحظة إيقاف الهجوم يرفعون رؤوسهم ويقومون بتعزيز الحواجز بالرجال. لكن موجة المشاة التي كانوا يتوقعون قدومها لم تظهر وبدلاً من ذلك، فتحت المدفعية مرة أخرى نيرانها المدمرة على الحامية. كانت نوعاً من الحيلة قديمة جداً، إلا أنها كانت نادراً ما تفشل، وبالنسبة للعدو لا يمكن أن يأخذ القصف على اعتبار أنه خدعة، ويجب أن يكون مستعداً في كل مرة. وكذلك كان القصد من الشك والارتباك اللذين صاحبا عمليات القصف الوهمي هذه بالتناوب مع الاستعدادات الحقيقية للمدفعية للهجوم وتقويض معنويات العدو.

كانت الخطوة المضادة والواضحة، هي الخطوة التي تعتمد عموماً على حرب

الخنادق، وترك الخطين القتاليين الأول والثاني فارغين أو تم مسكهما بقوة خفيفة، والتراجع إلى الخط الثالث أو الرابع، ومن ثم شُنَّ هجومٌ مضادٌّ قبل أن يفسح الوقت للطرف المهاجم لتثبيت أنفسهم وتعزيز موقعهم. وفي منطقة الصناعيات، كان لدى الأتراك نفقٌ مغطى في مقدمة خطهم القتالي الأول، وكان هذا ربما لجماعات الحراسة؛ لأنه سيكون موقعاً خطراً جداً.

وعندما هاجم اللواء التاسع عشر شبكة اتصالاتنا في الثاني والعشرين من شهر شباط كان يقف أمام خنادقنا. وكانت التعزيزات من الأسلاك الشائكة غير ثابتة وبالإمكان بسهولة الالتفاف حولها وفتح ممر لقوات المشاة. كان هذا من أجل تهدئة شك الأتراك. وإن كل ما يعرفه هو أن اللجنة الرائعة من أسلحتنا وهاوناتنا كانت يمكن أن تكون خدعة، وكما يحدث في الغالب، لإغرائه للظهور أو ليهز أعصابه. وتبحر قذائف الهاون 60 ملم في السماء وتسقط في الخنادق بدقة مدمرة مع زعانفها الثقيلة تأتي محدثة هديراً في الهواء وتضيف ضوضاء جديدة إلى الضجيج. وتخيم طبقة سميكة من سحابة من الدخان والغبار بحيث لا يمكن القول ما إذا كنا في حالة هجوم أم لا حتى يرفع الحجاب ويكشفنا في خطه الدفاعي الثاني.

وفي الساعة العاشرة، وعندما رُفِعَ قصفنا المدفعي إلى الخط الدفاعي الثالث، لا تزال سحابة رمادية ترتفع وتزداد ضخامة وتنتفخ على ارتفاع أربعين قدماً أمام خنادقنا.

لا يمكن للمرء أنْ يرى على بعد أنج واحد خلال هذا الحجاب. وبإلقاء نظرة سريعة من فوق الحاجز وفي العراء يبدو امتداد الأرض المحايدة التي تعد ميداناً طويلاً للسباق في يوم انتظار لا شيء. أصبحت قوات السيفورتس والكتيبة 92 خلال ثوان قليلة في الخط الدفاعي التركي الأول. لا توجد أية إشارة إلى وجود جندي تركي في الخندق، كما وأنه لم يعد في الحقيقة خندقاً، لكنه كان عبارة عن خندق غير نظامي عرضه ضعف العرض الأصلي مملوء إلى نصفه بأكياس الرمل المدمِّرة وحطام الخشب والقش وقصب البردي. وقد سقط عدد من جنودنا المشاة لدى عبورهم الخندق وسمعوا الرمي المنتظم للرشاشات من خندق في مؤخرة الجيش

التركي، إلا أن صوت الإطلاقات كان واضحاً؛ لأنه يذهب إلى الأعلى، مما ينبئهم أن مدفعيتنا أزعجت المجاميع المسلحة كما ينبغي.

صدرت الأوامر بالبقاء بالانتظار في الخط الدفاعي الأول دقيقة واحدة حتى يتم رفع القصف المدفعي عن الخط الدفاعي الثاني، ولكنهم عندما تقدموا لم يجدوا خطّاً دفاعياً ثانياً. وكان الخندق في وسط الجبهة التي يهاجمونها مملوءاً بجثث الجنود الأتراك. لم تكن هناك دلالة على وجوده من بين الحفر التي خلَّفتها قذائف المدفعية- ولكن مجرد سلسلة من الأكوام الترابية الهائلة ويغطي الغبار الأرض من حولها. وبحثوا عن الخندق، وتجاوزوه وشكلوا خطّاً دفاعياً خاصاً بهم في مجرى إروائي قديم بعمق قدم واحدة وعرض ثلاث أقدام إلى الخلف منه. إذ كان الموضع التركي يتقاطع مع شبكة السواقي التي أصبحت مع حفر قذائف المدفعية والمتاهات المشوشة من الخنادق المدمرة، من الصعب معرفة أين أنت. على أيه حال، وجدت قوات الهايلاندرز والفوج الهندي شيئاً يشبه الحافة المحددة لهذه الأرض المتفجرة تفيد أن تكون ميداناً للرمي، وبدؤوا بالحفر بقوة كما لو أن المرء يعلم أن العدو يقوم بالإعداد للقيام بهجوم مضاد عبر الأرض المفتوحة.

كان الخط الدفاعي التركي الثالث ممسوكاً من عدد قليل من القنَّاصين. وكان أغلب جنود العدو في الخط الدفاعي الرابع، وهو خندق حُفِرَ حديثاً ولم يتم حتى الآن تدميره كثيراً بمدفعيتنا. وتمت ملاحظتهم وهم يستعدون للقيام بهجوم مضاد، وفور رفع القصف المدفعي قاموا بالتقدم فدمِّروا بواسطة مدفعيتنا وتقدموا مرة أخرى فأُبيدوا مرة أخرى. وشوهدت مجموعة ثالثة كبيرة، وفي هذه المرة تقدمت إلى اليسار منا وتجمعت للقيام بالهجوم. تقدم الحشد بجرأة، وكانت المرة الأولى خلال اليوم الذي تتعرَّض فيه مواضعنا للتهديد بجدٍّ إلا أنهم تكبّدوا خسائر فادحة. وتم رشقهم بنيران إحدى مفارز الرشاشات عبر النهر وقصفت أجنحتهم بنيران المدفعية، الجناح الأمامي والخلفي، وقد تمت إبادتهم في الغالب. كان ضُباط الرصد المتقدم لقواتنا مشغولين في مد الأسلاك، وأن رجال المدفعية لم يخيبوا أملنا.

بعد ذلك، وفي الساعة الواحدة، دخل اللواء الثامن والعشرون على جهة اليمين

تحت غطاء مشابه من القصف المدفعي، وأصبح تحت نيران المدفعية طوال الصباح. وقد فقدت كتيبة السيخ الحادية والخمسين ثمانين رجلاً في الخنادق قبل التقدم. وأمضت باقي اليوم في الحفر والاشتباكات، ولم تكن لهم مسألة سهلة في التموج والإرباك الذي يشبه المطاردة بين الحفر والتلول. ومرت الكتيبة بين الساعة الرابعة والخامسة فجراً بصعوبات كبيرة، إلا أن كتيبة الليسترز وفصيلين من كتيبة السيخ الثانية والخمسين دخلت للإسناد، وبهذه التعزيزات مسكوا الموضع. وبحدود المساء، تم حفر خندق لائق، وفي الليل قمنا بوضع الأسلاك عبر الجبهة الجديدة.

كان الأتراك يقومون بعمليات القنص طوال صباح اليوم الثالث والعشرين من خطهم الدفاعي الرابع أو من مخابئ معزولة. واكتشفنا بعد منتصف النهار حالاً بأخذ الاحتمالات بأن بعض نقاط الخندق الذي حفرناه كانت على بعد ثلاثين أو أربعين ياردة من الخط الدفاعي الثالث للأتراك. أرسلت الدوريات فوق خنادق الاتصالات ودُفِعَت إلى كلا الجناحين، ووجدوا أن الخط الدفاعي غير مشغول باستثناء الجرحى والقتلى. وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر كانت مفارز الطوارئ التابعة لنا تمسك بهذا الخط الدفاعي الجديد. وفي الساعة السابعة مساءً أُرسِلَت مفرزة جنود إلى الأمام على يسارنا لمعرفة ما إذا كان الخط الدفاعي التركي الرابع مشغولاً أم لا. وقد جوبهت هذه المفرزة بهجوم مقابل قوي وأجبرت على التراجع، ولكن عند منتصف الليل خرجت الدوريات مرة أخرى ووجدت أن الأتراك قد تخلوا عنه. وكان خطهم الدفاعي الرابع وخنادق اتصالاتهم مُخرَّبة بشكل مخيف، وتكتظ بجثث القتلى والجرحى، ودفن العديد منهم إلى نصفه وهم يصرخون طلباً للمساعدة وقد تأثر معبر شمران، وأصبح موقع الصناعيات بأكمله بأيدينا. وفي الرابع والعشرين من الشهر تقدمت الفرقة السابعة وسقطت المواقع في الخطوط الدفاعية الخامسة والسادسة في الصناعيات والنخيلات والسويداء بأيديهم وبخسائر قليلة جداً. كانت مدينة الكوت خالية، واجتاحت الفرقة الرابعة التي شقت طريقها في العبور على بعد ثلاثين ميلاً إلى الأعلى من مجرى النهر، الثكنات العسكرية التركية في الظهراء وفتحت الطريق إلى بغداد. ووصل عدد القتلى في منطقة الصناعيات إلى 516 جندياً، فضلاً عن أولئك الذين دفنهم الأتراك والذين دفنتهم قذائف مدفعيتنا في خنادقهم. ووصل عدد

القتلى خلال يومين من القتال إلى 4141 جندياً. ولم تتوقع الفرقة المرور من دون خسائر لا تقل عن ألفين إلى ثلاثة آلاف قتيل. ولكنَّ هيئة الأركان عملت خلال فترة الاستعدادات الطويلة بشكل شامل وكما ينبغي. وقد تم تكرار خطة خنادق العدو قبل أشهر، وكان كل فصيل وسرية وفوج وكتيبة ولواء يعرف جزءاً من تفاصيلها. وكانت تجري هناك تمارين غالباً ما تكون يومية، وقاموا بالقصف والحصار وتوحيد صفوفها حتى عرفت تقريباً خنادق العدو الكاذبة إضافة إلى تلك التي يشغلونها حقاً. وعندما بدأ الهجوم الحقيقي كانت العملية تكراراً روتينياً.

كانت سرعة تراجع العدو ملحوظة وقاموا بقصفنا في الساعة الحادية عشرة من ليلة الثالث والعشرين، وفي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الرابع والعشرين، كانوا يغطون عشرين ميلاً إلى منطقة شمران. كانوا متعبين جداً ومنهكين، حيث إنهم سمحوا لطائراتنا بالانحدار إلى ارتفاع ألف قدم وإفراغ مدافعها من نوع لويس عليهم من دون إطلاق رصاصة واحدة. ومع ذلك، فإنَّ سلوك ترك العمل في هذه المرحلة كان مشرّفاً جداً، وأخفى القائد التركي رأسه في مواجهة الكارثة، ورفعت قوات فيلقنا الثالث والفرسان سلاحاً طوال اليوم الرابع والعشرين، بينما كانت قوات الصناعيات تفر من المعركة.

كنت في وقت مبكر من صباح يوم الخامس والعشرين مع اللواء الأربعين في الصناعيات، عندما شاهدنا زوارقنا الحربية تبحر إلى أعلى مجرى النهر مع إخلاء أسطحها من أجل العمل. وكانت قوات المشاة تصطف على طول ضفة النهر مرحِّبة بهم. كانت هذه هي المرة الأولى منذ أشهر عدة تلتقي فيها القوات البحرية والبرية في خط إطلاق النار. وكان الخبر الأول الذي سمعه العديد منا بأن الفرقة السابعة قد حرَّرت النهر في منطقة الصناعيات، وفتحته مرة أخرى أمام الملاحة. وأخيراً وبعد عام أو عامين من الشكوك، بدأنا التفكير في بغداد.

الفصل الثلاثون

الملاحقة

عندما أدرك خليل باشا أننا أقمنا بقوة عبر النهر في منطقة شمران، بينما كان جناح قواته الأيسر في خطر عزله في الصناعيات، أصدر أمراً بالتراجع إلى بغداد. وشكل جناح حرس قوي لمسك الطرف الشمالي من شبه جزيرة شمران ولاحتواء فيلقنا الثالث لحين مرور قواته إلى أعلى مجرى النهر في المنحنى.

كان عبور نهر دجلة في منطقة شمران مثيراً في إنجازه وحيوياً جداً في تأثيره على الحملة بمجملها، وذلك بأن الدور البطولي الذي لعبتهُ الفرقة الرابعة عشرة في صباح اليوم التالي كان في خطر أن يتم التفريط به. كنا سريعين في متابعة الضربة الساحقة في الثالث والعشرين من شهر شباط، وفي تلك الليلة أمْسَكنا بخط دفاعي عبر المنحنى من ضفة إلى ضفة إلى الداخل بنحو ألف ياردة من رأس الجسر. وتولّى اللواء السادس والثلاثون مسك يمين الخط الدفاعي، وكانت قوات كتيبتي الهانتس والبنجابيين 62 تقوم بإسناد كتيبتي الكوركا، بينما كانت الكتيبتان النورفولكس والبنجابيون 67 على اليسار والكتيبتان البنجابيتان 26و 82 في تعاون وثيق. وبعد الساعة السادسة من صباح اليوم التالي فوراً اجتاحت قوات المشاة بأجمعها وتقدَّمت نحو ثلاثة آلاف ياردة من دون توقف، وقامت بتطهير أحد الخنادق التركية في طريقها. كان العدو قد ترك قوات منتخبة في هذا الموقع لتغطية عملية التراجع. وكانوا في الغالب إما أصيبوا بالطعن أو بإطلاقات نارية، وقد استسلم القليل منهم. كان هذا التقدم، الذي كان يبدو فاتراً وطائشاً، شأناً شجاعاً، وكلفنا ما يقارب ألف قتيل. كانت هناك حاجة إلى هكذا ضربة. وشجع التردد والحذر الأتراك على المقاومة وفي نهاية المطاف أصبحت أكثر كلفة. وكما كان مرأى لواءين وهما

يتقدمان بثبات بكامل قواتهما على شكل موجة لا مفرَّ منها استوليا على مركز الحامية في وادٍ عميق، وقبل أن نتمكن من الخروج معهم كانوا يتراجعون باتجاه الإمام المهدي. إلا أن الرشاشات في الثكنات التركية التي واصلت نيرانها على الجناح ما زالت تعمل. كان هناك أسرى في البنايات بمساندة سرايا الرشاشات في اللواء والمدفعية على الجناح الأيمن، واندفعت سريتان من تلك التي انسحبت إلى الوادي من قبل دوريات كتيبة البنجابيين السادسة والعشرين وأرسلت لتطهير الثكنات، حيث أعيدت للعمل مرة أخرى. وفي الليل تمت إضافة ثلاثة مدافع ميدان وأربعمئة أسير إلى الغنائم، وأُسر ألف وستمئة وستون جندياً خلال يومين. تعرض هذا التقدم الحازم إلى ثلاثة آلاف ياردة من الأرض المفتوحة إلى نيران مدفعية كثيفة ونيران الرشاشات على المقدمة وكلا الجناحين من القوات التي زُجَّت في قتال مرير ومتواصل لمدة شهر.

عبرت مدفعية الميدان التي هجرها الأتراك بعد ثلاث ساعات مع الفرسان عندما كانوا يطاردون العدو. واستدار الفريق أول أمر اللواء في المقدمة إلى مؤخرة جيشهم وهو ينادي بعدم إغفال المدافع. وعندما تجاوزناها لاحظنا أنَّها كانت بدون رجال ومتروكة بشكل واضح. وعُثِر على خيول المدفعية في الثكنات جنباً إلى جنب مع عربات المدافع.

كان اجتياز ثكنات العدو ومطاراته وإسطبلاته المهجورة شيئاً حسناً، مع الوعد بأندر شيء في الحرب الحديثة -بأن تكون مع فرقة الفرسان في متابعة أحد الجيوش في حالة هزيمة عبر أرض منبسطة مفتوحة. إنَّها تجربة ابتهل من أجلها كل فارس ولم يعرفها واحد في الألف. وكأمر واقع أثبت الوعد مرة أخرى أنه دون جدوى. غنها كانت من أكثر الأيام ضجراً ومخيبة للآمال التي قضيتها في حياتي. لم أفعل أي شيء لقد فقدنا عدداً قليلاً من الخيول وعدداً قليلاً من الرجال، ولكن بالكاد نرى جندياً تركياً.

تتوقع قوات عسكرية أخرى كقاعدة الكثير من الفرسان، على الرغم من القيود المفروضة عليهم من جراء التطور في البنادق والرشاشات الحديثة التي أعجبت

الطلبة العسكريين على مدى سنوات. ولكن في متابعة العدو كان تأثيرهم فيها موسوماً بالمبالغة. يبدو أنه كان متوقعاً، إذ كتب العقيد هندرسون في عام 1902 أن سلاح الفرسان، إذا تمت قيادته مع جرأة كافية وقصف مدفعي إلى الأمام منهم وتابع قريب من القنابل سيحققون القناعة الفائقة في التغلب على حشود الهاربين المذعورين المنكوبين الذين تكون أحزمتهم فارغة، أو الذين أصيبوا بالشلل من جراء الذعر بحيث إنَّهم غير قادرين على استخدام أسلحتهم. ولكن، كما يوضح، أن الرجال ليسوا بقطيع ماشية، إنَّهم مجرد قوات رديئة للغاية وهي تنحدر إلى حالة الإنهاك هذه أكثر من أي وقت مضى، على سبيل تطبيق نظريتهم، فإنَّ دعاة كثافة الفرسان مضطرون للتسليم، حتى إن القوات السيئة تمتلك في الوقت الحاضر قوة من الأسلحة النارية للمقاومة التي سيقتحمها الطوفان عبثاً. إنَّها تجربة مشتركة أن يكون لدى المجاميع الصغيرة من المشاة المهزومة ثقة كافية في بنادقهم للصمود أمام المجاميع الكبيرة من الرجال، ولكن القوات التي كنا نقاتلها لم تكن تعاني من الذعر وكانت معنوياتنا لا تزال جيدة، وكانت متفوقة على قواتنا في العدد، ومجهّزة بشكل جيد. وضع الأتراك حراس معركة عنيدين في الوديان العميقة التي تمتد عبر خطه الدفاعي المعزول.

أرسل سلاح الفرسان من قواتنا مجسَّات إلى جهة اليمين، لكن أجنحة العدو انفتحت إلى أبعد من ذلك بكثير إلى الشمال أكثر مما كان متوقعاً، وكنا مشغولين في القيام بمسيرة راجلة حتى حلول الظلام وأضعنا الكثير من الوقت، وكان على القوات أن تسير ميلاً قبل الدخول في المعركة. وفي الساعة الواحدة فجراً، عادت القوات إلى المخيم، وفي الساعة الخامسة ركبوا الخيول مرة أخرى، وأمضوا يوماً فاشلاً ثانياً. كنت مع الفرسان مرة أخرى في صباح اليوم التالي(الخامس والعشرين من شباط) عندما أشركوا قوة مشاة متفوقة على بعد أربعة أميال إلى الشمال من معركة الانسحاب الرئيسة جنوب شرق الإمام المهدي. يبدو في هذه المرة أنَّه لم يكن هناك شيء يمنعهم من القيام بحركة إحاطة والوصول إلى وراء الأتراك، الذين اضطروا إلى متابعة خط النهر. ولكن كل ذلك أهمل من خلال متابعة حركة الفرسان، بسبب عدم وجود مبادرة في القيادة على الرغم من وجود حرس كافٍ لدى الأفواج الرائعة التي شكَّلت الفرقة. ومرة أخرى لم يتم إنجاز أي شيء. قام

العدو بقصفنا طوال النهار مع صرف طائش للذخيرة، ومن حسن الحظ ومن خلال تدخل السراب من العناية الإلهية لم تكن مدفعيتهم مؤثرة كما كان ينبغي. وفي المساء عادت الفرقة إلى اثني عشر ميلاً إلى المعسكر لمجرد تغطية الأرض مرة أخرى في اليوم التالي. وقد أصيب الرجال والخيول بالإرهاق، ولكنْ... نظراً لعدم وجود الماء لا يمكنهم البقاء حيث كانوا. كان ينبغي عليهم مواصلة التقدم أو العودة، ليس هناك شك أنَّه كان ينبغي عليهم مواصلة التقدم واحتلال موقع على النهر الذي سيقطع خط تراجع العدو. وترجَّلت فرقة الفرسان بأكملها واتخذت موضعاً لها على بعد عشرين ميلاً خلف قوات المشاة التركية المتعبة والمتقرِّحة الأقدام تاركين أملاً صغيراً أمام العدو للهرب.

عانى الأتراك في أثناء معركة الانسحاب في يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين المزيد من الخسائر جراء نيران ناقلاتنا المصفحة أكثر مما يمكن أن تلحقه فرقة فرسان بأكملها. وفي مسعى من هذا القبيل، والذي لا يمتلك فيه العدو الوقت الكافي لاتخاذ مواضع له وتعزيز مواقع متوالية كشفت «السذج» كما كان يطلق عليهم مجازاً دورهم الأكثر فعالية. لقد كانوا على سواء في الاستطلاع والمناوشات. وفي الرابع والعشرين صدر أمر إلى عجلتين لاكتشاف الموقع وقوة جناح انسحاب العدو. وتقدمت العجلتان ووجدت أن الأتراك يمسكون بسلسلة من خنادق نار حفرت حديثاً على امتداد وادي عميق. عبرت أول عجلة إلى الجانب التركي بين هذه الحفر تاركة العجلة الثانية تعمل على طول جانبنا. وقاموا أولاً بتطهير الخلجان على اليمين واليسار من نقطة العبور، ثم ساروا إلى أعلى خط الدفاع كل عجلة على جانب وتحتفظ بعشر ياردات إلى الخارج لمنحهما مدى لأسلحتهما الرشاشة ولكونهما قريبتين جداً من مشاة العدو ولإعطاء مدفعيتهما مجالاً لقصفهم. أمسك الأتراك ببنادقهم ورشاشاتهم بشجاعة كبيرة وفتحوا نيران مخيفة. وتلقت إحدى العجلات إحدى عشرة إطلاقة من خلال البوابة وتم التخلص من مرأى الرشاشة. تناثر الرصاص على الأرض مثل الطين على طلاء ألواح النيكل، لم يكن هناك تشظية في الداخل، وتشوه فقط طلاء درع العين وأصابت الرجل على البندقية بعمى نصفي. وأصاب الأتراك العجلة الأخرى بقذيفة انفجرت أثناء السير وقطعت عصا

التوجيه إلى نصفين وثقبت أنبوب الزيت ولكنها كانت معركة غير متكافئة، وقد تم تدمير الموقع العسكري والخط الدفاعي الضحل هذا الذي لم يكتمل الحفر فيه بعد. وفي اليوم الخامس والعشرين اقتربت خمس عجلات مدرعة إلى موضع العدو في عملية استطلاع. ووجدوا الأتراك مضطجعين تحت قمة سلسلة من التلال المتموجة. وعبرت إحدى المدرعات من خلال فجوة في الدفاعات إلى بعد نحو ثلاثمئة ياردة من إحدى بطاريات العدو وفتحت النار على المجموعة بشكل مكثف. وعبرت العجلات الخمس المدرعة جميعاً إلى الأمام على شكل رتل هادئ ومتمهل إلى نهاية الخط الدفاعي، مثل موكب حركة المرور في لندن، ثم عادت لتغطية انسحاب سرية خيَّالة من الفرسان. كنا نراقب تقدمهم المتأني بإعجاب من برج مدفعية الفرسان، على الرغم من أننا لا يمكننا أن نرى مشاة العدو ومدفعيته.

ولكن بالعودة إلى المشاة نجح حرس الجناح التركي الذي ترك في الخلف في دعم الفيلق الثالث في شبه جزيرة شمران في أثناء عملية انسحاب الجزء الرئيس منه إلى منطقة الصناعيات؛ لأداء دوره طوال اليوم الرابع والعشرين على الرغم من أنَّه تكبد خسارة كبيرة بين صفوفه. كانت قوات الكوركا والبفس 4/2 تشتبك في قتال عنيف مع إحدى القوات التي تمسك بضفة النهر بقوة في أقصى اليسار من قواتنا. انسحب الأتراك خلال الليل إلى أعلى مجرى النهر، وفي صباح اليوم الخامس والعشرين أخلت القوات الرئيسة للعدو منطقة شمران، وفي هذه المرحلة واصلت الفرقة الثالثة عشرة التي عبرت الضفة اليسرى من النهر في اليوم الرابع والعشرين ملاحقة اللواء الثامن والثلاثين الرائد. وقد فقد التماس مع العدو بصورة مؤقتة، ولكن في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم الخامس والعشرين تعرضت قوات لويال نورث لانكشايرز، التي شكَّلت المؤخرة إلى قصف مدفعي بعيد المدى، وواصلت بطارية النقيب بروك (اللواء أر.أف.أي 66) السير ودخلت المعركة على بعد ثلاثة أرباع الميل قبل المشاة. وكانت هذه المناورة قد نُفِّذَت ببراعة، وحولت النيران من شمال قوات اللانكشايرز التي انتشرت ودفعت العدو من مواقعه المتقدمة. وفي هذه اللحظة تم تجاهل المعارضة، وصدرت الأوامر إلى قوات الكنكز أون بالبقاء في الخلف، بينما شكلت قوات اللانكشايرز الشرقية والشمالية

الحرس الرئيس. وكانت قبل ميل ونصف من قوات الهيرتز يومانري في حالة ترجُّل مع صدور أوامر باحتواء الأتراك لحين وصول قوات المشاة. وبعد الساعة الواحدة مباشرة كان اللواء الثامن والثلاثون في تماس وثيق مع مؤخرة العدو الرئيسة، والتي اتخذت موقعاً قوياً عبر الطريق على بعد نحو أربعة أميال من الإمام المهدي. تقدت قوات لانكشايرز الجنوبية على جهة اليمين إلى الوادي الذي تمسك به قوات الهيرتز يومانري وعبرتها واحتلت جزءاً من الخط الدفاعي للعدو في المقدمة. وأمضوا هنا يومهم في الوادي نفسه مع الأتراك مع المتاريس على كلا الجناحين، حيث تقوم بالقصف وتتعرَّض للقصف، وترمي العدو بنيران الرشاشات وتتعرَّض هي للرمي المقابل ولم تخفف من قبضتها حتى جلاء الأتراك في الليل حيث تستند جهة العدو اليمنى على النهر. وكان عمل المشاة الآن هو إيجاد جناحه الأيمن ومهاجمته بقوة وتم استدعاء اللواء التاسع والثلاثين لهذا الغرض. ووصلت قواته إلى ساحة المعركة في الساعة الرابعة والنصف وقد تبيَّن أنَّه تم تمديد الجناح التركي بشكل عاجل إلى الشمال وقاموا بتحصين واديين متوازيين، أحدهما كان على بعد حوالي ستمئة ياردة من خط اللواء الثامن والثلاثين، وكان الآخر على بعد المسافة نفسها من الأول. بعد الساعة الخامسة مباشرة شن اللواء التاسع والثلاثون هجومه تحت غطاء من نيران اللواء أف أي 55 الذي دخل في المعركة على بعد ألف ومئتي ياردة من العدو. كانت قوات الورسسترز والغلوسسترز وستافوردز الشمالية في الخط الدفاعي الأمامي من اليمين إلى الشمال، بينما كانت قوات رويال ورويكس بالاحتياط. كان الهجوم الباسل لقوات المشاة ناجحاً تماماً. وتم اقتحام الخط الدفاعي الأول للعدو، ومن ثم خطه الدفاعي الثاني خلال خمس عشرة دقيقة من بدء الهجوم، إلّا أنَّه بعد قليل فتحت الأسلحة النارية التركية نيرانها بكثافة على الخنادق التي تم الاستيلاء عليها، وقبل التمكُّن من تعزيز الموقع شن العدو هجوماً مقابلاً قوياً على جناحها الأيسر. كانت القطعات العسكرية إلى أقصى اليسار من اللواء التاسع والثلاثين قد أجبرت على التراجع، ولكن ضُبِطَ الهجوم أخيراً وأجبرتهم على العودة. واستمر القتال على يسار الخط الدفاعي الثاني الذي تمت السيطرة عليه حتى الساعة الثانية فجراً من اليوم السادس والعشرين، عندما بدأ العدو بالانسحاب وهرب مئات عدة من الأسرى الذين قُبِضَ عليهم في الهجوم الأول خلال عملية الهجوم المقابل فيما بعد خلال

الليل، ولكن بصرف النظر عن العدد الكبير من الجرحى بقي بأيدينا أربعة عشر ضابطاً وثلاثمئة وعشرون جندياً من مختلف الرُّتَب.

كانت هذه هي المواجهة الخطيرة الأخيرة لقواتنا من المشاة مع العدو في السابع من شهر آذار. كانت خسائرنا فادحة، بينما كانت خسائر العدو أكثر فداحة ولا سيما في عدد القتلى، ولكن تأخيرهم المعركة كان ضرورياً لتمكينهم من الحصول على أسلحة من قواتهم في منطقة الصناعيات. وقد أنفقوا خلال يوم كامل كمية غير مسبوقة من قذائف المدفعية، بنيران سريعة وواسعة في الاتجاهات كلها. لم يعد لديهم قلق للاقتصاد بالذخيرة، كان عليهم إما إنفاقها أو تركها وراءهم.

أجرى العدو حتى الآن انسحاباً منظماً. كانت معركة الزوارق الحربية في السادس والعشرين من شهر شباط، قد أدخلت الرعب وحوَّلت الانسحاب إلى هزيمة. وكانت البحرية تنتظر منذ خمسة عشر شهراً هذه الفرصة، وكانت فترة طويلة وشاقة بالنسبة لهم تتخلَّلها فقط نيران عرضية بعيدة المدى، إذ إنَّ دور أسطول دجلة أصبح يشبه دور بطارية ثقيلة في حرب الخنادق وفي هذه المرحلة الجديدة أصبح سلاح الفرسان والمدفعية التي تجرُّها الخيول مشتركة، ولكن في سرعتهما غير الاعتيادية وقدرتهما على التحمل واستغلال وسائل النقل والقوة الضاربة الفائقة، منحتهما فرصة لا يمكن لسلاح الفرسان استيعابها أبداً، وقاموا بتحويلها إلى حساب جيد.

وفي اليوم التالي من العبور نزل طاقم أل / أج. أم. أس/ مانش إلى اليابسة ورفع العلم البريطاني في الكوت، وفي صباح اليوم التالي كانت الزوارق الحربية تتعاون مع اللواء الثامن والثلاثين في هجومه على مؤخرة الجيش التركي الرئيسة، وفي صباح اليوم السادس والعشرين تلقّوا أوامر لمتابعة الهجوم. كان الأتراك على دراية بسلاح الفرسان التابع لنا، ولم يعيروا اهتماماً لأسطولنا. وبالنسبة لدور مدفعية حاميتهم، واجهت الزوارق الحربية مخاطر قليلة. كان ينبغي لها أن تبقى على مسافة وترجع إلى الخلف عندما تبدأ المدفعية التركية بقصفها. وبالنسبة إلى الدمار الذي يمكن أن تلحقه نيران المدفعية بخنادق العدو كانت قليلة جداً، مقارنة بالدمار الذي يمكن أن يلحق بهم من ضربة واحدة مباشرة بقذيفة مدفعية. ولكن عندما صدر الأمر بالمتابعة كان الشيء مختلفاً. كانت قضايا كبيرة عرضة للخطر، وتمت إدارة مخاطر أكبر. ولم

تعد مسألة قصف عدد قليل من الأتراك في أحد المخابىء. إن مرور نقطة معينة من قبل الأسطول قد تعني التسريع في تحويل انسحاب العدو إلى هزيمة، وإيقاف عمليات الشحن وقطع قواته الخلفية والاستيلاء على المدافع والذخيرة والمخازن والمعامل العسكرية. لهذه اللحظات العليا عاش ملاحو الزوارق الحربية أياماً عدة هادئة في إحدى الحملات النهرية.

وفي صباح اليوم السادس والعشرين من شهر شباط نقلت قوات البحرية أل / أج.أم.أس/ تارانتولا والمانتس والموث قواتنا المشاة إلى الضفة بكامل قوتها، وكان سلاح الفرسان يراقب اختفاء دخانها بحسد. بعد فترة وجيزة من اجتياز منطقة البغيلة الواقعة على بعد 46 ميلاً إلى الأعلى من مجرى النهر من الكوت، دخلوا في اشتباك مع قوات المشاة التركية التي اتخذت خطاً دفاعياً مع مجرى النهر وفتحت عليهم نيراناً كثيفة. ولكن النيران كانت بمستوى أعلى، وفي منحنى نهر كيلاك الذي بذل فيه الأتراك أكثر جهودهم اليائسة لاعتراض أسطولنا، يتحوَّل النهر هنا إلى الخلف ليشكل منعطفاً حادّاً ومنحنى كاملاً، لذلك يكون مرور السفن من هنا تحت النار من ثلاث جهات. وعلى طول نصف ميل قبل المنحنى يكون اللسان الأرضي داخل حلقة ليس أكثر من مئة ياردة في اتساعها، وتمتد القناة، كما هو الحال دائماً، إلى الخارج، وفي هذه الحالة، يمين الموقع التركي الذي اتجهت إليه الزوارق الحربية مباشرة. وتخندقت إحدى البطاريات التركية وبعض مفارز الرشاشات في الجهة المقابلة لرأس شبه الجزيرة ويلقون نظرة خاطفة على الأسطول عند مجيئهم وذهابهم ويطلقون عليهم النار من مسافة قريبة في أثناء مرورهم. وتقوم مدفعيتنا ومقاومة الطائرات والرشاشات بقصف الموقع لدى مرورهم به ويقصفون خنادق العدو ومواضع المدفعية على بعد ثلاثمئة ياردة. كانت زاوية ساخنة بالنسبة لكلينا على حد سواء وقد قتل أمين الصندوق والربّان في برج قيادة قوات المانتس ودخل القبطان في الوقت المناسب لإنقاذ السفينة التي تعمل بكامل قوتها على الشاطئ. وتلطَّخت جميع الألواح بثقوب الرصاص وضربت القذائف صواري المراكب والسلالم والتجهيزات، وأصيبت بثقوب بشكل سيىء للغاية، ولكن وبمعجزة... لم تغرق أي من السفن الثلاث. وبلغت الخسائر نحو خُمْسِ القوة المشاركة، وكانت نسبة القتلى طفيفة وأُصيب أحدَ عشرَ ضابطاً ولكن لم يَمُتْ أحد منهم.



GUNBOAT ON THE TIGRIS

قارب مسلح في نهر دجلة

وصل الأسطول وهو يتأرجح حول المنحنى عند العقدة 16 إلى نقطة حيث يأتي الطريق باتجاه النهر، وعاثت رشاشاتهم دماراً بمواصلات الأتراك ومفارز المدفعية وهُجِرَ المزيد من المدافع. وتقدمت المدفعية التي تجرُّها الخيول إليهم في الوقت نفسه. وفي صباح اليوم التالي وجدنا قتلى الأتراك على الطريق. كانت هناك علامات كثيرة تدل على الذعر والهزيمة لدى الأتراك إذ إنَّ الثيران لا تزال على قيد الحياة ومحررة من النير ووقعت في الشرك بين آثار خندق المركبات والدواليب المعطوبة والمُعِدَّات الملقاة واللدائن المقلوبة والمئات من القذائف الحية من مختلف الأعيرة مبعثرة فوق المنطقة على طول أميال عدة. كما أن رجال المدفعية تخلَّصوا من الحمولة للتخفيف عن عربات المدافع، أو أنهم اندفعوا أيضاً لإغلاق صناديق العربات. يروي لنا كل منعطف في الطريق حكايته عن عملية الارتباك والهروب. هنا مكتب بريد الميدان المدمر مع الحوالات التركية تدور على شكل حلقة في مهب الريح، وهناك العلامة التجارية لسيارة جديدة نوع مرسيدس متوقِّفة بسبب نفاد الوقود، وحمولات عربات من ذخائر الأسلحة الصغيرة والرمَّانات اليدوية وأجهزة المضخات ومعدات حفر الآبار والقبعات والأحذية وبراميل الزيت ومواد أخرى مدمرة أو شبه مدمرة، ومواد مقطَّعة من المؤن والمواد التي لا تواكب الهزيمة، وهناك أعمدة من الدخان الأبيض إلى الإمام تخبرنا عن مزيد من التدمير، والفضلات المبعثرة على الطريق كانت كافية لتمويل الجيش لأسابيع عدة، ثم بطارية مدفعية ميدان عيار 12 سم كاملة وقد أزيلت سدادات مؤخرتها ولكنها دفنت على عجل قريبة من بعضها وقد ضُلِّلت بآلة الخنادق.

وبينما كانت الزوارق الحربية تواصل نيرانها على الأتراك على الضفة بشكل فعَّال، كانت أيضاً تشتبك مع أسطول النقل النهري للعدو من مسافة بعيدة، ولكنهم أوقفوا إطلاق النار في الساعة الرابعة بعد الظهر على الجيش من أجل توفير ذخيرتهم للمراكب النهرية التي كان يعتمد عليها في كسب المعارك بسرعة. كانت مؤخرة أسطول العدو أول من غرق، واستولت زوارقنا الحربية على إحدى السفن وعليها مدفع عيار 4، 7 في الكوت. ومن ثم تعرَّضت سفينة (البصرة) إلى إصابة وجنحت إلى الشاطئ، وقد اجتازها أسطولنا وأمرها بالوقوف جانباً، وبالتالي

السفينة الرائدة (بيونير) التي أبدت قتالاً رائعاً شوهدت وهي تحترق وجانحة إلى الأرض. وقد واصل الزورق الحربي (فايرفلاي) طول فترة ما بعد الظهيرة، الذي فقدناه في أم الطبول في أثناء الانسحاب من المدائن، نيرانه في أثناء المطاردة. وبعد حلول الظلام مباشرة أوقفه طاقمه على الشاطئ، ونزلوا منه وهربوا وتركوه وهو بكامل قوته متجهاً إلى الأمام، والحريق في مستودعه ولكنه غير مصاب بأذى ما عدا مراجله المرهقة. وقمنا بإنقاذه وإخماد الحريق في الوقت المناسب تماماً. وبعد اثني عشر يوماً شاركت بقيادة آمرها القديم (القائد إيدز) في الدخول إلى بغداد مع الأسطول. إنَّ فقدان الزورق الحربي (فايرفلاي) قد خفض من قدرة أسطول العدو القتالية إلى زورقي دورية صغيرة تحمل مدافع مقاومة طائرات وثلاثة هاونات إلى الأمام. وأمضى هذان الزورقان فصل الصيف في مكان ما في المياه الضحلة إلى الأعلى من تكريت.

واكبت السفينة (البصرة) باتجاه مجرى النهر بقوتها البخارية وكان معها قاربا سحب، وعلى متنها شحنة من معمل الطائرات والمحركات والقنابل وألف جندي تركي مصاب ومريض، ومئة وخمسون قتيلاً على متنها. ولكن الشيء الأكثر مأساوية كان استعادة ثمانية عشر جندياً هندياً جريحاً، وثمانية جرحى بريطانيين من ضمنهم أحد الضباط الذين أصيبوا جميعاً في المعركة الأخيرة في منطقة الصناعيات. وفي اللحظة التي مرَّت فيها السفينة (تارانتولا) في عملية المطاردة صدرت الأوامر للاستعداد وتولَّى الضابط البريطاني المصاب المسؤولية.

تراجع العديد من الأسرى إلى الأسطول خلال عملية المطاردة، ولكن معاملة العدو الذي استسلم بالقوة إلى الزوارق الحربية على الضفة في أثناء المعركة كانت مسألة صعبة. في جميع القوانين ومنطق الحرب يكون المرء معذوراً في رفض قبول الاستسلام حيث لا توجد قوة لنتركها لحراسة الأسرى. ولكن هذا الجدل الذي ترجمته إلى عمل من شأنه أن يعني قتل أعداد كبيرة من حشود الأتراك التي اقتربت إلى ضفة النهر بروح مفعمة بالثقة رافعين أيديهم. مما لا شك فيها، أنها كانت تستحق القتل. وكان العديد منهم قد أخفوا أسلحتهم في أماكن قريبة على أمل أنهم سيستخدمونها ضدنا مرة أخرى إذا توفرت لهم الفرصة، إلا أنَّنا لا يمكننا إطلاق النار

على الرجال العُزَّل من السلاح الذين قَدِموا إلينا، وهم يلوِّحون بأعلامهم البيضاء. في حقيقة الأمر، تمكن القليل جداً منهم من الهرب. وكان هناك عنصر آخر وهو الخوف من العرب. إذ إنَّ رجال القبائل عندما يرون التركي بطريقة سيئة يقومون بتجريده من ملابسه ويقتلونه. وجاء الأسرى إلى نقاط مختلفة طوال النهار، العديد منهم كان عارياً، ويطلبون الحماية من حلفائهم غير النظاميين. وكانوا يخشَوْن أن يتركوا بدون حراسة. كان لواء من الفرسان يطوف البلاد ويجمع الأسرى ويخفضون البنادق ويبحثون عن الجرحى ويجمعونهم. عبرت السفينة (ألموت) منطقة البغيلة بعد المعركة مع طاقم من خمسة عشر ملاحاً، وألقت القبض على مئة وخمسين أسيراً. وتم أسر أربعة آلاف جندي تركي للفترة من عبور نهر دجلة في الثالث والعشرين من شباط، وعشية المعركة في نهر كيلاك في السادس والعشرين من الشهر ذاته.

كانت المرحلة الأخيرة في المعركة الجارية في السادس والعشرين من شباط تكراراً في تأثيراتها الرئيسة إلى معركة التقدم من القرنة إلى العمارة في شهر حزيران 1915. كانت الزوارق الحربية إلى الأعلى ضد الاحتمالات الأكثر ثقلاً، ولكن دورها كنوع من سلاح الفرسان الممتاز أثبت مرة أخرى ليكون ضرورياً في حملة حيث إنَّ المواصلات الرئيسة كانت عبر النهر. وفي كلتا الحالتين، كانت أعدادٌ كبيرة من قوات العدو الخلفية إما قتلت أو وقعت في الأسر، وانقطعت سفنه ووقعت بأيدينا كميات كبيرة من الذخيرة. كانت سرعة الأسطول في المطاردة طبعاً تفوق كل شيء يمكن أن يحققه سلاح الفرسان. وفي التقدم من القرنة في عام (1915) غادر الأسطول البحرين في الساعة الواحدة بعد الظهر في الأول من حزيران، وفي الساعة الواحدة والنصف من الثالث من حزيران، وعلى الرغم من الألغام والعراقيل والرسو الإجباري بسبب عدم إمكانية الملاحة في الظلام، كانت السفينة (كوميت) في العمارة على بعد تسعين ميلاً إلى الأعلى من مجرى النهر، وقد فوجئ الأتراك تماماً، وتظاهرت الحامية بأكملها بالاستسلام. كان العملان مثالين على كيفية إمكان أسطول من الزوارق الحربية أو الزوارق البخارية المسلحة في مد ذراع إحدى القوات في حملة نهرية أو مضاعفة قوتها الضاربة وشل مواصلات العدو عندما يكون في حالة تراجع. وفي كلتا الحالتين كانت المناورات من أكثر الأوصاف جرأة، ومن ثم اتخاذ المخاطر الكبيرة،

ومع ذلك لم يتم فقدان أية سفينة، على الرغم من أنَّ الأسطول كان في معركة نهر كيلاك يتعقَّب مدفعية العدو في الغالب ضمن المدى المباشر.

حدث تغير كبير في منطقة البغيلة إذ كانت مواد تجسير ومخازن المدفعية والذخائر والعربات والخيم، وأسلاك الهاتف، وهاونات الخنادق ومبادئ أساسية وعدد من المدافع المتروكة نصفها ملقاة في الماء. وقد سمعنا من الأسرى فيما بعد أنه من بين 91 مدفعاً كان الأتراك يمتلكونها في منطقة الكوت تم إخلاء ثمانية وعشرين مدفعاً فقط، أما المدافع الباقية التي لم يتم الاستيلاء عليها فقد رُميَتْ في النهر. لم يكن هذا مستبعداً، واستولينا على ثلاثة وثلاثين مدفعاً على البر وخمسة مدافع أخرى على السفن.

حَوَّلت المعركة في السادس والعشرين من شهر شباط تراجع الأتراك إلى هزيمة. كان العدو في ذلك الحين يتحرَّك على جبهة واسعة، على شكل حشد غير نظامي، ولم يعد منظماً من أربعة صفوف. وفي السابع والعشرين من شهر شباط توجَّهت قوات الفرسان إلى العزيزية في الظلام، ووجدوا أفراد العدو في حالة ضبط للنفس ومنشغلين مشياً على الأقدام. ولا يعلمون أن الأتراك كانوا في القرية إلى أن فتحوا نيران بنادقهم بوجوههم. وفي الصباح أخلى العدو مواقعه وتراجع إلى لاج.

في العزيزية، تمت الدعوة إلى التوقُّف لإعادة تنظيم خط مواصلاتنا، ولا أحد متأكد ما عدا الجندي الخاص ما إذا كُنَّا سنواصل التقدُّم أم لا. لم تكن سياستنا واضحة لحد الآن من بلدنا. لم تدرس الحكومة مسبقاً موضوع بغداد، وكانت تخشى من تكرار عملية مدائن أخرى. ولم تكن القوة بالطبع موضع ثقة لدى قائد الجيش بالنسبة إلى المستقبل، ولكن بقدر ما يتوقف عليه الأمر لم يكن لدينا شك. كانت وجهة نظره واضحة جداً، وكان قادراً على تحمُّل المسؤولية كاملة، وإنَّ ما يبدو في الغالب تفاؤلاً في قراراته، أثبتت في الماضي أنَّ مصدرها الاعتماد على النفس، وأنه يمتلك أيضاً مصادر قوة في الحرب يفتقر إليها أسلافه من القادة. والآن استرجع الكارثة واستعاد اعتبار عام 1915. كان الأتراك قد أصيبوا بالهزيمة ولا يتوقعون وصول تعزيزات إليهم في الوقت المناسب لإنقاذ بغداد. كانت المدينة كفاكهة

ناضجة جاهزة للسقوط بيديه. ويبدو من المستحيل أن تتدخل الاعتبارات السياسية. ولم نبقَ لفترة طويلة في حيرة فقد تلقى الجنرال مود، إن لم يكن أمراً، فهي إشارة مباشرة، وأنه تم إرسالها إلى كل من يهمه الأمر. وقد فُهِمَ ذلك في الوطن على أنه كان يتصرف كقائد عسكري في الميدان وأنه سيتعامل مع عدو مهزوم ومحبط أمامه.

كنا في العزيزية على بعد 55 ميلاً في الطريق المباشر من الكوت و(51) ميلاً من بغداد، وكانت الرحلة النهرية وبسبب الانحناءات والانعطافات تجعل المسافة أكثر من الضّعْف. لا شيء يقف في طريقنا في الذهاب بشكل مستقيم ما عدا الالتزام المهم في تمويل الجيش بالمواد الغذائية. لا يمكن للشخص العادي أن يدرك صعوبة المشاكل التي تواجه قوة ال (Q)وتعقيدها.

كان هنا فيلقان للجيش وفرقة للفرسان على طريق واحد، وقد طرحت المعدَّات التي تقوم بتزويدهم بالمواد الغذائية في نقطة العطالة خلال الليل. وكان العبور من منطقة شمران قد أحدث خللاً في نظام التموين بأكمله.

وخلال أربع ساعة ازدادت المسافة بين خط النار التابع لقواتنا وبين المستودعات المتقدمة في شيخ سعد والقرية العربية بالنسبة للنقل النهري بنحو أربعين ميلاً. وكان خط السكك الحديد شيخ سعد-السن- عتاب قد أدى الغرض منه في كسر ظهر الأتراك ولكنه لا يمكنه أنْ يُقدِّم لنا مساعدة هنا، وقد انتهت استعمالاته، وكوسيلة للنقل فقط أصبحت خلال يوم واحد مهجورة كقناة بابلية قديمة. وقد تركت محطة السكك الحديد في (السن) التي كانت تبدو مركزاً لقواتنا خارج مخطط الأشياء. وكان موظفو ال (أس) وال (تي) الذين كانوا بحاجة إليهم في عملية التقدم قد أغلقوا عليهم الأبواب في المستودعات كمشرفين، أو لإخلاء التجهيزات إلى أدنى وليس إلى أعلى الخط الدفاعي. وينبغي إخلاء ثلاثة أو أربعة آلاف طن من الذخيرة ومخازن ال (أر.أي) وكان من الضروري جمع وسائل النقل المحلية ونقلها بعيداً. وقد نُقِلَت حمولة ثلاثين قطاراً من صناديق قذائف المدفعية الفارغة والصناديق الفارغة الأخرى، وقد أُبعِدَ العرب بينما كانت عملية الجمع مستمرة.

كان ترك شريان المواصلات الرئيس في منطقة السن مجرد عملية إخلاء مؤقتة،

وكان النهر هو المكسب الدائم والمعوض عنها. لم يكن كله إبحاراً سهلاً. وكان لدى كل فرقة عددٌ كبيرٌ من السفن موزعة عليها. ولكن البعض منها كانت أبطأ من السفن الأخرى، وارتطم البعض منها بالطين على الضفاف، وحوَّلت القناة مجراها مرات عدة ابتداءً من المدائن، كما أن الملاحين لا يعرفون الطريق، وفي بعض الحالات ينفد الفحم، وكانت هناك وحدات مخادعة على الضفة تقوم بالاستيلاء على غذاء الناس الآخرين. وفي الغالب كنا نبحث بقلق عن دخان سفن التموين. وكانت أرزاق الطوارئ قد نفدت مرة أو مرتين. ولكننا سرعان ما ننسى هذا القلق. لم تخيب آمالنا قوة ال(كيو) مطلقاً. وعندما تفشل أرزاق يوم من الأيام في الوصول تظهر قافلة جِمال في الأفق، أو يعبر موكب من شاحنات الفورد على مهل، الأرض المنبسطة. وكانت فرقة واحدة فقط قد حصلت خلال عملية المطاردة بمجملها على نصف أرزاقها، وكان ذلك ليوم واحد فقط. كيف حدث ذلك، المجهّز وحده يعلم، وكان المجهّز هو السفينة الملكة (كيو).

وفي الرابع من شهر آذار تكدَّست المؤن تكفي لثلاثة أيام في العزيزية، وأصبح بإمكاننا الاندفاع إلى الأمام.

الفصل الحادي والثلاثون

إلى بغداد

استمرت المطاردة في السادس من شهر آذار. سارت قوات المشاة مسافة ميل إلى زيور، وسبقتها قوات الفرسان التي انتقلت إلى لاج، أبعد منها بمسافة سبعة أميال على الطريق إلى هدفنا. وفي هذا الوقت يبدو أن الزوارق الحربية ستصل هي الأولى إلى بغداد، أما أنا فأصبحت ضيفاً على قوات ال (أج.أم.أس). وكانت قوات المانتس والتارنتولا بالدور على التعاقب. كان كرم قوات البحرية مضاعفاً في المراحل السريعة من التقدم. لا ينبغي للفرد على ظهر السفينة أن يرحل أو لا يرحل أو ينتظر في حيرة من أجل الحصول على عدّته أو أرزاقه، أو نصب خيمة بالية أو مخيم بدون أحد في الطين أو التراب، وكان السرير أو الحمام والشراب الساخن أو البارد دائماً في متناول اليد، ويتجنب المرء تعب مسيرة طويلة، ولم يصب بتقرح القدمين أو التعب أو الوهن لدى الاستعمالات الصعبة التي ينبغي على الفرد أن يضع فيها البهيمة الصبور والعطوف التي تحمله.

لم يكن في الأيام القليلة القادمة ذلك الحماس كما في نهر كيلاك، إلا أن المرء يشعر أنه كان في مقدمة الجيش وأنه ينبغي عليه ألّا يكون بعيداً عن أي شيء كان يجري حوله. كانت جميع الأسلحة الخمسة لقوة- فيالق البحرية والفرسان والمشاة والمدفعية والطيران- تعمل جنباً إلى جنب بطريقة كانت جديدة في الحرب. ووصلنا نقطة حيث يكون الطريق على حافة ضفة النهر. وكانت إحدى الكتائب البريطانية قريبة جداً في أثناء التقدم بحيث كان بإمكان المرء أن يميز العلامة المثبتة على خُوَذِهم، وكان غبار قوات الفرسان يطفو أمام سفننا، وكانت قوات الهزارز البريطانية واللانسرز الهندية يوردون خيولهم الماء ويتبادلون تعليقات طريفة مع البحارة على

متنها. وجاءت إحدى الطائرات في وقت الظهيرة تحوم على مستوى منخفض فوق ضفة النهر لتلقي رسالة، ثم تتأرجح حول السفينة وتدور وتميل جانباً بطريقة مثيرة على بعد ياردات عدة فوق السفينة، كما لو أنها تريد تأكيد حملها بعض المعلومات العاجلة لنا. وعندما التقط الزورق الثاني في الضفة الرسالة، ابتعدت الطائرة على قناعة. وكانت قد جاءت لتخبرنا عن ترتيبات القوات التركية وتحذِّرنا بوجود إحدى البطاريات التي تنتظر وصولنا في الأمام. وعادت فيما بعد واستطلعت المكان لمدافع سفننا، إلا أن غيمة من الغبار كانت سميكة جداً بحيث كان من الصعوبة بالنسبة للزوارق الحربية إيجاد الهدف، كما أنهم تراجعوا إلى خارج المدى.

عزلنا الغبار وتركنا غير متأكدين مما يحدث على الشاطئ وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً، سمعنا صوت إطلاق نار مدفعية إلى الشمال الغربي من جهتنا وعلمنا أنَّ سلاح الفرسان قد اشترك في القتال على بعد أميال عدة، على الرغم من أنَّه من غير الممكن رؤية أي شيء في الضباب الكثيف. وعلمنا فيما بعد أنها كانت كتيبة الهزارز 13. إذ وصلتهم معلومات عن وجود أحد أرتال العدو أمامهم على بعد نحو ميلين من خلال الغبار الكثيف مع 250 بندقية. كانت الفرصة جيدة جداً بحيث لا يمكن فقدانها. وأنَّ لدى العقيد في القيادة ثلاث سرايا خيالة قام بتشكيلها في نسق وبدأ بالمطاردة عندما كشف انفجار إحدى القذائف عن وجود مدفعية مع القافلة؛ مما يعطي تلميحاً إلى طبيعة المقاومة المتوقَّعة. ولكنَّ حماسهم كان عالياً.

وصلت السرايا التي كانت تجري بسرعة، وسحبت الآن سيوفها. وكانت تجري خلال ذلك نيران بنادق متقطعة عندما شاهدوا الأتراك فجأة من خلال الغبار أمامهم على بعد أقل من مئة ياردة. البعض منهم كانوا واقفين ورافعين أيديهم إلى الأعلى، والبعض الآخر كانوا يهربون، ويقدِّرون من خلال مقدار الرصاص الذي يطلق في الهواء أن الآخرين كانوا يتمسَّكون بمجاري المياه الجافة التي تشكل مواقع لهم. وصدر الأمر بإملاء بنادقهم. وزادت سرية الخيالة التي كانت أمام الموقع من سرعتها ودخلت عليهم. وأخلوا الوادي وكان خمسة عشر إلى عشرين جندياً تركياً قد قتل بحد السيف، وجُمِع ثلاثون آخرون وأُرسلوا إلى اللواء مع مجموعة صغيرة من الحرس. ولكن الوادي كان مجرد نقطة أمامية لموقع أقوى على بعد 800 ياردة

إلى الخلف منها. وبعد فترة وجيزة وقبل أن تهاجمهم قوات الخيَّالة تعرَّضوا إلى وابل من نيران البنادق والرشاشات من الخط القتالي الثاني، وكما يعتقد البعض من الكتيبة ومن أفراد قوات المشاة الذين رفعوا أيديهم في مؤخرة الجيش، دفع الكولونيل سريته إلى اليمين في مسعى منه لإيجاد طريقة للخروج نحو الرتل، إلا أن الخط الدفاعي التركي تمدَّد بعيداً إلى الشمال لفسح المجال لالتفاف الجناح، لذلك قرر سحب سراياه والتقدم مترجِّلين.

استولت قوات الخيالة على الوادي الأول الذي من فوقه بدؤوا الهجوم، وواصلوا نيران بنادقهم وأسلحة الهوتشكيس على مسافة ثمانمئة ياردة. وكان العدو يقوم بتعزيزات قواته طوال النهار، وفي المساء كانوا يقدِّرون بفرقة وعشرين مدفعاً. خرج أحد الألوية إلى الشمال وفشل في إيجاد جناحهم إلى ما بعد الظهر. وفي الساعة الخامسة والنصف أصبح القصف كثيفاً جداً. وكان عدد الجرحى في ساحة المعركة قد أوقف الفوج في المكان. وفقدت قوات الخيالة تسعة ضباط (ثلاثة منهم قتلوا) وخمسة وثمانين رجلاً (قُتِلَ منهم عشرون رجلاً). وتم إخلاء أو بيان جميع خسائرنا، وكان هناك اثنان فقط قد فقدا وقد أصبح معلوماً أنهما أصبحا بيد القوات التركية. لا أحد يترك جرحى الآخر في ميدان المعركة في بلاد وادي الرافدين؛ لأنَّ العرب يعطوهم مهلة قصيرة للاعتراف. كما أنهم لا يتلقون دائماً معاملة جيدة من قبل الأتراك. وفي لاج كان الجرحى مطروحين على الأرض قريبين جداً من الخنادق التركية بحيث إنَّ العدو خرج إليهم وسحبهم إليه.

فشلت هذه المعركة الصغيرة لكتيبة الخيَّالة الثالثة عشرة في تحقيق أهدافها، إلا إنها مسألة شجاعة. كانت الفرص نادرة التي كانت لدى قوات الفرسان إمكانية الهجوم المباغت على المقر الرئيس بالسيوف. ولأنهم كانوا قادرين على الاقتحام والخروج وإعادة التشكيل تحت هكذا نيران كثيفة بدون فقدان السيطرة، سيتم تذكرهم بفضل السلاح. وبحركة مسؤولة أصبح الجناح الأيسر من الكتيبة قريباً جداً من الأتراك. لقد كانت زاوية ساخنة للقطعات المحمولة، ومع ذلك وبالرغم من الخسارة وبسبب الإرباك الحتمي بين صفوف الجرحى والخيول المقتحمة التي كان العديد منها بدون راكب أو يحمل رجلين، انسحبت السرايا الثلاث إلى مسافة

مئتي ياردة من الموقع الذي اختير وما زالت ضمن منطقة النار، وكانت خيولهم في متناول اليد، أعادوا السيوف وسحبوا أسلحتهم وتقدموا مشياً على الأقدام كالمشاة. كان ذلك اختباراً للانضباط الذي سيكون ذاكرة إنذار إلى ضباط الفرسان الذين رأوا الأساس الذي تدربوا عليه تحقق في خضم المعركة.

في صباح اليوم التالي اكتشفوا بعد تَفقّد الموقع التركي أنَّ الخط الدفاعي الرئيس (أ) تراجع بشكل مائل من النهر إلى خط تقدم قوات الفرسان. ويوضح هذا مدى الخسائر الجسيمة بين صفوف السرية على جهة اليسار والسرية التي تليها؛ لأنَّهم كانوا يسعون بأن يتحمل جناحهم الأيسر المسؤولية، وأصبحت رشقات النيران عليهم نيراناً منتظمة وأُخلي عدد قليل من الرجال والخيول الخندق العميق والضيق الذي شكَّل الخط الدفاعي الرئيس للمقاومة التركية، ولكن لم ينجُ أحد منهم. وقد عُثِرَ على أحد الخيول مقتولاً ومعلقاً فوق الساتر. وقرر الأتراك بشكل واضح اتخاذ موقف في منطقة اللاج ولكنهم انسحبوا ليلاً من موقعهم واندفعنا بدلاً منهم. إنَّ ظهور لواء الفرسان السادس على يسار مؤخرة جيشهم في الفجر ضاعف مع جبهة اللواء السابع من قلقهم. واعتقدوا أنهم كانوا مطوَّقين ويتعرضون لخطر عزلهم. لقد اعترف الأسرى بهذا، وكان رأي ضباط الأركان الذين استطلعوا المنطقة أن قوات المشاة لا تستطيع استرجاع الموقع في أقل من يومين أو ثلاثة أيام قتال عنيف. وإذا كان الموقف هكذا، فإنَّ هجوم كتيبة الفرسان الثالثة عشرة ومعركتهم الراجلة فيما بعد لم تكن مجرد جهد بطولي قد أحبط، وكانت معركة فاصلة عجَّلت من تقدمنا إلى بغداد.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي كُنَّا على مرأى من مدينة المدائن. وقد أعدَّ العدو موقعاً قوياً مُحصّناً، إلا أنهم تركوه واستندوا إلى نهر ديالى. شاهدت الطاق العظيم من برج القيادة في سفينة التارانتولا وأن أشعة الشمس المبكرة التي تدخل إلى الآثار تجعله يتوهَّج ويشبه أحد الأضرحة المضاءة.

لم يعد البلد عندما اقتربنا من بغداد بغيضاً. حتى إنَّ الخصائص الطبيعية للتربة أصبحت أقل ضعفاً. وأصبح السهل شمال بغداد أكثر تموُّجاً. وشوهدت الأرض

المنبسطة الرتيبة والميتة من خلال المتاريس وضفاف القنوات النهرية التاريخية. وهناك أحزمة من الأشجار بجانب النهر. وفي ليلة السادس من الشهر رسونا بجانب عرش كسرى وشاهدنا السواري اللاسلكية لبغداد. وربما كان التغيير على مظهر الأرض أكثر وضوحاً إلى العين الداخلة إليها، وكان الكثير من الأمور البشعة التي تركناها وراءنا وغياب اللون والشكل والضوء وهمياً. وأثار جمود البلد الآن الأشباح المسلية؛ لأنَّ الموت لم يعد حاضراً وشخصياً ورُفِع الجزء القاتم الأكبر من رؤوسنا.

حملت معي قرد العييون لأكثر من عام وفي أغلب الأحيان أعمل بهِمَّة على قصته عن حملة جوليان لإيجاد تشابه مع حملتنا. كان لدى الجنرال الروماني ألف ومئة سفينة وخمسون سفينة مسلحة وخمسون زورقاً ذوات قعر مسطح وكان يستخدمها للتجسير، ولم تكن قوتنا الأصلية للإغاثة مجهّزة تجهيزاً بالعوامات عندما غادرت علي الغربي. تقدَّم الجيش على شكل ثلاثة أرتال على الضفة، وكان رتل نيفيتا الشجاع دائماً على مرأى من الأسطول، وسلاح الفرسان أبعد من ذلك لحماية الجناح. ومن ثم، وكما هو الحال الآن، ينتظر العرب في أطراف الجيش ويعترضون سبيل المجاميع المنتشرة من غير نظام في المسيرة، ولم يتغيَّر حبهم للمال ووحشيتهم ولإعادة الآشوريين في فتح سد ومقاومة طوفان مفاجئ إلى تقدم الغزاة. وتؤكد قوات جوليان العوامل نفسها المثبطة للهمَّة كما هي صعوباتنا، كالحرارة والفيضانات والذباب والغرق الذي يجتاح معسكرهم. وأصبحت الطرق غير سالكة، والهواء الفاسد معتماً من حشود الحشرات التي لا حصر لها.

عندما وجد جوليان نفسه على الضفة اليمنى مقابل المدائن كانت حالته مشابهة لحالتنا في منطقة شمران. إذ إنَّ نهر دجلة يواجه العائق نفسه أمام الرومان، مثل العائق الذي اعترض القوة البريطانية والهندية في ظل قيادة الجنرال مود، وهو عائق تعدُّه القوات لا يقهر على الرغم من أنَّ القائد رأى طريقاً لاختراقه. كان العبور نقطة جوهرية ويشعر الفرد أن مكر الجنرال الواحد واستراتيجيته ستكون تحت إمرة الجنرال الآخر في ظروف مختلفة يفرضها القرن السادس عشر.

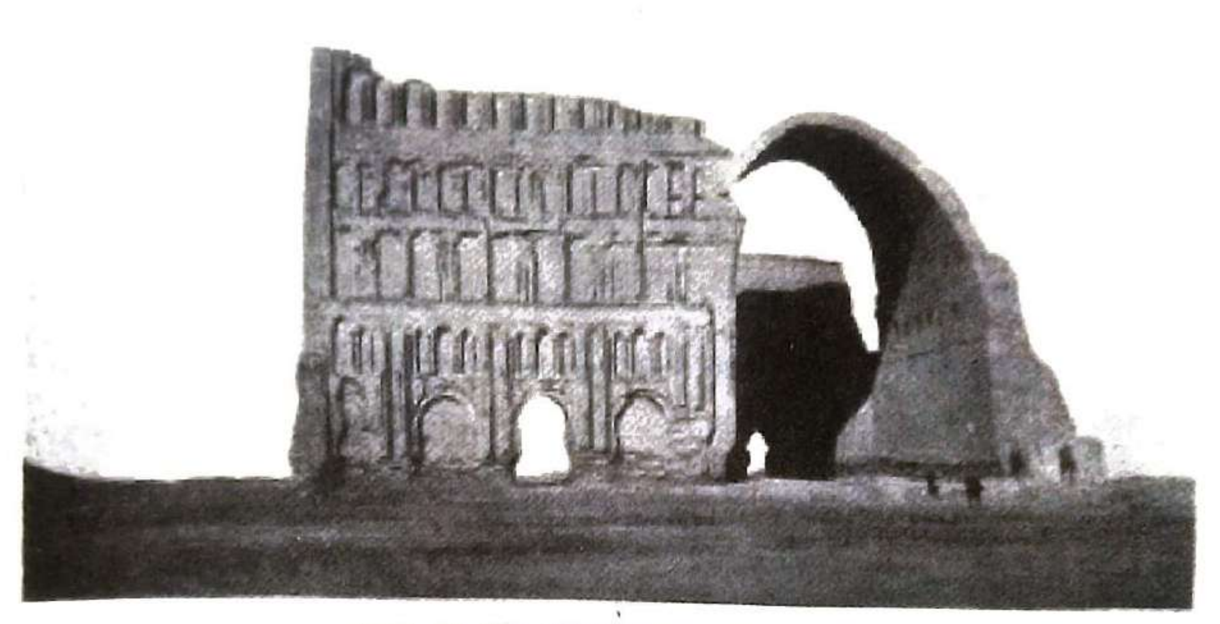
كان مجرى النهر واسعاً وسريعاً، وإنَّ تسلُّقه عال وصعب وشكَّلت التحصينات

التي أقيمت على حافة الضفة المقابلة خطأً مع قوات الجيش العديدة من الدروع الثقيلة والرماة المَهَرَة والفِيَلة الضخمة التي (على وفق المبالغة المفرطة للّبانيين) بإمكانها سحق حقل من الذرة أو جحفل من الرومان. وبحضور مثل هكذا عدو فإنَّ بناء جسر كان غير عملي. وأخفى الأمير الباسل الذي استولى فوراً على الوسيلة المحتملة الوحيدة، تصميمه إلى لحظة التنفيذ، عن علم الأجانب، من قواته الخاصة حتى من بين جنرالاته أنفسهم. وفي ظل التظاهر الخادع بتفقد حالة العجلات كانت ثمانون سفينة تفرغ حمولتها بالتدريج، وكانت إحدى المفارز المختارة التي من المقرر أن تقوم على ما يبدو بحملة سِريَّة، قد صدرت الأوامر إليها للاستعداد للقتال عند الإشارة الأولى. أخفى جوليان القلق الصامت في داخله وراء ابتسامات الثقة والبهجة، وأبهج الأمم المعادية بمنظر الألعاب العسكرية، التي احتفل بها بشكل مهين تحت جدران كوجي. كان اليوم مكرَّساً للمتعة، ولكن حالما انتهت ساعة العشاء، استدعى الإمبراطور الجنرالات إلى خيمته وأطلعهم أنه حدد تلك الليلة لعبور نهر دجلة. وقفوا بصمت ودهشة متَّسمة بالاحترام، ولكن عندما تظاهر سالوست الموقر بفضل عمره وخبرته، أيده باقي هيئة الأركان مع حرية تقييم اعتراضاته الحكيمة. أقنع جوليان نفسه بمراقبة أن الغزو الآمن يعتمد على المحاولة، وأنَّه بدلاً من الاستخفاف فإنَّ عدد أعدائهم سيزداد جراء التعزيزات المتتابعة، وإنَّ تأخير العبور فترة أطول لن يقلل من عرض مجرى النهر ولا من مستوى ارتفاع الضفة. وقد صدرت الإشارة وامتُثِلَ لها، وقفز أفراد الفيلق الأكثر تلهفاً إلى خمس سفن كانت راسية قريباً من الضفة وفور استخدامهم لمجاديفهم مع اليَقَظَة الجريئة، اختفوا بعد لحظات.

لا يمكن لأحد يقرأ هذا المقطع أن ينسى المشهد أبداً. كان في مخيلتي وأنا أراقب قوات النورفولكس عندما حملوا قواربهم واندفعوا في الضوء الخفيف في صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط. واتبعت القوات الرومانية القوات الفارسية إلى جدران المدائن ومن المحتمل أنها دخلت إلى المدينة. ولكن بجيش الغرب حالما عبر نهر دجلة أصيب العدو العنيد بالهزيمة، وتغيرت المفارقة التاريخية من مود إلى طاوزند. تكرر التاريخ في شهر تشرين الثاني 1915 عندما وجد قائد شجاع

نفسه يمر في المدائن حيث لا يمكن للعبقرية ولا الجرأة أن تنقذه. وكان الانتصار في المدائن كارثياً بالنسبة لطاوزند كما كان بالنسبة لجوليان. وشهد طاق كسرى وضع نجمتيهما. كان هناك الكثير من العوامل المشتركة في طابعهما ومصيرهما، في شجاعتهما ووسائلهما، وقدرتهما على الإقناع، وفي خطاباتهما إلى قواتهما وفي قوة جاذبيتهما. وأصيب كلاهما أيضاً بخيبة أمل في الإمدادات العسكرية التي لم تجرِ بشكل جيد. كان الاختلاف كبيراً في تأثير الحملتين، ففي حالة جوليان كان الانسحاب من المدائن قد سجل بداية نهاية الإمبراطورية الرومانية في الشرق، وفي حالة طاوزند فإن الكارثة حفَّزته إلى المزيد من الغزو. ولكن خلال الأشهر المظلمة في عام 1916، فإنَّ المقارنة تجعل القراءة متشائمة، وكان المرء سعيداً؛ لأنْ يكون حدّ مصيري مهم وحاسم لا تحمد عقباه يجري على طريق بغداد.

وعلى الجانب الآخر من النهر والتلال الجرداء المواجهة لمدينة المدائن كانت أنقاض السلوقية، البقايا الأخيرة لليونان. لقد ابتلعت هذه التربة العطشى العديد من الإمبراطوريات، إلا أن طاق كسرى هو النصب التذكاري الوحيد الذي بقي في بلاد ما بين النهرين يشير إلى كرامة الإنسان. وفي الوقت ذاته، اهتم القليل من المسلمين من الفلاحين التعساء وغير الماهرين، كما وصفهم أميانوس، بحقولهم البائسة ودفع قطعانهم إلى المراعي، بمرور الإمبراطوريات. سواء كان اليونان أم الرومان أم الفرس أم البريطانيون أم الأتراك، كان ذلك الشيء نفسه، كان ذلك ميزتهم كورثة للتربة لمئتي عام في الأقل في المهاجمة والقتل ونهب الجانب الخاسر. إن تجريد الأتراك من ملابسهم وتسليمهم في منطقة البغيلة كان من سمتهم. وقد هاجموا المشردين من جيش جوليان في سامراء بالطريقة نفسها. وتم تجريد جرحى طاوزند وتشويههم من قبلهم. ولكنهم في ساعة النصر يكونون أصدقاء طبيعيين.



ARCH OF THE CHOSROES AT CTESIPHON

طاق كسرى في المدائن

وعندما تجاوزنا المدائن، كانوا يقيمون صفاً على الضفاف يحنون ظهورهم ويشيرون إلى الزوارق الحربية ويلوِّحون براياتهم البيضاء. وقام هؤلاء القرويون أنفسهم قبل عشرة أشهر باستعراض للأتراك مع عرض كبير بهيج عندما مرت السفن إلى أعلى مجرى النهر وهي تحمل حامية الكوت المنكوبة[1]. كانت هناك راية بيضاء متسخة على كل حصان ذي شعر أسود وخيمة وزريبة أو كوخ طين ضمن مدى النيران. لكنهم ليسوا شعباً جباناً. كانوا في هذا القتال الجاري بين نارين، ولكنهم يذهبون إلى عملهم غير مبالين، وترتفع أعمدة الدخان والتراب على الضفة ونافورات الرش في مجرى النهر، إلا أن «البدوي» يلتزم فدان ثيرانه على العجلة الفارسية حيث إنَّ رفع المياه يغذي قناة الري، وتواصل نساؤه جمع روث البقر وقوداً في الحقول. وكانوا يتاجرون مع كلا الجانبين، وكان الفرق الوحيد هو أن التركي كان يدفع بالنقود الورقية المنخفضة إلى ثلث قيمتها الاسمية، بينما كنا نحن ندفع بعملة جيدة. وقبل الغروب عبرنا إحدى القرى المهاجرة- مرّ موكب من الرجال والنساء والأطفال وهم يحملون الحزم على ظهورهم ويسوقون أو يقودون الأغنام والماعز والماشية. كانوا ينتقلون إلى مسافة أميال عدة إلى الجنوب ليعودوا بعد يوم أو يومين عندما تنحسر حدة المعركة باتجاه بغداد.

لم يتوقف الأتراك في موقعهم المُحصَّن بقوة في المدائن. كنا قريبين جداً في أعقابهم، ولم نمنحهم أية فرصة للتوقف في العزيزية. وبعد المعركة تراجعت طليعتهم إلى ديالى، ودمرت الجسر الذي يعبر نهر ديالى عند نقطة التقائه مع نهر دجلة. واصلنا سعينا على الضفة اليسرى، وأرسلنا قوات الفرسان مع الفرقة السابعة واللواء الخامس والثلاثين للعمل على الضفة اليمنى، حيث كان لدى الأتراك قوة تغطِّي المدينة من الجنوب والجنوب الغربي.

---

(1) كنا نمر هنا وهناك بقرية عربية، والمقيمون فيها يخرجون منها ويشهقون بوجوهنا، ويمجدون الأتراك بعربتهم للسجناء. ويشبكون ذراعاً بذراع، يعمل الرجال في المنطقة دبكة أو رقصة على شكل خط، مع الاحتفاظ بمواكبة السفينة، يهتفون ويرددون أغنية النصر، ويشعلون النيران في أي بندقية قديمة أو مسدسات صادف أن امتلكوها. لكن الأتراك يبتسمون فقط، ويدعونهم بالغوغاء ويهزون أكتافهم استخفافاً- محاصرين في الكوت- وبعدها. (مجلة بلاكوود، حزيران، 1917).

كانت السرعة في المتابعة ضرورية وواجهة الطابور الذي كان يهاجم ديالى نقطة عبور أخرى وقد أُزيل منها عنصر المفاجأة. تقع القرية على كلا الجانبين من مجرى النهر، الذي يبلغ عرضه مئة وعشرين ياردة. وجعلت الدور والأشجار والوديان والبساتين المسيجة من المستحيل شق طرق وعمل منحدرات للطرق بسرعة وجلب الطوافات بدون الكشف عن نقطة الصعود. لذلك تم اختيار موقع العبور القديم. وقد اضطروا إلى العبور بأقل خسارة عن طريق القيام بحركة إحاطة واسعة إضافية داخل البلاد، ولكن هذا قد يعني التأخير، وكان وقت المطاردة ضرورياً. وينبغي على المرء أن يحسب حساب العدو وقد دفع بخشونة وضعفت معنوياته، وعلى المرء أن يستعرض الجرأة التي ستكون تهوراً في معركة مفتوحة، وأن الجنرال الذي لا يستغل ضعف الخصم في مثل هكذا مواقف أو أنه يتردد في التصرف سيفتقر إلى المبادرة. ولكن إذا لم يدفع العدو وكانت معنوياته جيدة وترتيباته دقيقة، وإن التفاصيل التي ألقيت على هذا المبدأ بوصفه المجس الذي ينبغي دفعه.

كانت الفرقة الثالثة عشرة تتقدم على الضفة اليسرى، وكان الهجوم في ليلة السابع/ الثامن من شهر آذار شنَّته قوات الكتيبة السادسة (كنغ أون) التابعة للواء الثامن والثلاثين أو لواء اللانكشاير. لقد فشل الهجوم تماماً، إلا أن جرأة رجالنا لم يسبق أن تم تجاوزها في الحرب. وأُنزِلَت أول طوافة على منحدر الطريقين، وتمت خلال ثوانٍ قليلة إبادة المفرزة المهاجمة بالكامل. كان ضوء القمر ساطعاً وركَّزت القوات التركية رشاشاتها وبنادقها في البيوت على الضفة المقابلة. وجنحت الطوافة الثانية في وسط مجرى النهر عندما فتح عليها وابل من النيران. وقتل طاقم من خمسة مُجَدِّفين وعشرة رماة بنادق وجنح الزورق مع مجرى النهر. أما الطوافة الثالثة التي عبرت تقريباً قد فُجِّرت وغرقت، وتم قتل جميع طاقمها. ولكن لم يكن هناك تراجع. لا تزال الأوامر باقية لتأمين العبور. ويندفع طاقم تلو آخر نحو موت مؤكد وواضح. وكانت المفرزة الرابعة التي تعبر النهر قد أبيدت بالطريقة نفسها، وانجرفت الطوافات في نهر دجلة لتطفو أمام معسكرنا في وضح النهار وهي محملة بالقتلى.

كانت أسلاك الهاتف محملة على القوارب. وكان الناجيان الوحيدان في القارب الذي جنح إلى مجرى النهر -وهما أحد المخابرين (جندي مخابرة)

وأحد جنود كتيبة (الكنغ أون)- اللذان يبدو أنَّهما أصيبا بجروح خطيرة. وقد ربط عامل المخابرة سلكه بحلقة القارب المنجرف وغطس من فوق القارب ووصل الشاطئ ومعه النهاية الأخرى من السلك، وبذلك ومع المساعدة من الضفة نجح في سحب القارب مع الرجل الجريح. كان المجدِّفون الذين انقلب بهم القارب من المتطوعين من الكتائب الأخرى في اللواء. وكانوا هم والمهندسون العسكريون العاملون على الضفة يشتركون في شرف المشاركة في تلك الليلة مع الكتيبة المهاجمة. أصبح أملاً يائساً، إلا أن الرجال كانوا يضحكون ويمزحون، مع الاحتفاظ البطولي والعاطفي والمأساوي في متناول اليد، كما هي طبيعتهم. لا شيء يوقفهم ما عدا فقدان القوارب. وفي المرحلة الأخيرة، صاح أحد رجال قوات اللانكشاير؛ إنَّ الجو حار نوعاً ما هنا، دعونا نحاول إلى الأعلى. إلا أن عدد الأفراد البواسل في القارب الأخير قد نقص.

وتأخرت كتيبة إيست لانكشاير التي كان ينبغي أن تعبر إلى الأعلى من مجرى النهر بالتزامن مع كتيبة (الكنغ أون) حيث ينبغي نقل الزوارق ما يقارب من ميل عبر بلد صعب إلى مجرى النهر.

وبعد فشل العبور، كانت هذه هي محاولة العبور الثانية التي يتم التخلي عنها، إلا أن الرجال لا يزالون ثابتي العزم.

وفي الليلة الثانية تمت مواصلة المحاولة بجرأة مماثلة من قبل قوات كتيبة (لويال نورث لانكشايرز). وفي هذه المرة سبقت الهجوم بالقصف المدفعي. وكان الاستمكان من قبل المدفعية مستحيلاً في اليوم الأول نظراً لسرعة المطاردة. إنه الحاجز الذي أمن لنا موطئ قدم، ليس حاجز قذائف المدفعية، بل حاجز الغبار الذي أثاره. كان الغبار كثيفاً جداً بحيث لا يمكنك رؤية راحة يدك. وشَكَّل الغبار ستارة حيث تمكَّنت القوارب من ورائه عبور النهر. وبعد ذلك وفي ضوء القمر الواضح وعندما زالت ستارة الغبار تكررت ظروف الليلة السابقة. تمت إبادة مفارز العبور المتتابعة وجنحت القوارب بعيداً. ولكن موطئ القدم كان مُؤَمَّناً إذ إن الغبار قد خدمنا جيداً. وإن طاقم أحد القوارب الذي ضلَّ طريقه في أثناء الغبار لم يصب

بشيء في منتصف مجرى النهر ولكنهم لم يصلوا إلى الضفة في الوقت المناسب. كشف الهواء مباشرة إحدى الرشاشات وهي تفتح نيرانها عليهم، وأصيب المجدفون بطلقات نارية وجنح القارب إلى الشاطئ. دعا رقيب من المتطوِّعين لإخراج الجرحى من القارب. وصعدت إحدى المفارز مؤلفة من اثني عشر رجلاً رصيف النهر، وقتل جميع الرجال فضلاً عن طاقم الزورق. واجتاز نحو ستين رجلاً واشتبك هؤلاء بالقتال وبدؤوا بالقصف على طول الضفة. وقد تعرّضوا حالاً إلى ضغط كبير من قبل الأتراك على كلا الجناحين، ووجدوا أنفسهم بين غابتين. واكتشفوا هنا موضعاً طبيعياً لحسن حظهم. وتم إصلاح الكسر في منصة النهر لاستبدالها بمنصَّة جديدة، بُنِيَت على ضوء القمر على جانب اليابسة. وشكَّل هذا حلقة كاملة. كانت قوات اللانكشاير محاصرة من جميع الجهات ما عدا جهة النهر التي استولوا عليها في أثناء الليل وتعرَّضوا خلالها لقصف متكرر وحاسم طوال النهار والليل التاليين. نفذت هذه الهجمات في الظلام أو عند الفجر. وتعرَّض الأتراك إلى هجوم واحد خلال النهار عندما قامت إحدى الرشاشات التابعة لنا على الضفة الأخرى بتمشيط أرض الموضع. كان هناك بستان من أشجار التوت والنخيل على بعد عشرين ياردة إلى الغرب من الموقع العسكري. كان الموقع أكثر عرضة للهجوم في هذا الجانب، وكانت هنا الهجمات التركية الأكثر تكراراً. وقدمت نيران مدفعيتنا المركَّزة والمتقطعة بعض الحماية لنا. كانت الأمور كلها مرئية بالنسبة إلى قواتنا على الجانب الجنوبي، وكانت قادرة على إسماع صوتها بالصياح. وقد فشلت محاولات الحصول على كابل عبر النهر من جرَّاء الصواريخ لعبور الذخيرة. وتم استدعاء متطوِّعين للسباحة عبر مجرى النهر مع سلك. وكان أقوى سبَّاح على وشك العبور عندما أصيب الملازم لومان، معاون الفوج الذي كان يدفع السلك، في قلبه وسقط ميتاً، ومنع وزن السلك في النهر من الوصول إلى الضفة الأخرى. وفي منتصف ليلة التاسع/ العاشر كان الأتراك على قمة الساتر، ولكنهم طردوا إلى الوراء. إنَّ المزيد من الاندفاع بعزم سيؤدي إلى الاستيلاء على الموقع العسكري، إلا أن الحامية الصغيرة، التي انخفض عددها إلى أربعين جندياً، حافظوا على رفع رؤوسهم وواصلوا السيطرة على النار بشكل هادئ. وشوهد أحد

العرفاء وهو يبحث عن الحلقات الراخية وتجريد القتلى من أحزمة الكتف. وفي النهاية خُفِّضَت حمولتهم إلى حلقاتهم الأخيرة وقنبلة واحدة. ولكننا وجدنا أكثر من مئة قتيل تركي خارج الحصن عندما تم إسعافهم في وضح النهار في صباح اليوم العاشر.

كان العبور في ليلة التاسع/ العاشر ناجحاً تماماً. ومع وجود قوات الفرسان ورتلين من المشاة يعملون في الضفة اليمنى من النهر، كان الأتراك في خطر عزلها عن منطقة الصناعيات. وقبل منتصف الليل قاموا بسحب رشاشاتهم وتركوا حملة البنادق فقط لمقاومة العبور. كان عبور كتيبة الويلتشايرز من أعلى مجرى النهر مفاجأة. وتسلَّلوا من خلال الحرس التركي. وكانت لديهم مفارز طوارئ على طرفي زاوية النهر، حيث أنزلنا قواربنا، إلا أنهم كانوا يراقبون النقاط المهمة فيها، التي وفَّرت لنا أرضاً ميتة غير محمية من قبل مخافره في أعلى مجرى النهر وأسفله. لم يكن متوقعاً عدم إدراك ما يجري حولهم إلى أن تم ترسيخ موطئ قدم لنا. كان أحد الأشخاص في الحقيقة قد طعن عندما كان مضطجعاً لتغطية الضفة المقابلة من النهر ببندقية. وعبرت عَبَّارة أُخرى بالقرب من الجسر أيضاً مع خسائر طفيفة بسبب الانحراف ضد التيار. وعندما أدرك الأتراك أن جناحهم كان قد تراجع، أثر في إجراء عملية انسحاب عام، وأن الجزء الأكبر من حاميتهم بين العبارتين، ويقدر بنحو مئتين وخمسين جندياً، وجدوا أننا نقوم بقصف الخنادق على كلا الجناحين، واستسلموا.

كانت عبَّارة ثالثة تجري الاستعدادات في نهر دجلة. وتم تزويد زورقين بخاريين واسعين بيننا ليرسوا في غاليبولي بنحو خمسمئة جندي من قوات الجيشايرز. كان هؤلاء من المقرر أنْ يتم إنزالهم على اليابسة على الخنادق التركية المواجهة لنهر دجلة على بعد نصف ميل إلى الأعلى من نقطة التقائه مع نهر ديالى. وكان على قوات الجيشايرز النزول والاندفاع نحو الموضع وتطويق القرية من الخلف والالتقاء مع الحامية الصغيرة لقوات نورث لانكشايرز بشرط أنَّها لا تزال صامدة، ومع أي تفاصيل قد تؤثر على عملية العبور، كانت مغامرة شجاعة. رسا أحد هذه المراكب الخرقاء والمروّعة مع مسلحيها المتخمين مثل حصان طروادة، على شاطئ رملي، وكانت لدينا نحن على متن السفينة ترانتولا تلهف في صباح اليوم التالي لسحبها، قبل

أن تتمكَّن مدفعية العدو من استمكاناننا. ولكن لم تضِف قوات الجيشايرز، الذين كانوا هناك في الوقت المحدد، شيئاً كبيراً لإنجاح المعركة. تم إجراء العبور قبل الفجر. وبحدود الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم العاشر عبر جميع أفراد اللواء بالكامل. وأُكمِلَ الجسر بعد الساعة الحادية عشرة مباشرة وتمت مواصلة المطاردة. لن تُنسى الجرأة الباهرة للواء الثامن والثلاثين مطلقاً، وإذا كانت هناك أية وجهة نظر تاريخية- ستتذكرها- ديالى- ليس مثل مجرى النهر الذي فقد فيه سايروس حصانه، ولكن كنوع من جهاز قياس حماسة اللانكشايرز.

نصبنا جسراً آخر في منطقة باوي على بعد أربعة أميال إلى الأعلى من المدائن وألقينا قوة من جميع الأسلحة على الضفة اليمنى من النهر. وكان اللواء الخامس والثلاثون قد عبر بعبَّارة في ليلتي السابع والثامن ويعمل في أعلى ضفة النهر. وعبرت فرقة الخيالة عن طرق الجسر في ليلة الثامن من الشهر، وعبرت الفرقة السابعة في وقت مبكر من صباح اليوم التاسع منه. وكان الأتراك يمسكون بموضع في منطقة شاوي خان على بعد خمسة أميال جنوب غربي بغداد، مع جناحهم الأيسر على النهر. ليس لديهم دفاعات طبيعية على هذه الضفة مقارنة مع نهر ديالى. وبهذا الوقت، تخلَّوا عن جميع الآمال لإنقاذ المدينة وكانوا يخوضون معركة إعاقة. هبّت عاصفة ترابية عنيفة في يومي التاسع والعاشر من الشهر مما ساعدهم وحجبهم من نيران مدفعيتنا خلال عملية انسحابهم.

وفي التاسع من الشهر كانت هناك معارك متفرِّقة على جبهة واسعة جداً، وتقدَّمنا ونحن ندفع أمامنا دوريات العدو ومفارزه. وبحدود الساعة الثانية بعد الظهر أصبحت الفرقة السابعة على تماس مع اللواء 35 في الجانب الأيمن.

وبينما كان خطُّ تقدمنا من منحنى النهر، كان جناحنا يتعرَّض لرشقات من نيران مدفعية العدو من الضفة الأخرى. وكان لدى الأتراك، من خلف أكواخه وجدرانه، موقع حامية قوياً وقد عُزِّز كثيراً عبر نهر دجلة، حيث كانت مواضع مدفعيته مخفية بين بساتين النخيل وأمينة من الهجوم ما دامت دفاعات نهر ديالى قائمة. وفي الداخل، كانت قواتنا في أقصى اليسار على بعد سبعة أميال ونصف من الماء. وقد

فشلت قوة مؤلفة من كتائب السيخ 51 وحملة البنادق 56 والبنجابيين 92 و28 التي أرسلت لإيجاد الجناح الأيمن للعدو في إنجاز مهمتها. ولم يقدِّم سلاح الفرسان أية مساعدة لحاجتهم إلى الماء وإنهاك خيولهم وكانوا مشلولين عن القيام بجميع المهام العملية. وعندما حلَّ الظلام كان الأتراك لا يزالون يمسكون بالموقع، ولكن دورياتنا تقدَّمت إلى الأمام قبل الفجر ووجدوا أنهم قد أخلوا الموقع. كشف صباح اليوم العاشر أنَّ العدو في خط جديد من الخنادق تحمي الجسر الحديدي وقضي النهار في تقدُّم تدريجي تحت نيران ثقيلة. كان الأتراك طوال الوقت يتسللون للهرب، إلا أنَّه في الغبار الذي يعمي البصر لم تجد مدفعيتنا هدفاً لها. وقد خدمتهم الرياح بشكل جيد، إذ إنَّ السماء الصافية ستضاعف من خسائرهم البشرية. لم تكن خسائرنا البشرية خلال يومين من القتال والمسيرة، على الرغم من عدم وجود استخدام للحراب وقلة اقتحام الخنادق. وبالنسبة للأتراك وبسبب امتلاكهم القليل من وسائل النقل للاستناد عليها، كانوا متهوِّرين في صرف قذائف المدفعية، وقد أفادوا من وجودنا في الغبار لأنهم كانوا يعرفون الأرض وكانت المواقع مسجلة لديهم. وقد تجاوزت خسائر الفرقة السابعة الألف جندي. لكن الأتراك ما كانوا يريدون البقاء. كان بإمكانهم سماع المعركة على الضفة اليسرى التي تخبرهم أننا عبرنا نهر ديالى. وقبل الغروب، كانوا يطلقون رشقات من قذائف المدفعية من جميع مدافعهم- لم تكن هناك إشارة مجهولة بوجود مغادرة وشيكة وقد تلاشى تعبهم في البرية، وفتحت نيران سريعة ومتواصلة من قبل قوات المشاة التابعة لهم على دورياتنا. بعد ذلك، وبعد منتصف الليل مباشرة، أشار وهج المدينة الملتهبة إلى الدمار المنظم للتراجع. وفي الساعة الواحدة فجراً ذكرت إحدى الدوريات بقيادة أحد ضباط الكوركا التابعة إلى كتيبة الكوركا من حملة البنادق 4/2 أن مواضع مدفعية العدو كانت فارغة، ولم يكن هناك أتراك في وادي الجسر الحديدي. لم يتم إلغاء الأمر بالهجوم في الساعات الأولى في الليل، ولم يتم تنفيذ المزيد من الحركة حتى الساعة الثانية من اليوم الحادي عشر. وبعد ذلك، عبر اللواء الحادي والعشرين من خلال اللواء التاسع عشر، واندفعت الدوريات إلى الأمام. واكتشفوا أن الأتراك تركوا عدداً قليلاً من حملة البنادق فقط لتغطية عملية

انسحابهم. وبعد الساعة 5.45 فجراً، استولت نصف سرية من قوات البلاك ووج بقيادة الملازم هوستن على محطة السكك الحديد في بغداد مع خسارة رجلين من قواتها. وبعد ساعتين، احتل اللواء الخامس والثلاثون الضواحي المقابلة إلى موقع جسر الدوب واحتلت قوات الفرسان منطقة الكاظمين قبل الظهر.

وفي الضفة اليسرى، وبعد عبور نهر ديالى، كان هناك قتالٌ في بساتين النخيل في سعيدة والضباعية. ودخلت قوات الورويكس وأخلى الأتراك بالحراب بعد أن مشطت مدفعيتنا الغابة. كانت القوة الرئيسة للعدو تمسك بموقع (تل محمد) على بعد ميل ونصف إلى الشمال من خط من الخنادق يمتد حوالي أربعة أميال إلى الداخل من نهر دجلة. هاجم اللواءان 38و39 هذا الموقع الذي أمامهم، بينما قام اللواء الأربعون بحركة إحاطة واسعة على الجناح. قام العدو بإخلاء الموقع في الليل، وفي وقت مبكر من صباح اليوم الحادي عشر، انطلق فيلق الفرسان وسريتان مؤلفتان من قوات الهيرتس يومانري وكتيبة اللانسرز العاشرة وكتيبة الفرسان الثانية والثلاثون إلى بغداد. كان الرتل على الضفة اليمنى متقدماً علينا على الضفة اليسرى، وإذا كانت محطة بغداد للسكك الحديد هي بغداد، كان لدى قوات البلاك ووج الشرف في أن تكون الأولى التي دخلت إليها. وقد سقطت المحطة بأيديهم ليستولوا على نهاية خط السكة الحديدية التي صمَّمها الألمان للتقدم الذي يزهو بالنصر من برلين، العهد الذي قدَّمه عن غزوه الروحي والثقافي والمادي لدول المشرق.

الفصل الثاني والثلاثون

الأيام الأولى في بغداد

إنَّ مرور عام أو عامين من الحرب في بلاد وادي الرافدين تضعف إحساس الفرد بالانطباعات. وحالما دخلنا بغداد عادت أفكارنا من خلال دورة التاريخ إلى نبوخذ نصَّر والإسكندر وسايروس وجوليان وكسرى وهارون الرشيد. والآن كان الجنرال مود. أصبح جنرالنا صاحب الابتسامة الهادئة واحداً من المخلدين. أكسبته الطريقة والرؤية والقرار المكانة اللائقة في معبد الشهرة. وفتحت المدينة الأكثر أسطورية في العالم أبوابها أمام الدقة المجسَّدة وهربت العفاريت أمام العملية إلى النهاية وتنازلت الأشباح وتبدَّدت الأساطير في الحقائق. عمل العثمانيون بدون جدوى في اليوم السابق على دخولنا على تدمير باب الطلسم، الذي من خلاله انطلق محمد الفاتح، وتحصَّن خلفه لئلا يتبعه الآخرون في إحراز النصر على خطواته. ويبدو أنه لم يتم تنفيذ أية مساعدة روحية أو مؤمنة بالخرافات أو فضل آلهة الحظ منذ اليوم الذي هبطنا فيه الفاو، كان الجميع من خلال العلم عنيداً. كانت قوانين السبب والتأثير قاسية جداً، وكان كل خطأ يرتكب مقابل ثمن وينتزع الاهتمام. وكان الاعوجاج الصغير الذي عملناه طوال أشهر في الجدار الحديدي للدفاع التركي نتيجة ضربات المطرقة التي لا حصر لها، واليقظة والحماس بدون كلل، والقرار بأنه لا يمكن تخفيف أغلب الظروف المثبطة للهمة. قمنا بتثبيت صلة بارزة في استمرارية التاريخ عندما انطلقنا إلى بغداد، إلا أنه كان الشيء الأكثر صعوبة في العالم وهو الربط بين ما هو مألوف مع ما هو عظيم. وتطير القصص الخيالية قبل الإيحاء بها.

دمرت المعركة الفاصلة شِعر المغامرة! وساوت كل شيء بالأرض، ولم تترك أي نتوء في أي مكان ولا مشهداً أو جمالاً للضوء أول الظل، بل مجرد تموجات قاحلة ومشوشة تشبه ميدان معركة محفّر من جراء قذائف المدفعية.

لا شيء يمكن أن يكون طارئاً وسهلاً أكثر من دخولنا إلى بغداد بشكل غير رسمي. انطلق أربعة من عندنا، هم الكولونيل ومساعد كتيبة الكنغ أوين وضابط المدفعية وأنا، إذ إنني غادرت القارب المسلَّح، ورأيت أن الجيش سيكون في المقدمة إلى أمام الرتل بين بساتين النخيل ونتحدث عن بعض المعارك التي جرت قبل أسبوع.

كانت مسيرة يوم اعتيادية في رتل من أربعة صفوف، على استعداد للانتشار مقابل موقع جديد مع نشر الحرس إلى أن تقرَّبنا من المدينة، حصرتنا جدران البساتين العالية في الطرقات. لم نكن متأكدين ما إذا كنا سنصطدم مع الأتراك أم لا. وقد تسلل العدو من موقع تل محمد قبل ليلة، وبعد الطريق قاتل عن خندق غير معروف بين شيخ سعد ومنطقة شمران، وكان من الصعب الاعتقاد أنه سيغادر مدينة الخلفاء خلفه بدون كمين آخر. وفي واقع الأمر، دخلت سريتان مؤلفتان من قوات الهيرتس يومانري وكتيبتا الفرسان الثانية والثلاثون والعاشرة، بينما وصلت الفرقة السابعة واللواء الخامس والثلاثون إلى الضفة اليمنى بعد الفجر مباشرة وكانت تنتظر القوارب للعبور إلى الضفة الثانية.

كنا نتحدث عن أشياء بعيدة أعتقد أنها كانت عن الجبهة الغربية عندما أشار العقيد في قيادة طليعة الحركة إلى بعض الأفراد من بين سديم الغبار.

وقال: يا للعجب، أعتقد أنهم الأفراد الذين سيجلبون لنا مفاتيح القلعة.

رأينا ثلاثة رجال يرتدون السواد يقتربون على طول الطريق بين البساتين المسيَّجة بالجدران، ومن المحتمل أنه كان الرجال الثلاثة من بغداد واثقين جداً بأن الأتراك قد هزموا. إذ إنَّها تتطلب بعض الشجاعة في ظل الحكم العثماني الترحيب بالعدو في أحد الأبواب بعد ساعات من خروج الهيمنة إلى الطرف الآخر. وغنيّ عن القول إنَّ ذلك الترحيب كان غير رسمي. وعندما اقتربوا، لوَّحوا بطرابيشهم الحمراء وصاحوا إلينا: صباح الخير، كيف حالكم؟ كانت هذه التحية جريئة وواثقة ومألوفة وغير متوقعة بشكل عجيب. وعندما انطلقنا، التحقت بهم مجموعات أخرى وكانوا جميعاً يرددون التحية نفسها، فتيات ونساء كبيرات ذوات بشرة جميلة وغير محجبات، وكان تقدمهن محرجاً تقريباً بالنسبة إلى الرجال الذين لم يروا شكل امرأة لسنوات عدة من وراء رزم سوداء وهن يملأن جرارهن على نهر دجلة.

أقمنا معسكراً مؤقتاً في العراء في مهب الغبار. وكنا متسخين لم نغسل ولم نحلق وجائعين وقامت فرسي التي كسرت قبل أيام رسنها وجردت نفسها من أفضل شيء من لجامها، أفلتت رأسها من الحبل. وعلى العموم لم نشكل موكباً مهيباً جداً لدخول تاريخي للدولة. وصلنا على طول طريق مجهول إلى رصيف متداع وتنتصب هنا آثار البوابة الجنوبية. استدرنا إلى اليسار ووجدنا أنفسنا بجانب النهر أول بيت كبير على ضفة نهر دجلة يشكل بداية شديدة الانحدار للمدينة. تجمَّع حشد كبير من الجماهير للترحيب بالبريطانيين وصفَّقوا وهتفوا مبتهجين، وكان الجندي، الذي يميل إلى اعتبار أنَّ أي شخص يرتدي الطربوش الأحمر هو تركي، يبدي قلقه احتراماً لهم، لكنها لم تكن مظاهرة متقلبة. مضيتُ قدماً إلى القنصلية الأمريكية. كان القنصل خارج المبنى، ولكن أحد المترجمين الأرمن دعاني إلى لباس أبيض مترف وكوب شاي ساخن- كان منعشاً جداً بعد مياه دجلة ولحم البقر المجفف بالرياح المليئة بالغبار خلال الأيام القليلة الماضية. وقال إنَّه أخبر لإعدادها للإنكليز، وأخبرني خلال دقيقتين ما يكفي لشرح موقف المواطن البغدادي من الجيش الغازي.

كانت يد الحكومة التركية ثقيلة على أهل المدينة. وكان الصراع في العراق من أجل بقاء سباق الحكم المعادي، وكان على السكان المسيحيين واليهود والعرب أن يدفعوا الثمن. إن كل من هذه المجتمعات قد فاق الأتراك في العدد بكثير. كانت البهجة على ضفة النهر حقيقية بما فيه الكفاية. وكان وصولنا بمثابة الخلاص وتحوَّل ظلم عامين أعمالاً لصوصية خلال الأيام العشرة الأخيرة. ومنذ ما يقارب ثلاثة أسابيع لدى عبورنا نهر دجلة في منطقة شمران، تقرر مصير المدينة، إذ كانت الحكومة العثمانية تستولي على البضائع الخاصة وتقوم بإرسالها إلى سامراء عن طريق السكك الحديدية. وكانت الأسواق قد أفرغت تقريباً عندما غادر آخر قطار بغداد في وقت مبكر من اليوم الحادي عشر. ومن ثم دخل الأكراد والعرب. كانت هناك مخازن لا تزال مخبَّأة، ويقول التجار اليهود إنهم فقدوا بضائع بقيمة مليوني فرنك بين الساعة الثانية فجراً ودخولنا في الساعة التاسعة صباحاً. وكانت كلفة تأخير الساعة الواحدة تقدر بألف ليرة.

وعندما دخلنا، كان العرب والأكراد وحثالة القوم في المدينة يحملون الأبواب

والمقاعد والأسِرَّة الثقيلة والرفوف الخشبية والحديدية والكراسي وأسيجة الحدائق العامة. وقد تمت إزالة كل شيء قابل للنقل. وقامت القوات البريطانية والهندية حالاً بأعمال الدوريات في السوق، وهم يطلقون نيران الابتهاج فوق رؤوس الحشد ويضربون بظهر السيف السُّذَّج الذين لا يذعنون. وفي بعض الأحيان حيث لا توجد فيها مقاومة، تم إخراج البضاعة من المحلات، وكانت الأعمال الخشبية تحترق. وكان رجل يرقد تحت البوابة الشمالية وقد غُطِّي بالتراب ويئس من الحركة، وكانت قاصة حديدية ضخمة قهرت العنف والبراعة ملقاة في الطريق. أعتقد أنه بقي هناك القليل من الغنائم إلى الفجر، وأنَّ أعمال اللصوصية المتأخرة قد أصابته بخيبة أمل في عمليات نهب بغداد.

تجمعت مجموعة من ضباطنا حالاً في القنصلية الأمريكية. ثم وصل القنصل وكان هو يبحث عنا، وكان التجار يطالبون بوضع حرس. وكانوا مخبئين طوال الليل بانتظار قدوم البريطانيين لتفريق الغوغاء وحراسة السوق. وبدأنا مباشرة بحراسة شارع خالد باشا إلى الموقع الذي وصفته. وقد امتلأت الأسطح وشرفات المباني بالنساء وهن يرتدين فساتين زاهية ويرقص الأطفال أمامنا ويطلقون الزغاريد العربية ويصفقون. لم يكن هناك عرض مثل المهرجان عندما سار السجناء البريطانيون والهنود في الكوت.

حصل شارع خليل باشا، الذي انطلقنا من خلاله، وهو الشارع الواسع الوحيد في المدينة، على اسم هندنبيرغ لمناسبة ذكرى سقوط الكوت. لم يكن شارعاً جميلاً ولا فخماً، وإنه مثل معظم الإصلاحات التركية، كان توسيعه متقطعاً ويخضع إلى الأهواء. وكانت عمليات الهدم والبناء لا تواكب سرعة التقدم ولا تزال الجدران والأعمدة من الطابوق المهدم في الشارع. لم يستلم أصحاب العقارات كما أخبرونا أيه تعويضات. كانت الخسارة في الممتلكات التي يتعيَّن دفعها لإشباع الشعور الوطني. ولكن بضربة مفارقة فإنَّ الطريق الذي بُنِي لتخليد هزيمتنا في الكوت قد أُنجِزَ فقط في الوقت المناسب ليمنحنا العبور إلى بغداد. وقبل تسعة عشر عاماً، وعندما حررت بغداد لم يكن هناك طريق للعربات على الضفة اليسرى من المدينة. وكان هناك مجرد غرفة تجرُّها الجمال في بعض الشوارع، وكان الحمار الأبيض

الصغير في المدينة هو الوسيلة المناسبة التي لم يزدرِها الأغنياء. وأتذكر أني كنت قد ركبت مركبة بطيئة تشبه سفينة نوح تجرها أربعة بغال عبر الصحراء إلى الحلة في بابل وإلى آثار النمرود، إلا أنه كان على العربة أن تتوقف على الجانب الثاني من الجسر المصنوع من الدوب. وكانت الأحياء السكنية على جانبي شارع خليل باشا الذي يخترق المدينة بموازاة النهر، التي تضم المسلمين واليهود والمسيحيين لم تتغير. قد تكون الروح عديمة الإحساس وغير خيالية ولا تجد الرومانسية أو الإيحاء هنا. وكانت الشوارع ضيقة وتتسع لمجرد حصان واحد فقط. وكانت الشبابيك ذات الأقواس الواسعة غالباً ما تغطي واجهات الجدران بالكامل وتلتقي من الأعلى. وكانت هناك نساء يسترقن النظر من كل واحد من هذه الشبابيك، محجبات أو غير محجبات، على وفق كل حي من أحياء المدينة من المسلمين والمسيحيين واليهود. وقد تآكلت الأعمال الخشبية. وكان على الأبواب مقارع من النحاس القديم وغريبة الأطوار مثبتة بالمسامير. ومن الأزقة حيث يمكن للمرء أن يقيس الجدران بذراعه، ستفتح بوّابة على ساحة واحدة مزروعة بأشجار البرتقال والرمان في الوسط. وكما هو الحال في جميع المدن الشرقية القديمة تقابل النظرات المتشنِّجة مع سعة الدور على كلا الجانبين. وتعطي السقوف التي تعرض المغامر والحبيب ولص الطريق العام لأميال عدة، والشبابيك التي من خلالها قد يتهامس روميو وجوليت يعطي انطباعاً للمرء عن مدينة مصممة معمارياً لمغازلة النساء.

وفي المقاهي، يجلس العرب القرفصاء على مقاعد طويلة مولعون بالقيل والقال بشكل خطير، أو يستغرقون في التأمل أو في لعب الدومنو أو النرد. كانت هناك قهوة قليلة جداً يمكن تناولها، والقليل من التبغ لزيارتها. كان حشداً متجَّهماً وغير قابل للتأثر. وعندما كنا في المدينة لمدة ساعة توقفوا عن إبداء أي اهتمام في جيش الاحتلال.

كانت الأسواق التي أتذكر أنها بمثابة الحياة للمكان ذات مشهد كئيب. وكانت جميع المَحَالّ التجارية فارغة ومقفلة والبعض منها مُحْبَطة. وقد تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تتمكَّن من تجهيزها مُجدَّداً. وكانت المصلحة البشرية في حينها هي اتصال الأجناس الغريبة، وفهم أفكار شكلها أحد الأطراف عن الطرف الآخر أو رفضها،

والسرعة التي تصبح فيها الأشياء البعيدة مألوفة. وتعلَّم الهندي الأسمر والسائق البريطاني حالًا الصرخة العربية المألوفة «بالك، بالك» - أي ابتعد عن الطريق.

ويشهد المرء في هذه الطرق ذات الأقواس والقباب المزدحمة بوسائل النقل التابعة لنا وقواتنا وأسلحتنا، صدامات غريبة. وتخترق عربات المدافع زنة 60 باونداً سقف القبو وتكشف عن رأس يهودي خائف. ويقحم أحد بغال البطارية أنفه في صحن للحلويات بلا مبالاة كانت تحمله إحدى الفتيات العربيات. وهناك رجل سيخي من دفدار في قسم الإشارة يتحدث الفرنسية بطلاقة مع الإيماءات الملائمة للكاهن ليون الكرملي الفرنسي والذي تم تحريره من الحجز مؤخراً في الموصل. وهناك شحَّاذ فارسي سمين يصيح على إحدى الفتيات ويستخدم كلمة للجوع التي يفهمها الجنود الهنود ويبتسم ابتسامة عريضة وهو يؤشر إلى كرشه، الذي سيخونه إذا هو لا يكذب. ويتسلَّم أحد الفلكيين الكلدانيين قطعة نيكل من أحد العبيد الأثيوبيين، ويتساءل المرء ما إذا كانت ثمناً للنبوءة التي كنا حققناها.

كان أحد الجنود الفرنسيين يُعرِّف نفسه بصعوبة لضابط إنكليزي شاب. كان الرجل جزائرياً، وكان سجيناً لدى الأتراك. وكان قد تسمَّم بالغاز في فيردون في أوائل عام 1915، وأخذ إلى برلين ومن ثم أرسل إلى الشرق لعله يرى الخليفة في اسطنبول، كما ذكر، ويوجه ضربة إلى الإسلام. لم يحقِّق الخليفة ذلك، ولم تَحْدُث الضربة ولكنه الآن وفي النهاية زحف إلى الخارج من بعض فتحات السجن إلى الشمس، وكان يوضح بإشارات بيديها بحيوية أنه أحد السباهيين، أي أخ في السلاح ولم يكن جندياً تركياً أو ألمانياً بغيضاً، وحانت ساعة نجاته وأن حاجته الآنية هي السيكارة. ورثاه. لا، لا، سكائر!، أبداً- أبداً سكائر...

فأولئك الوحوش القذرة لن تترك أحداً.

وعندما سارت قوات كتيبة / كنكز أون/ في شوارع المدينة نُسِيَ تعب المطاردة الطويلة. وكان غبار مدينة بغداد مسكناً للأقدام المكدومة. ولكنه لم يكن الغبار الذهبي لقصة خيالية كانوا يتاجرون به، ولم يكن في الهندسة المعمارية أو شخصيات بارزة في قصة ألف ليلة وليلة التي يضعها السَّحَر، ولم تكن مدينة هارون الرشيد، كما

سمعت أحد الجنود يدعوها، أو حتى مدينة نبوخذ نَصّر التي ترغب قواتنا أن تراها، ولكنها معقل «الديك التركي» القديمة، عاصمة العدو، كان هدفهم المرئي، هي الجائزة الجوهرية كأعند معركة خاضوها على الإطلاق. حيث إنهم تعبوا وحاربوا طوال أشهر في هجوم متواصل وبدون نهاية مع القليل من الراحة الطبيعية والعقلية في الطريق. لا ملاحظات بين عمل الخندق وغالباً ليس هناك شجرة أو بيت يكسر الأفق الرتيب. وكانوا هنا في بغداد، هدف رغبتهم مع شعور معين بتحقيقه، ومع ذلك، ومن المتوقَّع وبشكل غير منطقي أن يحصلوا على القليل من الراحة. ولكن لم تكن هناك راحة، ولا يستطيع جميع الجند أن يرفعوا كأساً واحدة من البيرة. لم يهزم الأتراك حتى الآن وكانوا يجرون التعزيزات. كان هناك نحو مئة ميل من الطريق إلى الإمام وشهرين ونصف من المسير الصعب والقتال قبل تأمين طريق السكك الحديد إلى سامراء وتدمير قوات العدو التي هدَّدت بغداد.

كانت كتيبة الكنكز أون وثلاث كتائب من اللواء الخامس والثلاثين (الاستطلاع والدوغراس ورماة القنابل اليدوية)، الذين نقلوا عبر النهر لحماية المدينة، هي كتائب المشاة الوحيدة التي يمكن رؤيتها داخل بغداد في الحادي عشر من آذار على الضفة اليسرى. وضرب اللواء الأربعون، الذي قام بحركة التفاف طويلة حول جناح موقع تل محمد، الطريق خلف ثكنات الفرسان وعسكر في بساتين النخيل خارج المدينة. وتوقفت الفرقة الرابعة عشرة في قاعدة القوة الجوية الملكية البريطانية في هنيدي قرب بغداد، والكتائب الباقية على الضفة اليسرى، فيما تلقَّى اللواءان التاسع والثامن والثلاثون وقسم من كتيبة كنكز أون أوامر للالتفاف حول المدينة وليس من خلالها. وأخبرني أحد عقداء هذه الأفواج أنَّ الأمر لحماية المناطق خارج بغداد قد استحوذ على قلوب جميع رجاله. إذ إنه بعد عام أو أكثر من بقائها في الخنادق لم تكن القوات في حالة مناسبة للمسيرات الطويلة. وكانت سرايا بأكملها تعرج، وإن الحافز المادي الذي أبقاهم على أقدامهم ينبع من مصدر معنوي. وأصبح الطريق الطويل والممل والملتوي بجانب الضفة، والمنازل المتباعدة ومنارات بغداد، مثل منازل ومنارات أيَّة مدينة اعتيادية شرقية، وذاب سحاب المجد الذي ينبغي أن يستثمروه في ضوء اليوم الاعتيادي. ولم ير العديد من الرجال الذين اجتازوا بغداد من دون الدخول

إلى المدينة على الإطلاق، ولهذا السبب كنا نحن الذين بقوا واستراحوا هناك لفترة من الزمن وتمتَّعوا بثمار الإنجاز الذي حقَّقوه أكثر حزناً عندما قرأنا قائمة الشرف. وسيجد الجندي من المدرسة القديمة وجهة النظر هذه باطلة وغير منطقية وانفعالية بشكل مفرط وأنَّ الإحساس هو طبيعي وحقيقي.

كانت الفرقة السابعة هي الأولى على الضفة اليمنى، بينما كانت دوريات بلاك ووتش تفتش بدقة محطة السكك الحديد في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة فجراً. وكان القطار الأخير قد خرج في الساعة الثانية ليلاً، وقد وجد أحد الأشخاص بوليصة الشحن. كان هناك اندفاع للجمهور إلى مكتب الحجز المهجور، وبحث بلا فائدة عن تذاكر إلى القسطنطينية وبرلين. وسوف يشعر ضباط البلاك ووتش دائماً بالندم؛ لأنَّهم أهملوا في نهب جرس المحطة الثامنة، وهي قطعة تاريخية من المواد المنهوبة وهي الآن ميدالية تذكارية في مطعم الضباط.[1]

أعتقد أنَّ من بين جميع الأشياء التي رأيناها في المدينة وبالقرب منها، كانت كلمة «بغداد» المكتوبة بأحرف كبيرة على جدران المحطة الأخيرة قد أسرت قلوبنا كثيراً. كانت تشبه العبارة التي انزلقت في بيان المتبجح بإفشاء سر هزيمة العدو. ابتسمنا جميعاً عندما رأيناها، على الرغم من أننا لم يكن بإمكاننا توضيح السبب بالضبط. إنَّها كانت بشكل جزئي إدارة الجنود الألمان غير المقصودة بعدم جدوى مخططاته المعمَّقة ولكنها كانت أكثر من ذلك. كان هناك شيء متقن وساخر في ذلك وهو ما لا يمكن تفسيره. إنَّها صاحت علينا بأننا قد وصلنا وربطت الماضي بالحاضر والعاطفة بالأشياء المألوفة من الحياة بطريقة ظريفة وغير متوقعة، وتنزع الأجزاء، وتجعل الأشياء المستحيلة بالأمس فوق الطين والرمل على طول خمسمئة ميل من البحر. إنَّه نوع من خداع السراب وفكرة في التوكيد السهل.

في قافية الحضانة القديمة المجردة الآن من تردد التعابير الساخرة.

- كم ميلاً إلى بابل؟

---

(1) عمل البلاك ووتش حسناً مع جرس المحطة في سامراء.

- ثلاث وعشرون نقطة.

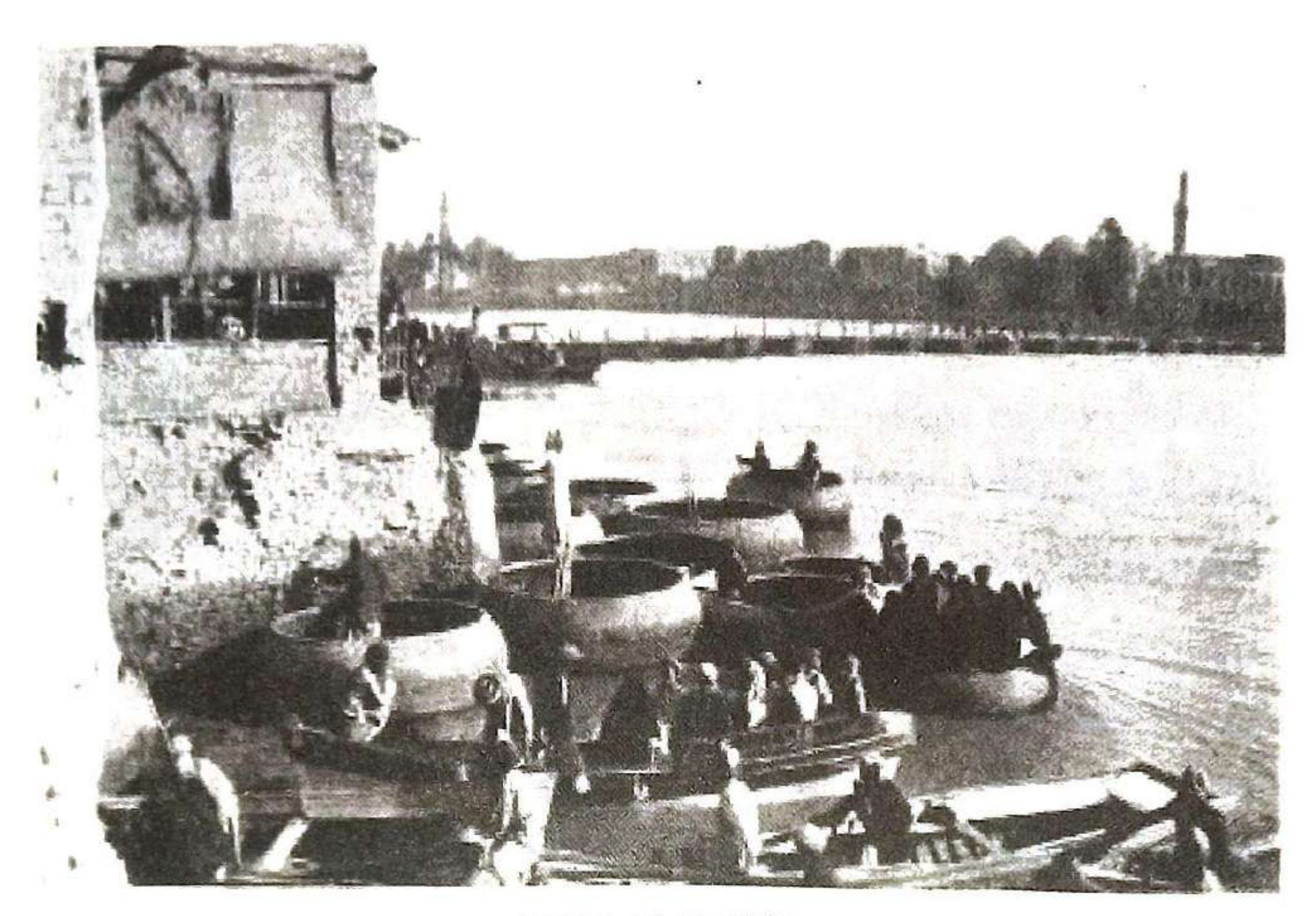
- هل بإمكانك الوصول إلى هناك على ضوء الشموع؟

- نعم، والعودة مرة أخرى.

لو أن الجندي الألماني قد وهب خَيَالاً حسَّاساً فإنَّه سيدمر لوحة اسم بغداد في محطة السكك الحديد. فقد دمروا تقريباً كل شيء آخر للتنفيس عن شعورهم الوحشي على سياج من الأسلاك الذي وجدناه مصاباً بإطلاق نار في أحد المنازل القريبة ومجمل مزاجه على جدران بناية الطاقة الكهربائية.

كانت المطاردة في أعقاب الانسحاب، لكن... كان لديهم الوقت لتلطيخ الجدران بنصوص ساخرة بالطلاء الأحمر. وكان من بين هذه النصوص هو «الطريق طويل إلى بغداد». ونص آخر يقول: «مئة جندي بريطاني = عسكري واحد». وكان هناك كاريكاتير عن رجل إنكليزي ذي أسنان كبيرة ومعه الغليون، وإحدى الصور ملصقة تصف لندن بمنطاد كبير مثل القدِّيس بول وهو يلقي القنابل ومثل القديس مارتن -لي- غراند.

لقد دُمِّرَت مدينة بابل الحديثة بالكامل من الجنود الألمان في الضفة اليمنى، كما هو حال المدن المنكوبة التي يقرأ عنها المرء في الأوامر المقدسة. وتم الانتهاء من بناء محطة لاسلكية للتو وبكلفة هائلة، وكانت واحدة من أكبر المنشآت القوية في النظام الألماني، وكانت أيضاً على اتصال مباشر مع برلين وكانت تتلقّى الرسائل لمدة ستة أشهر، ولكن لم تكن محطة الإرسال تعمل إلى أن عبرنا نهر دجلة في منطقة شمران. وكانت في حياتها القصيرة ليومين أو ثلاثة أيام على الأغلب، رسول كارثة. إذ فُجِّرَت في الصباح الباكر من اليوم الحادي عشر. فقد وجد السقف قد حمل بعيداً ووُجِدَت حفرة عميقة في وسط الأرضية. وسقطت السارية العملاقة بعيداً وقد تحطَّمت الجدران الخارجية.



GUFAHS AT BAGHDAD

القفاف في بغداد

وانفجر أحد المراجل الكبيرة وكان الآخر مملوءاً إلى النصف بالتيتانيت ولكن الشحنة لم تلتهمها النيران. وحجزت الأموال في محطة السكك الحديد اللاسلكية والتحويلات وورش العمل وأبراج المياه والرافعات والآلات الهندسية التي يجب أن تدار إلى الملايين. وفي السكك الحديد، كما هو الحال في المحطة اللاسلكية، كانت هناك حالة من الحطام قبل الإنجاز. كان البلاط في مبنى الطاقة الكهربائية قد أنجز إلى النصف، وكانت الأرقام في الطلاء الجديد على خط السكة الحديد الجديدة والروابط قد مضى عليها شهر واحد من العمل.

كانت مغادرة هذا المشهد من الفوضى العلمية وعبور النهر مرة أخرى في قفاف منسوجة مصدراً مألوفاً للارتياح إلى هيرودوتس وتراجان ونبوخذ نصر. لم تكن الضفة اليمنى هي بغداد الحقيقية. وكانت الأحياء في هذا الجانب من النهر مجرد إحدى الضواحي وتقع السكة الحديد وورش العمل وبيت السلطة في الصحراء إلى الخلف منها ولا تزال أقل أهمية بالنسبة إلى مدينة الخلفاء. وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم الحادي عشر، كانت ثلاث كتائب من اللواء الخامس والثلاثين تعبر نهر دجلة بالقفاف من الضفة اليمنى إلى الضفة اليسرى. وكان مجسَّر العوامات معطلاً ومدمراً. وبعد الساعة العاشرة صباحاً بقليل رفعت كتيبة الهانش الخامسة العلم البريطاني على القلعة وعَسْكرت هي وكتيبة الدوغراس السابعة والثلاثين ورماة القنابل اليدوية الثانية بعد المئة لحماية المدينة على الضفة اليسرى، بينما عَسْكرت كتيبة الكوركا الرابعة على الضفة اليمنى. واحتل لواء الخيالة مدينة الكاظمية. وخيَّم باقي القوة خارج مدينة بغداد، ولكن سرعان ما ضغطوا بشدة على القوات الخلفية من القوات التركية المتراجعة.وضغط رتلا الجنرال كوب على الضفة اليمنى والجنرال مارشال على الضفة اليسرى على الملاحقة، بينما كان الرتل الثالث قد أُرسل إلى نهر الفرات، ورتل رابع للانضمام مع القوات الروسية باتجاه خانقين على أمل قطع الفيلق التركي الثالث عشر الذي كان يتراجع في مدينة همذان.

ترك القليل منا في الخلف لاستكشاف المدينة. وكانت نصف المعدات قد ذهبت في أحد الزوارق الحربية، وكان النصف الآخر لدى اللواء الأربعين، ولكن لحد هذه اللحظة كان من الواضح أنَّ بغداد هي المكان للإقامة فيها. ولكوني الوحيد الذي

لدي ملابس فإنِّي وقفت في حفل افتتاح فندق دجلة، وهو إحدى دور الضيافة في المدينة على الطراز الأوروبي، وكان جزءاً من الحظ الحسن. تناولت العشاء وحدي هناك في ليلة الحادي عشر وطلب مني صاحب الفندق وهو مسيحي عربي اسم القائد العام للقوات البريطانية.

أصبح فندق دجلة في صباح اليوم التالي (فندق مود) وأصبح مركز جذب للضباط من المخيمات المجاورة. وإنك ستعتقد الخيول في الشارع في الخارج أنّها فوج من الفرسان قد أقام هناك، ولكن الوحدات العسكرية كانت تتغير دائماً ويلتقي المرء برجال عند كل طاولة لم يكن قد رآهم منذ أشهر.لم تكن هناك محلّات تجارية وقد نَفِدت المشروبات فوراً وكانت الوجبات من النوع البسيط جداً. لكننا كنا قد انقطعنا عن المدينة لفترة طويلة بحيث كان هناك شيء مألوفٌ جداً في المشي إلى أحد الفنادق وطلب الغداء وتناول القهوة وتدخين سيكارة بسلام على شرفة على النهر ولم تكن القوة (دي) تعتني بمستوى راحتها. وبالنسبة إلى شاي العصر يجعل الخبز وهو على شكل كعكة مشوية من طحين القمح وعليه قشطة الجاموس تغييراً لطيفاً، وإنه لشيء جيد أن أكون بين النخبة الإنكليزية مرةً أخرى وقد أخبرت عن ممرضة تابعة للصليب الأحمر التي هبطت في بغداد بعد عامين من الجو الحار في بلاد ما بين النهرين وانفجرت بالبكاء عندما شاهدت الورود والنباتات والمنثورات والحشائش في هذه الحديقة بجانب نهر دجلة.

لم يكن هنا ممرٌّ على طول جبهة نهر دجلة. وقد بُنِيَت المنازل الرئيسة والقنصليات على الأرصفة الإسمنتية الصلبة جداً. وتكون أسسها في الماء وغالباً ما تكون على شكل حصون. وفي العديد منها حدائق صغيرة ومدرَّجات تنزل إلى النهر وكان هناك بين هذه الفواصل ممرات وفي بعض الحالات من خلال مجازات تحت المنازل حيث تسحب نساء المدينة الماء في أوعية نحاسية ذات عنق محزز، ويعمل أصحاب الزوارق بكد للتأجير ويملأ السَّقَّائون قرابهم التي يحملونها على حميرهم بيضاء اللون.

وفي الطرف الشمالي من المدينة تغطي القصور مسافة ربع ميل من جبهة النهر.

وتضمَّنت ثكنات المشاة والمحكمة القضائية وغرفة المجلس وجميع الدوائر الإدارية للولاية. وكان هناك مكان واسع لجميع القوات التي يجتاحونها لحماية المدينة. كانت الأبنية رباعية الأضلاع واسعة جداً وبُنيت بشكل قوي. وفي السراديب أو الغرف تحت الأرض تتم التهوية عن طريق هوائيات في السقف وتكون درجات الحرارة 8 إلى 10 درجات أبرد من الطابق الأرضي. وَوَجْدتُ إحدى سرايا كتيبة دوغراس السابعة والثلاثين هنا. وتصافح معي الجمدار (وهي أدنى رتبة عسكرية في الجيش الهندي البريطاني) وقال وهو يبتسم: «صاحبي لقد وصلنا...إنَّه مكان جيد».

كانت هناك مصالح بشرية كثيرة في بغداد ولكن أولئك الذين يبحثون عن المعالم في هذه المدينة القديمة والقذرة والمخرَّبة كانوا بصراحة خائبين. وما كانوا يتوقَّعون رؤيته لم يجدوه وكان من الصعب تصوُّره. وكنا هنا نقدِّم المساعدة في تدوير العجلة في ثورة الحظ الأكثر سرعة التي شهدتها المدينة منذ أن أهملتها بابل، كانت الكتابة جديدة على الجدار لقراءتها من قبلنا وإن الطبيعة الغامضة للمخطوطة فيما يتعلق بتأثيرها على مستقبل الذين يرتبط مصيرهم مع مصيرنا منحها السحر الأكبر. وكان هناك شاهد في كل مكان عمَّا أنجزه الأتراك بالأمس وما نقوم به اليوم. وكان الشعب في المدينة ينتظرون ويبحثون عن إشارة. وبإمكان المرء أن يتجوَّل في الأحياء المسيحية حيث يتم الوصول إلى الكنائس الأرمنية والسريانية والكلدانية واللاتينية من أبوابها بالطريقة السرية نفسها كالبيوت وعلى المرء أن يطرق بقوة ولمرات عدة في الحادي عشر والثاني عشر من آذار قبل أن يتم رفع المزلاج بشكل مؤقت.

أصبحت عادة الشك مغروسة في النفس. وتم استخدام بعض الكنائس كمستشفيات من قبل الأتراك. وقد أُحرِقَت الكنيسة اللاتينية. وأخبرني القس أن هذا ناجم عن الثأر، على الرغم من أنَّه ليس لدى المسلمين البغداديين سمعة كونهم متعصبين. ووجدنا في الكنيسة الأرمنية حشداً منهكاً من اللاجئين من الموصل ومن بينهم الهاربون من جيش دجلة الذين خلَّصوا أنفسهم من ليلة الاندحار والذين كانت تعاستهم بليغة لدى انسحابهم من منطقة شمران. وفي الحي اليهودي أيضاً يسمع المرء قصصاً قد تساعده في فهم الهتافات في الشوارع.

قد يمضي المرء أياماً عدة ليكتشف السرايا والقلاع. وهناك الكثير ينبغي تعلُّمُه من الفضلات التي تُركت في عاصمة هجرتها الحكومة التي لم يكن لديها المزيد من الوقت للهرب، وكنا نحن ننهب هذه المكاتب بعد اثنتي عشرة ساعة من مغادرة الأتراك لها. ويعرف أي فرد يريد تغيير منزله مدى صعوبات النقل السريع. وكانت هذه معقدة في بغداد أو بسبب السكك الحديد بخط واحد ونقص كبير في السفن وجسر الطوافات المزدحم.

كانت هناك تقريباً في كل غرفة أشياء تركها الأتراك وراءهم. ووجدنا في إحدى الدوائر خرائط المسح ودوائر أخرى تحتوي على العوائد التجارية للونخوس سيئي السمعة، وثالثة على السندات والأوراق التجارية ووصولات العضوية في لجنة الدفاع الوطنية. وساحة تحتوي على حديقة من أشجار البرتقال وفيها وثائق الدائرة الزراعية. وكانت الخرائط والمخططات رُسِمَت من السيد ويليم ويلكوكس التي جعلت العراق مثمراً مثل مصر معلقة على الجدران وتملأ الأرض. وفي القلعة تزايدت كومة الأسلحة ارتفاعاً حيث كان التحرِّي يَجْرِي من بيت إلى بيت. وبالإضافة إلى البنادق والسيوف والمسدسات، وجدنا كميات كبيرة من المعِدَّات العسكرية اللافتة للنظر عديمة القيمة من وجهة النظر العسكرية ومن المدافع النحاسية الأثرية من زمن السلطان مراد إلى المدافع التي تركناها في الكوت العام الماضي. وكانت الكتابات باللغتين العربية والفارسية منقوشة على فوهات البنادق والمدفعية بين صور المحاربين والأشخاص تعيد المرء إلى الوراء إلى مشاهد التخريب في الماضي.-كان النصر من الله وفي متناول اليد- تظهر إحدى القطع القديمة القوية منذ عام 1546. صاحب النصر، الشاه الصفوي، لتدمير جميع آثار الأتراك، يقضي باختيار هذا المدفع. وهو يقذف النار مثل التنِّين ويرمي اللهب بينهم.



OLD ORDNANCE IN THE CITADEL BAGHDAD

المدفعية القديمة في الحصنِ في بغداد

والرفيق المرّوع من الجانب الآخر من البوابة قديماً، مدفع القائد علي أكبر، للمدفعي مهدي خان للسائق باقر، ونزيله التنين العالمي المفترس الذي يزأر برعد مخيف مثل الأسد، ويطلب من جميع أصدقاء علي «هل شاهدت عذاب جهنم السابعة»؟

ويتساءل المرء، كم مرة في التاريخ كانت المخازن في بغداد مملوءة بالبضائع التي لا يتجرَّأ الناس على عرضها في محلّاتهم. ولمدة بضعة أيام بعد دخولنا المدينة، لم يكن أي شيء أكثر كآبة من الأسواق الفارغة والمقفلة. ويسمع المرء أنه لا تزال هناك بضائع مخزونة مخفية، ولكن ماذا عن عمليات النهب الرسمية وغير الرسمية وإعاقة الحركة في نهر دجلة من الجنوب لمدة عامين ونصف، كان من الصعب تصديق أنه كان هناك أي شيء باقٍ. ومع ذلك، وقبل أن يمضي أسبوع بدأت الأسواق بالامتلاء وكانت التجارة سريعة وخرجت صفقة المواد من أماكن مخفية. وبدأ ضجيج السوق النحاسية كما كان قديماً حيث يطرق الحدَّادون المعدن الأبيض الحار في الكورة. وكانت هذه المجاميع أكثر المشاهد إعجاباً في المدينة. ويقف المرء ويراقب العضلات المفتولة لظهور الرجال وهم يقفون بجانب الكير ويضربون بمطارقهم العديدة بسرعة بحيث إنك تعتقد أنهم كانوا يضربون ضربة منسَّقة واحدة، إذا لم تكن لصوت الرنين السريع. ويتبع الضجيج المرء أسفل الخطوات إلى أحياء صائغي الفضة في السوق المجاورة، حيث تجلس النساء طوال اليوم يتعاملن مع اليهود من أجل قرش إضافي أو ما شابه مقابل سوار أو حلقة، وإلى سوق الحبوب، الذي هو من أهدأ زوايا السوق حيث السايلوات الضخمة نصف فارغة مثل إسطبلات الفيلة، وبشباكهم التي تشبه القفص، كانت مفتوحة إلى الشوارع.

كان اللون الوحيد في بغداد وضواحيها هو اللون الأزرق المُخْضَرّ والذهب القديم للجوامع والمنارات. تبعث هذه الفسيفساء الزاهية على الراحة في الأرض ذات الألوان الداكنة من جراء التراب عند قدمي المرء وعلى الجدران وسقوف المنازل والدخان الساخن الذي يغطي كل شيء. وكما هو الحال في ضواحي جميع المدن الإسلامية القديمة فإن الموت هو الشيء الوحيد الواضح. وفي داخل السد الذي يطوق المدينة تلتقي المقابر المزدحمة وجميع القبور المنخفضة موضوعة شرقاً

وغرباً وتتوجه رؤوس المؤمنين باتجاه مكة على استعداد للقفز عند النفخة الأولى للصور يوم القيامة. وتنتشر رائحة العفن الجاف في كل مكان، وكانت الطرق وراء السد تؤدي إلى الخارج إلى فارس عبر الصحراء مؤشرة فقط بعلامات من الهياكل العظيمة والعظام الكلسية. وإن كل معلم هو مسجد أو قبر تحت منارة مغزلية ذات شرفات طويلة مثل المخروطي المقلوب، وعلى الضفة اليمنى يقع ضريح زوجة هارون الرشيد. وهناك على طول الأرض من الضريح إلى المسجد قبور سميكة بحيث ليس هناك مجال لدفن طفل عمره شهر واحد. ولكن عندما توقفنا عندها، كانوا يجلبون جثثاً أخرى ملفوفة بالكتان على نعش، ليس لدفنها تحت الكومة نفسها من الأرض التي تغطي عظام الملكة ولكن أقرب ما يكون في بستان النخيل الترابي المقابل، وَتُوَلوِل المعزية المحترفة وتنوح رثاء على التراب البائس القليل الذي يأتي يحوم باتجاهنا، وترقص واحدة على رجل، وهو الشيء الوحيد الحي في هذه الأرض المنبسطة الميتة. وماتت مع المرحومة زبيدة في قبرها أساطيرها وقصصها الرومانسية وجفت وذبلت عصارة كل الإلهام الرومانسي في هذه الأيام القوية.

كانت انطباعاتي عن بغداد، على الرغم من كل ما يقلل من شأنها نوعاً من الجمال الحزين. وإن على أولئك الذين ينكرون سحر المدينة، أن يروا الامتداد الواسع لجبهة النهر من الشمال عند غروب الشمس، عندما تكون المساجد والمنارات المزينة بالبلاط الأزرق متنافسة، كما كانت في السابق، وتمسكُ بأشعة الشمس المائلة. ويمتزج اللون على الضفة اليسرى في الضوء المنعكس من الشرق البرتقالي إلى توهُجٍ باهت من غلاف السيريس، بينما في الغرب، يشكل النخيل ظلّاً مقابل سماء رمادية مما يعطي المرء انطباعاً في التساهل والصلابة في الوقت نفسه. وقد وصفتُ بغداد كما بدت لنا في أول يومين أو ثلاثة أيام من الاحتلال، وسأترك ذلك إلى فصل آخر لأقول ماذا فعلنا في المدينة وكيف أصبحت الروائح في ظل نظامنا مندفعة بعيدة عن المركز وكيف تحسَّنت الطرقات ومجاري الصرف الصحي وإمدادات مياه الشرب. وكان عملنا في ذلك الحين من واجبنا لزيادة قوائم معدل الوفيات. وكان لدى عدد قليل من الضباط من القوات الحامية للمكان، وقت فراغ لاستكشاف المدينة. وكان الجزء الأكبر من القوة يقوم بمطاردة الأتراك

في الشرق والغرب والشمال، حيث إننا لم نقم لحد الآن بمسك النقاط على نهري دجلة والفرات ونهر ديالى التي تؤمِّن سيطرتنا على المدينة. وبعد فترة سلمية فاصلة لبضعة أيام التحقت بالرتل الذي كان يتحرَّك إلى الشمال الشرقي باتجاه خانقين وبلاد فارس وروسيا.

الفصل الثالث والثلاثون

الأتراك في بغداد

إلى الشعب في ولاية بغداد

باسم الملك وباسم الشعوب التي يحكمها أُخاطبكم على النحو الآتي: إنَّ هدف عملياتنا العسكرية هو إلحاق الهزيمة بالعدو، وإخراجه من هذه الأراضي. ومن أجل إنجاز هذه المهمة كنت مسؤولاً عن السيطرة العليا والمطلقة على جميع الأراضي التي تعمل فيها القوات البريطانية، ولكن جيوشنا لم تأتِ إلى مدنكم وأراضيكم بوصفنا غزاة أو أعداء ولكن بصفتنا محررين.

فمنذ أيام هولاكو، خضعت مدنكم وأراضيكم إلى طغيان الغرباء وانهارت قصوركم وتحوَّلت إلى أنقاض، وغرقت الحدائق في الخراب ويئنُّ أسلافكم وأنتم أنفسكم من العبودية. وينقل أبناؤكم بالقوة إلى حروب ليست من إرادتكم، وتنتزع منكم ثرواتكم من رجال ظالمين وتبدد في أماكن بعيدة.

ومنذ أيام مرت، تحدَّث الأتراك عن الإصلاحات، ومع ذلك أليس الخراب وهدر الأموال اليوم يثبتان بطلان تلك الوعود؟

لم تكن تلك هي رغبة الملك وشعبه فحسب، بل كانت رغبة الشعوب العظيمة التي كان يتحالف معها، بأنك يجب أن تحقق النجاح معها كما حصل في الماضي، عندما تكون أراضيك خصبة وأجدادك يعطون الثقافة والعلوم والفن إلى العالم، عندما كانت مدينة بغداد واحدة من عجائب الدنيا.

وبين شعبكم وسلطان الملك، كانت هناك رابطة وثيقة من الاهتمام. وكان تجار في بغداد وبريطانيا العظمى يتاجرون سوية بفوائد وصداقة متبادلة على مدى مئتي

سنة. من ناحية أخرى فإنَّ الألمان والأتراك الذين سلبوا أموالكم، جعلوا بغداد على مدى عشرين عاماً مركز السلطة التي من خلالها تُهَاجَمُ القوة البريطانية وحلفاؤها في بلاد فارس والجزيرة العربية. وبالتالي فإنه لا يمكن أن تبقى الحكومة البريطانية حيادية لما يحدث في بلدكم الآن أو في المستقبل؛ لأنَّه لا يمكن للحكومة البريطانية ضمن مصالح شعبها والدول الحليفة أن تخاطر بما جرى في بغداد مرة أخرى من الأتراك والألمان خلال الحرب.

ولكنكم، يا أهل بغداد، والذين كانت رفاهيتكم التجارية وأمنكم من القمع والغزو يجب أن تكون مسألة الاهتمام الوثيق للحكومة البريطانية أكثر من أي وقت مضى، ليست لإدراك أنها من رغبة الحكومة البريطانية أن تفرض عليكم مؤسسات أجنبية، وأن أمل الحكومة البريطانية أن يتم إدراك تطلُّعات فلاسفتكم وكتّابكم، وأن يزدهر شعب بغداد مرة أخرى ويتمتع بثرواته وممتلكاته في ظل مؤسسات تتوافق مع قوانينه المقدسة ومفاهيمه العريقة.

ففي الحجاز، طرد العرب الأتراك والألمان الذين اضطهدوهم وأعلنوا الشريف حسين ملكاً عليهم، ويحكم سيادته باستقلاليته وحريته وأنه حليف للأمم التي كانت تقاتل ضد السلطة التركية والألمانية؛ لذلك، في الواقع هم من العرب النبلاء وسادة الكويت ونجد وعسير.

وقد هلك العديد من العرب النبلاء من أجل حرية العرب التي هي بيد أولئك الحكام الأجانب، الأتراك الذين اضطهدوهم. فمن عزم حكومة بريطانيا العظمى والقوى الكبرى الحليفة لها، فإن معاناة هؤلاء العرب النبلاء لم تكن عبثاً. إنه أمل ورغبة الشعب البريطاني والشعوب المتحالفة معه أن يرتفع العرب مرة أخرى إلى العظمة والشهرة بين شعوب الأرض، وإنها ستلزم نفسها جميعاً لتحقيق هذه الغاية في الوحدة والوفاق.

يا أهل بغداد، تذكَّروا ذلك على مدى ستة وعشرين جيلاً أنكم عانيتم تحت طغاة غرباء سعوا إلى وضع البيت العربي الواحد ضد الآخر من أجل أن يستفيدوا من خلافاتكم. إنَّ هذه السياسة مثيرة للاشمئزاز بالنسبة إلى بريطانيا العظمى وحلفائها؛

لأنَّه لا يمكن أن يكون هناك سلام ولا رفاهية حيث هناك عداوة وغياب للحكومة. لذلك أمرت أن أدعوكم من خلال نبلائكم وشيوخكم وممثليكم للمشاركة في إدارة شؤونكم المدنية وبالتعاون مع الممثلين السياسيين لبريطانيا العظمى الذين يرافقون الجيش البريطاني؛ لذلك يمكنكم أن تتوحَّدوا مع أقربائكم في الشمال والشرق والجنوب والغرب في تحقيق تطلُّعاتكم.

كانت الفترات الزاهرة من إعلان الحرب مسلِّية للجندي. لم يكن لديه حب للعرب، وأنه يحب الأتراك إلى حدٍّ ما. وفي تقديره بالرغم من أنه يتعارض مع الرأي السائد، كان ذلك حصيلة عامين من الاطلاع، وهي إن لم تكن عاطفية أو رقيقة أو علمية، فإنها لَمَسَتْ في الأقل الآداب الأساسية للحياة، وكانت ذات صلة بسلوك الجنسين عندما جلب وجهاً لوجه مع الأشياء الأولى والأخيرة. في كل ذلك، ساهم الأجداد من البدو في الثقافة والعلوم والفن مما تركه غير مبال ويبتسم بحزن؛ لأنَّ الجانب المعنوي للحملة قدم له أنه من السرور أن يعلم أن ذلك المرء هو المحرر. وأنه عندما يكون المرء يقاتل وظهره على الجدار من أجل حياة الفرد، فإنه مما يثلج الصدر أن يكتشف أن الضربة القوية التي يوجهها المرء إلى الطاغي قد حرَّرت عدداً من الأناس الآخرين فضلاً عن نفسه. ولكن لدى الاستماع إلى القصة بعد القتال فإن الجندي قد يكون غير مستقر قليلاً عندما يتم تحقيق هذا الإنقاذ العرضي للكثيرين كما لو كان الدافع هو الذي أدخله في القوائم. إنَّه غير قادر على شم الروائح وفي هذه الحالة، وبدون شك فإن قيمه ستنقلب رأساً على عقب. وإنه لم يميز بشكل كافٍ يبين شهامة العرب وجور الأتراك. وعندما قرأ الإعلان كان يدرك ظهور شيء قليل مثيرٍ للسخرية، كما لو أنه كان قد شوهد وهو يذهب إلى الخنادق التي هيِّئت وأُعِدَّت للحرب الصليبية.

لا أحد اعتقد ولو للحظة أنَّ البيان الرسمي كان من فكرة أحد الجنود، أقل بكثير من قائد الجيش. وقد وافقت الصحافة بشكل عام على دبلوماسيته وقوة إقناعه وبراعته الأدبية. ولا يمكن لأحد إلا أن يعجب بالوريد الشرقي السعيد الذي كتب فيه وشجب الكتاب المقدس للأتراك والذي من خلاله كان من المؤمَّل إقناع العرب على التغيير نحو الأفضل الذي جاء بما لديهم من ثروات. ولكن غاب عن بال المرء

صراحة «الجنرال مود». كان الإلهام من الحكومة البريطانية، ولكن مهما كان مصدر بيانها والغموض الذي يكتنف مستقبل بلاد ما بين النهرين فإنَّه كان أمراً لا بد منه؛ لأنه مُتَّفق عليه بين الحلفاء حتى إنَّ الطلقة الأخيرة التي تطلق في الحرب يجب أن يكون هناك اتفاق بشأنها.

وبالنسبة إلى عدم قدرة الأتراك على الحكم، يتفق الجميع على هذا ما عدا الأتراك أنفسهم، وكانت نتيجة ذلك هي مجموعة ومن جرّائها تم تخفيضهم إلى شريط من الأراضي في أوروبا حوالي ثلثي مساحة بلجيكا. ليس هناك شك في أنَّهم كانوا يستحقون الطرد. وأنَّ الأمر الوحيد الذي يدعو للأسف هو أنهم لم يعلنوا بصراحة أنهم دولة خارجة على القانون بدلاً من ممتلكاتهم التي خرجت من أيديهم واحدة تلو الأخرى من قبل الدول الصديقة ظاهرياً. وإن المعركة على حد تعبيرهم حتى بالنسبة لهم في الخطوط الدفاعية في تشاتالجا- (وهي اسم مكان في تركيا) تجبرك على الإعجاب بها. إنها كانت صفاتهم العسكرية الرائعة التي توحَّدت مع صداقة حميمة مع نظيرهم، وكانت حقيقية على الرغم من كل النفي الساخر، وقد جعلتهم يكسبون احترام الرجال المحاربين. كنا قد سمعنا الكثير عن وحشيتهم، ومع ذلك واصلوا في كونهم رجالاً نبلاء عندما قابلناهم. كان ينبغي علينا أنْ نرتدَّ منهم من الرعب، ولكن بعد مقاتلتهم في غاليبولي وبلاد ما بين النهرين كان لدى الجندي البريطاني نزعة عابرة بالنسبة لهم، وكان لا يريد الحكم عليهم من الإشاعات. وأدركنا في خطابات الصحيفة الأفكار الرسمية الموحية. وفي بغداد ومع جوره المؤكد، لم تكن عواطفنا بعيدة. كانوا صعبين ووحشيين ومجردين من المبادئ عندما يتعلَّق الأمر بمصالحهم، ويساق قُطَّاع الطرق المخادعون إلى أحضان الجنود الألمان المكروهين من جراء سخرية الظروف، مع كل ما تبقى من العالم ضدهم، ومع ذلك يمتلكون صفات في هذه الأيام الحديدية لا يمكن مقاومتها بالنسبة إلى رجل العمل؛ لذلك شاهدناه ومن ثم أحببناه وينبغي أن تتذكر في موقعنا الدفاعي أنَّنا لم نحتك مع الأشخاص والسياسيين والحثالة من طبقة الموظفين، ولم نتعلم بعد ذلك من الإهمال الوحشي لأسرانا في الصحراء وهم سائرون إلى حلب.

كانت هناك أدلَّة كثيرة عن سوء الحكم التركي في بغداد. وفي الأخير أصبحنا

وجهاً لوجه مع فضائحهم وحتى دخولنا بغداد كنا قد استولينا عليهم كما وجدناهم. كانت الأعمال الأرمنية بعيدة جداً وهمجية بشكل لا يصدق، بحيث إنها لم تدخل أفكارنا على محمل الجد مطلقاً. ولا يمكننا مقارنة القتلة مع الرجال الذين كنا نقاتلهم. وعندما التقينا اليهود أو الأرمن غير المحظوظين في بغداد، كُنَّا قد اعتقدنا نصف روايتهم أو أن هناك تشويهاً للسمعة فيها بشكل مجمل أو حساب الكثير من التلوين والإضافات الملموسة. ولكنَّ الأدلة من المصادر الحيادية بالإضافة إلى المصادر المتحيزة كانت تراكمية. وكانت هناك حالات واقعية بحتة بجانب الحقيقة الباهتة الهمجية الوهمية.

لم تكن لدى بغداد مطلقاً سمعة في كونها متعصِّبة وأن هذا لا يعني أن الأتراك في المدينة يختلفون عن الأتراك في أي مكان آخر. كانت هناك أسباب محلية وبغض النظر عن الحامية، يشكل الأتراك جزءاً متواضعاً من السكان وكان هذا إلى حدٍّ كبير من المسؤولين. وكان الجزء الأكبر من السكان هم من العرب واليهود والمسيحيين الذين يشكل جماعة الأرمن جزءاً صغيراً منهم، وليست كبيرة بما فيه الكفاية ليشكلوا تهديداً اقتصادياً أو حتى ذريعة لقلق سياسي. وكنتيجة لذلك، كان الأرمن ربما قد عانوا أقل من الأتراك في بغداد من إخوانهم في الدين في أي جزء آخر من الإمبراطورية العثمانية.

كانت الحملة في بلاد ما بين النهرين والاقتراب التدريجي للقوة البريطانية إلى أعلى نهر دجلة قد غيَّرت الموقف بشكل طبيعي. ولم تعد الأجناس الخاضعة تشعر بالأمان. وتم ترحيل عدد من الأرمن بدون أسباب معينة، وقد عاد هؤلاء فيما بعد ونجا الأرمن في بغداد من المذبحة العامة، ولكن الابتزاز من قبل الحكومة وقع عليهم بشدة، وإنهم لم يكونوا الوحيدين الذين كانوا يعانون. وإن جميع الأجناس التابعة والمجاميع المسيحية الأخرى بالإضافة إلى العرب واليهود كانوا قد استنزفوا خلال العامين الماضيين، ولو كان كل هذا الذهب قد ذهب إلى وزارة المالية بدلاً من أن تدخل جيوب المسؤولين فإنَّ الحصيلة ستوفر للأتراك قوة كبيرة جداً للحرب. وكان الطلب مبرراً كمساهمة للحرب وإن المبرر سيكون ساري المفعول إذا فُرِضت الضريبة مع أي درجة أو تحت أي نظام غير نظام الأتراك.

وسيعرف أولئك الذين هم معتادون على الطرق العثمانية نوعية ما كان يجري، فعلى سبيل المثال، صُودِر الصوف إلى قسم ملابس الجيش، وأُخبِر الأغنياء من الأرمن أن مادته كانت وسخة ولا تستحق أربعة قروش للكيلوغرام الواحد. وفي الوقت نفسه نكتشف أن المخزون لدى المسلمين المتنفذين ليس جيداً على الإطلاق. ويؤسفني جداً، أن الأفندي، ضابط المشتريات سيعلن أن المواد الخاصة بكم لا قيمة لها بالنسبة لنا. ولا نستطيع أن نأخذ الصوف في حالة من هذا القبيل وأنه عندما يقوم الموظف المسؤول المخادع بعملية الوزن فإنَّه سيصادر المخزون بكامله من صغار التجار العرب بحجة كون الإعلان غير صحيح أو الفشل في الإعلان. وفي وقت لاحق، وعندما سارت الأشياء بشكل سيىء إلى الأتراك نُسِيَتْ جميع الذرائع. ونُهِبَت جميع الأسواق رسمياً.

كانت هناك طريقة أبسط للابتزاز وهي التبادل الإجباري للذهب مقابل الأوراق النقدية. وبهذا النظام تحوَّلت كل الأموال المتوفرة لدى العرب واليهود والمسيحيين في المدينة تقريباً إلى أيدي الأتراك. وعندما يتم دفع الديون بالعملة الورقية تتم المطالبة بفوائد تتراوح ما بين 60 إلى 75 بالمئة. وعندما لم تكن هناك فرصة لعقد صفقة، يستدعي المسؤولون اليهود إلى منازلهم ليلاً، يأتون بالذهب ويذهبون بـالأوراق النقدية. وكانت العقوبات الأكثر ترويعاً قدمت ضد أولئك الذين لا يقبلون الأوراق الحكومية بقيمتها الظاهرية. وفي هذه الأثناء هبطت قيمة الأوراق المالية إلى الثلث أو حتى إلى الربع من قيمتها المعتمدة، وواصلت الأوامر مجيئها من القسطنطينية بأنَّ انخفاض الأوراق النقدية الحكومية في بغداد كان أكبر من أي مكان آخر في الإمبراطورية، ويجب اتخاذ خطوات فورية لإنعاش الائتمان. كان المسؤولون قد أصيبوا بالخوف وإثارة الأعصاب، ووقعت وطأة استيائهم بصورة رئيسية على اليهود. كان هناك تهريب فعلي للأوراق المالية وكان التجار يبيعونها بسعر منخفض يصل إلى الثلث من قيمتها. وَعُدَّ هذا رسمياً في ضوء مؤامرة مدروسة لتخفيض الائتمان التركي. وقد فهم كبار المسؤولين بطبيعة الحال ذلك، ولكن التركي الغبي يعتقد حقاً أنَّ دوافع اليهود كانت سياسية ومؤذية. وعندما أمرت الحكومة أن تصبح الأوراق النقدية بقيمة الذهب نفسها، قال إن الورقة النقدية بعد ذلك أصبحت ذهباً بالقانون أو إذا لم تكن ذهباً بالنسبة لك أو لي فهي ذهبٌ

بالنسبة إلى ميرزا وعبد وعزرا ويوهانس. وصدر إعلان بأن تتم جميع المعاملات والمشتريات التجارية بالأوراق النقدية، وكانت النتيجة ذعراً مالياً. وأغلقت المحال التجارية أبوابها ولم يعد هناك سوق، ولم يكن بإمكانك شراء لحم أو خبز من السوق. وللمحافظة على العائلة على قيد الحياة كان على المواطن البغدادي أن يتسلل خلسة ويجري مشتريات سرية نقداً بعد حلول الظلام. وصدر إعلان آخر كان على التجار أن يفتحوا محلاتهم التجارية وسيُطرَد أولئك الذين كانوا يتعاملون سراً أو يخفون أو يرفضون بيع بضائعهم من السوق وتُصادَر أموالهم.

وقد استدعي اليهود المتهمون بجريمة تهريب العملة النقدية إلى المحكمة ليلاً. ويحتجزونهم في النهار، وبعد الظلام يُخرِجونَهم ويعذبونهم، وفي النهاية يذبحونهم ويرمونهم في نهر دجلة. وفي الصباح وعندما تجلس عوائلهم حول طاولة الفطور يتم إخبارهم أن ذويهم غادروا إلى أسفل مجرى النهر لرؤية خليل باشا في الكوت أو هكذا تكون الرواية في بغداد، وأن الجميع يصدقونها. ومنذ ذلك الحين، لم يُرَ تسعة عشر يهودياً على قيد الحياة، على الرغم من إعادة جثث خمسة منهم انتشلوا من نهر دجلة. وتم تحديد هوية كل من هارون ميلم وعبدالله إسحاق ميسافي وإبراهيم دبول في السابع من شهر آذار، بينما عُرِفَت هوية شليمو سيوم وإسحاق ميسم مينا بعد أسابيع قليلة. وقد كُويَتْ قدما هارون ميلم على ما يبدو بقطعة حديد حارة فوق الكاحل تماماً.

وعندما زارتهم الشرطة، كان ابن عم أحد الرجال المطلوبين الذي كان قد هرب، كان نائماً في منزل قريبه، المتهم، وتم أخذه رهينة على أمل أن يدلهم على مكان الهارب. وبوصفه لم يكن متورطاً في الحقيقة لذلك تركت قضيته إلى الأخير، حاول التسلل في حالة الفوضى التي حصلت لدى وصولنا إلى المدينة. ويحمل هو وسجناء آخرون في المنزل شهادة على الآهات والصرخات طلباً للرحمة التي يطلقها اليهود في أثناء الليل. وكان هذا التعذيب والاغتيالات عن طريق الردع. ويحاول الأتراك إظهار أنه ليس هناك طريقة أكثر اعتدالاً تمكنهم من إعطاء ورقة نقدية غير موثوقة بقيمة الذهب. وكانت الفكرة أنهم إذا قتلوا واحداً أو اثنين فإنَّ الآخرين سيعودون حالاً إلى صوابهم وسيتوقف التهريب الضار.

وضعت هذه القصة المسؤولين في بغداد على متن المركب نفسه كأولئك المسؤولين عن المذابح الأرمنية. وإذا كانت لدى المدينة سمعة من أجل التسامح في الماضي فلأنه لم تكن هناك مقاومة للمصالح التركية للدعوة إلى القمع. وما إنْ جهزت صعوبة تبادل العملة الورقية المثيرين حتى جاءت غرفة تعذيب العصور الوسطى إلى الوجود.

ومع ذلك فقد كانت بغداد الملجأ الآمن بالنسبة للاجئين الأرمن. وبعد ظهر اليوم الحادي عشر من شهر آذار وجدتهم مُكَدَّسين في الكنائس المسيحية، لا يزالون غير متأكدين من مصيرهم، ويخشى نصفهم أن يعود الأتراك ولكن لم يكن هناك قتل. وبعد أيام قليلة شاركنا في إنقاذ النساء والأطفال الأرمن الذين نجوا من المذبحة في الشمال، وهم يعيشون الآن مع عوائل مسلمة. وكانوا قد تجمعوا في منازل يتم تمويلها من قبل الحكومة. وقد وُضِعت السيدات من جالياتهم في المسؤولية، ويتعلم المرء الكثير من زيارة هذه المؤسسات. وكان نزلاء إحدى هذه المؤسسات التي زرناها من الشباب جميعاً، والعديد منهم في عمر الزواج. كان عدد كبير من الأطفال دون السادسة من العمر وقد نسوا لغتهم ودينهم تماماً. وكان البيان الصريح لما عانوه ورأوه اتهاماً شديداً أو قاطعاً ضد الحكومة التركية. ومن الممكن أنَّ العديد من التفاصيل التي جمعتها قد تكون غير دقيقة، ولكن بصورة إجمالية كانت مقنعة مثل الطرق التي استخدمها الأتراك. كان من الصعب دحض القصة الواضحة لطفل عمره (اثنا عشرعاماً) وإنَّ الدليل مدعوم من الأميركان في أجزاء أخرى من تركيا في آسيا، ومن السجناء الهنود الهاربين من رأس العين، وتمثل هذه الوثائق كالمفكرات الخاصة التي وجدت على الموتى.

وكانت البنت الأولى التي شاهدتها هي طفلة في العاشرة من عمرها من إحدى القرى القريبة من أرضروم. وقد بدأت الطفلة مع عائلتها رحلتهم على الحمير مع قليل من حاجياتهم، ولكن خلال ثلاثة أيام لم يترك الأكراد شيئاً لهم، وكان عليهم أن يواصلوا رحلتهم سيراً على الأقدام. وأصدر الأتراك بياناً في جميع القرى التي يتواجد فيها الأرمن لغرض إرسالهم إلى إحدى المستعمرات التي تمت تهيئتها لهم، وإن ممتلكاتهم ستكون تحت رعاية الحكومة خلال الحرب وستُعاد إليهم فيما بعد، كان

هذا قبل أكثر من عام. كانت قوات الجندرمة ممتعة جداً بالنسبة لهم في منازلهم، وقد أخبروهم أنهم سيمنحون أرضاً جديدة لزراعتها وأن رحلتهم لم تكن طويلة. وكان التأكيد الأول كما خمَّنوا خيالياً، وأن الشيء الثاني هو أن قوات الدرك لم تكذب. وبالنسبة إلى الكثير منهم هو أن كل شيء انتهى في اليوم الثالث، إذ عُزِلَ مئتان إلى ثلاثمئة رجل عن النساء وتم قتلهم على مسافة قريبة، إما بإطلاق النار عليهم أو بقطع رؤوسهم بالسيف وبعد ذلك يحدث الشيء نفسه يومياً تقريباً. كان الحرس عشوائياً للغاية، ولم يكن هناك نظام، وتم دفع بعض النساء إلى النهر وطعنت الأخريات فوق المنحدرات. وغادر اثنا عشر ألفاً منهم قريتين بالقرب من أرضروم ووصل منهم فقط أربعمئة فرد إلى رأس العين. كان الناجون جميعاً هم من النساء والأطفال. ولم يكن هناك رجل واحد بينهم ولا طفل ذكر فوق التاسعة من العمر. واعتقدت إحدى الفتيات أن ذلك كان من سياسة الجندرمة لتتعبهن وتجعلهن يمشين فوق الصخور وإبقائهن بعيدات عن المياه. قد يكون هذا خيالاً، وقالت إن ذلك كان مؤلماً جداً أن تكون في نهاية الموكب، وبعد ذلك لا بد على المرء أن يمر على جثث أصدقائه وأن يشرب الماء من القنوات حيث كانت جثث موتاهم تطفو على سطح الماء. وشاهدت حفرة في الأرض التي أُحرق فيها عدد منهم وفي رأس العين أخذت إحدى الأسر السورية بدلاً من الفتاة وأختها وقد توفيت الوالدة، وهكذا وصلوا بغداد.

كان هناك أطفالٌ صغارٌ لا تتجاوز أعمارهم الأربع أو الخمس سنوات في المنزل وبالكاد تجد اثنين من القرية نفسها. وكانوا مع الأسر التي تبنَّتهم قبل عام أو أكثر قد نسوا لغتهم وقد التقطهم الأتراك متفضلين عليهم، كما لو كان أحدهم جرواً صغيراً أو هرة صغيرة. كانت هذه هي طبيعة العثمانيين في كل مكان، وكانت المجازر أعمالاً غير سارَّة للغاية. وتحولت العناصر الأقل تحضراً من الجيش غير المتجانس أعمالاً قذرة، ويغمض الأتراك أعينهم عليها قدر الإمكان. وكانت علاقاتهم الاجتماعية والمحلية دائماً ممتعة. وتتمتع إحدى المربيات الأرمنيات بامتيازات المنزل فهي كخادمة تتمتع بحسن الرعاية، وتمت معاملة الأطفال لدى تبنيهم بلطف. إنه عمل جيد في سبيل الله أن تأخذ يتيماً وتجعله مسلماً حقيقياً. وأُعطيت بعض النساء والفتيات العربيات اللاتي أيضاً عاملوهن معاملة حسنة. وقد قابلتُ أحد اللاجئين

من منطقة كالاحصار والذي أنقذته بعض النساء الأرمنيات هو وستة من رفاقه وعُثِر عليهم يقيمون في أحد مخيمات البدو. وغادرت نحو ثمانمئة أسرة من المنطقة ذاتها وانقلب نصف هؤلاء من الشختور، (وهي زوارق عربية) وغرقوا في نهر الفرات. وعندما وصل الناجون إلى دير الزور وضعوا في مخيم للإقامة الجبرية. وقد سمح لهم أخذ الأموال معهم، وإن أولئك الذين يمكنهم دفع أجور الفحص الصحي حصلوا على فاتورة صحية نظيفة وسمح لهم بالعيش في بيوت لإيوائهم في المدينة. وقد احتفظ بهم في دير الزور بضعة أسابيع في الانتظار. أما الذين بقوا هنا فقد وصلوا إلى المتصرِّف (وهو منصب إداري) على أمل تحريرهم مقابل المال. وعرضوا عليه مبلغ 3000 ليرة لكنها لم تكن كافية وجمعوا الأموال مرة ثانية، وإن كل قرش يتمكنون من جمعه يرمى في البِرْكة. وكانت هذه المرة قد وصل المبلغ إلى 5000 ليرة، وإن المتصرف قد قبل الرشوة بشرط أن يوقِّعوا على ورقة يذكر فيها «إنَّنا الأرمن أعطينا هذا المبلغ عن طيب خاطر إلى الجيش التركي» لكنها لم تنقذهم. لقد رافقتهم قوات الجندرمة في مسيرتهم وبدأت المذبحة على بعد تسعة أميال من المدينة. وتم استخدام العصي والحجارة والسكاكين والخناجر وعدد قليل من طلقات الرحمة، ولكن كما يحدث دائماً تعب القتلة من عملهم، حتى إنَّ الجزء البدني منه كان مرهقاً، وتم تأجيل العمل الأخير منه من يوم إلى آخر. وفي النهاية أعطاهم الدرك إشارة للذهاب. كانت الليلة مظلمة وكان الحرس أكثر إهمالاً من المعتاد، وإن آخر ما تبقَّى من المجموعة كان ما مجموعه خمسة وخمسين فرداً قد هربوا. والتحقوا مع إحدى القوافل من رجال القبائل في اليوم التالي، والذين جرَّدوهم من ملابسهم ولكنهم أطعموهم. وفي اليوم الثالث عبروا النهر ومروا بمخيم للبدو من قبيلة العِنِزَة، وهي قبيلة معادية دائماً للأتراك. وكانوا هنا قد وجدوا النساء الأرمنيات اللاتي بقين مع القبيلة لمدة عام كامل، يواجهن ملاحم من الاضطهاد السابق. ومن هذه الساعة أصبحوا بأمان، وأصبحت النساء الآن جزءاً من القبيلة، وعندما صَرَخْنَ «كان هؤلاء الرجال من مواطنيهم» فقد ضمَّتهم قبيلة العنزة إليهم. وعملوا مع البدو، يطعمون الجمال ويجمعون الوقود، ويحملون ويفرغون الرزم. وكانت القبيلة تتحرَّك نحو الجنوب، وبعد شهر وصلوا الحلة حيث يكرهون اسم الأتراك.

وفي ربيع عام 1916، بعد اضطرابات كربلاء، كان المواطنون يقتلون في الشوارع ويتم نقل النساء العربيات بالقوة إلى خارج المدينة. ووجد الأرمن أنفسهم بين شعب ودود وبقوا في المدينة حتى جاء البريطانيون إلى بغداد، وهم يزاولون الآن أعمالهم، وأصبحت واحدة من المستعمرات المتزايدة من اللاجئين في المدينة. التقيت أرمن آخرين وهم الذين كانت لديهم أعمال هروب غريبة، فقد تم أخذ أحدهم من إحدى العوامات في الموصل، وقدم نفسه على أنه أصبح مسلماً. وساير الرجل الظروف وطلب منحه تعليمات عن الإيمان. وفي التحقيق الذي تلا ذلك، كشف أنه على علم ومعرفة باللغة العربية التي لم يكن أحد من الملالي المحليين يمتلكها. وقد أُخِذَ إلى عائلة الشيخ بوصفه قارئ قرآن وفيما يتعلق بالهداية لم يذكر شيئاً أكثر من ذلك.

سمعت أن رجلاً آخر كان هو الناجي الوحيد من مجموعة من اللاجئين الذين اختفوا بين رأس العين ونصيبين. إذ اقتيدوا إلى الصحراء وشكّلوا خطاً، كما هو الحال في عمليات الإعدام الصينية، ليتم إعدامهم بالسيف. لم يكن هناك نقص في الذخيرة، كما قيل لي، ولكن يتم استعمال السيف لأسباب اقتصادية بحتة. وبينما كان ينتظر دوره، خطر في بال الأرمن أن في الرصاصة سيكون الموت أسهل. لذلك فر من الصف وفقدته قوات الدرك في أثناء عملية الفوضى. كان الوقت فجراً، اختبأ بين الأدغال وبمعجزة تمكّن من الهرب ووجد طريقه إلى بغداد. وكانت الملامح الرئيسة للمجازر هي نفسها تقريباً، فإذا لم يقتل المهاجرون في الطريق يتم أخذهم إلى بعض المستودعات حيث يتم حجزهم لأيام عدة. ومن هنا فإنهم يشكلون مخيماً كبيراً من ألفين إلى ثلاثة آلاف فرد أو أكثر وتصبح المؤونة سؤالاً صعباً. وتأتي ملاحظة قريبة من القسطنطينية بتخصيص أرض زراعية للاجئين من منطقة معينة، وينبغي عليهم أن يبدؤوا رحلتهم مرة أخرى، وبهذا يعلمون أنه ربما يتلقون عقوبة الإعدام، ولكنهم لديهم أمل ضعيف ويقولون: إنَّ الآخرين قد نجوا. كانت هناك حالات إنسانية للحكام وكان هناك واحدٌ في دير الزور- على الرغم من أنَّه نقل بعد ذلك- لم يكن كما أوضح لي أحد الأرمن متخصصاً بالمذابح.

كانوا بشكل عام آمنين خلال النصف الأول من اليوم حيث أُهمِلَت عمليات القتل على نطاق واسع بالقرب من المدينة. لم ير أحد، على سبيل المثال، شخصاً قتل في

طرابزون، ولكن بعد أيام قليلة من مغادرة الأرمن للمدينة جاءت جثثهم طافية إلى أسفل مجرى النهر. لم تكن الصحراء دليلاً. وما يحدث هناك يترك مجرد شائعات مبهمة، ولم يكن هناك شيء واضحٌ بما فيه الكفاية ليحدث صدمة للسياسيين في الغرب. لقد استدعي رجال القبائل والأكراد والعرب، إذا كان ذلك ممكناً؛ لأنَّ ذلك يعطي الأتراك ذريعة للقضية المؤسفة. وأوضح أن الأكراد والعرب هم شعب غير متحضِّر جداً، ولم يتم حتى الآن تعليمهم ليصلوا إلى «التقدم» إلى جزء من برنامجهم المطبوع على قلب الشاب التركي. وفي الوقت ذاته، لم يعرف الأرمن التُّعَساء متى سيأتي دورهم. لم يكن لدى الدَّرك أمر في القضاء عليهم، ولم يسعَ أحد أبداً إلى حالة إرسال نظيفة، وقد تطول القضية البائسة لأيام عدة. عموماً، كان أول عمل هو عزل الرجال عن النساء وإذا تشبَّثت النساء بالرجال فهذا من شأنهم الخاص وإن وحشية المشهد يمكن أن تترك للخيال. حتى إنَّ الأتراك الكبار في العمر والحنونين قد يذرفون الدموع عندما يسمعون بها، ويقولون إنَّ قتل النساء والأطفال ليس موجوداً في القرآن، وإنه سينزل سخط الله على الجنس العثماني. ويتحول اللاجئون في بعض الأحيان، على الرغم من كونهم عزلاً، على حارسهم وفي أكثر من مرة دفع القتلة الثمن غالياً. كانت هناك امرأة أرمنية من التلال التي نمر بها بالقرب من أورفا. وكان رجالهم قد قتلوا غدراً في وقت سابق، وإنهم يعلمون أن الإذعان إلى بيان المنفى كان قاتلاً مثل المقاومة. وأمسكوا بالممر ببنادقهم قبل نحو أسبوع وكان على الأتراك جلب مدفعية. وقد هرب نحو خمسين فرداً منهم، وإنَّ المرأة الآن في بغداد، وكان أحد الأتراك من مدرسة أفضل هو من أنقذها، وقد احترم شرفها وعاملها في أثناء الرحلة كما لو كانت ابنته، على الرغم من أنَّه فشل في تحويلها إلى مسلمة.

كان عددٌ قليلٌ من النساء الأرمنيات قد حالفهن الحظ. وقتل الكثير منهن بدون تردد مثل الرجال. ويبدو أن الرزانة وحسن التصرف كانت كارثية بطرق مختلفة إذ توفيت كبيرات السن بسبب العنف والجوع، وأُخِذَ الشباب إلى عوائل الأتراك. والتقيت أحد المسافرين في بغداد وقد أعطي رسالة من أحد المسؤولين في رأس العين لتسليمها إلى الدَّرك المسؤولين عن حماية الطريق. كتب فيها: «اختر واحدة جميلة لي واتركها في القرية خارج المدينة». والبعض منهن لطخن وجوههن بالطين

والفحم لإخفاء مفاتنهن. وفي كثير من الحالات يصلن عاريات عبر الصحراء باستثناء كيس والقليل من قطع القماش.

كانت رأس العين والمحطة الأخيرة للسكك الحديد قريبة جداً من مركز الأشياء التي تستخدم في الأسلوب القديم للمذابح. ويترك النساء والأطفال للجوع. وسمعت أن امرأتين لم تتمكنا من إرضاع أطفالهن قد أمسكوا بهما تحت الماء حتى فارقتا الحياة، وكانت أخرى تحدو لطفلها لينام وللتخفيف من ألمها وهي تقوم بحرق روث البقر للإنارة. لم يكن هناك شيء لطهي الطعام، ولكن الأبخرة تحمل الروائح والإيحاء بوجود طبخ ولحظة سلام. واصل الإمبراطور نيرو الحديث -وهو إمبراطور روماني مشهور بوحشيته- تظاهره بإطعام اللاجئين، حتى إنه أرسل صدقات نحاسية إلى معسكرات الاعتقال في الصحراء لشراء تجهيزات حيث كانت البضاعة الوحيدة هي الرمال ويلقي المسؤولية على الله في وفاة أسراه البائسين. وفي حلب ورأس العين تجول الضباط الألمان بين هذه الأشباح من المجاعة والقتل والموت ولم يرفع أصبع أو يذكر كلمة واحدة. وكان من الحماقة التدخل، وكان بالحلم السياسي نفسه قد فاز القيصر ويلهيلم، عندما تعاظمت القوى الكبرى الأخرى سخطاً وهددت باكتساح الأتراك من أوروبا وإسقاط السلطان عن عرشه. ولكن مجازر عبد الحميد في عامي 1895-1896 عندما بدأ القتل مع نفخ الصور وتوقفه بعد ثلاثة أيام بالإشارة نفسها، كان العمل غير متقن مقارنة مع الفن الجميل الذي جلب إليه القتل من قبل الشباب الأتراك.

يمكننا تفهُّم عدم مبالاة الجنود الألمان أو تعاطفهم. من الصعب تسوية الفضائح مع ما رأيناه من الأتراك. كان هناك عددٌ قليلٌ جداً من الضباط في القوة الذين لا يتحملون مشاهدة ذلك، ينتصرون أم يخسرون، إنهم قاتلوا بحرب نظيفة على وجه العموم. كانت طبيعة الشر هذه عند الرجل هي لغز دائم، وكثيراً ما يسمع المرء أنه تم توضيح الجانبين منه بعيداً عنه، ولكن لم يكن مقنعاً بتاتاً. فهو نصف تتري ونصف أوروبي، كما يذكر عنه، وأنه عندما يلتقي برجل إنكليزي أو فرنسي فإنه يجامله باحترام ليعرض له الجانب الحسن منه، وعندما يقابل عربياً أو أرمنياً أو كردياً سيظهر الجانب الهمجي منه. وسمعت أنه يقال له من باب المجاملة والشهامة الفردية، إنَّ

كل ذلك قد ميزه الجنود الألمان في الحرب، وهو شكل من أشكال المكر، وحساب جيد للاستثمار والتي يتوقع من ورائها فائدة المرابي عند الطلب، كما لو أن علاقاته الاجتماعية والشخصية كانت قد أمليت عليه من اسطنبول بأمر رسمي، ولكن القليل من الذين اختلطوا مع الأتراك سيقبلون بهذا التقدير غير المتحيِّز. كانت فضائل الرجل كثيرة جداً كجزء من عمله الروتيني اليومي. ومع ذلك فإنَّ كل القضية ضده هي دامغة، وقد يقول الشخص المعجب بالأتراك: إنَّ الإمبراطورية العثمانية لم تكن متجانسة بشكل عام، وإن المسؤولين هم من أجناس متفرِّقة، وإنه ليس لدى الطبقات الحكومية شيء مشترك مع الشعب، ويروي الأتراك الجيدون هذه الجرائم بفزع. ومع ذلك فإن العصملي هو المسؤول مسؤولية جماعية وهو عرضة للاتهام بشكل فردي. وإن المسؤولين المتورطين، بالطبع، يستحقون مصير القتلة. أما بالنسبة لأفضل فئة من الأتراك فهم الرجال النبلاء الذين قد يظهرون الخوف في كل سلوك بسيط في الحياة. ولكنه ما دام لم يعد لديهم العطف ولم يحصلوا على جذوره بما فيه الكفاية في الإنسانية للتضحية، فهم أيضاً، من خلال الإذعان لهم، قد صادروا حقهم في الانتماء إلى الجنس الحاكم.

الفصل الرابع والثلاثون

بعد بغداد- الالتقاء مع الروس

من الناحية المنطقية ينبغي أن يتضمن تاريخ البعثة حتى سقوط بغداد العمليات التي بواسطتها تمكَّنت من تأمين سيطرتها على المدينة وتعزيزها. وكانت نهاية هذه المرحلة هي الاستيلاء على نهاية خط السكة الحديد في سامراء.

لم نتمكَّن بالطبع من التوقف في بغداد. كانت المدينة بدون دفاعات طبيعية أو اصطناعية، وكانت مفتوحة للهجوم عليها بأرتال تتقدم إلى أسفل مجرى نهري دجلة والفرات ونهر ديالى. وبهدف الاستيلاء على المدينة ينبغي على المرء احتلال مواقع متقدمة على هذه الأنهار. ويجب تأمين هذه المواقع والعدو أمامنا، والذي كان حالياً مهزوزاً بشكل كبير، وينبغي سحقه وإضعافه قبل أن نتمكَّن من الدعوة إلى التوقف.

وكانت أكثر المعارك شدة في الحملة تنتظر قواتنا، ومع قرب حلول فصل الصيف الحار بقيت لدينا فترة أكثر من ستة أسابيع بقليل ويكون خلالها الهجوم القوي عملياً.

وهكذا عندما دخلت القوة بغداد في الحادي عشر من آذار كانت لا تزال لديهم أربعة أهداف رئيسة لتحقيقها. كان الهدف الأول هو مواصلة المتابعة إلى أعلى مجرى نهر دجلة لإكمال طريق فيلق الجيش التركي الثامن عشر الذي يتراجع أمامهم، والهدف الثاني هو الاستيلاء على نهاية محطة السكة الحديد في سامراء، والثالث هو اعتراض الفيلق التركي الثالث عشر الذي كان يتراجع أمام الروس من همذان ومنعه من الالتحام مع قوات العدو الأخرى، والهدف الرابع هو السيطرة على فيضانات نهري دجلة والفرات شمال بغداد. لقد خدمت جميع هذه الأهداف الفورية الهدف النهائي بنشر المواقع لإيقاف القنوات الثلاث التي بواسطتها تتمكَّن القوات النزول إلى المدينة.

كانت السيطرة على الفيضان حقيقة هي الأكثر ضرورة في الأهداف الرئيسة الأربعة التي ذكرتها، حيث تعتمد عليها مسألة الأهداف الثلاثة الأخرى. كان النهر مرتفعاً، وفي فصل فيضان اعتيادي سيكون العدو الذي يمسك بقيادة ضفاف نهري دجلة والفرات في نقاط معينة شمال بغداد في موقف يمكّنه من إغراق الجيش المهاجم وإيقاف جميع العمليات الأخرى تماماً. وكان نهر الفرات هو النقطة الأكثر خطورة؛ لأنَّ مستوى فيضانه يصل إلى ارتفاع أربع عشرة قدماً الى الأعلى من نهر دجلة، وإن انفجار أحد السدود على بعد خمسة أميال إلى أعلى مجرى النهر في أحد البساتين، حيث قناة الصقلاوية سيغرق جميع الأراضي بين هذه النقطة وبغداد، وسيغمر الضواحي على الضفة اليمنى من نهر دجلة. وبالطريقة نفسها، عندما يفيض نهر دجلة بدرجة عالية فإن الضفة اليسرى تكون مفتوحة للغرق من نقاط عدة شمال بغداد. وهكذا، فإنَّ الأراضي التي تقف عليها المدينة تتحول جزيرةً محاطة ببحيرة واسعة، وخلفها ستكون لدى الأتراك نحو ستة أميال من الأراضي في الداخل تمكّنهم من الحركة بحرية، بينما تكون القوة البريطانية مثقلة بالمياه.

وهكذا فإنَّ السيطرة على الفيضانات إذا استمر النهر بالارتفاع، تعتمد على تقدُّم الجيش ومضاعفة الضرورة العسكرية للضغط بشدة في أعقاب العدو باعتبارات تؤثر على أمن هيمنتنا على بغداد، وعدم منح الأتراك فرصة للاستراحة. واصلت أرتالنا بالملاحقة على ضفتي نهر دجلة كليهما بينما أرسل الرتل الثالث إلى النهر، واستعد الرتل الرابع للتقدم إلى خانقين بهدف عزل القوة التي كانت تتراجع أمام قوات القوزاق على الحدود الفارسية. وبالرغم من الصعوبات الهائلة المصاحبة للتغيير السريع والكامل للترتيبات التي يستدعيها الموقف الجديد، لم يتعطل تجهيزنا ووسائل نقلنا، وكانت تتم تغذية أرتالنا الأربعة وتجهيزها بالذخيرة والمعدّات بشكل عملي منذ البداية.

كان القتال الأكثر شراسة بعد بغداد على نهر دجلة وشط العظيم. فعلى نهر دجلة، قاتل الفيلق التركي الثامن عشر بعد تعزيزه بشدة لإنقاذ سامراء، وعلى شط العظيم كان الفيلق الثالث عشر وبالهدف المنظور نفسه يقوم بهجمات عسكرية عنيفة متكررة على جناحها في جهود منه لتحويل هجومنا الرئيس على محطة السكك الحديد.

الحادي والعشرين والثامن والعشرين مع العدو في منطقة مشيهيدة. من الواضح أنَّ الأتراك توقَّعوا هجومنا على النهر، حيث كانوا يتخندقون بقوة حاملين بنادقهم. وتقع محطة السكك الحديد على بعد نحو ستة أميال داخل البلدة، ويقع الموقع إلى الشرق من هذا ويتمركز بين مرتفعات مهيمنة، ومرتبطة بعضها مع البعض الآخر، وإلى النهر بسلسلة من الخنادق والوديان وقواطع للري. وبدون شك كان الأتراك في استعداداتهم لهجومنا إلى الشرق من محطة السكك الحديد وأقرب إلى نهر دجلة، يعتمد على نقص المياه، التي كما يعتقد أن إعادة التقدم هي عملية متعذرة. استطاع الجنرال كوب، بتحويل اللواء الحادي والعشرين إلى جهة اليسار وعبوره خط القتال، أن يجد أقصى الجناح الأيسر، وهكذا لتحويل موقعه بالكامل. وتقدم اللواء الثامن والعشرون إلى الجانب الأيمن من محطة السكك الحديد، واللواء الحادي والعشرون إلى الجانب الأيسر وقوات البلاك ووتش إلى اليمين والكوركا إلى اليسار وقوات البوبال في الخلف. كان عملاً بسيطاً جداً وشهماً. ولكن بالنسبة إلى وقوع خسائر كانت من النوع الذي عمله كل فرد أو حاول عمله مئة مرة في أيام الميدان، باستثناء عدم ارتكاب أي خطأ، وسار كل شيء بشكل مدروس على وفق الكتاب، وينتشر اللواءان ويتقدمان بهجمات قصيرة تحت غطاء أفضل من تلك التي شهدتها الفرقة لأيام عدة، ولكن ليس بدون خسائر فادحة.

تفرَّق الخط الدفاعي الأول للأتراك الذي كان في مقدمة الموقع الرئيس حالاً بعد الساعة الرابعة بعد الظهر وتراجع إلى الخط الدفاعي الثاني. وعندما تقدمنا انهالت رشقات نيران ثقيلة من أحد التلول الكبيرة على يسارنا. وظهر أن هذا التل الرملي، الذي أصبح معروفاً (بتل رغيف السكر) كان الجناح النهائي للأتراك، وكانت النيران المنطلقة منه كثيفة جداً بحيث إن فصيل البلاك ووتش بدَّل أمراءه ست مرات خلال دقائق عدة. وضغط ما تبقى من الفصيل بدون قيود، ويقودهم نائب عُرف بالكياسة والبرود نفسهما اللذين أبداهما الضباط الذين قتلوا. وفقدت السريتان من البلاك ووتش على الضفة اليسرى نصف قواتها في هذا التقدم إلى مسافة خمسمئة ياردة، ولكنها أجبرت الأتراك على التراجع واحتلت التلول الرملية الواطئة على بعد مئتي ياردة إلى الأمام من موقعهم الرئيس. وفي الوقت نفسه هاجمت السريتان اللتان

على الضفة اليمنى وهما تعملان بالارتباط مع السرية على الجانب الأيسر من حملة البنادق إلى الشرق من محطة السكك الحديد واكتسحتا الخنادق المتقدِّمة بالحراب. غير أن الاستيلاء على هذا الموقع هو الاتجاه الكامل للمعركة. وزخت فرق بنادق لويس التابعة إلى قوات بلاك ووتش والكتيبة التاسعة والخمسين إلى الأمام بين كثبان الرمل وتحت حاجز محطة السكك الحديد رشقات نيران عنيفة أدت إلى التأثير على موقع العدو الرئيس. وأصبحت نيرانهم أقل كثافة حتى من (تل رغيف السكر) فإنها خفَّت وأصبح حالاً من الواضح أن الأتراك أخلوا القمة والحافة الأقرب من محطة السكك الحديد وتمت الدعوة إلى التوقف لتقريب المدفعية. وأُطلِقت الرشقة النهائية بعد قصف مختصر، من كتيبتي الهايلاندرز والكوركا على الجهة اليسرى من المحطة. وأخلي الأتراك عندما اقتربت قواتنا، وأصبح الموقع بأيدينا. وبعد ذلك حالاً هجمت كتيبة البوبال التاسعة التي كانت تتواجد بعيداً في الجهة اليسرى واستولت على «تل رغيف السكر».

كنا خلال عملية التقدم بعد شن الهجوم في الساعة الرابعة والنصف قد تكبَّدنا أكثر الخسائر حيث فقدت كتيبة البلاك ووتش عشرة ضباط في الهجوم (خمسة منهم قتلوا أو توفوا من جراء الجروح التي أصيبوا بها) ومئتين وسبعة وعشرين رجلاً. وفقدت كتيبة الكوركا جميع الضباط الذين ذهبوا إلى المعركة باستثناء واحد. ولكننا في الهجوم النهائي على الخط الدفاعي الثاني في الساعة السادسة والنصف الذي غُطِّيَ بوابل جيد من النيران، فقدنا القليل جداً. وصمدت مجموعات صغيرة من الأتراك، لكن معظمهم هربوا، وقبل منتصف الليل بقليل أجبرت كتيبتا البلاك ووتش والكوركا الثامنة العدو على التراجع ثلاثة أميال أخرى واستولت على محطة المشيهيدة. كان الرجال متعبين وكان موقع على بعد واحد وعشرين ميلاً مع معركة عنيفة على مدى سبعة عشر ميلاً، وقد استولينا عليه بسهولة وبكلفة حوالي ثلث تأثير الضباط ورجال الأفواج المهاجمة، ولم يكن هناك ماء باستثناء ما بدؤوا به في منتصف ليل الثالث عشر من الشهر- إجمالي ما مقداره مسيرة وقتالاً ثلاثين ساعة. كان الانسحاب التركي مفاجئاً وتراجعوا خلال الليل ونهار اليوم التالي بسرعة على طول الخط الدفاعي. وفي صباح يوم السادس عشر ذكر طيارونا أنهم ينتشرون على عمق عشرين

ميلاً، وما زالت مجاميعهم الأخيرة تلحُّ بالهرب إلى مسافة خمسة وعشرين ميلاً شمال مشيهيدة.

كانت معركة المشيهيدة صعبة ومحددة وكانت سمعتها قد انتشرت بشكل واسع. وسيهز النصر من هذا النوع في أي مرحلة أخرى من الحملة إنكلترا، ولربما هزَّ مقر الجيش الهندي، ولكن في تلك اللحظة لم تكن أعين العالم لتتحول عن بغداد.

وبعد المعركة في منطقة المشيهيدة كان تقدُّمنا على طول خط السكة الحديد يتوقف على العمليات على الضفة اليسرى حيث كان الأتراك يتحشَّدون من أجل القيام بهجوم مضلل وسحب قوتنا التي كانت تهدد نهاية خط السكة الحديد التابعة لهم. ولغرض فهم هذا التحشد من الضروري متابعة تحرُّكات الفيلق التركي الثالث عشر الذي كان في الوقت الذي كنا نهدد فيه بغداد، يتراجع أمام قوات القوزاق على طريق كرمنشاه- خانقين على الحدود الفارسية.

وفي الثالث من شهر آذار، بعد يوم أو يومين من خبر احتلالنا للكوت، تراجع الأتراك من (اسراباد باس) الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال الغربي من همذان، ويخوضون معارك دفاعية متتالية حتى اليوم العاشر، عندما أوقفوا الروس على نهر قره سو، حيث قاموا بتدمير الجسر. واستولى الروس على مدينة كرمنشاه في الحادي عشر من آذار في اليوم نفسه الذي دخلنا فيه مدينة بغداد. واستمرت المطاردة من مدينة كرمنشاه بعمليتي مراقبة قصيرتين إلى طاق (قره باس) وهو ممر طبيعي في الجبال، حيث كان الأتراك يحتلون موقعاً قوياً مُعَدّاً مسبقاً عبر ممر ضيق بين الجبال. وجرت معركة دفاعية هنا استمرت عشرة أيام. وانسحب العدو في الثلاثين من شهر آذار. ووصل الروس وهم يواصلون تماسهم القريب إلى قصر شيرين في الحادي والثلاثين من شهر آذار.

وفي هذه الأثناء، خرج رتل خانقين التابع لنا والمؤلف من اللواءين الثامن والتاسع بإمرة الجنرال كيري إلى ديالى قادماً من بغداد في الخامس عشر من آذار على أمل كبير باعتراض سبيل الأتراك وسحقهم بين كماشتي القوات البريطانية من القوزاق. سمعنا نحن القليل أو لم نسمع شيئاً عن الأحوال السياسية في روسيا التي كانت تشل قوة جيشها. ولم ندرك أن حلفاءها كانوا يعانون من الذخيرة والنقل

والتجهيزات، ولم يكونوا في موقع يمكنهم من القيام بهجوم قوي. وتوقَّعنا أن نلاقيَ قوة نصف مدحورة ومكسورة المعنويات. ولم يبدِ الفيلق التركي الثالث عشر أية دلائل على أنه أجبر على الخروج بالقوة، وأنهم كانوا يتفوقون بالعدد على الرتل الصغير الذي تعرض لهم، وكان بإمكانهم مسك سلسلة جبال حمرين إلى حين عبور جميع القوة مدينة ديالى. حقاً إنهم كانوا في عملية تراجع إلا أنه كان تراجعاً منظماً وسريعاً تحسباً من خطر أن نقوم بقطع خطوط اتصالاتهم، وليس بسبب ضغط الروس من خلفهم. وكان الانسحاب، في الواقع، بطبيعة هجوم لأنه كان جزءاً من حركة تجميع والتي فمن خلالها كان الفيلقان الثالث عشر والثامن عشر سيلتقيان ويشنَّان هجوماً على أجنحتنا.

واجه رتل الجنرال كيري مقاومة صغيرة في البداية. وفي الثامن عشر من آذار عبرت قواته المتقدمة نهر ديالى على بعد خمسة أميال من بعقوبة وبتهديده مؤخرة قوات العدو وجناحه، قام بمناورته خارج أحد المواقع الذي كان يستعد للاستيلاء عليه بالأسلحة الرشاشة والمدفعية. وفي العشرين من الشهر تحشَّد الرتل في بعقوبة، واحتلت قوات الخيالة منطقة أبو جسرة على بعد خمسة عشر ميلاً أبعد من طريق خانقين بدون مقاومة. وفي الثالث والعشرين من الشهر تعرَّض العدو للقصف خارج موقعه في شهربان. كانت هذه مجرد عمليات تأخير ولم يتخذ الأتراك موقفاً حاسماً إلى حين اشتباكنا معه على جبل حمرين، وهي سلسلة الجبال الواطئة الأولى التي من خلالها يرتفع طريق خانقين وينخفض باتجاه الحدود الفارسية. وقد كان لديهم موقعٌ طبيعيٌّ قويٌّ هنا، وكانوا يمسكون به بقوة مع جناحه الأيمن إلى نهر ديالى وجناحه الأيسر على بعد ميلين ونصف شرقي الطريق، بينما كانت جبهته محمية بواسطة قناة روز، وهي تيار لها ضفاف مرتفعة بعرض ثلاثين قدماً، وهي تشكل خندقاً مائياً طبيعياً لميدان المعركة. وكانت هناك مقابل الطريق ثلاثة صفوف من خنادق النار للإعاقة مع خط من المخافر لمفارز الطوارئ منتشرة في الأمام. وتشكِّل مجموعة سلسلة الجبال التي تشرف على السهل أفضل موقع للمراقبة. وكان العدو على الضفة اليمنى يمسك بخط من الخنادق إلى الغرب من منصورية الجبل، بينما احتل أحد الأفواج وبطاريتين أخريين منطقة دلِّي عباس.

لم نكن مع لواءين بالقوة الكافية للقيام بهجوم من جانب آخر، ولم يمكن للخمول أن يغتفر. ولو أن الأتراك أفلتوا بدون مقاتلتهم ستكون نقطة ضعف في إدارة الحملة من الناحية النظرية. كانوا قوة في حالة تراجع عالقة بين جيشين معاديين متقاربين. وإن الحكم على وفق كل سابقة في الحرب ينبغي أن تكون معنوياتهم قد اهتزَّت بشكل سيىء. ومع ذلك، ولمعرفتنا بالأتراك نشك في ذلك، لم تكن هذه القوات مهزومة. وبالنسبة لهم، كانت كارثة نهر دجلة مجرد إشاعة وإنه ليس من طبيعة العثمانيين أن يعانوا من الإحباط. ومن الناحية المادية، كان لديهم أفضل موقع، لكن ينبغي أن يطبق الاختبار النفسي.

ولكن، لم يكن من السهل في هذه المرحلة قراءة ما يدور في العقل التركي. ولماذا كان يمسك بموقع جبل حمرين؟ لقد وقف ليخسر كل شيء بين ذراع الدب (إشارة إلى الجيش الروسي) ومخلب الأسد (الجيش البريطاني). وفي البداية كنا نظن أنه اتخذ موقفاً من خلال ضرورة وضع ظهره إلى الجدار. لم تكن لديه طوافات كما علمنا، وكان يجمع المواد لعمل جسر له وقد جلب أحد الهاربين بعض الحكايات الحمقاء عن أحد المهندسين ضعفاء القلب الذين غادروهم في أثناء الهزيمة وتسلَّلوا إلى بغداد.

ثم سمعنا أنَّ الأتراك كانوا يجمعون الإمدادات لحملهم على الطريق المهجور بين كفري والموصل، وأخلى بشكل طارئ الأرض لنا. ومن الواضح لم يكن لدى الأتراك فرع كيو، وكانوا يعيشون في البلد ويحصلون على الإمدادات من أقصى الشرق من مندلي، كان ذلك جزءاً من عملهم لتطهير المنطقة قبل احتلالنا لها. ولكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم للتحرُّك وعرضوا برودتهم التي تتحد بشكل عام مع قوتهم. جئنا نحن لنتعلم بعد ذلك أنَّ قلعة جبل حمرين لم تكن سوى قوة تغطية لجيش في حالة انسحاب، وأصبحت حالاً الجزء الأكبر من الجيش نفسه.

وفي ليلة الثالث والعشرين من الشهر كانت خُطَّة عمليات الجنرال كيري هي القيام بجولة إلى الشرق مع اللواء التاسع والاستيلاء على مرتفعات جبال حمرين ودفع العدو إلى الوراء إلى ديالى، وترك اللواء الثامن يضغط على الجبهة حال أن

تصبح هذه الحركة مؤثرة. ولإحداث مفاجأة كان من الضروري أن تكون على التلال عند الفجر إلا أنَّ طبيعة البلد أحبطتنا. وأنَّ انقطاع المياه بين بغداد وشهربان ابتلعت الجزء الأكبر من موادنا للتجسير.

وكان الروز، الرافد الثالث الذي ينبغي أن نعبره ليلاً، قد استنفدها تماماً. لم يكن هناك شيء يمكن القيام به إلا طلب المزيد من الطوافات، التي قد وصلت في الرابع والعشرين من الشهر، وتم بناء الجسر في تلك الليلة. ولكن الكتمان، بطبيعة الحال، لم يعد ممكناً. وفي الصباح الباكر لاحظ طيارونا الأتراكَ ينقلون مدافعهم على طول سلسلة الجبال المواجهة إلى اللواء التاسع. وسجَّلوا النقطة حيث كنا نبني منحدراً للطريق بالتحديد، ومن الانثناءات المخفية في التلال تمكَّنوا من تأشير كل تحركاتنا. ولا يمكن الحصول على شيء عن طريق تغيير موقع الجسر وستكون مجرد مضيعة للوقت والعمل.

وعندما انفجرت إحدى القنابل الصغيرة على ارتفاع واطئ على الضفة، شعرت بعدم جدوى الحرب أكثر مما كنت قد فعلت طوال عام كامل. وفي هذه الحالات كنت قد نسيت أنَّنا كنا نقاتل، وتم مسك الهدف الكبير وتركه وراءنا. ولا أحد منا يتملَّكه الشعور بأنه مولع بالحرب جداً حيث السماء زرقاء وشجر الصفصاف والنهر الذي يجري كانت كربيع إنكليزي، وكانت الضفاف مشرقة بالخردل البري والبرسيم والأعشاب والكزبرة وشقائق النعمان القرمزية تتوهج من خلال الزجاج، وهناك سهل ما وراء النهر يرتبط بسلسلة من التلال الصخرية وراء ذلك مرة أخرى بأربعين ميلاً أو أكثر، والثلوج وتموُّج البلد في الوسط. وبدا من الصعب على رجالنا الذهاب لمهاجمة المواقع المحصَّنة بعد فترة هدوء من هذا القبيل. وبدأت الحرب من السهل المستوي تماماً حيث أصبحت نوعاً عادياً من الجحيم في هذه البقعة الخضراء وتبدو أقل مرحلية من كونها حقيقة خالدة أكثر من أي وقت مضى.

وفي الصباح الباكر وبعد رحلة في الظلام تابعت أنا أسلاك الهاتف من جسر الروز إلى ميدان المعركة في التلال. لا يمكن رؤية رأس أحد من البريطانيين والهنود أو الأتراك من الأرض المنبسطة، لكن السلك قادني فوق مرتفع مفاجئ إلى

تصبح هذه الحركة مؤثرة. ولإحداث مفاجأة كان من الضروري أن تكون على التلال عند الفجر إلا أنَّ طبيعة البلد أحبطتنا. وأنَّ انقطاع المياه بين بغداد وشهربان ابتلعت الجزء الأكبر من موادنا للتجسير.

وكان الروز، الرافد الثالث الذي ينبغي أن نعبره ليلاً، قد استنفدها تماماً. لم يكن هناك شيء يمكن القيام به إلا طلب المزيد من الطوافات، التي قد وصلت في الرابع والعشرين من الشهر، وتم بناء الجسر في تلك الليلة. ولكن الكتمان، بطبيعة الحال، لم يعد ممكناً. وفي الصباح الباكر لاحظ طيارونا الأتراكَ ينقلون مدافعهم على طول سلسلة الجبال المواجهة إلى اللواء التاسع. وسجَّلوا النقطة حيث كنا نبني منحدراً للطريق بالتحديد، ومن الانثناءات المخفية في التلال تمكَّنوا من تأشير كل تحركاتنا. ولا يمكن الحصول على شيء عن طريق تغيير موقع الجسر وستكون مجرد مضيعة للوقت والعمل.

وعندما انفجرت إحدى القنابل الصغيرة على ارتفاع واطئ على الضفة، شعرت بعدم جدوى الحرب أكثر مما كنت قد فعلت طوال عام كامل. وفي هذه الحالات كنت قد نسيت أنَّنا كنا نقاتل، وتم مسك الهدف الكبير وتركه وراءنا. ولا أحد منا يتملَّكه الشعور بأنه مولع بالحرب جداً حيث السماء زرقاء وشجر الصفصاف والنهر الذي يجري كانت كربيع إنكليزي، وكانت الضفاف مشرقة بالخردل البري والبرسيم والأعشاب والكزبرة وشقائق النعمان القرمزية تتوهج من خلال الزجاج، وهناك سهل ما وراء النهر يرتبط بسلسلة من التلال الصخرية وراء ذلك مرة أخرى بأربعين ميلاً أو أكثر، والثلوج وتموُّج البلد في الوسط. وبدا من الصعب على رجالنا الذهاب لمهاجمة المواقع المحصَّنة بعد فترة هدوء من هذا القبيل. وبدأت الحرب من السهل المستوي تماماً حيث أصبحت نوعاً عادياً من الجحيم في هذه البقعة الخضراء وتبدو أقل مرحلية من كونها حقيقة خالدة أكثر من أي وقت مضى.

وفي الصباح الباكر وبعد رحلة في الظلام تابعت أنا أسلاك الهاتف من جسر الروز إلى ميدان المعركة في التلال. لا يمكن رؤية رأس أحد من البريطانيين والهنود أو الأتراك من الأرض المنبسطة، لكن السلك قادني فوق مرتفع مفاجئ إلى

أحد أجنحة الكتيبة البورمية الثالثة والتسعين وإلى مقر اللواء التاسع. وأقامت القوة معسكراً لها على بعد خمسمئة ياردة من التلال في الساعة الواحدة والنصف. وفي الساعة الخامسة والنصف باشروا بالتقدم، وكانت الكتيبة الأولى من جنود الكوركا على اليسار وقوة الدورست في الوسط وكتيبة المهراتا على اليمين. واستدعيت كتيبة المشاة الخفيفة البورمية الثالثة والتسعين التي كانت في الاحتياط فيما بعد لإملاء الفراغ بين الكوركا والدورست، وإحدى سرايا كتيبة الرواد الرابعة والثمانين الذين قدموا للقيام بشق الطرق ونزلوا مع الكوركا على اليسار. وفي الساعة الحادية عشرة ظهرت فرقة الاحتياط من المانشسترز والبلوش الرابعة والعشرين من رأس الجسر من أجل تقديم الدعم.

وعندما ظهرت قوات الدورست والكوركا على قمة سلسلة التلال الأولى شوهد الأتراك يتسلَّلون بعيداً، ولكن من أجل التحشد والعودة مرة أخرى فقط. كانوا قوة متفوقة إلى حد كبير، وعندما وصلت إلى المكان بعد الساعة السابعة مباشرة أقاموا بالفعل تفوقاً في النيران. وأفاد العدو من معرفته بالأرض، وكان لديهم الوقت الكافي للاستطلاع، وكان الموقع مستمكناً بشكل جيد من المدفعية التابعة لهم. لم يكن لدينا إسناد مدفعي بسبب صعوبات الرصد. كان لدى رجال مدفعيتنا في السهل أهدافٌ جيدة، لكنه من المستحيل التمييز في هذا النظام المتشابك وغير النظامي من الهضاب والمنخفضات ما إذا كانوا قواتنا أم عدونا، وينبغي التخلي عن أعلام التأشير لتحديد موقعنا حيث يتلقَّون وابلاً من القذائف من الأتراك. وقام العدو في إحدى المرات بقصف كل طريقهم الخاص. وكانت انفجارات قنابلهم شاملة، واكتشفنا أن نيران القصف كانت هائلة بين الصخور، حيث إن كل شظية تتشظى من الحاجز الطبيعي أكثر مما كانت عليه في الطين في وادي نهر دجلة، وكان لدى رجال المدفعية الأتراك أرض أفضل. وكان بإمكان المدافع على سلسلة التلال الثانية والأكثر ارتفاعاً تحرير قمة السلسلة الأولى في التلال وتمنح مشاتهم إسناداً مدفعياً فعَّالاً، بينما تمر قذائفنا، إذا ما حرروا السلسلة الأولى من التلال، من فوق رؤوس العدو المشتبكة مع قوة المشاة التابعة لنا.

كان تغيير مشهد المعركة موضع ترحاب بعد الأرض السهلة في بلاد ما بين

النهرين وكانت الجبهة الشمالية الغربية مرة أخرى. كان علينا تكييف أنفسنا للتكتيكات الجديدة، أو بالأحرى لتكتيكات القتال الجبلي المألوف للجيش الهندي قبل الحرب ولم نكن قد أفدنا منها. وكان لدى القوة (د) بحلول هذا الوقت أكثر من تجسيد واحد. وإنه من الشك وجود جندي هندي واحد على جبل حمرين قد شهد حملة الجبهة. لم يكن لدى الاتراك خط دفاعي منتظم ولا يمكننا رؤية المكان الذي تقع فيه أجنحتهم. وتكيفت المفارز على الاشتباكات الصغيرة مع وعورة الأرض. لم تكن هناك خنادق وكان البلد وعراً يشبه السوالكس، وهي سلسلة من التلول المنخفضة ذات قمم مدورة وسفوح تتلاشى بعيداً- مشهد وعر متموج مع عدد قليل من الخطوط المتواصلة. وتكمن الخطورة في أنها ليست مفارز الاشتباك التي صعدت فوق السلسلة الجبلية التي ينبغي أن نخاف منها، بل إنها كانت المفارز العاملة حول الجناح. ولا يمكنك القول: إنَّكَ على الأرض الحرام أم تعرَّضت إلى نيران من بعض الأطراف الناشئة من سلسلة التلال المقابلة حتى تأتي الطلقات تهدر. وثبَّتنا تقدُّمنا في الفجر على الخط الأول من القمم الجبلية، وكان هناك خط دفاعي ثانٍ على بعد نحو ألفين وخمسمئة ياردة وينتهي جناحه عند طريق خانقين، ويبدو أن العدو كان يتحشد على خط دفاعي في منتصف الطريق بينهما، وكانت هناك مفارز اشتباك أمامنا في كل مكان بين مئة وخمسين وألف وخمسمئة ياردة.

ضربت إحدى الهضاب الصغيرة التي يمسك بها فصيل مختلط من جنود المهراتا والدورست، سوية مرة أخرى كما كان في عام 1914، وبإمرة أحد الضباط الذي كان قد أصيب بجروح في المدائن. أصيب برصاصة أخرى في ذراعه قبل دقائق عدَّة وكان أحد الجنود الشباب يطلق ضربات خفيفة من بندقية على بعض الأفراد ذوي اللون الأسمر الذين كانوا يعبرون سلسلة التلول على مدى بعيد. كان مجرد شاب لم يبلغ بعد العشرين عاماً. وكان منهمكاً بسلاحه كما لو أنه في لعبة جديدة. ولا أحد يعرف ما يخفيه الضعف بيننا وبينهم. دخل الأتراك مع إحدى الرشاشات بيننا وإحدى السرايا على أعلى أرض على جهة اليمين وهاجموهم وأجبروهم على التراجع، وأجبروهم على الاندفاع إلى سلسلة تلال أخرى أقرب إلينا، وقد شاهدنا الحامية تتراجع- وبعيداً من الجهة اليمنى استولت قوة أخرى من نصف كتيبة المئة وخمسة

على أحد التلول في أقصى الجناح. وعلى الجانب الأيسر، استولت قوات الكوركا على أرض أكثر ارتفاعاً. وعملت إحدى المفارز التركية بسرية إلى أن وصلت ضمن القصف المدفعي. وتحول هذا بدون شك لإقناعنا إلى سحب القوات من النقطة المقابلة التي يتم إعداد الضربة الرئيسة لهم على يمين قواتنا. ولكن الجنرال كامبل استمر في خط دفاعي مستوٍ إلى أبعد ما يمكن بدون إضعاف أية نقطة. وبدا الأمر مثل طريق مسدود وقتال يوم صعب ولربما انسحاب في الليل.

وفي حرارة النهار، شعرت بالصخرة المحرقة مقارنة مع النهر وظل أشجار الصفصاف على بعد ميلين إلى الغرب، حيث كان الجندي التابع لي ينتظرني مع حصاني وغدائي. ولم نسمع بالانسحاب إلّا بعد الساعة الثالثة، وكان التنويه الأول منه هو أن الحاجز الناري لمدفعية العدو تندفع ببطء نحونا في السهل. وكانت قواتنا من المشاة تحت هذه النيران وكانوا قريبين جداً من أن يتوقفوا.

وفي الساعة الواحدة رُصِدَ العدو وهو يعمل حول جناحنا الأيمن. وفي الساعة الثانية، تم نُفِّذ هجومان على الوسط واليمين. وأرغمت حركة تغطية أخرى على اليمين إلى انسحاب محلي وتعرَّض جناحنا الأيسر إلى هجمات جديدة وفقد أرضاً لكنه استعادها مرة أخرى. وفي الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة شوهِدَت تعزيزات كبيرة تتنقل من أجل القيام بهجوم مضاد، كما شوهد صفٌ بعد صف من الحراب المثبتة، سحبها العدو على ما يبدو من احتياطات خانقين. وصدر أمر بالانسحاب العام. وقاتلت قوات المانشسترز على اليمين والكتيبة الثالثة والتسعون في الوسط وكتيبة البلوش الرابعة والعشرون بعد المئة على اليسار في معركة دفاعية. قام العدو بمحاولة بمتابعة انسحاب قوات المشاة الذين قاموا بتغطية الانسحاب، وقد صُدَّت بسهولة. وفي الساعة الثالثة والنصف قامت قوات الخيَّالة التركية على يميننا بإعادة التنظيم استعداداً للهجوم، إلا أنهم فُرِّقوا بنيران البنادق والرشاشات من كتيبة اللانسرز الثالثة عشرة والبطارية التي تقوم بحماية جناحها. كان لدى مشاتنا ثلاثة أميال من الأرض المنبسطة لتغطيتها وقد اكتسحتها نيران القصف المدفعي للعدو. وكان الحاجز الناري المدفعي لاثنين وعشرين مدفعاً موجهاً بشكل جيد، وكانت النيران في الغالب تتشظى ولولا نجاح الهجوم في الصباح ودفع العدو إلى الوراء

على طول السلسلة الجبلية لكان علينا أن نستدعي دعم جميع مدفعيتنا والتي باستثناء بطارية المدفعية الثامنة عشرة وجزء من كتيبة (أر.أج.أي) كانت في معركة قريبة من طريق خانقين لمقاومة مدافع العدو، لكنها كانت تحمل مخاطر كبيرة جداً لدفع بطارياتنا عبر روز حتى إكمال الجسر الثاني، وهو تأكيد بأن هذا الهجوم كان قد شن بشكل تجريبي وبدون أمل كبير في تحقيق النجاح.

كانت نيران العدو كثيفة بشكل خاص على الجسرين فوق قنوات الهارونية وروز على الطريق بينها. وفقد الجسر التاسع تقريباً ثلث خطوط النقل الأولى. وكانت مجمل خسائر القوة/ اللواء التاسع وكتيبتي الإسناد من اللواء الثامن قد بلغت (1، 177) فرداً، وهي أكثر من ثلث القوات المشاركة وإنه لأول مرة خلال عام تقريباً تضمَّن سجل الشرف نسبة كبيرة من المفقودين، وكان العديد منهم من الرجال الجرحى الذين ينبغي لنا أن نتركهم وراءنا لدى الانسحاب.

كان جبل حمرين معكوساً ولكن لم تكن هناك مساعدة له وينبغي علينا أن ننتهز الفرصة. وكان لدى الأتراك قوة كبيرة جداً ومنضبطة بشكل جيد جداً وموجهة بشكل جيد لإخراجها من المواقع القوية واحدة تلو الأخرى وصدهم عن النهر. وتم استدعاء الاحتياط من خانقين، وكان لديهم ستة آلاف بندقية من الرجال المنتخبين كما أخبرنا أسراهم و250 سيفاً و24 مدفعاً. كانت معنوياتهم جيدة، ولم يكن بالإمكان إخراجهم بسهولة. ولكن كان من الضروري إجراء المحاولة مقابل القوات الأخرى ذات الطبيعة الأقل عناداً ولربما نجح الهجوم. إنَّ الإحباط الناجم عن التقهقر كان معدياً، وإنه لشيء مألوف في التاريخ العسكري أن الخوف من التطويق يضعف مسك أحد الجيوش لأقوى المواقع. وإن الجنرال الذي لم يستغل ضعف الخصم في مثل هذه الظروف أو الذي يتردد في التصرف بناءً عليه سيفتقر إلى المبادرة.

وفي جميع الأحوال تمت الدعوة إلى شن الهجوم، وإذا كان الهجوم قد حقق نجاحاً جزئياً، نأمل أن نستطيع التحصن على المرتفعات ولتثبيت العدو على أرضه بشكل قريب جداً بحيث إن أية محاولة للانسحاب ستعرض مؤخرة الجيش بأكملها للخطر. ولكن الإمدادات العسكرية من خانقين جعلت حتى هذا الخيار البديل غير قابل للتطبيق، وينبغي علينا احتلال الخط الدفاعي في روز مرة أخرى.

كنا خلال الأيام القليلة التالية في حيرة مستمرة بالنسبة إلى كل تحركات الأتراك ونواياهم وتقدم الروس.

كان معظم الفيلق التركي الثالث عشر عبر نهر ديالى في ذلك الحين وتحول إلى جهة الجنوب الغربي بهدف الانضمام مع القوة التركية على نهر دجلة في حي دلتاوة إلا أن هذه الحركة باءت بالفشل. واشتبكنا في القتال مع القوتين بالتفصيل وتمت ملاقاة قوة دجلة وإلحاق الهزيمة بها وإجبارها على التقهقر إلى شط العظيم في دوغامي في التاسع والعشرين من شهر آذار، بينما تصدَّت قوات الخيالة التابعة لنا، التي تحرَّكت بسرعة على الضفة اليمنى من نهر ديالى، إلى فرقة معادية في منطقة دلي عباس وتعاونت مدفعيتنا والخيول والميدان بشكل مؤثر من الضفة اليمنى معها.

أُطلِق على معركة دوغامي اسم معركة السهل الطيني، وكانت الأرض حيث جرى التقدم إلى الشرق من القاع الجاف لقناة نروان أكثر حرارة، مجازياً إن لم تكن حرفياً، من الطين الحارق التي استقبلت لوسيفير ومضيفه المنهار. وكان سطحها ناعماً كالسائل الذي تجمَّد في ليلة هادئة، وهناك امتدادات حيث لا يمكنك إيجاد تفاوت. وكانت على هذه الأرض تعرض اللواءان التاسع والثلاثون والأربعون إلى هجوم جبهوي. كان اللواء الأربعون سيقوم بهجوم إعاقة، لكي يتم دفعه إلى الوطن إذا سمحت الظروف، بينما قام اللواء التاسع والثلاثون بحركة التفاف على الجناح الأيسر للقوات التركية. ووجدوا جناح العدو، على أية حال، ممتداً أكثر مما يجب للالتفاف عليه، وينبغي عليهم الدخول إلى الجبهة. وشن اللواءان هجوماً على هذا السهل الترابي على أرضية صلبة وحققت كتيبة ويلتس الخامسة تقدُّماً بارزاً على الألف ياردة الأخيرة من الأرض المنبسطة. وبدؤوا بالخمسمئة ياردة بقوة، على الرغم من أنهم كانوا أقوى فوج في اللواء، وتم إنزال (195) جندياً بضمنهم سبعة ضباط ولكنهم دخلوا وأزاحوا الأتراك من خطهم الدفاعي أمام الموقع. وكان موقع الخط الدفاعي الرئيس التركي ما زال غير مؤكد، وكانت الأوامر قد صدرت إلى اللواء الأربعين بعدم إجراء المزيد من التقدم لحد معركة اللواء التاسع والثلاثين. ووجد اللواء التاسع والثلاثون بعد مسيرة عشرة أميال في أثناء الليل أنفسهم لا يزالون على مسافة من الأطلال. وفُحِصَ التقدم عن طريق المناوشات مع العدو التي أخرجت

بشكل جيد إلى الشرق، ولم يتم تنفيذ الهجوم على الخط الرئيس حتى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. وكانت الكتائب الحاضرة مع اللواء وهي كتيبة ورروكس الملكية التاسعة والكلوسترز السابعة وفورت ستافوردز السابعة قد اشتركت جميعاً. ونُفِّذَ التقدم وحصلت الكتائب الثلاث على أهدافها وأسرت (130) جندياً. وتراجع الأتراك خلال الليل إلى شط العظيم، وحُقِّقَت النتيجة المطلوبة من المعركة وهي منع التحام الفيلق الثالث عشر مع الفيلق الثامن عشر التركيين.

بعد هزيمة قوة دجلة التابعة لهم، انسحبت الفرقة التي كانت في منطقة دلي عباس إلى التلول والتحقت مع باقي القوات التركية القادمة من بلاد فارس. واحتلت قواتنا القرية في فجر يوم الحادي والثلاثين من شهر آذار. وفي اليوم نفسه، أخلى العدو جبل حمرين على الضفة اليسرى من نهر ديالى. وقد أُكمِلَ معبر ديالى، وكان يعتقد أن العدو كان ينسحب إلى الموصل على طول طريق كفري. ومن الواضح أن هذه الحركة كانت متوقعة إلى أن يتم تسليم الاستراتيجية الأكثر جرأة للقيام بهجوم على رتلنا على الضفة اليسرى من نهر دجلة إلى القائد التركي إحسان بك.

تقدَّم اللواء الثامن في الأول من شهر نيسان بعد الاستطلاع للالتحاق بالروس. وكانت التقارير عن مكان وجود قوات القوزاق لا تزال متضاربة لعدم وجود اتصال لاسلكي معهم، وينبغي على سائقي الدراجات التناوب لحمل البرقيات إلى مقرات على مراحل عدة على الطريق قبل أن تنتقل الرسالة إلى بغداد.

حدثت المواجهة الدراماتيكية لجيوش الحلفاء التي كنا نتوقعها منذ فترة طويلة في كيزيل روبات في الثاني من شهر نيسان، وقد رُصِدَت مجموعة صغيرة من الفرسان في الأفق متوجهين نحونا. واستدعينا الجنرال إدواردز الذي كان في قيادة الرتل ويعتقد أنهم بمستوى سرية خيَّالة ويحملون أعلاماً زرقاء وبيضاء وسرية خيالة من كتيبة لانسرز الثالثة عشرة التي اندفعت إلى الأمام، ونقلوا على شكل طابور وأدوا التحية العسكرية، وعادوا إلى الوراء وجلبوا الروس إلى المخيم.

كانت قوات الكوساكس التي أُرسِلَت إلى الأمام لإقامة اتصالات بعيدة في وقت مبكر من القوة الرئيسة. وعبرت الحدود الفارسية في قصر شيرين قبل يوم، وأقاموا

معسكراً لهم في الليل على بعد عشرة أميال إلى الشمال الشرقي من كيزيل روبات. وجاؤوا مشياً على الأقدام وراكبين وأيديهم إلى الأسفل والأعقاب إلى الأعلى، ويميلون إلى الأمام، ويرتكز وزنهم على ركبهم ويرتدون الأحذية الطويلة (الجزم) وقبعات من جلد الغنم. وفضلاً عن بنادقهم كانوا يحملون السكاكين والسيوف القوقازية المقوسة. وتبدو خيلهم صغيرة دون أربع عشرة قبضة يد ارتفاعاً (وهي وحدة تساوي أربعة أنجات لقياس ارتفاع الخيل)، وهي نحيفة ومنهكة القوى ومحملة بشكل ثقيل بالسلاح، ويتم إطعامها على الأوراق الجافة من شجر البلوط. لم تكن هناك حبوب قمح ولا وسائل نقل وقد خُفِّضَت القوات إلى جنديين في اليوم، وكانت لديهم رحلة صعبة من همذان، من خلال بلد غير مضياف ويمر على الجليد إلى الأسفل إلى الحرارة الحارقة في الوديان وسفوح الجبال. كان البلد بين كرمنشاه وخانقين غير مسكون وكانت سبعة جيوش قد مرت فيه خلال عشرة أشهر. وكانت القرية مهجورة ولا توجد تجهيزات حتى في المناطق التي كانت أقل تلفاً، كان الجيشان يعتمدان على البلد الذي يمكنه بالكاد تقديم الدعم إلى لواء.

كان تراجع الجيش التركي من همذان منظماً جداً، وبدأ الجيش الروسي من القوقاز يشعر بالعجز الذي يجب سلب حيوية ماكنة قتاله عندما بدأ الاقتصاد الداخلي للبلد بالانهيار. وفي نهاية شهر شباط علموا أنَّ التقدم البريطاني كان يضغط باتجاه بغداد، وكان الأتراك أمامهم مع وسائل اتصالاتهم كانت مهددة في الجناح، وينبغي عليهم أن يتراجعوا. ومع ذلك لم تكن لديهم خطة ولم يكونوا على استعداد لمتابعة العدو ومضايقة عملية انسحابه بشكل جدي. ولم يعد نظام نقل منظم موجوداً، وبالتالي كان الأتراك قادرين على التراجع بأقل الخسائر التي لحقت بهم على الرغم من أنَّ الجوع والمرض والإنهاك أخذ معظمهم، واقتصر القتال على عمل المدفعية ونيران البنادق والرشاشات على مدى طويل جداً. لم يكن هناك قتال بالحراب باستثناء في حالة أحد الأفواج عندما استمر الأتراك بالملاحقة ثلاثة أيام على الخط الدفاعي في قره سو أمام كرمنشاه. وعبرت قوات القوزاق مجرى النهر في الليل بالقرب من طاق البستان وهاجمت الأتراك في خطوطهم الدفاعية. وطوّق عبور ثانٍ جناح العدو. ولكن كان لدى الأتراك وقت

كافٍ لإخلاء جرحاهم، وقبل المغادرة قاموا بتدمير القنصليات البريطانية والروسية التي كانت عندما دخل حلفاؤنا المدينة. وتمت مواصلة المتابعة مرة أخرى في (نال سيخان باس) ومرة أخرى في طاق قره حيث استولى الأتراك على الممر الضيق لمدة عشرة أيام حيث يحث على التوقف على يمين الطريق على بعد ميلين ونصف إلى الأعلى من (ساخاديساخا). وينبغي علينا المرور بذلك الطريق بأنفسنا بأقل من سنة على الطريق إلى بحر قزوين. وكانت أقوى نقطة طريق بابل-أكباتانا القديم، وبدون شك اعتادت الجيوش على الاستيلاء عليه قبل أيام من داريوس والهيستاسبس (وهما قادة بلاد فارس في عام 550 قبل الميلاد).

عانى الأتراك من خسائر فادحة نتيجة المرض والإرهاق وتناثرت البغال والخيول والجمال والحمير والجاموس الميتة على طول الطريق. وقد وضعت رتبهم العسكرية من جراء التيفوئيد وتقرحت أقدام قوات المشاة، واستمرت أحذيتهم الخفيفة لبضعة أيام فقط، وذهب معظمهم حافي القدمين. وسقط العديد منهم نتيجة الإرهاق وشهدت المقابر في كل قرية آثار قبور جديدة، وقد أُحصي ما يقرب من ألف قبر في كرمنشاه وحدها. وامتلأت البلاد بالهاربين وكان العديد من الضباط الأتراك والمراتب قد تراجعوا بعيداً في أثناء عملية الانسحاب. ووصف الناس في خانقين المشهد الذي طرد فيه دفعات منهم على الجسر من ضباط يشيرون بمسدساتهم. وفي كرمنشاه، هرب بقايا السجناء الفرنسيين من أصل جزائري ومغربي الذين أُعجِبوا بالعمل الريادي والتحقوا مع القوات الروسية. دمر الأتراك كل شيء في أثناء انسحابهم وهدموا محطة التلغراف الأوروبية في قصر شيرين والقنصليتين الروسية والبريطانية والبنك الإمبراطوري لبلاد فارس وأغلب الجسور على الطريق وأشبعوا غرائزهم من الخراب الذي يبدو أنه يدل على أنهم ليس لديهم أمل في العودة. وتناول الضباط الروس الثلاثة الغداء معنا وشربنا بصحبة الجيش الروسي آخر زجاجة شراب لدينا. وبعد الظهر جلب لنا رتل صغير من السيارات لحم بقر وحصة البسكويت والمربى والتمر واستمتعوا بأفضل وجبة كانوا قد تناولوها على مدى شهر. وكانت قوات القوقاز قساة وقد نجوا من العاصفة وهم حشد مبتهج وتآخوا سريعاً مع قواتنا. وبدت رموشهم الجميلة وشواربهم تقريباً بيضاء مقابل لون بشرتهم

الحمراء، مما يمنحهم مظهراً شمالياً مألوفاً مقبولاً في أعيننا بعد بلاد ما بين النهرين. وفي المساء عادوا إلى قصر شيرين، وكانت خيولهم النحيفة والصغيرة تتعثر تحت وطأة أحمالهم، ولم نشاهدهم بعد ذلك. ووصلنا نحن أيضاً إلى نهاية المطاف في النقل وعدنا سيراً على الأقدام في الليلة نفسها إلى جبل حمرين، وفي اليوم التالي إلى شهربان ومن ثم إلى بعقوبة حيث أقمنا موقعاً قوياً.

وحصلنا على هدفنا المباشر وكانت بلاد فارس خالية من الأتراك ولم يبقَ هناك عدو شرق نهر دجلة. ولكننا كنا رتلاً مصابين بخيبة أمل وخرجنا بخُفَّي حُنين. كانت قوات الفيلق الثالث عشر قد أنقذت نفسها، ولم تكن قد هوجمت بشكل عنيف، توقَّعنا الكثير عن الروس وعن هجومنا المشترك. ولم نكسب الراحة من أي وعد مجرد من الإنسانية المحررة بأنه قد يتم إعلان الثورة في تبروغراد. وإن كل ما أردناه في ذلك الحين هو القوة لتوجيه ضربات قوية ضد الأتراك. ولو أن الروس نزلوا بقوتهم إلى الموصل وديار بكر وخانقين، بينما كنا نحن نندفع إلى الشمال من غزة وبغداد- ولو كانت لديهم نصف الحيوية قبل ثمانية عشر شهراً، لكنا قد ألحقنا الشلل والهزيمة بالأتراك الذين ستصبح فائدتهم للجنود الألمان لا تذكر، أو هكذا كنا نعتقد. وقد لا تأتي الفرصة مرة أخرى، وجعلتنا الأسئلة عن الاستبداد والديمقراطية ضعفاء. وشاهدنا فقط هذه القوات الباسلة التي لديها القابلية على التحمل لفترة طويلة تعاني من الجوع والإهمال في أزمة وقد قررت النضال الذي من أجله دفعنا نحن وهم الثمن باهظاً في التضحية والدماء.

الفصل الخامس والثلاثون

شط العظيم

عندما عبر الفيلق الثالث عشر نهر ديالى كان قادراً على أن يتخذ وضعاً هجومياً. كان قائد الفيلق إحسان بك واحداً من أكثر الجنرالات الأتراك كفاءة، وهو رجل ذو مبادرة عظيمة وسريع في اغتنام الفرص. وكان هدفه الآن تهديد الجناح الأيمن للجنرال مود من أجل إفشال تقدم رتل دجلة التابع لنا إلى سامراء أو تأخيره. لم يكن بإمكان الفرقة السابعة التقدم على طول خط السكة الحديد على الضفة اليمنى إلى أن تُحرَّر الضفة اليسرى من العدو. وهكذا، وبعد معركة المشيهيدة في الرابع عشر من آذار تمت الدعوة إلى التوقف في هذا الجانب إلى أن اكتسِحَت الضفة اليسرى من نهر ديالى وخاضوا معركة دوغمة التي فيها أُجبِرَ الجناح الأيسر من فيلق دجلة التابع للعدو على التراجع إلى شط العظيم بينما كبحت قواتنا من الخيالة الفرقة التركية في منطقة دلي عباس ومنعت التحام القوتين.

ومع تحرير الضفة اليسرى إلى شط العظيم أصبح بإمكاننا مواصلة التقدم على طول الضفة اليمنى. وفي السادس من شهر نيسان تقدمت الفرقة السابعة على طول الخط إلى منطقة سميجة، وكان العدو يتراجع أمامهم، وفي الثامن منه، في عيد فصح الأحد احتل اللواء الثامن والعشرون محطة وقرية بلد بعد معركة سريعة مع مؤخرة الجيش التركي. كانت لدى الأتراك رشاشات منصَّبة على بنايات المحطة، لكن قوات كتيبة السيخ الثالثة والخمسين والليسترز هاجمت المكان بخسائر بلغت ثمانين رجلًا فقط وأسرت مئتي جندي منهم من الروابي الواطئة خلفها.

استمر التقدم في التاسع من الشهر إلى منطقة حربة، وهنا كانت موارد قطار المؤونة قد استنزفت وقد استهلك الرتل (120) طناً في اليوم، وكان النقل مطلوباً.

الفصل الخامس والثلاثون

شط العظيم

عندما عبر الفيلق الثالث عشر نهر ديالى كان قادراً على أن يتخذ وضعاً هجومياً. كان قائد الفيلق إحسان بك واحداً من أكثر الجنرالات الأتراك كفاءة، وهو رجل ذو مبادرة عظيمة وسريع في اغتنام الفرص. وكان هدفه الآن تهديد الجناح الأيمن للجنرال مود من أجل إفشال تقدم رتل دجلة التابع لنا إلى سامراء أو تأخيره. لم يكن بإمكان الفرقة السابعة التقدم على طول خط السكة الحديد على الضفة اليمنى إلى أن تُحرَّر الضفة اليسرى من العدو. وهكذا، وبعد معركة المشيهيدة في الرابع عشر من آذار تمت الدعوة إلى التوقف في هذا الجانب إلى أن اكتسِحَت الضفة اليسرى من نهر ديالى وخاضوا معركة دوغمة التي فيها أُجبِرَ الجناح الأيسر من فيلق دجلة التابع للعدو على التراجع إلى شط العظيم بينما كبحت قواتنا من الخيالة الفرقة التركية في منطقة دلي عباس ومنعت التحام القوتين.

ومع تحرير الضفة اليسرى إلى شط العظيم أصبح بإمكاننا مواصلة التقدم على طول الضفة اليمنى. وفي السادس من شهر نيسان تقدمت الفرقة السابعة على طول الخط إلى منطقة سميجة، وكان العدو يتراجع أمامهم، وفي الثامن منه، في عيد فصح الأحد احتل اللواء الثامن والعشرون محطة وقرية بلد بعد معركة سريعة مع مؤخرة الجيش التركي. كانت لدى الأتراك رشاشات منصَّبة على بنايات المحطة، لكن قوات كتيبة السيخ الثالثة والخمسين والليسترز هاجمت المكان بخسائر بلغت ثمانين رجلًا فقط وأسرت مئتي جندي منهم من الروابي الواطئة خلفها.

استمر التقدم في التاسع من الشهر إلى منطقة حربة، وهنا كانت موارد قطار المؤونة قد استنزفت وقد استهلك الرتل (120) طناً في اليوم، وكان النقل مطلوباً.

وكان المنبع في قلعة كيرمي من حيث أرسلت المؤن إلى سميجة بالعربات. ولكن الأتراك في منطقة حربة تركوا وراءهم شاحنات كبيرة على جانب خط يصل إلى أراضٍ حصباء مملوءة بالحفر. وإلى هذه الشاحنات تم تسخير رتل بغال الذخيرة واستدعاء وسائل نقل (كاتي) السريعة، بوصفها حلقة الوصل الجديدة في وسائل الاتصالات، بعد أن منحنا ضابط النقل الذي أنشأها قابلية الحركة الإضافية التي نحتاجها. ولولا هذه الوسيلة المفاجئة بفضل الله لم يكن بمقدورنا مهاجمة سامراء في شهر نيسان.

على أية حال، توقَّف التقدم في منطقة حربة لمدة أسبوع في حين يجري نشر تحشيدات معادية على الضفة اليسرى. وكان إحسان بك والفيلق الثالث عشر نشطين مرة أخرى ويستعدون لشن هجوم مباغت على رتلنا على نهر دجلة من قاعدتهم في سلسلة جبال حمرين. كانت الحركة متوقعة، ورجع الأتراك إلى التلال. وتزامنت عمليات صد هجمات العدو شرق نهر دجلة مع تقدمنا على طول خط السكك الحديد. من هذه النقطة، سأتعامل مع العمليات بشكل منفصل، وسأختم الفصل الحالي مع القتال على شط العظيم وسأبقي قصة تَقَدُّم الفرقة السابعة إلى سامراء إلى فصل مستقل.

كان الفيلق الثالث والجنرال مارشال على الضفة اليسرى، وكانت الفرقة الثالثة عشرة بإمرة الجنرال كايلي والفرقة الرابعة عشرة بإمرة الجنرال أيكرتون. كانت القوات المقابلة لها هي رتل الضفة اليسرى من الفيلق الثامن عشر التركي على نهر دجلة والفيلق الثالث عشر الذي كانت قاعدته في جبل حمرين. وكان هدف الجنرال مود هو منع الأتراك في جبل حمرين من الالتحام مع رتل نهر دجلة الذي يشكِّل الجناح الأيسر لقواتهم. وشاهدنا في الفصل السابق كيف أن الغارة الأولى من جبل حمرين، التي كانت جزءاً من حركة التقاء العدو الفاشلة في دلتاوة قد صُدَّت من فرقة الخيالة، بينما كانت القوة التي تنوي الالتحام عند نهر دجلة مشغولة في القتال في دوغمة وأُجبِرَت على التراجع إلى شط العظيم. كان الأتراك الآن متحصنين على الضفة الشمالية من شط العظيم قرب نقطة التقائه مع نهر دجلة، وينوون مقاومة عبورنا. كان من الضروري تشتيت هذه القوة من أجل فتح الطريق أمام وسائل نقلنا

النهرية، وكذلك لحماية الفرقة السابعة في تقدمها على طول الضفة اليمنى من النيران المنتظمة التي تطلق من عبر النهر. ولكن علينا في البداية عبور شط العظيم بالقوة[1].

كان القصد عبور شط العظيم في ليل الحادي عشر من شهر نيسان، ولكن في اليوم العاشر ذكرت فرقة الخيَّالة أن الأتراك كانوا يتقدمون بقوة قادمة من جبل حمرين. واستلزم هذا تأجيل العمليات على شط العظيم، بينما أُرسِلَ لواءان، هما اللواء التاسع والثلاثون واللواء الأربعون عبر الصحراء لدعم فرقة الخيَّالة التي كانت في حينها تقوم بصد رتل إحسان بيك، وتنسحب ببطء وتعالج الخطوط الدفاعية واحداً تلو الآخر غرب ديالى. بينما كانت قوات الخيالة تتراجع أمام هذه القوة من المشاة، حوَّل إحسان بيك الفرقة التركية الثانية بأكملها بإدارة جناحها وأخذه إلى الخلف. وكان هذا الرتل يقترب من نقطة التمحور التي منها كان ينبغي أن يقع في الفخ خلف قوات الخيَّالة عندما يلتقي مع اللواءين التاسع والثلاثين والأربعين، اللذين قاما بمسيرة ليلية لمسافة عشرين ميلاً عبر الصحراء من شط العظيم. وكانت النتيجة نشوب معركة غير متوقَّعة في العراء وقد كانت نادرة في القتال الحديث، ومن غير المحتمل أن تحدث مثل هذه المعركة ما لم يكن أحد الأطراف يجهل تقدم الطرف الآخر. والتقت القوتان في نقطة بالقرب من منطقة شيالة التي تبعد في الأقل عشرين ميلاً من مواقعهم الأخيرة المحصَّنة، وكان هناك تسابق لأقرب ظهور وهو درجة ميل كافية، ولكنها كانت الجزء المهيمن الوحيد من الأرض في السهل. وكانت موجة الفولاذ والخاكي، عندما تقدَّمت قوات التشايرز ورويال ويلش فوسيلرز على قمة المنحدر، الإشارة الأولى لدى الأتراك عن وجود قوة معادية ضمن عشرين ميلاً بدلاً من تلك التي كانت تزحف ضدها. وكان وصول لواءين من قواتنا إلى المكان في اللحظة المناسبة دليلاً على العمل الجيد لمعلومات استخباراتنا، التي أصبحت تقريباً ممتازة في الحقيقة والتي بها أحبطت كل حركة للعدو.

انسحبت قوات الخيَّالة خلال تقدُّم مشاتنا. وعندما وصلت الكتيبتان إلى السلسلة الجبلية واجهت نيراناً كثيفة ومذهلة. لا يزال على الأتراك تغطية مساحة مئة ياردة

---

(1) أنا مدين للسيد جي.أي ساندبروك لوصفه القتال على شط العظيم، واقتبست جزءاً منه.

وجاؤوا على شكل أمواج ويبدون بأعداد هائلة في السراب. صوبت قوات مشاتنا نيران أسلحتها مع تثبيت الحراب عليها، وأوقفت نيرانهم المتواصلة مع الدعم المدفعي تقدم العدو. وأدرك العقيد بيك قائد اللواء الخامس والخمسين الأهمية الفائقة للسلسلة الجبلية، نقل بطارياته بسرعة إلى مسافة ثمانمئة ياردة من قوات المشاة ودخل المعركة من مسافة ألف وخمسمئة ياردة. كانت هذه المعركة حاسمة وحقّقنا بالتدريج التفوق في النيران. تراجع الأتراك إلى مسافة مئتين إلى ثلاثمئة ياردة إلى الخلف، وتمسّكوا بهذا الخط الدفاعي، في أحد الوديان الضحلة طول النهار. وقبل بزوغ الفجر من اليوم الثاني عشر من الشهر، انسحبوا تاركين ثلاثمئة وخمس عشرة جثة من قتلاهم في الميدان، واتخذوا موقعاً محصّناً جديداً في منطقة بنات الحسن على بعد ستة أميال إلى الشمال الشرقي. وأجبروا على الخروج منه في الثالث عشر من الشهر ذاته، والذي كان يوم رجال المدفعية، وحسمت معركة يوم الحادي عشر القضية. وفي الأيام (الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر) تطوّر القتال إلى معركة متواصلة، وكان الأتراك يتراجعون أمامنا. وكانت قوات المشاة نادراً ما تكون في تماس، على الرغم من سقوط إصابات جراء نيران مدفعية العدو بعيدة المدى. وتقدم اللواء الأربعون إلى اليسار بينما كان اللواء الخامس والثلاثون على اليمين والقوات المتحمسة البفس في المقدمة واستولت على منطقة بنات الحسن بالهجوم. وكان انسحاب الأتراك منظماً بشكل جيد جداً. واحتفظوا بأساليبهم الحربية القديمة لمؤخرة الجيش وهم يمسكون بسلسلة من مواضع البنادق تتخذ شكل مدرجات إلى عمق كبير، ويمكن إطلاق النار من خلال بعضها إلى البعض الآخر، ولم توفر هدفاً محدداً باستثناء خسارة فادحة مؤكدة للهجوم، بينما أُخفيت رشاشاتهم بمهارة عالية، وهي تصب رشقات نيران متقطِّعة. وفي مساء اليوم الثالث عشر تقدمت كتيبة رويال ويلش فوسيليرز إلى حدود ستمئة ياردة من موقعهم. تراجع الأتراك ليلاً، وفي صباح اليوم الرابع عشر استولوا على خط دفاعي جديد في منطقة سراجق على بعد ألف وخمسمئة ياردة أمام مشاتنا. وفي وقت مبكر من الصباح استمكنت مدفعيتنا موقعهم بينما التفّت قواتنا الخيّالة حول جناحهم. وفي المساء أطلقت مدفعيتنا حاجزاً نارياً كثيفاً على خنادقهم وحصلت رشاشاتنا على هدف جيد لدى تراجعهم، وقبل غياب

الشمس لاحظوا تطوراً آخرعلى يمينهم. لقد كان اللواء الأربعون يقوم بحركة التفاف مختلفة مع الكثير من الضوضاء والتراب وبعثرة العربات الفارغة، وقبل طلوع الفجر من يوم الخامس عشر احتموا وراء التلال.

كان جناحنا الآن واضحاً في العظيم، واستعد اللواء الثامن والثلاثون لعبور النهر على بعد أميال عدة من نقطة التقائه مع نهر دجلة. كان الموقع التركي المواجه لنا من الشرق والشمال قوياً، وكانت هناك فرصة ضئيلة لتحقيق نتائج حاسمة بالقيام بحركة التفاف من الشمال وعلى بعد مسافة إلى الشمال، على أية حال، كانت هناك حامية قديمة (أ)، بعد ذلك، كان السبيل الوحيد لعبور مجرى النهر هو بدون زوارق. واكتشفت الاستطلاعات إلى أسفل مجرى النهر قليلاً وجود حامية أخرى (ب). وحدث العبور الحقيقي هنا بينما كانت مسيرة عسكرية قد جرت إلى الحامية القديمة، التي كانت نيران العدو موجهة ضدها، بينما قمنا نحن بالعبور إلى الأسفل من مجرى النهر بدون خسائر. وفي هذه الأثناء ازداد شك الأتراك وذهولهم من جرَّاء إحدى المناورات من قوات الخيالة. وبإسناد من إحدى بطاريات مدفعية الميدان تقدم لواء الفرسان الكاسلز إلى أعلى مجرى النهر وشكَّل تهديداً للجناح الأيسر للعدو. وتعلَّم الأتراك أن يتوقَّعوا ويستعدُّوا لعملية الالتفاف، ولكن في هذه المرة كانت خطة الجنرال مارشال هي خطة اختراق مركزة. وضع قائد الفيلق وسائل حربية بديلة لإرباك العدو وعمل دائماً الشيء غير المتوقع. وبينما كانت قوات نورث لانكشايرز تقوم بعملية العبور مع بعض التباهي واحتلال قمة الأرض المرتفعة التي مكَّنتهم من احتواء العدو، كان قد حدث عبور أكثر أهمية (سي) من قبل قوات إيست لانكشايرز وساوث لانكشايرز في جوف الليل إلى الأسفل من العظيم. كان الليل مظلماً جداً عندما سارت الكتيبتان في الساعة العاشرة مساءً من الملتقى في مجرى قناة النهروان القديمة الجافة وزحفوا خِلسة عبر الأرض المنخفضة المغطاة بالشجيرات، وأخفى الظلام غيوم الغبار وأخفتت الأرض الناعمة صوت الحركة عندما كانت الكتيبتان تسيران بتتابع قريب للمحافظة على التماس.

وعندما وصلت السرايا في المقدمة إلى الضفة على بعد أقل من ميل من موقع العدو، لم يكن هناك شيء يظهر أن الأتراك كانوا يقظين أو أنهم يشكون بخطة

الجنرال مارشال. تحمل كل سرية قارباً كان الرجال يعبرون فيه مجرى النهر بصمت. وانتظموا على الجانب الآخر، واندفعت كتائب اللانكشايرز إلى أمام قرية القبج، وفي الساعة 4.50 فجراً كانوا عند منحدرات الانهيارات الأرضية التي توضِّح قاع النهر المجروف. وكانت المسيرة صامتة جداً بحيث لم يتكبَّدوا أية إصابة. وكانت نيران الأتراك الحقيقية توجه بشكل عشوائي بين الحين والآخر. لم يكونوا يشكون بأي خطر من هذا الجانب. وقبل الفجر تماماً تسلَّق رجالنا المنحدرات ودفعوا مفارز الطوارئ وحطموا الصمت بالهتاف الذي يمكن سماعه من على بعد ميل. وبعد ثوانٍ عدة، رد الأتراك بنيران كثيفة، ومن ثم ألقوا أسلحتهم واستسلموا.

وحالما رسَّخت كتيبتا الساوث الإسيت لانكشايرز نفسيهما على الأرض المرتفعة، عبرت كتيبة الكنغ أون عند الحامية (د)، بينما نصبت كتيبة الهندسة أحد الجسور على شط العظيم. وشكَّلت قوات الكنغ أون مع كتيبتي اللانكشايرز فيما بعد قوة للهجوم واضعة جناحها الأيسر إلى نهر دجلة وجناحها الأيمن تجاوز قليلاً قناة النهروان. كانت خطة الهجوم لتثبيت موطئ قدم بين جناح العدو الأيمن ونهر دجلة. وخلال هذا الفراغ كانت قوات الخيَّالة تتدفَّق، وتجمَّع الأتراك في الخلف عندما أجبرتهم قوات المشاة على الخروج من موقعهم. وحدث كل شيء على وفق الخطة. وفي الساعة 15. 12 فتحت المدفعية والزوارق المسلحة في النهر نيراناً كثيفة على الموقع. وفي الساعة 30. 12 تقدَّمت الكتائب الثلاث تحت هذا الحاجز الناري إلى الهجوم واندحر الأتراك بشكل كامل. وأُسِرَ أكثر من خمسمئة فرد ثم دخلت قوات الخيالة. وقد وجِّهوا بشكل جيد إلى شط العظيم. وبعد الهجوم المخادع لحركة أحد أجنحة الجيش في الصباح الباكر، الذي جعل الأتراك في شك وقيد ترتيبه، انسحبوا وجلبوا الاحتياط بالقرب من المكان حيث بدؤوا بالملاحقة عندما أنجزت قوات المشاة عملها. وكانوا يرتاحون ونزعوا السروج وأوردوا الخيل الماء واستعاد الرجال نشاطهم وكانوا متحمِّسين، بينما كان العدو متعباً ومثبط الهمة. لقد شقوا طريقهم وهم يجرون بسرعة على خيولهم في بلد ذي تربة رملية ناعمة، بصعوبة بين الأتراك ونهر دجلة، وقطعوا عليهم الطريق إلى النهر والماء. واستطاعت مجموعة صغيرة فقط من القوة التي قادت العبور من الإفلات. وأُسِرَ نحو (1200) فردٍ منهم إذ استسلم

نحو سبعمئة فرد منهم إلى قوات الخيَّالة وحدها، وبوصفها القوة الأصلية فقد قدرت بنحو ألفي رجل. وبعد احتساب القتلى والجرحى وبدون مبالغة يمكن القول إنهم زالوا من الوجود من الناحية العملية. وانسحبت مجاميع قليلة من المشردين باتجاه الشمال، وتابعتهم قواتنا الخيالة حتى الساعة الثامنة مساءً، ولم يمنعهم سوى الظلام وإنهاك خيولهم من جمع بنادق العدو.

جاءت الآن الأخبار باليد من طائرات الاستطلاع عن تقدم الفيلق التركي الثالث عشر إلى الأسفل من شط العظيم. وكانوا يحاولون القيام بهجوم جديد في آخر أمل لإنقاذ سامراء. وقاموا بمسيرة استثنائية عبر قره تبه وظهروا من مضيق ديمير كابو الجبلي حيث يتدفَّق شط العظيم من التلال، ويجري باتجاه الجنوب مقابل جناحها الأيمن. وكانوا قد تأخروا جداً لمنع عبورنا شط العظيم، لكن الفرقة الرابعة عشرة التي كانت في المقدمة التابعة لهم لم تكن بعيدة عن نهر دجلة، وفي ليلة اليوم الثالث والعشرين من شهر نيسان اتخذوا موقعاً قوياً لهم في منطقة داهوبا لمقاومة تقدمنا باتجاه الشمال. وتقدر أسلحة الفرقة التركية الرابعة عشرة بنحو ألفي بندقية، وكانت الفرقة الثانية تبعد نحو ستة إلى سبعة أميال إلى الخلف منها. وكان هدفنا هو مقاتلة الفرقة الرابعة عشرة قبل أن تتمكن من تعزيز قوتها بالفرقة الثانية. وشاهد اللواء الثامن والثمانون عندما اقترب من نهاية مسيرتهم الليلية أضواء العدو أمامهم، ومن الطبيعي فإنهم ظنوا أن هذه الإضاءة الطارئة كانت لنيران أحد المخيمات العربية. ولكن عندما انكشف الفجر شاهدوا الصور الظلية للأتراك مقابل السماء لا يزالون يحفرون موضعاً لهم. كانت المفاجأة متبادلة، واندلعت المعركة بسرعة مذهلة. واستدارت كتيبة نورث لانكشايرز وهاجمت باتجاه الشرق وتقدمت إلى نحو ستمئة ياردة من موقع العدو بدعم من اللواء (أر.أف.أي) السادس والستين الذي دخل المعركة على بعد (1200) ياردة إلى الخلف منها، وأخمد نيران رشاشات الأتراك. وهنا تمت دعوة اللواء الخامس والثلاثين للتوقف، وقد قام بحركة تطويق واسعة على جناح العدو الأيمن. وعندما تقدم اللواءان، لم يعد بمقدور الأتراك الاعتماد على دعم الفرقة الثانية، وهو يرى تهديد جناحه الذي انكسر وهرب عبر العظيم. كان هذا في الرابع والعشرين من شهر نيسان. استمرت المعركة ساعات عدة فقط وتكبَّد الأتراك خسائر فادحة من نيران مدفعيتنا لدى عبورهم النهر.

انسحب الأتراك إلى أحد المواقع القوية تحت جبل حمرين على بعد نحو (36) ميلاً من مدخل نهر العظيم. وهنا ومع وجود الفرقة الرابعة عشرة على الضفة اليسرى والفرقة الثانية على الجهة اليمنى، كانوا بانتظار هجومنا.

وفي السادس والعشرين من شهر نيسان، اشتبك رتل الجنرال مارشال، الذي تضمَّن لواء الفرسان السادس مع العدو، وفي اليوم السابع والعشرين استولى على جزيرة واسعة من قاع النهر. ولم يكن لمجرى النهر هنا حجمٌ ذو أهمية ولكنه ينحرف بعيداً وبشكل واسع بين الضفاف العالية التي ترتفع مشكلة جرفاً صخرياً شاهقاً. ويتراوح عرض النهر بين ألفي ياردة إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة ياردة. ويشكل الجرف الصخري للضفة اليمنى خارج القاع على بعد نحو ألفي ياردة خلف الجزيرة، شكل الجزمة، وعلى هذا التل المرتفع الوعر، أقام الأتراك مركزاً مهماً لهم. وعلى يمينهم خطاً من الخنادق يمتد إلى الوراء إلى نحو أربعة آلاف ياردة إلى أن يستند إلى أحد التلول، ويمتد جناحه الأيسر عبر قاع النهر ويتسلَّق الضفاف في سلسلة من مواضع الرشاشات المرعبة والحواجز الدفاعية، ويلتف من أمام قرية باند العظيم وينحرف إلى الشمال مشكلاً حارساً فعالاً للجناح الأيسر. ويغطي الموقع ما مجمله نحو سبعة أميال إلى ثمانية من الجبهة ويسيطر على ميدان واسع من النيران على سهل مستوٍ تقريباً.

قضيت الأيام (السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين) من شهر نيسان في استكشاف الموقع والاستعداد للهجوم. وعند مساء اليوم التاسع والعشرين، خرج اللواء الثامن والثلاثون من جبهتنا اليمنى وشكَّل تهديداً لجناح العدو الأيسر. وتمت عرقلته من دوريات العدو القوية الفعَّالة، وكما هو متوقَّع، تشكل انطباع بأنَّ قصد الجنرال مارشال تطويق الجناح الأيسر للأتراك. وكان اللواء الأربعون في الوسط، الذي سينفذ الهجوم الحاسم على الضفة اليسرى من العظيم، وتمدد اللواء الخامس والثلاثون الذي كان يشكل جناحنا الأيسر من الجزيرة في قاع النهر إلى الضفة اليمنى أو الغربية من مجرى النهر. وفي الساعة الخامسة صباحاً من اليوم الثلاثين من شهر نيسان، وعندما بدأ النهار بالبزوغ، تقدَّمت الكتيبتان من اللواء الأربعين الجيشايرز وساوث ويلزبوردز عبر السهل الوعر وبإسناد من نيران المدفعية

الكثيف. وحققتا أهدافهما وأخرجنا الأتراك من خطهم من الخنادق الدفاعية. وتقدم اللواء الخامس والثلاثون على اليسار إلى نحو ستمئة ياردة من الموقع الرئيس (الجزمة) الذي التهب بنيران الرشاشات والبنادق. وهنا، حفروا لهم الخنادق في الساعة السادسة صباحاً، بحسب الأوامر، وانتظروا التطورات.

كان هدفنا في الوسط هو إحدى القرى من أكواخ الطين الفارغة التي تقع على ضفاف النهر العالية والخط الثاني من خنادق الأتراك إلى الشرق منها. أرسل آمر اللواء الأربعين الجنرال ليوين كتيبتي الجيشايرز ساوث ويلزبوردرز إلى الجناحين الأيسر والأيمن. وأخرجت كتيبة الجيشايرز على الجناح الأيسر الأتراك بقوة القنابل والحراب. وعلى جبهة البوردرز كان الدفاع أكثر أو أقل شدة من جراء حاجز نيران المدفعية، واستسلم العدو بأعداد كبيرة. وسقط ثلثا ضباط الجيشايرز في أثناء التقدم. وقد أصيب قائدهم العقيد كروكر[1] بجروح. وقتل مساعده الملازم ويلسباي، واستمر الرجال وأخطؤوا في إصابة هدفهم. وكانت دماؤهم لا تزال موجودة. ليس هناك من يحملهم. وفقدت قوات كتيبة البوردرز على اليمين، التي اكتسحت الخط الدفاعي في خنادق الخط الثاني والنقاط القوية التي أمروا أن يستولوا عليها نتيجة الإرباك. وكانت مدافع العدو في الأمام، بطاريتان مؤلفة من أربعة مدافع لكل واحدة منها، واستولوا عليها وأسروا (800) فرد منهم. وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً أصبحت المدافع لنا. وتقدمت كتيبة الجيشايرز خلف القرية مع كتيبة البوردرز على يمينها، عندما اكتسحت عاصفة ترابية ميدان المعركة، وعرقلت كل شيء. وأغلقت المشهد بأكمله. ولا يمكن للمرء أن يرى ما يحدث حيث تقف البطاريتان حول المدافع، وأفرادها متعبون ويعانون من عبء المسؤولية لكنهم متحمسون وواثقون من أنفسهم على الرغم من أنَّ الأتراك هناك على بعد نحو (3000) ياردة أمامهم قبل أن يصل الدعم إليهم.

كان علي إحسان، كما رأينا، رجلاً يستغل الفرص المتاحة إليه بسرعة. وأدرك أن رجالنا كانوا غير منظمين بعد الهجوم الناجح، وسمع أن مدافعه كانت قد استولي

(1) كان العقيد كروكر قد جرح في معركة (شيالة) في 11 نيسان، وكان مساعده الرائد ميشيل من فوج رويال سسيكس، قد قتل.

عليها، وقرر وبدون تردد الاستفادة من ساتر العاصفة الترابية للقيام بهجوم مضاد كبير. يجب أن يقوم بهجوم مضاد بكل الأحوال، ولكن العاصفة الترابية كانت فرصة إذ جعلت الكتيبتين بين يديه. وكان أولئك الذين شهدوا هذه الأعاصير التي تحجب جميع المناظر الطبيعية ساعة بعد ساعة هم فقط الذين يدركون شدة العمى الذي ينجم عنها. وشن علي إحسان من خلف سحب الغبار هجومه المضاد. ودفع ما كان يحتمل أن يكون احتياطيه الرئيس المؤلف من بضعة آلاف من الرجال عبر النهر ولكونها مخفية عن نظر اللواء الثامن والثلاثين على يميننا مرت هذه التعزيزات من أمامهم مباشرة، ولم يتم الشك حتى في مسيرتهم الجريئة. وكانت مدفعيتنا ستسحق الهجوم لو أن الحجاب قد رفع، ولكن كان من المستحيل توجيه مدفعيتنا عليهم عندما ظهروا؛ لأنَّ الاتصالات الهاتفية كانت قد دمرت في العاصفة. وجازف علي إحسان، وخدمه الحظُّ. ومر هجومه المضاد من أمام اللواء الثامن والثلاثين، وهاجم جبهة الكتيبتين ودفع الجناح الأيمن إلى القرية ومن خلاله عزل جناحها الأيسر. وتقدم الأتراك على شكل خط محكم متواصل وكأنه قرن، كما ذكر أحد جنود كتيبة البوردرز، وشكل منحنى نصف دائري على المنحدر على يسارنا ويمتد إلى يميننا. وخلف الحجاب المنيع من الغبار، احتدم نزاعهم الدموي يداً بيد. وكان نحو ألفين إلى ثلاثة آلاف جندي تركي احتشدوا على جبهة طولها أربعمئة ياردة. واجتاحوا القرية بأعداد هائلة وأعادوا الاستيلاء عليها وطوَّقوا قواتنا وهي وراءها، معزولة من الدعم بسبب ظلمة العاصفة، وكانت الاحتمالات ثقيلة جداً على رجالنا، وفقدت المدافع السبعة التي استولينا عليها وكذلك (450) فرداً من الأسرى الأتراك. لكن الأتراك لم يستعيدوا خنادقهم التي فقدوها أبداً، ولم يستولوا على القرية لفترة طويلة. وتوقف الهجوم المضاد من جراء النيران المستمرة من قبل حظيرة الرشاشات ومن قبل كتيبتي ويلتس والرويال ويلش فوسيليز التي تحرَّكت بسرعة عندما وجدنا أن كتيبتي البوردرز والجيشايرز قد تجاوزتا هدفهما. لقد أنقذ القرار السريع الذي اتخذه الجنرال ليوين اللواء من كارثة كاملة. وبحدود الساعة الرابعة بعد الظهر كانت العاصفة الترابية قد استنفدت قوتها. وحالما اتضح أن الأتراك تواجدوا مرة أخرى في القرية، فُتِحَت نيران مدفعية كثيفة على مجموعة الأكواخ الطينية، وطُرِدَ العدو مرة أخرى.

دفع اللواء الخامس والثلاثون الذي كان على يسارنا وقد اتخذ قاع النهر المنخفض موقعاً له، قبل طلوع الفجر، مفارز من الضباط إلى حافة «الجزمة» التي تتركز عليها من حين إلى آخر نيران بطاريات المدفعية البريطانية بأكملها. وفي الساعة التاسعة بعد الظهر، بدأنا هجوماً تحت غطاء ناري من دوريات الضباط على الموقع. لكن الأتراك قد اهتزوا نتيجة نيران مدفعيتنا، وبعد العقوبة التي ألحقتها بهم مدفعيتنا، لم ينتظروا إلى هجوم رماة القنابل اليدوية التابعين لنا. وأصبح الميدان بحدود منتصف الليل بأيدينا، وهرب الأتراك بالكامل إلى سلسلة تلال حمرين. وكانت العقوبة التي تلقَّاها الأتراك كسرت معنويات الفيلق الثالث عشر بالكامل. وشاهد رتلنا عدداً قليلاً من بقايا ما كان في إحدى المرات قوة كبيرة من على بعد مسافة مهمة وهم يرزمون حقائبهم ويغادرون إلى أسفل وادي العظيم. وبعد يومين ألقت طائراتنا التي تحلِّق على ارتفاع منخفض نصف طن من القنابل على الجيش المنسحب.

كانت معركة «شريط العظيم» أو «الجزمة» كما يطلق عليها، أكثر المعارك دموية في بلاد وادي الرافدين إذا ما تم إحصاء الخسائر إلى نسبة القوات المشاركة فيها. وكانت كتائبنا أقل بكثير في القوة في هذه المرحلة من الحملة. وعلى الرغم من المجندين الجدد فإن كتيبة الجيشايرز قد انخفض عددها إلى (330) جندياً بعد أربعة أشهر ونصف من القتال المتواصل تقريباً، وفقدت من هذا العدد القليل المتبقي نحو مئة وستة وعشرين جندياً في المعركة الأخيرة على العظيم، وفقدت كتيبة ساوث ويلز بوردرز (203) جنوداً من مجموع (340) جندياً. ووجدنا أكثر من مئة قتيل من الأتراك حيث كان القتال أكثر سخونة، حول الحفر حيث أُخذت المدافع وفُقدت مرة أخرى وفوق الأرض التي شنوا عليها الهجوم المضاد، وكان أغلب القتلى هم من الأتراك والبريطانيين على حد سواء، وعليهم إصابات الحراب حيث بدأت الذخيرة تنفد لدى الجانبين. إنه بفضل تلك الكتائب القليلة العدد فإنهم أخرجوا قوة متفوقة عليها بالعدد خارج موقع هائل واستولوا على مدفع ميدان وثلاثمئة أسير وضمنهم العميد- وقد أُرسلوا جميعاً إلى الخلف قبل شن الهجوم المضاد.

شهد آخر يوم من شهر نيسان نهاية العمليات خلال جو حار من عام 1917. وكانت الحرارة بالكاد يمكن تحملها، وكان الرجال ما زالوا يزحفون ويقاتلون

بملابسهم الشتائية. وأصبح أعداء القوة (دال) مرة أخرى هي الشمس والغبار والذباب. وإن القوم الذين لم يغادروا مناخاً معتدلاً لا يمكنهم تصور صيف تحت الجنفاص (أي الخيم) في بلاد ما بين النهرين. إذ تشرق الشمس في مكان ما حوالي الساعة (4.55). وفي الساعة الخامسة يبدأ الذباب، ويشكل عذاباً خلال نهار طوله أربع عشرة ساعة. وكلما استيقظوا بشكل مبكر، ستكون كآبتهم أكثر تراكماً. وكانت المقارنة الوحيدة التي بإمكاني أن أفكر فيها بطريقة التوقع الواسع الخيال عن الخوف الذي يمتلك الفرد عند الطفولة من نار جهنم عندما يذكر له بأنه يجب عليه أن يتحملها باستمرار. وفي الساعة الثامنة صباحاً فإن وهج نظارات المرء تحرق رموشه، وستكره شفاهه أسنانه ولثته، وستصبح حنجرته مدرجة من النتوءات الجافة والمؤلمة التي تفضي إلى كمية كبيرة من الإرواء الداخلي الذي لا يمكن للماء أن يرويه.

أعترف أنني لم أفكر أنه كان من الممكن أن تلك القوات التي مرت خلال الجو الحار لعام 1916 في قمة انعكاسات الأشهر الأربعة في الشتاء والربيع أن يكونوا على استعداد لشن هجوم كبير في طقس بارد. لكن القوة (دال) ستعيش في التاريخ بوصفها أنموذجاً أكثر مثالية للطبع البريطاني في «الضرب بعنف».

الفصل السادس والثلاثون

سامراء

مع انتهاء رواية قتال شط العظيم، توقَّعتُ الاستيلاء على سامراء خلال يوم أو يومين. وحالما طُهِّرَ الجناح الأيمن بتفريق العدو على الضفة المقابلة، واصلت الفرقة السابعة تقدمها على طول خط السكك الحديد. وفي التاسع عشر من شهر نيسان احتلوا سلسلة التلال في الخبن على بعد ميل ونصف من خنادق العدو في محطة الإسطبلات. وكان الموقع التركي هنا موقعاً ذا قوة كبيرة ولو أنه أخذ بنصيحة قائده المرحوم وتَصرَّف على وفقها لربما كان أقوى بكثير. وقبل الاستيلاء على بغداد بفترة قصيرة أصبح الفيلق التركي الثامن عشر تحت إمرة كاظم قره بكر بيك، وهو أحد الجنرالات ذو سجل طويل ومتميز في الخدمة، وعندما بدا سقوط بغداد وشيكاً ومع هروب الجيش التركي وهزيمته، فإنه بالتأكيد سيسقط أوامر بالانسحاب مباشرة إلى الإسطبلات لتعزيز الموقع المعد مسبقاً هناك. لم يكن يؤمن في تبديد قواته الضعيفة في القتال من أجل مواقع صغيرة. على أية حال، كان قد غُلِب على أمره كما أخبرنا الأسرى الأتراك، وترك قيادته إلى (شوكت باشا). وكانت النتيجة هي سلسلة المعارك بين بغداد والإسطبلات التي لم تنفع الأتراك الهاربين بشيء. وكما أثبتت الأحداثِ فإنها ستكون أكثر نفعاً بالنسبة لهم لو أنهم استندوا إلى الإسطبلات وجعلوا الموقع هائلاً أكثر.

وعلى وفق ما كان، فإنَّ موقع الإسطبلات كان قوياً بشكل غير عادي، إذ كان جناحه الأيسر محمياً بحصون موضوعة بشكل جيد وتستند إلى النهر. ويمتد الخط الرئيس من الخنادق على طول السلسلة الجبلية إلى نقطة تبعد حوالي ميل إلى الجنوب من خط السكك الحديد، ومن هناك تمتد بموازاتها باتجاه الشمال الغربي

لمسافة أميال عدة. وتهيمن هذه الخنادق على أرض منبسطة مفتوحة ينبغي على البريطانيين من خلالها التقدم لشن الهجوم. وتمر قناة الدجيل، وهي مجرى مائي ضيق على عمق عشرين قدماً من مستوى ضفتيها وتجتازها ثلاثة جسور صغيرة في وسط الموقع، ولكن هذا كان مضراً، إذا حدث شيء بالنسبة للدفاع، إذ إنها زادت من صعوبات جلب التعزيزات.

في التاسع عشر أُرسلت دوريـات قتال قوية إلى الشمال وإلى الجنوب من القناة، من خط المخافر البريطانية الأمامية الذي يمتد على طول الجدار المتوسط. وقمنا خلال الليل بتقوية الأرض التي حصلنا عليها، ببناء أربع نقاط قوية على بعد نحو أربعمئة ياردة من مخافر العدو المتقدمة و(2200) ياردة من موقعه الرئيس في الإسطبلات. وفي صباح يوم العشرين تحشَّدت القوات المهاجمة لغرض الهجوم خلف هذه المخافر المتقدمة، وكان الهجوم قد بدأ من هذا الخط الدفاعي.

وعند الوقوف على جدار ميديان القديم يكون باستطاعة هيئة الأركان مشاهدة ميدان المعركة يعرض أمامهم، مع آثار الإسطبلات القديمة، أما الآن فهي ليست أكثر من سلسلة من الأطلال. وشنت كتيبة البنجابيين الثانية والتسعون هجوماً في الصباح الباكر من يوم الحادي والعشرين من نيسان وتقدَّمت إلى محطة الإسطبلات واستولت عليها بالهجوم، وأقاموا لهم معسكراً أمام الموقع الرئيس إلى الخلف منه بمسافة نصف ميل. وكان المفتاح إلى الموقع التركي الحاميتين إلى الشمال من القناة، واللتين تقفان على ارتفاع نحو أربعين قدماً فوق مستوى الأرض المنبسطة. وعمل اللواء الحادي والعشرون إلى الشمال من القناة، وتقدمت كتيبة بلاك ووتش (على اليسار) على حامية الدجيل، وكتيبة الكوركا 1/8 على الحامية الشمالية وأرسلت كتيبة بهوبال التاسعة للالتفاف والهجوم على الجناح، بينما تقدمت البلاك ووتش والكوركا جبهوياً. وكانت إحدى السرايا من كتيبة البنجابيين الثامنة والعشرين إلى الجنوب من القناة وبالتعاون مع اللواء الحادي والعشرين تقدَّمت بتوافق معهم وهاجمت خنادق العدو على الأرض المرتفعة بالقرب من الدجيل.

تَحَرَّكت قوات المشاة بثبات إلى الهجوم على شكل خطوط دفاعية واحدة

تلو الأخـرى، في نظام مفتوح، تحت غطاء نيران الرشاشات والبنادق التي اكتسحت السهل الأجرد. وإلى الشمال من القناة تقدم الأرض غطاء احتياطياً إلى نحو خمسمئة ياردة من موقع العدو، ومن هذه النقطة وإلى الأمام كانت الأرض منبسطة، وإلى الجنوب من القناة وبامتداد أكثر من ألفي ياردة من جدار ميديان وإلى خطوط الإسطبلات كانت منبسطة تماماً. وفي الساعة السادسة والنصف صباحاً وصلت قوات البلاك ووتش والكوركا إلى سفح السلسلة الجبلية العالية، حيث يكمن العدو بانتظار الهجوم. ثم رفع الحاجز الناري المدفعي ولم يبقَ شيء الآن بين الخطوط الدفاعية المتتابعة من مشاتنا والخط المرَّوع من الخنادق المزوَّدة بالرشاشات المخفية وبنادق الكتائب. وقفت قوات الهايلاندرز والكوركا وجهاً لوجه مع الأتـراك وتفصل بينهم فقط يـاردات عدة، لكن الأتـراك كانوا مرتفعين عن السهل، ومن متاهة خنادقه أمطر الكتائب المهاجمة بوابل من النيران المميتة واستمر الخط الدفاعي من غير مراقبة، وعندما وصلت المواجهة الأولى إلى أسفل الحاميات هتف الرجال بشكل واسع وهم يكتسحون المنحدر واشتبكوا مع الأتراك. كان صراعاً مستميتاً، ولكن ليس هناك قوات في العالم بدون مقاومة مع الحراب كما هي القوات البريطانية، وعلى الرغم من شن الهجوم على النقطة الرئيسة من المعركة من قبل قوة أضعف من ناحية العدو من القوة المدافعة، حصل الرجال على خنادق الأتراك، منهكين ولكنهم كانوا يهتفون.

وصلت قوات الكوركا والبلاك ووتش إلى أهدافها تقريباً في الوقت نفسه. وأسرت قوات الكوركا (200) جندي تقريباً في الحامية الشمالية، حيث لم تكن مقاومة العدو قوية جداً. لكن في حامية الدجيل لم يعطوا ولم يسألوا عن أي مكان. وطهرت قوات البلاك ووتش هذه النقطة القوية في الساعة (6.45) صباحاً، وبعد ربع ساعة قام الأتراك بهجوم مقابل عنيف وأعادوا احتلال الجزء الأكبر من الموقع. وقد طُرِدوا مرة أخرى من قوات الهايلاندرز، وفي الساعة السابعة والربع صباحاً أصبحت الحامية بيد القوات البريطانية. ولكن لم تُلحَق الهزيمة بالأتراك حتى الآن. وشنوا هجوماً مضاداً على طول ضفاف الدجيل، وبعد ساعتين إلا ربعاً أصبح الاشتباك بالأيدي والقصف والحراب، واستولينا على الضفة الشمالية من القناة بدون تحدٍّ.

وتجاوزت كتيبة البهوبالز التاسعة هدفها في حركة التفافها وتعرَّضت إلى نيران مذهلة من ضفاف الدجيل. وسقط نحو مئتي جندي خلال عشر دقائق، وفُقِدَ جميع ضباطها باستثناء ضابط واحد.

تقدمت إحدى سرايا كتيبة البنجابيين الثامنة والعشرين إلى الجنوب من القناة بالتوافق مع اللواء الحادي والعشرين. وشنت قوات السيفورت التي كانت على يسارهم هجوماً بعد نحو ثلاث ساعات، وتقدمت بشكل رائع على السهل المنبسط، وطردت العدو من الخط الأول من الخنادق. كان القصد من جراء الضغط في البداية على الجهة اليمنى مع اللواء الحادي والعشرين هو منح الخط الدفاعي للعدو المجال للتراجع نحو اليسار، ودفعه إلى قواتنا الخيالية بعيداً عن المياه، وصرف انتباهه بقدر ما يمكن عن القوات التي ينبغي لها أن تتقدم على أرض أكثر انفتاحاً. ولكن الأتراك واصلوا تمسكهم طوال النهار، وبقي حتى وقت مبكر من صباح اليوم الثاني والعشرين إذ أخبرتنا دورياتنا أنه أخلى الموقع.

كانت معركة الإسطبلات الأولى معركة شرسة. وكان القتال عنيفاً على طول الخط الدفاعي. إلّا أنَّ الأتراك تمسَّكوا بحامية الدجيل كما لو أن استمرار وجودهم في آسيا يعتمد عليها. كانت نهاية سكة الحديد مهدَّدة بالضياع، وكانت هذه من الناحية الاستراتيجية أكثر أهمية من بغداد. فقدت كتيبة بلاك ووتش عشرة ضباط (خمسة منهم قتلوا أو توفوا متأثرين بجراحهم) في هجومهم على الموقع. وفقدوا العدد نفسه من الضباط، وتقريباً خسائر فادحة في الرجال، في المشيهيدة قبل شهر. وبعد ستة عشر شهراً في بلاد ما بين النهرين وأكثر من سنة في فرنسا، كانت الروح المعنوية لدى الكتيبة غير نافعة كما كانت دائماً. وتألقت في الخارج بشكل بارز في الإسطبلات في تشارلز ميلفن الخاص. وعندما كانت السرية التي في مقدمة الفوج تنتظر وصول التعزيزات ضمن ثلاثين أو أربعين ياردة من موقع العدو الرئيس، اندفع هؤلاء الاسكتلنديون الشجعان إلى الأمام مع صرخة حفزت رفاقهم وأرعبت الأتراك. وسهلت الآلهة عزمهم، إذ لم يصابوا عندما أطلقوا ست قذائف مدفعية على الخنادق، فيسقط رجالهم في كل طلقة تقريباً. وقديماً في المراحل الأولى من التقدم، وعندما تعرضت سريتهم إلى القصف في السهل المفتوح أصيبت حرابهم

التي لم تثبت على بنادقهم، ولكن مع بنادقهم بيد وحرابهم في اليد الأخرى قفزوا على الخندق التركي. وهرب معظم الأتراك من الخوف على مرأى من هذه الهتافات والصراخ، والذبح على أيدي الاسكتلنديين، لكن بقي ثمانية أو تسعة جاثمين. وبهذا انطلقوا بسرعة للاستسلام مع حرابهم التي تلوح بأيديهم. واقتادوا تسعة جنود أتراك غير مصابين وثلاثة آخرين مصابين بجروح إلى خارج الخندق. وكان أحد الجرحى وهو ضحيته الخاص، إذ قام بتضميده ورفعه على الحاجز وحمله على كتفه وأعاده إلى الخطوط البريطانية، بينما كان يسوق الأحد عشر الآخرين أمامه. ثم عاد ومعه ذخيرة إلى الخنادق وأبلغ آمر الفصيل بما جرى. اقتبست مغامرات (برايفن ميلفن) لمثل هذه التقاليد التي عملها الفوج. لم تكن مجرد عدوى اللحظة التي تروي لنا ذلك وقد تجدد الإلهام وانتشر. سيكون هناك شيء من (ميلفن) في الروح الجماعية للكتيبة بعد فترة طويلة من عيد أحفاده العظماء.

يمكن إيجاد العديد من قصص الشهامة في سجلات الأفواج في الإسطبلات. كانت هناك رواية عن (الجهاروا) في كتيبة الكوركا الثامنة، وهو من السكان الأصليين (للاسام)، الذي أصبح مستقلاً وحقق أشياء عظيمة وحده، وعلى الرغم من إصابته في رأسه، أثبت أن الرجل الأسمر الصغير يعادل سبعة أتراك. إن هذا التفاوت بحسب الظاهر كان سخيفاً في ضوء القيم الدائمية. وإذا منحنا النصر لحظات من التفوق البشري، فإنه بفضل القبضة الطويلة والوثيقة التي من جرائها سُحقت الروح المعنوية للخصم تدريجياً. لم يكن الأتراك الذين نحاربهم من الجيل دون المستوى، وإننا مجرد أن هزمنا معنوياتهم. وكُسِبت معركة الإسطبلات من القوات نفسها في ميادين سابقة. وما كان لتقدم من هذا النوع ضد موقع قوي أكثر من ألفي ياردة من الأرض المنبسطة أن يتحقق في مرحلة الصناعيات أو الحنة لو كان الأتراك جريئين ومكافحين. وينبغي أن يتذكر ذلك أولئك الذين يقللون من تقدير نوعية القوات المقابلة لقوات (طاوزند). وتم جعل الأتراك يشعرون بعدم مقاومة الفرقة السادسة في المراحل الأولى من التقدم، وكانت هيمنة (طاوزند) معنوية، وتقدّر المعنوية، كما كنا نذكر دائماً، بثلاثة إلى واحد مقابل مجرد مورد مادي في مستلزمات تحقيق النصر. ولحسن الحظ لم تكن النسبة أكيدة جداً في تطبيقها على القوات البريطانية

أو ربما سيكون من الخطأ لدى العدو الافتراض بوجود أي ضعف للطبيعة في الهجوم. وكانت هذه الأفواج من الهيلاند رائعة في الهجوم الثالث على الصناعيات في المشيهيدة والإسطبلات. لم يذهب جوك بعيداً في درجات المعنويات، وكان هو، إذا كان هناك أي شيء، أكثر خطورة عندما يكون في الأسفل مما هو عندما يكون في القمة، وهذه حقيقة أغلب الرتب العسكرية البريطانية- وكما كانت لدى الأتراك إلى حد ما. فقد كانت على العكس، واهنة وكارثية، بأن الروح المعنوية للجيش البريطاني أكثر تألقاً وهلم جرّاً. فإذا نظر المرء إلى الأعلى إلى قمة البطولة سيجدها لدى الرجال الذين قاموا بالهجوم البائس والخاسر على الصناعيات في الثاني والعشرين من شهر نيسان (1916)، أو لدى الرجال الذين ساروا إلى فوهة الجحيم في الدجيل، في الثامن من شهر آذار (1910) بغير أمل، أو الدوافع الأخرى من الانضباط الصارم. وأوقف الأتراك كما رأينا صفقة من القصف وأنهم لم يتعرَّضوا للهزيمة حتى الآن. وفي الليل انسحب الفيلق الثامن عشر إلى موقع آخر أمام محطة السكك الحديد في سامراء، التي كانوا يستعدون للاستيلاء عليها بشكل واضح. ويمتد الموقع على طول سلسلة من التلال مكسوة بالحصو وتهيمن على السهل المفتوح، وكان من الضروري القيام بقتال أكثر ضراوة للاستيلاء عليها.

وبعد القتال في الحادي والعشرين من شهر نيسان، وعندما استولي على الموقع الأول في الإسطبلات، سار اللواء الثامن والعشرون من خلال القوات المتقدمة وبقي على تماس مع العدو الذي كان يجري استعدادات للقيام بموقف في اليوم التالي. وكان عند منتصف النهار من يوم الثاني والعشرين عندما وصل مقر اللواء إلى أطلال الإسطبلات القديمة، ومن هنا ومن جدار ميديان خلفهم في اليوم السابق كان بإمكانهم رؤية ميدان المعركة بالكامل معروضاً أمامهم، وسطح محطة السكة الحديد التي تبعد عنهم أميالاً عدة. وكانت القبة الذهبية لجامع سامراء تلمع في شمس الظهيرة، وترتفع الملوية الغريبة عالياً فوق الأراضي المحيطة بها. وتنحدر التضاريس تدريجياً باتجاه هذه المعالم البعيدة، ولم يكن أي منها ضمن منطقة المعركة، حتى تصل إلى سلسلة من التلال المتموِّجة وسلسلة التلال المحددة بحدة التي تمتد من النهر إلى محطة القطار. وعلى سلسلة التلال هذه اختار الأتراك أن تكون معركتهم الأخيرة من أجل سامراء.

بعد فترة وجيزة من منتصف اليوم كانت قواتنا المشاة في تماس مع الجزء الرئيس من الأتراك في موقع محصن بين النهر والسكك الحديد. وكان الموقع واسعاً جداً ولا يمكن قصفه والهجوم على كامل جبهته مع المدافع والمشاة التي في حوزتنا. ولذلك تقرر إجبار الجناح الأيسر التركي على الانسحاب من النهر بينما قامت قوات الفرسان بالالتفاف حول الجهة اليمنى تبعتها بطارية من العجلات المدرَّعة الخفيفة. وبدأ اللواء الثامن والعشرون بالتقدم بعد الظهر. وقادت كتيبة الليسترز إلى الهجوم. ولم يذهبوا بعيداً عندما تعرَّضوا إلى إطلاق نار كثيف من الجهة اليسرى. وهنا جاءت كتيبة السيخ الحادية والخمسون التي كانت بالإسناد، وانحرفت إلى نصف اليسار لتغطية جناحهم. تكبدت الكتيبة الحادية والخمسون خسائر فادحة إلا أن تقدمها الثابت مكن كتيبة الليسترز من المضي قدماً على الرغم من أنَّ تبادل إطلاق النار ما زال مزعجاً. وبحدود الساعة الواحدة والنصف، تقدمت إلى مسافة (1200) ياردة وأصبحت بالقرب من السلسلة الجبلية التي يمسك بها الأتراك. وفي الساعة الرابعة فتحت مدفعيتنا نيراناً هائلة على الخنادق، وازدادت نيران المدفعية التي تنهال على الأتراك من رتل الجنرال تومسون، الذي كان قد تحرَّك على الضفة اليسرى وفتح نيرانه على خنادق العدو عبر النهر بشكل هائل، وقصف القوات الخلفية للعدو إلى سامراء تقريباً.

وحالما أُوقف القصف المدفعي، اجتاحت قوات الليسترز المنحدر. وأخبرني أحد الضباط في المنطقة أنها كانت مثيرة وأكثر إلهاماً مما كان قد شهده من أي وقت مضى. ويعتقد الأتراك على ما يبدو هكذا أيضاً؛ لأنهم لم ينتظروا إلى استخدام الحراب. وصلت السرية التي في المقدمة إلى القمة الأولى متعبة ومنهكة، ولكنها لا تزال ثابتة العزم. وقد عُبِرَت الخنادق التركية بدون تفتيشها. وكان مرأى العدو وهم يفرون ويرفعون أيديهم كثيراً جداً بالنسبة إلى توماس أتكينز، وحذَّر من الرياح والضغط على المطاردة، وسرعان ما تمت مشاهدة وميض المدفعية من خلال الغبار، وعلموا أنهم كانوا على المدافع تماماً. كانت الحرارة شديدة، ولكن لا ينبغي فقدان مثل هذه اللحظة. وكان الإرهاق واللهث وحرارة الشمس والعطش إلى درجة اليأس، هي الموجة الأولى من مطاردة المشاة الذين يتسابقون ولم يتوقفوا حتى اندفعوا إلى

بطارية المدفعية المذهلة على بعد (1500) ياردة خلف الخندق. وكان آمر السرية التي في المقدمة ذا صوت أجش حتى في دعوة آمر البطارية للاستسلام. كان مسدسه فارغاً. وكان رجاله في متناول اليد ولكنهم أقل في العدد. تقدَّم قائد البطارية إلى الأمام وتصافح مع الضابط البريطاني واستسلم مع خمسين أو ستين رجلاً وسبعة مدافع. وشوهدت المدافع الأخرى تنسحب على عجل على السهل وتبدو كما لو أن العدو في عملية هروب كاملة. كان ذلك في الساعة الخامسة. وبدأت السرايا المتقدمة الثلاث من كتيبة الليسترز بتعزيز مواقعهم وواصلت سيرها إلى ما بعد وصول الدعم الفوري لهم، والتي في الواقع تحوَّلت للتعامل مع الحاجز الناري من الجهة اليسرى.

وعندما سمع شوكت باشا بخسارة المدافع السبعة بدأ يعيد النظر بموقعه ودعا إلى التوقف في ما يبدو أن يكون انسحاباً عاجلاً. وأخذ القائد التركي الموقف الدقيق. وحُمِلَت كتيبة الليسترز إلى ما وراء الهدف الأصلي، إذ أغري بوميض المدافع التي دعته للاستيلاء عليها. وتم اجتياح الأرض إلى الخلف تحت غطاء نيران المدفعية والبنادق والقنابل شديدة الانفجار. وكان ضعفهم واضحاً ومجرد ثلاث سرايا وبمخادعة بالأسلحة استولي على المدافع. ولم يشكل شوكت باشا أي مخاطرة. وجلب احتياطيه المؤلف من ألفين إلى ثلاثة آلاف رجل، وذهب مباشرة إلى الوادي حيث فقدت المدافع. ولا يمكن لحفنة صغيرة من قوات الليسترز أن تصمد أمام مثل هكذا هجوم مضاد. وكانت هناك وسيلة لنقل المدافع بعيداً. لم يكن هناك شيء لعمله سوى تدميرها بأسرع ما يمكن والانسحاب اعتماداً على دعمهم وحفر مواقع لهم. وفي وقت لاحق من الليل، أصابهم الغَمُّ لسماعهم أنَّ غنائمهم يتم سحبها إلى الخطوط الدفاعية التركية.

قام الأتراك بهجوم مضاد بقوة كبيرة جداً، وهدَّدت بوقت واحد بالالتفاف على جناح اللواء. وتم اعتراض هذه الموجة من بنادق الكتيبة السادسة والخمسين وسرية الرشاشات. وتقدمت الكتيبة السادسة والخمسون ضد الهجوم المضاد بثبات ورباطة جأش، وكانت بارزة حتى في هذه الأيام من القتال العنيف. وفقدت سريتان من كتيبة السيخ الثالثة والخمسين كانتا في الاحتياط معهم قائدها غرافتون، والرجل الثاني في

القيادة (أدمز)، والمعاون (بلويت)، وأمين المخازن (سكارت). وتكبّدت الكتيبتان السادسة والخمسون والثالثة والخمسون خسائر فادحة، ولكنهما مع سرية الرشاشات أنقذتا ما يمكن أن يكون موقفاً حرجاً للغاية.

كان مساعد قائد الإسطبلات الملازم غراهام من سرية الرشاشات الثالثة عشرة. ومنحني المقدم بيسيك، وهو من كتيبة البنادق السادسة والخمسين وكان على بعد مئة ياردة إلى الوراء، وقد شوهد وهو يسحب مدافعه على الطريق، أوضح ذلك تقرير معركة غراهام الذي يجب أن يتم الاحتفاظ به.

تطوّع غراهام معنا مع مدفعين. وغادر الأتراك خندقهم عندما أصبح خطنا الأمامي على مسافة خمسمئة ياردة منهم، وقد احتُلّ مع القليل من الخسائر. واندفع خطنا الدفاعي الأول، ولكن بينما كان في العراء كان الهجوم المضاد الرئيس التركي قد وصل إلى جسر السكك الحديد وأسقطوا عملياً خطنا الدفاعي الأول بالكامل. ولحسن الحظ وصلت رشاشات غراهام والخطان الثاني والثالث إلى الخندق وفتحت نيران كثيفة على الأتراك. ولم يتمكّن ضباطهم من تحفيز الرجال بأنْ يتخذوا موقفاً جديداً على الجسر. وأنا أرى أنَّ وجود مفرزة الرشاشات قد ساهم إلى حد كبير في ذلك. وكان الموقف، على أية حال، حرجاً جداً. كان الجسر على بعد نحو مئتي ياردة على يسار خطنا، ومما زاد الطين بلّة، اجتازت إحدى المفارز القناة على بعد مئتي ياردة إلى الخلف من موقعنا، وفتحت نيران أسلحتها على الجزء الخلفي من قواتنا. وقد وجه أحد الضباط الهنود الذي كانت بيديه القيادة على يسارنا، رجاله وأرسل مكالمة إلى غراهام يطلب منه المساعدة. وكانت إحدى الرشاشات عاطلة عن العمل بالفعل، لكن غراهام جلب الرشاشات الأخرى إلى النقطة المهددة. كنت خلف الخندق وشاهدته وهو يجلب الرشاشات إلى يسارنا. وكان الخندق يشكّل عقبة وهو ضيقٌ جداً، وينبغي عليه أن يحمل الرشاشة فوق كل حاجز في العراء؛ لأنَّ الخنادق كانت مسدودة بالقتلى، وكان هو قد أصيب بجروح مرتين. وأخيراً أوصل الرشاشة إلى اليسار، ولكن جميع أفراد مفرزته أصيبوا باستثناء مراسله. وقد اعتقد أنّه فتح نيران الرشاشة بنفسه، لكنه أصيب مرة أخرى. بعد ذلك أزال قفل الرشاشة وعاد إلى حيث كنت أنا، وأصيب للمرة الرابعة. وسلّمني القفل وأوضح لي أن الوضع

بقدر ما كان قد عرفه. وقبل أن أغادره، انهار نتيجة فقدانه للدم. كانت يده مربوطة وخده مفتوحاً نتيجة إصابته بطلق ناري، ووجدنا جرحاً آخر في أعلى فخذه، وقد وضع منديلاً تحت لفافة الساق لوقف نزيف الدم من جرح في ساقه. اعتقدت أن لديه جرحين آخرين، لكني لا أتذكر. كان هناك الكثير للتفكير فيه في ذلك الحين.

ومن أجل التحول إلى جناحنا الأيسر في الجانب الغربي من محطة السكك الحديد، تحرك العقيد كاسلز من معسكره المؤقت في وقت مبكر من الصباح جنوب الخبن بهدف تحول الجناح الأيمن للعدو بالقرب من تقاطع الطرق في قنوات الجالي والإسحاقي. وعُزِّز اللواء ببعض المدافع الإضافية والعجلات المدرعة التي تقدمت مباشرة للاستطلاع إلى محطة سامراء.

ولدى التحرك إلى الشمال الغربي من سلسلة الجبال الرئيسة في قناة الجالي على سهل مفتوح ومتموج قليلاً، لكنه يوفر غطاءً قليلاً أو لم يوفر غطاءً للرؤيا، وكان اللواء متقطعاً أحياناً بشكل كبير ويتعرض للقصف، إلا أن تأثيره كان قليلاً. مرت طائرة محطمة للعدو على الطريق ومدمرة بشكل واضح من قبل أحد طيارينا مع الطيار الألماني الممدد بجانبها وهو ميت. وتم استطلاع مشاة العدو المتقدم ومفارزه للطوارئ بين السكة الحديد وقناة الجالي، في الواقع في سلسلة تلال منخفضة حصباء ومجدبة، تم دفعه تدريجياً وعندما كان ينسحب فوق الأرض المفتوحة شكلوا هدفاً جيداً لمدافعنا التي لعبت دوراً مؤثراً عليهم.

وبالقرب من تقاطع القناتين وقف العدو في وضع استعداد يجرون بشكل منفرج على سلسلة التلال مع حفر البنادق تنتشر على أبعاد لتلتقي مع محطة السكك. وكان قد تحصَّن لمواجهة حركتنا للتطويق مع الرشاشات في الموقع وبدعم المدفعية ومع طريقنا إلى القناة، وهو الطريق الوحيد الذي يتوفر فيه الغطاء، وقد أعاق الافتقار التام إلى الغطاء وإنهاك مفارز الرشاشات حركة تطويق أوسع من جانبنا.

وفي فترة ما بعد الظهر، وتحت غطاء نيران المدفعية والرشاشات وبدعم من العجلات المدرعة، بذلت جهود للحصول على أرض على الجناح. وصمد الأتـراك، على أية حال، بثبات. وأخيراً، جرت محاولة باسلة جداً من كتيبة

اللانسرز الثامنة والثمانين للاستيلاء على الموقع بهجوم مباغث كان ناجحاً. وهاجم اللانسرز خندق العدو، ورمى الأتراك الذين كانوا يستولون عليه بنادقهم واستسلموا، أو عادوا جرياً بشكل مرتبك. كان العدو على ما يبدو في حركة مستمرة، وجعل العجلات المدرَّعة في حالة دعم وثيق، وكما كانت قوات اللانسرز تعتقد، كان جناحهم قد تحوَّل. ولكن في إحدى المرات خلف الخندق، وتعرَّضت قواتنا الخيالة إلى نيران كثيفة، وكان الأتراك متحشدين، وصُدَّ الهجوم. وقاد العقيد غريفش، آمر الفوج الثاني والثلاثين ومساعده النقيب هنتر، الهجوم وكانت خسائر الفوج فادحة. ومع ذلك لم يكن الهجوم يخلو من فائدة في المعركة. وبغض النظر عن الروح المعنوية الرائعة التي أظهروها، قدمت مساعدة مادية إلى لواء المشاة في اللحظة نفسها عندما كان الهجوم المضاد التركي يهدد بالتطور إلى أبعاد خطيرة. وكان نشاط قوات الخيالة على يمينه، وبالنسبة إلى شوكت كان على قناعة باسترداد مدافعه والانسحاب.

ولكن الشيء الذي أخاف الأتراك أكثر من أي شيء آخر، وحسم قرار الانسحاب، كان هو مدفعية رتلنا على الضفة اليسرى وبطاريتنا عبر النهر وعمليات الإعدام الدموية المعمول بها على جناحهم ومؤخرة جيشهم طوال اليوم. وفي المساء، تم استدعاؤهم إلى القتال في شط العظيم، ولكن كان لدى شوكت كل الأسباب للاعتقاد بأنه إذا هو توانى فإنَّهم سيكونون في سامراء قبله.

كانت الأرض التي حصلنا عليها في الهجوم الرئيس على ضفة النهر جيدة. وكانت المدافع التي أخذناها قد استرددناها، ولكننا قد أخرجناها عن العمل، وبعد وقت قصير من الهجوم المضاد التركي وصل اللواء التاسع عشر لمساندة الحامية. وقبل حلول الظلام عُزِّزَ الموقع وانسحب الأتراك في الليل. واصلنا المطاردة في الفجر واستولينا على محطة سامراء، وتراجع العدو إلى تكريت وواجهتنا مخافرهم الأمامية عبر خمسة عشر ميلاً من الصحراء خلال فصل الصيف الطويل في بلاد ما بين النهرين.

كانت محطة السكك الحديد وسقائف البضائع وورش العمل قد أتلفت. كنا نتوقع العثور على القاطرات والحافلات المدمرة، ولكن الأتراك كانوا قد قرروا

بوضوح الدفاع عن سامراء مهما كلف الأمر، وإن ترددهم في التخلي عنها لم يمنحهم الوقت لإكمال عملهم في التدمير. ومن بين غنائم الحرب كان عدد من المحركات والشاحنات ذات المعايير الكبيرة وجميعها أكثر أو أقل تلفاً، ولكن أُصلِحَ بعضها، وخلال بضعة أيام أعيد تشغيل القطارات بين بغداد ونهاية خط السكك الحديد التي تتكون كلياًمن المعمل الذي تركوه لنا.

أصبحت سامراء مأوانا الصيفي المتقدم وارتفعت درجة الحرارة إلى 119 درجة فهرينهايتية في الظل، ولكن القوة (د) مع كل الأهداف التي حصلت عليها، كسبت هكذا راحة حيث إن الشمس والذباب والعواصف الرملية مسموح بها- إذ إنَّ الاستعداد الذي جرى ضد هجوم عدو كبير في الخريف. وخلال المعركة في شهر نيسان فقد ألحقوا الهزيمة بفيلق الجيش التركي الثالث عشر ثلاث مرات، والفيلق الثامن عشر خمس مرات، وأجبروهم على التراجع إلى مسافة أكثر من ستين ميلاً. وفي غضون شهر استولت أرتالنا على كلا ضفتي نهر دجلة على (3000) أسير وستة عشر مدفعاً. وحققت القوات نفسها التي شاركت تقريباً بشكل متواصل منذ تقدمنا الأول في الثالث عشر من كانون الأول هذه النتائج، وتعرَّضت في كل حين إلى مصاعب حملة الصحراء، والقتال في ملابسهم تحت الحرارة الشديدة للشمس في بلاد ما بين النهرين.

شهدت سامراء صناعة الكثير من التاريخ، وشعرنا نحن أنها ستشهد المزيد، ودفن جوليان هناك. وقد سقط قريباً من هنا في أثناء الانسحاب من المدائن، إذ يمكن رؤية قبر الإمبراطور من أسوار المدينة على شكل كومة من الأرض محاطة بخندق ونصب تذكاري مهدم لوفاة الإمبراطورية الرومانية في الشرق. كان المكان تاريخياً أيضاً إذ إنَّها شهدت نهاية الهيمنة الروحية على الأرض. واختفى الإمام الثاني عشر هنا في بعض الأقبية الغامضة في المدينة، وسيظهر مرة أخرى كما يقول المسلمون الشيعة، وبحث العديد عن ظهوره في المكان. ومن ثم جاء الجنود الألمان ووضعوا أيديهم المُدنسة على سامراء، واصفاً إياها بمثابة انطلاقة للراديو كولتور. ولذلك التقت هنا القوتان، وكان الصراع في متناول اليد حافلاً بالقضايا التي تحسم النظام والفلسفة أو دين الحياة للعيش بعد الحرب.

الفصل السابع والثلاثون

ازدهار الصحراء

يكمن طقس حار آخر أمامنا، وهو الصيف الثاني لمعظمنا في بلاد ما بين النهرين، والصيف الثالث بالنسبة إلى عدد قليل من قدامى المحاربين الشجعان. كانت الشمس أكثر ضرراً في عام (1917) مما كانت عليه في العامين الماضيين، وكانت فترة الركود قد بدأت قبل شهر (وهي فترة بين أوائل شهر تموز وأوائل شهر أيلول تتميز بجوها القائظ الشديد الرطوبة). ووفق ما يقوله البغداديون، كان الموسم الأكثر حرارة في ذاكرة الإنسان. وكانت معظم الأشياء ساخنة جداً بحيث لا يمكن لمسها، وكانت حافة القدح تحرق يد الشخص في الخيمة، وإن الغبار والرمال تحرق باطن قدم المرء من وراء حذائه. حتى إن العرب والأكراد الشديدي القدرة على التحمل أبدوا مثل هكذا صيحة بحيث إن على المرء أن يقوم برش الأرض التي يعمل عليها بالماء.

ارتفعت درجة الحرارة في شهر تموز إلى 122.8 درجة فهرينهايتية في بغداد و(122) درجة فهرينهايتية في البصرة. وفي الخيم والملاجئ كانت في كثير من الأحيان أعلى بعشر درجات من القراءة الرسمية القياسية. وجمعت قدراً كبيراً من الأدلة المشتركة، ومن الأشخاص الصادقين عادة، إذ ذكروا أن القراءات أعلى من ذلك. ولكني لم أسجل هذه، لأنه من الصعب أنْ تصدق أنَّ بإمكان أي شيء ما عدا حيوان السمندر أن يعيش في مثل هذه الأجواء الحارة.

تدهورت صحة الجميع تقريباً في بلاد ما بين النهرين من وقت إلى آخر. وفي حالتي، وبعد نوبات متعددة في المستشفى، كانت قد شلت حركتي بالتأكيد بعد أيام من اللقاء مع الروس في (كزيل روبات). وفاتني التقدم إلى سامراء بالإضافة إلى القتال في منطقة شط العظيم.

وفي لحظة الاستيقاظ من السكون، كان الطقس الحار في صباح بلاد ما بين النهرين واحداً من أقل الأشياء متعة في اليوم. إذ إنَّ الهواء مشحون بالقلق، كما هو الحال في غرفة الانتظار لدى طبيب الأسنان، وفي بعض الأحيان أكثر إحباطاً من المقعد الحقيقي الذي يستسلم فيه المرء إلى القسوة. ولحسن الحظ، كانت الليالي عموماً باردة والصباحيات منعشة، مهما كانت الأيام حارقة، ولكن عندما تهبط الريح الشمالية، وتسوء عندما تكون هناك رياح جنوبية تجلب معها الرطوبة من الخليج. إنها رياح مكروهة عندما يستيقظ المرء من جَرَّاء الشمس ليفكر في النهار أمامه.

وفي نهاية شهر مايس عام 1917 وعندما غادرت بغداد، لا يزال بالإمكان احتمال الصباحات ولكن الشمس كانت لا تزال عائقاً. وكنا جميعاً، بحسب الأعراف في البلاد، ننام على السطوح. إذ كانت سطوح المنازل في أوائل شهر نيسان مهجورة، ولكن في شهر مايس يصعد كل رجل وامرأة وطفل بغداديين إلى السطح للنوم. وعندما يستيقظ المرء في الصباح يشرف على بحر من الأسرَّة، ويهجع الأثرياء في كلل من البعوض ذات الملصقات الأربعة، بينما ينام الفقراء على مقاعد صلبة عليها الحصران. وإن لدى العوائل الثلاث التي تسكن في بيت صغير مجاور لمطعم الضباط التابع لنا ثمانية وعشرين طفلاً. ونشر هؤلاء مع العشرات من الكبار الغرباء على عشرة أسرة كبيرة مربعة تشبه المنصات الخشبية مسيجة بالقضبان لمنع الأطفال من السقوط على الأرض، وإن رؤية الحشرات التي تستمر إلى الصباح توحي إليّ بليالٍ مزعجة.

كان على أحد السطوح خروف، وعلى سطح آخر ديك رومي، وكان هناك لقلقٌ على إحدى المنارات المجاورة يقف فوق رأس المئذنة المجاورة، بينما يقوم بالأذان للصلاة ويرفرف بجناحيه بتوافق مع ضرب الرجل على الصدر. وكان لدى أحد الطيور عشّ فوق إحدى الكنائس المَسيحيَّة يمكن رؤيته، وهو يدافع عنه بشراسة ضد الغزاة. ومن ثم تقوم بمد رقبتها تأكيداً لكرامته وتواضعه ويطقطق بمنقاره ويرسل رشاشاً من الصخب.

كان ذلك في شهري نيسان ومايس، وعندما رجعت في أوائل شهر أيلول كان

الخروف والديك الرومي قد ذهبا، وحتى إنَّ اللقالق قد رحلت، ولكن الرجال والممرضات والأطفال بقوا- وازدادوا بشكل واضح. وكنت شاكراً جداً، إذ إنني هربت خلال أكثر شهري حر في السنة، وهما شهرا تموز وآب، ولأنه بدلاً من بانوراما بغداد في العراء فإن أول شيء استقبل عيني في الصباح كانت غابة جبال الهملايا. حتى إنَّ حرارة شهر أيلول كانت مرهقة، وكانت درجات الحرارة في الاثني عشر يوماً الأولى من الشهر ثماني درجات أعلى من المعدل الطبيعي، وكان الجو رطباً ولزجاً- ودرجة الحرارة مئة وأربع عشرة درجة بحسب القراءة الرسمية و(118) درجة في بعض المكاتب والبيوت.

كانت معظم المنازل في المدينة مزودة بسراديب أو قبو على عمق نحو ستة أقدام تحت مستوى الأرض. وكانت درجات الحرارة في هذه السراديب بشكل عام أقل بعشر درجات مما هي عليه في غرف الطابق الأول، ويشعر المرء بالسعادة للهروب إليها، على الرغم من أنَّ الهواء محبوس وثقيل. وأن فتحات التهوية التي تمتد من القبو إلى نهاية السقف تشبه غطاء المداخن، وجميعها بالطريقة نفسها؛ لتسحب هواء الشمال أو الريح الشمالية السائدة التي وحدها تلطف الجو.

وفي بغداد وسامراء، تجلب الليالي بشكل عام الراحة، ولكن في البصرة غالباً ما يقلق المرء وبدون استراحة خلالها مع القليل من النوم وهو يقاوم ذباب الرمل. وكانت القراءة الرسمية عندما مررتُ (115) درجة، وكانت قبل ستة أسابيع (122) درجة. كانت تلك حرارة جافة، وتعاني البصرة كثيراً عندما تهب ريح الجنوب الكسولة، وهي ريح شهر أيلول التاريخية، التي في ظلها تنضج المحاصيل وتصطحب معها الرطوبة من الخليج، ثم قطرات الماء تخلق طبقة من الضباب الرطب في الهواء وهي تخنق المرء مثل البطانية إلى أن تتغير الريح. وتعم اللزوجة في كل شيء حتى إنَّ المواد غير الحية تبدو تتعرق في هذا الهواء. ولكي يتخيلها المرء عليه أن يلف رأسه في قماش الحلوى الساخنة ويلف صدره بملصقات الخردل.

كانت الفترة من شهر مايس إلى نهاية شهر أيلول متميزة في شدَّتها كفصل قاسٍ على الأتراك. وخضعنا نحن وإياهم إلى عدو مشترك وتعمَّقنا في حفر الخنادق

في الأرض. وقضينا الصيف، في الحقيقة، كما كان يفعل الرومانيون القدماء، في سبات. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنَّ العمليات العسكرية الجدية كانت غير واردة، ثم وضعنا في مقدار غير محدد من العمل الشاق. وكانت الروح المعنوية للقوات مرتفعة فقد أنجزوا أشياءً عظيمة وحقَّقوا النصر من الهزيمة. وكانت الفرقة السابعة البطلة تمسك بالأرض التي ظفروا بها وكانت أعز رغبة لهم هي تشجيع الأتراك على الانقضاض ومهاجمتهم. وكان رأي العريف مكتاب هو «المزيد من المرح». وسيكون تغييراً محل ترحيب لدى الأولاد لرؤية الديك الرومي التركي يثب فوق الساتر.

وفي جانب ديالى، كانت هناك حركة في شهر حزيران وحركة أخرى في شهر آب، ولكن ولحسن الحظ لم يكن هناك قتال. وسيتم تذكُّر ذلك بعد اللقاء مع قوات القوزاق في الأسبوع الأول من شهر نيسان، إذ إنَّنا تراجعنا في بعقوبة من أجل تقصير خطنا الدفاعي. وفي أوائل شهر حزيران وبسبب ازدياد الحرارة وصعوبة التجهيز، وجد الروس من الضروري إخلاء الخط الدفاعي من نهر ديالى، وانسحبوا إلى ما وراء كيرند باتجاه كرمنشاه. وحتَّم علينا هذا التراجع القيام بحركة تقدم من جانبنا، وفي الثالث والعشرين من شهر حزيران، احتللنا بلدروز بدون مواجهة أية مقاومة. ومن ثم في أوائل شهر آب بعث طيارونا تقريراً يفيد بأنَّ الأتراك كانوا يقومون بتحصين موقع لهم جنوب غرب مدينة شهربان. ومن أجل طردهم واحتلال المدينة التي لا نتحمل أن نتركها تحت أيدي العدو، أُرسِلَ رتلان متجمعان من بلدروز وبعقوبة في ليلة الثامن عشر والتاسع عشر من الشهر. وفي التاسع عشر من الشهر ذاته تم الاستيلاء على مسداد فجرا، وفي العشرين منه تم الاستيلاء على شهربان. ورحل الأتراك بسرعة إلى جبل حمرين وتركنا في الموقع.

كان الهجوم على الرمادي في شهر تموز هو الحركة الوحيدة في الطقس الحار في عام 1917 الذي يتضمن كلّاً من المسير والقتال. وفي الثامن من شهر تموز، دفعنا خطنا الدفاعي إلى الأمام على نهر الفرات من مدينة الفلوجة أميالاً عدة إلى الأعلى من مجرى النهر إلى الأرض المرتفعة على الضفة اليمنى في منطقة سن الذبان التي تهيمن على الضفة اليسرى من النهر عند نقطة التقائه مع قناة

الصقلاوية. وكانت هذه الحركة ضرورية من أجل السيطرة على الري والفيضان. وكان العدو في ذلك الحين يسيطر على الرمادي بسهولة بقوة تقدر بألف بندقية مع بعض القوات العربية غير النظامية، وعندما وضعنا التقدم إلى منطقة سن الذبان ضمن مدى الرمي، اعتقد الجنرال مود أنَّ الفرصة سانحة للهجوم عليه مع فكرة تغطية حركة تقدمنا. لكن العناصر خذلتنا. واشتبك رتلنا مع الأتراك في الصباح الباكر لليوم الحادي عشر من الشهر، وأحرز بعض التقدم في الهجوم، وبسبب العاصفة الترابية التي أعاقت مواصلاتنا السلكية واللاسلكية، أُلغي الأمر بالهجوم. وشهد اليوم بداية موجة حر غير اعتيادية، حتى في الأرض حيث كانت الشمس كالسوط المألوف. وكان الرجال في الخيم والضباط الذين يقودون الكائنات الحية المقيمة قد أصيبوا بضربة الشمس والإعياء من الحرارة، وكان المسير أو القتال تحت مثل هذه الظروف مدعاة إلى كارثة.

وفي ليلة الحادي عشر/ الثاني عشر من الشهر انسحبت القوة إلى ضفة النهر في المشيهيدة؛ ولأنَّ الأتراك لم يبدوا أية إشارات لإخلاء مواقعهم، انسحبت إلى سن الذبان في الرابع عشر من تموز. وكانت الخسائر من جراء الحرارة بفداحة معركة احتلال موقع السن غير الدموية لكنها مكلفة في شهر مايس، 1916. وتستمد المعنويات من التقدم المحبط إلى الرمادي في تموز التي لم تشكل شيئاً سوى الحاجة العسكرية المُلِحَّة جداً، التي تبرر الهجوم في بلاد ما بين النهرين في منتصف الصيف.

كان السلام على الرغم من ذلك بعيداً جداً، لكن ما يبعث إلى الراحة في النفس هو الاعتقاد بأنَّ الحرب التي خلفت دماراً غير ثابت في أوروبا، جلبت حياة جديدة إلى بلاد ما بين النهرين. وكان الاستقرار والتطور في البلد يجري عندما كنا نتقدم مع الاحتلال وكان الضابط السياسي في أغلب الحالات هو أحد الجنود، قد وصل إلى المشهد مع القوات، وأحياناً، كما هو الحال في منطقة نهر الفرات بين السماوة والفلوجة، أمامهم، وبعد ساعة أو ساعتين من رحيل الأتـراك، في حين لا تزال الأعلام البيض ترفرف على الجدران، وإنه سيتولى أمور المحكمة، وإن العرب سيقدمون له طلباتهم وشكاواهم كما لو أنها الشيء الأكثر طبيعية في العالم.

جرت في بغداد خلال سنة من الاحتلال العديد من التغييرات. كانت المدينة تبدو ميتة من جميع المظاهر أو تحتضر عندما دخلناها في الحادي عشر من آذار 1917. وأصبحت الآن خلية نشطة للإنسانية ويمر الآلاف من العمال في الشارع في وقت مبكر ومتأخر. ونُصِبَت أعمدة إضاءة للطريق الرئيس، الذي كان تياراً متواصلاً من المرور، وأصبحت النساء العجائز الأشد حباً للنوم اللائي يتجولن في الأسواق بارعات في مراوغة شاحنات الفورد. ونُظِّمتْ قوة من الشرطة والإطفائية واستبدلت المصابيح في الشوارع بإنارة كهربائية. وتوسَّعت إمدادات مياه الشرب ودخلت الإنارة الكهربائية والمراوح الدوائر ودور إيواء الجنود. وجرى ترميم المساجد وإكساء الطرق وفتح المدارس، وضمنها إحدى مدارس مسح الأراضي ومدرسة تدريب المعلمين. وتعمل عربات الماء باجتهاد في الشوارع، واخترقت الفرق الصحية ضواحي المدينة الأكثر اختفاء، وغابت الروائح. وتم استقبال الحيوانات المصابة بالتقرح في جلودها والمصابة بجروح والمريضة والجائعة في أحد المنازل إلى أن تكون مهيأة لشد العربة عليها أو للنقل مرة أخرى. وتمت السيطرة على الأسواق، وأخذ إمدادات الحنطة باليد وأصبحت الأسعار معتدلة، وتكسو البلدية طريقها بمادة الزفت، ويتم عبور نهر دجلة بواسطة جسرين.

كانت هذه مُجرَّد تغييرات خارجية، بالرغم من أن أغلبها أثّر على البغداديين والجنود البريطانيين والهنود على حد سواء، ومن المحتمل أنها تلاقي اهتماماً قليلاً من جيش الاحتلال. وأن الجندي في الشارع، إذا ما سئل عن رأيه عن الكثير من التغيير في المدينة، فإنه من المحتمل أن يقول إنها تبدو أنظف وأقل رائحة وتبدو أكثر حيوية. وقد يلاحظ السلوك الجيد والمظهر المقنع للمواطنين، ولكن يكون موضع شك إذا ربط هذه الأحوال مع عمل الإدارة مع الشرطة، والدخل والدائرة القضائية والبلدية وإعادة تنظيم المحاكم، وبند التطوير الزراعي والبستنة والسيطرة على الحنطة والأسواق في هذه الأشهر العجاف عندما كان ينبغي علينا إطعام السكان المدنيين. والأقل من ذلك كله هو الجندي في الشارع الذي من المرجَّح أنْ يدرك الطبيعة المعقدة للعامل والمستأجر ومالك الأرض والدولة، وصعوبة تنظيم حقوقهم وتقييم الممتلكات والضرائب مع عدم وجود سجلات للإيرادات أو سجلات

الأراضي للرجوع إليها. ومع ذلك، كان كل هذا يجري ويتم تطوير نظام بناءً على ما يبدو في المنظمات القائمة. واعتمدنا هذه الأمور وقمنا بتعديلها لتلبية الاحتياجات الجديدة مع الحفاظ قدر الإمكان على التقاليد المحلية وتوظيف مكاتب محلية.

ولإدراك الصعوبات التي تواجه الإدارة المدنية، يحتاج المرء في الأقل إلى معرفة سطحية لنظام أسلافنا. ويعرف المرء دائماً أنَّ الأراضي الخاضعة للعصملي تموت تحت يديه، وأن الأتراك لم يصلحوا حتى الآن خراب سلفهم هولاكو، وكان التدهور حيث حكم مؤكداً مثل المجاعة بعد الجفاف. وفي بلاد ما بين النهرين تثبت إحدى المقارنات بين الحاضر والماضي له أعظم عامل تقييم عرفها العالم. وكان كل سد قديم حيث تجري بعض قنوات التخصيب وكل آثار الأجيال المتحضرة التي سبقته، وكل فدان قاحل وخالٍ من الأشجار على ضفة نهر دجلة اتهام له وعار عليه.

وكان التركي يعتني بنفسه فحسب، وكان هذا لمدة ساعة فقط. وإن الحاكم العثماني لإحدى المحافظات التي أرادت الطبيعة أن تكون مثمرة، هي مثل الطفل الجشع الجائع وغير المسؤول الذي ترك مسؤولاً عن دولاب ومخزن ممتلئ ومجرد شهوة بدون مؤن. كانت هناك قصة حقيقية عن أحد المسؤولين الأتراك الذي يتفاخر بأن ميزانيته لم تظهر أية نفقات على الإطلاق، بل تتألف بشكل كامل من الوصولات. وأن جميع المسؤولين من المتصرف فما دون كانوا بدون أجر، ولكن كانوا يعيشون على المنح المشكوك فيها، بينما أهملت الإصلاحات والصيانة والأشغال العامة. وكان التركي محافظاً بدون فن المحافظة وبشخصيته المدمرة كان مولعاً بقطع الأشجار، لكنه لم يزرع منها شيئاً بتاتاً. ويكون مسروراً بالألعاب الباهظة الثمن والمتحضرة، ولكنه سرعان ما سينساها ويهملها مثل الطفل. وهكذا بالنسبة إلى مهنتي الميكانيكيين والطيارين التي كانت تعتمد إلى حد كبير على الألمان. وأنه (أي التركي) سيطلب أجهزة طبية حديثة جداً ويتركها للصدأ في المستشفيات حيث يرقد المرضى في محيط قذر جداً وغير صحي وجراحهم متعفنة وغير مضمدة. وستعتقد أن التعقيم كان موضع إعجاب بالنسبة له. وطورت الحكومة العثمانية في بلاد ما بين النهرين نظاماً زراعياً ممتازاً ومتقناً

على الورق، ولكنها في الواقع لم تتحقق وكان الشيء نفسه مع التعليم. ووجد لدى التحقق أن العديد من المدارس المشار إليها في ملفات الدائرة موجودة فقط على الخارطة. وكانت بغداد، وهي مدينة ذات سكان يبلغ أكثر من مئتي ألف نسمة، تحتوي على بنايات أربع مدارس حكومية فقط. وبالنسبة إلى التعلم، فإن محاولة قمع اللغة العربية الأصلية بتقاليدها الثقافية والتعليمية ووضع اللغة التركية بدلها كانت متوافقة مع سياسة الفساد العامة. وكانت اللغة التركية أيضاً هي لغة قانون المحاكم على الرغم من أنها لغة غير مفهومة لدى الجماهير من السكان. وكان النظام القضائي، مثل نظام الدخل والتعليم ممتازاً على الورق، ولكن في واقع الأمر كانت رواتب القضاة والموظفين الملحقين بهم غير وافية بحيث من المستحيل المحافظة على المستوى المحترم للأمانة والكفاءة.

ولكن دائرة الدخل أكثر من أي فرع إداري آخر كانت مسؤولة عن المأزق العام. وكان النظام التركي يقضي بتحويل الأراضي إلى الشيوخ. وسيقدم الشيخ كذا وكذا من المبالغ من أجل سقي الأراضي بواسطة قناة خاصة وروافدها. ولم يمنح المشتري أي ضمان عن مدة الخدمة، ولذلك لم يشجع لإجراء تحسينات وتجبره النسب العالية لتنعيم المعزقة (وهي أداة لعزق التربة واقتلاع الأعشاب الضارة النامية حول الزرع). وكان النظام فاسداً من الناحية السياسية، كما هو حال النظام الاقتصادي؛ لأنَّ الحكومة التركية حكمت بتقسيم الأراضي وإثارة العداوة بين شيخ وآخر بجعلهم يزايد بعضهم على أراضي البعض الآخر.

وكانت الرعاية واحدة من أكثر المصادر الثمينة لدخل الوالي ويستلم موظفو الدخل راتباً اعتيادياً. كان هدفهم إغناء أنفسهم وتحويل أكثر ما يمكن من المال إلى القسطنطينية، واستثمار أقل ما يمكن في الأعمال العامة والتطوير الزراعي. وفي بلاد ما بين النهرين وبسبب تأثيرات سوء الحكم المتواصل وفقدان السيطرة على الري، فإنَّ الأراضي المزروعة وحصاد المحاصيل تختلف من سنة إلى أخرى. وبالتالي تسلل هناك شر التخمين المتقلب، ويأخذ المخمِّن أكثر ما يمكن أن ينتزعه باعتقاده ولم يبالِ ما إذا ترك للفلاح أجراً كافياً أم لا. وكانت النتيجة الطبيعية من النظام هي الحد من النفقات والمبادرات. فقد ضاعفت الضريبة على التحسينات، كما جرَّبها

الفلاح وعلى مسؤوليته الخاصة، وسيصبح مفلساً إذا فشل محصوله، في حين يستنزف الجزء الأكبر من أرباحه في الدخل إذا نجح.

كانت بضاعة مخمن الضرائب الناجح تدعو إلى التفاؤل- وتقدير عالٍ لقيمة المحاصيل. وكان التفاؤل جارياً وغير ثابتٍ، وكان مخمن الضرائب منفتحاً إلى الاسترشاد في السعر. ويزور محمد أفندي حقول الفلاح، وسيعرض علي بن الحسين يديه متعجباً وسيصيح: «هذا رائع»، لم أشاهد أفضل من هذه المحاصيل في حياتي مطلقاً- محصول يبلغ (400) روبية لكل هكتار في الأقل. وسيتلقى المزارع هذا التقدير بوجه متجهم وسيحتج، مع الأسف ليست (40) روبية. وبعد مناقشة قليلة لفائدة مخمن الضرائب فإن الاختلاف بين (400) و(40) قد تكون خفِّضَت لصالح المزارع. وقد يقتنع المخمن لكتابة (40) روبية في سجله إذا كان المزارع مستعداً للدفع، ولكن لا يترك ثمن التلف الكثير في متناول اليد لدفع الضريبة البسيطة. ولم يكن بإمكان علي بن الحسين تجنُّب جامع الدخل. وإذا كان بطيئاً في دفع مستحقاته سيتم إرسال شخص من الجندرمة إليه ومعه حصان للركوب ليبقى معه، وإن عليه أن يطعم هؤلاء الضيوف وخيولهم إلى أن يضع نصب عينيه بأنه كان من الأفضل والأرخص بالنسبة له أن يدفع.

يستنتج من ذلك بأنَّ العربي قد أفاد من وجودنا في بلاد ما بين النهرين حتى يسمع بهامش كبير من الأخطاء، وكان لا بد لنا أن نبين أنَّ عملنا له خلال سنتين أكثر مما أنجزه المصلحون الأتراك خلال قرن. ولكن لا ينبغي أن نفترض أنه سيستقبلنا بذراعين مفتوحتين. وإن الآسيوي كقاعدة عامة، لا يحب الرعاية الأجنبية مهما تجلب له من فائدة، وإن الواقع إضافة إلى اسم الاستقلال أصبح أكثر أهمية من الروح. وبالنسبة إلى السكان المسيحيين في بلاد ما بين النهرين، كان الاحتلال البريطاني بدون شك نعمة لهم من الله، ولكن يجب أن نقلل الكثير من أهمية السلوك الأحمق الذي كتب عن العربي الذي كان ينتظر البريطانيين بلهفة لتحريره من نير الأتراك. ولم يهتم بأي أحد منا، إذ كلانا دخلاء. وكان حقيقياً أن التركي كجنس بشري مهيمن كان شخصاً لا يبعث إلى السرور في التعامل معه، وكان العربي ينتقم منه في أغلب الأحيان.

من جانب آخر، كنا نحن في الحقيقة كفوئين ورجالاً حسني النوايا، لكن العربي لا يقدر هذه المواهب كثيراً كما لو كان أوروبياً، وبشكل إجمالي في العقود البسيطة للحياة فإنَّ الآسيوي سيشعر أكثر وكأنَّه في موطنه مع الآسيوي.

ومع ذلك، كان هناك شيء واحدٌ يربط المزارع أو الفلاح العربي المستقر بالمسؤول الأجنبي بأطواق فولاذية. إذ إنَّ إيصال المياه إلى أرضه ستجعل محاصيله تنمو وتتركه يستمتع بها بسلام، وإنه سيذهب بعيداً خارج طريقه لتعويضك، وإنه سيسحبك إلى برجه الطيني أو إلى خيمته من شعر الماعز الأسود عند مرورك به، وسيعمل لك القهوة، وسيتوسل إليك للبقاء ومشاركته في تناول الطعام معه، وكان كرمه كإجراء للتعبير عن حبه لك.

كانت المرة الأولى التي جئت فيها إلى منطقة كبيرة حيث كان العرب يجاهرون بصداقتهم في أحد الأحياء بين الرميثة والديوانية، حيث كان من النادر رؤية الرجل الأبيض قبل الحرب. وفي بداية شهر شباط 1918 كان مشروع ري نهر الفرات الكبير قد غيّر وجه الصحراء، وكانت الذرة الخضراء تورق في كل مكان.

بدأ التغلغل السلمي في نهر الفرات من الفلوجة إلى الحلة في شهر نيسان 1917 بعد شهر من دخولنا بغداد. وقبل أن يسلك الأتراك أخيراً الطريق على نهر دجلة، بدأنا بالحصول على الموارد من نهر الفرات. وكانت الطرق من الحلة والمسيب إلى بغداد لشهور في أثناء الطقس الحار يحجبها غبار قوافل الجمال والحمير التي تنقل الذرة. ورُفِعَت الرسوم العربية لضبط الأمن في الطرق والقرى والمدن، وطُهِّرَ البلد من فرق اللصوص. كنا خلال فصل الصيف نعمل في مشروع ري يرتبط مع سدة الهندية وكانت السدة التي صممها السيد وليم ويلكوكس وبنتها شركة السيد جون جاكسون، قد أنجزت قبل الحرب، ولكن الأتراك لكسلهم أهملوا الانتفاع بها. وترك عمل شبكة القنوات المرتبطة بها غير كاملة، ولم يتم إيصال الري إلى الأراضي التي من المقرر أن تتم زراعتها.

يُقَسَّم نهر الفرات في الهندية على فرعين، شط الحلة إلى الشرق وشط الهندية إلى الغرب، وتلتقي القناتان من النهر مرة أخرى على بعد أميال عدة إلى الشمال من

السماوة. وكان فرع الحلة حتى القرن التاسع عشر يتحمل عبء القناة الرئيس، ولكن خلال القرن الماضي تحوَّل الجزء الأكبر من النهر إلى شط الهندية، الذي كان يشكل القناة الرئيسة لأكثر من ألف سنة مضت. كانت وظيفة السدة توفير المياه إلى فرع الهندية الذي كان يمتلئ بالغرين، بينما كان حوض فرع الهندية يطفح مما يؤدي إلى تبديد مياهه. وبعد شهر أو شهرين من وصولنا إلى العمل عليها، تم حفر ما يقارب من مئة قناة على فرع الحلة التي أسيء استعمالها، وخضع (300) ألف فدان من الأراضي للزراعة، وشهد صيف عام 1918 أكبر عملية حصاد في ذاكرة الرجل، ومن المحتمل أن تكون الأكبر منذ أيام نبوخذ نصر.

ولكن عمليات التطوير كانت مجرد جزء من المشروع. وكانت الأراضي على ضفتي فرع الهندية وإلى الأسفل من السدة إلى منطقة الكفل لم تتم زراعتها لسنوات عدة لأنَّ القنوات ضمن مشروع ويلكوكس لري تلك الأراضي قد أهملت. ولم يمضِ وقت طويل علينا في الوصول إلى العمل عليها، ففي شهر مايس 1917 وفور إكمال عمليات نهر دجلة، بدأنا بفتح مواقع على نهر الفرات. وكان العمل على القنوات قد بدأ في أوائل شهر حزيران، وتم الانتهاء منه في نهاية شهر تشرين الأول وأصبحت الأراضي التي ترويها خاضعة للزراعة. كانت هناك هوّة في مواصلاتنا بين الناصرية والحلة في الطقس الحار، ولكننا ردمناها في الخريف، وأنشأنا مخافر جنوب الحلة وشمال الناصرية، لذلك أدرنا البلاد بالكامل من البصرة وبقدر ما امتد تاليه أسلحتنا وكان توغُّلاً فردياً سلمياً.

وغنيّ عن القول، يُرَحِّب المزارعون العرب بالنظام الجديد. وأصبحت ممتلكاتهم التي كانت تحرث وتترك من غير زراعة غنية ومربحة. وكانت طوال فصلي الصيف والخريف مشغولة وتحصل على مياهها من القنوات بشكل واضح. ويشترك نحو (14000) عامل من العرب إلى الأسفل من السدة في عمل القنوات الجديدة وتنظيف القديمة منها. وكان تقريباً كل رجل سليم الجسم في المنطقة يعمل لصالحنا. وتؤثر أعمال الري في الهندية على الأراضي من الفلوجة وإلى الأعلى من مجرى النهر أعلى السدة بالإضافة إلى الأسفل من مجرى النهر إلى الكفل على فرع الهندية والديوانية على فرع الحلة. ويضع المشروع بالكامل آلافاً عدة من الأفدنة من

الأراضي تحت الري لزراعة الحنطة والشعير. وكان الجزء الأكبر من هذا أراضي حكومية في الصناعيات، وتحصل الحكومة منها على حصة تبلغ ثلث المحصول.

وهكذا فإنَّ ثلثي محصول الحنطة التي تم جمعها تقريباً تذهب إلى الجيش على شكل إيراد. وإن أول شحنة من جميع الأراضي المزروعة كانت عائدات على شكل تعويضات عن نفقات البذور التي وُفِّرَت للزراعة وعن السلف الضرورية المقدمة إلى المزارعين.

كان تأثير العمل الذي كنا اشتغلنا به على نهر الفرات بعيد المنال، وجلب مشروع الري حنطة كافية لإطعام جميع الجيش المتقدم، وخفضت الحمولة المطلوبة من المواد الغذائية على خطوط المواصلات بنحو آلاف الأطنان، وحررت قاطرات السكة الحديد والنقل النهري من التقدم والمعدات الأخرى. فضلاً عن الحديث عن الاقتصاد، إذ إنَّ تطور المنتج المحلي أثّر على الشحن فيما وراء البحار. وفي الوقت نفسه كانت مخافرنا الاعتراضية على النهرين تمنع المواد من المرور إلى العدو، بينما نقوم بجمع المؤن وإرسالها إلى قواتنا. ومن ثم كان هناك الجانب السياسي لتطوير نهر الفرات الذي سيكون في النهاية إن لم يكن عاجلاً أمراً مهماً. لم تكن الأراضي الغنية المحروثة والمتروكة بدون زراعة فقط، بل أصبحت القنوات بدون استعمال بسبب الحالة غير المستقرة في البلاد، وخرَّب الأتراك المناطق المضطربة لتجميع المحاصيل، ونُبِشَت مخازن الحنطة ودُمِّرَت بشكل طائش. والآن، وبينما نقوم بإطعام أنفسنا نقوم بإغناء المزارعين ونجلب الاستقرار والاطمئنان حيث لا توجد واحدة منها من قبل.

وكان العرب عقلاء بشكل واضح وكان الأتراك عندما أخلوا المنطقة يريدون تدمير سدة الهندية، لكن رجال العشائر حافظوا عليها. وقاموا بإزالة الأعمال الخشبية من البيوت ذات الطابق الواحد، وجميع التجهيزات المعدنية والنحاسية، وقطعوا الأحزمة الناقلة لحركة المكائن ونهبوا كل شيء في متناول اليد، لكنهم تركوا السدة ومنظم قناة الحلة سليمة. كانت هناك قيمة كامنة فيها، وكان الحذر له ما يبرِّرهُ.

يعلم العرب أن الأتراك لن يقدموا لهم شيئاً، ولن يدفعوا لهم إيرادات إذا كان

بإمكانهم المساعدة فيها، لكن جميع الإيرادات على نهر الفرات لم تعد بحاجة إلى قوة عسكرية. وأصبح دفع الضرائب استثماراً، ولأنه لا يوجد مزارع في العالم لن يمد يده للحصول على الماء لريّ حقوله الخاصة. ويقدر العرب طريقة الريّ على الرغم من أنّهم لا يبرعون فيها، وجئنا نحن إليهم إلى نهر الفرات كمخصبين للتربة. وكان الشيخ الكبير يتكلم من صميم قلبه عندما قال لأحد سياسيينا: «ولا حكومة أخرى ما عدا البريطانية ستأخذ المشكلة بقلق حول مياهنا بينما كانوا هم يقاتلون».

وفي شهر شباط نزلت إلى فرع الحلة وإلى السماوة، ومن الهندية إلى الكفل والكوفة. وكانت الجيوش من الرجال الذين التقينا بهم مشغولين مع المجارف- مجرفة على رأس عمود طوله ست أقدام والذي يقوم العربي بواسطتها بتعديل قنوات الري التابعة له بشكل دائم ويوجّه الماء إلى الحقول. وكانت الأحزمة الغنية بالزراعة على حافة الصحراء خضراء بشكل منعش. ويلح الشيوخ في كل مكان بأن نتناول الغداء أو نشرب القهوة معهم، ويسحبوننا إلى ملاجئهم الطينية ويفرشون السجاد لنا بجانب الموقد بينما هم يقومون بتحميص القهوة ودقها وتصفيتها، ويسكبونها من إحدى القدور البارزة إلى قدر آخر (الدلة) مع الاستمتاع الكامل بعادتهم. وكانت الذكريات القديمة للعرب لا تزال منتعشة، واشتياقهم لتسلية الغريب والجلوس والحديث معه، وسهولة انقياد مهورهم (وهي صغار الخيل) التي كانت تقفز جيئة وذهاباً من المركب مثل قطة أو كلب، وكانت بقدر أفراد العائلة نفسها. وسافرنا بالزورق وأبحرنا عندما كانت الريح مناسبة، أو على ظهور الخيل أو بالسيارة حيث يوجد طريق، وفي طرق متعرجة فوق قناطر لا تحصى. إنه تغير يبعث إلى السرور بعد أن كان البلد مقفراً والذي شققنا طريقنا من خلاله ببطء إلى أعلى مجرى نهر دجلة وكان أفضل جزء منها هو السعادة المرئية والمسموعة. وغنّى رجالنا الخيالة بسعادة عندما ركبنا فوق السهل، وكانت أنشودة رجال الزوارق في الليل يجيب عليها الفلاحون وهم يغنون إلى جواميسهم في أثناء عملية رفع المياه التي كانت تحدث صريراً مثل عازف كمان مخمور.

الفصل الثامن والثلاثون

الإنجيل ومدينة بابل

كان هناك اهتمام كبيرٌ في البلد الذي كنا نحتله على نهر الفرات، ومتى ما وجدت فترة هدوء في العمليات، أجد نفسي هناك، واستولينا على الفلوجة خلال فترة الحر، بينما استولى الأتراك على الرمادي. وإلى الجنوب من ذلك، فقد توغّلنا بدون مقاومة إلى الحلة والمسيب وسدة الهندية، وأقام سياسيونا في كربلاء والنجف. لكننا لم نقم بربط المواصلات واحتلال المنطقة بين الحلة والناصرية إلى أن حلّ الطقس البارد. وكانت هذه المنطقة في الغالب خالية من الأتراك ما عدا إحدى المفارز الصغيرة، التي كانت قد تركت في الخلف في الديوانية مسؤولة عن المخازن والمرضى خلال عملية انسحاب الأتراك من السماوة إلى الرمادي وكانوا لا يزالون موجودين في نهاية الصيف.

وفي شهر تموز، استسلم عدد من حراس الحامية إلى سكان المدينة وقد سُلِّموا إلينا، لكن أحد الضباط مع ثلاثين رجلاً- أغلبهم من التتر من القوقاز- رفضوا الاستسلام. وكان محمد أفندي، قائد هؤلاء المعاندين رجلاً استثنائياً بما فيه الكفاية ويستحق الانتباه، وعلى وفق الدليل الإنساني سيأتي ضمن شخصيات «غينس». كان ملازماً في الأربعين من عمره، وارتقى في الرتب وله خدمة تبلغ عشرين سنة وشهد ثلاث حملات عسكرية. وكان ضابطاً شاباً في المفرزة في الديوانية، لكنه عندما رأى الحامية كانت تتلاشى تولى القيادة وألقى القبض على الضابط الأعلى وشنقه وأطلق النار على ضابطين آخرين، وأصاب ثلاثة آخرين بجروح في أثناء عملية هروبهم. وقد حصلت على الرواية في البداية من الضابط السياسي الذي استسلم له في النهاية وقدم إفادته. ووصف صديقي محمد أفندي كشخص أنيق وقبعته تميل قليلاً إلى جانب

واحد ومتبختر قليلاً وكان رجلاً يحب القتال. وكانت له أيضاً سمعة جيدة بوجود شيء من / دون جوان/ وأطلق النار على إخوته الضباط، وأوضح أنهم كانوا يشبهون النساء وخونة لبلدهم وإلى الشرف العسكري. وقال إنَّ ذلك كان معيباً بالنسبة للتركي أن يستسلم إلى العرب وإلى المدنيين، وأنهى إفادته بقوله: «الله أكبر».

كانت الديوانية أيضاً بعيدة جداً عن مخافرنا وكان لدينا الكثير من العمل بين شهري آذار وأيلول لفتح الاتصالات وإرسال القوات إلى هناك. وما كان ليجري مفاوضات ويستسلم بشرف إلى أن جاءت طائراتنا وقصفت السراي الذي كان محمد أفندي وجنوده من التتر يستولون عليه ضد العرب. وعندما سلم نفسه طلب السماح له للقتال في أي مكان وبأي إمكانية مع شريف مكة كخيار له، أو في إحدى كتائبنا الهندية. كان جندياً قديماً، كما أوضح، ورجلاً قوياً وكان يتواجد دائماً في مقدمة المعركة.

هكذا كان تقديم محمد أفندي لنفسه، وهكذا ظهر في السياسة، وهو تركي من المدرسة القديمة، مرفوع الرأس وأكتافه أعلى من زملائه. ولكن المرء دائماً يحب أن يسمع جانبين أو أكثر لقصته، وكنت أتساءل كيف ظهر للعرب وإلى أهالي الديوانية. وبعد بضعة أشهر من استسلامه، كنت في هذه المدينة البعيدة، وفي تلك الأيام تكون شبه مهجورة على فرع الحلة من نهر الفرات، وقابلت أحد المواطنين السوريين الذي كان هناك عندما أبقت المفرزة السراي في حالة حصار، والذي كان قد رأى القائد السابق معلقاً فوق البوابة في صباح أحد الأيام وهو مربوط بحبل إلى نهاية العارضة البارزة. وكان محمد أفندي، كما يمكن تصوره قد وفر الكثير من أجل نشر الإشاعات في المقاهي والأسواق في هذا الموضع الخلفي المنعزل.

ظهر لي السوري فوق السراي وأشار إلى الحفرة التي في الأرضية المبنية بالقرميد، حيث تم دفن الضابطين الآخرين والبئر التي حفرها محمد أفندي عندما لم يعد هناك طريق للوصول إلى النهر، وهناك آثار الرصاص على الطابوق المجفف بالشمس أينما يواجه الجدار فتحة والتي من خلالها يمكن للمحاصرين بشكل طارئ أن يغرزوا رصاصة. وأراني الغرفة الصغيرة، وهي واحدة من ألف من مثل هذه الغرف

المألوفة في كل سراي ومفتوحة إلى الشرفة فوق الفناء، وهي غرفة صغيرة مستطيلة بيضاء مع تجاويف في الجدار- مجرد 14 × 9 قدم. وتصرف محمد أفندي على وفق القرار ورفس فجأة باب الغرفة الصغيرة وفتحه، وكان مسدسه بيده، وأتباعه الأربعون خلفه وفتح النار على مجموعة من الضباط وهم جالسون على الفراش ومتكئون على الجدار، يدردشون أو يلعبون الورق. ومات اثنان منهم في الحال قفز القائد إلى الأعلى وصرخ رافعاً يديه:(لا تطلق النار علي!) ولهذا أجاب محمد أفندي ساخراً: (كلا أنا لن أطلق النار عليك) وأضاف أنهم قبضوا عليه وقيّدوه وشنقوه بالحبل من حاجز الشرفة من السقف، وعندما مر العرب في الصباح شاهدوه معلقاً هناك. وكانت جدران الغرفة وأرضيتها ملطخة بالدماء الجافة، وكانت الجدران منقرة بثقوب الرصاص. وكانت هناك في الخارج في الشرفة المزيد من آثار الرصاص. ولكن كان هذا في الأغلب من عمل المحاصرين، وجلس العرب في الخارج ويطلقون النار إلى الداخل. وعندما كان الجنود في الخامية جياعاً وتنفد لديهم المؤن قاموا باستبدال البنادق والذخيرة مقابل الغذاء. صمد محمد أفندي بها حتى جاءت الطائرات وألقت القنابل على السراي، وقال في إفادته إنه نتيجة عزله، مع انقطاع إمداداته فإنه يعد الاستسلام للبريطانيين أمراً غير مشين، ولكن لا للعرب والمدنيين مطلقاً.

ورغبة مني لسماع وجهة نظر السكان المحليين، سألت المواطن السوري لماذا قتل محمد أفندي قائده؟ ليس لدى الرجل حجة متقنة يقدمها وقال ببساطة تامة: إنَّ محمد أفندي هو القيادة. وأضاف: إنها ليست المرة الأولى التي يتولى فيها هذا التركي المحب للقتال فتح النار بنفسه على ضابط أعلى منه رتبة بتهمة الخيانة.

وقد أشرت إلى أنه الدافع الأكثر جدارة بالاهتمام. ولكن السوري اعتقد بوضوح أنها فكرة بعيدة الاحتمال. فإن محمد أفندي لم يستسلم للعرب، ليس لأنه يعتقد أنه غازٍ، ولكن لأنه يعتقد أنها غير آمن، وأن العرب لن يستثنوا الحامية.

وتبنّى مواطن آخر من سكنة الديوانية وجهة النظر القائلة إنَّ محمد أفندي قتل الضابط الأعلى منه رتبة ليكون متميزاً وأن يكون موقفه جيداً في عين القيادة العليا. كان تقييمه لأفندي تقييم السوري نفسه إلى حد كبير، واكتشفت أن هذا الرأي كان

مقبولاً بشكل عام في المدينة، على الرغم من أنَّ هناك واحداً أو اثنين ممن اتفقوا على أن محمداً كان بلا شك مجنوناً. فإن الشرف والمروءة أو الوطنية بوصفها دافعاً لن تُقنع أحداً.

وقد اختفى محمد أفندي عن أنظارنا، وربما كان الآن في أحد سجون المخيم، وأنا أتساءل في كثير من الأحيان أي نمط من الرجال كان هو. أعتقد أحياناً أنه أصيل ووطني شديد وعازم على القتال حتى النهاية، وفي أوقات أخرى أعتقد أنه بمثابة مغامر متهور متنكر في زي رجل ذي شرف وانضباط قوي، واضع نصب عينيه الفرصة الرئيسة طوال الوقت.

مهما كانت دوافعه، كان محمد أفندي رجل عمل، وربما ليست شجاعة ولا مجاملة كان يوصف بأنَّه عديم الضمير وبذيء اللسان. وسواء أكان قد اعتقد أن الاستسلام هو غير مشين أم غير آمن فإن ذلك لا يهم كثيراً. فإن النقطة هي أنه حقق فوزاً ساحقاً على الهاربين، ويجب أن يعتقد المرء أن هناك شيئاً من روح بليفنا القديمة فيه، وأنه كان مقاتلاً في إحدى الألعاب، وهذا النوع من الرجال هو الذي سينفق خرطوشته الأخيرة في الخندق الأخير.

كان السراي في الديوانية مسكوناً بأشباح الأتراك غير السعداء الذي خرج محمد أفندي عن طريقهم. كنا في قلب مدينة بابل، وإذا كان الحدث قد وقع قبل أربعة آلاف سنة فإنَّه مما لا شك فيه ستمنح نفسها فصلاً في الأسفار المقدَّسة، وإنَّ شخصية محمد أفندي سيتم رسمها بألوان لا شك فيها، وإنَّ اسمه سيكون مألوفاً لدى الجميع في القوة كقاتل منصف أو كسوط محدد من السماء. ولكن عندما وقعت حادثة الديوانية، وبعد يوم واحد فقط، فمن المشكوك فيه أن واحداً في الألف منا قد سمع بوجوده. هناك ما يكفي من المآسي في أسفار موسى الخمسة في أسبوع مزدحم بالمعارك الفاصلة.

ومع ذلك، كانت أعيننا في كثير من الأحيان ترنو إلى الماضي. وإن المساحات القاحلة، حيث كانت قواتنا والجنرال الينباي يقاتلون والصحراء التي بينها تمتد على كل أرض السفر المقدس، من القدس إلى بابل ومن بابل إلى الشوش، سوسة القديمة

أو من الشوشان إلى الكتاب المقدس. وكانت قواتنا الخيّالة تعسكر بجانب قبر دانيال في بلاد فارس، وتعمل سياراتنا باستمرار على طول طريق بابل القديمة-أكباتنا. وفي الكوفة على نهر الفرات، كان لدينا مستودع للمؤن لا يبعد مئة ياردة عن المسجد الذي بني على الموقع حيث أُلقي النبي يونس فيه من قبل الحوت.

مررت أنا بهذه البقعة التاريخية عند قيادة السيارة من النجف إلى الحلة، وبعد نصف ساعة من تركها وراءنا وجدنا بالمصادفة ميزة أخرى من الكتاب المقدس، وهي أثر قديم من يهود بابل، بين مجموعة أشجار النخيل في الكفل بجانب المنارة المائلة والمتهدمة وهي قبر (حزقيال)، وهو ضريح يحترمه المسلمون واليهود على حد سواء. وهو واحد من بين عدد قليل من الأضرحة في بلاد ما بين النهرين التي قد يزورها المسيحيون. ويدعوك الأوصياء للدخول ويصيحون من أجل الحصول على الصدقة. وتعود الآثار التالية التي يمر بها المرء على الطريق إلى السلالة الحاكمة والإيمان التي لم تترك أوصياء لتشجيع الزوار أو طردهم.وإلى اليسار أفراد النمرود وتلة من الأطلال، مع أسس من الصخر الذي يشبه الطابوق تحيط بها، وعلى وفق تقاليد العرب، فإنَّ كل تلك البقايا كانت تعود إلى برج بابل.

ولكن يأتي عالم الآثار مرة أخرى إلى هنا مع أبحاثه المخيبة للآمال ويخبرنا أنه مبنيّ حديثاً، بني على وفق أحدث طراز من قبل نبوخذ نصّر في الموقع وبقي البرج في المرأى حتى يدخل المرء في الحلة. نحن هنا على أرض أكثر رسوخاً، وتتفق البحوث العلمية والتقاليد المحلية على ذلك. وإن الحلة هي فرع من بابل وإن طوب نبوخذ نصر قوي الأساسات. وتقع حفريات المدينة القديمة على بعد نحو خمسة أميال شمال المدينة، وإن العلماء الألمان، إذا كانوا طلقاء، سيشيرون لكم إلى الركائز التي تدعم الجنائن المعلقة، وإلى الفرقة المثالية التي رأى فيها بيلشاصر الكتابة على الجدران.

يمكن للمرء أن يقود السيارة من بابل إلى النجف قبل الغداء ويرى كل هذه الطبقات المتماسكة من التاريخ على الطريق. ويتحد السهل شينار السومري والسهل الإسلامي في الكوفة.وهنا مُثِّلت المسرحية المأساوية لآل محمد، وإذا كان سائق

الشاحنة الفورد لا يريد أن يكلف نفسه عناء قلق رأسه كثيراً حول النبي يونس ونبوخذ نصر وحزقيال، قد تكون على يقين من أن الجندي الهندي المسلم -ولا سيما إذا كان شيعياً- سيبتهج لرؤية الأرض المقدسة الأصلية حيث قتل الإمام علي، والمسجد الذهبي في النجف الذي يحدد ضريحه.

لم ينمِّ الجندي البريطاني على الإطلاق معنى تاريخياً في بلاد ما بين النهرين أو روحاً رومانسية. لم تكن الأرض غنية جداً بجمعيات الكتاب المقدس كما في كنعان، حيث كان رجال الينباي يقاتلون الأتراك على بعد بضع مئات من الأميال من جناحنا. ويمكن أن يكتشف الطلبة آثار الأسر ثم نقل اليهود بعيداً إلى بابل، وفي أطلال أور التابعة للكلدانيين، فقد يكتشفون طابوق العصور القديمة التي كانت مغمورة بالماء في أكثر من طوفان. وإن الطوفان هو قصة ذات مصداقية سهلة في بلاد ما بين النهرين- ويكرر الفيضان نفسه في السنتين الأوليين من صراعنا نحو بغداد. ويمكن للمرء أن يتخيل حمامة تبحث عبثاً عن مكان تحط بين الكوت وعلي الغربي، ويشعر المرء أنه من الطبيعي أن الناجي الذي لديه ذكاء لإنقاذ نفسه في أنموذج بدائي للطائرة التي رأيناها على نهر دجلة اليوم ينبغي له أن يتخيل أنه كان من وحي السماء، ونقل إلى الأجيال القادمة أسطورة فضل مكافأته، ولكن الطوفان كان قصة أكثر قدماً من نوح. هناك الأساطير السومرية المستقلة والأساطير البابلية محفوظة منذ تاريخ طويل قبل أسطورة السفينة العبرية.

ويمكن لأولئك الذين نجوا من حرارة شهر تموز عام 1917 أن يتخيلوا قصة شدراخ وميشاخ والعابث، أو إذا كان هناك أي شك في أذهانهم يجب أن يكون حول الأصل الاصطناعي للقرنة. إنَّ أسطورة القرنة-عدن هي أقل مصداقية وإن الشكوك الشخصية فيما يتعلق بحقيقة الأسطورة تتولد نتيجة البحث التاريخي. ويبدو أن القرنة هي موقع ذو سمعة طيبة، لم تنشأ من البحر في أيام نبوخذ نصر. وفي ظل هذه الظروف لا يمكن للمرء أن يلقي اللوم على أحد أفراد الشرطة الذي أبدى ملاحظة حول «السيف الوهاج» والذي لم يضحِّ في النهاية من أجل رؤية «شجرة معرفة الخير والشر». وخيبة الأمل الأخرى هي أن قبر عزرا لم يكن حقاً قبر عزرا بعد كل شيء. وإذا كانت عظام الكاتب تكمن تحت العارضة فقد تم نقلها من المكان الذي كانت قد

دفنت فيه أصلاً؛ لأنَّ الضريح يقف على ضفاف نهر دجلة منذ ألف عام، وكان النهر منذ تلك الأيام قد غيّر مساره. وكان يجري دائماً لتثبيط حماسة العصور القديمة من جراء النقد العالي وإن بابل، إذا لم يكن صحيحاً، هي أفضل حكاية وجدت في سفر التكوين ويشاهدها المرء كل يوم. تظهر لغة جديدة لزيادة التشويش الأصلي والمتفق عليه في الإنكليزية والعربية والفرنسية. وسألني أحد المواطنين العرب في الرميثة أين سيكون مسار «السكك الحديد» الجديد. يدعو رجل الصحراء سياراتنا بالفواتير القوية أو «طرنبيل» أي الحكم أو «السيارة»، وهي كلمة تطلق حقاً لتسمية الأشياء بحسب لفظها. فالولد الصغير الذي يحمل تحفة مزورة في بابل يطلب منك شراء إحدى التحف، وإن كلمة المقاول مؤلفة من عقد مضافة إليها اللاحقة (كي) التي تدل ضمناً إلى «الوكيل». وتستخدم كلمة (أبو) أو (الأب) كبادئة تنقل مئة تسمية جديدة. فالزورق الحربي (أبو الأحمر)، أو(أبو الأشرطة الحمراء)، والضابط السياسي هو (أبو الأبيض)، أو(أبو الأشرطة البيضاء)، والرجل السمين (أبو بطن)، والمبشر المعيَّن في بيروت (أبو قِدر) بسبب قبعته العليا المعتادة.

وفي عدن، أسمع أن العرب قد صاغوا فعلاً من كلمة إنكليزية تعويضية لمجرد ملء الفراغ، ولسوء المعاملة فتم تصريفه بكل صيغة وأنا ضبطته وهو ضبطني... إلخ، في التصاريف العربية. وبالطريقة نفسها، صاغ العرب في بلاد ما بين النهرين فعلنا «للإنهاء». وانتشرت من البصرة إلى سامراء وإلى القرى النائية في الصحراء. وكانت التحية المألوفة بين العرب عندما ذهبنا إلى الأعلى من مجرى نهر دجلة هي «انتهى الأتراك» وتقترن دائماً بإشارة بليغة بالحقيقة النهائية.

كان الجندي البريطاني أيضاً يوسّع مجموع مفرداته اللغوية، وهناك كلمتان عربيتان الأكثر شيوعاً وهما (امشِ) أي اذهب، و(ماكو) يعني ليس هناك شيء، لا يمكن الحصول عليه، وهي الأولى التي يتم التكيف معها. كانت هناك منطقة صغيرة على نهر الفرات حيث كان القرويون يدعون (بالامشيز) من الضباط والمراتب البريطانيين. وتوحي الكلمة بالاختفاء، وهي ملائمة جداً. أنا أعرف حالة واحدة فقط التي كانت تستعمل فيها كلمة (ماكو) للفرد، وكانت تلك هي «ماكو أفندي الرمادي»، وهو الرجل العجوز الجليل والرائع، ويعني نوعاً من المستخدمين والمقاولين

والوكلاء العامين، وقد ورثناه من الأتراك. وكان يقف وكفّاه منحنيتان نحو الخارج ويستريح على وركيه، وعيناه ثابتتان إلى الأفق البعيد، وخاليتان من الأمل تجسيداً لكلمة (ماكو). وقال لي الملازم الأول إذا كنت تتحدث عن العمل، فإنه سيسقط كل ما له علاقة بكلمة (ماكو) بجانب الساحة. وفي البصرة تسمع الجنود ينادون (بالبلم)، وإنَّ البلم في العربية هو القارب، وإن (بل) يعني حرف جر، ولكن توماس أتكينز لم يكن صفائياً مطلقاً (أي تابعاً للمذهب الصفائي) حتى في لغة بلده، وسمعت أن عريف كتيبة المانشسترز يتحدث عن القباب والدمى المتحركة في بغداد.

كان الاعتقاد الخاطئ الشائع عن هذا البلد قد تبدد، وعندما كنت مستلقياً في إحدى الشاحنات في محطة السكك الحديد في السن قبل أكثر من عام، سمعت أحد الجنود يشرح لأصدقائه بأن بلاد ما بين النهرين كانت صومعة العالم، وأن القمح والشوفان والشعير وحبوب الجاودار تزرع في كل مكان، وكان الحشيش يصل إلى ركب المواشي. وكان أصدقاؤه يشكون من ذلك، وقال أحدهم، هنا صومعة العالم، ثم لماذا لم تكن صومعة الآن؟ ولكن الذي كان يمجِّد في المرات السابقة كان جديراً بهذا التوجه وتساءل متهكِّماً، ألم تعلموا كيف أكل يهوذا التفاحة ولعن الإلهُ الأرضَ؟

كان هناك، مع ذلك، رجلٌ أكثر حكمة منه في الشاحنة كما أوضح صوت ثالث في الظلام. أنه ليس يهوذا، بل حواء هي التي أكلت التفاحة، وثم ألم تكن قد نسيت ذلك السيد الذي يعرف كل ذلك.

كان ذلك قبل أن نستولي على الكوت، وأعتقد الآن، إذا كان أي ثلاثة من الجنود الذين ناقشوا مصدر الخراب في سكك حديد العربات في السن التي شهدها البلد بين الهندية والسماوة، فإنه سيعترف بأن اللعنة قد حلَّت على الأرض من يهوذا أو حواء أو أي كان المسبب، وهو مجرَّد جزئي. وإن بلاد ما بين النهرين كانت ستصبح صومعة كبيرة جداً حتى الآن.

لكننا وجدنا البلاد أرضاً ميتة. ويمكن رؤية اليد الميتة للأتراك في كل مكان. وإنّ إقامة السدود لقنوات الري القديمة تقف فوق مستوى البلاد والسواتر العالية المتصدِّعة على بعد نحو خمسين ياردة، وبشكل عام حُفِرَت قناة جديدة خلفها كساتر

ثالث، عندما تبيَّن من السهل حفر قناة جديدة بدلاً من مواصلة تنظيف الطمي في القناة القديمة. ولكن يد التركي كانت جيدة عندما يكون في الخندق، لا يحفر ولا يدع الآخرين يحفرون بطاقة كافية لتسميد الأرض، وإن هذه السواتر تمتد في أفق الصحراء تشهد على الميراث المهدور.

وكان مُعَدَّل الوفيات على جانبي نهري دجلة والفرات هو الشيء الأكثر وضوحاً الذي تراه العين عندما يركب المرء السيارة إلى الخارج، ولكن الشيء الأكثر موتاً من بين الأشياء الهامدة في بلاد ما بين النهرين هو بابل. قمت بزيارة المكان في شهر أيلول عام 1917 مع رجل محلِّي، كما زارها هذا الضابط، الذي كان عمله هو اكتشاف الحياة في الأماكن الميتة ظاهرياً، التي لا يمكنها إنتاج أي شيء حي من تحت الأنقاض. وتقع التنقيبات على الضفة اليسرى من شط الحلة، والغربية من قناتي نهر الفرات والتي تتشعب إلى فرعين في الهندية. وتبعد نحو ستة وخمسين ميلاً من بغداد مدرسة الشعر القديمة التي تقدر المسافة إلى بابل بنحو ثلاثين ميلاً، ويمكن للمرء أن يصل هناك خلال الفترة بين الفطور والغداء إنْ لم يكن على ضوء الشموع.

قبل عشرين عاماً وعندما زرت الموقع، كانت الأرض بالكاد مُخدَّشة بواسطة حفارة آلية محترفة، على الرغم من أنَّ لصوص الطابوق كانوا مشغولين باستخراجه هناك طوال قرون. وتَدين مدينة الحلة الحديثة بالكثير إلى أفران نبوخذ نصر، وكان السد التركي غير المستقر في الهندية قد بُنيَ خارج أطلال مدينة بابل. وكانت الحفريات قد بدأت من علماء آثار ألمان في شهر آذار عام 1899، وكان ما بين مئتين إلى مئتين وخمسين عاملاً يعملون يومياً صيفاً وشتاءً إلى أن وضعت الحرب حداً للعمل. يقف بيت البعثة على ضفاف الفرات، ويحتوي على المتحف الذي وضعناه تحت حراسة عربية. وقد جمع البروفيسور كولدوي ملخصاً موجزاً للأعمال في «حفريات بابل» مكملان، 1914. وبمساعدة هذا المجلد مع رسومه التوضيحية ومخططاته يمكننا تحديد الموقع الرئيس. ويعود الجزء الأكبر من المدينة الذي أظهره الألمان إلى النور إلى الفترة الحديثة نسبياً لنبوخذ نصّر (561-504 قبل الميلاد)، ولكن كانت هناك آثار في الأطلال تركها الملوك البابليون الأوائل (حوالي 2500 قبل الميلاد)، وتكشف الطبقات المتتالية الشوارع والمنازل التي بنتها السلالات الحاكمة

المتعاقبة من الحقب الآشورية والبابلية الجديدة والفارسية والبارثية-اليونانية. وكانت هناك أيضاً آثار تعود إلى بابل ما قبل التاريخ، ولكن من المستحيل تنفيذ حفريات إلى هذا العمق بسبب ارتفاع مستوى المياه.

وكانت أسوار مدينة نبوخذ نصّر، سوراً ثلاثياً، والجدران الخارجية والداخلية بما في ذلك جدار الخندق الأسفل بسمك يتراوح بين (17) إلى (22) متراً. وبإمكان مجموعتين من أربعة خيول جنباً إلى جنب تمرير بعضها البعض الآخر على الحاجز الخارجي، وكانت الجدران مرتفعة. وكان المحيط بأكمله، على وفق أدلة الحفريات، يبلغ (18)كيلومتراً، ولكن المؤرخ اليوناني ستيسياس قد قدَّرها بأربعة أضعاف، وهيرودوتس بحوالي خمسة أضعاف هذا المحيط، وبصرف النظر عن هذه المحيطات، كان الوصف العام للمؤرخين دقيقاً. وتقع على جانبي السور على نهر الفرات وتمتد على الجانب الآخر بحيث تشكِّل المدينة مثلثاً يجري النهر من خلاله بشكل منحرف. ولكن حتى الآن لم تكن هناك آثار لبابل يتم العثور عليها في الضفة اليمنى، وكانت جميع الحفريات على الضفة اليسرى من مجرى النهر. لم تكن تبعد سوى بضع مئات من الياردات من منزل الألمان إلى القصر، أو الأكروبوليس، وسط المدينة، والأكثر شهرة من الربايا الكبيرة الثلاث في بابل. وكانت الحفارات تعمل أكثر نشاطاً هنا، وإنهم اتبعوا خط طريق القصر والشارع الواسع الذي يؤدي إلى بوابة عشتار، التي عملها نبوخذ نصّر كطريق موكب إلى الإله العظيم مردوخ، ويؤدي إلى معبد إسحاق. وتقف جدران باب عشتار على ارتفاع أربعين قدماً فوق الأسس وهي مغلَّفة برسوم الثيران والتنين بالطابوق. يمكن للمرء أن يكوّن وجهة نظر عن المدينة كلها من القمة حتى الجدران الخارجية. ويبدو أنَّ جزءاً من طابوق ترصيف الشوارع لا تزال موجودة مغطاة بالإسفلت الذي يُشكِّل أساساً أحجار الكلس الهائلة من الطريق المُعبَّد. كان باب عشتار المزدوج إلى حد بعيد الميزة الملفتة للنظر في بابل الذي تم اكتشافه، ويتجسَّد في مقدمة أغلب مشاهدات عين الطير التي يراها المرء من الحفريات. وإن الصفوف الأفقية التسعة من الثيران والتنين هي البديل، ولم تكن الصور مختلطة. وكان الثور هو الحيوان المُقدَّس عند الرومان، وكان التنين لدى مردوخ والنابو. وهو وحش ذو حراشف وذو رقبة ورأس ولسان أفعى متشعِّب وسن فهد ومخالب قدم نسر مع ذيل ينتهي بإبرة لدغ صغيرة منحنية.

هناك شيء آخر، مزخرف لجذب العين غير المُطَّلعة على بابل. وتم نسيان الفضة والذهب والأحجار الكريمة التي ملأ فيها الملك (سردا نابالوس) (وهو آخر الملوك الآشوريين الذي توفي عام ستمئة قبل الميلاد) إنه معبد إسحقيلا. وتمت الآن إزالة هذه الصور والأبواب المزدوجة المصنوعة من خشب الأرز المغلَّفة بالنحاس والثيران المعمولة من البرونز والسقوف من خشب الأرز والعتبات والمفاصل من النحاس. وكان هناك الأسد الشهير مقطوع الرأس يقف على فريسته الإنسان يرتفع عالياً فوق قمم السطوح منذ زيارتي الأخيرة نظراً لأعمال التنقيبات طوال الوقت. وكان هو والنحت البارز في الطابوق للثيران والتنين على بوابة عشتار الصور الوحيدة التي من المرجَّح أن تبقى في ذهن الزائر المشرع الذي لم يتلقَّ معلومات عنها. وبالنسبة للبقية كانت هناك صور ذهنية لجدران من الطابوق بدون شبابيك أو مدرجات وعدد قليل من الأبواب. ومن الصعب معرفة ما إذا كان المرء يقف على السطح أو على الأرض في بابل. وقد أصبحت سطوح إحدى الفترات أساسات الفترات التالية، ومع ذلك فللخروج من هذا الإرباك قام علماء الآثار ببناء المدينة القديمة. واكتشفوا ما اقتنعوا به أنها كانت غرفة مآدب بيلشاصر والسطوح المقببة التي تناقشوا فيها مع الكثير من الأسباب الضليعة، التي تؤيد الجنائن المعلَّقة. وبشكل عام، وعلى الرغم من الطبقات المتراكبة من الأجيال المتعطِّشة التي وطؤوها واحدة تلو الأخرى، فإن تحديد المواقع في بابل هو أسهل مما كانت عليه أغلب المدن المدفونة. ويرجع هذا إلى النقوش على الطابوق وحجر النحيت. وبالنسبة إلى ملوك بابل فقد كانوا متكبِّرين بشكل ملحوظ. وقد تركوا بصماتهم في كل مكان بشخصيات جديرة بالثقة. وبسبب لعنات سردا بالوس على رأس كل من يسعى إلى تدمير سجلات اسمه: «جلالته مردوخ ملك الجميع قد ينظر بغضب ويخرب سمعته وبذرته في الأرض». وعمل نبوخذ نصَّر شعاراً يتم نقشه على كل طابوقة ليمجِّد عمله. وكان هو وجميع أسرته غيورين على سجل أسمائهم. وكان العديد من حجارته وطابوقه منقوشاً بأسماء الشارع أو البناية المخصصة لها. وكان على حافة كل لوح تحت باب عشتار نقش من المقرر أن يبقى مخفياً وغير مرئي إلى أن تم تقليبها من قبل المنقب الفضولي بعد مضي خمسة وعشرين قرناً من قبل! «أكون أنا نبوخذ نصَّر ملك بابل، ابن نابو بلاصر، ملك بابل، قمت بتبليط شارع بابل بقطع حجارة

شادو لموكب اللورد مردوخ العظيم. مردوخ اللورد، منح الحياة الأبدية». ووصف طبيعة إصلاحاته ودافعه بالبناء والمواد التي استخدمها. «إنّ باب عشتار الذي عملته هو مجد لدهشة الشعب». أيبوز شابو طريق بابل، ملأته بحشوة عالية من أجل موكب اللورد مردوخ العظيم». وسجل نيرغليصر على طابوق قناته كيف أنه أوصل الماء الوفير ولا ينضب إلى الأرض. ويتحدث نبوخذ نصر في الطابوق عن جدار الحماية الذي بناه على نهر الفرات بقوله: «رفعت أسسه على عمق بمستوى المياه ورفعت أعلاه مثل الجبال المشجرة».

وحفظت الملايين من الطابوق المختوم والآلاف من الطابوق المنقوش اسم الملك العظيم بشكل دائم مثلما كان يتمنى. لكن شعب الأرض قد نَسِيهُ وإن كومة خاصة من الأطلال إلى الشمال، تعرف لدى العرب ببابل، باب اللاني، باب الآلهة، بقي وحده يحتفظ بالاسم القديم للمدينة. وكان واحداً من تقاليد مملكة نبوخذ نصَّر الذي بقي محلياً، وأعتقد أن الاسم جاء ليستعمله العرب في المعنى الأكثر عمومية الذي نستخدمه نحن، يدل على الطبقة الواسعة الانتشار من المدن المندثرة التي كانت يوماً من الأيام تُعرَف ببابل. ولدى وقوفي بجانب باب عشتار، سألت اثنين من مرافقيه بشكل مستقل للإشارة لي إلى بابل، وكلاهما عمل الإشارة الواسعة نفسها بمد أيديهما، مشيرين إلى الشمال والشرق والجنوب، ومشيرين إلى جميع الأطلال الواقعة بينها. ولكن نسي الملك العظيم نبوخذ نصَّر من الجيل الذي ورث الأرض البور التي اعتاد أن يزينها. وكان جميع طابوقه ومذكراته بدون فائدة ، حتى إن اللورد مردوخ ميت كموت المتوسل إليه وحاميه الملكي. ولا يمكن أن يتمكَّن المرء من استحضار الروح المحلية المتواضعة بأي اسم أو يوقظ طيف الوقار أو الرهبة. وكانت بلاد فارس والبارثيين واليونان وروما قد رحلت منذ ذلك الحين، وبالكاد يمكن تذكرها. وفي أسواق الحلة وكربلاء والنجف، وعندما يتحدَّث الرجال عن المحركين للمملكات، يسمع المرء الآن عن أسماء كل من الفاتحين مود وسبوسي وقوقاز، لإعطاء المفوض المدني[1] الاسم البابلي تقريباً الذي عرف فيه لدى قبائل الصحراء.

(1) السير بيرسي كوكس.

الفصل التاسع والثلاثون

النجف

تقع الأضرحة الشيعية العظيمة في النجف وكربلاء والكاظمين وفيها مرقد علي والحسين والإمامين السابع والتاسع على حافة الصحراء في البلد الذي نحتله.

وتقع الكاظمين المكان الذي دفن فيه موسى بن جعفر، الإمام السابع، ومحمد بن علي، الإمام التاسع، على نهر دجلة على بعد أربعة أميال من بغداد إلى الأعلى من مجرى النهر، وكانت هناك حركة للمسافرين إلى المراقد من بغداد بواسطة الترام، وهو طراز حضاري. وكان الخط موجوداً طوال سنوات عدة، ويتم سحب العربات الثقيلة جداً بواسطة أربعة خيول عربية نحيلة، كادحة تثير الشفقة والتي لا تبدو من بين الغبار والشمس أنها ستتمكن من إنهاء الرحلة. ويعبر الحجاج من شمال غرب بلاد فارس الحدود في خانقين، وأولئك الذين يأتون من جنوب بلاد فارس والهند والخليج يصلون إلى البصرة[1] عن طريق البحر ويصعدون في نهر دجلة إلىٰ بغداد، ويؤدون أول زيارة لهم بشكل اعتيادي في الكاظمين. ومن هناك يسافرون إلى كربلاء والنجف، من حيث إن أولئك الذين يتوقد فيهم شعور ملتهب أقوى ما يمكن ويواصلون طريقهم في الصحراء إلى مكة.

وتقع كربلاء، حيث ضريح الشهيد الحسين، وهي المكان الأكثر قدسية من بين الأماكن الشيعية المقدسة، في الصحراء على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الغرب من المسيب. وتقف المدينة على قناة الحسينية التي تتدفق من نهر الفرات. وإن ميدان المعركة الذي ذبح فيه الحسين من قبل الجيش الأموي يثير المعتقد الشعبي الشيعي إلى أبعد زاوية في الشرق. وإن الضرب المسعور على الصدر في شهر

(1) زيارة= زيارة الحج.

محرم هو بإلهام من ذاكرتها، وتمثل الرماح التي يتم حملها في اليوم الثامن الرمح الذي حمل على طرفه رأس الحسين، وإن حذوة الحصان هي رمز حصانه المُعَد للقتال، وإنَّ التعازي (إعادة تمثيل أحداث الواقعة) مغطاة بأوشحة وأعلام ملوّنة يتم حملها في الموكب في اليوم التاسع، وهي رموز لضريح الشهيد في كربلاء. ويتعلق الشعور الديني للشيعة المتحمِّسين بتقاليد الحسين أكثر من إحياء ذكرى النبي محمد نفسه. ويبدو الضريح في كربلاء للعيان في أغلب الأحيان في أحلامه الدينية أكثر من الكعبة في مكة.

وتعدُّ النجف، حيث ضريح الإمام علي (رض)، هي المركز الأكثر أهمية لثقافة الشيعة وتعليمهم. وهي الأغنى بالأضرحة، وتنافس كربلاء في القدسية وهي الأكثر بعداً وروعة من بين المدن الكاتدرائية الصحراوية. ومن المحتمل أنّها كانت تقف على ضفاف نهر الفرات قبل ألف سنة، إلا أن النهر غيّر مجراه، ولكن القبة الذهبية والمنارات تسيطر على امتداد الميناء النهري للمدينة. وإن النجف والكوفة، على وفق التقاليد هي «قطعة من الجنة». وإذا كنت تشير إلى المسلم عن التجرد الدنيوي الحقيقي لمؤامرة الأرض سيجيبك بأن الله عظيم وأنه سيجعل الجنان هناك. وقد بُني مسجد الكوفة ذو الجدران التي تشبه القلعة، في المكان حيثُ استُشهِدَ فيه الإمام علي (رض). وهنا، أيضاً توقف النبي محمد ودليله، الملك جبريل، للصلاة وهما في طريقهما إلى السماء، وإن المقام في المسجد يمثل الموقع.

كانت كل من الكاظمين والنجف وكربلاء، كما يمكن أن يعتقد بسهولة مراكز الاهتمام. وهنا قد يبدأ طالب العلم الشرقي الدخول في أروقة حياة المسلمين الاجتماعية والدينية. وكانت هناك اهتمامات العالم القديم للمسجد لدراستها، وإن العلاقة بين الملالي مع العشائر الصحراوية والحالة الإنسانية لمرور الحجاج لا تزال فاتنة وتجتذب المؤمنين من كل أركان منطقة الشرق. وكان العديد منهم غير مبالين بالشؤون الدنيوية، وكان على المرء أن يبحث عن ردة فعل السياسات الداخلية للمكيدة بالجنود الألمان. وستجد من بين التقاة مشتبهاً بهم في القائمة السوداء السياسية، ورجال معروفون منذ زمن طويل في الخليج بوصفهم مهربي أسلحة وذخيرة وجهاديين وجواسيس ورجال جاؤوا مع غرباء، وقصص غير مقنعة، ويتركون

الشك وراءهم ولكن بدون دليل لاعتقالهم. وهناك فقراء مالانك[1]، الذين يتجولون بين أضرحة بغداد وقندهار وضريح لال شاه بار في سهوان في السند. ويرتدون ثوباً طويلاً أسود ذا أكمام مفتوحة وقضيب حديدي مزود بحلقات وقبعة رأس ومسبحة كبيرة. ويسيطرون على العنصر المتعصب في قندهار، وتكون الأمور بشكل عام أكثر راحة حيثما لا يكونون موجودين.

في بلاد ما بين النهرين، غالباً ما أحسد أنا الضابط السياسي، وقد مرت حياته بعلاقة حميمة مع هذه الأسرار، وكان الكثير منهم صغاراً جداً، مع مجرد معرفة سطحية باللغة العربية. وسيأتي ضبط اللغة تدريجياً ومعها نظرة ثاقبة في العقل العربي، وربما في زمن سلوك الفكر المنحرف؛ لذلك يمكن للمرء أن يجلس ويرفع المعنويات مع أحد شيوخ البدو أو التحدث بالنظرية اللاهوتية مع أحد علماء المساجد ويفهم الكثير مما هو مخفي وضمني ولم يعبر الشفاه أبداً. كان هناك رجل أو رجلان، ولا سيما العقيد ليجمان، وهو قائد الصحراء، الذي يمكن أن يمر كالعرب ويقرأ ما في عقولهم عندما يقلب أحدهم صفحات الكتاب. واكتسب ليجمان هيمنة غير اعتيادية على القبائل الصحراوية، وكانت لديه وسيلة تقريبية وجاهزة معهم وروح الدعابة التي يفهمونها، وعندما يستاء لديه عين غاضبة جداً، يخشون منها. ونادراً جداً ما يتحدث عن مغامراته لكنها تغطي مجالاً واسعاً. وهو يعرف الصحراء من بلاد وادي الرافدين إلى سوريا والحجاز، وكان معتاداً على ضواحي كربلاء حيث كان يتسلل عبر سيطرة الأتراك المريبة قبل فترة طويلة من مشاهدة سترة الكاكي القصيرة على نهر الفرات.

لقد رأيته في مشهد مثير في وقت مبكر من صباح اليوم الثامن من شهر آذار (1916)، عندما ظهر هو واثنان من إخوته «البدو» - كان هناك متنكراً كأحدهم- من تحت الموقع التركي في حصن الدجيلة، بينما كنا نحن ننشر قواتنا استعداداً للهجوم. وقد سحب الكثير من النيران، وكان أحد أفراد قواتنا قد أصابه بإطلاقة في عمامته. وعندما توجه الثلاثة مباشرة إلينا كما لو أنهم يريدون الاستسلام، أوقفنا إطلاق النار،

---

(1) مالانك – وهي ثاني أكبر مدينة شرق جاوا في أندونيسيا.

وتركناهم يصعدون إلينا. وعندما ترجل ليجمان وسألناه ماذا كان يفعل في الخطوط الدفاعية التركية، قال: «أوه، كنت أحفر لأرى ما اذا كان هناك «أي ماء». لقد كان مثاراً قليلاً وكان في الخارج طوال الليل.

كان ليجمان رجل الخدع الحربية والمفاجآت وكان رائداً بين السياسيين، وكان في العموم يتواجد في بعض المناطق غير التقليدية ومن المفضَّل أن تكون معادية. وشاهدته مرة أخرى في كربلاء حيث كان مشغولاً في أنموذج حساس بشكل غريب من العمل. وكانت المدينة هادئة في ذلك الحين، إلا أنه تعرَّض إلى إطلاق نار قبل يوم من بعض العرب من طبقة وضيعة يتخفى وراء إحدى أشجار النخيل. سحب ليجمان الرجل من مخبئه وأعطاه بعض النصائح الأبوية وأخلى سبيله. وأصبت بالدهشة عندما التقيت به بعد أشهر عدة في بومباي. وكان قد ارتحل عبر الصحراء من كربلاء إلى البحر الأحمر، وكان فندق تاج هو خان عادي على طريق العودة بين جدة وبغداد.

ولأن النجف كانت أكثر بعداً من الكاظمين أو كربلاء فهي ربما أقل تأثُّراً بالتيارات الخارجية. لم يفسد التقدم واجهة المدينة باستثناء خط الترام للحجاج، الذي كانت نهايته على مسافة مقبولة من الباب الرئيس، ويمنحها صفاء عمرها اللافت للنظر مظهراً وكأنها في الأقل أقدم من بغداد بألف سنة. ولكنَّ الصفاء كان سطحياً فقط، إذ إنَّ هناك مشكلة في النجف عندما كنت هناك في شهر شباط، 1918، ومن الممكن ظهور مشكلة أخرى. وبدأت المشكلة مع عشيرة العنزة التي تعتمد على المدينة في محصول الذرة. إذ دخلوا المدينة غير مسلحين لشراء المحصول، لكن الشيوخ المحليين وأتباعهم فتحوا النار على العشيرة ونهبوهم وقتلوا جمالهم. كانت عشيرة العنزة بحمايتنا، وكان من الضروري بالنسبة لنا كداعمين للقانون أن نريهم أنهم على حق. وكان الحكام الفعليون في النجف في ذلك الحين هم الشيوخ الأربعة، وكل واحد منهم رئيس لإحدى الجماعات الأربع، ويسكن كل واحد منهم مع أتباع عشيرته في المدينة. وقد استدعي الشيوخ إذ كان يُطلبُ منهم تعويض الممتلكات المنهوبة، أعلن الأربعة جميعاً خضوعهم للحكم القضائي، وأعاد اثنان منهم حصصهما، لكن حصة الاثنين الآخرين لم تصل بعد. وقد استدعوا مرة أخرى من المسؤول السياسي الذي طلب منهما القيام بدفع جماعي. ومرة أخرى أعلنا

استعدادهما، ولكن خلال النقاش فيما بعد، بينما يتم حل نقاط معينة، وأحدهما الشيخ عطية الذي كان العنصر المعاند طوال الوقت، قد تسلل إلى الخارج وانتقد الغوغاء الذين دخلوا ودمروا الدوائر والسجلات. وقد أنقذت الحكومة العربية العميلة المسؤول السياسي من المتظاهرين.

وبينما كنا نناقش العقوبة في النجف تعرَّضت قوات الفرسان التابعة لنا إلى إطلاق نار من أسوار المدينة، وقتل خلالها أحد مزارعي كتيبة اللانسرز العاشرة – ولسخرية القدر كان شيعياً وبعدها مباشرة أطلق النجفيون النار على إحدى طائراتنا. كانت الغرامة المطلوبة عن جميع هذه الأعمال الشريرة تصل إلى (50000) روبية و(500) بندقية. ولحسن الحظ لم تكن هناك حاجة لإرسال قوة عسكرية كبيرة إلى المكان، وكانت الآبار في المدينة مالحة وينبغي جلب مياه الشرب من إحدى القنوات على بعد ميلين خارج الأسوار، وفي موسم الجفاف ينبغي نقلها على طول الطريق من الكوفة. وبقطع إمداد المياه، يمكن تطويق المكان بسهولة وإجبارهم على الاستسلام. قبل نهاية شهر كانون الثاني كان كل شيء هادئاً وكانت البنادق قد سلمت، وتهرّب الشيخ عطية المعاند الذي لا يقبل المصالحة. وأعلن أنه مجرم وتمت مصادرة منزله الواسع ومجمعه خارج مدخل المدينة بدلاً عن الغرامة. بقيت أنا هنا في شهر شباط مع المسؤول السياسي، قائد العسكر أم.دبليو مارشال الذي قتل بعد شهر بشكل فظيع جداً.

كان هذا في الحادي والعشرين من آذار، وفي وقت مبكر جداً من الصباح. كان هناك ضجيج كبير عند المدخل ووابل من نيران البنادق من قبل عصابة القتلة في الخارج. وقتل مارشال في الطريق عندما غادر غرفته مباشرة عندما كان يقوم بإغلاق البوابة التي كانت مفتوحة. ووصل الضابط الآخر الذي كان في المنزل إلى المكان في اللحظة نفسها تقريباً وأصيب بجروح بليغة. ولكنه منع المهاجمين من الدخول إلى الممر، حيث كانت لديه تغطية من النيران موجهة من النافذة والباب من إحدى زوايا إحدى الغرف المفتوحة على القاعة. ومن ثم في فترة هدوء، عندما كانت العصابة مترددة ولم تتخذ قراراً، تمكّن من الهرب إلى السطح وبمساعدة الحرس هناك تمكّنوا من تفريق الحشد من الغوغاء بنيران البنادق والرشاشات.

كان مارشال ضابطاً شاباً يبشر بالنجاح. وقبل أن يمضي وقتاً طويلاً في النجف، أقام علاقات ودية مع الشعب. زرت أنا الكلدار[1] معه، وكلِّية بخارى، وبعض كبار الشخصيات من المسجد. كانت قابليته الرسمية والسياسية كافية لضمان الترحيب به كجالب للسلام والاستقرار وكمعالج للجروح القديمة. وبعيداً عن هذا، أكسبته شخصيته والعواطف العربية الأصلية العديد من الأصدقاء، ولم يعد بحاجة إلى مخبر سري ليكشف زمرة معادية كانت ترعى التحريض على الجريمة وكان العقاب سريعاً. إذ وُضِعت النجف مباشرة تحت الحصار إلى أن يستسلم أولئك المتورطون بالقتل.

يتم الوصول إلى النجف مثل الكاظمين بواسطة خط الترام التي تجرها الخيول. يمتد الخط من ضفة النهر في الكوفة إلى ضمن حدود ياردات عدة من أسوار المدينة وينتهي كما بدأ في محطة ذات مظهر ألماني ذي سقف مائل. وكانت العربات هي من الأنماط نفسها التي عملت سابقاً في لندن، فهي ذات مصاعد نصف دائرية في الأمام والخلف، ومقاعد مثبتة على السطح. وأعتقد أن عدداً قليلاً من الجنود البريطانيين كانوا قد رأوها تصطف مع برج الساعة في المسجد لأول مرة بين أسود بلاد ما بين النهرين، بالرغم من قرب المسافة بين ضريح حزقيل من بابل وبرج بابل ومسجد الكوفة الذي بني في المكان الذي أُلقي فيه النبي يونس من قبل الحوت. وبالنسبة إلى ذوي التفكير الرومانسي، فإنهم قد يظهرون طبيعيين جداً وعاديين ولكن خط الترام، الذي جعل المرحلة الأخيرة من رحلة الحاج سهلة وربما يقدم خدمة روحية أكثر، كان من أغلب الخطوط سواء أكانت وضعت في الشرق أم في الغرب.

لم تجتح موجة الحرب حركة سير الحاج تماماً، على الرغم من أنَّ بعض الاتصالات الرئيسة كانت قد أغلقت. وغالباً ما يلاقي المرء جثة على الطريق موضوعة في صندوق طويل (تابوت) أو على رزمة من سعف النخيل ومحمول على ظهر حمار. وكان الحاج إلى الوراء يأخذ أقرباءه لزيارة سكان مدن الموتى التي تحيط بهذه المقدسات.

---

(1) الكلدار في اللغة العربية هو القيِّم الذي يحتفظ بالمفاتيح، أي هو حارس المسجد.

وبينما يصل الأحياء، كقاعدة عامة، من خلال الطريق الدائم، يصل الأموات على ظهر حمار من جميع النقاط في الصحراء. وإنَّ أعزَّ رغبة إلى قلوب الشيعة هي أن يكون بالقرب من الإمامين علي أو الحسين (عليهما السلام) يوم القيامة، وكلما كان الضريح أقرب تكون حالة الحاج أكثر بركة. وفي وقت السلم يأتي الموتى إلى النجف من مناطق بعيدة وقد يأتي الحمار مع حزمة مثل حقيبة الكريكت على ظهره، ملفوف في مشبك أو الحرير للمترف على وفق وسائل الحاج على طول الطريق من دمشق أو بخارى. وقد وصلت إحدى الجثث قبل سنوات عدة من السفارة الفارسية في باريس.

وكانت كل ربية في الصحراء خارج النجف عبارة عن مقبرة من الآثار المتهدمة أو الطبقات المتواضعة، وإن اللون السوداوي المظلم للأرض قد أزيل من جراء القباب الصغيرة الخضراء الضاربة إلى الزرقة أو الزرقاء المخضرة التي تشبه بيض العصافير المقلوبة. وكانت هناك دائماً مجموعة صغيرة من المشيعين في هذه المقابر يحفرون أو يبنون، وتمر الحمير دائماً إما إليها أو خارجة منها وهي تحمل الجثث أو سلال الكلس. ويدفن الأغنياء كقاعدة عامة في الضريح نفسه.

وتبلغ رسوم الدفن في المسجد نفسه خمسين باونداً وهي معتدلة جداً عندما ينظر المرء إلى قدسية المكان. وبالنسبة إلى الدفن خارج أسوار المدينة يدفع الزائر أي شيء يتراوح ما بين أربع إلى عشر روبيات بحسب البعد الذي وصل إليه. ولكن هناك أيضاً مقابر الرجال الأغنياء الذين يفضلون الخصوصية في الموت عن أن يكدسوا واحداً فوق الآخر داخل الضريح ويشتري الكثير من الزائرين منازل لهم في النجف. إما أنهم يأتون لقضاء أيامهم في المدينة ويدفنون فيها ممتلكاتهم الخاصة، أو يرسلون وكلاء لهم قبل الجثة لشراء أحد المنازل لدفنها فيه. وهكذا أصبحت المدينة تدريجياً مدينة الموتى. وكان تسعة منازل من بين كل عشرة منازل تحتوي على قبور فيها. وأينما تمر في الشوارع الضيقة تأتي على مشبكات حديد والواجهة الفسيفسائية التي تؤشر على القبر. وعندما يسترق المرء النظر إلى الداخل المظلم يرى ألواحاً من الرخام أو البلاط المزجج أو كليهما، ونقشت بثراء مع مصباح يقف عليها. وفي بعض الأحيان لم يكن البناء شيئاً آخر سوى القبر. وغالباً ما يتم دفن الحاج في غرفة مفردة معزولة للمستأجر،

لا يختلف بأي شكل من الأشكال عن الغرف حيث يسكن بقية أهل البيت.

إن حب الدفن في الأرض المقدسة هي خاصة بالشيعة. وهي ليست من عادة أهل السنة، وهناك مسلمون يتفقون على أن هذه الزيارات للموتى هي محرمة وتنهى عنها التقاليد. وبالطبع فإنَّ الوهابية، هم ضد الشيعة بشكل شديد. وإن التعصب المتزمت للأتقياء والمقدسات أو أي نصب أو طقس الذي تفترضه الألوهية في شكل إنسان جعلت كربلاء والنجف غير آمنة إلى حد كبير. ونهبت إحدى الطوائف ضريح الحسين في كربلاء في أواخر القرن الثامن عشر وحتى إنهم عملوا القهوة على القبر. وكانوا سينهبون كنزه الغني ما لم يتم نقله بعيداً إلى بغداد للأمان. ويوضح الخطر الوهابي الأسوار الهائلة للنجف التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً ومواقع محصنة دائرية قطرها خمسون قدماً بفواصل بينها تبلغ مئة ياردة. وتوضح أيضاً في أسوار قلعة الضريح في الكوفة، وأثبتت النجف أنها كانت منيعة أمام الوهابيين والبدو. ويعتقد بأنها كانت غنية بشكل لا يصدق. كان هناك مخزنان للثروة ولم تفتح الخزانة القديمة منذ زيارة الشاه ناصر الدين قبل خمسين عاماً، وتم دفنها في أحد السراديب والبناء عليها بالطابوق والكلس وبدون باب أو مفتاح أو نافذة عن طريق المدخل. وكان الكنز الجديد من الذهب والفضة والجواهر والأحجار الكريمة والحرير والشالات والستائر المطرزة بعهدة الكلدار. ولم يتم توريث الأرض فحسب، بل المحلات التجارية والمنازل والبساتين والحمامات وحتى الزوارق كانت موروثة بوصفها أوقافاً دينية ويدفع الورثة عشرهم إلى رجال الدين، فضلاً عن المنح التي تجلب إلى الضريح أو ترسل من الأتقياء من بعيد، وهناك أوقاف خيرية مثل «وارث عوض» للحجاج الهنود، التي كانت دائماً توزع خلال إقامة البريطانيين في بغداد. وكانت واحدة من أولى الهدايا إلى الأضرحة التي تصل إلى بغداد. بعد دخولنا المدينة كانت أربعة سيوف منقوشة من الذهب مع الماس على الغمد والمقبض، أحدها يعود إلى الكاظمين وآخر إلى النجف واثنان إلى ضريحي الحسين والعباس في كربلاء. وقد أرسلت هذه السيوف من القسطنطينية إلى بغداد عندما عُدَّ التهديد البريطاني كحلم المجنون، وتحمل النقوش عبارة: «من خادم كل المسلمين الأتقياء، إينفرباي».

إن أول شيء يراه المرء عندما يدخل البوابة بالقرب من محطة الترام النهائية هو

نصب صغير قبيح يحيي ذكرى تأسيس جمعية الاتحاد والتقدُّم. وكانت المنازل المدمرة المقابلة له تمثل النادي التركي والمكاتب البديلة. وكانت هذه المكاتب قد دمَّرها المواطنون في ربيع العام الذي تشاجر فيه الأتراك مع شعب النجف وكربلاء. وبسبب ضرائب الحرب الثقيلة وخدمة التجنيد الإلزامي واعتقال النساء وتفتيش المنازل بحثاً عن الهاربين الذين يسحبون إلى خارج المنازل ويقتلون، ثارت النجف واستولت على الحامية التركية. وفي الوقت نفسه طردت كربلاء الأتراك، وفي القتال الذي تلاها، قصفت الأماكن المقدسة- وهو تدنيس للمقدسات الذي لا يمكن غفرانه. وأغلق المدافعون عن المدينة الطريق وتمت عرقلة تعزيزات العدو. كانت لدى الأتراك أشغال أخرى على نهري دجلة والفرات في ذلك الحين، وحملت النجف وكربلاء أشغالها الخاصة. وكانت النجف دائماً شوكة في حلق الأتراك وملاذاً للهاربين واللاجئين السياسيين. وإنَّ المنعطفات تحت الأرض للسراديب تحت المدينة تجعل من المستحيل تقريباً الكشف عن الرجل الذي يبقى أصدقاؤه مخلصين له.

وبني الضريح أيضاً، مثل تلك الأضرحة في الكاظمين وكربلاء مدوراً بحيث لا يمكن للمرء أن يراه من قريب. ويتمكَّن المرء من الوصول إلى البوابة الشرقية للمسجد من خلال سوق مسقف، وهو سوق طويل ومستقيم وعلى ارتفاع 30 قدماً على الأقل. ولا يمكن للمرء أن يصرف عينه عن الموزاييك الغني ذي الألوان الأزرق والأخضر والذهبي الذي يتألق في نهاية هذا المنظور الواضح. كان النجفيون أكثر تعصباً من الناس في الكاظمين وكربلاء، حيث قد يعجب المرء بما يمكن أن يراه في الداخل من البوابة. وهنا، كان طريق قريب من قبل رجال الدين غير مرغوب؛ لذلك كان على المرء أن يتحول جانباً إلى خمسين ياردة، إما إلى اليمين أو إلى اليسار إلى الأسواق المخربة. وكانت هذه الأسواق غير نظامية وأكثر تعقيداً من بغداد، وهي عبارة عن مكان مؤلف من فناءات وأروقة تحت سقف واحد، وتحتفظ بالكثير من الشرق القديم. ويتقدم المرء خطوات ليجد ساحات رباعية الأضلاع واسعة مع موازين كبيرة في الزوايا لوزن القطن أو القماش. وقد يشتري الجرار والسجاد الفارسي والعباءات الغنية بالحرير التي تشتهر بها المدينة. ولكنها أصبحت وسائل

الراحة للحياة نادرة في النجف كندرتها في كل الأماكن الأخرى. ورأيت علبة من النفط الأبيض التي كانت تكلف خمس روبيات قبل الحرب، قد بيعت بخمسين روبية. ولاحظت أن جميع القوارير في محل لبيع العطاريات كانت فارغة باستثناء واحدة. وكان هناك القليل من الحناء قد بقيت وهي التي تصبغ بواسطتها السيدات العربيات رؤوس أصابعهن وشعورهن.

شاهدني أحد الفرس فوق السوق وقد أخذني لزيارة بعض أصدقائه. ذهبنا إلى قبر جد آغا خان الكبير، الذي تدين له النجف في بناء أسوارها الهائلة للحماية. ووهبت البناية بوصفها داراً للضيافة لطلبة الشريعة أو القانون الشيعي. وزرنا مؤسسة تعليمية أخرى بنيت مؤخراً من منحة وهبها وزير أمير بخارى- وهي كلية لاهوتية انتمى إليها خمسة وثمانون طالباً. وقد كسيت أسوار الباحتين بالفسيفساء اللامعة التي يمتلك سرها فرد واحد أو اثنان من الحرفيين المحليين. ويحضر الطلبة المحاضرات التي يلقيها السيد محمد كاظم، رئيس العلماء. وأعتقد أنه لم يكن هناك أي شيء من الدراسة المتعجِّلة والمنافسة والمضاهاة والتفتيش والتمويه التي هي مصدر خراب التعليم في الدول التقدمية، على الرغم من أنَّه وبدون شك كان لدى النظام عيوبه الخاصة، وأنه من السهل على الرجل صاحب ثروة ونفوذ أن يحصل على شهادته الدبلوم أكثر من الطالب غير المعروف الذي يمنح فقط موهبة محلية. وعندما يحصل الطالب على هكذا مهارة من التعليم يمكنه أن يجيب عن أي سؤال ديني يُقدَّم إليه ويصبح مجتهداً، وهو نوع من المشرع الديني، ويمكنه الموافقة على حالات الطلاق وحل النزاعات والمشاجرات والدعاوى القضائية والدينية والعلمانية. ويمتد تأثير المجتهد النجفي في أنحاء عالم الشيعة.

وفي الكلية اللاهوتية، شاهدت سرداب النجف النموذجي. وكانت هذه الأقبية تحت الأرض يلجأ إليها العرب أو الفرس خلال ساعات النهار الأكثر حرارة متقنة جداً في النجف ومحفورة بشكل أعمق مما كانت عليه معظم المدن. وكانت سراديب الطلبة مشابهة للطابق الأرضي للكلية على عمق خمسين قدماً تحت الأرض. وعندما ينزل المرء إليها في الأيام الحارة من الهواء الذي يشوي في الأعلى فإن الفرق في درجة الحرارة هو من الضخامة بحيث إن على المرء

أن يرتدي ملابس إضافية. وإن بعض المنازل غنية في الداخل بحيث يتوقع المرء أنها بتراء «كاتدرائية المدينة» في الشرق. وإن مجاملة شعب النجف سواء العربي أم الفارسي هي من النمط القديم. ويلاحظ المرء ذلك على الرغم من أنَّه في بلد يضرب المثل في مجادلته. وكان كل الحديث في البيوت التي زرتها يدور عن الحرب، ومعظمه عن ظلم الأتراك والجنود الألمان. ولم تنسَ النجف الحوادث في عام 1916. وجلبت إحدى الملاحظات الطارئة إلي من قبل أحد المضيفين في هذا المنزل وتقترح المقارنة مع بلجيكا. كنت أتحدث عن فقدان الأسر لرباطة جأشها في جميع أنحاء العالم وانفصال الزوج والزوجة، عندما قال: «هنا لم يأخذوا الزوج والزوجة فقط، بل إنهم أخذوا الزوجة من زوجها».

كان العرب لا يقتلون النساء ولا يتحرشون بهنَّ في الحرب مثل الأتراك، وهذا لا يعود إلى الشهامة بقدر ما هو قلة احترام. وإن المرأة هي كائن أقل شأناً وغير جديرة بالحرب. وبالطريقة نفسها فإنَّ قاطع الطريق لا يقتل كناساً أو إسكافياً يحمل مثل هذه التضحية. وهي ربما غريزة بدائية، ولكن عندما تحصل على أساس الأشياء وليس إزالتها تماماً من ينابيع الشهامة. وشنق الأتراك في الحلة مئة وعشرين رجلاً. كان كل ذلك في أيام العمل. ولكن ترحيل النساء إلى الموصل كان شيئاً لا يمكن تفسيره إلى العرب كما هو الحال في ترحيل النساء البلجيكيات والفرنسيات من قبل الجنود الألمان لغسل أدمغة الناس في الغرب.

يحصل المرء على أفضل رؤية عن النجف من كومة الأطلال التي تراكمت خارج البوابة الغربية. وقد بُنِيت من أنقاض المدينة لقرون عدة وارتفعت ثمانين قدماً فوق مستوى الشارع ومئة قدم فوق مستوى الأرض المنبسطة. وتشرف الرابية على مساحة شاسعة من جانب الصحراء وتستمر فوقها قوافل المؤمنين في رحلتهم إلى مكة. وعلى الجانب الآخر تشرف على المدينة، وهي المدينة الأكثر روعة التي رأيتها، ملقاة مدمجة داخل أسوارها مع القبة الذهبية الكبيرة في الوسط وتهيمن على الأرضية ذات الطابوق الملون وبارزة كالفكرة التي تخفيها وتدمر كل شيء غير ديني، ومجرد شيء عرضي في ذهن الحاج.

الفصل الأربعون

الهجوم الجديد: الرمادي

حملنا الطريق الطويل إلى بغداد إلى أبعد من أهدافنا. وكان في سامراء، إذ أمَّنَّا سيطرتنا على المدينة واستولينا على نهاية خط السكك الحديد التركية وهي النتيجة المنطقية لهذه القصة. ولم تندرج العمليات فيما بعد بشكل دقيق في الحسبان وعلينا أن ننهي روايتنا كما بدأناها مع شيء من طبيعة الفكرة المجردة.

في بداية فصل الشتاء عام 1917، كانت القوات التركية المعارضة لنا في الشمال الشرقي تسيطر على جبل حمرين، وفي الوسط على نهر دجلة، وكانت تقيم التحصينات في منطقة الدور على بعد ثمانية عشر ميلاً شمال موقعنا في سامراء وعلى نهر الفرات كانت تسيطر على مدينة الرمادي.

كان هناك حديث على نحو واسع عن هجوم تركي محتمل في فصل الخريف. ويتباهى الجنود الألمان أن الجيش الألماني كان نازلاً في نهر دجلة أو الفرات لتعنيف الأتراك، واستعادة بغداد وطرد البريطانيين إلى البحر. لم نكن نحن نصدق بجدِّية في الهجوم، على الرغم من أنَّنا كنا جاهزين تماماً لذلك صلينا بتقوى أن يتحقق، ونشعر بثقة أنه إذا جاء الجنود الألمان إلينا في نهاية مواصلاتهم الصحراوية الطويلة، فإنهم سيستسلمون بأيدينا. وبدون خط للسكك الحديد خلفهم، سيكون للهجوم قوة صغيرة وراءه وكان خط برلين - بغداد يتحرك ببطء شديد. وإن محطة السكك الحديد لا تزال في الصحراء في مكان ما في حي نصيبين. ولم يتم حفر النفق بعد خلال الأمانوس.

أصبح واضحاً في مرحلة لاحقة أن العدو قد فكَّر ملياً بالهجوم على نهر الفرات. ومع ذلك وفي أشهر الانتظار قبل السكتة الدماغية التي ضربت الينباي وحرمته من المبادرة التي كان أغلبنا يتوقَّعُها في الاشتباك المقبل في سامراء. لم يكن هناك

بطبيعة الحال سبب عن تقييد الأتراك أنفسهم بنهر واحد، ولكن كنا قد تلقَّينا العديد من الضربات العنيفة على نهر الفرات التي يبحث المرء بشكل غريزي عن الحدث المقبل هناك، إذا لم يسقط الستار عنها وإن لم تكن المسألة حاسمة. ربما تتنبأ القيادة العليا بتغيير الساحة، ولكن ربما كان ضابط الفرقة قد اعتقد أنه أمضى جزءاً كبيراً من حياته على نهر دجلة وأنه من المرجَّح أنه يريد أن ينهي أيامه هناك. وإذا وضعتَ في الاعتبار أن يحدث التاريخ الغادر مشاهد جديدة على خشبات المسارح القديمة، يبدو من الطبيعي أن تأتي سامراء في التركيز مرة أخرى. وقد شهدت البلدة الصحراوية موت إمبراطورية واختفاء آخر الأئمة. ويبدو برجها اللولبي الغريب ذو الأصل الرائع يترقَّب إلى الصحراء. والمسجد الذهبي مثل شوي داغون، قبر جوليان، الظاهر للعيان والمسطح من الأعلى وتلَّة محزَّزة، وفي الخيال بالإضافة إلى الترتيب يستذكر بركاناً ثائراً تاركاً انطباعاً بأنَّه كان نوعاً من المكان حيث تجري الأمور، وإنَّ أغلبنا يشعر بأنَّ سامراء ستستيقظ من جديد من جرَّاء صدمة الأزمة الجديدة في الشرق. ومع ذلك تحوَّلت الساحة بشكل غير متوقع. صحيح أننا كنا نقاتل في شهر تشرين الثاني على نهر دجلة مرة أخرى وأجبرنا الأتراك على التراجع إلى ما وراء تكريت، ولكن لم يكن هنا التاريخ ليصنع خلال الأشهر القليلة المقبلة. وتحوَّلت المبادرة من المركز إلى الأجنحة وخلقت الأحداث في فلسطين وروسيا مجالات جديدة للاهتمام، وكنَّا قد تصدَّينا للهجوم المقبل للجنود الألمان على نهر الفرات وفي بلاد فارس.

اتَّسع مجال عملياتنا بشكل كبير. وكانت لدينا قبل ربيع عام 1918 قوات على بحر قزوين، حيث كنا نقاتل في جنوب تركستان ولاحقنا الأتراك إلى ألتون كوبري على الزاب الأسفل. وجلبنا السلام والنظام إلى المدن الصحراوية للحج وكربلاء والنجف. وثبَّتنا الأرض بين الناصرية والسماوة على نهر الفرات، وإلى الشمال مرة أخرى إلى أبعد ما يمكن أن تمتد إليه أيدينا. وقد ألحقنا الهزيمة بالأتراك مرتين على نهر الفرات في الرمادي وخان البغدادي، وفي كل مرة نستولي فيها تقريباً على جميع قواته، مع الجنرالات وضباط الأركان والبنادق ونتوغل إلى ما وراء خطهم الدفاعي بمسافة بعيدة وتقوم قواتنا الخيَّالة والعجلات المدرَّعة بتدمير قواعد إمداداته وتشل قوته الهجومية إلى فترة غير محددة في المستقبل.

تغيَّرت خطوط القوة (دال) بشكل كبير عن الأيام الأولى. وربما كانت بلاد ما بين النهرين في هذا الوقت أفضل من جميع الجهات وتصرَّف الأتراك بطريقة تعود علينا بالفائدة. كان عليهم فقط الصعود إلى الصحراء، وكان مجالنا للفائدة في النهاية، ولكنهم تعلَّقوا بلطف في أطرافنا وهم يمنحوننا الفرصة تلو الأخرى، ولم نخفق فيها أبداً في تطويقهم، ونستولي بعجلاتنا المدرَّعة وقوافل السيارات وسلاح الفرسان عليهم في كل مرة وازدادت تنقلاتنا مئة ضعف، وكنا دائماً نخترق بلداً جديداً. وتحملنا هذه العروض الجانبية إلى مشاهد رائعة قدَّمت لنا مكافأة كبيرة للسنة الكئيبة التي أمضيناها على السهل الطيني خارج الكوت.

كانت الحياة في الفترة من شهر أيلول إلى مايس حافلة ومزدحمة. ورأيت رسالة من عامل نورفولك قال فيها: إنَّه رأى مشاهد كل يوم لم يكن يحلم برؤيتها على الأرض. كانت مصادر الوحي المأساوية قد هجرت المسرح، وجاءت مصادر الوحي الأخرى بدورها. وتعطي التواريخ وأسماء الأماكن المدوَّنة في دفتر ملاحظات المرء انطباعاً عن التغيير السريع وتنوع المشهد في الحلة وبابل وكربلاء والنجف والسماوة والديوانية والرمادي وهيت وخان البغدادي وعانة، وست رحلات متميزة على جانب نهر الفرات، مجرد رحلات أحياناً، وهي نوع من الشيء الذي يتطلع المرء إليها في فترة مغادرة مؤكدة عندما يضع الوسيلة للسفر، وفي أوقات أخرى فإنَّ الشيء الحقيقي هو الحرب كما يجب أن تشن مع روح الحركة في ذلك. وكانت المشاهد الجديدة هي لحالة المعركة وتنتظر من يكتشفها عندما يتم تهدئة روع العناصر المعادية في نفوسهم أو تشتيتها. وعلى نهر دجلة حيث سامراء وتكريت ومندلي مع قوات الكوركا على حدود لورستان حيث تلتقي الصحراء مع التلال وقصر شيرين وكرند وكرمنشاه في بلاد فارس وسلسلة جبال زاغروس المنمَّقة، وإقامة المعسكر تحت قمم الثلوج في بيراو وبيستون، أو بالنقوش الصخرية لطاق البستان وكفري وطوز خورماتو وتازة وكركوك وألتون كوبري في كردستان، أرض الجداول والتمُّوج والآفاق الواسعة التي تحدها التلال. يوم مع قوات المشاة ويوم آخر مع الفرسان وأحياناً محمول في إحدى الطائرات، وفي كثير من الأحيان مع رتل متنقل من عربات الفورد مع الرشاشات والعجلات المدرعة، توجه الأتراك نحو شباكنا مع القليل من

الخسائر بين صفوفنا. لم يبقَ الأتراك يقاتلون من أجل المزيد من الإعدامات والدموية والخنادق الوحشية طوال العامين ونصف الماضيين، وأصبح الأمر شيئاً من الماضي. أظهروا بعض الإصرار في البداية، وبشكل ملحوظ في الرمادي وتكريت، ولكن عندما كسرنا معنوياتهم تطورت العمليات إلى نوع من جولة أركان الحرب المبجَّلين، وشهدت أحداث كل يوم بأن عمل أركان الحرب كان جيداً، وأن كل شيء كان يجري على وفق الدليل وقطع كل صفحة نظيفة من دون صفوف حافات لها.

لم يكن هدفنا الآن هو التقدم ولكن لإلحاق كل الأضرار الممكنة بالأتراك. لم تكن هناك نقطة للمزيد من التغلغل في الصحراء، إذ كانت مواقعنا مندفعة بعيداً بما فيه الكفاية على نهري دجلة والفرات وديالى لتأمين قبضتنا على بغداد. وإذا أحرزنا تقدُّماً أبعد منها فإن ذلك كان لأسباب سياسية وإدارية؛ لتعزيز سيطرتنا على القبائل العربية وتأمين رأسي القناة. ومن وجهة نظر عسكرية بحتة فإن امتداد مكاسبنا إلى ما وراء ولاية بغداد سيكون بلا فائدة. وإن التقدم إلى أعلى نهر دجلة أو الفرات سيكون لعبة من الألعاب مع العدو، فيقصِّر طرق مواصلاته ويطول طرقنا التي كانت مرهقة إلى أقصى درجة ممكنة. وإن ذلك يعني أنَّ الجنود الألمان سيكونون خصماً ضعيفاً عندما يتم بناء خط السكك الحديد التابعة لهم، وعندما يكونون على استعداد للهجوم، وأنهم لا ينبغي مدّ أيديهم إلى هذا الحد. يجب أن نتذكر أنه ليس هناك شيء أمامنا لمئات عدة من الأميال على خط تقدمنا هناك ما عدا الصحراء، وليس هناك هدف يستحق التضحية بإصابة واحدة إلى أن وصلنا إلى حلب. ولأجل الاستيلاء على حلب فإنها ستقطع الحبل الشوكي لمواصلات الأتراك في منطقة الشرق؛ لأنَّه الخط الوحيد الذي يربطها مع حيدر باشا المقابلة للقسطنطينية التي تموِّل جميع الحاميات التركية في سوريا وفلسطين وأرمينيا وكردستان وآسيا الصغرى والحجاز فضلاً عن القوات العاملة على نهري دجلة والفرات. وإذا تمكَّنا من الوصول إلى الإسكندرية والاستيلاء على حلب في وقت مبكر من الحرب فإنَّ فرقة واحدة تفي لتنفيذ غرضنا في فلسطين أو بلاد ما بين النهرين، ولكنَّ ضربها من بغداد عن طريق نهر الفرات أو عبر صحراء من الموصل، كان بالطبع مستحيلاً بدون وجود خط للسكك الحديد. ولربما أوصلتنا السكك الحديد والقاطرات

الكافية في الوقت الملائم لو أن بلاد ما بين النهرين كانت المسرح الوحيد للحرب. وكما هو في السابق كان من الصعب علينا إطعام القوات الموجودة في الميدان وتجهيزها في المواقع التي تحت سيطرتهم. وفي شهر تشرين الثاني كان هناك (406000) فرد ينبغي إطعامهم في البلد، وأكثر من تسعين ألف حيوان، فضلاً عن هذا، كنا نزوِّد السكان المدنيين في بغداد وأماكن أخرى بالحنطة التي تُرسَل إلينا من الهند. وكنا بحاجة إلى كل مؤسسة للسكك الحديد يمكننا الحصول عليها في البلاد لأجل مواصلاتنا الداخلية.

وكان من الواضح، فيما بعد، أن كل ياردة نتقدم فيها، ما لم يكن الموقع الجديد يصلح كنقطة للاندفاع للهجوم على حلب، كانت في الحساب العسكري تمنح ياردة إلى الأتراك وخسارة ياردة بالنسبة لنا. وكان تمدُّد معين في منطقة احتلالنا في بغداد يمكن تبريره لاعتبارات محلية. وكانت الرمادي مثالاً جيداً على ذلك، ففي المقام الأول، إن احتلالنا للمدينة سيكمل حصارنا على العدو من جهة الجنوب، كما أنه سيقطع الطريق الصحراوي من كربلاء الذي من خلاله تصل المؤن من أسفل نهر الفرات إلى الأتراك. كما كانت المدينة مركزاً ملائماً للهيمنة على القبائل الصحراوية ونقطة مهمة للسيطرة على نظام الري على نهر الفرات؛ لأنَّه في هذه النقطة على النهر يبدأ فيها تحويل مياه الفيضانات لنهر الفرات إلى منخفض الحبانية، الذي صُمِّمَ لاستعماله مستودعاً للخزن. هذه الفوائد الثلاث تبرِّر لنا إقامة موقع في الرمادي، ولكن ينبغي لنا الذهاب إلى هناك بأي حال من الأحوال، إذا ما قصدنا البقاء أو الانسحاب، لأنَّ عملنا المباشر في بلاد ما بين النهرين كان لتدمير الأتراك.

لم يكن بإمكان رتل بحجم مناسب أن يتجمع حتى السادس والعشرين من شهر أيلول ضمن مسافة لافتة للنظر. لم تكن السكة الحديد بين بغداد والفلوجة مكتملة إلى ما بعد شهر أو شهرين- واعتمدنا بالنقل بصورة رئيسة على اللوريات وشاحنات فورد. وكان الطريق عبر الصحراء موحلاً ووعراً أكثر ما يمكن وفيه تتوالى الكثبان الرملية والحفر ولم تكن هناك صخرة واحدة في البلد يمكن استعمالها لعملية الإكساء، ومع ذلك كانت سياراتنا دائماً تصل إلى هناك. وتعبر المواكب بعضها إثر بعض في ظلام الضباب الذي يشبه ضباب لندن، والغبار الأبيض الذي يغطي أوجه

الأدلاء الذي يعطيهم مظهر الفقراء الهنود. وعلى الضفة اليمنى من نهر الفرات، تركت التربة الغرينية المستوية للدلتا إلى الوراء، ويأتي المرء إلى الكثبان المنخفضة والحافات المغطّاة بالحصى حيث يكون المسير أفضل. وكانت هناك أيضاً امتدادات طويلة من الطين الجاف والرمل، ولكن عندما تظهر الأشرعة البيضاء لنهر الفرات للعيان ومنائر الفلوجة وخشب الحور يمتد وينشأ في القمة مثل أشجار النخيل في المهجر، يعرف المرء أنَّ الجزء الأسوأ من الرحلة قد انتهى.

كانت الفرقة الخامسة عشرة بإمرة الجنرال بروكنغ تستولي على خط نهر الفرات. وجاء هذا النهر ليصبح مجالهم المتميز. واستولوا على منطقة الناصرية في وقت مبكر من عام 1916، وفي ربيع عام 1917 تحرَّكوا إلى أعلى نهر دجلة إلى بغداد قبل سقوطها بوقت قصير، حيث إنهم عبروا إلى الفلوجة وأمسكوا مرة أخرى بخط نهر الفرات. وعندما بدأت العمليات في شهر كانون الأول كانت مخافرهم الأمامية في المضيق، على بعد ثمانية عشر ميلاً غربي الفلوجة. ويمسك الأتراك بأحد المواقع المتقدِّمة على بعد أربعة أميال إلى الشرق من الرمادي على رابية المشيهيدة، وهو خط منخفض من الكثبان يجري نحو الشمال والجنوب من نهر الفرات إلى بحيرة الحبانية. ويقع موقعهم الرئيس، على شكل نصف دائري، على بعد حوالي ميل إلى الشرق وإلى جنوب الرمادي. وكانت خطتنا هي دفع هجومنا بقوات المشاة إلى الأمام على موقع العدو من جهة الجنوب، بينما قام لواء الفرسان بحركة التفاف واسعة إلى الغرب وقطع مواصلاته على طول الطريق إلى حلب- وبقي خط واحد مفتوحاً للانسحاب، حيث كان نهر الفرات في الرمادي غير متصل بجسور وكان النهر وراءهم، ولم يكن الأتراك مهيئين لمثل هذه الحركة. وكان من المتوقع أن نقوم بمهاجمة جناحه الأيسر على نهر الفرات، وقد أضافَتْ كل الترتيبات اللون لهذه الفكرة-الجسر الذي نصبناه عبر النهر في المضيق، والمؤن التي جمعناها على الضفة اليسرى وتحركات قواتنا إلى ليلة قبل الهجوم.

خرجت قوتنا من المضيق في ليلة السابع والعشرين، وكان اللواء الثاني عشر (الجنرال دنزفورد) على اليمين واللواء الثاني والأربعون (الجنرال لوكاس) على اليسار، وفي الفجر هاجمت رابية المشيهيدة. كان هدفنا الأول هو تطهير المرتفع

وعبور القناة، وواجهنا هنا مقاومة قليلة جداً. واحتُلّ خط الروابي بسرعة وأُهملت دوريات العدو، وبحدود الساعة الثالثة فجرا احتلَّت سدة القناة التي كانت ضرورية في خطتنا وأصبحت سالكة لمرور جميع الأسلحة. وعند الفجر قصفنا بالمدفعية القمة الرئيسة للرابية ولكن الأتراك انسحبوا وردُّوا بقصف مضاد بعد دقائق عدة متوقعين منا أن نتبع حاجزنا من نيران المدفعية بهجوم. وقمنا نحن، على أية حال، فور أن أصبح واضحاً بأن الأتراك أخلَوا رابية المشيهيدة، بتغيير اتجاه هجومنا. وتم سحب اللواء الثاني عشر الذي كان على اليمين واستدار بسرعة إلى الغرب خلف اللواء الثاني والأربعين، وشكل الجناح الأيسر للقوة. وتقع جبهتنا التي يبلغ عرضها ثلاثة أميال ونصف بين قناة الحبانية على اليمين، التي كانت مياهها غير صالحة للشرب، وقناة العزيزية على اليسار في نقطة تبعد تسعة أميال من نهر الفرات.

لم يتوقَّع الأتراك على ما يبدو حركة الالتفاف الواسعة هذه واعتقدوا أن طبيعة المسار الخالي من الماء الذي كنا نسلكه هو حماية كافية ضد التقدُّم على جبهة واسعة جداً. واستطعنا بسبب هذا الخطأ في التقدير من إكمال التفافنا حولهم قبل أن يتخذوا موقفاً جديداً. منحنا نظامنا في التزود بالمياه بواسطة شاحنات الفورد قابلية الحركة التي لم يحسبوا لها حسابها، وبدونها لم نتمكن مطلقاً من أن ننجح في المناورة. كانت المنظومة متكاملة إذ يتم نقل اثني عشر ألف غالون بواسطة قافلة من السيارات من نهر الفرات إلى قواتنا، وتسير الشاحنات خمسة وسبعين ميلاً بين النهر والجبهة في اليوم الواحد، وفي بعض الحالات تحمل الماء إلى خط النار.

وفور استيلاء قوات المشاة على رابية مشيهيدة، قام لواء الفرسان بحركة اكتساح واسعة عبر الصحراء حول الجناح الأيمن للأتراك. فقد تركوا ساحة المعركة في الساعة السابعة صباحاً، وبحدود الساعة الرابعة كانوا منفتحين على طريق حلب على خط منتظم من التلال تسير بزوايا قائمة مع النهر على بعد خمسة أميال إلى الغرب من الرمادي. وبهذه الحركة انحصر الأتراك وكانت الشباك التي رميناها حولهم كاملة. لم يكن خلفهم جسرٌ وقطعوا كل الآمال بالتعزيزات والتجهيزات. وكانت فرصتهم الوحيدة هي أن يندفعوا للقيام بهجوم مضاد محدد والاختراق قبل أن نسحب الحلقة إلى مسافة أقرب ونسحقهم خارج خنادقهم بأسلحتنا.

وفي هذه الأثناء أطبقت قواتنا المشاة على العدو. وفي الساعة الواحدة وبعد القصف المدفعي هاجم اللواء الثاني والأربعون رابية الرمادي على اليمين، بينما كان اللواء الثاني عشر يعمل حول رابية العزيزية على اليسار. وكان الاستيلاء ومسك رابية الرمادي من كتائب الكوركا الخامسة والسادسة والدورسيتس عملاً شجاعاً جداً. كان هذا الارتقاء السطحي والواطئ سلساً تماماً، وكان الانحدار الطويل واللطيف مجرد سبعة عشر قدماً فوق مستوى السهل. لم توفر أي غطاء من أي نوع، وأصبحت قوات المشاة مرئية بالنسبة للأتراك بمسافة مئتي ياردة كاملة قبل وصولهم قمة المرتفع. وفور ظهورهم للعيان فتح العدو نيران بنادق ورشاشات مكثفة على جبهتنا ومن جناحنا الأيمن، بينما فتحت مدفعيتهم، التي كانت متمكِّنة تماماً رشقات نيران مكثفة من البطاريات على يسارنا. تمسَّكت قوات الكوركا والدورسيتس بالموقع، وفي الليل حفروا خنادق لأنفسهم. وبعملهم هذا احتلوا الأتراك، إذ إنَّ اللواء الثاني عشر الذي كان ينسحب من يميننا وكان يعمل هناك في مؤخرتنا، شن هجوماً أمَّنَ موطئ قدم ثابت على رابية العزيزية قبل حلول الظلام. وهكذا وعند الغروب استولت قواتنا المشاة على العدو في الجنوب الشرقي والجنوب بين القناتين، بينما قطعت قوات الفرسان المنفتحة على طريق حلب على بعد خمسة أميال إلى الغرب من مدينة الرمادي عليهم طريق الانسحاب بالكامل.

كان متوقعاً تماماً أن يقوم الأتراك بمحاولة لاختراق قوات الفرسان إلى الغرب، لم يكن هذا هو الاتجاه الوحيد لخط انسحابهم، بل إنَّه كان أيضاً حيث الطوق كان أكثر ضعفاً، ولم يشترك لواء الفرسان بشكل جدي حتى الآن. وفي الصباح جرت مناوشات خفيفة مع قنَّاصين على قناة العزيزية، وفي المساء أصبحوا تحت نيران القصف المدفعي والرشاشات من على متن مركبتين في النهر. وشن الأتراك نيراناً جيدة، لكن رماة الفرسان التابعين لقواتنا أبدوا أفضل مبارزة، وفي النهاية أُحرِقت المركبتان وأُغرقتا. وفي الليل، استعدت قوات الفرسان، التي احتلت نقاطاً قوية على جبهة ثلاثة أميال على طول الرابية، للمقاومة المستميتة وبدأ الهجوم المتوقع بعد الساعة الثالثة فجراًخ بقليل. وكان جرس الإنذار الأول قد صدر من إحدى الدوريات الواقفة التابعة إلى كتيبة الهزارز الرابعة عشرة التي تراجعت ويتبعها عن قرب رتل من

قوات المشاة التركية، وقاد العدو إلى أحد مواقع الرشاشات. ووجِّهت نيران أربعين رشاشة ومدفع هوتشكس للتأثير على الأتراك. ولدى وجودهم، كان الطريق الذي أمامهم غير عملي، وحاولوا الاندفاع من بين الجثث بين كتيبة الهزارز الرابعة عشرة ونهر الفرات بالقرب من ضفة النهر. وتمكَّن القليل منهم فقط من التسلل، وطوَّقوا في الصباح من رتل من قوات الفرسان والعجلات المدرَّعة في عملية استطلاع على طول طريق حلب. استمرت المعركة ساعتين حتى طلوع الفجر عندما تحولَّت إلى عمليات قنص متقطعة. وعُثِر على أقرب قتلى للأتراك ضمن مسافة خمسين ياردة من خنادق قوات الهزارز.

كان الآن ضوء النهار، وكان لدى قوات الفرسان التي أعاد دفاعها الشجاع حالة الأتراك إلى اليأس تقريباً بشكل جيد تجربة نادرة في مراقبة المعركة من خلف قوات العدو. وعبرت مفرزة صغيرة من قوات الفرسان التركية النهر سباحة مع عشرة أو نحو ذلك من المشاة، لكن قوات الجيش الرئيسة مع المدافع كانت قد حوصرت. ويكمن أملهم الوحيد لإنقاذهم في القيام بهجوم مضاد محدد ضد قوات الفرسان التي تستولي على الطريق إلى الغرب.

في صباح يوم التاسع والعشرين استأنف اللواء الثاني عشر الهجوم على رابية العزيزية. وبشجاعة عالية الجودة وبمواجهة النيران الموجهة بشكل جيد ومقابل الهجمات المضادة، استولت قوات كتيبة القرهوليس التاسعة والثلاثين وكتيبة البنجابيين والكوينز التسعين على آخر الدفاعات البعيدة للأتراك على يسارنا. وصدت كتيبة البنجابيين التسعون هجوماً ساخناً للأتراك من على يميننا من تلة أنجانة. واندفع باقي اللواء وطهَّر رابية الشيخ فرّاج. كان هذا هو هدفنا، لكن قناة العزيزية تقع إلى الوراء وكوجهة نظر حيث ينبغي على جميع المدافع وعربات النقل ذات الدواليب التي فرت من الرمادي أن تعبر من فوقها. وبالشعور أنهم ضايقوا الأتراك بحيث إنَّ مؤخرة جيشهم قد هزمت، وكانت لحظة ربما تغير كفة الميزان، واندفعت قوات القرهوليس إلى ألف ياردة أخرى فوق أرض مفتوحة «مكشوفة كصلعة الطير المائي» وعبرت وادياً عميقاً واستولت على الجسر، وأفسدت ثلاث مفارز مدفعية تركية وألقت القبض عليها وقبلت استسلام أحد الجنرالات الأتراك وألفي رجل.

كانت الرمادي يوماً عظيماً بالنسبة (للقرهوليس- وهم جنود هنود)، كان هذا ظهورهم الأول في بلاد ما بين النهرين. وفي فرنسا قفزوا إلى الشهرة في (فيستوبرت) و(نيوفي تشابيل) وأمنوا لسباق صغير معروف لرجال التلال على حدود النيبال، وهي سمعة في الصفوف الأمامية للجيش الهندي. وفي الرمادي فإنَّهم حصلوا على الميدان الغني عن طريق الجسر وحده. وقدَّمت الأفواج الأخرى عملاً رائعاً في ذلك اليوم، وكان الضابط الذي رآني على الأرض يخشى أنِّي قد نسيتهم بسبب «كثرة برامجه». وأوضح أنه كان حظنا فقط، «أن تصادف وجودنا هناك». وانحرف أغلب البنجابيين إلى اليمين للاستيلاء على تلة أنجانة، بينما اندفع باقي اللواء إلى الأمام وقاموا بتطهير رابية الشيخ فراج. ولغرض الاستيلاء على قناة العزيزية غيَّر (القرهوليس) اتجاههم وشقوا طريقهم إلى اليسار. وجاءت السرايا الأُخرى فيما بعد، ولكن عندما وصلت قوات القرهوليس إلى الرابية كانوا بدون مساعدة واستولوا على الجسر والمدافع وألفي أسير والجنرال التركي[1] وحده. وبالنسبة للأسرى «فإنَّه لم يكن أسْرٌ إلى هذا الحد»، كما أوضح ذلك لي الضابط بشكل متواضع، بقدر ما هو استسلام إلى أقرب قوات وحدث أننا كنا هناك».

كنت قد شاهدتهم من مسافة بعيدة، كنقاط سوداء على الرمال، ولكني لم أدرك ما فعلوه إلى أن ذهبت معهم إلى الميدان في اليوم التالي، وقاتلوا في المعركة مرة أخرى. وعندما هجمت قوات القرهوليس فوق الأرض المفتوحة من رابية الشيخ فرّاج، كانت المدافع الثلاثة التي أمامهم تطلق النار بشكل مباشر أمام أنظارهم وتصبُّ قنابلها الانشطارية وتنبش الأرض وتقلب الرمال على شكل رذاذ قاتل.

وفي منتصف الطريق في الجانب الثاني كان هناك واد عميق وجاف مع ضفاف مرتفعة جداً مع عدد قليل من أشجار النخيل مبعثرة على الجانب الآخر. كان مكاناً مثالياً للاستيلاء عليه، لكن العدو كان يتسلل بعيداً. وفي اللحظة التي كانت فيها قوات القرهوليس في الوادي وتتسلق إلى أعلى الضفة المقابلة، كانت مفارز المدفعية مدرَّبة على مدافع لويس على بعدأربعمئة ياردة. وأخمد رماة المدفعية الأتراك اللعبة، وعند

(1) القائد أحمد بيك، سلم نفسه إلى كتيبة البنجابيين (9).

آخر ظهور لقوات القرهوليس فوق الأرض المنبسطة لم يصب أي رجل. واندفعوا إلى مجموعة أشجار النخيل إلى اليمين من المدافع، وإن المدافع التي لم تكن محمية مع قتلاهم منتشرة حول المكان، وكانت القطع الثلاث سليمة. لم يكن لدى الأتراك وقت لإتلافها، وكانت الخيول جميعها محملة بالذخيرة وأحمال الضباط والبغال والجمالين النخيل. وحفرت قوات القرهوليس خندقاً على شكل حرف أس (S) حول المدافع ومجموعة أشجار النخيل، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر وصول الدعم، وانتظروا شن هجوم مضاد يجب أن يحدث بالتأكيد. وكانت السرايا المهاجمة الثلاث على بعد مئة ياردة الآن وخلف الجدران الطينية بخمسمئة ياردة أمامهم على الرغم من أنَّهم لم يعرفوا ذلك، كان هناك الجنرال التركي وألفان من رجاله. ولكن إسكات المدافع كان بمثابة بداية الانهيار، وعلم الأتراك أن اللعبة قد انتهت. وأن حلقة الحديد التي رسمناها حولهم وعملية الاستطلاع الفاشلة التي قاموا بها ضد قوات الفرسان خلال الليل قد خلعت قلوبهم، وبدون شك فإنَّهم اعتقدوا أن قوات القرهوليس هم الحرس المتقدم من حشد كبير.

ظهرت الرايات البيضاء على الجدار الطيني الذي أمامنا وخرجت مجموعة صغيرة من الأتـراك غير مسلحة. وأُرسِـل ثمانية رجال لحملهم إلينا ثم ظهر تمساح من الوادي. وقال لي أحد الضباط الصغار برتبة ملازم أول: «أنا رأيت بعض التماسيح ولكن لم يسبق لي أن رأيت واحداً من هذا القبيل». وكبر الوحش وتضخم حتى اتخذ أبعاداً هائلة. لا يمكن للمرء أن يرى من أين كل ثنية جديدة من الوحش قد بدأت. كان يشبه نسل التنين استحضر من الخفاء في الصحراء من قبل الجن. ولكنه كان تنيناً أليفاً، وكان سعيداً بأسره. وكان هناك حقيقة، شيء معجزة في ذلك، وهذا النوع من المعجزة التي حدثت في أسطورة أو في نهاية إحدى القصص الخرافية حيث أشير إلى المعنوية من المكافآت الاستثنائية التي تصيب الشباب المخلصين وغير الخائفين.

وبينما كانت قوات القرهوليس تقوم بتطهير عش الدبابير المخدرة على اليسار، فُتح قصف مكثف على الخنادق التركية الرئيسة. ورأى خطنا الدفاعي النحيف من قوات الفرسان من بعيد إلى اليسار حشوداً سوداء من العدو تقترب وهم يهيئون

أنفسهم لمعركة دموية. وراقبوا هذا التقدم كما اعتقدوا طوال أكثر من ساعة، وهناك جاءت لحظة أدهشتهم عندما رأوا الأتراك يتجمّعون ويمشون بتشكيل حشد باتجاه البريطانيين. كانت المدفعية التركية ساكتة ورفعت رايات بيضاء على طول الخط بأكمله. كان استسلاماً عاماً وسلَّم التمساح جماعاته. وخرج أحمد بيك، القائد التركي، الذي كان على نهر الفرات طوال الحملة من معركة الشعيبة في آذار 1915 الذي تصدَّت قواته للجنرال بروكنغ في الناصرية خلال فصلي الصيف والخريف عام 1916، واستسلم مع جميع قوته إلى خصمه القديم.

زحفت قواتنا المتعبة مباشرة إلى الرمادي خلال عاصفة ترابية تُعمي الأبصار. وعندما دخلت القرية من الشرق مع كتيبة الكوركا الخامسة، لم يكن بمقدورنا رؤية خمسين ياردة أمامنا، واشتركنا في معركة مع اللواء الثاني عشر الذي كان قادماً من جهة الغرب. وظن كل منا أن الآخر هو قوة تركية، ولحسن الحظ كانت هناك خسائر طفيفة. وفي ميدان المعركة عبرنا قتلى قوات الدورسيتس والكوركا الذين ضحُّوا بحياتهم في المعركة الباسلة قبل يوم وأشر خط القتلى المكان الذي تكوَّرت فيه الموجة بدون مقاومة تاركة خطاً ثابتاً وهو يهدد الأتراك بالحصار الذي لم يكن هناك مفر منه. وكنا على بعد مئات عدة من الياردات إلى الوراء نقفز بلا مبالاة بالمتاهة الهائلة من الخنادق، والهجوم الذي كان قد يكلفنا آلاف الخسائر لولا سرعة العمليات الرائعة وطبيعتها، وسرعة اغتنام الفرصة والتنسيق الجاهز بين العقل والقوة الذي يجسِّد وحده أحلام خبراء التكتيك.

أسرنا عملياً جميع قوة الحامية البالغة 3545 أسيراً من بينهم (145) ضابطاً و(13) مدفعاً ورشاشات وذخيرة ومعدات وأمتعة شخصية اعتيادية للحرب. وكان الوادي العميق إلى الغرب من المدينة قد نثر بالفضلات على طول نصف ميل- من حقائب السروج والأثاث والجزم وحقائب سفر وأضابير ضباط، فضلاً عن أسلحة وقطيع كبير من الخيول يبعث إلى الأسف وأمتعة الحيوانات، وفي الحقيقة كل شيء ترك وراءهم في اللحظة الأخيرة عندما فشلت محاولة اختراق قوات الفرسان. وكانت الضربة مفاجئة تماماً للعدو. ولم تصل أخبار الاستيلاء على الحامية إلى الأتراك على نهر دجلة إلى أربع وعشرين ساعة تقريباً بعد الحادثة. وفي وقت مبكر من صباح اليوم

الثلاثين كانت إحدى طائرات العدو التي تطير على ارتفاع منخفض فوق معسكرنا على وشك الهبوط، وعندما اكتشف الطيار التغيير في الاحتلال هرب.

بدون شك، كان تقدُّمنا غير مجدٍ إلى الرمادي في شهر تموز عندما هزمنا من حرارة الجو، مما قلَّل من اعتبارنا. وأصبحت عشائر الدليم والعشائر الأخرى شمال الفلوجة معادية لنا علناً. ولكن التغيير الجذري الذي قمنا به لقوة العدو في نهر الفرات غيّر الأمور. وبعد الرمادي بدأ المتقاعدون القدامى بالمجيء إلى بغداد من أجل إعاناتهم. وقبل سقوط المدينة بقوا بمعزل وكانوا خائفين من تقديم الطلب إلى الإنكليز خوفاً من الانتقامات في حالة ظهور العثمانيين على المسرح مرة أخرى، ولكن في ولاية بغداد كانت الرمادي تعرف بإسدال الستار على الأتراك. ولم يكن ليظهروا مرة أخرى على الطاولات أبداً ما عدا كونهم أسرى. وفي هذا الجزء غالباً ما يمكن رؤيتهم، واعتاد جميع السكان الخروج إلى الشوارع ليشاهدوا المشهد الحزين. شعرنا بالأسف تماماً على الجندي التركي. كانت الطبقة الرسمية التي أكسبت العصملي سمعة سيئة. ووجدنا العسكري مقاتلاً جيداً إلى أن بدأ الشلل ولقاء الزميل اللطيف، على الرغم من كل الأشياء القاسية التي قيلت عنه في الصحف.

الفصل الحادي والأربعون

جبل حمرين وتكريت

كان خجل الأتراك بعد الرمادي نتيجة طبيعية لانقلاب الجنرال بروكنغ، الذي كانت لديه خبرة كافية عن تحرُّكاتنا لتضعها تحت حراسته، ولم تكن أوامره الآن لتقاوم، ولكن للعودة إليها بقدر كبير لإلحاق الهزيمة بالعدو قدر الإمكان. وفي ظل ظروف لا يمكن أن نتوقعها بضخامة الغنيمة على نهر ديالى ونهر دجلة كما فعلنا في الرمادي. ازدادت صعوبة التقرُّب إليه إذ كان كل ذلك هو الاختلاف بين مسير طيور الحجل في الأسبوع الأول من شهر أيلول ونهاية الموسم الحالي.

على الرغم من سرِّية جهودنا يجب أن يكون الأتراك عارفين اتجاه تحرُّكنا المقبل. وبدون شك كان يرصد من وكره في جبل حمرين غبار القوافل ودخان القطارات. وتقع تحصيناته على طول طريق خانقين ونهر ديالى الذي كان في هذا الوقت من العام يسهل عبوره من أماكن عدة، وكان لديه جسرٌ وراءه في كيزيل روبات. ومن الضروري طرده، ليس فقط لأن الموقع كان استراتيجياً ولكن لأنه يقود السيطرة على رؤساء قناة ديالى. كانت خطتنا هي حركة تقرُّب مدروسة ومن خلالها نأمل أن ننشر شباكنا حول قوته في ديالى واحتلال الموقع الذي يستولي عليه على جبل حمرين على النهر. حقَّقنا في ثاني هذه الأهداف نجاحاً تاماً، وفي الأول كنا قد فشلنا.

شاركت الفرقتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة ولواء الفرسان في هذه العمليات وتحرَّكت الأرتال من القواعد البعيدة في مندلي وشهربان وبلدروز والسندية على نهر دجلة. وفي الثامن عشر من تشرين الأول احتل اللواء الأربعون منطقة دلِّي عباس، وفي صباح اليوم التاسع عشر كان اللواء في المنصورية، وبحدود منتصف النهار أصبحوا بتماس مع قوة العدو على الضفة اليمنى من نهر ديالى، التي انسحبت بعد

الغسق وعبر جناحنا الأيمن قناة روز على بعد أميال عدة إلى الشرق من مدخلها من نهر ديالى، وبعد مسيرة ليلة عمل على طول المنحدر الشمالي للرابية على جناح موقع العدو. وفي ليلة الثامن عشر هاجمت دوريات رتلنا الوسط واللواء الخامس والثلاثون مفرزة طوارئ العدو عند تقاطع طريق خانقين مع قناة روز. وفي صباح اليوم التاسع عشر تقدم اللواء على الجبهة التركية بالتنسيق مع رتلنا على اليمين، واللواءان السادس والثلاثون والسابع والثلاثون اللذان كانا يعملان على طول سلسلة جبال حمرين على جناح العدو. وبحدود الساعة السابعة والنصف صباحاً قامت قوات الفرسان بالالتفاف خلف الموقع وقطعوا طريق خانقين. وكانت العمليات قد نفذت بدون عوائق. وجرى كل شيء مثل الساعة وكان كل شخص في المكان المناسب وفي الزمان المناسب، وانتهت أرتالنا المتقاربة على فراغ. ووضعنا مطرقة نازميت في الحركة لسحق الجندب. وانسلّ الأتراك بعيداً في الليل وعبروا نهر ديالى، وذكر طيارونا في الصباح أنهم كانوا ينسحبون على طول طريق قره تبه، وأحرقوا جسر كيزيل روبات خلفهم. ومع ذلك، وبقدر ما تمتد إليه التضاريس، قمنا بطرد العدو من أحد المواقع القوية جداً وحصلنا هدفنا بخسائر قليلة للغاية بين صفوفنا. وأعتقد أنَّ خسائرنا على الضفة اليسرى من نهر ديالى كانت ثلاثة أفراد. وكما علمنا فإنَّ خسائرنا في معركة اليوم الخامس والعشرين من شهر آذار قدمت لنا الأرض التي تقدمنا عليها كل التسهيلات إلى إحدى الحاميات في التلول لحماية الموقع من أي هجوم من جهة الجنوب. ويوجد مستوى ظروف الاقتراب نفسه في منطقة شبيهة بقرص العسل من التلال على الجانب الشمالي من الرابية، وكان هذا أحد الأسباب التي من المهم أن ينتقل الموقف من يد إلى يد. وكذلك لم يعد جبل حمرين يتيح للأتراك ستراً لحركة هجومية. وجعل الاستيلاء على الرابية من المستحيل على العدو العمل على جانب ديالى بدون أن يراقبهم أحد. ولكن بغض النظر عن أهميتها الاستراتيجية، كان من الضروري الاستيلاء على جبل حمرين؛ لأنَّه يمكِّننا من السيطرة على كلا الضفتين لنهر ديالى في ظل احتلالنا.

كان الهرب من الطين الدلتاوي واستكشاف جبل حمرين بسلام أمراً يبعث إلى السرور. وكان المدخل الصخري الذي من خلاله يشق الجدول المتقطع الصافي

طريقه في شلالات متتابعة وبرك وصخور يقع تحتها المجرى الكبير والتغيير المنعش بعد السهل المنبسط الرتيب والكئيب حول بغداد. وبدا جبل حمرين مألوفاً بالنسبة إلى أغلب القوة؛ لأنَّ المنظر كان مناقضاً للأرض التي عملوا وقاتلوا عليها. ووصفها أحد سكان المناطق الجبلية الاسكتلندية أنَّها قطعة من اسكتلندا، وأنها تذكِّر المحارب من جنوب أفريقيا بحدود باسوتو، وأحد الجنود النيوزلنديين من بعض الأماكن التي اصطاد فيها وصوَّر فيها في أيام الكلية. كان الوقت متأخراً جداً من الموسم لكي تتوقَّع الزهور، ومع ذلك، كما لو تريد إثبات الميزة العامة للتربة، وكانت الأرض عند سفح السلسلة الجبلية مزينة بالأزهار الرائعة للزعفران الخريفي[1]. وكان هناك لون وفير على التلول ويتباين الصخر الرملي بتغير الضوء من اللون الأحمر القاتم[2] لإحدى القلاع ذات الطابوق القديم إلى القرنفلي الوردي لمحارة ألقتها الموجة. كان هناك الكثير من ألعاب الرمي الصغيرة يمكن إجراؤها لاصطياد البط والوز وطيور السمان والحجل والقط وبعض السمك الممتاز. حسدنا الحامية التي تركناها وراءنا على نهر ديالى. ولكن كان هناك الكثير من العمل الشاق لإنجازه فقد بُنِيَ خمسة وسبعون جسراً فوق القنوات التي تنطلق من الجدول بالقرب من خروجه من المدخل، وكانت المسافة مخترقة في ثلاثة أماكن بطرق جيدة متوفرة لكل الأسلحة. وفي أوائل صيف عام 1918 نفِّذت السكة الحديد خلالها إلى خانقين.

كنت أتمتع بالأمن في جبل حمرين عندما وصلتنا الأخبار عن قيام مسيرة تركية على نهر دجلة. وفي منتصف شهر تشرين الأول تقدَّم العدو إلى منطقة الحويش على بعد ثمانية أميال إلى الشمال من سامراء، وحفروا خنادق لهم عندما أمر الجنرال مود بمهاجمتهم قبل أن يسمح لهم الوقت بتعزيز موقعهم. وفي ليلة الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول استولت الفرقة السابعة على الحويش. وترك الأتراك الموقع ولجؤوا إلى شجرة الدر على بعد ثمانية عشر ميلاً إلى الأعلى من مجرى النهر في سامراء. وفي الثالث من شهر تشرين الثاني وبعد مسيرة ليلية، شن اللواء الثامن والعشرون هجوماً عسكرياً عنيفاً في الفجر واستولوا على الموقع. وعندما وجد

(1) نبات السورنجان الخريفي.

(2) جبل حمرين، التلال الحمر. كلمة حمرين في العربية هي جمع المؤنث للصفة أحمر.

الأتراك جناحهم الأيمن مطوقاً تركوا نظام خنادقهم الذي يمتد إلى مسافة ثلاثة أميال بين النقطة حيث قمنا بمهاجمتهم والنهر وتراجعوا باتجاه تكريت، وقد قصفتهم مدفعيتنا بكثافة. وواصلت قواتنا المشاة معركة جري مع القوات الخلفية للعدو حتى الساعة العاشرة قبل الظهر، وفي ذلك الوقت استولت على خط الأتراك الرئيس. ووجدت المدفعية التي تسند تقدمهم أهدافاً جيدة، وفي النهاية قصفت العدو عندما كانوا يخلون موقعهم على بعد (1200) ياردة. وفي هذه الأثناء احتل اللواء الحادي والعشرين الذي كان يعمل على الضفة اليسرى في قرية الدور.

حققنا فوزاً سهلاً في الدور، لكننا نأمل في تحقيق أشياء أكبر. تحشّدت قوات الفرسان بشكل سري للغاية، إذ تقوم بالتحرك في أثناء الليل وتتخذ غطاءً لها خلال النهار في الوديان التي لا تُعد، وقيعان القنوات الجافة. وقاموا بمسيرة ليلية جيدة في الصحراء على جناح مشاتنا، وكانوا يريدون القيام بإحاطة في مؤخرة القوات التركية عند الفجر وقطع طريق انسحابهم عندما نقوم بإزاحتهم من خنادقهم، ولسوء الحظ لم تتحقق المهمة. كان فشلهم، كما أعتقد، يعود إلى فقدانهم الاتجاه والتعرض نتيجة لذلك في ضوء النهار إلى نيران مدفعية كثيفة استطاع العدو من خلالها إجراء عملية انسحاب جيدة. وكان الأتراك خجولين على نهر دجلة كما كانوا على نهر ديالى، ولا يريدون أن يعانوا مأساة مادية مرة أخرى. وكان الموقع الذي طردناهم منه قوياً جداً ويحتوي على المنحدر الجنوبي، الذي يشكل ميداناً طبيعياً ذا منحدرات معتدلة على ثلاثة خنادق نار، وتسيطر جميعها على الطريق المفتوح الذي يؤدي إلى الموقع. وكانت الخنادق ضيقة مع مواضع رشاشات محددة بشكل جيد. وكانت مواضع المدفعية جيدة ضد الرصد الأرضي والجوي. ويوحي النظام المعقد للمخابئ المسقَّفة بنية العدو إلى تمديد الموقع وتقويته. إن الاستيلاء على موقع الدور بمثل هذه الخسائرالصغيرة بين صفوفنا كان نتيجة الطبيعة السريعة والسرية لتحشدنا، علاوة على قدرة التحمل الرائع لقوات المشاة ولم تكن أية حركة ممكنة إلى ما بعد حلول الظلام، ومع ذلك خرجت كل القوة من خارج المخارج الضيقة لدفاعاتنا المعقدة في سامراء، وتجمَّعت وسارت نحو عشرين ميلاً إلى هدفها بحدود الساعة الرابعة فجراً. وكان الجزء الأكبر من الأرض معروفاً ولم تكن هناك معالم طبيعية.

وبحدود الساعة العاشرة صباحاً، وبالقيام بالمسير والقتال معاً، تمكّنوا من الانتشار في كل جزء من الثلاثين ميلاً.

وفي صباح اليوم التالي، في الثالث من شهر تشرين الثاني، تابعنا العدو وقصفناهم في مواضعهم في تكريت. كنت أنا مع قوات الفرسان التي كانت تعمل على الجناح إلى الشمال الغربي من المدينة. كان علينا القيام بعملية التفاف بجانب النهر «وإلحاق هزيمة ساحقة بهم» لو أنهم غادروا خنادقهم. ولكن الأتراك في هذه المرة لم يتزحزحوا وكانوا قد استمكنوا في أغلب الأرض التي كنا ننتشر عليها، وتعرَّضت قوات الفرسان إلى نيران مدفعية بقدر جيد، ولا سيما عند نقطة عبور طريق هيت-تكريت.

اندفعنا في تقدمنا في الخامس من شهر تشرين الثاني. وكانت تكريت حيث يتحصن الأتراك منبع النهر بالنسبة لهم على نهر دجلة منذ استيلائنا على سامراء في شهر آذار. لقد بنوا نظام خنادق متقناً هنا بمحيط سبعة أميال مع نهاياتها تستند إلى النهر مع مواقع حراسة قوية تنتشر على امتداد أميال عدة إلى الشمال. هاجمنا هذا الموقع في صباح اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني. قام بالهجوم الأول اللواء الثامن على وسط العدو في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. ولواء البنادق التاسع والخمسون على اليمين ولواء السيخ السابع والأربعون على اليسار وكان لواء البلوش الرابع والعشرون بعد المئة بالإسناد، وتقدم بوثبة عظيمة إلى مسافة (1200) ياردة واستولى على خنادق العدو التي كانت أمام الهجوم. ودخلت كتيبة المانشسترز في الساعة الواحدة بعد الظهر. كان هناك بعض القتال الصعب في جحور الخنادق المعقدة استمر ثلاث ساعات ونصف. وقام العدو بهجوم مضاد عنيف مرتين وطرد. وكانت الأرض وعرة ونظام خنادق غير منتظمة، وكان من الصعب معرفة بالضبط أين يكون الأتراك. وجدت هندرسون مع مجموعة صغيرة كتيبة المانشسترز يمسكون بإحدى الروابي المتقدِّمة ويتعرَّضون للرمي من كلا الجانبين مع جناحه الأيمن في العراء بشكل واضح. وكان للتو قد صد هجوماً مضاداً، وبعد صعودي حالاً، استلم رسالة هاتفية تفيد بأن اللواءين السيفورتس والرايفلز الخامس والعشرين بعد المئة سيقومان بهجوم. وبالطبع فإنَّ ضباط الأركان يعرفون الخط الذي نمسك به وأن رماة

مدفعيتنا لم يخطئوا، ولكن فكرة الطبيعة المعقدَّة للأرض التي أمامنا ربما جُمِعتْ من حقيقة أن المانشسترز كانوا يتوقَّعون تقدُّم قوات السيفورتس على يمينهم. رفع هندرسون علماً أزرق ليؤشر نهاية الخط الذي يمسك به في هذا الاتجاه، ولكن بينما كنا نحن ننتظر قدوم السيفورتس على يميننا فتحت نيران مدفعية ثقيلة على مساحة من الأرض تبعد ثلاثة أرباع الميل إلى الجنوب الغربي، خلف جناحنا الأيسر في نقطة اعتقدنا أنها خالية من العدو. وشاهدنا قواتنا تظهر من خنادقها ويسيرون ببطء فوق الأرض متقدمين بنحو سبعمئة ياردة، بينما شنَّت مدفعيتنا قصفاً أكثر فاعلية. ونستطيع بمناظيرنا تمييز تنُّورات الرجال، وأدركنا أن هذا كان هجوم قوات السيفورتس، وهو بعيدٌ جداً عن النقطة التي توقَّعناها.

وكانت قوات الهايلاندرز قد توقفت على بعد سبعين ياردة من الخندق من أجل رفع الحاجز الناري للمدفعية، ولكن الأتراك عند رؤيتهم القماش المألوف، لم ينتظروا إلى أن تصبح المعركة بالحراب. كانت ملامح العدو من خلال الغبار والدخان عندما تسلَّقوا فوق الساحة مغرية جداً بالنسبة إلى قوات السيفورتس التي خاطرت خلال الثواني القليلة الأخيرة من الحاجز الناري، وألقى الأتراك أسلحتهم في الخندق. وإن أولئك الذين ثبَّتوا تم قصفهم من قبل نيران مدفعيتنا ورشاشاتنا. وسقط الخط الدفاعي الثاني بأيدينا مباشرة بعد ذلك.

كانت الفرق التركية الحادية والخمسون والثانية والخمسون والرابعة عشرة تقاوم الفرقة التابعة لنا طوال الوقت. وإن رؤية تقدم مراكب قوات البلاك ووتش والسيفورتس أتعب قلوبهم. إنَّها ترتبط الآن بالهاجس الخالي ومرارة الهزيمة. كانت كما لو أن أرواح الاسكتلنديين الذين سقطوا في المعارك السابقة تسير بجانب ورشتهم. وسُلِّمت بالتأكيد المسودات القديمة إلى الجدد، ليست مرتفعاتهم الحيوية التي لا تقاوم فقط، بل تقليد من الذهول الذي أثار أعصاب الأتراك قبل تأثير الحديد الصلب. وكان أبو ريشة اسم العرب من أهالي المرتفعات، وتعلَّمنا منهم خوف الأتراك من الاسكتلنديين.

عند هذه النقطة، تعرَّضت قوات السيفورتس وكتيبة الرايفلز الخامسة والعشرون

بعد المئة التي تمسك بالخنادق على يمين الأتراك، إلى نيران منتظمة من الموقع الجديد مقابل الدوريات الراجلة التابعة لكتيبة الفرسان(الهوصار)الثالثة عشرة. وكبحت دوريات الفرسان الأتراك في خنادقهم طوال النهار على يسار قواتنا من المشاة. وقمعت خلال هجوم الصباح نيران العدو في هذا الجناح. وحانت اللحظة الآن للقيام بمعركة محمولة، وكان الأمر يحلم به كل فارس ولكن نادراً ما يسمع به وهو الهجوم وسل السيوف. وصدرت الأوامر إلى كتيبة (الهوصار) الثالثة عشرة وسرية الخيالة من كتيبة اللانسرز الثالثة عشرة للهجوم لاستكمال إيقاع الفوضى بين صفوف العدو. ودخلوا النقطة وقفزوا في الخنادق وفرقوا الأتراك الذين كانوا يهربون مرتبكين من الموقع حيث شنَّت قوات السيفورتس وكتيبة الرايفلز الخامسة والعشرون بعد المئة هجومهم، وجرى الهجوم من خلال ألف ياردة وراء الخندق الذي تمسك به قوات المشاة التابعة لنا عندما قوبلت نيران الرشاشات ومدافع الميدان من مسافة قريبة. استدلت قوات الفرسان وغطت انسحابها من خلال القيام بمعركة راجلة. وتُذكِّرنا المسألة بمعركة كتيبة الهوصار الثالثة عشرة في (لاج) وكتيبة الفرسان الثانية والثلاثين في الإسطبلات. وتقدم حماسة هذه الهجمات مثالاً أكثر روعة في المعنويات العسكرية، ولكن حكمة القيادة التي تطلقها سوف تكون دائماً محل خلاف. ليس هناك اختبارٌ أشد قسوة للقيادة من القرار، الطلب الفوري، إذ كانت تكلفة معينة وكبيرة من الخسائر البشرية المشاركة في هجوم على أحد المواقع المحصنة حيث تكون الروح المعنوية للعدو ضعيفة وتستحق الدافع لانسحابه.

كان الجناح الأيمن للأتراك الآن مدمَّراً، وكانوا في خطر التراجع على النهر فوق المنطقة التي تغطيها نيران قواتنا في الوسط ممتزجة مع دخان انفجارات قذائفنا وأعمدة من الدخان الكثيف التي يمكن رؤيتها الآن ترتفع من مستودعات الذخيرة والمُعدَّات الحربية حول تكريت التي أضرم الأتراك فيها النيران. كان هذا الأمر والتوقف النسبي لنيران المدفعية إشارة كافية على أن العدو كان يستعد للانسحاب. وفي الساعة الخامسة بعد الظهر، وعندما شنت كتيبة البنجابيين الثانية والتسعون هجوماً آخر على يميننا، ودخلوا مع خسائر طفيفة ومقاومة قليلة.وبقي عدد قليل من القناصين ورشاشة أحادية واحدة تمسك بهذا الجزء من الخط الدفاعي. وبعد حلول الظلام اندفعت دورياتنا إلى الأمام وفي الساعة الرابعة فجراً استولينا على المدينة.

وفي وقت مبكر من الصباح، كنت أستكشف المكان مع دوريات كتيبة البنجابيين الثانية والتسعين. كانت مدينة قديمة وخلاَّبة ومسوَّرة بُنيت على جرفٍ عالٍ. تقف البيوت على حافة شديدة الانحدار من الجرف الذي يرتفع بشكل حاد مئة قدم من قاع النهر المغطاة بالحصى. وفي داخل المدينة فهي معزولة تقريباً بوادٍ عميق يحيط بها ما يشبه الخندق، والصحراء من ورائها غير مزروعة.

وجدنا المكان هادئاً جداً. ولكن العلم الأبيض المعتاد كان يرفرف فوق كل سطح. ويتسكَّع أهالي البلدة في الشوارع، ويستقبلوننا مع تأكيدات بنية حسنة. وكان عدد قليل من العرب يسرقون الخشب ولكن الأتراك تركوا القليل وراءهم. إذ إنَّهم حرقوا مطاراتهم ومستودعاتهم للذخيرة والمعدات الحربية. وكان عدد الأسرى الذين أُلقي القبض عليهم في المعركة والملاحقة لا يتجاوزون ثلاثمئة وعشرين فرداً. وبالنسبة للإمدادات، لا يوجد دليل على الرغم من أنَّ تكريت كانت المنبع بالنسبة للعدو على نهر دجلة طوال فصلي الصيف والخريف. كان الأتراك يعيشون الكفاف من اليد إلى الفم، وكانت لديهم عبقرية في خطف الأشياء وأخذها بعيداً. وفي أي مكان قمنا باحتلاله، مهما كانت المعارك مفاجئة وسريعة، نجد ما يكفي من الغذاء لإبقاء اللواء نصف يوم. وخلال الليلة التالية سحب العدو كامل قوته إلى منطقة شوريميا. وفُقِدَت فرصة حقيقية للانقلاب على نهر دجلة عندما نجا الأتراك من شبكتنا في الدور. وخلال انسحابهم في تكريت كانت الفائدة لصالحهم. وفي معارك المؤخرة البارعة أبدوا مقاومة على أرضهم مع استمكان كل وادٍ من مدفعيتهم، وأضعفوا كتائبنا بدون خسائر كبيرة بين صفوفهم. ووصلتنا الأخبار خلال المعارك عن سقوط بئر السبع، وكانت هناك فكرة بأنه صدر أمرٌ عن تقدُّمِنا في أمل سحب القوات بعيداً عن النباعي. ولكنه كان أمراً مشكوكاً فهل لمثل هذا الاعتبار أهمية لدى الجنرال مود في ذلك الوقت. ولم يكن بالإمكان خداع الأتراك، وكانوا يعرفون حدودنا بشكل جيد للغاية. لم يكن بالإمكان إطعام قواتنا في المنطقة المتقدمة بواسطة شاحنات الفورد، ويتم التقدم إما بواسطة النهرين خلف نقطة يمكن أن تخدم بشكل فعال بواسطة وسائل النقل التابعة لنا ويمكن أن تدار بطريقة تعود إلى العدو بالفائدة. انسحبنا من تكريت بعد أيام قليلة بعد الانسحاب التركي، على الرغم من أننا احتللنا المدينة في وقت لاحق بدون مقاومة.

في هذه الأثناء قمنا بمسح الأرض التي ينبغي علينا أن نقاتل فوقها إذا استمر زحفنا إلى الأعلى من مجرى نهر دجلة في أي وقت، وتأكدنا من أنه لم يكن لدى الأتراك مكان للوثوب منه طوال عدة أشهر، ولا حتى في بداية محطة التقدم الكبير التي يجب أن تجمع فيها قبل القيام بهجوم بشكل جدي.

الفصل الثاني والأربعون

وفاة الجنرال مود

كانت إحدى ضربات سوء الحظ التي لحقت بقوة المشاة في هذه الأيام التي شهدت الانتصارات المستمرة هي فقدان القائد، الذي غيَّرت شخصيته وعبقريته جانب الحملة بكاملها. توفِّي الجنرال مود في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني لإصابته بمرض الكوليرا في بغداد. وكان عزاؤنا الوحيد هو الاعتقاد الذي جلب له السلام في ساعاته الأخيرة، بأن عمل مود كان تقريباً كاملاً-أكثر كمالاً مما عرفنا في ذلك الوقت، إذ إنَّ الأتراك لم يتحشَّدوا أبداً من جراء الضربات القوية التي وجهها لهم. ويرتاح الآن في المقبرة الصحراوية خلف الباب الشمالي، بين القتلى الذين بفضل قرارهم الرائع وشجاعتهم وتحمّلهم مثل هذه الشهادة الكريمة، وبفضلهم كان حافزاً متواصلاً.

وصل الجنرال مود بلاد ما بين النهرين قادماً من مصر في قيادة الفرقة الثالثة عشرة في شهر آذار 1916. وقد قادهم في معركة غاليبولي حيث أشرف على الإخلاء الأول (لصوفلا) ومن ثم (حلس). وفي الثامن والعشرين من شهر آب، عُيِّن قائداً للجيش خلفاً للسيد (بير سي ليك). وقد رأينا كيف أنه مع موهبته الرائعة للتنظيم بنى الآلة القتالية. وهو الذي أيقظ الحكومة لدى عودته في النهاية إلى التكلفة الكاملة للمهمة التي تعهَّدوا بها وصمَّموا على فعل الخير، على الرغم من أنَّه في ضوء الكارثة الأخيرة فإن أي شيء بطبيعة المغامرة كانت مثبطة للعزيمة، ولم يذكر أبداً ما هو الأمل النهائي الذي قد يكون في ذهنه. وتعرف القوات التي بقيادة مود لشهور فقط النقيض، وأنه ينبغي أن يطلعهم على النصر ويحثُّهم مع الثقة بأنَّه لا شيء في علاقاتهم الماضية مع الأتراك مضمون، وأن الأتراك الآن يتفاخرون بالنجاح وأنه ينبغي أن

يطلعهم بالهزيمة. كانت مهمة لا تستدعي ذهناً صافياً ويقظاً، فحسب بل تستدعي قلباً كبيراً أيضاً وشخصية عظيمة وعزماً يستبعد كل قضية يمكن تخيلها ولا تسهم في نهاية واحدة. إن الثقة المتواضعة التي معها بدأ بتدمير الأتراك يمكن إدراكها فقط من قبل هيئة أركانه والرجال الذين كانوا معه في ذلك الوقت. كانت الكوت وعلى الرغم من وضوح الأفق المادي بعيدة جداً وإن بغداد في أذهان معظمنا كانت حَلّاً مستحيلاً وحتى الآن أنا أعتقد ذلك. رأى الجنرال مود أنَّ بغداد كانت في قبضته طوال الوقت، وهي هدفه الشخصي لأنه ليس لديه أوامر من بلده، كانت المدينة هدفاً محدداً له. وكانت جرأة مود التي لها ما يبرِّرها واحتراسه المخفف بالجسارة في المسؤولية واتخاذ القرار عندما رأى في النهاية الافتتاح الذي أحدثه والذي سحبنا خلاله.

كانت العمليات التي أدت إلى الاستيلاء على بغداد وتأمينها عبارة عن سلسلة من الضربات المتقنة والرائعة جداً في التصور بأنَّ الأتراك لم يتوقَّعوا بجدية نجاحها أبداً. ولكن مود كان دائماً على ثقة من اختراقها وفي العمل الطويل والمكلِف والشاق لطرد الأتراك ياردة بعد ياردة من نظام خنادقه المتقن حول الكوت، كان مقتنعاً طوال الوقت بأنَّ الأمور تسير على ما يرام. وكانت ثقته معدية ونقلت من خلال عينيه وصوته، على الرغم من أنه في الأيام الأولى من القتال في الحي، وكان لدينا مساحة قليلة للتفاؤل.

كان الشيء الأكثر وضوحاً حول الجنرال مود هو تواضعه وجعله يظهر على السطح بأنَّ ثقته تقدَّمت ليس كثيراً من الشعور بقواه الشخصية انطلاقاً من اعتماده على ماكنته. وعندما يكون المرء معه لا يمكنه تحمُّل الشعور بأنه يعتقد بهذا، على الرغم من عادته في السيطرة على تفاصيل عمل هيئة الأركان التي تركت للمرؤوسين. وقال: إنَّه لن يأخذ لنفسه الفضل في أية عملية ناجحة أو عبقرية أو قطعة صوت منظمة. ولم يستمع لأي تهنئة من دون التقليل من جانبه الخاص في القضية. لا تهنُّوني، كان سيقولها في نبرة جريح فظ ونفاد صبر حسن المحيا، كان الرجال الذين فعلوا ذلك- وكان غير مريح حقاً كما لو كان يرتدي ريشاً مستعاراً، ربما كان لديه تصور عن كل التفاصيل عن العمليات، حتى التعامل مع كتيبة واحدة، ولكن عندما أُنجز الانقلاب فإنه سيعكس الفضل إلى القيادة التابعة له. إنه يكره التملق والبغض

والغلو من أي نوع. وأعتقد أنه لو كان ممكناً، فإنه كان يود أن يستمر بالحملة إلى أجل غير مسمى. ولم تكن أي إشارة إليه مسموحة في أي بيان عام، ويمكن قراءة تواضعه في كل سطر من برقياته وإن العظمة والمراسم والمظاهر والمصائد غير الضرورية للحرب لا تغريه، وإنه سخر من فكرة الدخول المنتصر إلى بغداد. ولم يكن في الخارج أبداً للتأثير على الناس، ولهذا السبب وعلى حساب إهماله الشديد للفنون الذي بواسطته يفترض العقل الشرقي أن يكون مستبعداً، وإنه ربما أعجبهم جميعاً. وكان دليل القوة واضحاً في كل مكان، وإن الرجل الذي دمر جيشاً بهدوء وطرد الأتراك وحطَّم إمبراطورية لم يظهر في كثير من الأحيان.

كان طبيعياً وبسيطاً وصريحاً في جميع علاقاته ومنضبطاً في روتينه كالساعة. وكان يبدأ بالعمل في الساعة الخامسة صباحاً. وكان الفطور في الساعة السابعة وينتهي في الساعة السابعة والربع. ومن ثم الدائرة والعمل طوال اليوم إلى جولته المسائية. كان يسافر بأمتعة قليلة مع حقيبة سفر مع حقيبة أدوات تحتوي على كل شيء يمتلكه. وإن حقيبة الأدوات الثمانين-أي -بي هي حصة الضابط، وكان هو آخر رجل في العالم يتمتع بفكرة الامتياز. وكان أحد اقتباساته المفضلة أنَّ «الوقت في الحرب هو كل شيء». وقال إنَّ «كل ضابط» ينبغي أن ينقشها على مرآة الحلاقة، ولم يتأخر مود أبداً عن عمل ذلك. ومنذ اليوم الذي غادر فيه (ساندهيرست) كانت مهنته دائماً تأتي في المقام الأول. كل هذا يعطي المرء بالأحرى فكرة طبيعة قاسية وكئيبة. وكان دليلاً للفضائل، يقرأ المرء في المُرَتَّبات عن الرجال الأقل نفوذاً. ومع ذلك فإن جانبه الدقيق والمنهجي لا يمكن تغافله؛ لأنَّه كان يوضِّح الكثير من حتميته ونجاحه، ولكن بالتأكيد عليه الكثير جداً، ربما يعطي المرء صورة مضللة جداً عن قائد الجيش، صورة العناد والحذلقة التي ستكون واسعة جداً من الصفة المميزة. وسيتوقع المرء أنه رجل كان متزمتاً بشكل فائق ويفتقر إلى الصفات الإنسانية، لكن الجنرال مود كان محبوباً بالإضافة إلى أنه رجل عظيم. وكان طيباً جداً وحنوناً، ويستمتع بالرياضة والملذات من جميع الأنواع بشكل متحمِّس. وكان دائماً مستعداً لتحمّل متاعب لا نهاية لها ليقدم إحساناً لكل شخص، وإنه لم يستثن نفسه، وهو ذو مزاج جيد وصحة تامة ولا ينقصه أي شيء أبداً، وكلما زاد لديه العمل لإنجازه كان

أسعد ويرمي نفسه إليه بشكل أكثر. وكان دائماً يعطي أفضل وأعلى ما لديه، ويتوقع من الآخرين أن يعملوا الشيء نفسه على الرغم من أنَّه كان مستعداً للتسامح أكثر من أغلب المسؤولين وربما كان جاهزاً جداً أحياناً.

في بلاد ما بين النهرين، يشعر كل فرد قابله بجاذبية شخصية، وإن أولئك الذين يعرفونه بشكل أفضل يحبونه أكثر. وكانت عاطفته ونظرته معروفة جيداً لدى أفراد قواته. وفي عشية أي عمليات فإنَّه يبعث رسائل تشجيعية إليهم ويهتم بتقديم أشرطة الأوسمة حالاً بعد المعركة إلى أولئك الذين تميَّزوا فيها. ويعدُّ التأخير في هذا الخصوص، محبطاً للموضوع المستهدف. ويسافر إلى مسافات بعيدة بالطائرة لهذا الغرض. وحالما يصل ضباط أو رجال جرحى إلى المستشفى من الجبهة، فإنَّ أول شيء يفكر به هو أن يذهب لزيارتهم. وإذا كان هناك أحد الضباط مريضاً ومن يعرفه يرقد في المستشفى فإنه سيقوم بزيارات متواصلة له. وإنه لم ينقطع عن هذه الطبيعة، مهما كان ضغط العمل عليه.

ويتحدَّث الرجال الذين يعرفونه في الأيام القديمة كمساعد لقوات كولد ستريمز أو جنوب أفريقيا وكندا وكوراغ، عن نكران ذاته وعن طبيعته الثابتة بوضع نفسه جانباً. وكتب أحدهم، أن أكثر ما يتذكر المرء عنه هو مزاجه المُشرق والمُنَشِّط لكل شخص. كان بسيطاً وصريحاً وكريماً مع خوف من جميع أنواع البخل والدناءة والافتقار إلى الاستقامة، وكان رجلاً محترماً أنيقاً جداً وجندياً بكل ما في الكلمة من معنى.

ومن وجهة نظر مرتبكة في اللحظة، لا يمكن للمرء أن يشكل تقديراً عادلاً للمكانة التي سيمنحها له التاريخ. وبحكم المنصب ستكون لديه المكانة اللائقة بين الخالدين لمجرد كونه الفاتح لبغداد. ولكن لا أحد يدرك أفضل من الجيش الذي قاده كم كانت نجاحاته فردية. وكان قلب الماكنة وعقلها على الرغم من كونه أول من ينفي ذلك. من المشكوك فيه أن تجد في كل تاريخنا العسكري قبل الاستيلاء على بغداد حالة مماثلة ويمكن أن تكون سلسلة من الانتصارات منسوبة بشكل خاص إلى شخصية هذا الرجل بمفرده، ومن المرجَّح أن يتم الاعتراف بها أكثر وأكثر عندما تصبح وجهة نظرنا أكثر وضوحاً. ربما ستصنف الأجيال القادمة الجنرال مود بوصفه قائداً عظيماً

مع ألكسندر وجوليان، اللذين فتحا الأرض البور وأصبحا ضحاياها. وقد ثبّت وصلة لا تنسى في استمرارية التاريخ عندما دخل بغداد، ويجوز للمرء أن يتنبأ أنّ اسمه سيرتبط بتغيير أكثر دائمية ورحمة في ثروات البلاد مما يمكن أنْ تدوَّن لحساب الرومان والفرس واليونان. ولكن في الوقت الحاضر، فإن الرجال الذين ساعدوه في صناعة التاريخ لم يكونوا مهتمين بالأجيال القادمة. وكانت الفكرة التي أزعجتهم والتي تحدث في كل الأوقات هي أنَّ قبرين أو ثلاثة قبور جديدة في المقبرة البريطانية أحدهما يخفي عظام الرجل الذي يمكنهم في الأقل إبقاؤها للقائد ذي الابتسامة الهادئة والواثقة التي كانت تؤكد أنَّه لم يطلب منهم القيام بتضحية عبثاً.

الفصل الثالث والأربعون

قره تبه

أصبحت الأمور أكثر وأكثر صعوبة في التورط في توجيه ضربة إلى الأتراك. لقد تلاشى مثل السراب وتركنا تحت هيمنة الرمال والغبار، وكما صاغها العريف الملاكم، أننا قضمنا أذنه اليسرى وأذنه اليمنى وكسرنا أنفه وصرعناه في الحلبة، ولا يبدو أنّه سيتمكن من الوقوف أمامنا مرة أخرى. وإن هذا يعني تغيير المجاز، بأن ننسحب بأقصى ما نستطيع، إذ إننا سحبنا ثقلنا. وإن الجندي الألماني أفاد منا جغرافياً واستراتيجياً. وكان في القمة، وانتشر الحلفاء في نقاط مختلفة على طول القاعدة الواسعة من المثلث. ومع خطوطه الداخلية، أصبح بإمكانه أن يحتوي على قوة صغيرة لجيوش متفوقة عددياً، وإنَّه يُعَزِّي نفسه لفقدان محافظه بالحديث عن الجيش البريطاني للاعتقال في بلاد ما بين النهرين.

قد يكون هناك غشّ معين في الشراع، على الرغم من أنّنا كنا أبعد ما نكون من الاعتقال. وتتوسع منطقة نفوذنا كل أسبوع، وأن العمل الذي يجري القيام به من أجل تنمية البلد واستقراره سيجني ثماره بعد الحرب، وفيما يتعلّق بالمسألة العسكرية، كانت هناك مفاجآت في انتظار الأتراك حتى الآن.

وبعد تكريت بفترة وجيزة وجدت نفسي مع قوات الكوساكس في مندلي. وفي التاسع والعشرين من شهر أيلول، بينما كانت معركة الرمادي تجري، احتلت قوات الفرسان التابعة لنا المدينة. وهرب جنود الحامية التركية الصغيرة إلى التلال، وتركوا جمالهم وكمية كبيرة من حبوب الحنطة.

إنَّ وصول القوزاقي بارتيزانسكي إلى المشهد بعد أسابيع قليلة كان واحداً من بين العديد من الأسرار في بلاد ما بين النهرين التي لا يسمح فيها للشاهد العيان

الرسمي أن يفشي سراً، ومن الصعب فهم سبب هذه السِّرية. ينبغي أن يكون الأتراك يدركون مجيء الروس؛ لأنَّ الطريق كان مفتوحاً إلى الشمال وأنَّ الأخبار يمكن أن تنشر إلى الجمهور في الوطن فقط. وكانت المفرزة مكونة من جنود نظاميين منتخبين تطوَّعوا من أفواج مختلفة من جيش القوقازيين على الجبهة الفارسية. ولم تكن الروح القتالية لهؤلاء القوزاق منهارة بالثورة ويلوحون بأيديهم كمواطنين أحرار لهجر حلفائهم والعودة إلى وطنهم، كانوا يفضلون البقاء على تماس مع العدو ومواصلة الحرب. وتم الاحتفاظ بالعلاقات القديمة بين الضباط والرجال وتطوَّعوا بالروح المعنوية نفسها لكتائب الموت على جبهة نهر الفرات، وأقسموا على طاعة ضباطهم والمحافظة على تقاليد الجيش الروسي القديم. وترمز الجمجمة والعظمان المتقاطعان على الرايات المثلثة الشكل لقادة سرية الخيالة، أبيض على حقل أسود مع حافات حمراء داكنة، إلى تصميمهم على القتال حتى النهاية. وكان الجنرال الوحيد الذي قابلته والذي ما زال، بعد ثلاث سنوات ونصف من القتال، يحب القتال من أجل مصلحته الخاصة على الرغم من كونه أُصيبَ بستة جروح في ست معارك مختلفة ويحمل رصاصة قرب عموده الفقري ويعرج على قدم واحدة، وفقد استخدام ذراعه اليمنى ويحتفظ باستخدام جزئي فقط بيساره. وكان (البارتيزانسكي) معنا في العمليات على الضفة اليمنى من نهر ديالى في الأسبوع الأول من شهر كانون الأول ويقود بيكاراكوف الذي كان رجلاً مريضاً في ذلك الوقت المفرزة من نقالته.

تراجع الأتراك على نهري دجلة والفرات إلى خارج مدى الرمي السريع، وكانت ضربتنا القادمة التي شارك فيها القوزاق، مباشرة ضد قوة العدو، جزءاً من الفيلق العسكري التركي الثالث عشر الذي يمسك بنهر ديالى إلى الشمال من المنصورية، ويمر فوق جبل حمرين على الضفة اليمنى من النهر وقره تبه. وشاركت أربعة أرتال متجمعة في هذه العملية، بينما تحشَّدت قوات الفرسان إلى فوق نهر العظيم وإلى الغرب من أجل منع التعزيزات التي يجري جلبها مقابل قوتنا المهاجمة من طوزخورماتو وكركوك.



GENERALS BICHARAKOFF (left) AND BARATOFF (right)

الجنرالان بيكاراكوف (إلى اليسار) وباراتوف (إلى اليمين)

اضطر اللواء السابع والثلاثون على أقصى يميننا وإلى الشمال الشرقي على عبور نهر ديالى ليلاً في حي كيزيل روبات، في حين كان اللواء الخامس والثلاثون قد أبقى العدو في نقطة أبعد إلى الجنوب. وأخلى اللواء السابع والثلاثون الأرض على الضفة اليمنى وانسحب في ليلة الثاني/ الثالث من الشهر بينما عبر اللواء الخامس والثلاثون وبدأ تقدُّمه. وعبرت قوات البارتيزانسكي الروسية في الوقت نفسه على بضعة أميال إلى الشمال قرب كيشوك. وفي فجر اليوم الثالث من شهر كانون الأول وبعد مسير ليلة فاجأ اللواءان الثامن والثلاثون والأربعون العدو في نقاط مختلفة في الموقع الممتد الذي كانوا يستولون عليه في سفوح التلال غرب منطقة دلّي عباس. وعمل اللواء الثامن والثلاثون على طول قمة السلسلة الجبلية من نهر ديالى، وهاجم اللواء الأربعون جبهوياً واخترق الرتلان التلال قبل الفجر.

يقع خط الأتراك الرئي للمواصلات على طول طريق كفري الذي يمر بالعديد من المنعطفات والتعرُّجات خلال جبل حمرين. ويكون المدخل من الجنوب عن طريق ممر السوهانية، ومن الشمال عن طريق ممر ساكال توتان. وكان اتجاه الطريق وعراً نحو الشمال والجنوب، وتقع بعض الامتدادات بشكل متوازٍ مع قواعد التلال. وهكذا فإنَّ رتلنا الذي هاجم على الجبهة إلى الغرب من فتحة ممر السوهانية، كان قادراً من خلال مسيرة سريعة لضرب إحدى النقاط على الطريق التي تقطع جزءاً من مؤخرة العدو قبل أن يتمكَّنوا من الوصول إلى السهل إلى الشمال.

وكانت نتيجة الرحلة هي أننا قمنا بمناورة العدو خارج الخطوط الدفاعية الأولى والاستيلاء على مدفعين ميدانيين ومئة وسبعين أسيراً قبل منتصف النهار. وكانت أسلحة الميدان التي استُولي عليها مع مفارز المدفعية والخيول قد تجاوزت مدفعيتنا عندما كانت في طريقها إلى العمل، وأخبرنا رماة المدافع الأتراك بأن مدافعهم الخمسة والسبعين قاومتنا في معركة غاليبولي.

ومن أجل طردهم من مواقعهم المتقدمة تراجع الأتراك وتمسَّكوا بممر ساكال توتان، وهو خط دفاعي طبيعي هائل. وتحصَّنوا على طول قمة السلسلة الجبلية، وإن رشاشاتهم ومواضع مدافعهم تسيطر على الممرات المتابعة على الطريق.

وهنا، إذا لم يكونوا خائفين من عملية التطويق، فإنَّهم ربما يهيئون لمعركة خلفية قريبة جداً للهجوم، ولكن كان لديهم سبب لمعرفة أنَّ المناورة التي من جرائها أجبروا على الانسحاب من جبل حمرين كانت مجرد جزء من حركة مقاربة واسعة جداً، وأنَّهم كانوا في خطر عملية إحاطة أوسع وراءهم. كان رتلاً واحداً من قوات الفرسان نشيطاً إلى الغرب من شط العظيم، بينما كان رتلٌ آخر من قوات الفرسان، بضمنهم القوزاقي بارتيزانسكي، يعمل دائرة من نهر ديالى إلى الشمال الشرقي، وكان لواء المشاة الخامس والثلاثون يقترب من قره تبه من اتجاه كيزيل روبات، تحت هذا التهديد انسحب الأتراك بعد حلول الظلام ووجدت دورياتنا المندفعة إلى الأمام الموقع مهجوراً.

في صباح اليوم التالي وعند الفجر ولوقوفنا على ممر ساكال توتان كانت لدينا نظرة واسعة عن سهل قره تبه إلى الشمال وعن سلسلة التلال المنخفضة من ورائه، ولكن بدون إشارة من الأتراك ما عدا بضعة خيوط من الغبار الأبيض الذي يشبه دخان الحرائق. وذكرت إحدى طائرات الاستطلاع أنَّ العدو تحصَّن في التلال إلى الشمال من قرية قره تبه. بعد ذلك بوقت قصير كشفت الأخبار السريعة عن تقدم رتل قوات الفرسان على بعد ثمانية عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من نهر ديالى، وهدوء إلى الشرق أبعد من ذلك، ولكن كانت هناك سحابة رمادية من الغبار أقرب إلى جبل حمرين، أخبرتنا أن اللواء الخامس والثلاثين من اتجاه كيزيل روبات كان في طريقهم. وكان هذا الرتل سيلعب دوراً مهماً في قتال اليوم التالي، ولكن خلال ما تبقى من اليوم الرابع كنا مشغولين تماماً في جلب الذخيرة والتجهيزات فوق الممر وفي بناء منحدرات لعبور نهر كوبري، حيث فجَّر الأتراك القوس وسط الجسر القديم الجميل المبني من الطابوق لدى انسحابهم.

في صباح اليوم الخامس اشتركنا في المعركة مرة أخرى. وذكرت دوريات الفرسان أنَّ قرية قره تبه كانت خالية، ومن أعلى سقف في القرية ومع رامي مدفعية أف.أو.أو وحشد من المهتمين العرب، أصبح واضحاً لديَّ عن المعركة على يسارنا وفي الوسط وراقبنا العدو يتراجع ببطء فوق التلال ويخوض معركة دفاعية في أثناء انسحابهم. كان المخطط العام لمعركة اليوم الثالث قد تكرر ولكن بدون عنصر

في صباح اليوم السادس من شهر كانون الأول، ذكر طيّارونا أنّ العدو كان يتلاشى على طول طريق الموصل بعد إضرام النار في مناجمهم للفحم في كفري. وامتد خطنا أيضاً بعيداً ليعترف بالمطاردة، وفي اليوم الثامن انسحبنا إلى جبل حمرين، تاركين المواقع على ممري ساكال توتان وأبو زنابيل وفي نهر كفري، وأقمنا رأس جسر في كيزيل روبات. وفي اليوم التاسع احتللنا خانقين على طريق كرمنشاه، وكنا خلال الأشهر القليلة التالية مشغولين بتحسين وسائل مواصلاتنا بهدف تفادي مخططات العدو في بلاد فارس.

وفي طريق العودة من قره تبه دخلنا في فترة غير طبيعية من الطقس البارد وسقطت الثلوج على التلال. وتجمّد الماء في حوض المخيم خارج خيمتي وأصبح كتلة صلبة من الجليد. وأصبح هناك جليد في قناني مياه الشرب لقواتنا التي تسير على طريق سامراء. ومن حسن الحظ أن موجة البرد لم تبدأ قبل أسبوع؛ لأنه في أثناء تقدم اللواء الأربعين الذي أرافقه، كان علينا أن نمضي ليلتين بدون وسائل نقل الخط الأول أو الخط الثاني، وكان واحدٌ أو اثنان منا ممن كانوا بدون معاطف أو بطانيات يعتقدون أننا أنقذنا حياتنا عن طريق لف أنفسنا بشراشف إشارات الطائرات المتقدمة. وتم تسجيل درجات الصقيع في سامراء بـ(12) درجة و6، 6 درجات في بغداد، لم يكن شيئاً قاسياً جداً لدى الحكم عليه بالمستويات العادية، ولكن بعد الطقس الحار غير الطبيعي، كنا حساسين جداً من البرد، وكان دمنا أرقّ وكانت مسافات جلودنا أكثر قابلية للاختراق. وكان هناك خلال خمسة أشهر فارق مئة درجة بين قراءة الحد الأقصى والحد الأدنى. وكان الهواء لاذعاً وجافاً منذ أسبوع أو أسبوعين قبل دخولنا بغداد في الحادي عشر من آذار، ولم يكن هناك مطر كافٍ لإخماد الغبار. وكانت كمية الأمطار الساقطة في بغداد خلال الأشهر العشرة الأخيرة بلغت 9 أنجات.

الفصل الرابع والأربعون

هيت - خان البغدادي - كركوك

كانت المعركة المقبلة على نهر الفرات. تَلقَّى الأتراك، بعد الرمادي، تعزيزات على هذه الجبهة. كانوا يسيطرون على هيت، وكانت المخافر الأمامية منتشرة إلى أسفل مجرى النهر إلى عقبة، وكان موقعهم الرئيس المتقدم فوق هيت، خلف الوادي الواسع، على بعد ميلين إلى الشمال من المدينة، في حين أنَّ الجزء الأكبر من قواتهم كان في منطقة الصلاحية على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الأعلى من مجرى النهر. وقرر الجنرال مارشال الاستيلاء على هيت وإذا أمكن على حاميتها ويعتقد أنه لم تكن هناك صعوبة في الاستيلاء على المدينة وطرد الأتراك من مواقعهم، ولكن الاستيلاء على القوة التركية ستكون مسألة بالغة الصعوبة، ونتيجة خبرتهم السابقة في الرمادي[1] فإنَّ هذا التوقُّع تحَقَّق تماماً. وفي التاسع عشر من شهر شباط دخلت قواتنا عقبة التي وجدت خالية.وخلال الأسابيع الثلاثة التالية، بقينا على تماس مع الأتراك من قبل الدوريات وعمليات الاستطلاع، ولكن لم يكن بحساباتهم المحاولة للاستنتاجات معنا. وفي ليلة الثامن من شهر آذار اكتشفت دورياتنا أنَّ مدينة هيت وموقع الوادي الكبير خلف المدينة أُخْليتا. ودخلنا مدينة هيت في التاسع من آذار ومنطقة الصلاحية في العاشر منه. انسحب الأتراك إلى الوراء إلى خان البغدادي. وعجّلت طائراتنا انسحابها بمضايقة مشاة العدو ومواصلاته بالقنابل ونيران الرشاشات طوال اليوم.

تحتل هيت الموقع نفسه على نهر الفرات مثل تكريت على نهر دجلة التي تقع على بعد سبعين ميلاً إلى الشرق. ويحافظ الأتراك عن طريق صحراوي يربط بين المدينتين على مواصلاتهم بين قواتهما على النهرين.

---

(1) رسالة الجنرال مارشال في (15) نيسان 1918.

لا يسمح هذا الطريق وبسبب المياه وصعوبات النقل، لمرور قوة كبيرة، والآن أغلق أمامهم، وعندما انسحبوا إلى الشمال والغرب أصبحت المواصلات على امتداد الصحراء الواسعة بين نهري الفرات ودجلة، أكثر صعوبة إن لم تكن مستحيلة.

في هيت، دخلنا بلداً جديداً، أرض الحجر الكلسية والطين الجبسي حيث يتجه النهر في وادٍ بين تلال منخفضة. وبمشاهدتها من على بعد ميل أو ميلين من أسفل مجرى النهر تذكرنا بإحدى المدن الإيطالية. بنيت المدينة من حجر الكلس الرمادية وهي متراصّة مثل القلعة في جدرانها، وتقف المئذنة الصغيرة مثل برج الأجراس، وتبدو أشجار النخيل أسفل الجدران من بعيد سوداء كأشجار السرو، وقنوات المياه (القرية) ذات الأقواس تمتد في داخل نهر الفرات، أو تقف متصدّعة ومعزولة في وسط النهر وهي ذات منظر روماني، وتقف النواعير في فتحات من جدران من الحجر على ارتفاع خمس وثلاثين قدماً، وتتلقى القوة الكاملة من التيار، الذي تركّز في قناة ضيقة بواسطة السدود التي بنيت من الحجر بحكمة في وسط مجرى النهر، وعندما تدوّر النواعير أوعية فخارية مربوطة بإحكام على حافاتها تسكب الماء في الترعة، ومنها يُحمل الماء إلى المحاصيل وبساتين النخيل. لقد رأيت النواعير في كمبوديا بنيت على الخطة نفسها، وتؤشر هيت نقطة فاصلة على نهر الفرات. ولا يلتقي المرء مع رافعات المياه هذه في أسفل مجرى النهر، إذ إن التيار يفقد قوته، ويتم استخدام الثيران والجواميس لتشغيل الدواليب الفارسية.

وعندما يدخل المرء المدينة يختفي المنظر الساحر الذي يضفيه البعد إليها، ويصبح التشابه مع تكريت أكثر وضوحاً. كانت المنازل مكتظة بشدة على التل الدائري مثل منزل كبير كقرص العسل يمتد بعيداً في خندق مائي إلى داخل النهر. ويتشكل هيكل المدينة من الجدران المشتركة، وكان الكثير منها متداعياً ويُعرِّض الداخل إلى الخراب وتجاويف ودواوين. وكان المنخفض الذي يشبه الخندق لم يكن خندقاً حقاً، ولكنه المنخفض الذي تشكّل بين أسس المدينة والكومة من القمامة التي ارتفعت حولها نفايات على مدى قرون. لا يمكن للمرء الهرب من النفايات في هذه المدن الصغيرة والقديمة العهد. إنّه شيء ملحوظ أنها بنيت على النفايات. وبنيت هيت اليوم على طبقات الأعمال الناجحة. وكانت الأنقاض بدون

زيادات حتى إنَّها كانت تهدد بالهيمنة على أسوار المدينة، ومع ذلك فإن الأنقاض في الداخل لم تنقص أبداً، وأصبحت مؤخراً أكثر قبحاً. وقد يعتقد المرء أن القار له تأثير مطهر، وأن الأزقة الضيقة والشديدة الانحدار كانت في إحدى المرات قد أُكسيَت منه ولكنها أصبحت مجاري لتصريف المياه. ويتم رمي النفايات التي أنهكت المرور في الشارع من جراء المطر، وإن على المرء أن يمشي مثل السلطعون مع جدران المنازل ليتجنَّب الانزلاق والسقوط فيها وإن هذه البالوعات المفتوحة تسمم الهواء طوال السنة إلى حين سقوط المطر العرضي في الشتاء لتغسل القذارة الكريهة وتحملها إلى النهر، حيث تذهب النساء لملء جرارهن. وفي داخل المدينة كانت الكلاب بمثابة عمال النظافة في البلدية، وفي الخارج، تأتي الحمير الجرباء بحثاً عن العلف بدلاً من الحشيش. ويشتم المرء الرائحة المنبعثة منها بدرجة أقل في أماكن أخرى على أنهر دجلة والفرات والكارون. ولكنها كريهة كما هي مدنهم، وإن أحد طيارينا ربما ظلم الهيتاويين عندما ذكر بأنه شم الرائحة التي وصلت أنفه عندما كان يحلّق فوق طائرته على ارتفاع ثلاث مئة قدم، وبسرعة تسعين ميلاً في الساعة، والتي تنبعث من الشوارع. لا بد أنه ضرب من انبعاث كبريتيد الهيدروجين من آبار القار. وتجري نسمات منه إلى المدينة في بعض الأحيان عندما تكون الرياح من الغرب.

اعتاد العرب تسمية آبار القار هذه التي تنتشر في جميع أنحاء الصحراء، بأفواه الجحيم. ويوجد بئر على بعد نصف ميل من مدينة هيت، وكانوا يعيشون بناءً على مصدر سمعتها الحسنة. ولا يحتاج المرء أن يسأل عن الطريق إليه، إذ إنَّ المرء يسترشد إليه من رائحته، وعندما يصل المرء البئر، يبقى يراقبه بجاذبية فظيعة. وينبعث الغاز الكريه على شكل تدفق متقطع، ويرفع الرغوة بهيئة فقاعات تشبه غليانات سوداء ضخمة، التي تنفتح وتنفجر محدثة صوت صفير. ويفرغ الزفت نفسه على منحدر، حيث يتجمع ويُحمل من قبل العرب في سلال على حميرهم. ويجدها المرء على الأسطح والسلالم والشوارع في هيت وتكسى القوارب به وهو لا يقدر بثمن لقوارب الجسور. وتطلى سلال العمل بالقار وتستخدم كبديل خشب الجوجار، وللمعادن في الأباريق التي تحملها النساء إلى نهر الفرات– وهي نوع مختلف من الأوعية التي شاهدتها في أماكن أخرى. والقار هو رواسب جيرية من

نفط القاعدة الإسفلتية المترشح بواسطة الشمس. وتختلف طبيعة الإفرازات على السطح في الجوار كثيراً بحسب الزمان والمكان. ويجد المرء بحيرات مجمدة من الإسفلت ملساء ومسطحة وصلبة كأرضية مرصوفة تقف على ارتفاع قدم فوق سطح الأرض، ويجده المرء على شكل امتدادات متصلِّبة بشكل تام، كما في عين (مارخ) حيث إن صخور السطح عندما تمشي عليها مثل مستنقع يهتز. وإن عيون هذا القار الجاف هي النفط الخام الذي يتم منه إعداد البنزين والنفط الأبيض والوقود وزيوت التشحيم. ولكن كان هناك فارق جوهري بين نفط القاعدة الإسفلتية في هيت وبين نفط قاعدة البارافين لـ(ميدون النفطون) في حقول النفط الفارسية، ولا يسفر التنوع الإسفلتي عن الكمية نفسها من النفط النقي عند التقطير الذي يمكن الحصول عليه من البارافين.

القار والنواعير والتراب هي من المحتمل أن تكون الانطباعات الدائمة التي ستحملها قوة نهر الفرات بعيداً من هيت. هذه هي الأمور التي تعلق في ذهني منذ أن زرت المكان قبل عشرين عاماً، وهذه هي الأمور التي كان يتحدث عنها الجميع يوم دخولنا. وإلى أن زرت شوستر كنت دائماً أفكِّر في هيت بوصفها أقذر مدينة صغيرة في آسيا، وبهذا الحكم كانت مشاعر قوة الحملة في بلاد ما بين النهرين معي. وإن الميزة الأكثر جاذبية للمكان هي بساتينها. إذ إنَّ هيت تشتهر بأشجار التوت وبساتين النخيل التي تتخللها أشجار متشابكة من الخوخ والمشمش التي كانت مزهرة عندما دخلنا المدينة، ولكن أغلب الأشجار كانت قطعت من قبل الأتراك لإكساء خنادقهم وسقوف منازلهم التي لم يمسك بها ضدنا بعد كل شيء. لم يسامح شعب هيت وليس من المرجَّح أن ينسى الجريمة. إنَّ تدمير البساتين في الأراضي الخصبة والمثمرة أمر محزن جداً، ولكن سلب هذه البساتين المسورة المنتزعة من الصحراء في مثل هذه المآسي، توحي بوجود أسطورة حزينة على خسارة الحرب.

في زيارة سابقة لي إلى هيت في الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني عام 1898، كنت أعبر الصحراء مع بريد الإبل إلى دمشق. وكانت الرحلة، التي تبعد أربعمئة ميل في خط مستقيم، تستغرق لقطعها من قبل ساعي البريد سبعة أو ثمانية أيام. يغادر طريق القوافل بجانب مدينة تدمر، بالميرا القديمة، نهر الفرات في دير الزور.

وتستغرق الرحلة في المتوسط أربعة وعشرين يوماً في فصل الصيف وأحياناً ما لا يقل عن ثلاثين يوماً في فصل الشتاء. كانت هناك آبار بين دير الزور ودمشق التي لم تجف بتاتاً خلال العام. وكان الطريق الأسرع هو عن طريق كربلاء وشثاثة، حيث بإمكان المرء أن يكتشف بئراً كل يومين. وفرض شيوخ القبائل البدوية ضريبة على القوافل لعبور الطريق. وفي الأيام الخوالي من بريد الجمال من هيت إلى دمشق كان قد أُجري عقد للبريد بالمزايدة العلنية فيرسل ساعي البريد ومعه الرسائل كل أسبوع. ويحتفظ المقاول بإسطبل من الإبل السريعة ومن سلالة خاصة، وتخضع هذه الحيوانات لاختبار قاسٍ. وتسافر هذه الجمال من هيت إلى دمشق ثماني عشرة ساعة في اليوم مع وقفتين قصيرتين لتناول الطعام، وتمنح بعد الرحلة استراحة لمدة سبعة أسابيع تقريباً. ولم تكن سرعة ساعي البريد تعود بسبب الحاجة الملحة في وصول الرسائل، بل لعدم وجود الماء. وكان هناك بئران بين كبيسة التي تبعد عشرين ميلاً عن هيت، وضواحي دمشق، ولكن لا يمكن للمرء أن يكون على يقين في أن يتوصل إليها. يضل ساعي البريد أحياناً طريقه ويتبع الطريق الخطأ، كما هو التعبير ويتجوّل في الصحراء إلى أن يموت هو وجماله من العطش والإرهاق. كانت خدمة الصحراء من قبل الجمال قبل اثني عشر أو أربعة عشر عاماً إلى دمشق قد تم التخلي عنها إلى خدمة العربات إلى حلب. ويبلغ طول طريق بغداد-حلب عشرين مرحلة، بمعدل ثلاثين ميلاً لكل مرحلة، ولكن مع تبديل الخيول يمكن نقل البريد خلال عشرة أيام.

في هيت أجريتُ تحقيقاً عن حجي موسى، وهو ساعي البريد القديم الذي أخذني عبرها. وكان هناك رجل في المدينة الذي كان موظفاً في بريد الجمال في تلك الأيام. ومن الغريب أنه يتذكّر لقاء موسى مع الرجل الإنكليزي في قرية (دومير) خارج دمشق حول الوقت الذي أمضيته معه. جاء إلى مطعم الضباط وأخبرنا قصة الحاج موسى مع إيماءات تمثيلية لا تضاهى والتي من خلالها كشف العربي حكايته. وكان الحاج العجوز قد قتل على يد الدليل بعد خمس سنوات من رحلتنا سوية.

ـ هل كانت مشاجرة؟ سألت.

ـ كلا، كان الطمع، كان الدافع هو الجشع.

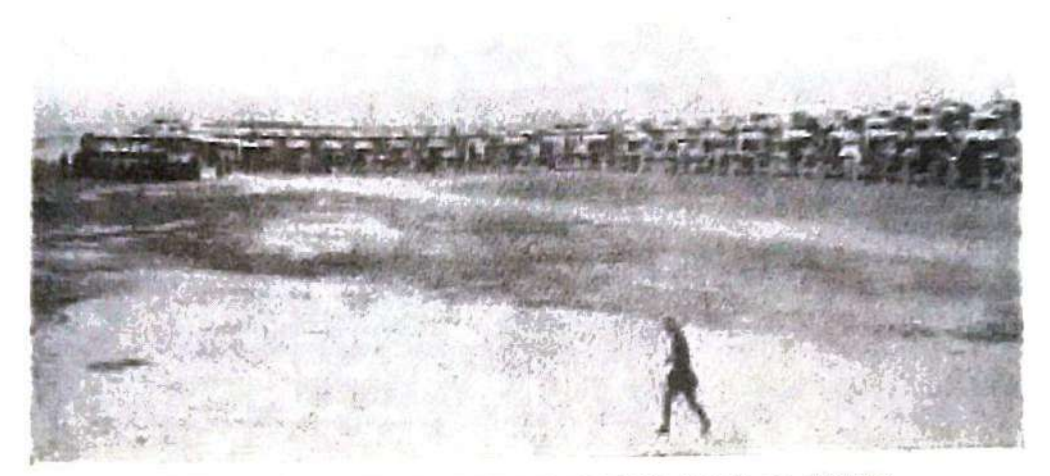
لم تكن لديهم نية لقتل موسى، ولكن التاجر الذي كان يسافر معه أخذ قافلة كبيرة من الإبل إلى دمشق وباعها هناك. وكان يعتقد أنه سيعود مع المال لذلك أطلقوا عليه النار بينما كان جالساً بجانب نار من فضلات الإبل ويعدّ قهوته في قِدر ذات منقار (الدلّة) بعد ذلك قالوا: إنَّ الحاج موسى يعلم وسوف يقول ذلك للآخرين لذلك أطلقوا النار على الحاج موسى أيضاً.

لم أستطع العثور على المنزل حيث نزلت أنا وموسى. كان هناك العديد من المنازل مثله -فتحة باب واطئة إلى الفناء تحت أحد الأقواس التي لا تعد ولا تحصى على امتداد الشوارع -شوارع ضيقة بحيث إنَّ الحقائب المحملة على الجمل تحتك بالجدران من كلا الجانبين، وهي جدران من الطين والحجر الجيري، لون الدجاجة الرمادية المبقعة- والمسكن نحو الداخل من النهر، ولكن صوت الأزيز الخالد للنواعير التي كانت ترنم أنشودة ليلاً ونهاراً لم تتغير كثيراً. يجب أن تكون قد لبست شكل الخراب نفسه لقرون عدّة. ليس لدي أي شك بأن معابد الله في آفا كانت في حالة سيئة متواصلة، وأن الجدران والأرضيات كانت بسيطة من الكلس والزفت. والآن كان البناؤون وعمال النظافة مشغولين، والروائح القديمة يتم التخلص منها وأعمال التنظيف قد بدأت.

يبدو أن تكرار عملية الرمادي كثيرة جداً للتأمل. لقد ازداد خجل الأتراك مع مرور الأشهر. إذ تسلَّل بعيداً عنا في هيت، ولم يعتقد أحد للحظة أنهم سيتخذون موقفاً في خان البغدادي. كان هناك، على أية حال، عامل نفسي أخذوه بالحسبان في قراراتهم. وكان صبري بيك القائد العام للقوة التركية التي أخلت مدينة هيت بدون مقاومة، قد جُرِّد من القيادة. وكان هذا، كما فهمنا من الهاربين، بسبب فشلهم في المخاطرة في المعركة. ويمكن توقع مجازفة أكبر من قبل خليفته ناظم بيك، الذي من الطبيعي أن يتوقع بأن يستبدل بدوره إذا ظهرت عليه الاستعدادات نفسها للتخلي عن المنطقة. وضع الجنرال بروكنغ، في تقديره للفرص التي يمكن أن تسهم في نجاحه، آمالاً كبيرة على هذا وأنه لم يكن يصاب بخيبة أمل.

لقد عانى الأتراك من جراء التقليل من أهمية طول ذراعنا في الرمادي، لكننا زدنا

حركتنا منذ ذلك الحين. إذ جاء لواء الفرسان والعجلات المدرَّعة وشاحنات الفورد بشكل سري للغاية، يتحركون في أثناء الليل ويخفون أنفسهم في النهار. وتقدَّمت قوتنا أربعة عشر ميلاً من منطقة الصلاحية في ليلة الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني. وكان العدو يمسك بموقعين في خان البغدادي، أحدهما على بعد ميل ونصف إلى الجنوب الشرقي من الخان عند مفترق الطريق إلى حلب، والآخر على بعد ميل إلى أعلى مجرى النهر من الخان، حيث إنَّ الطريق يتبع ضفة نهر الفرات حيث تسيطر عليه منحدرات حادة. وتنتشر خنادق أخرى لمواجهة الهجمات على الجناح وخلف الصحراء. وبدلاً من الانسحاب، كما كنا نخشى، قام الأتراك بنقل قواتهم إلى موقعهم المتقدم وأمسكوا به بقوة. كنت أتابع من رتل العجلات المدرَّعة وشاحنات الفورد المتنقلة التي كانت قادمة للوصول إلى الجناح أو خلف العدو تطور المعركة. وفي الساعة 2.25 فجراً سمعنا أصوات المدفعية التي تخبرنا بأن العدو لا يزال في خنادقه. كان أملنا الوحيد هو أن يصمدوا وإذ تمكَّنت قواتنا من المشاة من حصرهم في الموقع لفترة طويلة بما فيه الكفاية، نأمل بأن نقوم بعمل حلقة حولهم، كما حصل في الرمادي. يكمن عنصر الغموض في طبيعة البلدة الداخلية من النهر التي كانت تتقاطع بمنحدرات ووديان صخرية شديدة الانحدار. فإذا ثبت أن هذه الأرض عملية بالنسبة إلى قوات الفرسان والعجلات المدرَّعة فإنَّ فرصة العدو لتخليص نفسه كانت صغيرة. وتكرَّرت الخطوط العامة لمعركة الرمادي في خان البغدادي، إذ تقوم قواتنا المشاة بمهاجمة جبهة العدو من الأمام والجناح، بينما تقوم قوات الفرسان والعجلات المدرَّعة بالعمل وراءه وتقطع طريق الانسحاب، وذلك بمسك خط يمتد من النهر إلى الداخل.



MOBILE MOTOR COLUMN WAITING FOR THE ORDER TO PURSUE.



SIKHS LAUNCHING RAFTS ON THE TIGRIS

طابور السيارات المتنقلة، والسيخ يطلقون الطوافات إلى نهر دجلة

كان الخط الدفاعي التركي الأول من الخنادق الذي هاجمناه في الساعة الثانية والنصف صباحاً موقعاً مُرعباً يمتد بين القمم المنخفضة من التلال على جانبي ممر ضيق يمر الطريق من خلاله. وبمجرد أن رصد الأتراك قواتنا المشاة في ضوء القمر أطلقوا قنابل التنوير، وبعد قليل فتحت مدفعيتهم نيرانها علينا. اقتحم رجالنا الخطين الأولين مع خسائر طفيفة، ولكن عندما اقتربنا إلى الخط الدفاعي الثالث فتحت علينا نيران كثيفة على كلا الجانبين من قبل الرشاشات وتم تأخير تقدُّمنا إلى أن جلبنا مدفعيتنا.

في الساعة الحادية عشرة صباحاً وبعد القصف دخلت قواتنا المشاة واستولت على الموقع مع خسائر طفيفة، مع أسر بعض الجنود، واستمر التقدم واتخذت القوات الأمامية خطاً دفاعياً على بعد نصف ميل شمال وشمال غرب خان البغدادي مع جناحها الأيمن إلى النهر، وأوقفوا الأتراك في مواقعهم.

وبعد الظهر وردت أوامر بمهاجمة الموقع الشمالي للعدو. وفي هذه الأثناء وصلت مدفعيتنا واستمكنت بالموقع. بدأ التقدم في الساعة 5، 3 بعد الظهر مع غطاء نيران المدفعية والرشاشات التي مكَّنت قوات المشاة من إحراز تقدم على العدو مع خسائر تافهة. وتسبَّبت غيوم الغبار المرتفعة في حجب الرؤية عن الأتراك وكان لها تأثير حاجز الدخان نفسه. تضاعفت شدة القصف المدفعي التابع لنا من جرَّاء نيران الرشاشات. وفي هذا البلد المهزوم لا يمكن للأتراك احتلال أي أرض لم تكن مسيطرة عليها في مدى التقاطع بجانب التلال والحافات المنخفضة إلى الجنوب التي مكَّنت سرايا رشاشاتنا بمواكبة نيران رائعة على خنادق العدو.

وطوال هذا الوقت، انتشر رتل السيارات المتحرك (الكولونيل هوغ) التابع لنا في الصحراء وينتظر بفارغ الصبر الأمر للقيام بحركة تطويق. لكن قوات الفرسان أحرزت تقدُّماً جيداً على يمين الموقع التركي، وبعد الظهر تقرَّر إرسال رتل الكولونيل هوغ على طول طريق حلب لإسناد قوات المشاة بإطلاق النار على العدو من جانب نهر الفرات. كان الضوء ضعيفاً عندما وصلنا إلى مكان الحدث، وكانت المهمة قد انتهت تقريباً.

في الساعة السادسة مساءً تمت السيطرة على الخط الأول والاستيلاء على أربعة مدافع مع العديد من الأسرى. وعند حلول الظلام سقط باقي الموقع بأيدينا بدون قتال عنيف، وأقمنا بشكل مؤقت على الأرض التي سيطرنا عليها. واستمر التقدم بين الساعة الثانية والثالثة فجراً. وكان على أولئك الأتراك الذين هربوا أن يحسبوا حساب قواتنا المشاة، التي قامت بحركة التفاف واسعة وكانت تضيق الخنادق على وادي حوران على بعد سبعة أميال إلى شمال غرب خان البغدادي ومنع تراجعها. وخلال الليل، قاموا بجهود للاختراق وقد صُدُّوا في كل مكان.

كان مشهد الاستسلام في صباح اليوم التالي أكثر مأساوية حتى من ذلك اليوم في الرمادي. إذ خرج الرجال في الرمادي من الخنادق في عاصفة ترابية وسلَّموا أنفسهم إلى وحدات مختلفة على طول الخط الدفاعي. كان الانهيار أكثر مفاجأة والاستسلام أكثر إحكاماً، ولكني لم أرَ أي شيء في معركة سابقة أكثر مأساوية من ذلك المشهد الذي شاهدناه مباشرة بعد الفجر يوم السابع والعشرين من الشهر. يمتد البلد المتموج نفسه إلى ما وراء خان البغدادي في تتابع هضاب واسعة تتقاطع مع وديان ذات منحدرات حادة. تسلَّقنا أحد هذه الوديان وشاهدنا أمامنا جموعاً سوداء من وسائط نقل العدو، وتنتشر مشاته مثل النمل على سطح التلال التي وراءه. وكان هناك بعض العرض لحركة فيما بينهم ولكن بدون صوت إطلاق نار. وكانت راية بيضاء ترفرف على قمة التل الذي كانوا يتجمَّعون تحته وخلفه، وفي مسافة بعيدة ارتفع هناك حاجز من الدخان الأسود وهي إشارة إلى تدمير المواد الحربية التي هجروها عند الهرب. ووجدنا هذه القوات مع وسائط نقلهم تحت حراسة صغيرة من قوات الفرسان الهنود. مرّ رتل العجلات المسلَّحة الذي أرافقه من خلالهم من أجل الملاحقة، وكنا نجمع طوال اليوم المزيد من الأسرى. لم يقم العدو الذي اجتازته عجلاتنا المدرَّعة بأية محاولة لتأخير المعركة، يرفعون أيديهم أو يلقون أنفسهم للانبطاح على الأرض، اعتقاداً منهم أنَّ هذا الموقف أكثر أماناً.

مررنا بالنفايات نفسها على الطريق كما في عملية المطاردة قبل بغداد، لم تكن هناك معوِّقات كثيرة وذخيرة، ولكن المزيد من الأسرى وعدد كبير من وسائل النقل الصالحة للاستعمال. كانت هناك سيارات إسعاف ومطابخ ميدانية وعربات تحمل

الماء وقوافل من المركبات المغلقة للعجول مع عجولها مقيدة وسائقوها واقفون بجانبها، وكان هناك جرحى وقتلى ومرضى من الذين تنحَّوا، وآخرون الذين تركناهم إلى الرتل الذي تبعَنا من تقييدهم، وكانت هناك أيضاً قنابل وقذائف حية وصناديق ذخيرة وحقائب سفر وأدوات مكتبية وكتب وأوراق.

وفي حديثة شاهدت دكاناً للطب البيطري في أحد الكهوف، مع الجمر لا يزال يشتعل. وكهفاً آخر يحتوي على مستودع للمعدات التي أضرمت فيها النيران وتنبعث منها رائحة الجلود المحترقة، ولكن لم يكن لدى الأتراك الوقت الكافي لتدمير المزيد. مررنا بجزيرة في النهر حيث كان هناك بعض الهاربين المترددين بين الاختفاء أو الاستسلام. وتقدَّموا بصعوبة عبر النهر إلينا وسلَّموا أنفسهم.

وعلى مسافة عشرة أميال أبعد من ذلك، كانت إحدى الطائرات البريطانية تجوب التلال الموازية للطريق، وتفتح نيرانها الرشاشة على عدد قليل من المتشردين الذين لا يزالون يأملون بالهرب وتراقبهم على شكل طابور. وسرعان ما أصبح الطريق كله موكباً للأسرى، وفي المساء تم الوصول إلى خان الفحيمي. وفي التاسع والعشرين من الشهر أصبحنا في مدينة عانة، واستمرت المطاردة بواسطة العجلات المدرعة إلى مسافة ثلاثة وسبعين كيلومتراً على طول طريق حلب. كان الأتراك منهكين وقد فقدوا معنوياتهم، وفي أغلب الحالات يستسلمون بحرية. لكن القائد العام للرتل كان لديه هدف أقرب إلى قلبه من جمع المزيد من الأسرى. وكان معروفاً أنه في مكان ما ليس بعيداً جداً إلى الأمام، يقف اثنان من ضباط الأركان البريطانية. المقدم تينانت، مدير الطيران والرائد هوبارت الذي قام بهبوط اضطراري في خطوط العدو في خان البغدادي مساء يوم الخامس والعشرين، وهما أسرى لدى القوات التركية التي بذلت ما بوسعها لنقلهما بعيداً. وكانت تقوم بنقلهم طوال ليلة الخامس والعشرين. وفي مساء يوم السادس والعشرين كانوا في حديثة عندما وصلت أخبار هزيمة الأتراك إلى الموقع. وفي حالة الارتباك التي سادت المنطقة، لم يكن الحرس المكلفون بحمايتهم مرتاحين. ورحلوا بإحدى العربات العربية بسرعة، إذ يتنقلون خلال الليل إلى أن وصلوا إلى عانة في وقت مبكر من الصباح. وبقوا هنا ساعتين فقط وأرسلوا على ظهر جَمَل مع حارس من التتار. وفي فترة ما بعد الظهر مرت أربع من طائراتنا

الماء وقوافل من المركبات المغلقة للعجول مع عجولها مقيدة وسائقوها واقفون بجانبها، وكان هناك جرحى وقتلى ومرضى من الذين تنحَّوا، وآخرون الذين تركناهم إلى الرتل الذي تبعَنا من تقييدهم، وكانت هناك أيضاً قنابل وقذائف حية وصناديق ذخيرة وحقائب سفر وأدوات مكتبية وكتب وأوراق.

وفي حديثة شاهدت دكاناً للطب البيطري في أحد الكهوف، مع الجمر لا يزال يشتعل. وكهفاً آخر يحتوي على مستودع للمعدات التي أضرمت فيها النيران وتنبعث منها رائحة الجلود المحترقة، ولكن لم يكن لدى الأتراك الوقت الكافي لتدمير المزيد. مررنا بجزيرة في النهر حيث كان هناك بعض الهاربين المترددين بين الاختفاء أو الاستسلام. وتقدَّموا بصعوبة عبر النهر إلينا وسلَّموا أنفسهم.

وعلى مسافة عشرة أميال أبعد من ذلك، كانت إحدى الطائرات البريطانية تجوب التلال الموازية للطريق، وتفتح نيرانها الرشاشة على عدد قليل من المتشردين الذين لا يزالون يأملون بالهرب وتراقبهم على شكل طابور. وسرعان ما أصبح الطريق كله موكباً للأسرى، وفي المساء تم الوصول إلى خان الفحيمي. وفي التاسع والعشرين من الشهر أصبحنا في مدينة عانة، واستمرت المطاردة بواسطة العجلات المدرعة إلى مسافة ثلاثة وسبعين كيلومتراً على طول طريق حلب. كان الأتراك منهكين وقد فقدوا معنوياتهم، وفي أغلب الحالات يستسلمون بحرية. لكن القائد العام للرتل كان لديه هدف أقرب إلى قلبه من جمع المزيد من الأسرى. وكان معروفاً أنه في مكان ما ليس بعيداً جداً إلى الأمام، يقف اثنان من ضباط الأركان البريطانية. المقدم تينانت، مدير الطيران والرائد هوبارت الذي قام بهبوط اضطراري في خطوط العدو في خان البغدادي مساء يوم الخامس والعشرين، وهما أسرى لدى القوات التركية التي بذلت ما بوسعها لنقلهما بعيداً. وكانت تقوم بنقلهم طوال ليلة الخامس والعشرين. وفي مساء يوم السادس والعشرين كانوا في حديثة عندما وصلت أخبار هزيمة الأتراك إلى الموقع. وفي حالة الارتباك التي سادت المنطقة، لم يكن الحرس المكلفون بحمايتهم مرتاحين. ورحلوا بإحدى العربات العربية بسرعة، إذ يتنقلون خلال الليل إلى أن وصلوا إلى عانة في وقت مبكر من الصباح. وبقوا هنا ساعتين فقط وأرسلوا على ظهر جَمَل مع حارس من التتار. وفي فترة ما بعد الظهر مرت أربع من طائراتنا

من فوقنا على ارتفاع منخفض. ولوَّح هوبارت لهم، حيث حاول أحد الحراس إطلاق النار عليه، إلا أن بندقيته فشلت في إطلاق النار عليهم من مسافة قريبة. وكانت المرحلة التالية، منطقة النهية التي وصلوا إليها في ليلة السابع والعشرين. وهنا التقوا مع عدد من الضباط والرجال الألمان بضمنهم الشركة اللاسلكية. كان من المقرر بحسب الأمر إرسالهم إلى حلب بدون تأخير وغادروا في صباح اليوم التالي على ظهر جمل. ومرت طائراتنا من فوقهم بعد الظهر مباشرة مرة أخرى وعادت أدراجها. وكانوا تقريباً قد فقدوا الأمل في الإفراج عنهم عندما وصلت عجلاتنا المدرَّعة إلى المكان. كان الطريق الذي يمر بين التل والنهر مليئاً بالزوايا، وكان ظهور السيارات مفاجأة كبيرة. لقد جاؤوا خلسة في ذروة المعدات مع القليل جداً من الضجيج. وكان الإعلام الأول عنهم هو نيران الرشاشة التي فتحوها على الحرس. ولحسن الحظ كان الرجلان الإنكليزيان منفصلين بنحو خمسة وعشرين ياردة عن حرسهم في تلك اللحظة، وعندما انخفض الحراس للاستتار، ركض تينانت وهوبارت إلى السيارة التي واصلت حاجزاً نارياً كثيفاً فوقها طوال الوقت. التقيت معهما في خان البغدادي في صباح اليوم التالي، كانا أسعد رجلين في بلاد ما بين النهرين. وقال (هوبارت) الذي أخبرني بالقصة؛ إنَّ إدارة المرحلة كانت مثالية، وإن الضابط الذي يقف على الرشاشة في السيارة قدم أفضل صورة بالمعنى الحرفي والمجازي لآلية الخروج كان قد التقى معها.

كان الأسرى يتضمَّنون مئتين وثلاثة عشر ضابطاً وخمسة آلاف واثنين وثلاثين فرداً من رتب أخرى، ضمنهم قائد وضباط أركان الفرقة التركية الخمسين وقد تجاوزت تقديراتنا التي شكَّلناها عن مجمل قوة العدو. ولكن يجب أن نتذكر بأننا داهمنا خطوط مواصلاته إلى عمق (130) ميلاً خلف جبهته في المعركة. وكانت خسائرنا (157) فرداً فقط ضمنهم القتلى والجرحى والمفقودين. كانت القدرة على التحمل وسرعة حركة القوة استثنائية. كانت قوات المشاة تسير يومين وليلتين مع القليل من النوم أو عدم النوم، وهم يقاتلون طوال النهار وجزءاً من الليلتين. وغطت قوات الفرسان شيئاً ما يقارب من تسعين ميلاً في اليومين الأولين، بينما غطت العجلات المدرعة (170) ميلاً، بغض النظر عن الطرق الملتوية بين هيت وأبعد نقطة

من الملاحقة إلى ما وراء منطقة عانة. إن نجاح المطاردة والغارة على عانة التي من خلالها أكملنا السيطرة على المواد الحربية للعدو على جبهة نهر الفرات، ويرجع الفضل في ذلك بشكل كبير إلى طيارينا. إذ عن طريق المعلومات الاستخبارية التي حصلوا عليها عرفنا بالضبط ما ينبغي علينا أن نواجهه.

كان خان البغدادي بمثابة ضربة ساحقة للأتراك. وكانت إنجازاً بارعاً سواء في التخطيط أم في التنفيذ مثل الرمادي، وكان انهيار العدو أكثر اكتمالاً. وتوقفت قوته في الفرات عن الخروج، وإن تدمير مستودعاته أبعد أية فرصة للقيام بمبادرة إلى فترة غير محددة على هذه الجبهة وتكدّست مستودعاته بالذخيرة في منطقتي عانة وحديثة بشكل بطيء خلال فصل الصيف لتلبية احتياجات الجيش التركي-الألماني من مدينة حلب لاستعادة بغداد. إذ دمرت أزبعة ملايين طلقة من ذخيرة الأسلحة الصغيرة وخمسين ألف قذيفة في عانة وحدها. اقترنت الاستعدادات على هذا المستوى مع العمل الهندسي غير المكتمل على الطرق، لتثبت أن هجوماً كبيراً كان مقصوداً القيام به. كما علمنا أن أفراد البحرية الألمانية المسؤولة عن أسطول الشخاتير[1] (مفردها شختور) على نهر الفرات قد زاد بنسبة مئات عدة، على الرغم من التخلي عنه بعد الهجوم وتقلص إلى عدد قليل، إذ استولينا على العديد منها.

إن هجوم قوات فالنكهاين، الذي كثر الحديث عنه في برلين، ترك العديد منا مرتابين قليلاً. كنا نأمل، ولكن لا نعتقد، أن الجنود الألمان سيتجرؤون على القيام بهجوم. ولكن في مدينتي عانة وحديثة، ومن إفادات الأسرى، من البقايا المتفحمة من الملفات المكتبية التي تركها العدو وراءه لدى هربه والتي شاهدتها أعيننا، علمنا أنها لم تكن مخادعة. كانت الضربة مقصودة وكان تحشد الينباي في غزة هو الذي حوّل وتوقّع الضربة، وأخيراً حرم الجنود الألمان من القيام بمبادرة في الشرق.

---

(1) أثبتت الشخاتير، على الرغم من طابعها البدائي، أنها أفضل من أي مركب ملائم للعمل على نهر الفرات. وهي نوعان، وتربط دائماً معاً على شكل أزواج. وإن الشخاتير الأكبر حجماً من الصناعة الألمانية تم بناؤها في حوض بناء السفن الألمانية في جيرابلس حيث كانت قد أبحرت إلى أسفل مجرى النهر، ويتم تحطيمها حطباً للوقود لدى وصولها إلى جهتها، إذ إنها لا قيمة لها عند قطرها للعودة مئات الأميال إلى أعلى مجرى النهر من أجل القيام برحلة ثانية.

انتهت الحملة الصيفية في عام 1918 بحملة كبيرة أخرى. وكانت حركة استدارة واسعة ومدروسة مرة أخرى - التكتيكات في التطبيق المتقن التي برع فيها الجنرال مارشال - كانت العمليات في هذه المرة على جانب مدينة كفري. حملونا إلى قلب جنوب كردستان، وأسفرت عن الاستيلاء على الجزء الأكبر من الفرقة الثانية مع الجزء الأكبر من موادهم الحربية ومدافعهم. بدأت العمليات العسكرية في الرابع والعشرين من شهر نيسان وأُخليت مدينة كفري أمام أحد أرتال قواتنا المشاة في صباح اليوم السادس والعشرين. وفي هذه الأثناء، كانت أرتالنا من قوات الفرسان والمشاة تقترب في مسيرات ليلية سريعة من إحدى النقاط في أقصى الشمال. ويبدو أن الأتراك توقعوا أن نلتفّ وراء كفري لاتخاذ موقع إلى الشمال قليلاً من المدينة على طريق كفري-الطوز، وعرقلة موقع الحامية العسكرية. ويبدو أنهم لم يحسبوا حساب حركة تطويق أوسع مشتركة من قوات الفرسان والمشاة، التي من خلالها نكون قادرين على توسيع شبكتنا إلى طوزخورماتو. العمليات التي بواسطتها تمت مهاجمة الأتراك على طول طريق كفري-كركوك- الموصل، وخط مواصلاتهم الرئيس، وأخيراً قطعه من قوات الفرسان في السابع والعشرين والتاسع والعشرين من شهر نيسان، التي عملت بشكل هادئ جداً. شاركت خمسة أرتال وكان الضغط وتهديد التطويق من جميع الجوانب قد حسبت بشكل جيد لجلب العدو إلى نقطة حيث يكون بإمكاننا التعامل معهم بشكل أكثر فاعلية، وكان ذلك في طوزخورماتو. وفي السابع والعشرين من الشهر وصلت قواتنا الفرسان من دون إسناد إلى حدود عشرين ميلاً مع قوات الحامية التركية المتقهقرة في عين فارس وقره تبه في قرية كولاند، على بعد ستة أميال قبل الموقع المعد الذي كانوا ينسحبون إليه في الطوز. هناك سلسلة منخفضة من التلال تمتد إلى الشمال، واستعدت قواتنا من الفرسان التي كانت جنوب الطريق للقيام بهجوم على خط يمتد إلى عشر سرايا من الخيَّالة بتشكيل يشبه المنجل، وطردوا الأتراك إلى التلال وعزلوهم عن أي تعزيزات قد تصل إليهم من كفري أو الطوز. نُفِّذت المناورة بسرعة كبيرة وذكاء. وبدأت قوات الفرسان بالهرولة على بعد مئتي ياردة وشرعت الخيول بالعدو في الخمسمئة ياردة الأخيرة، وكانت المسافة أربع ياردات

بين حصان وآخر. وعندما هجموا، بدأت مجاميع من الأتراك بالفعل بالانسحاب إلى أسفل الطريق، واتخذت مجاميع أخرى مواقع لها في الأرض الوعرة ومقطوعة المياه، أو الركوع في حقل الذرة العالية وفتح النيران. أبدى الأتراك بعضاً من معنوياتهم القديمة في المقاومة التي قاموا بها، ولكنَّ نيرانهم كانت طائشة وعالية، وكانت خسائرنا طفيفة. كان وميض السيوف المفاجئ والقوس الواسع من الضوء عند الأمر بسحب السيوف، قد أخذ قلوبهم. وواصلت مدفعيتنا حاجزها من النيران الزاحفة على القرية عندما بدأنا بالهجوم، وشاركت طائراتنا بالمعركة، وهي تحلِّق على ارتفاع منخفض مما يزيد من ارتباك العدو بقنابلها ونيران مدافعها الرشاشة. قتل أكثر من مئة وخمسين فرداً من الأتراك وتم أسر خمسمئة وثمانية وثلاثين فرداً آخرين والاستيلاء على مدفعين جبليين وهرب القليل جداً إلى التلال.

وفي هذه الأثناء كانت كفري وعين فارس وشامان كوبري قد احتلت بدون مقاومة. كانت تحركاتنا سريعة جداً بحيث إنَّ كتيبتين من الأتراك قد لجأتا إلى التلول من أجل الإفلات من الشبكة التي نشرناها حولهم. وكانوا قد نُهبوا وجُردوا من السلاح من الأكراد الذين شكل وجودهم في التلال مسارات جانبية خطرة بالنسبة للعدو. وإنَّ المجاميع الصغيرة التي ابتعدت من معركة كولاند، عادت واستسلمت إلى سلاحنا من الفرسان بدلاً من مواجهة رجال القبائل.

في الثامن والعشرين من شهر نيسان كانت قوات الفرسان تقوم بالاستطلاع طوال اليوم. وبحلول المساء، خرجت فرقة المشاة الثالثة عشرة بقيادة الجنرال كايلي، وكان الهجوم مقرراً يوم التاسع والعشرين. تعزز العدو بكتيبة كانت تمسك بجبهة طولها سبعة أميال على الضفة البعيدة من نهر آق سو، وتمتد شرقاً من يانجة بوبوك إلى طوزخورماتو. وفي الطوز استولوا على أحد المواقع على الضفة القريبة الذي يهيمن على الطريق ويمتد إلى التلال. ويمكن عبور النهر هنا من جميع النقاط. وانتشرت قوات المشاة في الفجر لشن هجومين رئيسين على يانجة من الجنوب الغربي وعلى الطوز من الجنوب. وفي الطوز كان ينبغي إجلاء الأتراك من التلال المسيطرة على الطريق قبل أن يتعرض الهجوم إلى ضغط من الجبهة الأمامية. كانوا بالفعل يتراجعون عندما استولي على الموقع على يسارنا في يانجة من اللواء الثامن

والثلاثين الذي اندفع بثبات كبير تحت نيران الرشاشات والمدفعية وصولاً إلى البنادق، التي استمرت بالعمل حتى أصبحوا ضمن مدى مئتي ياردة. أفقد هذا التقدم على الجناح الأيمن للأتراك العدو القدرة على الدفاع عن الطوز، إذ إنَّ الاستيلاء عليه يعني التطويق. واندفعت قوات المشاة من خلال الموقع المهجور، وكانت قوات الفرسان التي عبرت نهر آق سو في الظلام، توجَّهت إلى طريق الطوز-كركوك لقطع طريق انسحاب العدو. وعلى أية حال، واصل الأتراك نيران المدافع الرشاشة بشكل منتظم وقد يوقفون في بعض الأحيان مواصلة الرمي. وكان المفتاح لهذه المقاومة هو أحد التلول على يميننا. كان هذا قد تحول ببراعة الملازم ماكدونالد، من فرقة الفرسان الثالثة عشرة، الذي هاجم هو وقوته التلة وهاجم رماة الرشاشات في الجناح وبالاتجاه المعاكس، وخلال أقل من خمس دقائق قتلوا جميع أفراد المفرزة التركية أو اقتادوهم أسرى إلى الخلف. وبعد هذا خمدت النيران من التلول الأخرى. وبحدود الساعة التاسعة انهارت جميع المقاومة، وكانت مجرد عملية تطهير المفارز التي كانت في حالة انسحاب. وسقط الموقع بأيدينا خلال ثلاث ساعات مع خسائر طفيفة جداً، وأُسِر ألف ومئتا جندي وعُثر على عشرين رشاشة واثني عشر مدفع ميدان كانت في الموقع.

لم يكن هناك قتال خطير بعد طوزخورماتو. وقد احتللنا منطقة طوق في الخامس من أيار بدون مقاومة وطوزخورماتو في السادس من الشهر. وتقدَّمت قوات الفرسان وفي مساء اليوم ذاته أصبحوا على تماس مع الأتراك في غربي الطريقين الرئيسين المؤديين إلى كركوك وألتون كوبري، ولكن طبيعة الأرض وترتيبات العدو في التلال جعلت من المستحيل الوصول إلى الطريق الشرقي قبل حلول الظلام. وكان العدو قد نفَّذ انسحابه على طول هذا الطريق. وصل لواء المشاة الثامن والثلاثون بعد مسيرة طويلة وشاقة لمسافة خمسة وعشرين ميلاً، إلى نقطة على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من كركوك بهدف القيام بهجوم في صباح اليوم التالي. وفي الساعة الثامنة بدأ المطر، وانهمر بغزارة طوال الليل، وغرق معسكرنا المؤقت. واستنار الظلام الدامس على فترات من جراء التنوير والانفجارات، وعلمنا أن الأتراك يقومون بحرق ذخائرهم بقصد المغادرة. وبحلول منتصف الليل، كانوا جميعاً قد رحلوا. تلقينا

المزيد من الأمطار الغزيرة في اليوم السابع، وكانت أمكنة العبور خلفنا قد أصبحت غير سالكة، وأعاق المسير البطيء جداً عملية المطاردة.

وعندما دخلنا كركوك في صباح اليوم السابع، وجدنا المكان قد أُخلي وأصبح عرضة للنهب. كان هناك موكب في الشارع من الرجال والنساء والأطفال وهم يحملون الأثاث مثل حشد تركوا عملية مزاد علني. وضعنا حارساً على الجسر الذي من خلاله تُنْقَل المواد من الجهة الإدارية التركية على الضفة اليمنى إلى الجانب الكردي على الضفة اليسرى من حساسو. كنا في السوق في الوقت المناسب لإنقاذ بعض تجهيزات المحال التجارية والأنسجة والسنادين وكور الحدادين والأبواب والمقاعد، ولكن أُخِذَ كل شيء ثمين. كان آخر عمل قام به الأتراك قبل انسحابهم هو تفجير الكنيسة المسيحية. كانت مجرد هيكل بناء بدون سقف، وكانت تستخدم بوصفها مقبرة، يعود تاريخها إلى القرن الرابع، وكانت المَعْلَم الوحيد ذا الأهمية التاريخية في المنطقة، وهي مكرسة للشهداء الذين كانت شجاعتهم في ظل الاضطهاد قد أقنعت يزدجرد الأول أن يصبح مسيحياً. واستخدم الأتراك المكان مستودعاً للذخيرة ودفن الألمان موتاهم فيها.

في الثامن من شهر أيار كان البلد قد جف بشكل كافٍ يسمح بالقيام بالاستطلاع على طول طريق مدينة ألتون كوبري. وجدنا على بعد أربعة عشر ميلاً من كركوك آخر وسيلة من وسائل النقل التركية عالقة في الوحل وثماني شاحنات ألمانية ثقيلة محملة بذخيرة مدفعية ومدفعين جبليين ورشاشات. لقد وجدنا العديد من الأتراك على جانب الطريق ماتوا من جراء الجوع والإرهاق. وفي التاسع من الشهر كان الجو صافياً، ومستوى النهر منخفضاً وكانت المخاضات قابلة للعبور. وفي العاشر منه عثرت قواتنا الخَيَّالة على العدو وهم يمسكون بأحد المواقع المحصَّنة على مفترق الطريق في ألتون كوبري معززاً ببطاريات المدفعية والرشاشات. وكان الموقع مدعماً بأرض مرتفعة، كانت مثالية لإطلاق النار والمراقبة. ويسيطر على سهل واسع ومتموج وكان علينا أن نقترب منه، وتمتد الخنادق المتقدمة على شكل قوس دائرة مع كلا الجناحين وتستند على الزاب الأصغر، وتمتد على الضفة اليمنى إلى التلال مما يجعل حركة التطويق مستحيلة. وفي فترة ما بعد الظهر قامت قواتنا

الخيَّالة بجولة على كلا الجناحين، بينما قامت مدفعيتنا بقصف العدو في الجبهة الأمامية لإجباره على الانسحاب التدريجي عبر النهر. وبحلول الليل كان لديهم مدفع واحد يقوم بالرمي، وفي الصباح من يوم الحادي عشر من الشهر وجدنا الضفة اليسرى من الزاب الصغير خالية من العدو. حملتنا العمليات على جانب كركوك إلى بلد جديد، وأعتقد أنَّ معظمنا استمتع بأسابيعنا الثلاثة في كردستان على الرغم من المسيرات الطويلة التي اختبرت قدرة التحمل لدى قواتنا من الفرسان والمشاة على حد سواء، كان الموسم متأخراً وكانت الأيام باردة بشكل يبعث على السرور، ولم تصبح الحرارة مرهقة إلى أن أنهت القوات عملها. وكان هذا الجزء من كردستان هضبة خصبة وتسقى بشكل جيد من التلال، وهو بلد ينعم بالثراء والمحاصيل الجيدة والمراعي الممتازة. ويبلغ ارتفاع الهضبة نحو ألف قدم فوق مستوى البحر. وتتخللها تلال واطئة على ارتفاع مئتين إلى ثلاثمئة قدم فوق مستوى السهل، إلا أن هذه التلال متباعدة بعضها عن البعض الآخر، وهي أرض ذات آفاق واسعة. كان الثلج لا يزال على التلال إلى الشرق من مدينة السليمانية في الأسبوع الأول من شهر مايس. كانت الهضبة كلها زاهية خضراء، وكانت الحياة النباتية تشبه الحياة النباتية الإنكليزية في ذلك الوقت، وأينما كنا نتوقف كانت هناك امتدادات من البرسيم، ثم فترة الأزهار والشوفان البري والشعير، وكان الرعي رائعاً بالنسبة إلى خيولنا. وكانت هناك ميزة في مشهد الطبيعة في عشبة عظيمة ذات أوراق وزهرة حمراء. كانت الذرة بمستوى الأذن ولم تنضج بعد، على الرغم من أنَّنا بقينا في كركوك فترة طويلة تكفي لحصاده. كان ذلك الحصاد فضلاً عن الترتيبات المبعثرة للقوات التركية حول كركوك وكفري التي جعلت العمليات في الوقت المناسب بشكل غريب. وقد طُهِّرت هذه المساحة الكبيرة من العدو؛ ممَّا مكَّننا من إقامة اتصالات مع الأكراد الودودين والرافضين للأتراك، في وقت كانت المحاصيل قد نضجت تماماً في واحدة من أكثر المناطق خصوبة على حدود بلاد ما بين النهرين.

الفصل الخامس والأربعون

الخاتمة

تركَّزت قصتنا في هذين المجلدين بشكل أساس على إنهاك العدو، وفي ختامها كانت خلاصة موجزة لقضايا سياسية ضرورية أوسع للحملة. أدت العمليات في بلاد ما بين النهرين غرضين هما حماية الهند وتدمير الأتراك. يجب اعتبار الهدف الأول، حتى إذا لم يكن الهدف الثاني عرضياً بالنسبة له، أكثر أهمية من بين الاثنين. فمن وجهة النظر التاريخية لم يتم الخلط بين القضايا، ولكن من المريب، إدراك أن حملة بلاد ما بين النهرين كانت في بدايتها واحدة من عدد قليل من الضربات الاستراتيجية الرائعة في الحرب، وكان تأهبنا في احتلال البصرة التي بددت حلم الجنود الألمان في الهيمنة على منطقة الشرق. كانت مأساة تلك الأشهر الكارثية بعد الانسحاب من المدائن ضمن سلسلة طويلة من الانتكاسات التي بلغت ذروتها في سقوط الكوت، وتركت الأخطاء الاستراتيجية والقيادة مثل هذا الانطباع مظلماً بحيث لا يمكننا أن نرى النور الذي وراءه بوضوح، ونميل نحن إلى نسيان أن القوة الصغيرة التي رست في البحرين في شهر تشرين الأول عام 1914، بانتظار قرار تركيا في دخول الحرب ربما أنقذ الهند.

بقدر ما يتعلق الأمر بمصالحنا في الخليج، وبتلك التي يعتمد عليها أمن الهند- كان اندلاع الحرب مع الألمان في عام 1914 نعمة إيجابية. ولم يُخفِ الجنود الألمان سر مخططاتهم في الشرق. وأعلنها بيرنهاردي بصراحة قبل الحرب، وهو يعوِّل على اتحاد مجموع القوات الإسلامية مع العناصر الثورية في ولاية البنغال، وهو يرى أنَّ المجموعة تشكل خطراً كبيراً جداً قادراً على هز أسس موقع إنكلترا العالي في العالم. وكان الأتراك، كما هو سلاح الألمان، سيفاً ذا حدين، حيث كان

يعتمد تماماً على أن الخليفة مع القوى المركزية سيرفع الإسلام ضدنا في جميع أنحاء الشرق.

يجب أن يكون كل شهر تأخير قبل العدوان معززاً قبضة ألمانيا على بلاد ما بين النهرين، التي كانت ستصبح قاعدة لهجوم جناحها في الهند. وكان عملاء ألمانيا يقومون برعاية مصالحها السياسية والتجارية وتطويرها في الخليج. كان سياسيونا في المنطقة يدركون الخطر الاستراتيجي الذي أمامنا، لكن وزارة الخارجية، تتبع سياسة التسوية مهما كلف الثمن، ولعبت على أيدي الألمان والأتراك. وقبل اندلاع الحرب بقليل حصلنا على امتياز لمتابعة السكك الحديد الألمانية من بغداد إلى البصرة. وحصلنا من الأمير ليكنويسكي أن تقوم لجنة دولية بتنظيم الملاحة في شط العرب. وحصلنا أيضاً، كما ذكر في كتيب له «بعثتي إلى لندن، 1912 – 1914» على أن يكون لنا نصيب في أعمال الميناء في البصرة والحصول على حقوق الملاحة في نهر دجلة، التي كانت حتى الآن حكراً على شركة لينج. ومن خلال هذه المعاهدة ستكون كل بلاد ما بين النهرين وإلى البصرة مشمولة في مجال نفوذنا. ولو كان هناك أي تأخير أو تردد في إرسال البعثة إلى بلاد ما بين النهرين في شهر تشرين الثاني عام 1914، لكُنَّا قد تركنا المجال مفتوحاً أمام الألمان. ومع كون البصرة بأيدي العدو فإنَّ خط اتصالاتنا إلى الشرق سيتعرض إلى تهديد هجوم الجناح من البحر ولكنا قد خسرنا حقول النفط في جنوب بلاد فارس، التي لا تقدر بثمن بالنسبة إلى سلاح البحرية، ولكان العرب قد ارتموا في أحضان الأتراك بدلاً من أن يبحثوا عنا من أجل التحرر من نيره. ولكانت بلاد فارس وأفغانستان والقبائل على الحدود مع الهند قد تعرضت إلى تأثيرات متعصِّبة ولم يكن بمقدورنا التحقق منها، وستكون النتيجة وبدون شك حريقاً إسلامياً عاماً وشاملاً ينتشر إلى حدودنا وسيشكل وضعاً داخلياً خطيراً في الهند في الوقت نفسه. ولكونها بعيدة جداً لإرسال قوات لملء الفراغ في فرنسا، قد تضطر الهند إلى طلب الحصول على مساعدة من الداخل، وبالطبع في تلك الأزمة الخطيرة جداً، وعندما يمتد خطنا الرفيع إلى درجة الانكسار، لم يكن من الممكن تجنبها. وسيكون موقفنا في مصر محفوفاً بالمخاطر، وسنفقد حليفاً في شريف مكة الذي لم يستطع التوجه إلينا للحصول على دعم في كفاحه من أجل الاستقلال ضد الأتراك.

وهكذا كان الشَّرَك الذي يأمل الألمان أن يلقوه حولنا للمكيدة في بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس وأفغانستان والهند. واجهتنا بعض الأزمات الخطيرة، ولكن التهديد كان أكثر خطورة بشكل لا يمكن مقارنته إذا كنا قد لعبنا على يده بالتأخير. ومن المسلَّم به أنَّ الحملة في بلاد ما بين النهرين كانت حركة ضرورية وحيوية. وفي القرنة والعمارة كبحت القوة (دال) الجنود الألمان من البوابة. كان انتقاد الحملة بوصفها هدراً للطاقة وتبديداً للموارد مجرد تبرير بقدر ما ينطبق حتى الآن على إنفاق رجل السلطة والمادة فوق كل ما كان ضرورياً لحماية الخليج وحماية حقول النفط وغلق طريق الوصول إلى الهند. إن أول تقدم جريء جلبت إليه قوة نكسون الصغيرة نحو بغداد مع وسائل نقل غير كافية وعدم وجود احتياطات للجوء إليها، هو خطأ فادح دفعنا له الثمن غالياً. وكان التقدم الثاني بقيادة مود الذي حققنا فيه شيئاً جيداً وإنجازاً مجيداً. سواء أكان المكسب يستحق هذه التكلفة من رجل السلطة أم المادة التي تحتاج بشكل حيوي جداً إلى أقرب منزل مفتوح للنزاع.

كانت الخطة الاستراتيجية التي حددت التقدم إلى بغداد في شتاء عام 1916-1917، بريطانية على نحو متميز. وقد أثارت نفسية الأمة بشكل عميق، وكانت مخالفة للتقاليد وسابقة للجلوس تحت الاتجاه المعاكس. ويبدو أن الشيء الأكثر أهمية بالنسبة إلى معظم الإنكليز في ذلك الحين هو هيبتنا على نهر دجلة.

ينبغي أن نكون أكثر حكمة، وربما قطعنا خسائرنا في بلاد وادي الرافدين ووجهنا الضربة المضادة إلى الكوت، فأيُّ شرف مطلوب أقرب إلى قلب النظام التركي، وإذ كنا راضين بالاستيلاء على دلتا شط العرب في حين ركَّزنا قوتنا الرئيسة، كما فعلنا في وقت لاحق، ضد الأتراك في فلسطين من أجل دفعهم إلى الشمال نحو حلب. إنَّ البديهية الاستراتيجية الأولى في تركيا الآسيوية، كما في كل مكان آخر، هي أنه يجب أن يضرب المرء بالقرب من النخاع الشوكي قدر الإمكان. ومع كون حلب بأيدينا فإن الأتراك سيتعرضون للجوع وكانوا ضعفاء على نهري دجلة والفرات، في حين لم يكن تمدد مكاسبنا حول بغداد يساعد جيشنا في فلسطين من الناحية المادية، أو سحب قوات العدو من أمامها متناسباً مع قواتنا الخاصة المتمركزة في بلاد ما بين النهرين.

ولكن، من وجهة نظر محلية بحتة، ظهرت فيها السلامة الفورية لإمبراطوريتنا الشرقية أكبر من الهزيمة النهائية للجنود الألمان، كانت بغداد ذات قيمة هائلة. ووضعتنا قيادتنا لخط السكك الحديد في سامراء، الذي يتصل ببغداد على طريق حلب على طول نهر الفرات، والأهم من ذلك الاتصالات على جانب طريق كرمنشاه- همذان بين بغداد ومنطقة بحر قزوين، في موقف أقوى لصد الهجوم على الهند.

كان التهديد الفلسطيني، كما رأينا، بشكل رئيس هو الذي تفادى الهجوم التركي الألماني على بغداد في خريف عام 1917. وكان هناك اعتبار ذو أهمية مع الألمان. إذ فتح ارتداد روسيا خط تغلغل أسهل وأقل تكلفة عن طريق بلاد فارس والقوقاز وغيّر الوضع تماماً على جبهة بلاد ما بين النهرين. وقد أُمليَت استراتيجية جديدة. وبينما كان الجنود الألمان يحتوون قواتنا الكبيرة على نهري دجلة والفرات، يستهدفون الآن هجوماً سياسياً عن طريق القوقاز. ويبدو أن الباب كان مفتوحاً مرة أخرى، وكان الأمل القديم للنهوض بالأراضي الواقعة بين بحر قزوين والحدود الهندية قد عاد من جديد.

إن ضم أوكرانيا الفعلي منح ألمانيا السيطرة على الخط الكبير للسكك الحديد من خلال روستوف والسفوح الجبلية الشمالية للقوقاز إلى باكو. وظل طريق آخر يؤدي إلى الحدود الأفغانية ذاتها مفتوحاً أمامها في خط فرعي لسكك حديد سيبيريا من أورينبورغ إلى طاشقند حيث يرتبط مع الخط العابر إلى بحر قزوين. واجهنا هنا خطر المتاعب سواء أكانت قد جاءت بوصفها حليفاً للبلشفية أم سلطة سلام واعد واستقرار لبلد أنهكته التجاوزات البلشفية. سيكون خطر المخططات الألمانية في آسيا الوسطى أكثر صعوبة لو كانت الحرب طويلة الأمد، لكن ميرف وبخارى وطاشقند كانت بعيدة المنال جداً بالنسبة إلى الموجة النيوتونية للوصول إليها، وماذا مع البلشفية والمنشفية وعموم التورانيان، كان لدى ألمانيا العديد من المصالح المتضاربة للاسترضاء، وذلك أنها لم تحصل على موطئ قدم في المنطقة المضطربة. ويكمن المزيد من الخطر المباشر في تغلغلها في القوقاز. وكانت معاهدة بريست ليتوفسك قد أعادت إلى تركيا ليس فقط المحافظات الأرمنية في أرضروم وتبليس التي انتزعت منها في الهجوم الروسي في ربيع عام 1919، بل

محافظات كارس وأردهان وباتوم، وقد تم التخلي عنها إلى تركيا من روسيا عام 1878. وهكذا تتقارب الخطوط التي كانت مفتوحة لها في الشمال والجنوب، ولم يكن هناك أي شيء يمنع التقدم التركي إلى باكو ورأس الجسر في قزوين أو إلى بلاد فارس من قبل باتوم وتبريز.

ويتضمن الوضع الجديد، على الرغم من أنه يبدو مظلماً في البداية، عناصر واعدة للحلفاء. ففي المقام الأول، سحبت الطموحات العثمانية في القوقاز الجزء الأكبر من الاحتياطات التي اعترضت الينباي، ولهذا السبب عزا الجنرال ليمان فون ساندرز أساساً الانهيار التركي في فلسطين. ولكن وبصرف النظر عن القضية العسكرية، كان تمدد الحرب في القوقاز يعني تصادم الأهداف الاستعمارية بين تركيا وألمانيا. كان الألمان يهربون مع العناصر المسيحية والمسلمة في الوقت نفسه، وهددت مكائدهم بأن يتلاشى في الهواء حلم هيمنة المسلمين على منطقة ما وراء القوقاز التي كان الأتراك قد وضعوا قلوبهم عليها. وقد استُقبِلَت بعثة جورجية في برلين. وكانت تبليس ستصبح عاصمة الدولة الجورجية، وبالنسبة للأتراك لم يكن هذا الاستقلال لجمهورية جورجيا مجرد المزيد من الأراضي المسروقة ظلماً من قبل حليفها من غنائم روسيا مقطعة الأوصال، وكان وجودها انعكاساً على طموحاتها بوصفها وكيلاً متحضراً، وهي النقطة التي كان العصملي دائماً يتألم منها.

في السباق على بحر قزوين، فاز الأتراك بفترة قصيرة، كانت هناك ست كتائب ألمانية في تبليس بعد أن وصلت الساحل مباشرة. اقترنت الدسائس الألمانية في جورجيا مع موقفها في شبه جزيرة القرم والاستيلاء عليها من قبل أسطول البحر الأسود الروسي مما أغضب الحكومة العثمانية. وفي وقت الهزيمة العسكرية، وبعد أن وقَّعت بلغاريا الهدنة، أصبحت العلاقات بين القوتين متوترة جداً بحيث لا يمكن تقديم رشوة ألمانية يمكن أن تثني تركيا من القيام بسلام منفصل[1].

لم يفتح انشقاق أوصال روسيا وتقطيعها الطريق أمام هجوم للعدو على الصعيد

---

(1) لم يعد الألمان طلعت بباكو فحسب، بل بإشباع المطالب التركية ضد بلغاريا، إذا هو كبح الحكومة العثمانية من الإقدام على سلام منفصل.

الأوروبي. إذ كانت حركة مجاميع كبيرة من القوات من خلال بلاد فارس مستحيلة من الناحية العسكرية. ويكمن الخطر على حدودنا في الاختراق السياسي. ولكن لم يكن هناك مجال للتشاؤم. وطالما احتفظنا بمنطقتنا في الغرب كانت هذه التسريبات ذات السياسات العليا في القوقاز وبلاد فارس أكثر إحراجاً في طبيعتها من أن تشكل تهديداً لأمننا. عملوا عناوين بارزة كبيرة، ولكن المرء ينسى عدم الأهمية النسبية للقوات المشتركة بالمقارنة مع الجبهة الغربية. وجعلت قلة التجهيزات وغياب الطرق الجيدة وعدم كفاءة وسائل النقل تحشُّد القوات مسألة صعبة. وكان اللواء يشكل قوة كبيرة جداً في بلاد فارس. في الواقع كان البحر الأسود عبارة عن بحيرة ألمانية تبحر فيها السفن الألمانية، وكانت سكك حديد القوقاز بأيدي الألمان، واصطف الجورجيون أنفسهم مع العدو، وكانت القوات التركية تضغط على منطقة بحر قزوين، ولكنها كانت صرخة طويلة من البحر الأسود إلى رأس سكة الحديد في تبريز، وكانت نهاية السكك الحديد في القوقاز في منطقة بحر قزوين. وكانت باكو على وشك السقوط إلّا أن قوات صديقة كانت تسيطر على كراسنفودسك وكان رأس الجسر على الشاطئ الشرقي في تركستان. وكان أنزيلي أيضاً هو الميناء الوحيد على بحر قزوين مع خطوط المواصلات إلى داخل بلاد فارس تحت سيطرتنا. واجه الغزو التركي لبلاد فارس من جهة الشمال الغربي صعوبات منيعة تقريباً. ونزلت قوة معادية من القطار في تبريز لتنتشر على مساحة مئتي ميل والسير قبل الهجوم إلى مواقعنا في كازفين. ويجب أن نتذكر أنَّ الطريق في شمال بلاد فارس وغربها يمر خلال بلد جبلي، بحيث لا يمكن للقوة الغازية الاعتماد على خطوط مواصلات أخرى بدلًا من هذه الطرق القديمة غير الملائمة، وتتعرض أجنحتها إلى هجوم في مضائق جبلية متعاقبة، وعدم وجود مجال للقيام بحركة التفاف واسعة، وكانت الاحتمالات دائماً في صالح قوة صغيرة جالسة بثبات في الموقع الدفاعي.

كانت هناك جنوب طريق تبريز مسارات تؤدي إلى بلاد فارس من خلال السليمانية والموصل، إلّا أنها صعبة جداً بحيث ليس من الضروري اعتبارها تشكل خطراً جدياً على جناحنا. وإنَّ الطريق الآخر الوحيد العملي إلى بلاد فارس من جهة الغرب هو طريق بغداد- كرمنشاه القديم إلى همذان، والطريق القديم

من مدينة بابل إلى أكباتانا الذي مشى فيه سايروس وهايستاسيس. وكان الجنرال دونسترفيلي قد قام بمسيرة معاصرة بقوته الصغيرة على طول هذا الطريق من بغداد إلى منطقة بحر قزوين.

كان الوقت في أعياد الميلاد في عام 1917، عندما بدأ المرء يسمع عن احتضان عرض جانبي غامض آخر في بلاد ما بين النهرين. واستُدعي المتطوعون، ورشح الضباط من مختلف الكتائب التي كانت في أحد المخيمات المنعزلة، على بعد أميال قليلة من بغداد. كان هذا نواة «الدفع الصامت». وتتألف القوة بالكامل من ضباط وقليل من القوات المنتخبة من (أن.سي.أو) التي كانت أعدادها تزداد من المجندين من عبر البحار. وكان هؤلاء الرجال معلَّقين سوية بشكل غامض على شكل مجاميع، واحتفظوا بمستشارهم الخاص حول خططهم المستقبلية، التي منها وكمسألة واقع، علموا القليل جداً في الحقيقة. ولكن من الملاحظ أنهم زودوا أنفسهم بأغطية ضد البرد القطبي، كما أنهم تركوا دراسة اللغة العربية من أجل الفارسية، وربما يلتقي موكبهم في دائرة خزانة الميدان في أي يوم من الأسبوع وينفقون الروبيات من أجل الفارسية. وفي أواسط شهر كانون الثاني، ومن أجل استكمال الغموض، وصل الجنرال دونسترفيلي إلى بغداد لقيادة فرقته من المغامرين إلى المجهول.

كان كلاماً مشتركاً الآن بأنَّ اتجاه «الدفع الصامت» كان بلاد فارس، وكان الاعتقاد العام هو أنهم كانوا ذاهبين لإيجاد مملكة في مكان ما في الشمال. وكانت أرمينيا هي الهدف الذي يجري الهمس عنه. وهنا كانت إشاعة في إحدى المرات لم تكن واسعة عن الهدف، على الرغم من أنَّ كساء الرومانسية، التي استثمرت به رقم ستوكي الذي طرز ببعض الإضافات الرائعة وغير التقليدية. لم يكن ستوكي ليصبح ملكاً- ولم يكن هناك تصميم للعظمة الإقليمية، ولكنه كان لإيجاد مملكة وإن لم تكن مملكة، فعلى الأقل جمهورية. وكانت أرمينيا ستصبح «دولة عازلة»، وسيتم إنقاذ ما تبقى من سكانها من الأتراك، وهكذا كانت قادرة على حمل السلاح وستتدرب وتنتظم في قوة منظمة. وهكذا دمجت البعثة الصغيرة جاذبية المغامرة العسكرية والحملة الصليبية.

كانت «قوة دنستر» تعرف القليل عن الأدوات التي سيعملون عليها إذا وصلوا

إلى القوقاز. وكانت هناك في أعلى طريق تبليس وداخل البلد بين تبليس وأرضروم وبين تبليس وتبريز، فريقٌ من متسلقي الجبال الأقوياء، كما يجري استدعاؤهم في أوروبا، وكان الجورجيون والأرمن والتتر بشكل عام في صراع فيما بينهم، ومع ذلك كان أغلبهم معادياً للعثمانيين والبلشف على حد سواء. وكان الجورجيون والأرمن في صراع حول الذي سيمتلك الأرض قبل البدء بانتزاعها من الأتراك- سواء أيمكن إيجاد أي نواة للتماسك بين هذه العناصر المتحاربة أم لا، فقد كانت مريبة جداً، ولكن تم الاتفاق بشكل عام إذا كان بإمكان أي فرد تشكيل أي نوع من النظام منهم، أو الدعوة إلى أن تكون هيئة مع الجبهة والأجنحة ذات العلاقة قادرة على العمل المعتمد، إنَّه كان الجنرال دنسترفيلي. ولكن الموقف السياسي في القوقاز كان متغيراً بشكل مستمر. وسيتولى البلاشفة في أحد الأيام السلطة، وفي يوم آخر ستكون بيد ما يدعى حكومة ما وراء القوقاز الصديقة للحلف. وكان الاتجاه العام للفوضى السياسية يمتزج مع البلشفية.

غادر الجنرال دونسترفيلي بغداد في السابع والعشرين من كانون الثاني ووصل خلال أيام عدة إلى همذان، بينما سبقه أغلب أركان حربه إلى هناك.

كان عليه عبور نحو مئتين وثلاثين ميلاً بين بغداد وكرمنشاه، أغلبها وعرة جداً، وأربعة ممرات على ارتفاع خمسة آلاف قدم. لم تكن المنحدرات الصخرية القاسية هي العائق الرئيس. إذ إنَّ بإمكان مهندسينا وخبرائنا العسكريين تحمُّل هذه العوائق. وإن الشيء الذي شل مفرزة الجند لأيام عدة في ذلك الوقت كان التربة السوداء الهشَّة، التي ستصبح بعد مطرة غزيرة واحدة غير قابلة للعبور بالنسبة للعجلات. ومن كرمنشاه ينعطف الطريق حول بيستون إلى كنغافار وهمذان، مئة وثلاثة أميال أخرى مع عبور ممر على ارتفاع ستة آلاف وسبعمئة وخمسين قدماً يجب تسلقه أو الالتفاف حوله- وتمتد المسافة بين همذان وكازفين إلى (145) ميلاً، وكان هناك ممر بارتفاع سبعة آلاف وخمسمئة قدم على الطريق. وتوجد هناك ثلاث عشرة مرحلة أخرى للخيل من كازفين إلى أينزيلي. وكان هذا الامتداد الأخير للطريق من أفضلها. منعت صعوبات النقل في المراحل الأولى أية حركة ما عدا المجاميع الصغيرة من القوات.

وحتى عندما أصبحت المنحدرات أكثر سهولة وتم تعبيد مسافة كبيرة من الأرض المستنقعية، أخذت قافلة من (750) شاحنة فورد، تجتهد يومياً على مراحل من خانقين لإطعام قوة أقل من كتيبة في همذان. وحتى الآن بعد الاعتماد على التجهيزات المحلية، كان علينا إيصال المواد الغذائية إلى أبعد ما يمكننا الوصول إليه من سكان البلد. كانت هناك مجاعة في بلاد فارس، إذ عبرت خلالها خمسة جيوش خلال ثمانية عشر شهراً، وكان القوقازيون والأتراك يعتاشون على البلد ويتركون الخراب وراءهم. إذ تم قطع الأشجار وحرق المحاصيل القائمة وتدمير السايلوات ولم تترك بذور حنطة لموسم الحصاد القادم، وفي ذروة هذا الأمر يأتي الجفاف. أنقذت أعمالنا للإغاثة في كرند وكرمنشاه وهمذان الآلاف من المجاعة، على الرغم من أنَّه بإمكان المرء أن يطلب ذرة كافية لسد هامش الضائقة.

عندما وصل الجنرال دونسترفيلي إلى أنزيلي على بحر قزوين، وجد البلاشفة يسيطرون عليها. وتسلم طلب استدعاء إلى محكمتهم في ليلة وصوله، ولكنه دعا اللجنة بحكمة لاستدعائه في المنزل الذي يسكن فيه. لم يكن لديه هو وفريقه الصغير من الضباط حرس ما عدا سائقي شاحنات الفورد التي جاؤوا بها من همذان. ووجدوا أنفسهم في عش زنابير من البلاشفة الغاضبين والمعادين والمرتابين، الذين طلبوا اسم دونسترفيلي وطبيعة مهمته ووجهته. وأخبرهم أنه ذاهب إلى تبليس. وأوضح أن روسيا بوقوفها خارج الحرب، قد تركت جناحه معرضاً للهجوم من قبل الأتراك وإن الحكومة البريطانية قد أوفدته للذهاب إلى القوقاز ليكتب لهم تقريراً وينصحهم في الموقف.

صاح البلاشفة بغضب وأخبروا دونسترفيلي أنهم لن يسمحوا له بالذهاب إلى باكو. كان لديهم زورق حربي يراقب السفينة التي كانت ستأخذه هو وفريقه العسكري. كانت مدافعهم مدرَّبة عليها، وإذا أبحر فإنهم سيغرقونه. قالوا: إنَّ الألمان والأتراك سيعدونه عملاً غير ودي إذا سمحوا له بالعبور. وأنهوا كل حجة جديدة، «وإن الألمان والأتراك هم أصدقاؤنا».

كل هذا كان محاولة صغيرة قام بها حلفاؤنا قبل شهر أو شهرين، والذين حملنا

السلاح أصلاً من أجلهم. يجب أنْ نتذكَّر أنَّ البلشفة كانت آنذاك حديثة الظهور. وأنها لم ترفع حتى الآن رأسها القبيح في بلاد ما بين النهرين، واعتقدنا أن البلاشفة بوصفهم مخلوقات فقيرة يريدون أن ينقذوا جلودهم على حساب أصدقائهم. نحن أيضاً منحناهم الأمان رغبة لإنقاذ ماء وجوههم، وكنا مدركين أنهم استوردوا فلسفة سياسية جديدة من الألمان إلى هذه النهاية، لكننا لم يكن لدينا شك من ظلمهم الحقيقي. كان من الصعب بالنسبة إلى ستوكي رفع يديه عن الرجال أو إنقاذهم من سلاطة ألسنتهم. على أيه حال، فإنَّ رباطة جأشه وكياسته لم تفارقه.

بالطبع، لقد وافق بابتسامة وسرور «أنا أدرك تماماً من الطبيعِي أن تكونوا أصدقاءهم. ولم يكن بمقدوركم أن تكونوا أي شيء آخر. والآن ماذا عن مرطب خفيف إلى حدٍّ ما؟»

كان هناك ثلاثة آلاف وخمسمئة بلشفي معادٍ في المدينة وبقايا من الجيش الروسي من القوقازيين، ولكن بدلاً من حجزه، أعطته اللجنة الوقود لسياراته لإعادته إلى همذان.

ثانياً

كان الجنرال دونسترفيلي متأخراً جداً لعمل دعامة من الأرمن ضد الأتراك على الرغم من أنَّ تحرير تلك الأرض غير السعيدة كان أقرب من أن يتوقَّعه أغلب المتفائلين منا.

لقد سقط المخطط الأرمني، إلّا أنَّ وجود «قوة دنستر» مع بيشاراكوف وقوته المصغرة بارتيزانسكي على طريق أينزيلي - كرمنشاه أغلقت الطريق بشكل فعَّال أمام الأتراك إلى الشمال والغرب. وكان رتلٌ للعدو قد قدم من تبريز، وكانت هناك مناوشات بين مخافرنا الأمامية ودورياتهم، ولكنهم لم يخترقوا الخط الذي نمسك به، والذي حُصّن بشكل رقيق كما كان، بين منطقة بحر قزوين وبغداد. ولقي الجنغاليون المعادون الذين كانوا في التلال في جنوب بحر قزوين، والذين انضموا إلى البلاشفة في وقت سابق من العام نصيبهم معنا.

كانت أينزيلي المفتاح الاستراتيجي إلى شمال بلاد فارس وكانت الميناء الوحيد على الساحل الفارسي في بحر قزوين الذي يوفر قاعدة للقوات مع خط مواصلات إلى الداخل. وعلى الساحل الشرقي لكراسنوفودسك، كانت نهاية الخط الدفاعي الروسي الذي يمتد بموازاة حدود بلاد فارس الشمالية، هي النقطة الحيوية. وكان بإمكان قوة معادية تمسك بهذا الخط الدفاعي تحشيد قوة في كاخكا، التي تبعد أقل من ثمانية أميال من مدينة مشهد، من أجل غزو بلاد فارس. ولكن عزم ألمانيا هنا للاختراق قد فشل. وفي وقت مبكر من الحرب، كان عملاؤها يهربون إلى تركستان الروسية ويلعبون على عواطف التركمان المعادية للموسقوفيين، بعد ذلك وعندما توقفت روسيا عن أن تصبح أمة، فازت على البلاشفة في ميرف وطاشقند، وفي المرحلة الأخيرة، كان لدينا سبب للخوف من أنها ربما يتم استدعاؤها لإعادة بناء آسيا الوسطى بوساطة سكان يضجرون من البلشفية، وهكذا فإنها إذا لم تهزم في الحرب، فإنها ستشكل بنفسها خطراً هائلاً على إمبراطوريتنا الهندية. ولكن الروس والتركمان مع كل التمدد المهم للخط من بحر قزوين شمال حدود بلاد فارس كانت ضد البلاشفة. وكانت كراسنوفودسك وأستراباد بأيدٍ صديقة. وكنا قد مددنا خط نوشكي إلى بلاد فارس من كويتا. وفي صيف عام 1918، وصل الخط إلى ميرجاوي. وكان الروس والتركمان فوق الحدود مع الحلفاء، وطلبوا منا المساعدة. وعبرت القوات الهندية خلال مدينة مشهد إلى أستراباد. وكانت كذلك لدينا حامية صغيرة في كراسنوفودسك. وطالما كانت ألمانيا تقاتل من أجل وجودها على الجبهة الغربية، كان الاحتلال الفعلي لآسيا الوسطى أمراً مستبعداً.

وفي شهر تموز 1918، أصبحت باكو مركز العاصفة. وشهدت المدينة خلال ثلاثة أشهر أكثر من ثورة. كان ثلثا السكان من التتر، والثلث الآخر من الأرمن مع عدد قليل من الروس. وفي شهر نيسان، قصف البلاشفة الروس والأرمن الحي التتري وطردوا المجلس الوطني التتري، الذي انسحب إلى ليزابيثبول. وبقي النظام البلشفي والأرمني المشترك إلى الخامس والعشرين من شهر تموز، عندما أسقط من قبل نظام برجوازي أرمني وروسي، ضد التتر أيضاً. وأرسلت الحكومة الجديدة طلباً إلى بريطانيا للمساعدة في صد الأتراك. وكان دونسترفيلي في هذا الوقت قد أقام في

أينزيلي مع الجزء الأكبر من اللواء التاسع والعشرين. وكانت القوات البلشفية التي أوقفته في زيارته السابقة قد تلاشت إلى منازلها. لم يكن الشحن في بحر قزوين تحت سيطرتنا، لكن كان لدى حكومة باكو عدد قليل من وسائط النقل وأرسلتها إلى أينزيلي. وكانت قواتنا قد ركبت بهذه الوسائط في رحلتها المغامرة. وكانت المفرزة التي يمكن أن نرسلها من الضروري أن تكون صغيرة، وتتألف من أجزاء من ثلاث كتائب، الورسسترز والوريكس وشمال ستافوردز، وكانت واحدة منها بالتأكيد لا تزيد عن نصف قوة. كانت تحشد رتلاً بهذا الحجم في النهاية على مسافة أكثر من ألف ميل من المواصلات بين البصرة وبحر قزوين كان إنجازاً مهماً، وإنَّ أي فرد على اطِّلاع بصعوبات الطريق وندرة المؤن المحلية كان سيعتقد أنها مستحيلة. ولسوء الحظ أثبتت الأحداث أنها لم تكن كبيرة بما يكفي للمهمة التي أوكلت إليها، على الرغم من أنَّها ربما تكون كافية كتصلب إذا بقيت القوات التي تساندها صامدة. وكانت القوة المحلية في باكو من العمال وبدون تدريب عسكري، وكان أغلبهم من المتطوعين الذين انتظموا في الدفاع عن المدينة، وكان عددها نحو سبعة آلاف وخمسمئة أرمني وثلاثة آلاف روسي. وفي الوقت الذي وصلنا فيه كانت معنوياتهم القتالية قد أنهكت، وكانت أعدادهم تفوق الأتراك الذين يسيطرون على السكك الحديد، وكانت في موقف يمكِّنها من تَلَقِّي تعزيزات متواصلة، وكان هناك عنصر معادٍ مهم في المدينة، وكان جزءٌ من الحامية يجري مفاوضات مع العدو.

في السادس والعشرين من شهر آب كان هجوم تركيا المقرر قد صُدَّ من رجال فورت ستافوردز والورسسترز الذين، على أيه حال، كان عليهم أن يتنازلوا عن الأرض، على الرغم من أنَّهم قاتلوا بشجاعة. وفي نهاية شهر آب كان من الواضح أنَّ تعاون الحكومة والقوات المحلية لن يكون فعَّالاً بما فيه الكفاية لتبرير إبقاء مفرزتنا الصغيرة في باكو في مواجهة الأعداد التي سيكون بمقدور العدو جمعها مع تفوقه بوسائل المواصلات. وفي الأول من شهر أيلول صدرت أوامر محددة بإخلاء القوات البريطانية. ولكن وفي اليوم نفسه هجم الأتراك مرة أخرى، وفشل حلفاؤها مرة أخرى في التعاون وكانت النتيجة هي: إنه على فوج ورويكشاير الملكي توفير غطاء للانسحاب الأرمني والروسي، وخسروا بشكل فادح.

في الثاني من شهر أيلول احتل الجنرال الروسي بيكاراكوف مدينة بيتروفسك على ضفاف بحر قزوين، وهي تبعد مئتي ميل إلى الشمال، وتَعَهّد بإرسال تعزيزات إلى باكو. وأُرسِلَت السفن من باكو لجلبهم. ووصلت المفرزة الأولى الصغيرة من قوات بيكاراكوف في الواقع إلى باكو في يوم التاسع من أيلول. وكان الخمول النسبي للعدو وهذا الوعد بإرسال تعزيزات قد أعطت حلفاءنا معنويات جديدة، وبدا في ذلك الوقت أن هناك فرصة لإنقاذ باكو، ومع ذلك، فقد تبدَّد هذا الأمل بسبب الموقف المتردد للحامية إذ كان بعض أفرادها يتفاوضون مع العدو لتسليم المدينة.

في يوم الرابع عشر من أيلول قام الأتراك بهجوم حازم في القوة، وبعد معركة استمرت ست عشرة ساعة، تحمَّل فيها البريطانيون العبء الأكبر وانسحبت قواتنا. وكانت عملية الإخلاء قد جرت بمهارة عالية ونفذت تحت ظروف صعبة جداً. وأبعدنا جميع مدافعنا والناجين من المفرزة وعددهم ألف ومئتا فرد. وبقيت باكو بأيدي العدو حتى بعض الوقت بعد انتهاء الهدنة.

إنَّ تشتت عدد من أفراد الحامية الأرمنية وانشقاقهم تحت تهديد الأتراك وتخويفهم، جنباً إلى جنب مع وجود العدو في داخلها، كانت البوابات هي السبب المباشر لفشلنا في باكو. وقد نظموا دفاعاً عن المدينة وأمسكوا بها ضد الأتراك لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر، ليتفرَّقوا عندما وصلنا استجابة لطلبهم. وبقراءة عملهم بعيداً عن مشهد الفوضى والإرباك، والجهل بالتأثيرات التي قررت ذلك، كان من الطبيعي أن يغضب المرء، ولكن يجب أن نتذكر أنهم كانوا فرقة معزولة ومنهكة وجائعة ومهددة بانتقام رهيب. إن وصمة العار التي لحقت بهم لا يجب أن تجعلنا ننسى خدمات شعبهم ككل، في السنوات الأولى للحرب، كانت الأفواج الأرمنية من بين أفضل قوات الجيش الروسي في القوقاز وساهمت بشكل رئيس بالاستيلاء على أرضروم. وفي فرنسا، كانت المفرزة الأرمنية من المحاربين الأجانب قد أُبيدت في أثناء الدفاع الباسل عن فيردون، ونال كل واحد منهم تقريباً وساماً. وفي فلسطين، تحملوا ما عليهم. وبعد انهيار روسيا ترك الأرمن وحدهم للإمساك بالبوابة في القوقاز ضد الأتراك. وقاتلوا بعناد للفترة من شهر شباط إلى شهر حزيران، وأشادت البيانات التركية على مضض ببسالتهم في الدفاع. وقد أخّروا

عملية احتلال العدو لمنطقة القوقاز وشمال بلاد فارس لمدة خمسة أشهر. وفي نهاية الحرب كان أندرانيك وفرقته الباسلة، كارثة الأتراك منذ البداية، لا يزالون يواصلون حرب العصابات في الجبال.

كانت أخبارنا الباسلة وتدخلنا المأساوي في باكو هي أول إيحاء رسمي عن وجود «قوة دونستر»، التي أثارت قدراً كبيراً من الانتقادات الجاهلة فيما يتعلق بحكمة وجودنا في بلاد فارس على الإطلاق. وتم الاعتراض بأن هذه البعثات البعيدة تعني تبديداً لا مبرر له، ولم يتم بشكل عام إدراك كم هي قليلة الوسائل التي استخدمت لتأمين أهداف كبيرة. وكان سوء الفهم المشترك بخصوص الأعداد. وإن الانتقاد العملي كان يعتقد بخصوص الجيوش أو الفرق العسكرية عندما كانت مسألة ألوية أو كتائب أو حتى أنصاف الكتائب، وفي بلاد فارس حقق الحد الأدنى من الإنفاق العسكري النتائج السياسية القصوى.

كان إرسال قوة دونسترفيلي إلى باكو قد تعرَّضت إلى انتقاد من الأوساط بوصفه مغامرة غير عملية. وكان هذا الموقف الأكثر ضعفاً وإشارة أيضاً إلى الجهل التام بالوضع. وعلينا أن نأخذ هذه المخاطر ونقدِّم كل الدعم الذي يمكن تحشيده إلى العناصر الصديقة التي كانت لا تزال تُنسِّق معنا في الصراع حتى الموت ضد البلشفية. ولو أن الحكومة القوقازية قد عملت بشكل جيد، لكان إرسال قوة دونسترفيلي لمساعدتها خطوة استراتيجية رائعة.

ووجّه النقاد أنفسهم الذين تحدَّثوا بظلامية عن الخطر الألماني على الهند، من عاصمة منطقة قزوين اتهاماتهم عن حادثة باكو، عن الطبيعة غير المستقرة لاتصالاتنا. وينبغي أن نتذكر بأنَّ هذا الجدال عن عجز قوة نهاية خط طويل وصعب من مواصلاتنا انطبق على الجانب الآخر بشكل معكوس، ووصل إلى الحضيض من جراء التهديد بغزو مسلَّح للهند.

ولكن لا يوجد شخص عاقل قدَّم فكرة عن الموضوع توقَّع غزواً من هذا القبيل. وإن أي جندي يفهم ظروف الشرق سيبتسم لصورة قوة تركية- ألمانية- بلشفية ذاتية المورد، مع اتصالات تجري وراءها، والاكتفاء من المدفعية والذخيرة المنحدرة من

خط ما وراء بحر قزوين عن طريق مشهد لمهاجمة الهند، لم تخطر مثل هذه الضربة في ذهن الألمان. وكانت آمال ألمانيا لا تزال تتركز على الاختراق السياسي وكان حلمها هو إثارة أفغانستان وقبائل البشتون على الحدود، وفي الوقت نفسه تدبر تمرداً بين شعب الهند ضد الحاكم الهندي البريطاني. وقد أصيبت هذه الآمال بخيبة أمل مستمرة وقد حصل بعض رجال القبائل الفارسية البرية على المال منها، إلّا أنّهم عملوا القليل من أجلها بالمقابل، ولم يكونوا يستجيبون بشكل غريب للتحريض على قتل المدنيين وهم نائمون.

وأثبت أمير أفغانستان طوال الوقت أنه صديق مخلص لنا وأعطى أذناً صماء للمبشرين السياسيين والجهاديين، وسيطر على العناصر المتعصبة في دولته كحاكم قوي.

ولكن الدائرة التي تهدف إلى إغواء الجنود الهنود كانت أكثر الفروع غير المثمرة من الدعاية الألمانية مع استثناء واحد هو رجال القبائل العابرة للحدود، الذين هم ليسوا تابعين للملك، وقوبلت جهودهم التبشيرية باستجابة ضعيفة. وتعلم الجندي الهندي حالاً كره الجندي الألماني، وتعزّزت العلاقات القوية التي تربطه بالضابط البريطاني بالاشمئزاز من كل فرد يشعر بعدم طهارة المقاتل. وكانت الحضارة الألمانية مكروهة الحال بالنسبة للمثقفين، كما هو الحال بالنسبة للجنود الهنود. وكان المتعلمون الهنود من الطبقات الوسطى من خلال طبيعة تعليمه وظروفه الليبرالية. كانت النزعة العسكرية والبيروقراطية هي همّه، وكان صوت التعبير الهندي قد سمع في وقت مبكر في الحرب عندما أعلن أحد أعضاء المجلس التشريعي لنائب الملك أن أي تضحية بالرجال أو المال من شأنها أن تكون حقداً، من أجل أن يكون نجاح الأسلحة البريطانية ترسيخ انتصار الحق على القوة والحضارة على الهمجية العسكرية الألمانية، والحرية المنظمة على العبودية العسكرية.

إلى هذا المفهوم أثبتت الهند الحقيقة وساهمت في فلسطين وبلاد ما بين النهرين بثلثي القوة التي طردت الأتراك. وناشدتها الإمبراطورية العثمانية، بوصفها مقاطعة ألمانية، عبثاً من أجل التعاطف معها أو تقديم الدعم لها. ولم يخدع الهنود المحمديون بالذريعة بأن الحرب كانت دينية، وتشهد تقريباً كل صفحة في هذه القصة

على شجاعة الجندي الهندي، وتفانيه وتحمله سواء أكان مسلماً أم هندوسياً فقد قام بدوره. وكنا من خلال ثباته قادرين على إلحاق الهزيمة بالأتراك. وعندما رأوا في حلب والشرقاط وضعت البقايا الأخيرة من الجيش العثماني أسلحتهم ورأى الجميع حولهم الوجوه السوداء الحازمة للجنود الهنود، وعلموا نسبة مساهمة الجيش الهندي في هزيمتهم.

كانت النهاية مفاجئة ومأساوية. وإن أولئك الذين غادروا منا بلاد ما بين النهرين في صيف عام 1918 فاتهم أسبوع واحد فقط من القتال. وكان النيباي هو الذي فتح الباب إلى حلب، ولكن هذه المرة تعرَّض الأتراك إلى الهزيمة والتوقف التام في كلا الميدانين، في فلسطين وفي بلاد ما بين النهرين. ولو أن الجنرال مارشال قد أخر الضربة أسبوعاً واحداً لأصبح الطريق إلى البحر المتوسط مفتوحاً أمامه، ولحصل على رأس سكة الحديد التركية في نصيبين بدون خسائر. ولكن خاتمة ملحمة بلاد ما بين النهرين كانت خالية من المتعة وتتعارض مع روح المبادرة الجريئة لديه والروح الهجومية لقواته. وبعمله في قلعة الشرقاط عجّل بالكارثة وقطع الدعامة الأخيرة من تحت النسيج المترنِّح من الإمبراطورية العثمانية. وفي الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول، قبل الهدنة التي تم التوقيع عليها بين الحلفاء وتركيا في موروس بيوم واحد، قام بتطويق القوة التركية المناوئة له والاستيلاء عليها على نهر دجلة بالكامل.[1]

بدأت العمليات[2] في الرابع والعشرين من تشرين الأول بالهجوم على الموقع التركي القوي في الفتحة، حيث يتدفق نهر دجلة من خلال جبل حمرين. وتم تنفيذ هذا الهجوم من الفرقتين السابعة عشرة والثامنة عشرة الهنديتين في غرب نهر دجلة وشرقه على التوالي، وبإسناد من قبل لواء الفرسان الهندي السابع على الضفة الشرقية من نهر دجلة، ولواء الفرسان الهندي الحادي عشر على الضفة الغربية. وقام هذا الأخير بمسيرة لأكثر من خمسين ميلاً وأجبر على عبور الزاب الصغير في

(1) كانت تكلفة خسائر النصر في بلاد ما بين النهرين- 4335 ضابطاً (قتلوا أو ماتوا نتيجة الإصابة بالجروح أو المرض، و 1340 من الرتب الأخرى، 93244 قتلوا أو ماتوا).

(2) عندما حدثت العمليات بعد أن غادرتُ بلاد ما بين النهرين، اقتبست الملخص الخاص بالجنرال مارشال.

مواجهة المقاومة، والقيام بمسيرة أخرى لمسافة خمسين ميلاً والقيام بإحاطة على يمين الأتراك وعلى جانبي خطوط الاتصالات في هورويش حيث انضموا إلى لواء العجلات المدرعة التابع لنا.

وبهزيمتهم على الضفة الشرقية وانسحابهم من الضفة الغربية، انسحب الأتراك إلى خطهم الدفاعي الثاني عند نقطة التقاء الزاب الصغير، وهو موقع ذو طبيعة قوية عظيمة. وفي يوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني اضطرت الفرقة الهندية الثامنة عشرة إلى العبور على الزاب الصغير وصدت جميع الأتراك الذين كانوا في شرق النهر وأجبرتهم على الانسحاب إلى الضفة الغربية من نهر دجلة، في حين إن الفرقة السابعة عشرة الهندية اقتربت كثيراً من العدو الذين كانوا الآن على الضفة الغربية.

كان القتال الذي تلا ذلك ذا طبيعة قاسية جداً. وكانت الأرض جبلية وتتخللها الوديان قد أعدّت في السابق للدفاع في صالح الأتراك، الذين قاتلوا بضراوة كبيرة. وازدادت الصعوبات التي تواجهها نتيجة الطبيعة الرملية للتربة التي أدت إلى تأخير عملية النقل، مع عدم وجود المياه باستثناء نهر دجلة ذاته.

وبعد قتال مستمر أجبرت الفرقة الهندية السابعة عشرة الأتراك على التراجع إلى موقعهم الثالث على التلال التي تحيط بالشرقاط في صباح يوم السابع والعشرين. وحاولت القوة التركية الاحتياطية طوال ذلك اليوم اختراق لواء الفرسان الهندي الحادي عشر، الذي قطع الطريق إلى الموصل، ولكن بدون جدوى، على الرغم من وصول التعزيزات التركية من الموصل وأجبرت ذلك اللواء إلى سحب جناحه الأيمن لتغطية مؤخرته.

وفي ليلة السابع والعشرين/ الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول انضم لواء الفرسان الهندي السابع إلى لواء الفرسان الحادي عشر ولواء المشاة الهندي الثالث والخمسين والتحرك إلى أعلى الضفة الشرقية بعد مسيرة لمسافة ثلاثة وثلاثين ميلاً، وكانت قادرة على تقديم الدعم للفرسان لمنع أي اختراق للأتراك نحو الشمال. وفي الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني هاجمت الفرقة الهندية السابعة عشرة بنجاح موقع الشرقاط التركي.

وفي يوم التاسع والعشرين من ذلك الشهر وعلى الرغم من الانتهاك من جراء قتالهم المستمر ومسيرتهم خلال التلال الوعرة، اندفعت إلى الأمام وهاجمت الأتراك الذين كانوا مطوقين الآن، حتى حلول الظلام.

وفي صباح اليوم الثلاثين استسلم القائد التركي مع قوته بالكامل، والمؤلفة من الفرقة الرابعة عشرة كاملة والجزء الأكبر من الفرقة الثانية وأجزاء من فوجين من الفرقة الخامسة، مع جميع مدفعيتهم والقطار والخدمات الإدارية[1].

كان الثبات والشجاعة التي أبدتها جميع القوات تفوق المديح، وكانت العامل الرئيس في هزيمة العدو العنيد الذي يسيطر على مواقع معدة بعناية في بلد وعر وصعب.

وهكذا انتهت الحملة. وحملنا الطريق الطويل إلى بغداد إلى الشاطئ الذي كان لسنوات أقصى حد لمملكة آمالنا. وغالباً ما حاربنا في بلاد ما بين النهرين ميلاً بعد ميل ونشق طريقنا ببطء نحو الشمال والغرب، وتذكَّرت الإحساس الذي وقفنا فيه على لبنان قبل عشرين عاماً، بعد المرور بالصحراء، ونظرت إلى الأسفل على أمواج البحر المتوسط الساطعة.

وبالنسبة إلى مسافر متعب، كان العبور من شط العرب إلى البحر الداخلي الأزرق تقريباً مجازياً. وكم كان التحرك ثانية بالنسبة إلى الناجين من الجيش الذي دفن موتاه في الطين والرمل في السهل اللعين! وكان أفق أذهانهم إلى الجنوب والشرق يحده تيار السد الأصغر الذي اتحد خلال أشهر إلى مشهد من المعاناة والكوارث لسنوات. وعندما عبر رواد الحملة الحاجز في الفاو في السادس من شهر تشرين الثاني عام 1914، دخلوا في مدى واسع من المياه المتجهِّمة والعدائية، وهو طريق خالٍ من الإلهام المادي والروحي كما هي الأرض التي اتسعت لهم. مرت أربع سنوات تقريباً منذ أن أسكتت مدافع أج.أم.أس. أودين البطارية التركية في الفاو، عندما حمل الجنرال/ طاوزند/ كمبعوث من الأتراك، استسلامهم غير المشروط إلى العميد البحري لأسطولنا في موروس. وإن تلك القوة التي قامت بالاجتياز العظيم، والتي كانت أعينهم مسرورة لرؤية البحر الأوروبي الوطني، يجب أن تكون قد شعرت مثل

---

(1) استسلم قائد الجيش التركي إسماعيل حقي باشا مع / 8000/ رجل.

/ زينوفون/ - وهو مؤرخ وكاتب وقائد عسكري يوناني - مع عشرة آلاف من جنوده، عندما حدَّقوا على / يوكسن/ من جبل ثيشز وأطلقوا الصرخة الكبيرة التي دوّت عبر العصور. كان هذا الصراع فقط الذي طال أمده أكثر، وكانت ثماره النصر.

وهنا يتم إنهاء وقائع الحرب هذه. وسيخبرنا مؤرخ السلام كيف أنَّ ورثة الأتراك جَنَوا حصاد تضحياتنا.

السيرة الذاتية لمترجم الجزء الثاني



الاسم: خضر علي سويد

- العنوان الوظيفي: رئيس مترجمين أقدم
- العنوان: بغداد
- موبايل: 07704538135
- البريد الإلكتروني: khidherali40@yahoo.com
- التحصيل الدراسي: بكالوريوس لغة إنكليزية - جامعة بغداد - كلية الآداب للعام الدراسي/ 1976.

الدورات والكتب المترجمة:

- دورة في سكرتارية التحرير لمدة ستة أشهر في وزارة الإعلام سابقاً.
- المشاركة في ورشة عمل حول كيفية تحرير الأخبار الاقتصادية في بيروت عام 1998.
- دورة تحرير الأخبار لمدة شهرين في دار المأمون عام 2008.

- دورة تدريبية في الترجمة الفورية في ماليزيا للفترة من 2/ 7 - 30/ 7/ 2012.
- ترجمة العديد من التقارير والمقالات نشرت في مجلتي كلكامش والمأمون.
- إعداد صفحة بالأخبار الاقتصادية في جريدة الأفق لمدة عام.
- ترجمة كتاب «بغداد مدينة السلام»، مع الزميلة لمياء عباس إلى اللغة الإنكليزية.
- ترجمة رواية «مدبرة المنزل والأستاذ»، إلى اللغة العربية، قيد النشر.
- ترجمة كتاب «أسواق أوروك» إلى اللغة الإنكليزية، (فريق عمل)، قيد النشر.
- المشاركة في ترجمة كتاب «التجربة الكورية في الاقتصاد» إلى العربية.
- المشاركة في ترجمة ملف كنز النمرود.
- المشاركة في ترجمة ملف بابل.

قائمة الصور في الجزء الثاني

- الجنرال مود
- الفيضانات
- القوارب
- طاق كسرى في المدائن
- القفاف في بغداد
- المدفعية القديمة في الحصن، بغداد
- الجنرالان بيكاراكوف وباراتوف
- طابور السيارات المتنقِّلة، والسيخ يطلقون الطوافات إلى نهر دجلة

قائمة الخرائط والخطط في الجزء الثاني :

- خارطة مطوية لأعالي بلاد الرافدين
- التقدم
- معركة محمد عبد الحسن
- نظام الخنادق التركي في الحي ومنحنى الظهراء
- هجوم السيخ السادس والثلاثون والخامس والأربعون
- معركة الخيالة في الثالث عشر في لاج
- تقارب الطرق النهرية إلى بغداد
- جبل حمرين
- عبور العظيم
- معركة الفرقة الأُولى – العظيم
- معركة الإسطبلات الأولى

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني